

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

شباط / آذار (فبراير / مارس) ١٩٧٩

٨٨ / ٨٧

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدرت مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبها ولا تعكس بالضرورة آراء
منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني

(متفرع من السادات) ، رأس بيروت - لبنان ، ص ١٦٩١ ب

تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠

برقيا : مرابحات ، بيروت .

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل.ل في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل.ل في سائر

الاقطار العربية ، ١٠٠ ل.ل في أوروبا ، ١٢٥ ل.ل في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل.ل في جميع الدول غير العربية .

الغلاف للفتان

هيباء العزاوي

المحتويات

		الصفحة
٤	محمود درويش	: سقوط امبراطورية *
٨	أيام تهز العالم *	
٢٠	هادي العلوي	: الثورة الايرانية والتشخيص الصائب لجبهة الاعداء
٢٦	الياس شوفاني	: السلام الاسرائيلي *
٦٣	حنه شاهين	: اقتصاديات السلام المصري - الاسرائيلي : توقعات واحتتمالات *
٧٥	اميل حبيبي	: المعجزة *
٨٨	كريم مروه	: ظاهرة الارتداد في مصر من انقلاب ١٥ مايو المي اتفاقية كامب ديفيد *
١١٠	هاني حوراني	: التطور الاقتمصادي والصناعي في الاردن ، واثره على تشكل الطبقة العاملة (١٩٥٠ - ١٩٥٧) *
١٣١	أديب ديمتري	: هزيمة الديمقراطية وصعود القومية الرجعية *
١٤٧	مسعود ضاهر	: فيليب حتي ، المؤرخ العربي في الولايات المتحدة *
١٦٨	جان دايه	: التفانس العصرية *
١٨١	م . ش . ع	: الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية *
٢٠٦	« شؤون فلسطينية »	: الحبيب *
٢٠٨	شهادات	: حوار مع يسرائيل شاحك : الدور الاسرائيلي في المازق *

الصفحة

وثائق

- ٢١٧ عمر أفندي البرغوتي : محاكم البدو الشرعية في فلسطين .
- ٢٤٠ مراجعات : [ميشال شيجا] فلسطين ، حازم صاغية ،
[حسين عبد الرازق] مصر في ١٨ و ١٩ يناير ،
حسين نجار .
- ٢٥١ تقارير : الثورة الإيرانية والصراع العربي - الإسرائيلي ،
حليم أحمد . أسرائيل . . . الخاسر الأكبر من ثورة
إيران ، توفيق فياض .
- ٢٦٢ شهريات : ١ - المقاومة الفلسطينية ٢٠ - المناطق المحتلة ،
١ - عبد الحفيظ محارب ، ب - ت - ف .
٣ - قضايا دولية ، سمير كرم .

شؤون أدبية

- ٢٨٨ يزهار سميلانسكي : خربة خزعة (٢) .
- ٣١٢ حسن داوود : مدخل الى النتاج الثقافي الانعزالي .
- ٣٢٧ محمد علي شمس الدين ورشة القتل .
- ٣٣١ سعيد حورانية : حمى أيتماقوف .

٣٤٤ جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية
من ١٧ / ١٢ / ١٩٨٧ الى ٣ / ٢ / ١٩٧٩ ، محمد
قدورة .

سقوط امبراطورية

سقطت امبراطورية • ليس من حظ الناس ، في كل العصور ، ان تشاهد سقوط امبراطورية ، وامبراطورا يحمل خزينة وحاشية صغيرة ليبحث عن تأشيرة دخول ، فيرفض السادة في واشنطن ، ويرحب به السادات في جزيرة صغيرة في اسوان ، وتكون المناجاة بين ملك اضاع ملكه وبين ملك باع ملك الشعب لينجو ! • وليس من حظ كل الناس ، في كل العصور ، ان تصطاد الليالي كلها في لحظة الفجر الاولى ، بين هبوط طائرة قادمة من باريس وفرار امبراطورية من غضبة ملايين تخرج الى الشارع ، وتسقولي على ذاتها التي ضيعها القمع والارهاب قرونا • ننام على ليل وعبودية ونصحو على فرح وحرية • هل كانت الامبراطورية من ورق ؟ هكذا اوحى ايقاع الانتصار بسؤال سريع • لا ، لم تكن من ورق ، بل كانت احدى القلاع الكبرى لاطلاق الشرطة في وجه الباحثين عن الرغيف ، والمأوى ، وفلسطين • كانت الجبهة الامامية الاولى في جسد الشرق الذي لا دور له في التاريخ الا ان يبقى خارج التاريخ سوقا للكوكا كولا ، والمعلبات ، وشراء الاسلحة التي تستهلك الدخل القومي لقمع النبض القومي • كانت الماضي ، واقبية التعذيب المحروسة باحدث الطائرات ، ولم تكن من ورق ، الا عندما اكملت الجماهير الايرانية شروط هجومها على القلعة • منذ عقود بعيدة وايران الاخرى ، ايران الرفض والنبض ، ايران المتقدم والاسلام الذي يستقطب الجماهير فتعطي حركة الالتفاف حوله مضمونه الثوري ، وبوصلة الخروج من الماضي الى المستقبل • منذ عقود بعيدة وايران الاخرى تستجمع قبضتها وتعد انفجارها لتطيح بالقلعة حتى تحولت الى ورق • ماذا يقول الشاعر اليوناني ؟ « الكلمات ورق والقصاصد ورق • المدينة كلها ورق • يكفي عود ثقاب لاشعالها • عود ثقاب ، عود ثقاب » •

سقطت امبراطورية • وليس من حظ الناس ، دائما ، ان تشاهد امبراطورية تنهار ، وطاوسا فارسيا يبحث عن آخر الملوك ، وعن عرش لا يثبت الا على هواء ، وعلى تصريح اميركي لا يوافق على صناعة السياسة في شوارع طهران •

هل سقط المشاه وحده ؟ ان متواليه السقوط التي بدأت من يوم يفتتح عصرا ستمتد الى كل ما له صلة بمقولة « حفظ التوازن » التي لا ترى فسي هذه القارة بشرا ينتجون ويفكرون ويحلمون ويتحررون • لا ترى فيهم الا براميل من الكاز لا دور لها في الحضارة الاحماية سكان غرب البحر الابيض من برد الشتاء • ان الهيكل يقف على اعمدة متأرجحة • فمن يسند الامبراطورية الاميركية في المشرق ؟ ومن يسند امبراطورية الامن الصهيوني على ضفاف الخليج ؟ ومن يسند امبراطورية التردد في الصراع العربي - الصهيوني الذي اسبغت على جوهره كل آيات التضليل والتزييف ليبقى ، كما هو قبل هذه اللحظة صراع الاكثر جدارة في خدمة اميركا : اليهود ام العرب ! او : من هو خليفة المشاه ، بيغن ام السادات ، ام مقاولون جدد لا يحبون اليهود ولا يحبون اليسار ايضا ؟ اسئلة تولد الآن كما تولد الفطريات ، لان الكل يضحي بشاه لم يعد له جاه ، الى درجة قد يحاول معها الكثيرون ، ممن يصيبهم انهيار ما من انهيار الامبراطورية ، ان يندسوا تحت عباءة الضميني الواسعة ، لاقتناص لحظة قد تكون موالية للانتقام من عنزية الخروج من الماضي بالتكيف مع الوضع الجديد ليكون عودة الى الماضي • اذ يبدو من المستحيل الآن ان يتقدم احد الى حلبة الصراع باسم المشاه ، ولذلك ستحاول الثورة المضادة ان تتقمص اشكالا فكرية قد لا تكون « الجملة اليسارية » ، او التزمت العقائدي ، او طرح المقارنة بين الماركسية والدين ، او البرهنة على سقوط الايديولوجيات الحديثة ، الا اسماءها المستعارة • ولاستبعاد مهمة تحديد العدو الرئيسي لاهداف الثورة الشعبية الايرانية وشعوب المشرق عامة ، سيأخذ الحديث عن صراع الشعوب ضد « الدول الكبرى » زخما خاصا منذ الآن في اجهزة الاعلام العالمية والعربية التي يصيبها من مصير المشاه نصيب • وستكون المعركة على صياغة شكل المستقبل الايراني ، الذي يؤثر في شكل حاضر المنطقة ومستقبلها ، احدي المعارك التي تضاهي او تفوق معركة اسقاط الامبراطورية •

وسقطت امبراطورية • وليس من حظ الناس في كسل العصور ان تشهد سقوط امبراطورية • لقد شاهدنا ، اكثر من مرة ، دباية تحمل مكبر صسوت ومشروع ملك في بزة ضابط تتقدم من الاذاعة وتعين الملكية جمهورية • وشاهدنا معارك وطنية ، ولكننا شاهدنا اكثر من ذلك معارك الاستيلاء على السلطة وعلى الامل • ولذلك ، ما زال طلبة المدارس يختارون الكتابة عن زمن

آخر يتمنون العيش فيه ، فليس كل واحد منهم يعرف ان الانسان ابن زمانه .
الآن ، ومنذ خروج الملايين الى شوارع المدن الايرانية وامتلاكها ذاتها وطاقاتها
يختار الجميع هذا العصر ، عصر التحولات الكبرى والخيبات الكبرى
والانتصارات الكبرى . هذا العصر الذي بدأ بثورة اكتوبر الكبرى التي دشنت
مرحلة الانعطاف الحاسم في تاريخ البشرية ، هذا العصر الذي تعيد ثورة ايران
تأكيد سمته الاساسية ، بعدما قدمت لنا التذبذبات الطارئة والسياسات الهادئة ،
او حاولت ان تقدم لنا اغراءات على امكانية اطفاء هذا البريق ، وعلى قدرة
الامبريالية على النجاة من ازمته واغتصاب سمة العصر . اليوم ايران ، وغدا
ماذا ؟ كل الاحتمالات مفتوحة لاتساع بوابة العصر الجديد ، ولشن الهجمات
المضادة للدفاع عن آخر القلاع . لقد استطاعت يد الشعب الايراني ان تفكك
الة الامبراطورية الرهيبة قطعة قطعة ، وان تلقي بمئات السنين من القهر
والاعتداء الى سلة المهملات . فالتقى فرح الفقراء الايرانيين الذاهبين الى وعد
المستقبل المفتوح بفرح الفقراء العرب الذاهبين الى معاركهم الكبيرة ، من اجل
الخبز والحرية وفلسطين معا . وبانهيار امبراطورية الشاه الاميركية -
الصهيونية - الرجعية تنهار اسوار عالية ارتفعت على فجر العرب المضطهد ،
وبتحرر المواطن الايراني من كابوس المسافك تتحرر امكانيات الشرق الاوسط من
الهيمنة الاميركية ومن الارهاب الوطني معا ، ويشتد الخناق على قلعة الغزو
الصهيوني التي لا تستخلص من عبدة الشاه الامهارة الابتزاز ، لانها بقيت
الجزيرة الوحيدة « القادرة » على حماية المصالح الاميركية . لهذا يقول حليف
السادات الاسرائيلي بيغن عن انتصار ثورة ايران بانها بداية « عصر الظلمات » ،
صحيح ، ان نور الشعوب ظلام لاسرائيل . وصحيح ، ان الفجر الجديد الطالع
في الشرق هو فجر فلسطين ، لان سقوط اية قلعة من قلاع الظلم والعبودية ، واي
تحرر لشعب من الشعوب ، هو تحرير للطريق الفلسطيني الممتد الى تحرير
فلسطين ، من العقبات والحصار ، لان القضية الفلسطينية جزء من قضية الحرية
في هذا العصر ، ولان الصهيونية احدى بقايا بقع الظلام في هذا العصر .

سقطت امبراطورية ، وليس من حظ الناس في كل العصور ان تشاهد سقوط
امبراطورية تشكل احد احجار الزاوية للهيمنة الاميركية على الشرق . ان
تكويننا جديدا للعالم يتكون في هذه اللحظات . ومهما يكن شكل ايران الغد ،
فان ذلك لا يغير حقيقة واضحة : ان العالم اليوم ليس هو عالم امس ، والزلازل
الذي ضرب امبراطورية الشاه لم يهز ايران وحدها ، فان مكانة ايران وقدراتها
وموقعها لا يتيح للكرة الارضية ان تكون كما كانت قبل زلزال ايران . كل شيء
جديد ، وكل شيء جديد . وعيدان الثقب لا يبيلها المطر .

محمود درويش

عيد فلسطين في طهران

كان الفرح الفلسطيني الكبير بانتصار ثورة إيران فرح الذين اخترقهم الفجر في أشد ساعات الليل حلكة . وقبل ان يطلع كل ابناء الشعب الفلسطيني ، في الوطن والهجرة ، على حقائق العلاقات الثورية الخاصة التي تربط ثورتنا بالثورة الإيرانية منذ زمن بعيد ، استدارت كل القلوب الى القدس التي جعلها انتصار طهران اقرب . هكذا يصوغ الفلسطينيون شمسهم من كل شعاع يطلع على الارض ، لاننا حلفاء النور والحرية . وحين يتحدث الإيرانيون عن فلسطين في مثل هذه القدسية ، فانهم يعبرون عن موقف ثورتهم العام من الظلم والاستعباد ، وعن الموقف الخاص تجاه فلسطين التجسيد المكثف لصراع العدل والظلم ، وعن فهم خاص لما ينبغي ان يقوم به الاسلام في تحرير فلسطين ، المليئة بالرموز المقدسة ، من مؤسسة العنصرية والكراهية الاسرائيلية . وحين يقوم الاخ ياسر عرفات ، قائد الشعب الفلسطيني ، بزيارة طهران في اوج معركتها مع بقايا الشاهنشاهية في الداخل ومؤامرات الامبريالية والرجعية ، فانه يقدم اشارات مؤثرة عن طبيعة العلاقات الإيرانية - الفلسطينية الاستراتيجية والسياسية والعاطفية ، وعن الامكانيات الثورية الهائلة التي تفتحها ثورة ايران لنضال الشعب الفلسطيني . وحين يرفع ياسر عرفات علم فلسطين في أفق طهران ، فانه يرفعه في أفق عالم جديد ، يتكثف فيه التعبير عن حقيقة من هو المحاصر ، تاريخيا ، في هذه المنطقة . وحين تقول ايران الثورة لياسر عرفات : « انتصارنا هو انتصاركم » نعادي من يعاديكم ونسالكم من يسالكم » ويرد عليه عرفات : « اننا ثورتان في ثورة وشعبان في شعب » ، لا يستطيع احد ان يتساءل : ماذا قدمت ايران لفلسطين ؟ لان اجابة ابو عمار واضحة : « هذه الثورة قدمت للمنطقة فجرا جديدا وعصرا جديدا » . ولذلك ، من حق ابناء الشعب الفلسطيني ان يفرحوا لا كما يفرح الآخرون ، فانتصار ايران انتصار واضح لعملية تقدم الثورة الفلسطينية من التمسر وانتصار لتحالف ثورتنا مع الشعوب في كفاحها من اجل الحرية والتقدم الاجتماعي والتحرر . وعلى المستوى المباشر ، كان اول قرار اتخذته السلطة الثورية الإيرانية في مجال العلاقات الدولية هو بتر آخر علاقة بين ايران واسرائيل ، وتحويل مقر البعثة الاسرائيلية في طهران الى مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية بحضور الاخ ياسر عرفات . ويأتي هذا القرار بعد اعلان الثورة الإيرانية ان اسرائيل لن تحصل على نقطة نقط واحدة من ايران . هكذا استقبلت ايران قائد الثورة الفلسطينية : اليوم ايران وغدا فلسطين ، وحين تتحول زيارة قائد الثورة الفلسطينية الى عيد من اعياد ايران ، فليس ذلك لان ياسر عرفات هو الزائر الاول لايران الثورة ، بل لانه الناصر الاول الذي تحالف مع الشعلة الإيرانية منذ البداية ، ولانه ... من فلسطين .

ايام تهز العالم

الاربعاء ١٩٧٨/١/٣١

- قال آية الله الخميني : « السادات خادم اسرائيل » *
- قام « الحرس الامبراطوري » بعرض مفاجيء في شوارع طهران ، وقصد قالت مصادر دبلوماسية ان هذا تحذير علني للامام الخميني ، يهدف الى ان الجيش لا يزال سيد نفسه *
- غسل متطوعون الشارع الممتد من مطار طهران الى مقبرة «بهجة الزهراء» بالماء والصابون ، استعدادا لاستقبال الخميني *
- المقر الذي اعد لاستقبال الامام مؤلف من غرفة واحدة متواضعة ، لا مناظيد فيها ولا مقاعد ، باستثناء ثلاث سجادات * تقع هذه الغرفة في احدى مدارس البنات ، وقد ضمخت طوابقها بماء المورد *
- ذكرت وكالة « اليونايديبرس » انها تلقت مكالمة من مجهول قال فيها : « سنفعل كل شيء من أجل ايقاف رحلة الخميني » *
- كتب مراسل صحيفة « هيرالد تريبيون » : ان مجموعة من الشباب كانت تحيط برجل يحمل في يديه قنينة كازون وبنزين وكاز وخرقة قماش ، وكان الرجل يحاضر بهدوء حول افضل مزيج لكوكتيل المولوتوف *
- وكان محاضر اخر يتحدث لمجموعة اخرى عن كيفية التصرف عند انتزاع بندقية من يد جندي او شرطي : « استعمل كل رصاصة لقتل جندي آخر ، عندئذ تحصل على ٢٠ رصاصة اخرى » *

الخميس ١٩٧٩/٢/١

□ قال آية الله الخميني : « لقد ولى عهد الملكية » * « اطلب من المثقفين والقادة واحزاب المعارضة ان يبقوا متحدين مع الحركة الدينية » * « سأضرب هذه الحكومة، وسأقدم أعضاءها للمحاكمة » * « اننا لسنا ضد السينما، ولكننا ضد الاباحية في الفن » *

□ قال شاهبور بختيار انه سيبقى في الحكم على الرغم من مطالبة الامام الخميني باستقالته *

□ قالت الملايين : « في الشتاء يأتي الربيع * اشرفت شمس ايران ، وولى شيطان الظلام الى المغرب » *

□ قالت وكالة « فرانس برس » ان عدد الذين استقبلوا الامام يقدر بخمسة ملايين ، او ستة ملايين ، أو ما يزيد على ذلك *

□ قال قطب زادة ، احد معاوني الخميني : « سيتمكن الخميني من اقناع الجيش بالانضمام الى الشعب » *

□ قطع الجيش خطوط الاتصال الهاتفية بين طهران والخارج * وقام آخرون بقطع البث التلفزيوني لخطاب الخميني فجأة ، ووضعوا بدلا عن ذلك صورة الشاه مصحوبة بالنشيد الامبراطوري *

□ قال هودينغ كارتر ، الناطق بلسان وزارة الخارجية الاميركية « اننا نرغب بشدة في عودة الاحوال السلمية الى ايران » *

□ قال انور السادات : « لن اسمح ابدا بظهور آيات الله مصريين ! »

الجمعة ١٩٧٩/٢/٢

□ قال آية الله الخميني : « اننا ننظر الى بختيار على انه انسان عادي » * « اننا نريد جيشا وطنيا ، لا جيشا عميلا » *

□ قال شاهبور بختيار : « ان عودة الخميني لا تعني لي شيئا » * « سأفتح حوارا مع الخميني ، ولكن بشروطي انا » * « خطر الخميني في الداخل اقل منه وهو في الخارج » *

□ راح الشبان يلوحون بأيديهم للامام ، فيرد التحية بيد واحدة احيانا ، وبكلتا يديه في احيان اخرى * وعندما بدأوا يلقون اليه بقبعاتهم كان يبتسم برضى ، ثم يتلقفها ويعيدها اليهم بجذل *

□ ذكرت « اليونايتهبرس » ان منظمة تطلق على نفسها اسم « منظمة حماة

الدستور « هددت النواب الذين استقالوا من المجلس بالقتل اذا لم يعمدوا الى سحب استقالاتهم » .

□ قال بعض المراسلين « ان الشعب الايراني يتحدث عن فلسطين حديثاً الوثائق من تحريرها بعد انتصار الثورة الايرانية » .

□ كتبت صحيفة « دافار » الاسرائيلية « ان الجنرالات في ايران قد يقررون انه لم يعد هناك مجال للتسوية امام الصراع ، وانه حان الوقت للعمل ضد مؤيدي الخميني ووضع حد لتصريحاته حول عدم شرعية حكومة بختيار . . . نتيجة تلك التطورات قد تخرج ايران مخربة وجريحة . ولكن لا شك انها ستكون في حالة افضل من احتمال سيطرة الخميني . . . واذا حكم على حكومة بختيار ان تخلي مكانها للانقلاب فان الانقلاب العسكري افضل من الانقلاب الديني » .

□ ياسر عرفات : « لن تتوقف آثار انتصار الشعب الايراني عند حدود ايران، بل ستمتد لتضرب الوجود الامبريالي - الصهيوني في فلسطين . انهيار شاه ايران هو انهيار لكل الانظمة العميلة للامبريالية الاميركية ، والتي تعمل لعقد تسوية استسلامية على حساب الشعب الفلسطيني وثورته المسلحة » .

السبت ١٩٧٩/٢/٣

□ قال آية الله الخميني : « نفضل حل مشكلاتنا بالطرق السلمية ، لكن اذا استمر بختيار بتأييد امريكي وبريطاني ، وحتى باستدعاء قوات اسرائيلية ، ضد ارادة الامة ، فسنعمل ما تمليه الضرورة » .

□ قال بختيار : « اذا اراد الخميني تأليف حكومة اسلامية في مدينة قم المقدسة فاسمح له بذلك . . . سيكون لنا فاتيكاننا الصغير . الا أنني ، فعليا ، لست على استعداد للسماح له باقامة حكومة فعلية ، وهو يعرف ذلك » .

□ ذكرت الصحف الايرانية ان آية الله الخميني ثبت عمدة طهران في منصبه وكان العمدة قد اعلن استقالته قبل مقابلة الامام ، وصرح بأن حكومة بختيار غير شرعية .

□ قال البروفسور بني صدر ، المستشار الاقتصادي للخميني ، انه سيعيد النظر في جميع اتفاقات النفط ، بعد ان يتسلم منصبه .

□ صحيفة النجم الاحمر السوفياتية اتهمت اجهزة المخابرات الاميركية بانها وراء مجموعة من العسكريين يزعم افرادها انهم شيوعيون . . وتستهدف خلق مصادمات مع الجيش لاطلاق يد الزمرة العسكرية الرجعية .

الاحد ١٩٧٩/٢/٤

□ قال آية الله الخميني : « ادعو بعض القادة العسكريين الى استعفاء انفسهم ، وذلك من اجل مصلحتهم ومصلحة الشعب » .

□ قالت بعض المصادر ان الامام حدد مهلة ، اقصاها شهر واحد ، لسقوط حكومة بختيار .

□ قال بختيار : « لن اخضع للعنف وللمسيرات ولقنابل المولوتوف ، وسنرد بالرصاص على الرصاص » .

□ قال ابراهيم يزدي ، احد المقربين من الخميني : « يستطيع بختيار البقاء رئيسا للوزراء في احلامه فقط ، كما كان هيلاسيلاسي امبراطورا لاثيوبيا في ايامه الاخيرة » .

□ قال مقربون من الامام ان حكومته ستكون من ذوي الخبرة في الحقل السياسي .

□ ذكرت بعض الاتباء اخبارا عن اقامة « محاكم شعبية » في عدة اقسام من البلاد .

□ كتبت « هيرالد تريبيون » اعترف مسؤولون في البنثاغون ان حكومة ايران تواجه صعوبات في دفع رواتب ٥٠٠ الف عسكري ايراني ، وأشار المسؤولون الى ان هذا يمكن ان يؤدي الى تحويل الجيش الى معسكرات متقاتلة .

□ جاء هذا الاعتراف بعد الاعلان عن الغاء صفقات سلاح مع الولايات المتحدة تبلغ قيمتها ١٢ مليار دولار .

□ الرئيس الاميركي جيمي كارتر وجه انتقادا لوكالة الاستخبارات المركزية بسبب النقص في انجازاتها بالنسبة للاضطرابات التي شهدتها ايران .

الاثنين ١٩٧٩/٢/٥

- قال آية الله الخميني : « اني أطلب رأي الإيرانيين في الحكومة المؤقتة ، وأريدهم أن يعبروا عن هذا الرأي بمسيرات وتظاهرات في طول البلاد وعرضها » .
- الامام الخميني يكلف بازركان بتشكيل الحكومة الجديدة ، وبازركان هو هو احد اتباع رئيس الوزراء الراحل محمد مصدق .
- قال بختيار : « لا توجد سوى حكومة واحدة ، وشرعية واحدة في ايران » ، ثم هدد بازركان بالاعتقال اذا أجرى اية اتصالات .
- قال بازركان : « الحكومة الجديدة لن تكون حكومة ظل ، بل ستتولى مقاليد الامور بالفعل . اننا جادون تماما ، ومصممون تماما » .
- هددت منظمة تدعى « المناضلون من اجل الدستور » بأنها ستغتال جميع اعضاء الحكومة المؤقتة .

- اندرو يونغ ممثل الولايات المتحدة في الامم المتحدة : « اي شخص يدافع عام ١٩٧٩ عن ملكية مثل ملكية الشاه لا يدخل في حسابه السنوات المائتين والخمسين من التاريخ » .

- ياسر عرفات : « ما يجري في ايران ضربة هائلة للامبريالية العالمية ، بقيادة الولايات المتحدة ، التي راهنت دائما على ايران الشاه وزودته بترسانة رهيبه من الاسلحة ليكون الذراع الضاربة ولتصبح ايران اهم حلقات الدقاع الاميركي في حلف الناتو وغيره من الاحلاف الاميركية » .

الثلاثاء ١٩٧٩/٢/٦

- استولى رجال الثورة على مقاليد الامور في مدينة اصفهان ، بعد اجبار الجيش على مغادرتها .
- قال بختيار : « لن أرضخ للمتظاهرين ، ولا للحكومات التي تخلقها خيالات الشعب » . وأضاف : « اقبل الحكومة التي شكلها الخميني كمجرد نكتة فقط » .
- ظهرت دوريات ليلية في طهران ، مؤلفة من ميليشيات شعبية .

- قال الدكتور يزدي ، احد المقربين من الخميني : « لقد مضى زمن حل المشكلات بواسطة انقلابات عسكرية » .
- ظهرت طائرات مقاتلة في سماء طهران اثناء التظاهرات المؤيدة لبازركان .
- احد المراسلين الاجانب الذي وصف المتظاهرين بانهم يقودون بلادهم بقطار سريع نحو العصور الوسطى ، رد عليه احد المتظاهرين بقوله : انفسنا نقود انفسنا نحو الحرية سيدي .
- مردخاي فور ، رئيس اركان سابق للجيش الاسرائيلي « ان المفهوم الذي يستند اليه مشروع بروكينغز هو مفهوم خاطيء فالاحداث في ايران ستجبر الاميركيين على تغيير سياستهم ، ذلك ان دولة اسرائيل هي القوة الموحيدة التي تستطيع اعادة الهيمنة الاميركية الى المنطقة » .
- قال مسؤولون امريكيون ان رحلة براون الى الشرق الاوسط تستهدف التأكيد لرؤساء حكومات الشرق الاوسط ان الولايات المتحدة تنوي ان تلعب دورا قويا وثابتا في المنطقة . وان ترددها حيال ايران يجب عدم تفسيره على انه علامة للضعف .

الاربعاء ١٩٧٩/٢/٧

- تم الاستيلاء على مدينة شيراز .
- الثوار يوزعون بطاقات خاصة، ويقومون بمهام الشرطة لمكافحة الفوضى .
- قالت رئاسة اركان القوات الايرانية المسلحة ان على السياسيين وحدهم تدبير امور الازمة بعيدا عن العسكريين .
- مؤيدو الخميني يحتلون مباني اربع وزارات .
- وزارة الخارجية الاميركية قالت انها ستستمر في اعتبار اردشير زاهدي صهر المشاه ، سفيراً معتمدا لايران في الولايات المتحدة .

الخميس ١٩٧٩/٢/٨

- نزلت الملايين الى الشوارع تلبية لدعوة الخميني الى التظاهرات .

- حمل بختيار على الامام الخميني قائلاً انه « رجل غيور وجاهل وكاذب ومدمر » ، وهدد بالقاء القبض على حكومة بازركان اذا حاولت الانتقال الى مكاتب الوزارات *
- قرأ رجال الدين بياناً جاء فيه : ، اخطرت كل حكومات العالم ان الشعب لن يفي ، منذ الآن ، بأية اتفاقات وعقود لا تؤيدها الحكومة المؤقتة في ايران *
- حمل بعض العسكريين المؤيدين للخميني لافتة كتب عليها : « بختيار ، ان كانت لك السيطرة على القوات المسلحة ، فماذا يفعل الجنرال الاميركي هايزر في ايران ؟ » *
- اقيمت محطة ارسال تلفزيونية صغيرة ، بثت اخبار وصور الخميني *
- أعلن زعيم حزب « توده » (الحزب الشيوعي الايراني) وقوف حزبه « بكل قوته وراء الامام آية الله الخميني » *

الجمعة / ١٩٧٩٢/٩

- قال بازركان ، موجهها كلامه الى بختيار : « اذا كنت انساناً فأطع ارادة الشعب واستقل » *
- فرقة « المالدون » الموالية للشاه تهاجم قاعدة جوية أعلن افرادها مبايعتهم للخميني *
- بازركان يعلن برنامج حكومته *
- أعلن بختيار استعداده لاجراء حوار مع بازركان *
- صرح رئيس هيئة اركان حرب الجيش الايراني عند رؤيته صوراً لافراد من الجيش في تظاهرة مؤيدة للخميني : « هذا مونتاج خسيس » *
- الملك الحسن الثاني - ملك المغرب : « اذا ما انهارت ايران فان عملية زعزعة الاستقرار من اقصى العالم الى اقصاه ستسير بسرعة متزايدة * ان التآكل المستمر سيصيب دول الخليج والكويت والسعودية ، حيث الاماكن المقدسة ، اذا ما استقرت الشيوعية في ايران * ان تسعمائة مليون مسلم يرتعدون الان » *
- شليزنغر وزير الطاقة الاميركي :
« ان خسارة النفط الايراني قد تكون اكبر خطورة على العالم من الخطر

العربي على النفط عام ١٩٧٣ « •

المسبت ١٩٧٩/٢/١٠

□ قال آية الله الخميني ، اذا لم يوضع حد لاعمال القتل ، واذا لم تعدد فرقة الحرس المهاجمة الى ثكناتها ٠٠٠ فانه سوف يتخذ قراره الاخير ، وسوف تقع المسؤولية على عاتق المعتدين •

□ قال بختيار : « من الصعب التفاوض مع ناس يقودهم زعماء ملتزمون كالحمير » • « حاشية الخميني نوع من حديقة الحيوانات » •

□ المدنيون المسلحون يضطدمون بالحرس الامبراطوري في قتال ضار ، ويقتادون عشرات الجنود الى « سجن الشعب » •

□ سقوط ١٥٠ قتيلًا ، و ٣٠٠ جريح ، والمتاريس في كل زاوية •

□ هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركي السابق : « على الولايات المتحدة وضع برنامج سياسي يمكن ان تثق به الدول التي تتعرض لتهديدات » •

□ ياسر عرفات ، في رسالة الى الامام الخميني : « لحظة تاريخية نشعر فيها بان ساعة تحرير المقدسات في فلسطين قد اقتربت كثيرا وكثيرا جدا بان الله » •

« تحياتي وتمنياتي القلبية داعيا المولى عز وجل ان يوفقكم في الجهاديين الاصغر والاكبر وانتم تقودون المسيرة التاريخية لشعبنا وجماهيرنا الشقيقة في ايران البطلية ، التي ستكون ملحمتها وطريقها بان الله الى اسوار القدس » •

وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) : تلقى ياسر عرفات رسالة من منظمة « مجاهدي الشعب » الايرانية الذين خرجوا مؤخرا من سجون المشاه تشكر فيها المقاومة الفلسطينية ، وحركة فتح بصورة خاصة ، على المساندة التي قدمتها لهم في كفاحهم ضد نظام المشاه • وتعهدوا بان تقطع ايران الامام الخميني كل صلات لها باسرائيل ، وعرضوا ان تكون ايران قاعدة للثورة الفلسطينية اذا ضاقت عليها ساحة العمل •

الاحد ١٩٧٩/٢/١١

□ قال آية الله الخميني : « يجب توخي اليقظة التامة على الرغم من اننا على عتبة النصر » •

- بختيار يقدم استقالته ، ويختفي .
- جاء في بلاغ للجيش : « للحيلولة دون انتشار الفوضى ، ولنزع اراقسة الدماء ، قرر المجلس الاعلى للجيش الاحتفاظ بحياده » .
- اقتحم الثوار مبنى السفارة الاسرائيلية في طهران ، ثم كتبوا على واجهته بالخط العريض : « سفارة فلسطين في طهران » .
- ذكرت صحيفة « الجمهورية » القاهرية ، ان سفارة مصر في طهران تعرضت لهجوم من جموع المتظاهرين .
- ياسر عرفات :

« سماحة الامام آية الله روح الله الخميني - دام ظله . وما رميت ان رميت ولكن الله رمى . ان انتصار الثورة الايرانية الذي بلغ الذرى العظيمة في التاريخ الانساني هو انتصار مدو للثورة الفلسطينية ، فهذا الانعطاف التاريخي هو بداية عصر جديد في المنطقة يحمل بشائر انتصار شعوب هذه المنطقة . ان ضربات الشعب الايراني بقيادةكم المؤمنة الشجاعة هي اذار ونذير للامبريالية الاميركية والصهيونية والاستعمار والقوى العميلة . وهذا الاشعاع الثوري الهائل الذي يتفجر من ايران المجاهدة ينير بضياهه سماء وطننا الحبيب الغالي : فلسطين » .

□ مكالمة تليفونية بين قائد الثورة الفلسطينية ابو عمار ، وبين مندوب قائد الثورة الايرانية الامام الخميني :

« ابو عمار : ان قلبي وقلوب شعبنا العربي الفلسطيني في فلسطين المحتلة وفي الشتات تنبض في صدر البطل آية الله ، آية الثورة ، وقائد المسيرة ، آية الله الخميني .

مندوب الخميني : ثورتكم هي قلب ثورتنا وهي مهجة القلب . منذ اللحظة الاولى وانتم معنا . شعاراتكم على حيطان طهران وصوركم في ايدي مناضليننا . ابو عمار : كيف الحال عندكم ؟

مندوب الخميني : نحن على مشارف النصر . الان اكلمك والانفجارات وزخات الرصاص تدوي . كل شاحنة وكل عربة ركاب مלאها العمال والطلاب باكياس الرمل تحولت الى متاريس ثابتة ومتحركة . اننا نتقدم . لقد بدأ شعبنا هجومه العام . انتظروا اخبارا مفرحة في الساعات المقبلة .

ابو عمار : اعتبروا هذا الجسد الفلسطيني متراسا لكم . ان قوتنا بكم لا حد لها ، واعتزازنا بنضالكم البطولي اصبح الخبز اليومي لمقاتليننا . كم اتمنى

ان اكون الى جانب ابي وقائدي آية الله . هل تسمعي ؟

مندوب الخميني : نعم اسمعكم .

ابو عمار : ثورة حتى النصر . مندوبكم وصل .

مندوب الخميني : ومندوبكم الخاص ايضا ومعه الرسالة . ونحن على مشارف النصر . رسالتكم الاخيرة افرحتنا كثيرا . لقد ترجمت وطبعت ووزعت كمنشور الى اللقاء فوق جبل المكبر في القدس الذي يذكره آية الله دائما . الى اللقاء يا ابا عمار . ان سفارة احدى الدول ستكون مكتبا لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ابو عمار : ثورة حتى النصر .

□ مظاهرات في الخرطوم ، بقيادة اتحاد طلبة جامعة الخرطوم ، تحمل صورا لآية الله الخميني وتردد شعارات مؤيده له ، وتستنكر الموقف المصري والمغربي والاميركي تجاه الموقف في ايران .

□ اكد الحزب الشيوعي القبرصي ان عتادا حربيا واجهزة تجسس اميركية تم نقلها من ايران الى قواعد عسكرية بريطانية في قبرص .

الاثنين ١٢/٢/١٩٧٩

□ قال آية الله الخميني : « الآن ، وبعد سقوط جهاز الدكتاتورية ، يجب ان لا نترك للعدو فرصة ليقول ان الفوضى قد عمت » .

□ تقدمت مجموعة من الثوار ورجال الدين الى قصر نيافاران ، فسارع الحرس الى الاستسلام ، وبكى العديد منهم وهم يتركون دباباتهم ويسلمونها للثوار . وكان هؤلاء الحراس قد اقساموا ، البارحة ، ان يدافعوا عن القصر حتى الموت .

□ انتقل مهدي بازرگان الى مقر رئاسة مجلس الوزراء لياشر مهماته .

□ قال احد الوزراء المستقيلين : « بختيار حي ، وهو يختبئ في مكان ما من طهران » .

□ اندفعت الجماهير نحو سجن « أفين » السياسي ، واطلقت سراح جميع سجنائه .

□ تحول المقر الرئيسي لشرطة الشاه السرية « المسافك » الى شعلة من نار .

□ القاء القبض على حاكم مدينة طهران العسكري ، ومحاكمته .

□ مقتل قائد القوات البرية الايرانية بدري لورستاني ، وكذلك الحاكم

العسكري لاقليم خوزستان .

□ حواجز لاشبال تتراوح بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، ترشد المارة ،
وتدقق في اوراق السائقين .

□ الجنود يحتشدون امام مقر الخميني ، ويصرخون : « نحن اشقاء » ، ثم
يحتضنون الجماهير .

□ براون وزير الدفاع الاميركي : « يجب ان لا يشك احد في رغبتنا وقدرتنا
على ان نكون اصدقاء اوفياء » .

□ دافار الاسرائيلية : « كما فعل المشاه في شهور الصيف والخريف الماضية
فعل قادة الجيش الايراني فكانوا لينين اكثر من اللزوم الى ان انتهت في النهاية
قدرتهم على الردع . ولن تكون اسرائيل مسرورة طبعاً من انتصار الخميني ،
وعلينا ان نعيد النظر في واقعنا كما ستفعل بقية دول المنطقة وخصوصاً عندما
تتحول تصريحات الخميني الى سياسة فعلية » .

الثلاثاء ١٣/٢/١٩٧٩

□ قال آية الله الخميني في نداء موجه الى الامة بعد الانتصار الساحق
للثورة : « اهنيء الامة الايرانية المسلمة باسقاط امبراطورية دامت ٢٥٠٠ عام ،
وادعو الشعب لكي يستعد لمواصلة النضال . . . عليكم ان تظلوا موحيدين
متضامنين ، فان طبقة اجتماعية بمفردها لا تستطيع تذليل كافة الصعوبات التي
تقوم على طريق انجاز النصر الكامل . لا تدعوا شعلة الثورة تنطفئ ، فقد
ورثنا بلداً في حالة ضياع . وعليكم التزام الهدوء والنضال ، فالمرقت ليس
مناسبا للقيام بالمظاهرات والاستسلام للفوضى ، وعلى الشعب ان لا يعتقد بان
النصر يعطيه الحق في الفوضى . . . اظهروا للعالم انكم قادرون على اختيار
طريق السعادة دون حقد او فوضى ، ولا تنهبوا ، او تصبوا المذاب على
اعدائكم ، فسوف يحاكمون وفقاً للشريعة الاسلامية . لا تهاجموا رجال الجيش ،
أو أقسام الشرطة ومراكز الدرك ، لانهم اصبحوا معنا ، وبيننا ، ونحن معهم ،
يجب جمع كل الاسلحة الموجودة في ايدي الشعب وتسليمها الى ائمة المساجد
واللجان المسؤولة . ان بيع الاسلحة محظور ، وليس من احد سوى اللجان
الثورية يحق له حمل اي سلاح . ان الاسلحة هي ملك الشعب ، ولا يجب ان
تقع في ايدي اعداء الاسلام . وان ايدي الخونة الذين ما يزالون يتآمرون ،
وأولئك الذين يحاولون ترويع الناس ، أو الذين يقتلون ويدمرون ، سوف تقطع
. . . ايران تعيش اليوم أدق لحظات تاريخها ، فلا تدعوا اعداءكم يتسللون الى
صفوفكم ، واكتشفوا اولئك الذين يمتنعون عن تسليم السلاح . ان الدولة

يجب ان تصان ، وان الفوضى يجب ان تنتهي . واحرصوا على ان لا تختلفوا ،
فالعقبات امامنا عديدة ، وعلينا ان نرسي دعائم ايران الاسلامية الانسانية .
نحن جميعا اشقاء ، ولا يجب ان تقوم مشكلة بين الشيعة والسنة . ويتعيّن
ان تكون الاقليات الدينية واثقة من اننا لا نضمّر لها شرا ، وسنتمكن من العيش
معا ، بحكمة وبعدل ورضى . سوف نسعى لتحقيق رفاهية كل الشعب ، وسيعيش
الجميع معنا عيشة طيبة » .

□ تم المقاء القبض على شاهبور بختبار ، وعلى بقايا الجنرالات القارين .
□ اعضاء حكومة الشاه المعتقلون يتبادلون الاتهامات بعضهم ضد بعض على
شاشة التلفزيون الايراني .

□ انترناشيونال هيرالد تريبيون : رفضت تركيا فكرة انزال مظليي البحرية
الاميركية في اراضيها ، من أجل ارسالهم الى ايران لانقاذ الرعايا الاميركيين .
□ بيغن في خطاب لوفد النداء اليهودي الموحد مشيرا الى احداث ايران :
« الاضطراب يحيط بنا من جميع الجهات . ويتكون لدى الانطباع ، احيانا ، بان
العصور المظلمة قد عادت . وآنني امل أن الاحداث الاخيرة ستجعل العالم الحر
يدرك بصورة افضل دور اسرائيل كحصن مستقر للحرية والديموقراطية » .

الاربعاء ١٤/٢/١٩٧٩

□ الامام الخميني يدعو الى تسليم السلاح ، وعدم التعرض للسفارات
والاجانب .

□ مسلحون يقتحمون السفارة الاميركية في طهران ، ويحتجزون السفير
الذي اطلق سراحه بعد تدخل الخميني ، حيث طوقت مجموعة تابعة للامام
المهاجمين ، وكانت الحصيلة اربعة قتلى وبعض الجرحى .

□ « بقايا » رجال السافاك يهاجمون مبنيين للاذاعة ، ثم يلوذون بالفرار .
□ اعلنت اذاعة عبادان في تعليق لها ان لا مكان للصهيونية بعد اليوم في
ايران ، ولا سفارة لاسرائيل في ايران ، ولا نفط بعد اليوم للصهيونية .
□ معارك عنيفة بين جيوب « السافاك » ورجال الثورة في تبريز .

□ الاعلان عن تشكيل حزب « محبي الوطن الايراني » ، وهو حزب سيعمل
من أجل تشكيل حكومة ديمقراطية في ظل جمهورية اسلامية يقودها الخميني .
□ علا النشيد الوطني الفلسطيني من « اذاعة صوت الثورة الايرانية » ، وقد
علق المذيع قائلا : « هذا تعبير عن الصداقة والتعاضد الايراني مع القضية
الفلسطينية » .

الثورة الايرانية والتشخيص الصائب لجهة الاعداء

تتحدد ثورة الشعب الايراني المراهنة بقيادة الخميني ارتكاسا لمواقع طويل الامل عاشته بلاد فارس تحت حكم الاسرة البهلوية . وهي تندرج بذلك في تيار الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار الغربي بشكليه : القديم - الانكلو فرنسي ، والجديد - الامريكي . ومن حيث القيادة ، تأتي الثورة استمرارا لتيار متفرد يبدأ بحركة المشروطة التي قادها الملا محمد كاظم الخراساني في مفتتح القرن العشرين من مدينة النجف ضد الاسرة القاجارية للمطالبة بالحكم البرلماني ، وهو ما تعنيه كلمة « المشروطة » اي الحكم المقيد بدستور وبرلمان ، ويتواصل في ثورة العشرين العراقية التي قادها اتباع الخراساني وتلامذته من مدينة النجف ايضا ، ضد الاحتلال الانكليزي للعراق . ومن ثورة العشرين تفرعت ثورة ايرانية مجهضة هي ثورة الكاشاني - مصدق في اواخر الاربعينات واول الخمسينات . والكاشاني هو السيد ابو القاسم ، المرجع الديني الكبير الذي اشترك مع والده السيد مصطفى الكاشاني في ثورة العشرين ثم هرب بعد فشلها ومقتل والده الى ايران ليواصل من هناك ثورته على الانكليز . هذا قبل ان يقع في حبال الدبلوماسية الامريكية التي حولته ضد مصدق ، وانتهت به من زعيم شعبي يحمل على الاعناق الى فرد عادي لا قيمة له قضى شيخوخته مغمورا لا يسأل عنه احد ، ومات فلم يمش في جنازته احد .

الثورة الايرانية الجديدة خطوة اخرى على هذا الدرب الوعر ، تقودها زعامة تتصل من حيث هويتها بذلك المجرى الثوري الذي بدأ في النجف عند اوائل القرن الحالي . وحتى الآن ، فقد اثبتت هذه الثورة قدرتها على مجابهة

الدبلوماسية الامريكية وحين نذكر الدبلوماسية الامريكية فانما نعني بذلك القوة الخارقة التي استدرجت اكثر من تسعين بالمئة من الحركات الوطنية لما بعد الحرب العالمية الثانية ، واستطاعت ان تلوي رقاب الاغلبية الساحقة من الزعماء الوطنيين في القارات الثلاث لتحويلهم من « رؤساء دول » الى « حكام اقاليم » . لكن قيادة الخميني تبرهن انها ادهى من الامريكان . ومن هنا منشا الاستقطاب بين الطرفين ، وهو استقطاب يمنع ليس فقط من التفاهم بل ومن محض الكلام ! لان الكلام مع الامريكان له درب واحد يؤدي الى نتيجة واحدة هي مصافحة الشاه ، وهو ما انتهت اليه مباحثات المرجوم ابو القاسم الكاشاني مع افسرل هاريمان . ويؤكد لنا مجرى الاحداث ان ما حدث للثورة الايرانية هناك لن يتكرر هنا . فالخميني يجلس على اكداش من التجارب المرة لا تسمح له بان يتذوق « حلوة المساومة » . وقد تم ، منذ انطلاقة الثورة ، تشخيص العدو من منطلق واقعي حصيف يرتبط بمستوى رفيع من الوعي السياسي .

لكن الدبلوماسية الامريكية ، وهي اذكي دبلوماسية في العصر الحديث ، تبقى مهما يصبها من انتكاسات في اية جولة متشبهة باداة الاستدراك ، وهي لا تفقد رشدها مهما كانت شدة الصفعة . وعند هذه النقطة يمكن التساؤل عن هوامش رافقت الثورة الايرانية وراحت تند بين المرة والاخرى فتتلاقفها وكالات الانباء الغربية وصحافة الغرب ، وفروعها في بلداننا ، في محاولات ذكية بارعة لنقلها من هامش القضية الى متنها . ولعلي لا املك ما يخولني حق اسداء النصيح لهؤلاء العمالقة الذين يهزون العروش ، لكن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويجير عليهم ادناهم ، فليسمحوا لي بان اذكهم ببعض الحقائق .

ان عدو الشعب الايراني هو الولايات المتحدة الامريكية . حقيقة معروفة لمقادة ايران . والولايات المتحدة هي عدو كل الشعوب المستضعفة ، والسارق الاول لخيرات هذه الشعوب . وهي كذلك السند الاول والاخير لنظام الشاه ، ولسائر الانظمة التي تماثله في العالمين العربي والاسلامي مسن جمهورية او ملكية . وليس ثمة من عدو يتدخل مباشرة وصراحة ضد الثورة الايرانية غير الولايات المتحدة وادواتها المكشوفة والمقنعة من الحكام العرب وغيرهم . واذا قدر للثورة الايرانية ان تفشل ، لا سمح الله ، فان فشلها لن يكون الا على يد الولايات المتحدة . ذلك ان اية قوة اخرى لا تستطيع ولو افترضنا انها ارادت ، ان تقوم بنفس الدور الذي تقوم به الامبريالية الامريكية في ايران . ومن هنا فان الحديث عن اي خطر آخر يمكن ان يهدد الثورة لا يتعدى ان يكون واحدا من اثنين : اراجيف مخططا لها ، او اوهاما ناشئة من ضعف الوعي السياسي . ولا بد ان يتطرق الى المذهب ، هنا ، موقف الاتحاد السوفييتي . وانا مع ذلك اقول ان السوفييت لا يملكون من الحوافز ، ناهيك عن الوسائل ، ما يدفعهم الى ان يلعبوا في ايران دورا سلبي ، ويمكنني القول اكثر من ذلك

ان السوفييت هم على صعيد العلاقات الدولية ، في مقدمة الدول التي ستستفيد من التغيير في ايران . ذلك ان سقوط الشاه على يد الشعب الايراني بقيادة الخميني سيعقبه بالبديهة ازالة اخطر القواعد العسكرية على حدود الاتحاد السوفياتي ، وهي خدمة عظمى تقدم لامن السوفييت . اما على صعيد العلاقة بالثورة ، فباستثناء التصريح الصحفي المتسرع الذي صدر حول قيادة الثورة وتزكية للشاه فان اجهزة الاعلام السوفييتية تلقى الان بثقلها الى جانب الشعب الايراني . وهي اذ تعلن هذا التأييد لا تجهل من يقود الثورة في ايران وتعرف جيدا انها لو انفصلت عن آية الله لتعطلت وعاد الشاه الى عزه والامريكان الى مواقعهم . وليس امام السوفييت غير هذا الخيار وهم يحرصون على وضع ايديهم بايدي المكافحين ضد الاستعمار . ومن الجهة الاخرى ، فان دعمهم يمكن ان يوفر رافدا مأمون العواقب لاية ثورة تملك قيادة واعية ، مستقلة ، قادرة على صنع قراراتها بنفسها ، وقادرة على تلمس الحدود المعقولة للعرقان بالجميل . وانه لعروف تماما ان المعسكر الاشتراكي يقف على النقيض من المعسكر الامبريالي بقيادة الولايات المتحدة . والمعسكر الاشتراكي هو جملة الدول التي تتبنى الاشتراكية الماركسية وترفض الرأسمالية بصرف النظر عن حدود واشكال هذا الرفض والتبني ، وبصرف النظر عن خلافات هذه الدول مع بعضها . وهي من هذا المنطلق تجد نفسها تلقائيا مع ثورات الشعوب من اجل التحرر الوطني .

والثورة الايرانية ، كتحرر وطني معاد للاستعمار ، لا تملك خيار المجابهة مع طرفين متناقضين الى هذا الحد وهي اذ تتحرك ضد الشاه فمن البديهي ان تكون التقيض الحاد لمعسكر الشاه ، وهو المعسكر الامبريالي الذي تقوده الولايات المتحدة ، وينحشر في داخله من هم على شاكلة الشاه من ملوك ورؤساء جمهوريات . ويعني هذا بدوره ان الثورة لا تحمل تناقضا اساسيا مع المعسكر الاخر ، وبالتالي فلا مصلحة لها في التوجه ضده . واذا اردنا ان نكون منطقيين اكثر فهي اخرج الى التحالف مع منها الى مجابهته ، وهي لا تفعل ذلك ، ان فعلته ، عن ضعف ذاتي ، بل عن ضرورة موضوعية تترتب على نفس القرار الثوري بالمجابهة مع الولايات المتحدة . ولا ينال من اهمية هذا القرار ان تتعارض وجهات النظر او حتى المصالح احيانا ، فالقيادة الواعية المستقلة تعرف كيف تتعامل مع الاصدقاء دون ضرر . ولا ضرر .

وقد يتوارد هنا حديث العقيدة .

وهي لعبة ماهرة مارسها الامبريالية في السابق ، وتمارسها اليوم ، ويلعبها في نفس الوقت فريق من المؤمنين ، او المحسوبين على الايمان ، عمالة للامبريالية او ارتباطا بمصالح الطبقات العليا ، او تزمنا دينيا خالصا لوجه

الله • ومهما اختلفت الدوافع فالنتيجة واحدة : تسخير الايمان لامور لا علاقة لها به ، من تثبيت العروش ، على اختلافها : ملكية وجمهورية ، ومن خدمة المآرب الاجنبية التي تسرح وتمرح في ديار الاسلام ، من باكستان الى الحرمين ، ومن الرباط الى جاكرتا •• وما يميز الثورة الايرانية ارتباطها بهذا الايمان ، لكن مع انفصامها عن مرتكساته ، وهو ما اغضب اقواما يحملون نفس هويتها الايمانية ودفعهم الى مصارحتها بالعداء منذ ولادتها ، والى التنادي للدفاع عن عرش البهلوي • ومعروفة للجميع بيانات الازهر الشريف في مصر - واسعافات حكام السعودية والخليج وما جاورهم للعرش الجريح •• ويبدو مع ذلك ان هناك من يعلن اغتباطه بايمانية الثورة ، لا من اجل عينها ، بل لكسي يضعها في مقابل عدوه الطبقي ، العسكر الاشتراكي • وصحافة الكويت ، المعتدلة ، شاهد على ما ندعي • ويشكل ذلك احد مكامن الخطر على ثورة ايران، وهو بحد ذاته صدى بعيد لدبلوماسية البيت الابيض ، التي تتحكم برقاب هؤلاء المؤمنين • لكن قيادة الثورة قادرة بوعيتها على ان تتجنب هذه المداخل فلا تنساق مع نزعة متمزعة تضيع عليها فرص النجاح او تشوه اهدافها • ومع ان العقيدة مصدر غنى لاية حركة اصيلة ، فينبغي ان لا تحول دون حرية التحرك ، اي ان لا تصبح قيда بدلا من ان تكون وسيلة للانطلاق كما هي طبيعتها وفي تاريخ السياسة الاسلامية سوابق يمكن التاسي بها • من ذلك تحالف الحارث بن سريج مع الاترك المشركين ضد الامويين المسلمين • وقد التجأ الحارث الى حلفائه المشركين بعد اندحاره عسكريا اما جيوش نصر بن سيار حاكم خراسان المسلم وعاش في بلاد الشرك ثلاثة عشر عاما • وقبله التجأ ابن الاشعث الى رتبيل احد ملوك المشركين في آسيا الوسطى بعد فشل انتفاضته ضد الحجاج بن يوسف الثقفي ، وهي من الحركات المشهودة في تاريخ الاسلام ، وكان ابن الاشعث قد اعلنها باسم الحسن المثني وانضم اليه فيها كبار فقهاء ذلك الوقت كالشعبي وابن ابي ليلى وسعيد بن جبير •

وقد شهد العصر الحاضر تحالفات مماثلة • فقد بادر الشريف حسين بعد ان تيقن من غدر الانكليز وتكرهم لمعودهم الى الاتصال بالبلاشفة طالبا منهم العون • وتشير الروايات المنقولة عن قدماء المجاهدين الحجازيين الى ان الشريف حسين اوفد ابنه الملك علي الى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٢٢ وانسه قابل هناك لينين وعرض عليه خطوط القضية العربية التي ثار الشريف من اجلها • وتقول الروايات ان لينين تفهم نوايا القيادة الحجازية وحاول اسنادها بالقدر اليسير الذي كان لدى البلاشفة آنذاك • ويقف وراء هذه المبادرة الخطرة اسراع الانكليز في تعبئة عبد العزيز بن سعود لاكتساح الحجاز والتخلص من الشريف حسين • وفي العراق ، كشفت الوثائق التي عرضت في المتحف البريطاني عن رسائل متبادلة بين قادة ثورة الشعريين وقادة البلاشفة • وتتضمن

احدى هذه الوثائق تقريراً للمخابرات البريطانية عن الاتصالات بين الشيخ عبد الكريم الزنجاني والسفارة السوفيتية في ايران بواسطة شخص عراقي يدعى عباس المعطري . وهذا الرجل لا يزال حياً ، وقد اجرت معه جريدة « طريق الشعب » العراقية حديثاً أكد فيه من جهته ما ورد في تقرير المخابرات البريطانية . ولا يغير من هذه الحقيقة تغير موقف الشيخ الزنجاني فيما بعد ، او اعتزاله السياسة بعد ان تقدمت به السن وما رافق ذلك من ملاسبات يصعب اكتناه حقيقتها .

ومن الامثلة البارزة في هذا المنحى ، ذلك التنسيق المكشوف الذي كان يتم بين الشيخ مهدي الخالصي والسوفييت . والخالصي من قادة ثورة العشرين العراقية ، وهو ممن رفض القبول بنتائجها التي حددها الانكليز فعارض الملك فيصل الاول وأصر على التحرير الكامل للعراق من أي نفوذ اجنبي . وقد نفاه الانكليز الى ايران لكنه واصل من هناك نضاله ضدهم بدعم من الاتحاد السوفييتي . ولم يكن ثمة ادنى تورية او تقية في هذا التنسيق ، فحين مات الخالصي في مدينة مشهد اعلنت القنصلية السوفيتية هناك الحداد عليه ، من دون سائر المؤسسات الايرانية والاجنبية !

وللفكر الاسلامي القديم مسالك على نفس الخط قد يدهش لها المؤمن المعاصر الذي اعمته السلفية ، وقد يعتبرها ضرباً من الهرطقة والمروق ، لكنها مع ذلك محفوظة في مظانها . وحسبي ان اذكر منها في هذه العجالة تأويلات لمفهوم الكفر والشرك ترد في مصادر الشيعة عن الامامين الصادق والباقر ، اللذين فرقا بين الكفر والشرك فحدها للاول مفهوماً يتضمن ماهية الطغيان ووصفاً الثاني على ملاك العقيدة . وقد صرح الامام الصادق ان الكفر اشد من الشرك لاقتراحه بالعتو والعناد . وفي هذا تساهل واضح في امور العقيدة وتشدد في امور السياسة العملية والسلوك الاجتماعي . ولهذه التأويلات اصول في القرآن منها الآيتان ١١٦ و ١١٧ من سورة هود : « فلولا كان من القرون قبلكم اولو بقية ينهون عن الفساد في الارض ، الا قليلاً ممن انجينا منهم . واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون . » ويرد عن ابن عباس في تفسير الآيتين ان الله لا يعذب على الشرك اي على امور العقيدة ، وانما يعذب على الفساد ، اي على الظلم والطغيان . وفي وقت لاحق افتى السيد ابن طاووس مرجع الامامية في القرن السابع بتفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر . ومن المؤسف ان تنطوي هذه الاتجاهات النيرة في غمامة التفسير الرجعي الازهري للاسلام وتاريخه فتصبح في حكم المنسي والمنكر بل ويصبح الحديث عنها مقارناً للالحاد على انها لتبقى امانة في عنق اولئك الناس الذين لم يتلوث تاريخهم بعطايا الملوك ، وبينهم وبين تلك الخطوط المشبوهة حواجز لا يصح ولا يمكن عبورها . ولا بد لمن يتصدى للفعل

الثوري ان يتميز عن الذين سخروا دين الله للبغيايا واللوطيين ، ووضعوا القرآن على موائد مونت كارلو ليعلنوا عن انفسهم من هناك حماسة للكتاب والسنة ، والذين افتوا بالصلح مع اسرائيل واصلحوا البراءة من ابو ذر الغفاري وثبتوا نسبا علويا لكل من اراده من الملوك .

ان ثورة الخميني تجري على حدود التزام دقيق يفصله عن الوضع الازهري خيط كالصراط : خطر وحالك في آن واحد . وانه لخيار عسير بين ان تكون حنبليا ففضل دين مونت كارلو على دين ابو ذر ، او ان تكون ثوريا فتكون صديقا لكل الثوريين وان خالفوك في العقيدة ، وعدوا لكل الطغاة واللصوص وان شاركوك في الايمان . وليس هناك من خط ثالث .

كان يحيى بن عبد الله بن الحسن يناجي ربه وهو هارب من هارون الرشيد :
اللهم اشكر لي اخافتي قلوب الظالمين .

والخميني مشكور لاخافته قلوب الظالمين وتهديد عروشهم وهو مطالب بان يخيف قلوب المتاجرين بالايامن من اعوان الظلمة ، الذين يلعبون على شعارات ثورية ليخلقوا لها اعداء وهميين ويصرفوها عن اعدائها الفعليين .

السلام الاسرائيلي

اسرائيل والسلام ضدان لا يلتقيان . قد يتفعلان ، ويؤثر احدهما في الاخر سلبا او ايجابا ، ولكنهما لا يتطابقان . فاسرائيل قاعدة عدوان على الامة العربية ، والعدوان لا ينسجم مع السلام . والعدوان الاسرائيلي لم يدحر بعد ، كما ان حركة الجماهير العربية لم تستسلم لذلك العدوان او ترضخ لاملاءاته . ولقد سئم الناس الكلام عن السلام ، من اسرائيل او معها . وحتى المستوطنين الصهاينة انفسهم ملوا كلام قادتهم عن السلام ولغوهم فيه ، فدرج بينهم القول : « سلام ، سلام ، سلام . . . ولا سلام » . واللغو الصهيوني عن السلام ليس له في الواقع ما يبرره ، كما ان الممارسة الصهيونية ، منذ بدء استيطانها في فلسطين والى يومنا هذا ، افقدت ذلك اللغو مصداقيته . والمفاوضات الجارية الان ، والتي بدأت منذ حرب تشرين ، ليس هدفها السلام ، وانما التسوية . وهذه تحتمل الكثير من التفسير والتأويل . وفي حالها الراهن ، كما آلت اليه بعد « كامب ديفيد » ، لم تعد لها علاقة بالسلام ، او بالتسوية في مفهومها الدارج ، وكما يعيها الناس العاديون ، ليس في المنطقة فحسب ، وانما في العالم اجمع . والذي جرى في « كامب ديفيد » ، هو بالفعل مؤامرة على سلام شعوب المنطقة ، وليس « اتفاق اطار لتسوية شاملة للنزاع فيها » ، كما يقال زورا . فما هو السلام الاسرائيلي ؟ وهل اسرائيل فعلا جادة في انجاز تسوية شاملة ، تقوم على المعادلة البسيطة : انسحاب من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ، مقابل الاعتراف بشرعية قيامها ؟ وقبل الدخول في موضوع الاجابة على هذين السؤالين ، تجدر

الإشارة الى بعض منطلقاتنا في فهم الكيان الصهيوني ، والتي تشكل أساسا لتفسيرنا لما يجري على صعيد التسوية .

اسرائيل قاعدة متقدمة للعدوان على الامة العربية

في فهمنا لاسرائيل ، ننطلق من انها حصيلة عمل مشترك ، اسهم فيه الاستعمار الغربي ، كل دولة فيه ودورها في حينه ، بقسط اوفر بكثير من المجهود الذاتي للحركة الصهيونية في اطارها اليهودي . وعلى اي حال ، فان الصهيونية نفسها نشأت على ارضية ذلك الاستعمار ، وظلت جزءا عضويا منه . وفي العمل الصهيوني ، كان الدفع الاستعماري اكبر بكثير مما قدمه اليهود انفسهم للمشروع . فالشراكة التي قامت بين الاستعمار والصهيونية اليهودية لم تكن قط متكافئة ، وانما كانت الحصص فيها تعكس موازين القوى بين الاطراف المساهمة . وعليه ، كانت حصة الاستعمار نصيب الاسد ، بينما ظل نصيب اليهودية فيه ضئيلا . وكانت للاستعمار الغربي مصلحة في المشروع الصهيوني تفوق اضعاف اضعاف مصلحة اليهودية ، اذا سلمنا بأن لهؤلاء مصلحة في الصهيونية على الاطلاق . ونظرا لطبيعة الشراكة في هذا المشروع ، فقد جبر مردوده لصالح الشريك الاكبر فيه ، ولخدمة مصالحه اساسا . وهكذا ، خلال ثلاثين عاما على قيامها ، قدمت اسرائيل للاستعمار اكثر مما حققت لذاتها . وقد اصابت هذه نجاحا اكبر في تحقيق مهمتها الامبريالية ، مما استطاعت تحقيقه على صعيد اهدافها اليهودية : « حل المسألة اليهودية » ، وبناء ذاتها اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا . وليس ادل على ذلك من تنامي العلاقات ، خاصة بعد حرب تشرين ، بين العواصم العربية وواشنطن ، عاصمة « البلد الام » (المركز الامبريالي) للكيان الاستيطاني الصهيوني .

ان فهمنا صحيحا لطبيعة الكيان الصهيوني ، وبالتالي تقويما سليما للمهام الموكلة اليه من قبل الذين بادروا الى طرح فكرة اقامته ، لا يستقيم الا اذا تم الربط بين الانطلاق للمباشرة في المشروع ، وبين الظواهر السياسية التي واكبت ذلك ، في الزمان والمكان المحددين . والصهيونية تحولت الى مشروع سياسي ، ظاهر هدفه هو بناء دولة يهودية ، تكون باليهود ، ومن اليهود واليهيم ، وعلى ارض فلسطين ، قلب الامة العربية ، وباطنه انشاء قاعدة امبريالية متقدمة في وسط العالم العربي ، لضرب حركته القومية وتفتيته ، في وقت اشرفت فيه الامبراطورية العثمانية على الانحلال ، وتكالبت على تقسيم ممتلكاتها الدول الاستعمارية ، كما برزت في بعض نواحيها الحركة القومية العربية . وكان ذلك في نهاية القرن الماضي . وفي تلك الفترة ، كانت السلطنة العثمانية ، اخبر امبراطوريات القرون الوسطى الاسلامية ، قد ناهزت الستة قرون من عمرها ، وقد شاخت ولم تعد تقوى على الذود عن حياضها . وبينما راحت الدول

الاستعمارية الغربية تتوثب للانقضاض على ما تبقى من اراضي الامبراطورية الواسعة ، وتتناحر على تثبيت مواقعها في تلك الاراضي من خلال نظام الامتيازات ، اعدادا لبسط نفوذها عليها عندما يحين الوقت ، انطلقت الحركة القومية العربية ، تنادي بالاستقلال للاقطار العربية ، من منطلق وحدتها ، على الاقل في مشرقها . وعلى هذه الخلفية جاء تبني الدول الاستعمارية لفكرة المشروع الصهيوني ، واقامة الدولة اليهودية في داخل الوطن العربي ، عامل تفتيت لبقاعه ، وقاعدة عدوان على شعوبه ، وكابحا لحركة جماهيره المتطلعة الى الاستقلال والوحدة ، مناقضة بذلك التوجه الاستعماري فيه . وهكذا ، ومن جهة نظر الشريك الاكبر والاهم في المشروع الصهيوني ، كان الهدف من اقامة اسرائيل ان تصبح هذه قاعدة متقدمة للعدوان ، مهمتها الاساسية التصدي لحركة الجماهير العربية ، وضربها . وهذه الاخيرة ، لم يكن مركزها في فلسطين ، ولا شكل الشعب الفلسطيني عنصرا متميزا فيها ، وانما شكلت ارضه ، من ناحية موقعها الاستراتيجي ، وارتباطها بالتراث اليهودي القديم ، اكثر الاقاليم العربية ملائمة لاقامة القاعدة . ولما كانت مصلحة هذا الشريك في المشروع هي تطويره كقاعدة عسكرية متقدمة ، فقد انعكس ذلك على طبيعة الكيان الصهيوني ونمو مؤسساته . ونظرة سريعة الى تلك المؤسسات توضح الفارق الشاسع بين تنامي بعضها على حساب البعض الاخر . والواضح ان المؤسسة العسكرية هي الاكثر تطورا في الكيان ، نظرا لارتباط نشاطها المباشر بمصالح الشريك الاكبر . والمشروع من وجهة نظر هذا الشريك ، ايا كان في كل مرحلة ، لم يكن قط مشروعا اقتصاديا بحد ذاته ، وانما وسيلة للنفوذ الى ثروات الامة العربية واستغلالها . ومقابل هذا التطور في المؤسسة العسكرية ، تبرز هشاشة باقي المؤسسات في الكيان ، من اجتماعية واقتصادية وسواها ، والتي لا تزال فجة . ولم يلبث الكيان ، حتى قبل الاعلان الرسمي عن قيامه ، ان تحول الى « قلعة » ، قوامها الالة العسكرية ، يقوم بضعة ملايين من المستوطنين اليهود بخدمتها . فالاساس فيه هي الالة العسكرية ، التي يجري تجيير جميع الطاقات لتطويرها ورعايتها . وهكذا اصبح الجيش في اسرائيل اغلى من الكيان وأعز .

وما دام الكيان في جوهره قاعدة عسكرية ، فان ما يقرر مصيره ، ولو مرحليا ، نجاعة نشاطه العسكري ، ومردود هذا النشاط على البلد الام الامبريالي ، وبالتاكيد ، ليس ميزان مدفوعاته ، او حساب الربح والخسارة في اقتصاده . ويبقى العامل الحاسم في اعتماده من قبل البلد الام ، واصرار هذا البلد على تثبيت دعائم الكيان ، هو موقعه في الاستراتيجية العالمية لذلك المركز الامبريالي ، الولايات المتحدة ، وليس ازدهار الكيان الاقتصادي او عجزه . والواقع ان اسرائيل ما زالت منذ قيامها تعيش في عجز اقتصادي ، ومعدل

الدخل القومي العام فيها لا يوازي ديونها السنوية ، وهذه ظاهرة فريدة من نوعها في العالم . ومع ذلك ، يستمر الكيان في التطور ، ويرتفع مستوى معيشة المستوطنين فيه ، ولهذا الوضع دلالة هامة ، إذ به تتميز اسرائيل عن اترابها من الكيانات الاستيطانية ، روديسيا او جنوب افريقيا ، حيث الهدف الاساسي من الاستيطان هو الاستغلال الاقتصادي للرقعة الجغرافية التي يقوم عليها ، وليس عاملا مساعدا لتهيئة الظروف الملائمة لاستغلال المناطق المجاورة على يد البلد الام الامبريالي ، كما هو الحال بالنسبة الى اسرائيل . والهدف الامبريالي من المشروع الصهيوني لم يكن قط محصورا في فلسطين ، وانما ، وبالاساس ، في العالم العربي ككل ، خاصة في مشرقه . من هنا ، يبقى اهتمام البلد الام ، وهو في هذه الحالة الولايات المتحدة الاميركية ، بالقاعدة المتقدمة ، اسرائيل ، متوقفا على تقدير الاولى لاهمية الثانية في ضمان مصالحها في المنطقة . وما دامت التقديرات في هذا المجال ايجابية ، فان الولايات المتحدة ستستمر في تقديم الدعم الاقتصادي اللازم للحفاظ على بقاء القاعدة - اسرائيل . والخطر الاساسي على المصالح الاميركية في المنطقة انما يأتي من حركة الجماهير العربية . وما دامت هذه الاخيرة حية فاعلة ، فستبقى الولايات المتحدة تمدد اسرائيل بما تحتاج من الوسائل للتصدي لتلك الحركة . وانطلاقا من تقديرنا بأن الصراع سيستمر في المنطقة ، فاننا لا نرى ، على الاقل في المستقبل المنظور ، امكان تخلي اميركا عن اسرائيل ، كما يذهب البعض ، او امكان احداث شرخ بينهما كما يقول اولياء هؤلاء ، ممن هم اقل طموحا في تطلعاتهم ، وثقة في قدرتهم على الفعل في الساحة الاميركية . وفي مسار مفاوضات التسوية ، عبر اكثر من خمس سنوات منذ حرب تشرين ، عبرة لذوي الالباب ، ومؤشرا لمن ينوي صادقا الوصول الى تقدير صحيح للموقف في هذا المجال .

المشروع الصهيوني لم يستكمل بعد

كلما واجه الكيان الصهيوني ازمة ، خاصة عندما تكون قيادته بصدد اتخاذ قرار في مسألة مصيرية ، ترتفع فيه الاصوات التي تنادي بالعودة الى المبادئ الصهيونية ، واعتمادها اساسا في التصرف ازاء الازمة الراهنة . ولكي يستطيع تحقيق الاهداف التي طرح من اجلها ، كان لا بد لهذا المشروع من ان يكون استيطانا اجلائيا . وقد ترتب على ذلك تجسيده على مراحل ، وفقا للظروف السياسية الدولية ، وتبعا لتوفر المستوطنين اليهود . والمشروع اليوم ، لا يزال في طور البناء ، ولم يستكمل نموه بعد . ان انه لم ينجز المهمات الموكلة اليه من الاستعمار الغربي بعد تماما ، كما انه لم يحقق بعد ما اعلنته الصهيونية من اهداف لها على الصعيد اليهودي . فالقاعدة العسكرية لم تنجح الى الان في تطويع الحركة القومية العربية ، وهي قد فشلت الى الان في تصفية الثورة الفلسطينية . وهذه مهام لا تزال امامها . وعلى الصعيد اليهودي ، رفعت

الصهيونية شعار « حل المسألة اليهودية » ، وكان القصد تجميع اكثرية اليهود في فلسطين في كيان سياسي ، يبسط حمايته وهيمنته على الاقلية المتبقية في الجاليات المنتشرة في بقاع العالم . والذي حصل بعد ثلاثين عاما على قيام الكيان ، وحوالي القرن من العمل الصهيوني ، ان اخفقت الصهيونية في انجاز هذه المهمة المركزية . فقد تجمعت في الكيان اقلية من المستوطنين اليهود ، تنظر الى الاكثرية الباقية في اماكن شتاتها كعنصر اساسي في حماية الكيان وتدعيمه . ومع ذلك ، تبقى مسألة تهجير اليهود الى اسرائيل ، واستيعابهم هناك ، مهمة مركزية في العمل الصهيوني الراهن . وتبقى اسرائيل تتطلع الى تدفق المهاجرين اليهود اليها ، املا في ان يصبح بمقدورها تهويد « ارض - اسرائيل الكاملة » واستيطانها . وهذا ما يسميه قادة العمل الصهيوني « اهل الاجيال » .

والاحزاب الاسرائيلية بمجملها ، فيما خلا الحزب الشيوعي الاسرائيلي - راكاح ، هي احزاب صهيونية . وعليه ، فاذا دأبت هذه القوى السياسية في اسرائيل على اعتماد الصهيونية عقيدة ، وهو ظاهر الامر ، فانها لا بد ان تواصل سعيها لاستكمال مشروعها ، والا فقدت مبرر وجودها . واذا واصلت اسرائيل الصهيونية عملها في تحقيق اهدافها كاملة ، فانها بالطبع لن تعتمد رغبة الى تحديد حدودها الجغرافية والبشرية والسياسية ، قبل انجاز المهمة التي وضعتها نصب عينها . وهذا يعني صب جهودها في احباط اية تسوية نهائية ، لا تلبي طموحها . وبالفعل فقد نجحت الصهيونية ، طوال مرحلة بناء الكيان ، والى يومنا هذا ، في عرقلة كل المساعي لتسوية الصراع في المنطقة ، قبل ان تحقق اهدافها . والاهداف بعيدة المنال ، وكذلك التسوية السلمية في تقديرنا . ففي المفاوضات الجارية منذ حرب تشرين ، يتضح تماما ان اسرائيل تسعى من خلالها لانتزاع ما قصرت عن الوصول اليه منذ قيامها . وهي كذلك لا تقبل في التسوية ما يشكل عقبة امام استكمال مشروعها في المستقبل . والاكد انها تنظر الى التسوية كمحطة اخرى على طريق انجاز المشروع . وقد سبقتها محطات اخرى : مؤتمر بازل ، وعد بلفور ، قيام الكيان . ويجيء الان ، وعن طريق التسوية ، دور انتزاع الاعتراف بشرعية قيام الكيان ، على ان ينتقل الى ضمان مقوماته في مراحل لاحقة ، قد تختلف في مداها الزمني ونهجها في التنفيذ . ولا يساورنا شك في ان اسرائيل تسعى من خلال المفاوضات على التسوية ، الى تسهيل مهمة استكمال المشروع الصهيوني بعدها ، سواء في جانبه الامبريالي ام في جانبه الصهيوني اليهودي .

حدود امن اسرائيل تمر في عواصم دول المواجهة

في الحديث عن التسوية السياسية ، عندما يدور الكلام عن « امن اسرائيل » يبدو وكأنه ارسال على موجات متقاطعة ، بل متضاربة . ويبرز ذلك بشكل

يستثير الاشفاق في كلام الرئيس السادات عن ذرائع اسرائيل الامنية . فهو يتذمر ويشكو من ان شريكه في المفاوضات لا يثمن جيدا ما قدمه له من ضمانات ، وما هو على استعداد للقبول به نزولا عند رغبات ، او املاءات ، ذلك الشريك النكد . والواقع ان السادات ، وغيره كثير ، ينطلقون في مفهومهم لكلام اسرائيل عن امنا ، من منطلقات لا تمت الى الكيان الصهيوني بصلة . فما دامت اسرائيل قاعدة للعدوان على الامة العربية ، مهمتها الاساسية التصدي لضرب حركة الجماهير فيها ، وهذه ليس مركزها داخل فلسطين المحتلة ، فان مجال نشاط الكيان العدواني يصبح بطبيعة الحال ، خارج حدود استيطانه في الغالب . وهذا ما يسميه قادة الكيان مجازا « امن اسرائيل » . فهذا الامن في عقيدتهم ، لا يتوقف على ما يجري داخل حدود الاستيطان ، او ما يحصل عندها ، وانما ، وبالاساس ، على ما يجري خارجها ، وبالتحديد ، في عواصم دول الطوق . وعليه ، فذلك الامن لا يستتب الا اذا تحكمت الكيان بالمسارات السياسية في تلك العواصم ، واستطاع من خلال ذلك ، ضبط توجهاتها . وهذا ما يجب وعيه عند الكلام عن « امن اسرائيل » في اطار التسوية الجارية . ولذلك فهي غير معنية بالضمانات ، لان هذه تتوقف عند الحدود ولا تهمها معاهدات الدفاع ، لانها تخطط ان تبقى في موقع الهجوم . وهناك من قادة الكيان من يرى ان معاهدة دفاع ، حتى مع الولايات المتحدة ، تضع العلاقات القائمة بينهما في اطار رسمي ، سيكون من شأنها الحد من حرية اسرائيل في العمل العسكري عندما تجد الفرصة مناسبة لتنفيذ اغراضها . اي انها تقلص هامش حرية اسرائيل في اتخاذ القرار ، دون التنسيق المسبق مع واشنطن . والفهم الخاطيء للامن كما تعنيه اسرائيل ، يكمن وراء التفسير الذي يطرحه البعض لنشاطها العسكري خارج حدود استيطانها ، كما هو الحال في الجنوب اللبناني مثلا ، وكان الهدف منه اقامة حزام امن عبر تلك الحدود . ان من يقيم حزام امن عبر حدوده ، هو الذي يبني خطته العسكرية على اساس البقاء في موقع الدفاع . اما الذي يبادر الى الهجوم ، فلا تعنيه ، في تقديرنا ، احزمة الامن . واذا تذرع بهذه الحجة ، فانما هي للتمويه على حقيقة النوايا .

وهذا المفهوم الاسرائيلي للامن ، يكمن وراء المقولة الدارجة ، والتي قبل بها المشاركون في مفاوضات « التسوية السلمية » من الطرف الآخر ، بأن اسرائيل ، حتى تستطيع الدخول في مفاوضات جدية للتسوية ، يجب ان تطمئن الى تفوقها العسكري . وهكذا ، وفي حين يدور الكلام عن التسوية والسلام ، تنقلب اسرائيل الى ترسانة اسلحة . ومع ذلك ، تستمر المفاوضات معها ، سنة بعد اخرى ، دون الالتفات الى المفارقة القائمة بين السلام المتزايد للمللة العسكرية الصهيونية ، على عكس ما يجري في الجانب الآخر ، رضوخا لاملاءاتها . وفي هذا المجال ، كشف مردخاي غور ، الرئيس السابق لاركان الجيش الاسرائيلي ،

في مقابلة تلفزيونية ، بتاريخ ١٧/١/١٩٧٩ ، يوم خلع بزته العسكرية وتحول الى جنرال في الاحتياط ، انه خلال مفاوضات اللجنة العسكرية المصرية - الاسرائيلية في القاهرة ، بعد لقاء الاسماعيلية ، طالب الوفد الاسرائيلي رسميا ، بتقليص الجيش المصري ، وابعاد ما تبقى منه عن الحدود مع اسرائيل . واذاف انه اذا كان هناك مبرر للاحتفاظ بجيش مصري كبير نسبيا ، بدعوى « التصدي للتغلغل الشيوعي في القارة الافريقية » ، فانه لا مانع لدى اسرائيل في ذلك ، شرط ان تثبت مصر ذلك عمليا ، باحداث تغييرات جذرية في مواقع انتشار قواتها العسكرية ، وطبيعة تاهبها القتالي .

واسرائيل ، في تقديرنا ، انطلقا من فهمنا لطبيعتها ، ومن خلال تقييمنا لواقتها في المفاوضات الجارية ، لن تنجز تسوية مع عاصمة عربية ، يحكمها نظام وطني . كما انها ستفرض ، كما فعلت مع مصر ، التقدم في المفاوضات مع عاصمة عربية ، تصر على الاحتفاظ بجيش وطني ، يرى مهمته الاساسية الدفاع عن ارض الوطن ، والقتال لحماية مصالح الامة ، ومن اجل تحقيق اهداف الجماهير العربية العريضة في الاستقلال والوحدة . كما انها ستصر ، وكما فعلت مع مصر ، على حرمان جيوش الدول العربية التي تتفاوض من مصدر سلاح مضمون وموثوق ، وستشترط « تنويع مصادر السلاح » ، لاعادة تلك الجيوش الى ما كانت عليه قبل حرب ١٩٥٦ ، وقبل عبد الناصر . كما انها ستطلب مقابل التسوية مع اية عاصمة ، تخلي هذه عن القضية الفلسطينية ، في بعديها القومي والوطني ، اي التنازل ، بالاضافة الى القضية القومية عن « الحريق المشروعة » للشعب الفلسطيني . وهي قبل الاقدام على تسوية كهذه ، ستدفع الطرف الآخر ، كما حصل في الماضي ، الى ضرب الثورة الفلسطينية وتصفية مكتسباتها ، وبالتالي تفرغ منظمة التحرير الفلسطينية من اي مضمون . ويكلام آخر ، فان اسرائيل لن ترضى بتسوية تقطع مهمتها الامبريالية في المنطقة قبل انجازها ، لان ذلك سينعكس سلبا على مبدأ اعتمادها كشرطي للمنطقة ، وبالتالي امكان طرح تساؤلات حول نجاعة فاعليتها في خدمة البلد الام . كما انها لن ترضى بتسوية من شأنها ان تضع عقبات في طريق انجاز مشروعها الاستيطاني ، في جانبه اليهودي ، اي على الصعيد الفلسطيني . وفي تقديرنا ، انها ستقاوم بكل شراسة ، حصول الفلسطينيين على « حقوقهم المشروعة » ، والاكيد انها لن تسمح راضية بقيام دولة فلسطينية . وكل تخل عن هذه المواقف ، تعتبره اسرائيل خطرا على امنها ، وليست مجرد مواقف لن ترضى بها ، وانما لن يكون باستطاعة المؤسسة الحاكمة فيها اتخاذ القرار الحاسم بشأنها .

اسرائيل جزء من النظام الامبريالي الاميركي

عندما تتضارب وجهات النظر السياسية بين اسرائيل وواشنطن ، يوصف

الخلاف ، ومن الطرفين ، بأنه تناقض بين حكومة اسرائيل والادارة الاميركية . ولكنه لم يحدث قط ان وقع خلاف كهذا ، ودار الحديث عنه بمصطلحات اسرائيلية ضد اميركا ، او العكس . وعندما يقع خلاف كهذا ، فانما يجري حسمه عادة داخل المؤسسة الحاكمة في امريكا ، ومن خلال تداخل أجنحتها . واذا اشتد الخلاف يصار الى التفاوضي امام الرأي العام الاميركي ، الذي تكونه الصحافة هناك ، وهي على العموم جزء من المؤسسة . واذا اندلع الخلاف ، وحصلت المواجهة ، فانما تدور المعركة على الساحة الاميركية . فتكون معركة داخلية ، وليس بين طرفين منفصلين . والتقييم الاسرائيلي للسياسة الاميركية انما ينطلق من قاعدة عزو تلك السياسة لهذا الرئيس او ذاك ، او لهذا الجهاز او ذاك . وهكذا يتحرك اللوبي الصهيوني بين الادارة والكونغرس ، وبين وزارتي الخارجية والدفاع ، عندما يحدث الخلاف ، ويتصرف كمجموعة ضغط داخلية . حتى من الناحية المراسيمية الشكلية .

والولايات المتحدة اليوم ، تلعب دور البلد الام الامبريالي للكيان الصهيوني بكل حداقيه . وكانت بداية هذا المسار في مؤتمر بلتيمور الصهيوني عام ١٩٤٢ ، حيث تم نقل مركز النشاط الصهيوني من انجلترا الى اميركا ، تقديرا بان هذه ستتزعم العالم الرأسمالي بعد الحرب ، وستكون صاحبة المصلحة الكبرى في المشروع الصهيوني . واندمجت الصهيونية في النظام الامبريالي الاميركي ، واصبحت جزءا عضويا منه . واسرائيل ، كقاعدة عسكرية ، ارتبطت باكثر القوى السياسية رجعية في الولايات المتحدة في المجمع الصناعي الحربي . وهذا الاخير لا يهيمه من اسرائيل سوى جيشها ، فعمل على تطويره ، مما انعكس في نمو الالة العسكرية الاسرائيلية بشكل يفوق باقي مؤسسات الكيان . وبسبب اهتمام هذا المجمع بالجيش الاسرائيلي ، ونظرا لفاعليته في السياسة الاميركية ، ظلت مسألة بناء ذلك الجيش ، وتزويده بالمعدات العسكرية اللازمة ، لا جدال فيها . وعلى هامش هذا الاهتمام تطورت الصناعة العسكرية في اسرائيل ، كامتداد للمجمع الصناعي الحربي في الولايات المتحدة ، الذي يزود تلك الصناعة برأس المال والتكنولوجيا اللازمين . وبسبب الاهمية التي يعلقها المجمع على نشاط الجيش الاسرائيلي ، كان الدعم العسكري الضخم الذي تتلقاه اسرائيل من اميركا ، والذي بلغ بعد حرب تشرين ثلاثة مليارات من الدولارات سنويا ، اي بمعدل الف دولار للفرد الاسرائيلي كل سنة . هذا طبعا الى جانب المساعدات الاقتصادية الاخرى ، التي تأتي من مصادر متنوعة ، من ضمنها الجباية اليهودية ، والتي تبلغ حوالي الف وخمسمائة مليون دولار سنويا . فيصبح الفرد الاسرائيلي يتلقى ما قيمته الف وخمسمائة دولار من الدعم الاميركي سنويا .

وعندما يبرز خلاف في وجهات النظر بين الحكومة الاسرائيلية والادارة

الاميركية ، ترتفع بعض الاصوات ، على اطراف القوى السياسية الفاعلة في اسرائيل ، سواء عن اليمين او اليسار ، تنادي بضرورة توسيع هامش الاستقلال الاسرائيلي في صنع القرارين ، السياسي والاقتصادي . وهذه الاصوات تجد لها تجاوبا ، ولو آتيا ، بين جمهور المستوطنين هناك . وهؤلاء ، نظرا لوعيهم الزائف ، قد يذهبون بعيدا احيانا ، انطلاقا من وهم الاستقلالية في واقع التبعية شبه المطلقة . اما المؤسسة الحاكمة في اسرائيل ، فهي على العموم تعي موقع كيانها في النظام الاميركي ، ولا تشط عن الطريق . ومن مآخذ المعارضة الحالية على حكومة بيغن ، ان هذه الاخيرة قد اقضت نفسها في خلاف مع الادارة الاميركية ، عندما حاولت التحرك في التسوية دون تنسيق مسبق مع واشنطن ، كما فعلت هي عندما كانت في السلطة . ولكن هذه التبعية لا تعني ان حكومة اسرائيل لا تملك هامشا من الاستقلال في الحركة مطلقا . وهي عندما تفعل ذلك ، فانما على اساس تقديرها لموازن القوى في الساحة الاميركية ، من معها ومن ضدها . وقد تخطى احيانا في التقدير ، كما حصل في « عملية الليطاني » في الجنوب اللبناني ، اذار (مارس) ١٩٧٨ . وعلى اي حال ، فان تقدير حجم هامش استقلالية اسرائيل في اي تحرك سياسي او عسكري ، انما يجب ان يتم في ضوء طبيعة هذا التحرك بالذات . فالغارة على احدى قواعد الثورة الفلسطينية مثلا ، لا تستلزم الضوء الاخضر الاميركي مسبقا ، كما لو كانت الطائرات الاسرائيلية ستغير على الظهران مثلا . وعليه فلا يجوز التعميم ، ولا يصح القول بان اسرائيل لا تقوم باية صغيرة او كبيرة ، قبل ان تحصل على الموافقة الاميركية اولا .

المؤسسة الحاكمة في اسرائيل عاجزة عن اتخاذ قرار « التسوية النهائية »

قام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ ، في ظل معادلة سياسية دولية معينة . ولكنه فشل الى الآن في تحقيق ما ادعى بانه مهمته المركزية على الصعيد اليهودي « حل المسألة اليهودية » . وبدلا من ذلك ، فقد نجح في خلق « المسألة الاسرائيلية » ، التي هي تعبير عن عدم قدرة مستوطني الكيان على التكيف مع ظروف المنطقة والانسجام مع شعوبها . وفي أية عملية سلام او تسوية ، تلبي الحد الأدنى المطلوب عربيا . لا بد للكيان ان يحسم في مسألة حدوده الجغرافية والبشرية والسياسية ، وذلك قبل استكمال نموه وتحقيق ذاته . والكلام طبعاً عن المرحلة الحالية . وقد احجم الكيان عن ذلك الى الان ، خاصة وأن عليه المضي في تسوية كهذه ، في ظل معادلة سياسية دولية ، تختلف عن التي كانت لدى قيامه ، وفي ظل موازين قوى في المنطقة ، تختلف عن التي سادت في الاربعينات . ولذلك ظل قادة الكيان يناورون لكسب الوقت ، ويحاولون القساء تبعة الرفض على الجانب العربي ، علهم يحققون من خلال عملية التسوية، وضمن

مسارها الطويل ، الذي يستغرق سنين عديدة ، ما اخفقوا في تحقيقه خلال ثلاثين عاما على قيامه . وواضح من التطورات السياسية في المنطقة ، منذ ان بدأت مفاوضات التسوية بعد حرب تشرين ، ان اسرائيل تسعى لتغيير المعادلة السياسية في المنطقة ، وقلب موازين القوى فيها ، بحيث ينجم وضع يبيح لها التعويض عما مضى ، وذلك من خلال عملية التسوية ذاتها .

والكيان الصهيوني استيطاني بطبيعته ، وبالتالي فنموه يتوقف على تدفق المستوطنين عليه . وعندما يفشل المشروع الصهيوني في حمل اليهود على الهجرة الى فلسطين ، فانما يفشل في نقطة انطلاقة المركزية . وازاء التسوية ، اية تسوية شاملة ودائمة ، يجعل هذا الفشل من مبدئين اساسيين ومتكاملين في الايديولوجية الصهيونية ، هما تكامل الارض ووحداية الشعب ، مبدئين متناقضين . والهدف الصهيوني الثابت هو اقامة دولة يهودية صرفة ، او في اغلبيتها الساحقة ، على « ارض - اسرائيل الكاملة » . ويدا في مرحلة بناء الكيان ان لا تناقض بين هذين المبدئين ، بل على العكس ، يكمل احدهما الآخر . ولكن ، ونظرا لعدم تدفق المهاجرين لليهود ، وازاء عملية التسوية ، بدأ يتضح التناقض بينهما ، على الاقل مرحليا . فالكيان ان اراد تسوية نهائية فورية ، فانه يواجه خيارا بين مسألتين : فاما دولة ثنائية القومية على « ارض - اسرائيل الكاملة » ، واما دولة يهودية في غالبية سكانها ، ولكن في حدود اضيق من « ارض - اسرائيل الكاملة » . وأي الخيارين لا يحقق الهمسدف الصهيوني الاساسي .

وعليه ، فان الكيان ، اذا تمسك بمنطلقاته الاساسية ، فانه لا يستطيع انجاز تسوية دائمة . وفي اقصى الاحوال ، ستكون هذه التسوية بالنسبة اليه ، محطة أخرى على طريق تنفيذ المشروع الصهيوني . ويبدو ان القيادة الصهيونية باتت مقتنعة بعدم امكان الوصول الى الاهداف الصهيونية النهائية في هذه المرحلة . وفي اطار الكلام عن التسوية الراهنة ، انقسم المستوطنون الصهاينة في فلسطين ، حول هاتين المسألتين - تكامل الارض ووحداية الشعب - الى تيارين متكافئسي القوة . فنأدى احدهما بالاحتفاظ بالارض ، رغم وجود العرب عليها ، وذهب الآخر الى ضرورة اعادة التجمعات السكانية العربية الى الاردن ، مع الاحتفاظ بجزء وافر من الارض ، حيث الكثافة السكانية ضئيلة . والتيار الاول في الحكم اليوم ، بينما الثاني في المعارضة . ويطرح التيار الاول مشروع بيغن للتسوية ، القائم على فكرة « الادارة الذاتية » للسكان العرب في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ . وان جاز لهذه التسوية ان تمر ، فان الحسم فيها لن يقود الى تحقيق الهدف الصهيوني الاصلي . وعندها سيواجه الكيان احد احتمالين : فاما ان ينكفي عن صهيونيته ، ويأخذ منحى جديدا ، تحدد طبيعته التسوية وشروطها وكذلك تطورات الصراع في المنطقة في المرحلة التالية ، واما ان يعتبر التسوية

مرحلة أخرى على طريق تحقيق أهدافه * والصهيونية ، المعروفة ببرازماتيتها ، قد تعتمد الى الخيار الثاني * واذا نجحت مؤامرة كامب ديفيد ، وتمت حسب مشروع بيغن ، مسألة تكامل الارض على حساب مبدأ وحدانية الشعب ، فانه يمكن طرد السكان العرب في المستقبل ، او افراغ المناطق من سكانها بشتى الطرق * وحتى لو انقلبت الامور ، وتحققت ، وفقا للمشروع الاسرائيلي المضاد ، الذي يطرحه حزب العمل ، وحدانية الشعب على حساب تكامل الارض، افلا يمكن استكمال تهويد الارض في مرحلة لاحقة اذا توفرت الظروف الملائمة ؟ وفي ممارسة الصهيونية في الماضي عبرة لمن يعتبر *

وما دام المستوطنون الصهاينة منقسمين بشكل متعادل حول هاتين المسألتين الاساسيتين ، مما ينعكس على المؤسسة الحاكمة ، نظرا لوجود لعبة ديمقراطية في الكيان ، وبما ان مسائل مصيرية كهذه لا تحسم عادة باكثرية ضئيلة ، فالارجح ان قيادة الكيان ستتحاشى الحسم في الموضوع ، على الاقل في المستقبل القريب * والانقسام الداخلي حول الموضوع ، هو الذي يعطي الانطباع بأن تلك القيادة عاجزة عن اتخاذ القرار بشأنه * وعندما طرحت حكومة العمسال مشروعها للحل الوسط الاقليمي ، وتكلمت عن انسحاب ، ولو جزئي ، من الضفة الغربية ، اشتدت عليها المعارضة ، وبالتالي سقطت في الانتخابات * وعندما طرح بيغن مشروعه للادارة الذاتية ، ثارت عليه المعارضة الحالية ، وما كان مشروعه ليمر لولا ان ربطه بالتسوية مع مصر ، فسكتت عنه المعارضة ، علما بأن البحث الجدي في موضوع الضفة سيتأجل الى ما بعد توقيع المعاهدة مع مصر ، وعندها ستخلق الظروف لاعادة طرح الموضوع مجددا * ويبدو ان القيادة الاسرائيلية ستبقى عاجزة في المستقبل المنظور ، عن اتخاذ قرار حاسم بشأن الضفة والقطاع ، يحظى بتأييد الاكثرية ، سواء كان ذلك بناء على مشروع بيغن ام المشروع النقيض * واذا فشلت المفاوضات مع مصر ، فسيكون بذلك ما يكفي القيادة الاسرائيلية مؤونة تحمل عبء اتخاذ القرار ، وستحاول ابقاء الموضوع على ما هو * واذا انجزت التسوية مع مصر ، ولن يكون ذلك الا اذا قبلت مصر بالفصل بين الاتفاق الثنائي مع اسرائيل ، وبين مسألة تنفيذ الادارة الذاتية ، فعندها ستخلق اسرائيل من العقبات ما يبقي الوضع على ما هو * ولكن لا مجال لاتخاذ قرار نهائي في هذه المرحلة بالنسبة الى الضفة والقطاع ، سواء في هذا الاتجاه او ذاك *

تذويب الشعب الفلسطيني هدف مركزي للعمل الصهيوني

الفكر الصهيوني غيبي بطبيعته ، فهو يقوم على مبادئ من القومية الثقافية ، اقرب الى العنصرية منها الى الليبرالية * وبالنسبة الى الشعب الفلسطيني ،

اقامت الصهيونية مشروعها ، وبنّت اعلامها ، على تغييبه . وذلك انطلاقاً من التغييب المادي ، حيث نفت وجود ذلك الشعب مادياً ، عندما طرحت شعار « أرض بلا شعب ، لشعب بلا أرض » . ولما لم يعد بإمكانها الامعان في هذا الباطل ، انتقلت الى تغييب الفلسطينيين حضارياً ، فجردتهم في اعلامها من جميع معالم التمدن ، وادعت لنفسها فضل كل عمران في البلد ، اذ عزته السي استيطانها ، مقابل التخريب الذي سببه سكان البلد الاصليين له . وانتهت الصهيونية في المرحلة الاخيرة الى تغييب الفلسطينيين سياسياً . وهي تنكر عليهم حقهم في تقرير مصيرهم السياسي . والطروحات الصهيونية عامة ، تصر على عدم الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني ، كما ان احد الاهداف المركزية للعمل الصهيوني هو اذابة الشعب الفلسطيني بشكل كامل . وفي السنوات الاخيرة ، بدأ يبرز نوع من الاعتراف بوجود قضية لذلك الشعب ، يجب حلها ، ولكن ليس في فلسطين . وظل اصرار اسرائيل على استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية ، وعدم الاعتراف بشرعية تمثيلها لشعبها ، في مكانها . وتبدي السياسة الاسرائيلية مقاومة عنيفة لاقامة دولة فلسطينية ، في الاراضي التي قد يتم الانسحاب منها . وهي تقول بضرورة حل القضية الفلسطينية من خلال الاردن اصلاً .

لقد وعى قادة العمل الصهيوني ابعاد مشروعهم الاستيطاني مبكراً . وادركوا الا مجال لتحقيق اهدافهم الا بالقهر العنصري ، وبالغضب الفاشي ازاء الشعب الفلسطيني وعرفوا انطلاقاً من وعيهم متطلبات تجسيد مشروعهم ، الا مكان لهم في فلسطين الا بتشريد شعبها الاصلي ، ومن ثم بناء كيانهم على خرابه . فعمدوا الى انجاز المهمة بشتى الطرق وبالسرية القصوى . ومنذ البداية ، توجه العمل الصهيوني نحو تهويد الارض والسرق والعمل ، هذا الى جانب العمل الجاد لبناء اداة العدوان العسكرية . وما تهويد الارض الا اقتلاع الفلاحين العرب منها . وليس العمل العبري سوى استبعاد العمال العرب من عملية الانتاج في البلد . وما السوق اليهودية الا مقاطعة المنتوجات العربية . اما الاداة العسكرية فمهمتها ضمان تنفيذ هذه السياسة ، وبالقوة المسلحة عند الحاجة . وقد كان لنجاح الصهيونية في تحقيق هدفها المركزي - اقامة الدولة اليهودية ، ولو على جزء من فلسطين ، اثر كبير في تقرير سياستها المستقبلية . فالنصر العسكري الذي احرزته في حرب سنة ١٩٤٨ ، زاد من ثققتها بنفسها ، وعزز القناعة لدى قيادتها بإمكان تحقيق المشروع الكامل في مرحلة قريبة تالية . اما نجاحها في طرد مئات الالوف من العرب الفلسطينيين وتشريدهم ، ومن ثم افلاجها في قطع طريق العودة عليهم . فقد قوى فكرة التغييب لديهم . وراحوا يتصرفون انطلاقاً من مبدأ ان السكان المحليين في فلسطين هم عنصر غير ثابت على الارض ، يمكن طردهم اذا توفرت القوة اللازمة لذلك . وما زال ذلك نهجهم في

التفكير ازاء حل قضية الفلسطينيين • ففي عقيدتهم ان من يملك القوة السياسية يستطيع تقرير العلاقة بين السكان والارض • والتوجه الصهيوني هو لقطع علاقة الفلسطينيين ببلدهم •

الارضية الاسرائيلية للتسوية

منذ أن بدأت المفاوضات السياسية على التسوية السلمية ، لم يأل قادة اسرائيل جهدا في عرقلة مسارها • الى ان جاء مؤتمر « كامب ديفيد » ، وبدا وكأن اتفاقا قد حصل بين مصر واسرائيل ، ولكن سرعان ما تبين ان العقبات امام التوقيع على معاهدة سلام بين الطرفين لا تزال كثيرة ، وان الطريق الى انجاز تسوية شاملة بينهما ، لا تزال طويلة • ومع ذلك لم يترك قادة اسرائيل فرصة تفوتهم دون اللغو في الكلام عن السلام ، والاسراف في اللغط عن تطلعات اسرائيل الى تسوية شاملة ونهائية للنزاع في المنطقة • بما ينسق مع التراث اليهودي ، وينسجم مع الاعراف الصهيونية • ولم يفترهم في هذا المجال الكلام عن اهمية السلام لانجاز المشروع الصهيوني ، وتثبيت دعائمه ، الى ان جاءت مبادرة السادات ، وما انطوت عليه من تنازلات سعيًا لانهاء الصراع في المنطقة، بشكل يضمن لاسرائيل بقاءها وامنها ، ومن اعلان حرب تشرين خاتمة الحروب العربية - الاسرائيلية ، فكشفت زيف الكلام الاسرائيلي عن السلام • ثم جاء مؤتمر « كامب ديفيد » ليكشف بدوره زيف كلام السادات عن « التسوية العادلة » ، التي طالما تبجح بانها يصر عليها • والذي فعله السادات في « كامب ديفيد » ليس الا اشتراكه في المؤامرة ، الى جانب اسرائيل وامريكا ، على شعوب المنطقة وسلامها ، وخاصة على الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية ، المتمثلة في ثورته •

الواقع ، ان الكيان الصهيوني كان وما يزال ، يرفض التسوية بمعناها الدارج وكما يفهمها الناس العاديون ، متمثلة في المعادلة البسيطة : انسحاب مقابل اعتراف • اي التسوية القائمة ، بشكل او بأخر ، على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، وهي لا تتناقض جذريا مع شعار ازالة اثار العدوان ، الذي طرح بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ • والاكيد ، ان مثل هذه التسوية ، ان جازت ، فانها ستكون انجازا ضخما للكيان ، اذ انها ، على الاقل نظريا ، ستحل عقدة الاعتراف بشرعية الكيان ، وتحول القضية من صراع على وجود ، الى نزاع حول طبيعة ذلك الوجود • اي انها تحرف الصراع عن قيام الكيان وتركزه على مقوماته • ومع ذلك فقد رفضت اسرائيل هذه التسوية كما اتضح خلال خمس سنوات من المفاوضات عليها • وفي نظر القيادة الصهيونية ، لا تليق هذه التسوية الحد الأدنى المطلوب للكيان على الصعيد الجغرافي ، كما انها لا تؤمن بالضرورة متطلباته على الصعيدين ، السياسي والامن • وفي مقابل التسوية بفهومها

الشائع ، طرح قادة الكيان مشاريع متعددة للتسوية ، يحاولون عبرها تحقيق اطماعهم على الصعيد الجغرافي ، كما يصارعون ويناورون ، وقد يلجأون الى القتال احيانا ، كما حدث في الجنوب اللبناني ، اذار (مارس) ١٩٧٨ ، في سبيل انجاز المهمة الموكلة اليهم في المنطقة . وعبر المشاريع الاسرائيلية للتسوية ، يسعى قادة الكيان لضمان مقوماته ، سواء ما يتعلق منها بمهامه في المنطقة ، ام بالعلاقات الاقتصادية والسياسية مع الدول العربية ، ام بالعلاقة مع البلد الام : مساعدات اقتصادية وعسكرية ، ودعم سياسي ومعاهدات ٠٠٠ الخ . وعندما يطلع المؤتمرون في « كامب ديفيد » ، ويعلنون انهم قد توصلوا الى اتفاق حول الخطوط العريضة لتسوية شاملة في المنطقة ، فالاكيد ان هذه الخطوط لا تتطابق مع خطوط التسوية بمفهومها الشائع ، وانما تتقاطع معها . وربما كان في كلام بيغن ، الذي زفه نائبه ، يغثال يادين ، لينقله بدوره الى المستوطنين فسي اسرائيل ، اكبر دليل على أن ما تم الاتفاق عليه في « كامب ديفيد » ، لا يمت بصلة الى التسوية التي كان يدور الكلام عنها ، ان قال : « لقد حصلت المعجزة ، وحصلنا بفضلها على السلام والارض معا » .

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ ، اصبر مجلس الامن بالاجماع ، قراره رقم ٢٤٢ ، الذي يدعو الى انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها في الحرب . وقبلت اسرائيل القرار شكلا ، ولكنها رفضت الالتزام بتنفيذه فعلا ، متذرة بانه لا يلزمها بالانسحاب الكامل . وعلى اي حال ، فقد كان تصرفها بعد الحرب ، يفضح بشكل صارخ قبولها اللفظي للقرار . ولم تمض فترة قصيرة على القرار ، حتى كشفت اسرائيل عن سياستها ازاء المناطق المحتلة ، والقائمة على مبدأ التوسع والضم الزاحف . وكان الخلاف بين اطراف المؤسسة الحاكمة في اسرائيل ، ينحصر في حجم الاراضي الواجب ضمها ، انطلاقا من اعتبارات تتعلق بالطابع الديمغرافي (السكاني) لاسرائيل . ففي تلك الحرب ، احتلت اسرائيل ارضا تفوق مساحتها هي باربعة اضعاف . وكذلك ، وصل عدد العرب الفلسطينيين الواقعين تحت احتلالها الى المليون ونصف المليون تقريبا . ومن جهة اخرى ، لم تحدث هجرة واسعة الى اسرائيل ، تلبية متطلبات الاستيطان في المناطق التي احتلت حديثا . ومع ذلك كان جمهور المستوطنين الصهاينة ، باغلبيته ، يدعم اكثر اطراف المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة تصلبا ، خصوصا في مسألة الانسحاب . وبرز في اسرائيل بقوة تيار « ارض - اسرائيل الكاملة » ، الذي دعا الى ضم جميع المناطق المحتلة ، ورفع شعار عدم الانسحاب « حتى ولا من شبر واحد » . وانصوى تحت لوائه العديد من الاحزاب اليمينية والدينية ، وعدد غير قليل من حزب العمل الحاكم ايضا . وراحت اسرائيل بعد الحرب ، توسع استيطانها ليشمل الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة ، وحتى سيناء . كما بدأت تخطط لاحاق تلك المناطق بالاقتصاد الاسرائيلي ، وشرعت منذ البداية

باستغلال طاقة العمل المتوفرة فيها . ومن موقع الشعور بالقوة ، والطمأنينة اليها كرادع لدول المواجهة العربية ، والمبالغة في تقدير القوة الذاتية ، والحجم الحقيقي لها ، ناهيك بالاستخفاف بالهيئات الدولية وقراراتها ، انتهجت اسرائيل سياسة ، جعلت التسوية بعد حرب حزيران (يونيو) ، امرا مستحيلا . وذلك رغم ان العرب اكتفوا بعد تلك الحرب بطرح شعار ازالة اثار العدوان ، والذي يتفق وقبولهم بالقرار ٢٤٢ . ولكن مع ذلك ، واستباقا لامكان ان تطرح اطراف او هيئات دولية مشاريع للتسوية من عندها ، وانطلاقا من ان نتائج الحرب تتيح لاسرائيل مجالا لانجاز تسوية تلبي اطماعها التوسعية ، وتنتزع من العرب الاعتراف بها ، بشروط تملئها هي ، فقد طرحت في اسرائيل عدة مشاريع للتسوية ، كان اولها « مشروع الون » ، القائم على مبدأ « الحل الوسط الاقليمي » والذي تقدم به صاحبه في تموز (يوليو) ١٩٦٧ ، قبل انقضاء شهر على وقف اطلاق النار في حرب حزيران .

مشروع الون : الحد الاقصى من الارض بالعدد الادنى من الفلسطينيين

ينتمي الون الى مدرسة فكرية صهيونية ، تقدم « وحدانية الشعب » على « تكامل الارض » ، وتدعو الى الحفاظ على مبدأ « يهودية الدولة » ، حتى ولو كان ذلك على حساب المبدأ الصهيوني الداعي الى نكامل « ارض - اسرائيل » . ومن هنا ، جاء مشروعه في جوهره ، قائما على ضم اكبر مساحة ممكنة من الارض ، بحجة الضرورات الامنية ، واقل عدد ممكن من السكان العرب ، حرصا على « النقاء العنصري » للدولة اليهودية . وهو اذ ينطلق من مبدأ حقوق « الشعب اليهودي التاريخي » في استيطان « ارض - اسرائيل » ، يأخذ بعين الاعتبار المشكلات الديمغرافية التي تترتب على ذلك . وفي حين يدعو الى التوسع الاستيطاني ، بذريعة حاجة اسرائيل الى « حدود قابلة للدفاع عنها » ، يريد المحافظة على الطابع اليهودي السائد للكيان . والى جانب هذا وذلك ، يأخذ الون في حسابه الواقع الدولي والعربي ، وامكان ان يلقي مشروعه قبولا ما . وفي الجولان يريد الون الاحتفاظ بالهضبة ، التي تؤمن السيطرة على منابع نهر الاردن ، وتعزز امن المستوطنات اليهودية في الشمال . اما الباقي ، فيرى الون اعادته الى سوريا ، بعد الاتفاق على تجريده من السلاح . وفي سيناء يريد الون ضم شريط ، يتسع احيانا ويضيق اخرى ، بمحاذاة الحدود الدولية بين مصر وفلسطين ، ويمتد من العريش الى محاذاة ايلات ، ثم بموازاة شاطئ خليج العقبة الى شرم الشيخ . ويعيد ما تبقى من شبه الجزيرة الى مصر ، بعد ضمان تجريده من السلاح . وفي فلسطين ، يدعو الون الى ضم جزء كبير من الاراضي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، خصوصا غير الالهة بالعرب بكثافة ، بما في ذلك القدس ، التي ستبقى موحدة ، عاصمة لاسرائيل . وتعاد الى

الدولة الاردنية - الفلسطينية ، كما يسميها ، التجمعات السكانية العربية • في الضفة والقطاع • وهو ، بطبيعة الحال ، يرفض قيام دولة فلسطينية مستقلة ، كما يرفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية او منح الشعب الفلسطيني حق تقرير المصير ، ويغلف حله للقضية الفلسطينية بكلام منمق ، كالادارة الذاتية ، والتعبير عن الهوية في الجزء الشرقي من « فلسطين التاريخية » ، والذي سيصبح دولة اردنية - فلسطينية • وعلى هذا الاساس ، يريد الون عقد سلام شامل وكامل ، ربما على مراحل ، مع الدول العربية ، بما فيه اقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية ••• الخ •

ورغم ان الون قدم مشروعه لحكومة اشكول لمناقشته ، بعد شهر واحد على وقف اطلاق النار في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، الا ان تلك الحكومة لم تبحث في المشروع بشكل رسمي ، ولم تقره او ترفضه ، وكذلك فعلت حكومات لاحقة ، شارك فيها الون جميعا ، وبمناصب مختلفة • ومع ذلك ظل مشروعه بمثابة « المخطط الهيكلي » الفعلي للاستيطان في المناطق المحتلة ، خصوصا في الضفة الغربية ، حتى وصول بيغن الى الحكم ، في ايار (مايو) ١٩٧٧ • وكان من اهم اسباب ارجاء الحكومة الاسرائيلية البحث في « مشروع الون » لدى تقديمه ، كونها في حينه حكومة « ائتلاف وطني » ، تضم جميع الاحزاب الصهيونية ، وهي الحكومة التي تشكلت عشية حرب حزيران ، ومن اجلها • وكان واضحا ان مناقشة المشروع ستؤدي • بالضرورة ، الى تفجير الخلافات داخل تلك الحكومة ، وبالتالي الى حلها • ومنذ ان قدم مشروعه ، ظل الون يعمل في الحكومات التي شارك فيها ، وهي الحكومات التي ترأسها على التوالي اشكول ، ومئير ، ورايين ، من اجل تبني مشروعه كموقف لاسرائيل ، سواء للمفاوضات ام للاعلام ، ام للرد على مشاريع مطروحة من خارج اسرائيل ، ولكن دون جدوى •

وخلافا لرأي الاكثرية في الحكومات التي شارك فيها ، رأي الون ضرورة ان تمتلك اسرائيل مشروعا للتسوية ، تطرحه في المحافل الدولية وعلى السدول العربية ، كأساس للمفاوضات وقد ذهب الون الى ذلك ، انطلاقا من قناعة ذاتية بملاءمة الطرف السياسي لخطوة كهذه ، واستباقا لامكان ان تطرح اطراف معينة ، خارج اسرائيل ، مشاريع للتسوية ، قد لا تتفق ونوايا الاخيرة ، مما قد تضطرها الى الرفض ، والظهور بمظهر المتصلب امام الرأي العام العالمي ، وهذا في اعتقاده ، ليس في مصلحة اسرائيل ، خصوصا اذا صدر مثل هذه المشاريع عن الولايات المتحدة • واعتقد الون ان الدول العربية ، وما ظنه احاق بها من ارتباك بعد الهزيمة ، ستكون اكثر طواعية لقبول الاملاءات الاسرائيلية • وكذلك فقد توقع ان اتفاقا مع دول المواجهة العربية ، يضمن تسوية ما للقضية الفلسطينية ، سيقطع الطريق على تنامي الحركة الوطنية الفلسطينية • وتولدت

لديه قناعة بان اسرائيل ، من موقع القوة التي تتمتع بها في اعقاب النصر الباهر ، سيسهل عليها تحقيق اهدافها الاستراتيجية بالنسبة الى ضمان امن الكيان ومقوماته . وعلى اي حال ، فقد احس ألون بان هناك فرصة تاريخية لتثبيت اركان الدولة اليهودية ، وانتزاع الاعتراف العربي بها ، فنادى بالاسراع الى انتهازها وعدم تفويتها .

وحتى سنة ١٩٧٣ ، حين بلور حزب العمل ، بعد مناقشات شاملة ومستفيضة مشروعاً عرف باسم « وثيقة غليلي » ، ظل ألون الوحيد بين زعماء حزب العمل ، الذي يملك تصوراً شاملاً للتسوية ، والذي يطرح مشروعاً مبلوراً للتفاوض بشأنها . وحتى بعد ان وضع حزب العمل « وثيقة غليلي » ، واتبعها ب « وثيقة المبادئ الاربعة عشر الموجهة » ، وذلك بعد حرب تشرين اول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، ظل حزب العمل ، لاسباب سياسية ، داخلية وخارجية ، يتحاشى الالتزام بمشروع مفصل ، او بخريطة للتسوية . وخلال فترة طويلة ، استكانت قيادة الحزب الحاكم الى قرار اللاتخاذ . ووجدت فيه مخرجاً لها من ازمة العلاقات المتوترة بين اجنحتها ، وفي الوقت ذاته ، ذريعة للابتزاز ، سواء من امريكا ام من العرب ، برفض اعلان موقف صريح قبل دخول الدول العربية المعنية في مفاوضات مباشرة مع اسرائيل . ولكن ذلك لا يعني ان زعماء حزب العمل ، او بعضهم على الاقل ، لم يكن لهم موقف ، او مواقف ، من مسألة المناطق والحدود والتسوية . وتفاوتت تلك المواقف في قربها او بعدها من مشروع ألون ، الا ان الموقف العام لقيادة حزب العمل ظل يحوم حول مقولة « الحل الاقليمي الوسط » ، على جميع الجبهات ، دون العودة الى حدود ما قبل حرب حزيران ، ودون القبول بقيام دولة فلسطينية .

دايان : شرم الشيخ دون سلام ، خير من سلام دون شرم الشيخ

ظل موشيه دايان خلال فترة اذنتسابه الى حزب العمل ، سواء في الحكومة ام خارجها ، أبرز المعارضين لمشروع ألون ، يؤيده في ذلك ، دون البروز العلني ، الوزير يسرائيل غليلي ، الذي عرف بقربه من رئيسة الحكومة آنذاك ، غولده مئير . اما شمعون بيرس ، ويتسحاق رابين ، فقد اتخذوا موقفاً وسطاً بين هذين ، مع اختلاف فيما بينهما ، على مفهوم التسوية وشروطها . وكان موقف ابا ايبين الاقرب الى مشروع ألون ، في حين دعا بنحاس سابير الى اعادة جميع المناطق المحتلة لقاء تسوية شاملة . وكان دايان يرفض بشدة ، فكرة الانسحاب من الضفة والقطاع ، مهما كان المقابل . وهو صاحب شعار « شرم الشيخ بدون سلام ، خير من سلام بدون شرم الشيخ » . وفي الجولان ، دعا دايان الى مضاعفة الاستيطان ، وعدم التنازل عنه ، واذا جرت مفاوضات مع سوريا ،

فيجب ان تكون في شأن سواها . ومع ان دايان لم يترك صغيرة او كبيرة ، تتعلق بالمناطق المحتلة او التسوية ، تمر دون اتخاذ موقف منها ، وكانت موافقه متناقضة احيانا ، يلعب فيها العامل الشخصي دورا كبيرا ، الا انه لم يبلور ، طوال بقائه في حزب العمل ، مشروعا متكاملًا للتسوية كما يريد لها . وبعد الانتخابات الى الكنيست التاسع ، ايار (مايو) ١٩٧٧ ، انسلك دايان عن حزب العمل ، والتحق بحزب ليكود الحاكم ، حيث تولى منصب وزير الخارجية في حكومة بيغن . وبحكم موقعه في هذه الحكومة ، يصبح شريكا لمشروع التسوية الذي تقدم به بيغن ، في لقاء القمة في الاسماعيلية ، وهو المشروع الذي لا تزال اسرائيل تفاوض على ارضيته ، مع تعديلات طفيفة ، ادخلت في « كامب ديفيد » .

بيغن : الارض اولا

على العكس من الون ، ينطلق بيغن في مشروعه ، من المبدأ الصهيوني القاضي بتكامل « ارض - اسرائيل » ، تاركا انجاز مسألة « وحدانية الشعب » الى مرحلة مستقبلية . فالارض في نظره هي العنصر الثابت ، اما السكان العرب عليها ، فهم عامل متغير ، والمهم امتلاك القوة السياسية والعسكرية لفرض ذلك . ويرى بيغن ان الظروف مهياة لضم المناطق المحتلة ، ويسعى لاستغلالها . وعندما يتكلم عن الحل الوسط الاقليمي فانما يعني بذلك سيناء ، وربما الجولان ، الا انه يصر على عدم الانسحاب من الاراضي التي كانت تشكل فلسطين في عهد الانتداب . وبها يختلف بيغن عن قيادة حزب العمل ، التي طرحت ، بصورة اخرى ، الحل الوسط الاقليمي على الجبهات الثلاث ، لاعتبار الطرف السياسي والمسألة الديمغرافية . اما موقف الطرفين من الدولة الفلسطينية ، وكذلك مفهوم التسوية والجسور المفتوحة ، فيكاد يكون متطابقا .

ومشروع بيغن يترك ، ضمن الحدود التي يراها ، ثلاثة جيوب عربية كبيرة . وهم يتحدث عن منح اثنين منها ادارة محلية ذاتية ، وهما الضفة الغربية وقطاع غزة ، من دون الجليل . وما دام المشروع يرمي الى ضم هذه الجيوب ، فان تطويقها وحصرها يصبحان ضرورة امنية حيوية وملحة . فالضفة الغربية ، التي يعيش فيها نحو سبعمائة الف فلسطيني ، مطوقة بالاستيطان الصهيوني ، قبل سنة ١٩٦٧ ، من جهات ثلاث : الشمال والغرب والجنوب . ولذلك ، عمدت اسرائيل ، بعد الاحتلال الى اكمال الطوق عليها في غور الاردن ، وعلى امتداد النهر . ومن هنا تصر اسرائيل على ان يكون نهر الاردن حدها الامني . هذا بالاضافة الى اختراق الضفة الغربية وبنائها ، عن طريق الاستيطان ، لتفتيت بنائها الاقتصادي والاجتماعي ، وبالتالي السياسي ، بعد عزلها عن التوجه نحو

العالم العربي ، وقطع صلة الثورة الفلسطينية بها ، سياسيا وعسكريا . وفي قطاع غزة اربعمئة الف من الفلسطينيين تقريبا ، وهو مطوق من الشمال والشرق ، والى الغرب منه البحر ، ولاكمال الطوق من حوله ، بنت اسرائيل المستوطنات في مشارف رفح ، وظلت تؤكد اهميتها الامنية ، وبالتالي ضرورة ضمها ، الى ان تم الاتفاق على الانسحاب منها في « كامب ديفيد » . اما الجليل ، فان احكام الطوق عليه يتم عبر النشاط الصهيوني في الجنوب اللبناني ، والذي كان الاجتياح الاسرائيلي له في اذار (مارس) ١٩٧٨ ، اخر مظهره .

وبالاضافة الى ذلك ، يتحدث مشروع بيغن عن ضرورة احتفاظ اسرائيل ، وضرورات امنية ، بثلاثة مطارات شرقي سيناء : احدهما في مشارف رفح (ايتام) ، والثاني غربي ايلات (عتسيون) ، والثالث في شرم الشيخ (اوفيرا) . وبذلك تنوي اسرائيل ضم شريط في سيناء ، يمتد على طول الحدود الدولية بين فلسطين ومصر ، من العريش الى ايلات ، ويسير بمحاذاة شاطئ خليج العقبة الى رأس محمد ، على البحر الاحمر . ومع ذلك فان اسرائيل تدعي الاعتراف بالسيادة المصرية على سيناء ، ومع الزمن ، ستعيد هذه الاراضي الى مصر ، على ان تبقى مجردة من السلاح ، وعلى الا يعبر الجيش المصري خط ممري متلا والجدي ، في غربي سيناء . ومشروع بيغن لا يتعرض للجولان ، ومن الواضح ان مخططة التوسعي يضم الجولان ، او الهضبة على اقل تقدير ، لتأمين السيطرة على منابع نهر الاردن ، ولحماية المستوطنات اليهودية في الحولة والجليل . هذا بالاضافة الى اصراره على ان تتضمن التسوية الشاملة مع دول المواجهة العربية ، علاقات واقتصادية . . . الخ . وعلى اساس هذا المشروع فإوض بيغن السادات ، وعلى اساسه اختلف معه ، وأوصل المفاوضات الى حافة الانهيار . ثم عادا واتفقا ، بعد ادخال بعض التعديلات على مشروع بيغن ، تتعلق اصلا بالسيادة المصرية على جميع سيناء ، في « كامب ديفيد » ، ولكن سرعان ما عادا واختلفا ، وعاد بيغن يهدد بسحب مشروعه والمطالبة باجراء تعديلات جذرية على الحدود الدولية مع مصر .

الإدارة الذاتية باقتوستان مرحلي الى ان تتم تصفيته

لم يكن بيغن اول من طرح الادارة الذاتية لسكان المناطق المحتلة في اسرائيل . فالون مثلا ، طرح الفكرة بعد حرب حزيران مباشرة ، في مشروعه الذي لم يحظ بدراسة جدية من قبل حكومته ، ولم تتبناه بصورة رسمية اية حكومة اسرائيلية بعد . وقد اثار طرحها من قبل حكومة رايبين ، في نهاية عام ١٩٧٥ ،

اهتماما واسعا . فكانت هناك ردود فعل قوية عليه من الاطراف المعنية ، كما اولته الصحف الاسرائيلية عناية كبيرة في تعليقاتها وتحليلاتها . وفي تلك الصحف كان شبه اجماع على مسألتين : اولا ، ان الفكرة جاءت متأخرة ، وانها ربما كانت ستلقى نجاحا لو انها طرحت بعد الاحتلال مباشرة . ثانيا ، انها تلاقي معارضة شديدة من قبل سكان المناطق ، وحتى من قبل الزعامة التي تراهن عليها سلطات الاحتلال لتجسيد الفكرة . وأوحى العديد من تلك الصحف ان الهدف من مشروع الادارة الذاتية هو تشجيع قيام زعامة محلية في المناطق المحتلة ، تصبح مع الوقت ممثلا شرعيا للشعب الفلسطيني هناك ، بدلا من منظمة التحرير ، ويمكن من خلالها انجاز تسوية ما ، تمكن من استمرار نمط العلاقة القائمة في حينه بين سلطات الاحتلال وسكان المناطق .

وقد برز هذا التفكير في اقامة ادارة ذاتية في الضفة والقطاع ، بعد قرارات الرباط ورفع يد الاردن عن تلك المناطق ، فجاء الطرح الاسرائيلي على هذه الخلفية ، موجها في الاساس ضد قرارات الرباط ، وليس تحركا جديا لمنح السكان حكما ذاتيا . فما دام الاردن لم يعد مرشحا ليكون شريكا في المفاوضات على مستقبل الضفة والقطاع ، واسرائيل لن تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ، او تقبل بها شريكا في حل قضية المناطق المحتلة ، لم يبق امام حكومة اسرائيل للمناورة سوى اعلان رغبتها في منح سكان المناطق حكما ذاتيا ، يخرجهم من وصاية الاردن ، ويقطع الطريق على احتلال منظمة التحرير محله .

وعندما طرح مشروع الادارة الذاتية ، ايام ولاية رابين (١٩٧٥) ، كانت الثورة الفلسطينية تخوض معركة مصيرية في لبنان ، في مواجهة مؤامرة تستهدف ، اولا وقبل كل شيء كسر شوكة هذه الثورة ، وتطوير منظمة التحرير ، ودفعها الى هامش النشاط السياسي في المنطقة ، بعد ان احرزت مكتسبات سياسية كبيرة ، في الرباط والامم المتحدة . وقد جاء طرح المشروع بعد انجاز اتفاقية سيناء ، وتعثر المفاوضات على تسوية مرحلية موازية في الجولان ، واشتداد الخلاف بين سوريا ومنظمة التحرير من جهة ، وبين مصر من الاخرى . وكل ذلك ، بعد ان انتزعت المنظمة قرارات الرباط والامم المتحدة ، واستمر بروزها على الصعيد السياسي ، واتسع نطاق الاعتراف الدولي بها ، مما انعكس في ترسيخ تمثيلها للشعب الفلسطيني ، والتفاف هذا الشعب حولها ، وفي المناطق المحتلة بالذات . وقد حمل كثيرون في اسرائيل حكومة رابين ، مسؤولية بروز المنظمة كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني . وبدأ للكثيرين ان القيادة الاسرائيلية ، بزعامة رابين ، مرتبكة في تعاملها مع الموضوع الفلسطيني . فلا هي قادرة على شطبه من المعادلة السياسية ، وبالتالي من الخريطة الجغرافية ، ولا هي اثبتت جديتها في قطع الطريق على

منظمة التحرير ، بالتوصل الى حل مع الاردن • وفي نفس الوقت لم تعمل على ايجاد قيادات بديلة في الضفة والقطاع ورعايتها • هذا ولا تنفك تعلن رفضها الاعتراف بمنظمة التحرير والدخول معها في مفاوضات للتسوية • وعلى ارضية هذا الارتباك ، ويهدف الخروج من مأزقها الداخلي ، الذي حال دون امكان اتخاذها قرارا بشأن الضفة والقطاع ، ومواجهة الضغوط الخارجية لاستمرار التحرك في مسار التسوية ، نظرا لان منظمة التحرير تستغل تعرقل التسوية لتثبيت مواقعها ، طرح وزير الدفاع الاسرائيلي آنذاك ، شمعون بيرس ، فكرة الادارة الذاتية ، عام ١٩٧٥ • وبذلك لم تكن هذه في حينه الا مناورة للرد على قرارات الرباط ، اذ ان الموقف الثابت لحزب العمل ، كان « الحل الوسط الاقليمي » على الجبهات الثلاث ، والذي ترجمته العملية اعادة المناطق المأهولة بكثافة سكانية عربية ، في الضفة والقطاع ، الى الاردن ، ضمن اتفاق تسوية شامل معه • ولا يزال هذا موقفه الى اليوم ، انطلاقا من مبدأ الحفاظ على « يهودية الدولة » ، ودرءا لامكان قيام دولة فلسطينية مستقلة بين اسرائيل والاردن •

وفي اطار مفاوضات التسوية ، خاصة بعد مبادرة السادات ، واجهت حكومة بيغن نفس المشكلة ازاء المسألة الفلسطينية • فهي كما ذكرنا ، لا تعترف بمنظمة التحرير ، وتصر على عدم التعامل معها ، بأي شكل كان • وهي كذلك ، تنطلق في مشروعها للتسوية من مبدأ الاحتفاظ بالارض ، وعدم اخلائها لصالح اي طرف كان ، بما في ذلك الاردن • وقد اعلن بيغن موقفه هذا مرارا ، كما سبق لدايان وجاهر به ، عندما كان في السلطة وكذلك خارجها ، مؤكدا على ضرورة الا تنسحب اسرائيل من الضفة والقطاع • ولكن مثل هذا المشروع يبقي ، ولو مرحليا ، ثلاثة جيوب عربية كبيرة داخل الحدود المطروحة للكيان • وهو بطبيعة الحال ، يخلق ازمة ديمغرافية ، تتعلق بأحد اهم المبادئ الصهيونية - يهودية الدولة • وحاليا على الاقل ، لا مجال لطرد هؤلاء السكان العرب ، خاصة وان المفاوضات على التسوية جارية ، والكيان لا يغص بالمستوطنين ، ولا هو محط انظار موجات المهاجرين اليهود • لذلك ، يبقى اهون الشرور ، من وجهة نظر بيغن ، الحل المرحلي المتمثل في الادارة الذاتية ، وهو ما كان دايان يدعو اليه دائما ، وربما كان احد الاسباب الرئيسية في اختيار بيغن له وزيرا للخارجية •

الواقع ان بيغن لا يريد لأي طرف عربي سيادة سياسية غربي النهر • وليس طرحه للادارة الذاتية الا من هذا القبيل • وهو يرى فيه امكان التمويه على حقيقة نيته في ضم المناطق المحتلة ، على الاقل خلال فترة المفاوضات • اما هدفه البعيد المدى ، فهو بسط السيادة الاسرائيلية على تلك المناطق ، والتخلص من سكانها بطريقة او بأخرى • وفي « كامب ديفيد » حصل بيغن على جزء كبير مما يريده من السادات على هذا الصعيد • فبعد ان رفض السادات مشروع

بيغن في البداية ، و أعلن أكثر من مرة ، اصراره على انسحاب اسرائيل من الضفة والقطاع ، بما فيها القدس الشرقية ، وان هذا الامر يأخذ اولوية على مسألة سيناء ، مما أدى الى عرقلة المفاوضات بعد المبادرة ، كما في جميع المؤتمرات اللاحقة ، عاد السادات وقبل بمشروع بيغن للادارة الذاتية ، بدلا من الدولة الفلسطينية ، التي ظل ينادي بضرورة قيامها . وبعد « كامب ديفيد » ، عاد الخلاف واندلع بين الطرفين حول قضية تنفيذ الادارة الذاتية ، وربط ذلك بالاتفاق على معاهدة السلام مع مصر . والواضح ان بيغن لن يقبل بذلك ، لانه لم يكن ينوي تنفيذ المشروع كما فهمه السادات اصلا .

قيام الدولة الفلسطينية يحول دون امكان انجاز المشروع الصهيوني

منذ ان دخلت اسرائيل في مفاوضات التسوية ، والى ان حققت نجاحها الاكبر في « كامب ديفيد » ، ظل موقفها من مسألة « الدولة الفلسطينية » ، ثابتا لا يتزحزح . فهي انطلاقا من الموقف الصهيوني التقليدي ازاء الشعب الفلسطيني ، القائم على مبدأ تشريده وتذويبه ، ليتسنى للكيان تأمين قاعدة عدوانه ، رفضت ، وبصورة قاطعة ، البحث في امكان حل « القضية الفلسطينية » عن طريق اقامة دولة فلسطينية . واصرت على موقفها هذا ، حتى نجحت في تثبيته في اتفاقات « كامب ديفيد » . وقد وعى قادة الكيان معنى قيام دولة فلسطينية ، بغض النظر عن طبيعة الحكم فيها ، وابعاد ذلك على استكمال المشروع الصهيوني في المستقبل . وبالامكان القول انه ، فيما خلا بعض الفئات الهامشية في الكيان ، والتي لا اثر لها في صنع القرار السياسي ، هناك اجماع لدى القوى السياسية في الكيان ، على رفض اي مشروع ، من شأنه ان يعطي الفلسطينيين فرصة اقامة كيان سياسي مستقل . وسواء انطلق المشروع الاسرائيلي للتسوية ، من مبدأ « الحل الوسط الاقليمي » ، وهو ما يتبناه حزب العمل المعارض ، ام من مبدأ « ارض - اسرائيل الكاملة » ، الذي يتبناه حزب ليكود الحاكم ، يبقى القاسم المشترك لهذه المشاريع ، على الاختلافات التفصيلية بينها ، اذا جاز لها ان تمر وتؤدي الى تسوية ، انطلاقا جميعا من مبادئ صهيونية ، تهدف في الاساس الى انجاز مرحلة اخرى على طريق استكمال المشروع الصهيوني . وفي كلتا الحالتين ، سيكون قيام دولة فلسطينية مستقلة حائلا دون امكان تحقيق الهدف النهائي - دولة يهودية على ارض - اسرائيل الكاملة . ومن هنا قال اصحاب « الحل الوسط الاقليمي » بضرورة اعادة التجمعات السكانية العربية في الضفة والقطاع ، مزحليا ، الى الاردن ، ضمن اتفاقية تسوية ، تضمن بقاء الجسور مفتوحة ، للبضائع والناس على حد سواء ، واستمرار الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية ، من خلال حق الاستيطان في تلك المناطق ، والاقرار بأن نهر الاردن هو الحد الامني

لاسرائيل ، والحق الاقتصاد في تلك المناطق بالاقتصاد الاسرائيلي . وهذا يمهّد الطريق لاستكمال المشروع في المستقبل ، عن طريق تهويد الارض ، واخلائها بشكل او باخر ، من سكانها العرب . اما اصحاب مذهب « ارض - اسرائيل الكاملة » ، فهم يرون الحل عن طريق وضع اليد اليهودية على الارض ، وتحويل التجمعات السكانية العربية الى بانثوسقانات ، تحت غطاء الادارة الذاتية ، على ان يتم تهجيرهم ، بشكل او باخر ، في المستقبل . وعلى رغم الخلاف التكتيكي بين جناحي الاحزاب الصهيونية ، يبقى هدفهما الاستراتيجي واحدا ، وهو في جوهره يتناقض مع قيام دولة فلسطينية . ومن هنا ، كان هذا الموضوع غير قابل للنقاش من جانب قيادة الكيان ، فيما ابدى هؤلاء ، وفقا لمراحل المفاوضات ، مرونة اكثر بالنسبة الى باقي المواضيع المطروحة في اطار التسوية . فبالنسبة الى الموضوع الفلسطيني ، كان الموقف الاسرائيلي صهيونيا ، ينطلق من مبدأ عدم قطع الطريق على استكمال المشروع الصهيوني في المستقبل . اما فيما يتعلق بباقي المناطق المحتلة ، فكانت القيادة الاسرائيلية ، ولا تزال ، ترى فيها اوراق مساومة .

ورغم موقف اسرائيل الواضح من مسألة الدولة الفلسطينية ، ورغم تصريحات قيادتها القاطعة في هذا الشأن ، فقد اعتبر البعض ، اذا افترضنا حسن النية ، ان موقف اسرائيل هذا انما هو للمساومة ، ولن يلبث ان يتبدل عندما يلوح الفلسطينيون للكيان بالاعتراف . وعندما لم يترك قادة اسرائيل مجالاً للشك بأنهم يعنون ما يقولون ، وانهم في غنى عن هذا الاعتراف ، اذا كان مشروطاً بمبدأ التبادل ، برز الرهان على ان ضغط هذه الدولة او تلك ، ضمن مسار التسوية ، سيفرض على اسرائيل الرضوخ ، والقبول بما يعتبره العالم حلاً عادلاً للنزاع في الشرق الاوسط ، والذي يتضمن اقامة دولة للفلسطينيين ، اسوة بغيرهم من شعوب المنطقة . ولتعزيز مصداقية هذا الرهان ، كثر الكلام عن قوة العرب ، وعن فاعليتهم من خلال نفطهم وتضامنهم ٠٠٠ الخ . وعلى ارضية التسوية ، بمسارها المعهود ، وتحت تأثير هذا الحدث او ذاك ، او بواسطة هذه الدولة او تلك ، او بفعل نشاط هذا التيار او ذاك ، اقحمت منظمة التحرير الفلسطينية في التسوية ، وانقسمت تنظيماتها الى « رافض » و « قابل » ، دونما واقع ملموس لذلك . وغني عن البيان ما ترتب على ذلك من توتر داخل المنظمة ، ومن هدر للطاقات في غير مكانها . الى ان جاء مؤتمر « كامب ديفيد » ، فحسم المسألة ، وأظهر ان الرهان على امريكا ، وعلى « عرب امريكا » ، لم يكن موفقاً جداً . ففي « كامب ديفيد » ، تنكر السادات لجميع التعهدات التي قطعها على نفسه ازاء الفلسطينيين ومسألتهم ، وخذل انصاره ، ممن شجعوه على المضي في طريقه ، وخيب آمال من تطلع الى الفرج على يديه . اما اسرائيل ، فانها عندما شعرت ببعض الليونة في كلام واشنطن ،

واستشفت اماكن تعديل موقفها ، تحت ضغط لوبي النفط العربي ، فتحت معركتها مع الادارة الاميركية ، ووضعت الامور بشكل لا لیس فيه : فاما نحن واما السعودية • وحسمت امريكا لصالح السعودية في صفقة الاسلحة المثلثة الجوانب ، كي تمويل هذه الصفقة بأكملها ، ولصالح اسرائيل في المسألة الفلسطينية ، كما جرى في « كامب ديفيد » • وقبل السادات بذلك ، فدخل شريكا صغيرا في الحلف الجديد ، واخذ تعهدا باستعادة السيادة على سيناء ، مقابل تنازله عن القضية الفلسطينية ، وانضمامه الى جانب اسرائيل ضد وحدة الشعب الفلسطيني ، ووحدة نضاله ومصيره • ففي « كامب ديفيد » ، وبغض النظر عن الكلام المنمق ، الذي يصدر عن اطراف ذلك المؤتمر ، انتزع بيغن موافقة المؤتمرين على مشروعه للضفة الغربية وقطاع غزة ، وهذا الاساس في نظره ، مقابل التنازل للسادات عن سيناء ، وهي التي كانت ورقة مساومة منذ البداية • وبعد « كامب ديفيد » ، عندما أحس بيغن بأن السادات ينسوي احتلال مكان الاردن ومنظمة التحرير في حل القضية الفلسطينية ، عن طريق ربط التوقيع على معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ، بتنفيذ مشروع الادارة الذاتية ، رفض ذلك وقطع المفاوضات •

اتفاقات « كامب ديفيد » نواة « حلف بغداد » جديد

شبهه البعض بـ « مؤتمر يالطا » للشرق الاوسط ، ووصفه اخرون بـ « كوليس صفقة الخيانة » للقضية الفلسطينية ، وقال غيرهم ان « كامب ديفيد » هذا ، هو طريق العودة الى « حلف بغداد » مجددا • انعقد في ٧٨/٩/٥ ، وانتهى في ٧٨/٩/١٨ • اثنا عشر يوما بلياليها ، ناب المؤتمرين فيه على حياكة المؤامرة • وانتهى هؤلاء الى اعلان وثيقتين ، مع الاشارة الى بضع وثائق اخرى ، ستبقى سرية • اما الوثيقتان المعلنتان ، فترسم احدهما الخطوط العريضة لـ « حل النزاع في المنطقة » ، وسميت « اطارا للسلام في الشرق الاوسط » ، وتفصل الثانية شروط التسوية المنفردة ، وسميت « اطارا لمعاهدة سلام بين اسرائيل ومصر » • وستنجز الاتفاقية الثانية خلال ثلاثة اشهر ، ليصبح بإمكان الطرفين التعاون في تنفيذ الاتفاقية الاولى ، خلال فترة زمنية طويلة • وبعد التوقيع على الاتفاقية الثانية ، تقام بين مصر واسرائيل « علاقات طبيعية » ، دبلوماسية وسواها ، وتتعترف اسرائيل بسيادة مصر على سيناء كلها ، على ان يترجم ذلك عمليا بانسحابها منها ، خلال فترة زمنية قد تطول ثلاث سنوات • وفي المرحلة الاولى يتم الانسحاب الى خط في وسط سيناء ، يمتد من العريش الى رأس محمد ، على ان تبقى هذه المنطقة مجردة من السلاح ، وعلى ان يكون حد تقدم القوات المصرية خط الممرات الى الغرب • وفي نفس الوقت ، يجري العمل على تمهيد الطريق لتنفيذ الاتفاقية الاولى ، بدءا بالضفة الغربية

وقطاع غزة ، ووفقا لمشروع بيغن ، القاضي بعدم انسحاب اسرائيل منهما ، ومنح سكانهما ادارة مدنية ذاتية ، ربما باشتراك الاردن في تحقيق ذلك .

وحتى لو تركنا الوثائق السرية جانبا ، فالمعلنة منها تكفي للدلالة على ان مؤتمر « كامب ديفيد » ، لم يكن مؤتمرا للسلام في المنطقة ، ولحل النزاع فيها بصورة عادلة ، كما كانوا يتباحثون ، وانما هو بالاساس ، مؤامرة على شعوب المنطقة العربية و سلامها . وهكذا ، فهو لا يمت بصلة الى التسوية التي كان الناس العاديون يتحدثون عنها ، منذ حرب تشرين . وعلى هذه الشعوب ، وخصوصا قيادات القوى السياسية الوطنية فيها ، ان تعي ذلك جيدا ، وتتصرف على اساسه ، بأقصى درجات الجدية . ونقول ان مؤتمر « كامب ديفيد » هو مؤامرة على سلام شعوب المنطقة ، لانه يتم بالخفاء ، وراء ضباب كثيف للتعتيم على ما يجري فيه ، وبرعاية الولايات المتحدة ، زعيمة المعسكر الامبريالي في العالم ، وبالطبع ، وفقا لمصالحها هي ، وعلى حساب مصالح جماهير الامة العربية ، ولن يتم تنفيذ حلقات المؤامرة الا بالعنف والقهر . وهو مؤامرة لانه ينطلق من الاعتراف بالكيان الصهيوني ، كما هو ، بطبيعته الاستيطانية العدوانية ، وبارتباطه بالامبريالية . بل اكثر من ذلك ، فاتفاقات « كامب ديفيد » تنطلق من تصور تحالف نظام السادات مع اداة العدوان على شعوب المنطقة ، اسرائيل ، لتنفيذ المؤامرة . واسرائيل من موقع قوتها ، لن تشارك في تنفيذ ما يضر بمصالحها ، وانما الواضح ان السادات هو الذي سيقدم خدماته لها ، ليتسنى لها انجاز ما قصرت عنه خلال ثلاثين عاما من قيامها ، وكل ذلك تحت غطاء التسوية . والمؤتمر ، كما هو واضح للجميع ، مؤامرة لتصفية الحركة الوطنية الفلسطينية ، واحباط نضالها بضرب ثورتها ، وتفسيخ الشعب الفلسطيني ، وتفتيت وحدته ، نضالا ومصيرا . ولذلك قبلت به اسرائيل . ولما تراجع السادات عن بعض ما تم الاتفاق عليه ، رفضت اسرائيل ذلك ، واصرت على تنفيذ الاتفاق بنصه وروحه . ومن هنا تعرقل مفاوضات « بلير هاوس » ، وجمودها الراهن .

وقد جاء مؤتمر « كامب ديفيد » بنتائجه ، تتويجا لمسار بدأه السادات في حرب تشرين ، وربما قبلها . اما من زاوية نظر الكيان الصهيوني ، فهو محطة اخرى على طريق انجاز المشروع الصهيوني في مرحلته الحالية ، التي بدأت بحرب حزيران ، وما ترتب عليها . ومنذ بدء مفاوضات التسوية ، بعد حرب تشرين ، كان واضحا ان السادات يريد تسوية تتفق واهداف تلك الحرب ، من زاوية نظره ، وبشروط تتناسب وما اعتبره نتائج لها . اما اسرائيل فقد دخلت التسوية ، وفي ذهنها صورة مختلفة لنتائج حرب تشرين ، وارادتها تسوية بشروط تجسد اهدافها من حرب حزيران ، وتتلاءم مع نتائجها الواضحة . وبدا الى حين ، الا مجال لحسر الثغرة بين المتفاوضين ، وانه لا بد من حرب اخرى

تحسم الامر . وفي « كامب ديفيد » ، حسم الامر سلما ، فخرج بيغن بنصيب الاسد ، محققا بذلك الاهداف الاساسية من حرب حزيران ، وتاركا للسادات نصيب الضبع ، كما يليق به ، على ارضية مفهومه لحرب تشرين ونتائجها . فلقد ارادها هذا حرب تحريك ، رغم ارادة الجماهير العربية ، التي دفعت بأبنائها الى القتال ، فخاضه هؤلاء بكل بسالة ، ووضعوا المستوطنين الصهاينة ، ولاول مرة منذ ١٩٤٨ ، امام السؤال المصيري حول مستقبل وجودهم فسي المنطقة العربية . الا ان السادات ، استكمالا لمخططه من الحرب ، طلع بمشروع التسوية السلمية ، وباقتراح مؤتمر جنيف ، ليصار الى تحريف الاسئلة المصيرية، وتحويلها الى اسئلة جغرافية . وبدلا من مواصلة النضال على ارضية ما حققته حرب تشرين ، من اجل دحر العدو ، سياسيا وعسكريا ، بعد ان تم وضعه امام استلته المصيرية ، عمد السادات الى التسوية ، والى الارتقاء في احضان امريكا ، فانتهى في القدس ، ثم في « كامب ديفيد » . وصارت التسوية مسألة جغرافية تفصيلية ، على الاقل في جانبها العلن ، تتعلق بعدد الكيلومترات التي سيتم الانسحاب منها . وصار السلام حربا على القوى الوطنية العربية ، بدلا من ان يكون صياغة جديدة للوجود الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، تطهره من عنصريته ، وتخرجه من انعزاليته الغيتوية ، وتفصم ارتباطاته العضوية بالامبريالية ، وبالاختصار - تنهي المسألة الاسرائيلية التي خلقها هذا الوجود بطبيعته الاستيطانية . وصار السلام استسلاما للامبريالية الاميركية ، وترسيخا لنفوذها في المنطقة ، بدلا من ان يكون تحررا من ذلك النفوذ ومظاهره واعوانه ، وتصفية لمصالحه الاستعمارية في العالم العربي .

ومنذ البداية ، سارت التسوية المطروحة بتنسيق تام وواضح بين اسرائيل وامريكا ، نحو الالتفاف على مؤتمر جنيف ، وباتجاه السير « خطوة - خطوة » على طريق الاتفاقات الثنائية . وكان هدف الطرفين من ذلك واضحا : اخراج الاتحاد السوفياتي من مفاوضات التسوية ، والحؤول دون ترسيخ التضامن العربي في اثنائها ، وابعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن المشاركة فيها . ومعروف ان فكرة مؤتمر جنيف كانت مصرية في اساسها ، بينما كانت فكرة الحل المرحلي ، على خطوات تجري ثنائيا مع كل دولة عربية على حدة ، هو الخط الاسرائيلي ، الذي طرح حتى قبل الحرب . وسرعان ما تنازل السادات عن مشروعه ، وانضم الى اسرائيل وامريكا في مسار الخطوة - خطوة ، بايقاع كيسنجر . ومسار الخطوة - خطوة ، يوفر لاسرائيل المدى الزمني الذي كانت تحتاج اليه للخروج من مأزق نتائج حرب تشرين . كما يفسح المجال امام واشنطن لاجراج الاتحاد السوفياتي من اللعبة ، ومن ثم الانفراد بانجاز تسوية على هواها . وتبين فيما بعد ، ان السادات اصبح اكثر الاطراف حماسا لفكرة ابعاد الاتحاد السوفياتي عن مفاوضات التسوية . والتقى هؤلاء جميعا مع

النظام الاردني في تأييد التسوية المرحلية ، بينما بقي الاتحاد السوفياتي يعارض هذا الخط ، ويدعو الى عقد مؤتمر جنيف ، ومعه من المشاركين اصلا فسي المؤتمر ، سوريا فقط . وهكذا بدأ العمل بنجاح على تفتيت القوى العربية ، وعلى تصديع صفها ، الذي تكون بصورته الهشة في حرب تشرين . وفي « كامب ديفيد » ، مرورا باتفاقية سيناء ، ومبادرة السادات بزيارة القدس ، قدم السادات ، لامريكا واسرائيل ، ما ارادته من التسوية على هذا الصعيد .

وبعد ان اصبح السادات في قفص كيسنجر ، صارت له مصلحة واضحة ومفهومة ، في ان يبقى معه رفيق هناك . فكان لا بد له من ان يرعى بقاء اسرائيل راضية عن التسوية ، خوفا من نسفها . وهكذا ، خلق ولوج السادات باب المفاوضات ، خطوة - خطوة ، على ايقاع كيسنجر ، ديناميكية خاصة ، كان طبيعيا ان تنتهي به الى زيارة القدس ، والى « كامب ديفيد » . فبعد ان تم اتفاق الفصل بين القوات على الجبهتين ، المصرية والسورية ، توجهت الانظار في المنطقة ، كما في واشنطن ، الى الضفة الغربية ، والى الاردن والملك حسين . وطرح في حينه ، مقولة التعادل والتكافؤ بين الجبهات ، وضرورة السير بخطى وثيدة ، ولكن على الجبهات الثلاث . وكانت الادارة الاميركية مهتمة جدا بانجاز اتفاق ما ، ولو كان رمزيا ، في الضفة الغربية ، يثبت الملك حسين شريكا في المفاوضات الجارية مع اسرائيل ، ويقطع على منظمة التحرير الفلسطينية طريق انتزاع حق تمثيل الشعب الفلسطيني في التحركات السياسية الجارية في المنطقة . الا ان حكومة رابين ، التي لم تكن قد ثبتت اقدامها في الحكم بعد ، لم تجرؤ ، ولاسباب داخلية اساسا ، على التحرك في هذا المجال .

وكان رابين يخشى ان يؤدي اتفاق في الضفة الغربية الى انتخابات عامة في اسرائيل ، تذهب بحكومته ، وتقضي على مستقبله السياسي الناشئ . فكان اسهل عليه ان يخوض معركة مع الادارة الاميركية ، من ان يدخل حلبة الصراعات الداخلية ، وهو لا يزال حديث العهد في الحكم . واندلع في اثر ذلك خلاف بين حكومته ، وبين الادارة الاميركية ، وبدا وكأن نهاية رابين السياسية قد اصبحت وشيكة . ولكن سقوط رابين ، وبالتالي اجراء انتخابات عامة في اسرائيل ، كان يعني تجميد التسوية لفترة قد تطول ، ربما الى سنة . هذا في حالة نجاح حزب العمل في الانتخابات . واذا نجح ليكود ، فسنتكون التسوية على كف عفريت ، او هكذا كان التقدير . وعليه اصبحت قوة رابين في ضعفه ، فاندبرت حكومة السادات لانقاذ الموقف ، وطرحت تأجيل البحث في مسألة الضفة الغربية ، والانصراف الى انجاز اتفاق مرحلي اخر في سيناء ، اذ كان همها الحفاظ على مسار التسوية ، مما ترتب عليه صرف الانتظار عن جميع المشاكل الشائكة ، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية . اما التوجه نحو الجبهة المصرية ثانية ، فقد كان مريحا لحكومة رابين ، ومشجعا للرئيس

السادات على المضي في التسويات المرحلية ، كما كان مقبولا للادارة الاميركية • وخرج رابين من محنته بعبارة ان التصلب ، ورفض الرضوخ للضغط ، يقويان من مركزه داخليا ، خاصة بعد ان اكتشف مدى اهتمام كل من مصر والولايات المتحدة بتحاشي الجمود في مسيرة التسوية المرحلية ، خشية ان يؤدي ذلك الى استئناف المفاوضات في مؤتمر جنيف ، حيث يدخل الاتحاد السوفياتي شريكا في رعاية المؤتمر ، على قدم المساواة مع الولايات المتحدة • وهكذا ، فان خوف السادات من مؤتمر جنيف ، حيث عليه الالتزام بالحد الأدنى من التضامن العربي ، وحيث يمثل الاتحاد السوفياتي موقعا موازيا لموقع الولايات المتحدة ، وهو بطبيعة الحال ، يأخذ مراقف تعتبر موالية للعرب ، مما يحرج السادات في عداته له ، اصبح نقطة ضعف في موقفه في المفاوضات ، وبالتالي علة لابتزازه ، استغلتها اسرائيل ، وكذلك امريكا ، وبلغت حدها الاقصى في « كامب ديفيد » • فكلما بدا السادات بتصلبا ، يصار الى تهديده بالعودة الى جنيف ، وباعادة الاتحاد السوفياتي شريكا في رعاية المفاوضات ، فيترجع ، وهكذا حصلت اتفاقية سيناء الثانية ، وغض النظر عن اتفاق « فك الارتباط » مع الاردن في الضفة الغربية ، وانتزعت منظمة التحرير قرارات الرباط والامم المتحدة ، ووقعت الحرب اللبنانية •

وبعد ان انتزعت منظمة التحرير الفلسطينية قرارات الرباط ، وبعد النجاحات السياسية التي احرزتها في الامم المتحدة ، عام ١٩٧٤ ، كان طبيعيا ان تعتمد المنظمة ، في ضوء المنطق الصحيح للامور ، الى التحرك باتجاه طرد اسرائيل من المنظمة الدولية ، واحتلال مكانها هناك ممثلا شرعيا وحيدا لجميع الفلسطينيين • وكان قرار كهذا قد اتخذ في مؤتمر القمة في الرباط • وفي مؤتمر الدول الاسلامية ، في جدة ، طرح المشروع بجدية ، ونال تأييد المشتركين في المؤتمر بالاجماع ، بمن فيهم مصر • ثم اعيد طرح المشروع في مؤتمر الدول الافريقية في كمبالا ، من اجل الحصول على تأييد تلك الدول للمشروع • وهنا ظهرت معارضة الحكومة المصرية للموضوع واضحة جلية • وكذلك كان الحال في مؤتمر دول عدم الانحياز في ليما - بيرو • وهذا الانقلاب في الموقف المصري الرسمي ، يعود بالواقع الى كرن اسرائيل ، عندما عادت عجلة المفاوضات الى التحرك ، اشترطت على مصر العمل من اجل احباط السعي لطردها من الامم المتحدة ، مقابل ابداء استعدادها لاستئناف المفاوضات ، ووافقتها على ذلك حكومة الولايات المتحدة • اما الحكومة المصرية ، فان حرصها على مصير التسوية ، ورغبة منها في انجاز الاتفاق المرحلي - كما قال السادات في تصريحه في الخرطوم ، وهو في طريقه الى كمبالا - لم يكن بوسعها سوى القبول بالشرط • وهذا بالطبع انحراف عن قرار مؤتمر القمة في الرباط ، وهو تصرف يمليه منطق التسوية المطروحة ، والذي لا يجيز العمل على طرد اسرائيل

من الامم المتحدة ، في حين تجري معها مفاوضات على اساس قرار صادر عن المنظمة الدولية اياها . وكان اخطر ما في امر تصرف الحكومة المصرية حيال مسألة طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، هو السابقة المستهجنة ، على الاقل عربيا ، من قيام نظام عربي ، رغبة منه في تمرير خطه السياسي ، بالدفاع عن مصالح العدو ، وبالعامل على احباط محاولات ضرب هذه المصالح . وتم السكوت العربي على تصرف السادات ، مما شجعه ، بطبيعة الحال ، على المضي في خطه . وتمادى السادات في سلوكه طريق الانحراف عن الاهداف القومية ، وحتى الاقليمية المصرية ، فطلع بمبادرته ، زيارة القدس ، حيث تعهد بالا يشن حربا اخرى على اسرائيل ، واعترف لها ولستوطنيتها ، ليس بالحق الوجودي في فلسطين فحسب ، وانما ايضا بالحق التاريخي ، مما قلب المعايير رأسا على عقب . وفي « كامب ديفيد » ، تقدم السادات خطوة كبيرة اخرى نحو انجاز التحالف التام مع اسرائيل وامريكا ، ضد النقيض الطبيعي للوجود الامبريالي والاستيطاني والرجعي في المنطقة ، حركة الجماهير العربية ، وفي مقدمتها موضوعيا ، بغض النظر عن الظرف الذاتي ، الثورة الفلسطينية . ومنطق هذا التحالف يملي وجود مصالح مشتركة بين اطرافه ، هي ايضا محور جاذبيته لاطراف عربية ، وغير عربية ، اخرى ، قد تنضم اليه في المستقبل .

ودخول السادات في حلف مع امريكا واسرائيل يعني ، اولا وقبل كل شيء ، اقرارا بشرعية مصالح هذين الحليفين في المنطقة ، ومن ثم المشاركة الفعالة في ضمان تلك المصالح ، املا منه في احراز بعض المكاسب ، له ولطبقة التي يمثلها ، على هامش تلك المصالح . ومصالحة امريكا الاولى في المنطقة هي بسط هيمنتها عليها ، وبالتالي ضرب حركة الجماهير فيها ، وابعاد الاتحاد السوفياتي عنها . وتعمل اسرائيل في خدمة تلك المصالح ، كونها جزءا من المعسكر الامبريالي ، تتبنى اهدافه . ولكن لاسرائيل مصلحة اضافية خاصة ، تنبع من طبيعتها الذاتية ، هي ضرب حركة الشعب الفلسطيني الوطنية ، وتشريدته وتذويبه . وكان طبيعيا ان تلتقي امريكا معها على هذا الصعيد . وقد ثبتت ، المرة تلو الاخرى ، ان كلام واشنطن عن « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ، لم يكن سوى عملية خداع ومراوغة . اذ كيف يمكن ان ترضى امريكا بتجسيد تلك الحقوق ، التي تعني بالضرورة القضاء على الكيان الصهيوني ، مع همها بالمحافظة عليه كأداة عدوان على حركة الجماهير العربية ، النقيض الرئيسي للوجود الامبريالي الاميركي في المنطقة . ان كل ما يملكه الكيان الصهيوني من مقومات ، هو على حساب الشعب الفلسطيني ، وبالتالي ، فكل ما قد يسترده هذا الشعب ، في اطار « حقوقه المشروعة » ، سيكون على حساب ذلك الكيان ، مما سيضعفه بطبيعة الحال ، ويقلص فاعليته في اداء مهمته الامبريالية . وكذلك ، فان « احقاق الحقوق المشروعة للشعب

الفلسطيني « ، يعني بالضرورة القضاء على الكيان الصهيوني ، على الاقل في صورته الاستيطانية العنصرية ، وبالتالي العدوانية » .

ان قبول امريكا بما يضمن « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني ، يعني انها تتبنى حلا للنزاع في الشرق الاوسط ، يختلف جذريا عن توجهها الراهن . وهذا يعني تخليها عن سياستها الامبريالية في المنطقة ، وهو منطوق لا يستقيم مع توجهاتها العالمية في هذه المرحلة . ان فقدان امريكا هيمنتها على الشرق الاوسط ، خاصة بلدان النفط فيه ، يعني بالضرورة فقدانها الهيمنة على اقتصاد كل من اوربوا الغربية واليابان ، وبالتالي زعزعة اركان موقعها كزعيمة للمعسكر الرأسمالي . وقد جاء مؤتمر « كامب ديفيد » ليثبت ان منطوق حل « النزاع العربي - الاسرائيلي » ، مع الاصرار على انه « في جوهره قضية الشعب الفلسطيني ، ومن خلال التحالف مع امريكا ، على اساس ان مصلحة هذه مع العرب ، وانه لا بد من « وضع الامور في نصابها » ، واستبدال اسرائيل بقوى عربية اخرى ، تأخذ دورها في خدمة المصالح الاميركية ، وبالتالي دق اسفين بين واشنطن واسرائيل ، كان خاطئا من اساسه ، اذا افترضنا حسن النية . واتضح لكل ذي بصيرة ، ان منطوق مهادنة امريكا ، طمعا في انجاز مكاسب على حساب اسرائيل ، ينتهي الى منطوق مبادرة السادات لزيارة القدس ، ومؤتمر « كامب ديفيد » ، حيث انضم هذا الى التحالف القائم بين واشنطن واسرائيل . وهذا يقود الى تقدير الموقف بالنسبة الى مؤتمر جنيف ، والاساس الذي يقوم عليه قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، واعادة النظر في التقييمات لدى امكان تحقيق تسوية في هذه الاطارات . وبالنسبة الى جنيف ، كان واضحا ان الدولتين العظميين عزلتا بقية اعضاء مجلس الامن ، وكذلك الامم المتحدة من المشاركة في التسوية . ولكن ما لبثت واشنطن ان عزلت الاتحاد السوفياتي ، وانفردت هي في رعاية التسوية ، على ارضية المشاريع الاسرائيلية . وفي المعادلات الراهنة ، وضمن النهج السائد في المنطقة ، لا مجال لتسوية خارج هذا الاساس ، بما يترتب عليها من نتائج واضحة المعالم .

لقد كان انحراف السادات نحو امريكا ، وما يمثله وجودها ، ويتطلبه استمرار هيمنتها على موارد الثروة الطبيعية في العالم العربي ، واضحا منذ حرب تشرين . اما الجديد في « كامب ديفيد » ، فهو ايغال السادات في نفوذه الى قلب المعسكر الامبريالي ، وقبوله كشريك صغير فيه ، له ما لباقي الشركاء ، وعليه ما عليهم ، ولو على مستوى متدن ، يتناسب وحجم فاعليته في خدمة المشروع . وطبيعي ، انه كي تقبل به اسرائيل شريكا في اداء المهمة الامبريالية في المنطقة ، وبالتالي مستقيدا ، ولو مرابعا ، من مردود هذه الخدمات ، ان تقتص منه رسم الدخول ، وتشتترط عليه القبول بموقفها من قضية الصراع في المنطقة ، وخاصة من قضية الشعب الفلسطيني ، وبالتالي الاسهام في حلها ،

بما يتناسب ومشاريعها هي للهيمنة على المنطقة وتصفية الحركة الوطنية الفلسطينية . وبالتحديد ، فان اسرائيل لن ترضى بالسادات شريكا ، الا ضمن حلف يرمي الى تصفية كل ما هو وطني في العالم العربي . وهكذا قايضت اسرائيل السادات في « كامب ديفيد » ، فعرضت اعادة سيناء الى السيادة المصرية ، مقابل تخليه عن مواقفه السابقة ازاء منظمة التحرير الفلسطينية ، وعن كل كلامه السابق عن تمثيلها الشرعي للشعب الفلسطيني ، على ان يتم التسلم والتسليم بشكل متواز . ومن اجل كل ذلك ، كان لا بد للسادات من ان ينجز اتفاقيتين في « كامب ديفيد » ، احدهما تتعلق بسيناء ، والاخرى بالمنطقة عامة ، لان انجازه حلا منفردا مع اسرائيل ، لا يؤدي الغرض . فاسرائيل لن تقدم له سيناء ، ان لم يعنها هو على تصفية حركة الشعب الفلسطيني الوطنية . ولكن اسرائيل لن تسمح للسادات بالدخول في الشراكة وكأنه يمثل الجانب العربي بأكمله ، وبالتالي ينافسها على موقعها المفضل في واشنطن . من هنا فالمطلوب منه اسرائيليا ، هو تمهيد الطريق لتسوية على ارضية المشاريع الصهيونية ، دون التطلع الى احتلال مواقع جديدة في المنطقة ، وعلى الخصوص في فلسطين . وفي تعامل اسرائيل مع السادات عظة لكل من تبني منطق الخوض في المفاوضات ، من منطلق تحسين شروط التسوية الاميركية ، القائمة في جوهرها ، على المشاريع الاسرائيلية .

الخلافا ، على ماذا ؟

تقول الاطراف الثلاثة المشاركة في المفاوضات الجارية ، امريكا ومصر واسرائيل ، ان العقبات الاساسية امام توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ، برعاية الولايات المتحدة وضمانتها ، قد ازيلت . ويذهب بعضهم الى حد القول بأن اكثر من ٩٠٪ من بنود المعاهدة قد تم الاتفاق عليها . ومع ذلك ، فقد مر الموعد المحدد لتوقيع المعاهدة (٧٨/١٢/١٧) دون ان يحصل ذلك ، وبالرغم منه ، حصل السادات وبيغن على جائزة نوبل للسلام ، « تقديرا لجهودهما في سبيله » . وتصدر احيانا تصريحات من جميع الاطراف ، تقول بأنه لا تزال هناك مشاكل صعبة ، يجب حلها قبل التوقيع . وفي تقديري ان هذا الكلام صحيح . فصحيح ان القضايا الاستراتيجية قد جرى ترتيبها . فقد انضم السادات الى معسكر واشنطن ، حيث اسرائيل ، وبالتالي تكييف لظروف التعايش هناك . فلا خلاف حول القبول بالتسوية الاميركية ، وتوسيع النفوذ الاميركي وترسيخه في المنطقة ، ولا خلاف كذلك ، على ابعاد الاتحاد السوفياتي عنها . ولا اعتراض على انتهاء « الصراع القومي » ، بالاعتراف باسرائيل ، والتحول الى ضرب كل ما هو وطني في المنطقة ، تحت غطاء « مقاومة النفوذ الشيوعي » . ولا مانع لدى السادات من التخلي عن الاهداف

القومية في الاستقلال والوحدة ، على اقل تقدير • كما لا يرى ضيرا في الدخول في حلف جديد ، على غرار « حلف بغداد » السابق ، تكون نواته اسرائيل ومصر وامريكا ، وتنضم اليه مستقبلا اطراف عربية وغيرها • واذا كانت اسرائيل ستصبح ركنا أساسيا في هذا الحلف ، فلا حرج لدى السادات في النزول عند رغباتها في ضرب الثورة الفلسطينية ، وتصفية منظمة التحرير ، وتجاوز قرارات الرباط وغيرها ، والعمل على تفسيح الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية ، وتمزيق وحدة نضاله ومصيره • وهذا هو الاساس • اما « العقبان الهامشية » المتبقية ، فهي لا شك صعبة ، ولكنها جميعا تتعلق بتوزيع الغنائم ، من يأخذ ماذا • فالتسوية كما يراها السادات ، والى حد كبير اسرائيل ايضا ، هي خدمة للمصالح الاميركية ، وعليه فلا بد ان تعوض امريكا على وكيلها ، وتقسم السوق بينهما •

اسرائيل لن تقبل بالسادات شريكا متكافئا

تؤمن اسرائيل جيدا موقعها في الاستراتيجية العالمية للامبريالية الاميركية • وترى مبرر الخصوصية التي تحظى بها هناك فرادتها في العلاقة مع البلد الام • وهذه العلاقة ، مهما كانت وثيقة ، ومن طبيعة خاصة ، فانها في نهاية المطاف تقوم على المبدأ الرأسمالي الازلي : العرض والطلب • اما الطلب فهو متوفر ، واما العرض فيتوقف على النجاعة • وهناك منافسون لاسرائيل في عرض خدماتهم • والقيادة الصهيونية تعي جيدا مغزى الكلام العربي ، الذي ما زلنا نسمعه منذ سنين : « ان مصلحة امريكا معنا ، فلماذا لا تعاملنا هذه أسوة باسرائيل ؟ » • اي لماذا لا تستعملنا لخدمة اغراضها ، كما تفعل مع اسرائيل • ومن منطلق تنازع البقاء حتى تحاول اسرائيل قطع الطريق على اي طرف عربي يحاول الدخول الى الساحة الاميركية كمنافس لها • ومع ان انجاز مهمتها ، وبالتالي نجاعة فاعليتها في نظر البلد الام ، يتوقفان على نجاحها في تطوير الاطراف العربية لارادة امريكا ، الا انها في نفس الوقت لا تريد ان تدخل هذه الاطراف ، بمحض ارادتها ، متطوعة للخدمة ، وبالتالي منافسا لها • ومن هذا المنطلق تتأرجح نظرة اسرائيل الى السعودية ، بين الرفاقية والعداء • فهي تقدر اهمية السعودية لامريكا ، ولها ايضا بالواسطة ، اذ من اين ستحصل على مليارات الدولارات سنويا ، لولا النفط السعودي ، وامواله المودعة في الخزائن الاميركية • ولكنها بالمقابل ايضا ، تخشى ان تدخل السعودية في منافسة معها على تطوير حركة الجماهير العربية للادارة الاميركية ، بواسطة اموالها • واسرائيل لا تريد للسادات النجاح في تقديم نفسه الى واشنطن وكيلها عن الساحة العربية بأكملها ، وانما تريد حصره في مصر ، اي أنها تريد ان تعقد معه اتفاقية ثنائية ، ليبقى دوره محجما • وكذلك فهي تريد ان تحول دون امكان

ان يحتل موقع الملك حسين او منظمة التحرير في حل القضية الفلسطينية . ومن هنا اصرارها على عدم الربط بين معاهدة السلام التي ستوقعها مع مصر ، وبين تنفيذ مشروع الادارة الذاتية ، باشتراك مصر . ولا تريد حتى الالتزام بجدول زمني ، يعطي السادات فضلا في ذلك . والسادات يصارع لتحسين شروط دخوله الى النادي .

اسرائيل تريد عزل مصر عربيا

تقول الاطراف المفاوضة بأن ما يعرقل مفاوضات « بليز هاوس » ، ويعيق التوقيع على مسودة الاتفاقية ، التي صاغتها واشنطن ، هو بالاساس البنود للسادس منها ، والذي ينص على افضلية المعاهدة مع اسرائيل على اية معاهدة اخرى لمصر مع اي طرف اخر . والمقصود بذلك هو ارتباطات مصر ، في اطار الجامعة العربية ، خاصة « ميثاق الدفاع المشترك » . ويقول دايان : « اننا لن نشترى بيتا ، كان قد بيع سابقا » ، لمن تقبل من مصر تعهدات ، افرغتها من مضمونها اتفاقات ملزمة سابقة . وفي دفاعه عن اتفاقات « كامب ديفيد » امام الكنيست الاسرائيلي ، طالبا موافقته على الاتفاق ، بما فيه اخلاء المستوطنات في مشارف رفح ، كانت حجة بيغن الاساسية المقارنة بين « تنازلات » اسرائيل هذه ، واخراج مصر من دائرة الصراع معها . وعلى هذا الاساس حصل على تأييد الاكثرية . وعلى لسان مردخاي غور (مقابلة تلفزيونية في ٧/١/٧٩) ، طلب الوفد الاسرائيلي في مفاوضات اللجنة العسكرية من مصر ، تقليص جيشها ، فادعى الوفد المصري ضرورة الحفاظ على جيش كبير نسبيا ، « لمكافحة الشيوعية في المنطقة » ، فجاء الرد الاسرائيلي ، انه اذا كان الامر كذلك ، فلا بد اذن من اجراء تعديلات جذرية على انتشار القوات المصرية ، ونوعية تأهبها القتالي . وقال الوفد الاسرائيلي بأنه يرى في نقل مصر جيشها من خط المواجهة مع اسرائيل ، الى خطوط اخرى ، تتلاءم والمهمة الجديدة لذلك الجيش ، الدليل على صدق نية مصر في عقد سلام مع اسرائيل . والواقع ان السادات قد استجاب لمعظم الطلبات الاسرائيلية في هذا المجال . فقد ضرب التضامن العربي ، وعزل مصر ، وهو يلوح بتقليص الجيش المصري ، بعد « تطهيره » من العناصر المعارضة لسياسته . وكذلك فقد تعهد السادات بالأجتناب الجيش المصري ممري المتلا والجدي . وعندها يتبادر السؤال : ما فائدة المطارات في شرقي سيناء ، والتي ستسلمها اسرائيل لمصر ، اذا كان ليس للجيش المصري ان يصلها ؟ والكلام عن تحويلها الى مطارات مدنية كلام فارغ . والسؤال الحقيقي : من سيستعملها فعلا ، ولاية اغراض ؟ واذا كانت امريكا ستبني مطارات جديدة لاسرائيل في النقب فعلا ، فماذا ستفعل بتلك القواعد في شرقي سيناء ، وهي قواعد جوية ضخمة ؟ والظاهر ان « أمن البحر الاحمر » سيوفر

الحل الملائم لهذه المسألة • وإذا كانت أمريكا شريكا كاملا في المفاوضات ، فأين موقعها في الترتيبات العسكرية ، التي تحيطها الاطراف بستار كثيف من السرية ؟

اسرائيل تريد اقامة « علاقات طبيعية » مع مصر وسيناء تحت الاحتلال

بموجب نص المعاهدة ، الذي قبلت به اسرائيل ، بعد ان تمت صياغته في مفاوضات « بليز هاوس » ، ثم تراجعته عنه مصر ، ووقفت واشنطن معها الى حد معين ، تلتزم مصر باقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع اسرائيل ، عند التوقيع على المعاهدة • وكان المفترض ان يتم هذا التوقيع في ١٧/١٢/٧٨ ، اي بعد ثلاثة اشهر على انتهاء مؤتمر « كامب ديفيد » • ولكن الانسحاب الاسرائيلي من سيناء سيتم على مراحل ، تستغرق ثلاث سنوات • وهو مشروط باثبات مصر حسن نيتها في تحقيق السلام ، كما تريده اسرائيل طبعاً • والا فأنها لن تنجز جانبها من الاتفاق • وهذا أمر ليس من السهل على المصريين ابتلاعه • ولكن اسرائيل تقول انها اذا انسحبت ، فأنما تسلم عينيا ملموسا ، هو سيناء ، وبالمقابل تقدم مصر تعهدا لفظيا ، يسهل العدول عنه • فاذا حنثت مصر بعهدا ، فسيكون من الصعب على اسرائيل استرداد سيناء دون حرب • ولذلك فهي تصر على استمرار الاحتلال ، حتى يثبت صدق نية مصر • وبالإضافة الى ذلك ، فان اسرائيل ، كما تدعي ، تحتاج الى فترة زمنية طويلة لاختلاء منشآتها العسكرية ، واقامة البديل لها ، بالإضافة الى المال اللازم لبنائها ، وهو يصل في تقديرها الى مليارات الدولارات • وتطالب اسرائيل الولايات المتحدة بتحمل هذه النفقات • وقد حصلت على تعهد بذلك ، ولكن لا بد من الانتظار • وفي اسرائيل ، لا توجد مطارات تستوعب سلاح الجو ، بعد النمو الذي طرأ عليه اثناء مفاوضات التسوية ، ولذلك فلا بد لها من الاستمرار في استعمال مطارات سيناء ، حتى تقيم البديل لها في النقب • وهذا قد يستغرق عدة سنوات ، ليست هي على استعداد لتأجيل اقامة «علاقات طبيعية » مع مصر حتى تستكمل •

اسرائيل تريد امتيازاً لاستغلال نطف السوييس

احدى اهم نقاط الخلاف في مفاوضات التسوية بين مصر واسرائيل ، هي مسألة استغلال آبار النفط في خليج السوييس • وكأنت اسرائيل تنقب عن النفط هناك منذ عدة سنوات ، وزاد نشاطها في هذا المجال ، بعد ان اعادت لمصر آبار ابو رديس • وقد وجدت نفطا في آبار « علما » • وتقدر كمية النفط المستخرجة

من هذه الآبار الآن بما يوازي احتياجات إسرائيل من النفط الخام • وهي تطالب بأن تعطىها مصر امتيازًا ، بشروط مفضلة للاستمرار في التنقيب عن النفط وضخه ، في خليج السويس • وقد اشتد اصرار إسرائيل على ذلك ، بعد أحداث إيران ، إذ سارع وزير الطاقة الإسرائيلي ، موداعي ، للإعلان بأن معاهدة السلام مع مصر لن توقع دون حصول إسرائيل على الامتياز المطلوب • وبالمقابل ترفض مصر طلب إسرائيل هذا ، وتطالب من جانبها بالتعويض عليها عن النفط الذي استخرجه إسرائيل خلال سنوات احتلالها لسيناء • وإلى جانب النفط ، تطالب إسرائيل بعدد من الامتيازات الاقتصادية الأخرى ، كصيد الأسماك على الشواطئ المصرية مثلا ، ومشاريع مشتركة أخرى في سيناء • وعلى العموم ، فإنه بعد موجة الحماس الأولى ، التي اجتاحت إسرائيل لما قد تدره السوق المصرية على الصناعات الإسرائيلية ، أخذت التقديرات تأخذ طابعا أقل تفاؤلا ، وبدا أن الفوائد التي قد تجنيها تلك الصناعة من افنتاح السوق المصرية عليها ، ليست مغرية إلى حد كبير • والأكيد ان ذلك سيلعب دورا في موقف إسرائيل من التسوية مع مصر •

ماذا بين حكومة بيغن وإدارة كارتر

خلال ثلاثين عاما على قيامها ، قدمت إسرائيل للامبريالية الاميركية أكثر مما حققت لذاتها • فقد أصابت نجاحا في تحقيق مهمتها الامبريالية ، أي ضرب حركة الجماهير العربية ، أكبر من النجاح في تحقيق المهمة الصهيونية الذاتية ، « حل المسألة اليهودية » ، وبناء ذاتها اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا • وبسبب هذا الفارق في مجالات انجاز الكيان ، تبرز بعض الخلافات بينه وبين البلد الام ، واشنطن ، فيما يتعلق بشروط التسوية ، فأمريكا راضية إلى حد كبير عما آلت إليه اوضاع الحركة القومية العربية ، وبالتالي فهي راغبة في انجاز تسوية تضمن تثبيت الوضع الراهن في اجزاء كبيرة من العالم العربي ، وتستكمل من خلالها ، أي التسوية ، المهمة في الاجزاء الأخرى ، حيث الاوضاع لم تنضج بعد للانفتاح الكامل على أمريكا • ويبدو ان البلد الام ، بعد أن استطاع الكيان ، بعمله العسكري المستمر ، حروب ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ونشاطه السري والارهابي والتأمري خارج حدوده ، يرى أن الساحة أصبحت مهيأة لتسوية تليق بنتائج نشاط الكيان • في حين شعر الكيان ، وكأن الصفقة تتم على حساب مصالحه الذاتية ، من هنا كان الكلام عن خلاف بين الولايات المتحدة وإسرائيل •

وفي الخلاف الراهن في مفاوضات « بليز هاوس » ، تقول المصادر الاسرائيلية بأن الادارة الاميركية تقف إلى جانب إسرائيل في موقفها من البند

السادس من مسودة معاهدة السلام ، والى جانب مصر في البند الثاني من تلك المسودة . أي أن واشنطن توافق إسرائيل على عزل مصر عن العالم العربي ، بدعمها ضرورة ان تأخذ المعاهدة مع إسرائيل افضلية على اية معاهدة اخرى ، بين مصر واية دولة اخرى . وهذا بطبيعة الحال ، يتلاءم مع المخطط الاميركي لاقامة الحلف الجديد ، الذي لا بد وان تكون له الافضلية على اية ارتباطات اخرى لمصر مع الدول العربية خاصة . ولكن واشنطن تؤيد مصر في ضرورة البدء في تنفيذ الادارة الذاتية ، لتوفر الغطاء العربي للسادات من جهة ، ولشراك الاردن في التسوية من الاخرى . وبينما تريد إسرائيل ان تكون المعاهدة مع مصر ثنائية في جوهرها ، فان الولايات المتحدة لا تعارض ذلك ، وانما تريد للمعاهدة ان تصاغ في نمط يمكن تطبيقه مع اطراف عربية اخرى ، قد تدخل التسوية . ولكن الولايات المتحدة ، وكذلك مصر ، توافقان على بقاء الجيش الاسرائيلي في مواقع محددة في الضفة والقطاع ، ولا تعترضان على بقاء المستوطنات الاسرائيلية هناك . وهما تطالبان إسرائيل بالتوقف عن بناء المستوطنات الجديدة في المناطق المحتلة ، ولكنهما لا تعترضان على تكثيف المستوطنات القائمة . والجدير بالذكر ان مسودة المعاهدة هذه قد صيغت على ايدي موظفين في الادارة الاميركية ، كحل وسط بين مقترحات الوفدين ، الإسرائيلي والمصري . وقد وافق عليها الوفد المصري ، برئاسة وزير الحربية الجديد ، وعضوية وزير الخارجية . ثم عادت الحكومة المصرية وتراجعت عن قبول هذا ، في حين اعلنت إسرائيل قبولها للمسودة ، وتمسكها بها . ووقفت الولايات المتحدة الى جانب مصر في ضرورة ادخال بعض التعديلات على مسودة الاتفاقية . وعلى هذا الاساس توقفت المفاوضات .

وهناك بعض الخلاف بين حكومة بيغن وادارة كارتر ، على حجم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تطلبها الاولى من الثانية ، مقابل اخلائها المنشآت العسكرية في سيناء ، وتمويل بناء الخطوط الجديدة والقواعد الجوية البديلة . وتطلب إسرائيل مبلغ ٢٥ مليار دولار من واشنطن ، تعويضا لها على ذلك . ولم توافق الولايات المتحدة على الالتزام بذلك المبلغ ، نظراً لما قد يثيره ذلك من معارضة داخلية في أمريكا ، خاصة وأن مسألة « المساعدات الاقتصادية الاميركية » ، الى الدول الاخرى ، تلعب دورا كبيرا في الانتخابات للرئاسة الاميركية ، وهي لا تحظى بتأييد واسع في صفوف الناخبين الاميركيين . وقد عرض بيغن على ادارة كارتر ان يكون المبلغ المطلوب قرضا طويل المدى ، وبفائدة صغيرة ، فأثار ذلك معارضة شديدة في إسرائيل ، اضطرت بيغن الى التراجع والسكوت . وما تزال هذه المسألة قيد الحوار . وكذلك فان إسرائيل ، اسوة بما فعلته في اتفاقية سيناء الثانية ، ستطالب بتأمين مصدر مضمون لاحتياجاتها من النفط ، وكذلك تغطية بعض تكاليف ذلك . وتأخذ هذه المسألة

اهمية اكبر اليوم ، نظرا للتطورات السياسية في ايران .

ماذا بعد ١٩ ؟

واضح أن التسوية السياسية في المنطقة ، وهي تسوية اميركية على ارضية المشاريع الاسرائيلية ، تواجه اليوم ازمة حادة ، خاصة بعد احداث ايران . فقد ارادت المؤامرة الاميركية في التسوية ، ان تخلق من خلالها حلفا بين دول المنطقة الموالية لامريكا ، يكون هدفه الاساسي الحفاظ على المصالح الامبريالية في المنطقة ، والتصدي لحركة الجماهير فيها ، واخراج الاتحاد السوفياتي منها . وكانت ايران تشكل ركنا اساسيا في هذا الحلف . وبانهيار حكم الشاه العميل ، تصدع هذا الركن ، مما ترك خلا في الحلف المزمع بناؤه . وعليه فلا بد من اعادة الحسابات من جديد . وبينما يدعو السادات ، ولاسباب واضحة ، الى ضرورة الاسراع في التوقيع على معاهدة السلام ، وانجاز التسوية في المنطقة ، ويحث الولايات المتحدة للضغط على اسرائيل ، بعد الذي جرى في ايران ، فان حكومة بيغن توافق على ضرورة انجاز التسوية ، ولكن بفتور كبير ، كي لا يقال انها ترفض التسوية ، وتحمل تبعه ذلك . ولكن الواضح أنها ليست على عجلة من امرها . وهذا يشير الى موقفها من السادات ومن انجاز تسوية معه . والاكيد انها ستعيد حساباتها هي الاخرى . اما الولايات المتحدة ، فانها تدعى الى التريث ، وتقول بان المعاهدة ستوقع في نهاية الامر ، ولكن ذلك قد يستغرق بعض الوقت . والظاهر ان الولايات المتحدة قد احست بسوء تقديرها للموضع الجماهيري في المنطقة ، والمعادي لنفوذها فيها . واخذت تشعر بالارض تسحب من تحت مخططاتها لترتيب اوضاع المنطقة وفي تقديرنا ان جميع اطراف التسوية قد اخطأت في تقديراتها عندما خاضت في مفاوضات التسوية ، سواء تلك التي راهنت على جتيف ، ام التي راهنت على تحسين شروط التسوية من خلال التوجه نحو واشنطن ، متجاهلة بدورها الموضع الجماهيري . وخلال خمس سنوات من مفاوضات التسوية ، اتضح لكل ذي بصيرة الى اين تسير هذه التسوية برعاية الولايات المتحدة ، وماذا يمكن لاسرائيل ان تطلبه وتحصل عليه ، وما الذي ستقدمه بالمقابل . واليوم والتسوية تواجه ازمة شديدة ، لا مبرر للقوى السياسية المترددة ازاءها في انقاذها من مأزقها ، وبالاخرى لا مبرر للقوى التصدي في الوقوف مكتوفة الايدي ازاء هذه الفرصة الذهبية للاجهاز عليها .

اقتصاديات السلام المصري - الاسرائيلي توقعات واحتمالات

اذا كان بعض البنود السياسية الرئيسية في مسودة معاهدة السلام المقترحة بين مصر واسرائيل ، كما تم التوصل اليها في محادثات بليزر هاوس في واشنطن ، خلال الاشهر الاخيرة من السنة الماضية ، ما زال موضع خلاف بين الطرفين حتى الآن ، الامر الذي يؤخر توقيع المعاهدة ، فان البنود الاقتصادية والتجارية في مسودة المعاهدة تلك ، باتت امرا متفقاً عليه ، بصورة كاملة . واهم هذه البنود ما ورد في المادة الثالثة منها ، وهو ان العلاقات الطبيعية التي يوافق الطرفان على اقامتها بينهما « سوف تتضمن الاعتراف الكامل والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية ، وانهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجز المميزة امام الانتقال الحر للأشخاص والسلع ٠٠٠ » (١) . وقد جرى تفسير هذه المادة في ملحق خاص مرفق بمسودة المعاهدة ، اهم ما جاء فيه ، ان الطرفين « يوافقان على الغاء الحواجز التي تمنع اقامة علاقات اقتصادية طبيعية بينهما ، ووضع حد للمقاطعة الاقتصادية التي يفرضها طرف ما ضد آخر . كذلك يبدأ الطرفان ، بصورة عاجلة قدر الامكان ، مفاوضات بينهما خلال فترة لا تتجاوز ستة اشهر بعد انتهاء المرحلة الوسطى من الانسحاب ، بهدف ابرام اتفاق تجاري يؤدي الى علاقات اقتصادية مفيدة » (٢) . ويتمثل المكسب التجاري الذي حققته اسرائيل في مسودة المعاهدة ، في المادة الخامسة منها ، والتي تنص على ان « سفن اسرائيل والشحنات البحرية المتجهة اليها او القادمة منها ، سوف تتمتع بحق المرور الحر عبر قناة السويس ومدخلها في خليج السويس والبحر الابيض المتوسط ، على اساس اتفاقية ١٨٨٨ التي تنطبق على جميع الدول .

وسوف يعامل حاملو الجنسية الاسرائيلية ، والسفن والشحنات الاسرائيلية ، مثلهم مثل الاشخاص والسفن والشحنات المتجهة الى اسرائيل او القادمة منها ، معاملة غير تمييزية في كل الامور المتعلقة باستخدام القناة • [كذلك] يعتبر الطرفان مضائق تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية ، مفتوحة لجميع الدول من اجل حرية الملاحة والطيران • وسوف يحترم الطرفان حقوق كل منهما في الملاحة والطيران الى اي منهما ، عبر مضائق تيران وخليج العقبة « (٣) •

يستخلص من ذلك ، ان معاهدة السلام المقترحة ، سوف تحقق لاسرائيل علاقات اقتصادية وتجارية كاملة مع مصر ، بالمعنى المتبع دوليا ، بين اي بلدين يقيمان علاقات طبيعية بينهما • والسؤال المطروح الان في اسرائيل ، وحتى قبل توقيع معاهدة السلام – التي يبدو توقيعها مسألة وقت لا اكثر في نظر زعماء اسرائيل – وعلى اعلى المستويات ، هو الى اي مدى ستستفيد اسرائيل من مرحلة « السلام الاقتصادي » هذه ، وهل ترغب حقا في علاقات اقتصادية وتجارية كاملة ، ام انها تسعى الى استغلال هذه المرحلة لصالحها ، وفرض هيمنة اقتصادية على مصر ، وانطلاقا منها الى البلدان الاخرى في المنطقة في المستقبل؟ ثم اذا كان هذا هو هدفها ، فهل تستطيع ذلك ، باقتصادها شبه المنهار ، وحتى بمساعدة اصدقائها في الخارج ؟

قبل الاجابة على هذه الاسئلة ، لا بد من التطرق الى جملة مميزات تميز الاقتصاد الاسرائيلي في الفترة الحالية على الاقل ، تكون بمجملة نقطة انطلاق غير مشجعة في نظر معظم خبراء الاقتصاد الاسرائيليين ، للمرحلة المقبلة •

اولا ، الاعتماد على المساعدات الاميركية السنوية في تحويل نشاطات الاقتصاد الاسرائيلي في المجالين العسكري والمدني ، حيث يبلغ معدل ما تحصل عليه اسرائيل سنويا من الولايات المتحدة ملياري دولار • ويتوقع ازدياد هذه المساعدات بعد التوقيع على معاهدة السلام مع مصر ، نظرا لالتزام الولايات المتحدة بتمويل انشاء قاعدتين جويتين في النقب ، بدلا عن قواعد سيناء • ثانيا ، العجز الكبير في ميزان المدفوعات الاسرائيلي ، الذي بلغ نحو ٣١٠٠ مليون دولار سنة ١٩٧٨ (١٨٠٠ مليون دولار دون الواردات الامنية) ، ثم المستوى المرتفع جدا للمديون الخارجية لاسرائيل التي بلغت سنة ١٩٧٨ نحو ١٢ مليار دولار (٤) • ثالثا ، التضخم المالي السريع ، حيث بلغ معدل ارتفاع الاسعار سنة ١٩٧٨ نحو ٤٧٪ ، زيادة على معدله سنة ١٩٧٧ • رابعا ، توقف النمو الاقتصادي « منذ ازمة النفط الكبيرة قبل خمس سنين » اثر حرب ١٩٧٣ • وقد كان التحسن في النمو الاقتصادي سنة ١٩٧٨ ، نتيجة تزايد الطلب ، في الاستهلاك الخاص والعام ، مما لم يساهم في تحسين ميزان المدفوعات « (٥) • خامسا ، نفقات الامن المتزايدة في اسرائيل ، حيث يجري تخصيص ثلث الميزانية العامة لاغراض الامن ، وبمعنى آخر « ٢٠٪ من مجموع المصادر التي يمتلكها

الاقتصاد . كذلك فإن ربح الطاقة البشرية في الاقتصاد تستغل يوميا في العمل الامني - في الجيش النظامي الدائم والاحتياط ، وفي الانتاج الامني وما شابهه .
 هذه هي اهم المميزات ، او المشكلات ، التي تميز الاقتصاد الاسرائيلي حاليا .
 وقد حاولت اسرائيل كثيرا ، خاصة خلال السنوات الاخيرة ، ايجاد مختلف الحلول لها ، ابتداء من تخفيض قيمة الليرة لتشجيع الصادرات وانتهاء بالاقتطاع من الميزانيات العامة ، لكبح الطلب والاستهلاك ، ولكن حلولا هذه لم تجد نفعا حتى الآن . فهل تجد اسرائيل الحلول الملائمة لمشكلاتها الاقتصادية هذه ، في مرحلة السلام المقبلة ؟ وكيف سيكون تأثير هذه المشكلات على سياستها الاقتصادية المقبلة في مرحلة السلام مع مصر ؟

ثلاث سنوات صعبة

التوقع السائد والاكيد لدى مختلف الدوائر الاقتصادية في اسرائيل ، ان المشكلات الاقتصادية المذكورة ستزداد حدة خلال السنوات الاولى بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر . فهذه المعاهدة تلقي اعباء امنية جديدة على اسرائيل ستكلفها اقتصاديا مبالغ طائلة ، تتمثل في اقامة خط دفاعي جديد في النقب ، عوضا عن الخط الذي ستسحب منه في سيناء . ويشمل هذا الخط قاعدتين جديدتين ، ومراكز للجيش ومستوطنات جديدة لاستيعاب مستوطنني رفح وما شابه ، وقد أعلن وزير المالية سماح ارليخ ان اسرائيل تنتظر ثلاث سنين صعبة من الناحية الاقتصادية ، « وهذا هو الثمن الذي سيطلب من اسرائيل دفعه مقابل المصاريف المترتبة على عملية السلام . ويبلغ هذا الثمن نحو ٦٠ مليار ليرة » (٦) .
 كذلك أوضح ارليخ ان اسرائيل اعلمت الولايات المتحدة انه دون الحصول على مساعدات مالية لن يكون بإمكانها التوقيع على معاهدة السلام . وانها تطالب الآن بمبلغ ٣ مليارات دولار [كدفعة اولى] لتمويل الانتشار الجديد للجيش الاسرائيلي في النقب » (٧) . وقد أجرى خبراء وزارة المالية الاسرائيلية ابحاثا مطولة حول هذا الموضوع ، ولكن تقديرهم الاول ، انه اذا لم تحصل اسرائيل على كامل المبالغ المطلوبة بالعملة الصعبة ، في اطار المساعدات الاميركية ، فسيواجه الاقتصاد مشاكل صعبة في الموارد المحلية ، وستحدث نفقات كثيرة بالليرة الاسرائيلية ، مما سيقوي من سرعة التضخم المالي . « وقد ذكر في هذه المباحثات ايضا ، انه خلال سنة ١٩٧٤ التي كانت « سنة التحصينات » وصل معدل التضخم المالي الى ٥٦٪ . كذلك سيكون من الصعب توفير المتطلبات العادية كالطاقة البشرية والنقل ومعدات البناء » (٨) . ويتوقع نائب وزير المالية يحرز كينيل بلومين ان يصل معدل التضخم المالي خلال الفترة المقبلة ، بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر ، الى ١٠٠٪ . « اننا نتوقع تصعيدا ضخما في البناء

الامني • والحديث يدور حول عشرات المليارات من الدولارات وحتى اذا حصلنا على دولارات لبناء القاعدتين الجويتين ، فأننا سنضطر الى طباعة الاوراق النقدية ، لكي ندفع للعمال • وهكذا سيتصاعد التضخم المالي ٠٠٠ اننا نتوقع ٣ - ٤ سنوات صعبة ، ليس لها مثيل في اسرائيل « (٩) • وحلل رئيس اتحاد الصناعيين ابراهام شفيط الوضع الاقتصادي خلال هذه الفترة بقوله : « ان تجميع مئات الملايين من الامتار المكعبة من الاتربة ، وبناء معسكرات ومطارات وطرق ومخازن (جميعها ضرورية ، ولكنها ليست منتجات زراعية وصناعية) سيؤدي الى ان تتحول الدولارات الى ليرات اسرائيلية ، وتتدفق الاموال الى جيوب المواطنين دون زيادة في الانتاج والصادرات • والسؤال ليس اذا كان خمسون او مئة الف مواطن سيحولون الى اثرياء ، فهذه مسألة اجتماعية في اساسها • فالتضخم له ثمن سلبي وبديل ايجابي ايضا • سنضطر الى استثمار ما بين ٣٠ - ٦٠ مليار ليرة في النقب ، على شكل استثمارات غير انتاجية • واذا تحقق لنا نتيجة ذلك ، نقب جديد ذات ركيزة جديدة - بالامكان القول عندئذ اننا دفعنا ثمن التضخم المالي ، ولكننا حققنا فائدة » (١٠) •

اضافة الى التضخم المالي السريع المتوقع خلال هذه الفترة، هناك اخطار اخرى متوقعة ، خاصة بالنسبة لفرعي البناء والصادرات • فالمقاولون وعمال البناء سيفضلون العمل في التحصينات الجديدة على حساب البناء السكني ، الامر الذي سيزيد النقص القائم في المساكن ، الذي يعتبر من اهم المشاكل الاجتماعية القائمة حاليا • اضافة الى ذلك ، فان الحكومة الاسرائيلية ستضطر خلال هذه الفترة، من اجل تمويل الاعمال الامنية هذه ، الى اقتطاع جزء من الميزانيات الاجتماعية، مما سيخلق خيبة امل كبيرة ، وينسف توقعات البعض من ان السلام سيحقق الرفاهية خاصة للطبقة الفقيرة من الاسرائيليين •

كذلك يتخوف البعض من خطر انتقال جزء كبير من العاملين في الفروع الصناعية المعدة للتصدير ، الى ورشة البناء في النقب ، خاصة وان هذه الفروع بدأت تعاني خلال الفترة الاخيرة من مشاكل كثيرة بسبب الغاء حوافز التصدير وتعويم قيمة الليرة ، بموجب السياسة الاقتصادية الجديدة •

فترة انتقالية نحو عهد جديد

مهما كانت مشكلات هذه الفترة ، والاطار المترتبة عليها بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي ، فأنها تعتبر في نظر كثيرين داخل اسرائيل ، بمثابة فترة انتقالية ضرورية ، نحو عهد اقتصادي جديد ، يحمل الكثير من الاحتمالات بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي • والاسرائيليون متفائلون جدا بهذه الاحتمالات ، وقد عادوا يتحدثون عن « الاستقلال الاقتصادي » الذي كثيرا ما حلموا به في الماضي،

دون ان يتحقق منه شيء * فالاعتماد على المساعدات الخارجية خاصة الاميركية، كان يزداد سنة بعد اخرى ، حتى بالنسبة الى وجبه الفطور ، على حد قول ارليخ نفسه * والان بدأ الاسرائيليون يشعرون انهم على ابواب مرحلة جديدة مليئة بالفرص والاطماع ، حتى راحوا يتساءلون ، ويجديية ، كيف يمكن استقلال هذا الوضع لمصلحتهم ، لكي يكون لهم في المستقبل الدور الاكبر في اقتصاد المنطقة .

وقبل التطرق الى اهدافهم في المستقبل القريب والبعيد ، التي بدأ الحديث عنها صراحة ، لا بد ان نذكر ميزتين اساسيتين لهذه المرحلة الجديدة ، مرحلة « السلام الاقتصادي » على حد قولهم : اولا ، السلام مع مصر سيمكن اسرائيل من تخفيض نفقات الامن لديها بشكل ملحوظ ، وتسريح جزء كبير من الطاقمة البشرية العاملة في مجال الامن ، خاصة من العاملين في الجيش المدائم والاحتياط * وتعتبر هذه المسألة غير ثابتة ، باعتبار ان تحقيقها يتعلق بمدى كبير بالموقف على الجبهة الشرقية ، وكثافة العمل الفدائي داخل اسرائيل ، الذي تتطلب « مقاومته » طاقة بشرية كبيرة من قوى الامن والجيش * وتراهن اسرائيل في هذه الحالة ، على ان الوضع الامني سيسوده الهدوء التام ، مع خروج مصر من دائرة الحرب ، ان الدول العربية الاخرى لا تستطيع القيام بأي عمل حربي ضدها من دون مصر ، كما اعلن ذلك رئيس الحكومة الاسرائيلية بيغن في الكنيست بعد اتفاقات كامب ديفيد (١١) * وبناء على هذا الافتراض ، بدأ الحديث حول الانتقال من اقتصاد الحرب الى اقتصاد السلام ، يتخذ طابعا جديا ، حتى باتت المشكلة في نظر حاكم بنك اسرائيل سابقا ، موشي زنبار ، مثلا ، تتمثل في كيفية استيعاب وسائل الانتاج - الاموال والطاقة البشرية - التي ستتحول من القطاع الامني الى قطاع العمل المدني الانتاجي (١٢) *

اما الميزة الثانية للعهد الاقتصادي الجديد ، فهي التبادل التجاري الحر بين اسرائيل ومصر ، وما يهم اسرائيل هنا هو فتح السوق المصري على مصراعيه امام البضائع الاسرائيلية ، وبناء عليه يجري التخطيط لتوسيع الفروع الصناعية المعدة للتصدير ، وفق ما يتلاءم مع الوضع الجديد * ويطالب موشي زنبار بوضع « اسس ثابتة بين اسرائيل ومصر ، لزيادة الصادرات الاسرائيلية بواسطة فتح حقيقي وعملي - وليس نظريا - للسوق المصرية ، وربما اسواق عربية اخرى ، امام البضائع والخدمات الاسرائيلية * يجب ان يكون السلام بمثابة رافعة لتوسيع الصادرات الاسرائيلية ، وضمنان مصادر تسويق سهلة » (١٣) * وهنا تبرز بوضوح حدة المطامع الاسرائيلية ، فالجميع يتحدثون حول الطريق الانسب والامثل لاختراق واستغلال السوق المصرية ، وكيف ستتحقق اهداف اسرائيل اخيرا في توسيع صادراتها وحل مشكلة عجزها التجاري ، حتى وصل بعضهم الى حد المطالبة « بأن تحصل مصر على المساعدات الاميركية ليس على شكل بضائع اميركية او نقدا ، وانما بواسطة بضائع تكون مصر ملزمة بشرائها من

اسرائيل بتمويل اميركي » (١٤) .

على الرغم من هذه الرغبة الكبيرة في اختراق السوق المصرية ، والامال الواسعة بتوسيع فرع الصادرات ، فان هناك بعض الشكوك في اسرائيل حول احتمال النجاح في الوصول الى المستهلك المصري بصورة مفيدة ومريحة . فرئيس اتحاد الصناعيين ابراهام شفيط مثلا ، يعتبر ان القطاع الانتاجي في اسرائيل لا يتلاءم مع متطلبات السوق المصرية . « لقد نافست اسرائيل صناعات اوروبية واميركية ممتازة . وما تنتجه - اما انه ما زال غير ملائم للسوق المصرية ، او ان المصريين ينتجونه بأنفسهم وغير محتاجين اليه على شكل واردات من اسرائيل . . . يجب ان يتبدل الكثير في مستوى المعيشة وفي القوة الشرائية لدى المستهلك المصري ، لكي يصبح مستهلكا للبضائع الاسرائيلية ، ولا اعتبر ان هذا الحلم يمكن تحقيقه على المدى القصير » (١٥) .

الصناعة الاسرائيلية امام تحد كبير

اضافة الى العقبات التي قد تعترض طريق تسويق الصادرات الاسرائيلية في السوق المصرية ، والتي مصدرها نفور المستهلك المصري « لاسباب غير موضوعية وتاريخية » على حد تعبير موشي زنيار ، فان هناك عقبات محلية ايضا ، يمكن ان تؤثر على حجم هذه الصادرات او زيادتها نتيجة توسيع فروعها الصناعية . وبالتالي على امكانية تسويقها في السوق المصرية .

اولى هذه العقبات هي التكلفة العالية في الفروع الصناعية المعدة للتصدير وبالتالي ارتفاع اسعار منتوجاتها . وربما هذا هو القصد الاساسي من وراء حديث شفيط ، بان الصناعة الاسرائيلية غير معدة للسوق المصرية . ويتحدث حول هذه النقطة ايضا الخبير الاقتصادي الاسرائيلي دافيد كرخاف ، الذي يقول : « يجب الا يعترينا الوهم بأن تتحول مصر على امتداد بضع سنوات الى سوق رئيسية للصادرات الاسرائيلية ، فالصناعة والزراعة في اسرائيل في تركيبها الاساسي ، مخصصان للتصدير الى البلدان الصناعية المتطورة ذات الدخل العالي ، وليس مصادفة ان نحو ٩٠٪ من مجموع الصادرات الاسرائيلية مخصص لبلدان اوروبا واميركا » (١٦) .

اما اسباب ارتفاع التكلفة في الصناعة الاسرائيلية فكثيرة ومتنوعة ، اهمها ، سياسة الكشف التي تتبعها اسرائيل بالنسبة للصناعات المعدة للتصدير . وتهدف هذه السياسة الى تطور طبيعي لهذه الصناعات في ظروف المناقشات من جانب الواردات . واذا اخذنا في الاعتبار ان الواردات الاسرائيلية في معظمها من البضائع الاوروبية والاميركية ، نستنتج ان ظروف المنافسة صعبة وتتطلب الكثير من الجهد والنفقات . اضافة الى عامل المنافسة ، فان النقص في المواد الخام

وفي الطاقة البشرية هما من الامور الاساسية التي تساعد على رفع التكلفة في الصناعة المعدة للتصدير . فاسرائيل تعاني من نقص شديد في الموارد الطبيعية ومصادر الطاقة (النفط والغاز) وفي امكانيات الحصول على طاقة كهربائية رخيصة ومواد خام زراعية هامة . كذلك فهي بعيدة عن اسواق الصادرات ومصادر استيراد المواد الخام ، ونتيجة ذلك فان تكاليف الشحن لديها باهظة . بالنسبة للطاقة البشرية في القطاع الانتاجي ، فان اسرائيل تعاني من نقص كبير بها ، وعلى حد قول رئيس اتحاد الصناعيين شفيط فان هذا القطاع ينقصه اليوم الكثير من الايدي العاملة حتى ان « هناك عدة طلبات لمنتجات صناعية الى بلدان خارجية بقيمة نصف مليار دولار لا تستطيع المصانع في اسرائيل انتاجها وتزويدها بسبب النقص في الطاقة البشرية » (١٧) .

على الرغم من هذا الواقع ، يطمح كثيرون في اسرائيل الى توسيع الفروع الصناعية المعدة للتصدير بهدف استغلال فتح السوق المصرية ، مبررين طموحهم هذا في ايجاد حلول سريعة للمشاكل التي تعترض طريق التقدم الصناعي في اسرائيل . فالمنافسة مع البضائع المصرية غير واردة في نظرهم ، الا انهم لا يجدون تفسيراً لماذا سيفضل المستهلك المصري مثلاً ، البضائع الاسرائيلية على البضائع الاوروبية والاميركية ، خاصة وانها لا تقل سعراً او تزيد جودة ؟ . وحسب دراسة اعدتها هيئة التخطيط الاقتصادي في وزارة المالية الاسرائيلية ، يتوقع ان تصل قيمة الصادرات الاسرائيلية الى مصر خلال السنة الاولى بعد التوقيع على المعاهدة ، الى مئة مليون دولار كحد اقصى . وستشمل هذه الصادرات منتوجات كيمياوية مثل المبيدات وادوية زراعية والات زراعية ومواد غذائية معلبة وغيرها (١٨) . مقابل ذلك تطمح اسرائيل بالحصول على النفط والقطن غير المصنع من مصر في مجال التبادل التجاري بينهما . وهناك من يحذر من الاعتماد على مصر في موضوع الطاقة ، « فالمشكلة هنا ان احداً لا يعرف كم من النفط تستطيع مصر ان تصدر ، وعلى امتداد كم من الوقت . . . والخطر ان تضع اسرائيل موضوع الطاقة كله ، من فرط الحماسة ، في السلة المصرية - وهذا ليس جيداً . . . اذ ربما وصلت مصر الى وضع لا يعود لديها نطف للبيع - عندئذ ستبقى [اسرائيل] مع سلة فارغة . ان كل من لا يملك طاقة ، لا يستطيع ان يسمح لنفسه بكماليات من هذا النوع » (١٩) . على اي حال فان الاتجاه السائد في اسرائيل ، هو عدم الاعتماد كلياً على النفط المصري في المستقبل ، خاصة بعد تجربة ايران ، التي دفعت السلطات الاسرائيلية الى بدء البحث عن مصدر ثابت للطاقة ، حتى وان كان ذلك الولايات المتحدة نفسها .

التحذير من الطاقة البشرية الرخيصة من مصر

كان موضوع الطاقة البشرية الرخيصة من مصر ، اكثر الامور التي جذبت

الاسرائيليين ، منذ زيارة السادات الى القدس * وقد كثر الحديث عنها وتشعب ، وكان يتمحور حول نقطة واحدة : احتمال استغلال هذه الطاقة في اسرائيل ، في شتى المجالات - الزراعة والصناعة والخدمات والبناء - كطاقة رخيصة ، بالطريقة نفسها التي استغل بها العمال من المناطق المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ * ويبدو ان الظروف التي ستعيشها اسرائيل ، بعد توقيع معاهدة السلام ، والمتمثلة في ورشة البناء الكبيرة في النقب ، ستساعد على استقدام الاف العمال المصريين لاستغلالهم في بناء المنشآت العسكرية والاستيطانية هناك ، وفي مشاريع اخرى داخل اسرائيل * وقد بدأت تسمع اصوات التحذير من جانب كبار المسؤولين والخبراء الاقتصاديين لما قد يولده هذا الامر من ضرر على الاقتصاد والمجتمع الاسرائيلي * فرييس اتحاد الصناعيين شفيط يعتبر ان « نصف مليون عامل مصري رخيص ، يسكنون اكواخا متعفنة ، بينما يقوم الاسرائيليون بدور الافندية - هو بمثابة نهاية دولة اليهود ، انه نهاية الخاصية القومية واليهودية للدولة ، ودفع الحياة بها نحو النمط الشرقي ، ثم تنكر كامل ومطلق لقيم العمل والارتزاق اليهودي الجدير » (٢٠) * وفي مذكرة اعدها خبراء وزارة العمل حول المخاطر الاقتصادية والاجتماعية ، بعد فتح الحدود مع مصر ، ورد تحذير واضح من ان « فتح الحدود امام طاقة عمل غريبة ورخيصة وغير كفوة ، وباعداد كبيرة جدا ، يمكن ان يؤدي الى تقويض الاستقلال الاجتماعي القومي لاسرائيل * ان هذه المشكلة قائمة الان وربما ازدادت خطورة في المستقبل » (٢١) * وتجدر الملاحظة في هذا السياق ، ان الاقتصاد الاسرائيلي اعتاد خلال السنين العشر الاخيرة على طاقة عربية من المناطق المحتلة * ففي السنين الاولى بعد حرب ١٩٦٧ ، تراوح معدل عدد العمال العرب من المناطق المحتلة في اسرائيل بين ٣٠-٤٠ الفا ، وفق ما سمحت به السلطات هناك * بعد ذلك ازيلت الحواجز واليوم يعمل في اسرائيل اكثر من ٧٠ الفا * ورغم ان هؤلاء العمال يشكلون فقط ٥٤٪ من سائر العمال في اسرائيل ، فان نسبتهم عالية جدا في عدد من الفروع ، فهم يشكلون نحو ٣٠٪ من المأجورين في فرع البناء ، ٢٥٪ من العاملين في الزراعة ، ونحو ٢٠٪ في الخدمات الصحية والضيافة والنقل و ٧٪ من عمال الصناعة * وازا كان هذا الوضع قد بدأ يولد مشاكل اقتصادية واجتماعية معقدة ، فكم بالحري عندما ستتدفق طاقة بشرية هائلة من مصر التي يسكنها اكثر من ٤٠ مليون انسان » (٢٢) *

اضافة الى « الانعكاسات الاجتماعية » التي قد تولدها مسألة تشغيل طاقة بشرية رخيصة من مصر ، فان البعض ، ايضا ، يحذر من هذه الطاقة لانها قد تؤدي الى تخفيض انتاجية العمل في اسرائيل ومستواها التكنولوجي * فاصحاب المبادرة سيفضلون استخدام عمال بأجر رخيص بدلا من الاستثمار في العمل المهني وفي التقدم التكنولوجي » (٢٣) *

وانطلاقاً من هذه المحاذير يتحفظ الجميع تقريباً من مسؤولين وكتاب من مسألة استخدام عمال مصريين في إسرائيل ، إلا أن التحذير شيء والواقع شيء آخر ، وقد يجيء يوم - إذا ما وقعت معاهدة السلام بين الطرفين - يتدقق فيه آلاف العمال المصريين إلى النقب وغيره من المناطق ، إلا إذا تم استيعابهم في دائرة العمل في مصر أو منع وصولهم إلى إسرائيل . وأكثر ما تخشاه إسرائيل هنا هو هروب المستثمرين الاسرائيليين إلى مصر حيث الطاقة البشرية الرخيصة والرياح الوفير .

مشاريع مشتركة وتصدير الخبرة

إذا كان هناك نفور معين في إسرائيل من إمكانية استخدام آلاف العمال المصريين ، كما رأينا ، بالإضافة إلى عدم تأكد واضح من القدرة على اكتساح السوق المصرية على المدى القريب ، لعدم ملاءمة الصناعة الإسرائيلية مع متطلبات هذا السوق - فأن هذا لن يمنع إسرائيل من محاولة استخدام شتى الوسائل الأخرى للاستفادة من العلاقات الاقتصادية مع مصر ، بما يعود عليها بالفائدة . وأول ما تتطلع إليه هو التعاون في المجالين الزراعي والسياحي ، فإسرائيل تدعي أن لها خبرة واسعة في الحقل الزراعي ، « وبينما يسود عدم الوضوح في مجال الصناعة ، فإنه يتوقع أن يحدث تعاون فوري وصادرات وفيرة في المجال الزراعي » ولقد أعلن المصريون سلفاً أنهم مهتمون بمساعدة إسرائيلية كبيرة من أجل تطوير الزراعة لديهم . وفي هذا الإطار يمكن إشراك خبراء زراعيين ومصانع لإنتاج معدات الري والكيماويات وشركات هندسية . وتأمل إسرائيل أن تصدر خلال السنين المقبلة [لمصر] معدات ومنتجات [زراعية] بعشرات الملايين من الدولارات « (٢٤) » .

ومن بين مخططات التعاون التي يدور الحديث حولها في هذا المجال أيضاً ، هو ما ذكره نائب رئيس الحكومة المصرية حسن التهامي بعد اتفاقات كامب ديفيد ، حول « أحياء النقب بمياه من النيل » . وتعقب المصادر الإسرائيلية حول ذلك بقولها أن هذا المشروع - أي نقل المياه من النيل إلى النقب - هو فكرة المهندس الإسرائيلي اليشاع كلي ، أحد مسؤولي شركة تاهال [تخطيط المياه في إسرائيل] ، وكان قد أعلنها قبل سنوات ، « على أساس أنها مشروع يعسود بالرياح على كل من إسرائيل ومصر ، إذ يمكن بواسطته حل مشكلة المياه في إسرائيل على المدى البعيد بواسطة الحصول على واحد بالمائة فقط من مياه النيل ، أي ٨٠ مليار كوب من مجموع ٨٠ مليار كوب سنوياً » (٢٥) . ويدعي واضع المشروع أيضاً أنه مع تنفيذه يمكن حل بعض مشاكل الري في المناطق العربية

ايضا : ري شمال سيناء ، تزويد المياه لقطاع غزة ، وتزويد مياه اسرائيلية من المشروع القطري الى الضفة الغربية .

اضافة الى ذلك فإن اسرائيل تطمح في اقامة مشاريع مشتركة مع مصر ، على غرار تطوير مشترك للطرق البرية والجوية والبحرية التي تربط بينهما ، ثم مشاريع لتشجيع السياحة الدولية الى كل منهما . كذلك طرحت عدة افكار حول انشاء محطة ذرية مشتركة في سيناء لانتاج الطاقة ، وحتى لتحلية مياه البحر . والنقطة الاساسية التي يشير اليها الخبراء الاسرائيليون هنا ، هي ان هذه المشاريع يجب ان تعتمد على مصالح مشتركة للطرفين وعلى مسألة الربح الاقتصادي ، لانه بالامكان عندئذ الحصول على تمويل لها من مصادر دولية واميركية (٢٦) .

عوامل النجاح والفشل

هذه هي مجمل التوقعات الاسرائيلية ، حتى الان ، لمستقبل العلاقات الاقتصادية مع مصر ، في حال التوقيع على معاهدة السلام بين الطرفين . ويمكن ان نلاحظ هنا انها تنطلق جميعا من المصلحة الذاتية وكيفية استغلال الوضع الجديد لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي وتطويره . فاسرائيل ترغب في تطوير صادراتها الى مصر في المستقبل ، وفي تقوية التعاون في المجالين الزراعي والسياحي بالاضافة الى المشاريع المشتركة كما رأينا ، فهل يتحقق لها ذلك كله على المدى البعيد ؟ وما هي عوامل النجاح والفشل في كل ما تخططه ؟

ان اول ما يلزم اسرائيل للبدء في عملية الانطلاق الاقتصادي في عهد السلام هو استثمارات واسعة جدا في جميع المجالات ، خاصة في الصناعة . ويحتمل ان تحقق اسرائيل بعض النجاح في هذا المجال بمساعدة خارجية خاصة من اصحاب رؤوس الاموال اليهود في الخارج ، فالمؤتمر اليهودي العالمي بادر الى تشكيل لجنة دولية برئاسة البارون غي دي روتشيلد ، رئيس الفرع الفرنسي للعائلة اليهودية الثرية ، للبحث في متطلبات اسرائيل الاقتصادية في عهد السلام المتوقع مع مصر . وتتألف هذه اللجنة من عشرين اقتصاديا واصحاب رؤوس اموال من الولايات المتحدة ودول اميركية واوروبية، وقد عقدت اول اجتماع لها في نيويورك برئاسة الدكتور كيسنجر ، وزير الخارجية الاميركي السابق (٢٧) . ومتطلبات اسرائيل الاقتصادية في عهد السلام لا تشمل الاستثمارات فقط ، وانما استمرار تدفق المساعدات اليهودية ايضا ، التي تحصل عليها اسرائيل في اطار الجباية ، خاصة وان هناك خوفا كبيرا لدى المسؤولين الاسرائيليين من انخفاض هذه المساعدات او انقطاعها آنذاك . وتسعى اسرائيل جاهدة ايضا لضمان

استمرار المساعدات الاميركية لها في فترة السلام ، حتى بعد انتهاء مرحلة بناء القواعد العسكرية في النقب . واذا كانت اسرائيل راغبة في تدفق الاستثمارات والمساعدات اليهودية والاجنبية عليها ، فانها لا تبدي رغبة البتة في تدفق رأس مال عربي . وحسب المذكرة التي اعدتها خبراء وزارة العمل فان « رأس المال هذا ، الذي سيستثمر في القطاع الخاص ، من شأنه ان يؤدي الى تغيير العلاقة بين القطاع الحكومي والعام والخاص . وربما ادى الى اضعاف اجهزة الرقابة القائمة وخلق احتكارات تحت سيطرة اجنبية في المفصل الرئيسي في المجتمع الاسرائيلي » (٢٨) . واذا استثنينا مسألة « رأس المال العربي » الذي تخشاه اسرائيل ، يبقى السؤال ، هل تستطيع اسرائيل بمساعدة استثمارات يهودية واميركية صرفة منافسة الاستثمارات العربية والاجنبية في مصر وحتى في دول عربية اخرى . فالهدف هو توسيع الصادرات الاسرائيلية لاكتساح السوق المصرية ثم لاحقا الاسواق العربية الاخرى ، ولكن ما المانع من ان يكون الاتجاه عكسيا ، حيث تبذل مصر جهدا في تطوير صناعتها في حال توفر الاستثمارات ، خاصة وان معظم المقومات الاخرى لهذا التطور من طاقة بشرية ضرورية ومواد خام وغيرها متوفرة لديها . عندئذ ستفقد اسرائيل تفوقها التجاري او سيطرتها الصناعية واذا كانت مهتمة فعلا باستمرار التبادل التجاري فعليها الخوض في لعبة المنافسة . والاسرائيليون متنبهون لهذا الاحتمال ، لذلك فهم يخشون جدا من تطور صناعتهم في اتجاه متطلبات السوق المصرية فقط ، والحل الاضمن في نظرهم هو التوجه والتركيز على الصناعات التي تتطلب الكثير من الخبرة والتقنية ، وفي الوقت نفسه لا تتطلب الكثير من الطاقة البشرية ، وربما يكون هذا لمصلحتهم على المدى البعيد .

اذن فعوامل النجاح والفشل قائمة بالنسبة لتطور العلاقات الاقتصادية بين مصر واسرائيل ، فاذا كان تجاوب السوق المصرية مع البضائع الاسرائيلية يخدم مصلحة اسرائيل على المدى القصير ، فان تطور الصناعة المصرية في المقابل يخدمها على المدى البعيد ، لانه سيضطرها الى اتباع المنافسة كما ذكرنا . والمنافسة مفيدة لاسرائيل على اي حال ، فهي تضطرها الى تطوير صناعتها واتباع اسس تكنولوجية حديثة . والخوف الاسرائيلي ليس ناتجا عن عامل المنافسة بحد ذاته ، وانما من احتمال استثمار رؤوس الاموال العربية الضخمة ، في مشاريع صناعية وانمائية في مختلف البلدان العربية ، خاصة في مصر . وهل بإمكانها المنافسة في هذا المجال ؟ الحل على المستوى الرسمي ، وفسق السياسة الاقتصادية التي اقترتها حكومة ليكود بعد توليها السلطة - هو تحويل اسرائيل الى مركز مالي دولي ، واحتلال نفس المكانة التي كانت تحتلها بيروت قبل الحرب . واذا كان جو عدم الاستقرار الامني غير كفيلا بتحقيق هذا الهدف ، فان جو السلام الذي سيسود بعد توقيع معاهدة السلام ربما يساعد في تحقيقه . وحسب قول احدهم فان المطلوب فقط في هذا المجال هو « الاستثمار

في تشجيع البورصة في تل ابيب وتمكين القاهرة وامراء النفط من المضاربة بها « (٢٩) . وهنا ايضا تثور التساؤلات والتحقظات حول جدوى هذه المسألة خاصة وانها تتناقض مع « الهدف الصهيوني في العمل والانتاج » . فبموجب هذه السياسة « ستتحول [اسرائيل] خلال عشر سنوات وربما اقل ، الى مركز مالي اقليمي ، ويتحقق حلم ارليخ ، وفي البداية سيسر كثيرون ونكون كسويسرا وفادوز - والحياة هناك جيدة كما نعلم . ولكن في المرحلة الثانية ستبدأ المشاكل . سيبدأ مرة اخرى مجرى الكراهية القومية بالاضافة الى الكراهية الاقتصادية . وسيضطر اولادنا واحفادنا الى الدفاع مرة اخرى ليس عن بيت وملجأ لليهود هذه المرة ، وانما عن مركز مالي . واسرائيل كهذه لن تكون مركز جذب للمهاجرين ، ولن يبدأ فيها مجرى تركيز الشعب اليهودي اقليميا « (٣٠) . على اي حال ، فان الانطلاق من اقتصاد الحرب الى اقتصاد السلام ، رغم كل ما كتب حوله من توقعات واحتمالات ، يبقى نجاحه او فشله رهينة العامل الامني في الاساس ، فالامن مطلوب اقتصاديا كما هو مطلوب عسكريا ، وما دام الوضع غير مستقر على الجبهة الشرقية ، وبالنسبة للنشاط الفدائي ، فان اسرائيل ستضطر الى الحفاظ او حتى زيادة نفقاتها العسكرية ، رغم تحييد مصر . ويبقى هذا الامر احد التوقعات الاكيدة على اي حال ، في المدى القريب والمتوسط .

الحواشي

- | | |
|-----------------------------------|---|
| (١٩) دوف غنوفسكي ، يديعوت | (١) الاهرام ، ١٩٧٨/١١/٢٢ . |
| أحرونوت ، ١٩٧٨/١٠/١ . | (٢) هارتس ، ١٩٧٨/١١/٢٦ . |
| (٢٠) معاريف ، ١٩٧٨/١٠/١٣ . | (٣) الاهرام ، ١٩٧٨/١١/٢٢ . |
| (٢١) يديعوت أحرونوت ، ١١/٩/١٩٧٨ . | (٤) نقلا عن موشي زنبار ، حاكم بنك اسرائيل سابقا ، معاريف ، ٧٨/١٠/٢٧ . |
| (٢٢) اسرائيل تومار ، يديعوت | (٥) المصدر نفسه . |
| أحرونوت ، ١٩٧٨/١٠/٢٦ . | (٦) رأ ، ١٩٧٩/١/٣ . |
| (٢٣) المصدر نفسه . | (٧) المصدر نفسه . |
| (٢٤) دافيد ليفكين ، دافسان ، | (٨) معاريف ، ١٩٧٨/٩/٢٠ . |
| ١٩٧٨/٩/٢٢ . | (٩) معاريف ، ١٩٧٨/٩/٢٤ . |
| (٢٥) راجع نص المشروع في معاريف ، | (١٠) في مقابلة معه ، معاريف ، |
| ١٩٧٨/٩/٢٧ . | ١٩٧٨/١٠/١٣ . |
| (٢٦) د كوخاف ، مصدر سبق ذكره . | (١١) هارتس ، ١٩٧٨/٩/٢٦ . |
| (٢٧) يديعوت أحرونوت ، ١١/٩/١٩٧٨ . | (١٢) معاريف ، ١٩٧٨/١٠/٢٧ . |
| (٢٨) يديعوت أحرونوت ، ١١/٩/١٩٧٨ . | (١٣) المصدر نفسه . |
| (٢٩) اسرائيل تومار ، يديعوت | (١٤) زنبار ، مصدر سبق ذكره . |
| أحرونوت ، ١٩٧٨/١٠/١٣ . | (١٥) معاريف ، ١٩٧٨/١٠/١٣ . |
| (٣٠) المصدر نفسه . | (١٦) معاريف ، ١٩٧٨/٩/٢٢ . |
| | (١٧) معاريف ، ١٩٧٨/١٠/١٣ . |
| | (١٨) معاريف ، ١٩٧٨/٩/١٩ . |

المعجزة

١ - قمع ودم

لنبدأ بالتجربة الشخصية التالية :

في احد تلك الايام ، التي تكرررت علينا منذ « حرب الايام الستة » كما تتكرر اغنية « المهيبز » : « اعط السلام ولو قرصة واحدة » ، او الدراويش : « الله حي ، الله حي » ! وكنت خارجا من مطعم في حي « العجمي » ببيافا بعد ان تناولت افطاري طبقا من الغول المدمس ، اذا بجماعة من الناس ، وجوههم سمراء وشعورهم فاحمة وقاماتهم خامرة وثيابهم اسمال ، يتلقون سيارتي التي كنت اوقفتها على رصيف الشارع امام المساحة المعروفة باسم ذلك الحي .

فلما اقتربت من السيارة وايقنوا انني صاحبها تداقعوا نحوي ان : اي عمل يا أدون ؟ وراودوني بلغة عبرية كظيمة . فلم يخرج من بين شفتي سوى ابتسامة صامتة لا هي عربية ولا هي عبرية لم استطع ان أفك فكّي من عقالها الا بعد ان تحركت بي السيارة بعيدا عنهم .

اولئك كانوا عشرات من العمال العرب . طلوعوا مع الفجر من مديقة غزة ومن القرى القريبة منها - ما يسمى « قطاع غزة » - بعد ان فاضت بهم مكاتب العمل العسكرية في المناطق المحتلة . وكانوا يحتشدون في هذه المساحة كما احتشد غيرهم في ساحات مدن اخرى في البلاد . وكانوا يعرضون عضلاتهم على مقاولين اسرائيليين يأتون في سياراتهم ويحملون فيها من يختارونه مسن

هؤلاء العمال للعمل في البناء وفي الزراعة وفي التنظيفات وفي غيرها ممن
الخدمات البلدية .

وهؤلاء ليسوا ممن يسمون ، رسمياً ، « العمال المنظمين » . ان « العمال
المنظمين » هم أولئك الذين ترسلهم الى أماكن العمل مكاتب عمل أقيمت في إطار
الجهاز العسكري الذي يتولى الحكم في المناطق المحتلة . وتشير الاحصاءات
الرسمية الى ان عددهم قد بلغ ، الان ، حوالي ٦٧ الف عامل (١) وان نسبتهم
الى مجموع العمال في اسرائيل قد بلغت ٤٥ بالمائة . وبلغت نسبتهم في
اعمال البناء ٣٠ بالمائة ، وفي الزراعة ٢٥ بالمائة وفي اعمال التنظيف والخدمات
(البلدية) ٢٠ بالمائة . وبين الحمالين ٧ بالمائة (٢) .

وبلغ معدل الاجر الشهري (في سنة ١٩٧٦) ، للعامل « المنظم » من المناطق
المحتلة ويعمل في اسرائيل ، ١٣٥٤ ليرة اسرائيلية او ما يعادل ٤٨٤ بالمائة
من معدل الاجر الشهري للعامل الاسرائيلي (٣) . ومما لا شك فيه ان القيمة
الحقيقية لهذا الاجر قد انخفضت الان نظراً لسقوط قيمة العملة الاسرائيلية ،
حتى اصبح الدولار الواحد يساوي الان ما بين ١٨٥ و ١٩ ليرة اسرائيلية .

أما العمال ، الذين التقيتهم في ساحة العجمي ببيافا ، فهم من بين الالف العمال
غير المنظمين الوافدين يوماً على ما يسمى « أسواق العمل الحر » في المدن
الاسرائيلية . وكل هؤلاء العمال ، « المنظمين » منهم وغير المنظمين ، لا يتمتعون
بأية ضمانات اجتماعية . ويقضون ساعات عديدة من حياتهم اليومية في السفر
الى أماكن العمل وفي العودة منها . والعديد منهم يتكلف أجور السفر من قريته
الى المدينة ثم يعود دون ان يجد « سيداً » يشتري قوته عمله . وهناك « اسباب »
يفضلون ان يبيت عمالهم في مكان العمل نفسه . ويغلقون عليهم الابواب
بالمفاتيح « حفاظاً على امن الدولة » . وفي ١٤/٣/١٩٧٦ احترق حتى الموت
ثلاثة من العمال العرب من غزة كان « السيد » قد أقفل عليهم ابواب مشغله في
تل أبيب ليبيتوا فيه . فشب حريق فلم يستطيعوا الافلات منه . ونقرأ في الصحف
اسبوعياً تقريباً ، عن « حوادث عمل » يذهب ضحيتها عمال من غزة او من إحدى
القرى المحتلة في الشمال وفي الشرق وفي الجنوب .

لقد انتابني الحرج حين التقيت هؤلاء العمال لأول مرة . وذلك لان مزيجاً
من الشعور بالخجل وبالعجز تملكني . فكيف ، كيف قيض لهذا الشعب ان يلف
ويدور ، منذ حوالي اربعين عاماً ، في حلقة مفرغة تطحنه ثم تطحنه دون ان
يستطيع الفكك منها والانطلاق نحو حريته التي يستحقها ، « على الأقل » ، شأنه
شأن بقية الشعوب !؟

فأنا ، مثل بقية أبناء جيلي ، اذكر العمال « الغزائوة » . هكذا كنا نسمي ،
في الثلاثينات وفي الاربعينات ، العمال القادمين من غزة ومن جنوب فلسطين

عموما • وكانوا يعملون في أشق الاعمال وبأبخس الاجور في يافا وفي حيفا وفي القدس وفي اللد والرملة وغيرها • وكانوا يبيتون في الخرائب ووراء جدران الابنية التي لم يتموا تشييدها وعلى قارعات الطرق •

وفي مستهل حياتي السياسية والادبية - وكلاهما امر واحد - نشرت قصة قصيرة عن حادث واقعي جرى امام عيني في العام ١٩٤١ : عن سيارة ضخمة ، شبيهة بناقلة الدبابات ، كانت تعبر « شارع الملوك » بحيفا وقد امتلأت بالقمح • وكان القمح يتسرب منها الى ارض الشارع ، حبات حبات ، كما ترشح قطرات الماء من شربة فخار • فاذا بشاب « غزاوي » ، في مثل سني آنذاك (١٩ عاما) يركض ووراءها محاولا ان يلتقط حبات القمح • ثم حاول القفز على ظهر السيارة • فوقع بين عجلاتها • فاختلط دمه بحبات القمح الذهبية • واما السيارة الضخمة، الشبيهة بناقلة الدبابات ، فظلت تنهب بعجلاتها المطاطية « شارع الملوك » الذي اصبح اسمه اليوم ، في « دولة اسرائيل » ، « شارع الاستقلال » ! حتى غابت عن انظارنا وابتلعها المدينة الصاخبة •

واخذت لهذه القصة عنوان « قمح ودم » !

لقد تبذرت اوراق المجلة التي نشرت فيها هذه القصة • فأضعت كل اثر لها • وظللت عبثا ، ابحث عنها ثلاثين عاما حتى التقيت اصحابها ، مرة اخرى وبعد ثلاثين عاما !

قمح ودم ••• ارض ودم ••• شعب يعيش في دوامة دم ••• تطحنه وتطحنه •

ولكنه باق ولا يفنى •

٢ - باق ولا يفنى

ان هذه الحقيقة الضخمة ، عن ان هذا الشعب يابى الفناء ، تزداد شموخا وسطوعا وادهاشا ، حتى كائنها « المعجزة » ، كلما تعمقنا في اغوار المأساة التي ابتلى بها هذا الشعب وكشفنا عن القوى السوداء التي خططت مؤامرة القضاء عليه ومحوه من الوجود •

وهذه الحقيقة ، المعجزة - وكم من شعب اجترح المعجزات بنضاله وتضحياته وبدأيه - قد نبهتني اليها عيون العمال « الغرازوة » الذين التقيتهم في ذلك اليوم البائس ، في ساحة العجمي بيافا بعد غياب ثلاثين عاما ، كما نبهت تيوتسن التفاحة الساقطة فوق رأسه الى جاذبية الارض •

عيونهم هذه هي التي دفعتني ، فيما بعد ، الى كتابة القصة عن « الوقائع

الغريبة في اختفاء سعيد ابن النحس المتشائل » . واعتبر هذه القصة استمرارا ، بعد ثلاثين عاما ، لتلك القصة عن « القمح والدم » التي ضاعت . اما هم فلم يضيعوا ولن يضيعوا . ولقد اردت ان يبقى ذكرهم ، كما هم باقون ، طول الوقت .

« ولقد رأيتهم ، في ساحة العجمي بيافا ، شبانا في عمر الثمر . من غزة وجباليا وبيت لاهية وبيت حنون ودير البلح وخان يونس ورفح . يتمايلون على سيارة السيد المقاول كتمايل شواهد القبور فوق اخوتهم الشهداء في مقابر غزة (٤) . فأمنت بان الاحياء يستطيعون ، هم ايضا ، ان يبقوا في وطنهم !

« ورأيتهم في ساحة باريس (ساحة الحناطير فالخمرة في الزمان الاول) ، في حيفا التحتا ، شبانا في عمر نواراة اللوز والمشمش اللوزي والتفاح ابي الخد الاحمر ، من قلقيلية وطول كرم وجنين وطوباس والسيلة واللبن ، ينتظرون سيارة المقاول . فيتحسس سواعدهم ويروح النظر في قاماتهم الممشوقة . فيمتطي منهم من اشدت ساعده وقست ساقه . فاستعدت حالنا قبل عشرين عاما فأمنت بأن هذا الشعب لا يفنى » (٥) .

وقد يصاب بعض القراء ، الموجودين خارج بلادنا ، بالدهشة من تأكيدي على ان استمرار الشعب العربي الفلسطيني في البقاء هو ما يشبه المعجزة . فأي شعب زال من الوجود ؟

الهنود الامريكان ، في امريكا الشمالية !؟

حتى هم يخرجون الان ، وبعد حوالي اربعمئة عام ، من المحتجزات ويطالبون بحقوقهم القومية !

ومع ذلك فان حكام اسرائيل يريدون اقناع انفسهم انه في مقدورهم ، وفي الربع الاخير من القرن العشرين بالضبط ، ازالة الوجود القومي للشعب العربي الفلسطيني في وطنه .

لقد كانت معركتنا ، في الداخل ، ومنذ البدء ، معركة مستمرة ضد هذا الوهم الاجرامي والجنوني . ان معركتنا هذه مستمرة في اوضاع أنية شديدة الصعوبة والتعقيد حيث استطاع حكام اسرائيل ، اخيرا ، ان يعتمدوا على الخيانة العلنية التي أقدمت عليها الرجعية العربية متمثلة بانور السادات لتعزيز هذه الاوهام في رؤوسهم وفي رؤوس تلك الاوساط الاسرائيلية التي تتأثر بهم .

ورفيقنا ماير فلنر (٦) صدق حين قال ، تعقيبا على « اتفاقيتي كامب ديفيد » التي وقعها في ١٨/٩/١٩٧٨ كل من مناحيم بيغن وانور السادات ووقعها ، « شاهدا » ، جيمي كارتر :

« هناك احساس لدى الجمهور (الاسرائيلي) بان حكومة بيغن صنعت سلاما .

ولذلك يقيمون الافراح وحلقات الرقص • ولكن هناك ، ايضا ، معارضون •
 « ان كل انسان ذي ضمير يعرف اننا لا نستطيع ان نرقص على دمار الشعب
 الفلسطيني » •

« ان اتفاقيتي كامب ديفيد هي محاولة للقضاء على الشعب العربي
 الفلسطيني • ولم تحل اية قضية اساسية • بل ابعدت السلام العادل والثابت •
 فبدون احقاق حق الشعب العربي الفلسطيني في اقامة دولته المستقلة على ترابه
 الوطني لن يكون هناك سلام • وكل تسوية هي مؤقتة وتحمل في طياتها اخطار
 انفجارات جديدة • ان الاحمق فقط من يتوهم انه بالامكان القضاء على حقوق
 شعب من الشعوب » (٧) •

ولكن ، هكذا تصرف ولا يزال يتصرف حكام اسرائيل ، وكل من يقف وراءهم ،
 تجاه الشعب العربي الفلسطيني ووجوده وحقوقه • وحين يكون الحق سياسيا ،
 ويكون اصحابه مسؤولين عن مقدرات دول وشعوب ، تتعرض هذه الشعوب
 للويلات واللكوارث •

لقد تباهى احد المسؤولين الكبار في الوكالة اليهودية (٨) انه كتب في
 مذكراته ، في سنة ١٩٤٠ ، ما يلي : « يجب ان يكون واضحا لنا انه لا يوجد
 مكان في هذه البلاد لشعبين سوية • فوجود العرب لن نستطيع ان نحقق
 هدفنا بأن نصبح شعبا مستقلا في هذه البلاد الضيقة • والحل الوحيد هو ان
 تكون ارض اسرائيل ، او القسم الغربي من ارض اسرائيل على الاقل ، بدون
 العرب • ولذلك فما من طريق آخر سوى نقل العرب من هناك الى بلد مجاور •
 علينا ان ننقلهم دون ان نترك اثرا لاية قرية ولاية حمولة » •

ورئيس وزراء اسرائيل الحالي ، مناحيم بيغن ، كان تباهى بان مجزرة دير
 ياسين - التي اقترفتها منظمة عسكرية بقيادته في ٩/٤/١٩٤٨ وادت الى مقتل
 حوالي (٣٠٠) من الاطفال والنساء والرجال العرب الفلسطينيين العزل ، بدم
 بارد ، قد ساعدت على جلاء العرب عن فلسطين •

وحين تساءلت غولده مثير ، في سنة ١٩٧٣ وكانت رئيسة للوزراء آنذاك :
 « اين هو هذا الشعب العربي الفلسطيني » ، كانت تستخلص النتائج « المنطقية »
 - في نظرها - من ممارسات السياسة الاسرائيلية الرسمية ازاء الشعب العربي
 الفلسطيني ، ذلك الباقي منه في وطنه صبورا وذلك الذي شردوه ، طوال الاعوام
 الثلاثين الماضية •

لقد عشنا الاعوام الاولى ، منذ قيام اسرائيل ، نهب المقلق اليومي ان نجد
 انفسنا ، في كل لحظة ، محمولين في سيارة عسكرية تقذفنا الى ما وراء الحدود •
 وكان طرق جار زائر على الباب يوقفنا على اقدامنا في انتظار « المكتوب » • وكم

من قرية عربية المقي أهلها بأجسامهم تحت عجلات تلك السيارات العسكرية ليمنعوها من ترحيل اخوتهم واخواتهم . وكان رفاقنا، الشيوعيين اليهود، يقفون دائما معنا تحت تلك العجلات . فاذا داستنا داستهم واذا تراجعت امامنا تراجعت امامهم . لقد كانوا قلائل . ولكنهم دائما ادركوا - ونادوا بذلك - ان مصير شعبهم مرتبط بمصير شعبنا . « فبدون الشعب العربي الفلسطيني لا يمكن تحقيق سلام عادل وثابت » (٩) .

واشد الاحباط ، الذي عانيناه في تلك السنوات المساوية ، واشد المرارة كانا حصيلة تلك الطبول الفارغة التي قرعتها الرجعية الحاكمة في العديد من الاقطار العربية آنذاك عن « القاء اليهود في البحر » وغير ذلك من الشعارات المماثلة . كانت صرخاتنا ، صرخات المقتلعين يوميا من جذورهم الملقى بهم - فعلا ويوميا - في صحارى الغربية الوحشة بعد ان مسحت قراهم عن وجه الارض ، تضيع في جوف تلك الطبول فلا يسمع العالم غيرها ولا يكون لها من نتيجة سوى انها ساعدت حكام اسرائيل على قلب الحقيقة رأسا على عقب وعلى اخفاء الحقيقة الاساسية ، والقائمة بالفعل على ارض الواقع ، انهم هم هم - وبممارساتهم اليومية - الذين كانوا يلقون بالعرب في بحار الخيام ومعسكرات اللاجئين . كانوا ، هم هم وما زالوا ، يتوهمون انه من الممكن بناء مستقبلا لشعب على خرائب شعب آخر .

ولقد ادركنا ، منذ اللحظة الاولى ، ان مواقف الرجعية العربية هذه غير صادرة فقط عن التعصب القومي الاعمى ولا فقط عن جهلها المثير والذي عناه شاعرنا القديم بقوله : « يا أمة ضحكت من جهلها الامم » ، بل هو صادر - في الاساس - عن ارتباطها بمخططات الامبريالية ، هذه الامبريالية التي كانت معنية (ولا تزال معنية) بمنع الشعب العربي الفلسطيني من ممارسة حقه الشرعي في تقرير المصير ومعنية بدعم حكام اسرائيل في اطماعهم التوسعية وفي تحويلهم الى « قبضاي » لحماية مصالحها النفطية والاستعبادية وللمحافظة على عروش اعوانها في المشرق الاوسط .

ويجب ان تصبح هذه الحقيقة واضحة الان بعد ان وصل انور السادات بين شقي الحلقة المفرغة ، بين الشعارات المتطرفة وممارسات الخيانة الفعلية .

ونحن، حين نستمتع الى أنور السادات وهو يبرر خيانتته بدعوى هذه الشعارات نفسها وبأنها اساءت الى القضية الفلسطينية وبأنه جاء الى اسرائيل مستسلما لكي يطمئن شعب اسرائيل على ان العرب « قرروا ان لا يلحقوا اليهود في البحر »

وان هذه الشعارات هي « ٧٠ بالمئة من المشكلة » ، نشعر بالمرارة نفسها التي اصابتنا ونحن نعاني من سياسات حكام اسرائيل العنصرية ، من التشريد ونهب الارض وهدم البيوت . ثم كان حكام اسرائيل ، واعتمادا على هذه الشعارات ، يضعوننا في وضع المعتدي ويسجنون اطفالنا لان علما اسرائيليا فوق مدرستهم وجد ممزقا !

وحيث نتحدث عن « المعجزة » ، التي اجترحها الشعب العربي الفلسطيني ، في تحديه ممارسات ازالته من الوجود ، فأننا نرى امام اعيننا ، وأساسا ، هذا الدور الذي قامت به الرجعية العربية وتريد ان تنهيه الان ، بأنور السادات، نهاية « منطقية » !

٣ - حقيقة السياسة الاسرائيلية الرسمية

لقد كان واضحا لنا ، منذ البداية ، ان حكام اسرائيل قد بنوا ممارساتهم الفعلية على قاعدة سياسة مخططة استهدفوا بها اقتلاع الشعب العربي الفلسطيني من وطنه .

ويصبح هذا الامر واضحا الان بعد ان اجمع هؤلاء الحكام ، السابقون والحاليون ، على رفض الاعتراف بالشعب العربي الفلسطيني وبحقوقه القومية الشرعية حتى ولو وافق هذا الشعب على اجراء التسوية العادلة . وموشى ديان ، وزير الحرب السابق والخارجية الان ، ردد اكثر من مرة ان حكام اسرائيل لن يعترفوا بالشعب العربي الفلسطيني وبحقه في تقرير المصير وفي اقامة دولته المستقلة الى جانب دولة اسرائيل حتى ولو اعترف هذا الشعب باسرائيل .

هذه هي الحقيقة الاساسية ، في النزاع الاسرائيلي - العربي ، منذ بدايته . ولما كانت الامبريالية الامريكية مسؤولة عن هذا الموقف ، المسؤولية الاساس ، فنحن لا نستطيع ان ننسى دور الرجعية العربية الحاكمة في التغطية ، عن سبق عمد واصرار ، على هذه الحقيقة الاساسية .

لقد استمرت عمليات طرد العرب من بلادهم حتى بعد ان عقدت اتفاقية رودس ، (ابريل ١٩٤٩) .

وبعض الامثلة فقط - من كثير :

في ١٩٤٩/٦/٥ طرد سكان قرى الحصاص وقبطية والجاعونة ، في منطقة صفد . وازيلت هذه القرى من الوجود .

وفي ١٩٥٠/٨/١٧ جرى طرد جميع الباقين من اهالي مجدل عسقلان في

الجنوب (اكثر من الفى - ٢٠٠٠ - نسمة) واجلوا بالقوة الى مدينة غزة •
وفي ١٩٥١/١/٢٤ جرى طرد سكان ١٣ قرية عربية في وادي عارة في المثلث
بعد ضمه الى اسرائيل •

وفي ايلول ، ١٩٥٣ جرى طرد سكان قرية ام الفرج قرب نهاريا • ثم دمرت
كليسا •

وفي النقب ، في جنوب البلاد ، كان يعيش قرابة ٤٨ الف عربي في سنة ١٩٤٨
وكانوا يقطنون المنطقة القريبة من قطاع غزة وحول بئر المسبع وبئر عسلوج
فقامت السلطات الاسرائيلية بابعاد معظمهم الى الاردن والى شبه جزيرة سيناء
حتى لم يبق منهم ، في السنوات الاولى لقيام اسرائيل ، سوى ١٣ الف مواطن •
هذه امثلة قليلة فقط من عملية لم تتوقف ، حتى الان ، بل توسعت لتشمل
هضبة الجولان السورية المحتلة والضفة الغربية وقطاع غزة للمحتلين •

واحصاءات الامم المتحدة نفسها تشير الى ان اكثر من نصف مليون عربي
فلسطيني قد اضطروا الى اللجوء الى ما وراء الحدود من الضفة الغربية وقطاع
غزة خلال وبعد العدوان الحزيراني في عام ١٩٦٧ •

لقد قام جيش الاحتلال الاسرائيلي ، في اليوم الرابع من ايام « حرب الايام
الستة » بطرد اهالي قرى اللطرون (في الضفة الغربية - عمواس ويالو وبيت
توبا - حوالي عشرين الف نسمة ، دون قتال • اضطروهم الى السير في المظلام
عشرات الكيلومترات ، اطفالا ونساء وشيوخا ، دون طعام او شراب • ثم هدموا
هذه القرى عن بكرة ابيها وحرثوها واقاموا في مكانها - تعبيرا عن « التطور »
وعن « المدنية » - منتزها عاما « بارك كندا » • وهذا هو المصير نفسه الذي آلت
اليه قرى الجفتلك في غور الاردن • فقد ازيلت ، ايضا ، من الوجود بعد ان طرد
منها اهله البالغ عددهم ، هم ايضا ، حوالي عشرين الفا • وحين سنل وزير
الحربية آنذاك ، موسى ديان ، لماذا هدم هذه القرى ، اجاب : للقضاء على
الجرذان التي عشيشت في بيوتها !

انني ، بتقديمى هذه الامثلة القليلة ، لا ارغب في اجراء احصاء • انما اريد
ان ادمع بالوقائع حقيقة وجود مخطط استهدف ويستهدف ازالة الشعب العربي
الفلسطيني من الوجود • ولنقل : قوميا ! فاذا استمر هذا الشعب فسي البقاء
وازداد تلاحما واصرارا على حقوقه القومية العادلة فهذه هي « المعجزة » التي
لم يحسب لها حساب اولئك الذين لم يتعلموا من هزيمة التهم الحربية الجبارة في
الفيثنام فلم يعلموا اولادهم • بل وقفوا معهم ، في ازقة الشرق الاوسط المعتمة ،
يلعبون لعبة « الورقات الثلاث » في كامب ديفيد •

٤ - لا « معجزة » بل تضال صحيح

« المعجزة » ، التي اتحدث عنها ، صدمت حكام اسرائيل ولا تزال تصدمهم . لكن شوفينيتهم الخرقاء تحول دونهم والاعتراف بان « المعجزة » - اذا كانت موجودة حقا - فهي انه لا يزال موجودا ، في الربيع الاخير من القرن العشرين ، رجال سياسة يتوهمون انه في مقدورهم ان يزيلوا من الوجود اي شعب من الشعوب .

هذه الحقيقة صدمت روبين بركات حين كان سكرتيرا عاما للمستدروت . وفي ١٠/٣/١٩٥٥ هتف ، متألما ، هتافه المشهور : لم نكتسب خبرة في علاقاتنا مع الاقليات (يعني :العرب) . فقد حسينا ان تكون اسرائيل دولة يهودية نقية بدون اقلييات « ... »

وامنون لين ، النائب العنصري (عن الليكود) والذي يتباهى بكرمه للعرب ، صاح مندهشا : « حتى حادث كفرقاسم (١٠) المؤلم لم يؤد الى هرب العرب الى ما وراء الحدود » (١١) !

وحتى التباكي على « خطر تعريب » هذه المنطقة او تلك في اسرائيل ، بعد ثلاثين عاما من طرد العرب وهدم قراهم ومصادرة اراضيهم وانشاء المستوطنات اليهودية عليها ، هو - بالاضافة الى كونه عملا عنصريا مكشوقا - اعتراف ضمني بان السياسة العنصرية في زمننا هي سياسة خرقاء وقاشلة حتما .

بمختلف الوسائل جرى اجلاء الاكثرية الساحقة من الشعب العربي الفلسطيني عن المناطق التي اصبحت ، فيما بعد ، « دولة اسرائيل » . ومن اصل ٥٨٥ قرية عربية كانت قائمة في حدود اسرائيل الحالية (بدون المناطق التي جرى احتلالها في عام ١٩٦٧) هدمت ٤٧٨ قرية عربية ولم يبق سوى ١٠٧ قرى عربية . وانخفضت نسبة العرب ، في هذه المناطق من ٥٢ بالمئة الى ١٧٩ بالمئة في سنة ١٩٤٩ (لم يبق منهم في اسرائيل سوى اقل من ١٧٠ الف نسمة) . واستمرت هذه النسبة في الانخفاض حتى وصلت ، في عام ١٩٥٠ ، الى ١٢٩ بالمئة .

وبمختلف القوانين ، وبالاجراءات العسكرية ، صادرت السلطات الاسرائيلية الاغلبية الساحقة من اراضي القرويين العرب . وتشير الاحصاءات الحكومية ، في العام ١٩٥٢ ، الى ان القرويين العرب كانوا يملكون ويزرعون ٢٥٠٠٠٠ ر٢٥٠٠٠ دونم (١٠ دونما يساوي هكتارا واحدا) . وفي العام ١٩٥٣ ، وبموجب قانون خاص ، صادرت السلطات ما يقرب من مليون دونم من هذه الاراضي بالاضافة الى الاراضي التابعة للوقف الاسلامي وتبلغ مساحتها حوالي ٧٠ الف دونم .

وفي الجليل ، الذي يدعو المسؤولون الى الاسراع في « تهويده » ، كان

موجودا ، قبيل قيام دولة اسرائيل ، ٢١٠ قرى عربية • فجرى هدم ١٣٥ قرية منها وتشريد اهاليها والاستيلاء على اراضيهم • ولم يبق الان في الجليل سوى ٧٥ قرية عربية • وتستمر السلطات في مصادرة اراضي العرب دون ان تلوح في الافق اية نهاية لهذه الممارسات العنصرية •

ويتحدث « علماء » في اسرائيل عن « خطر الانفجار السكاني العربي » • وغولده مثير تعلن انها تستيقظ من منامها مذعورة حين تتذكر انه في كل لحظة يولد طفل عربي جديد في اسرائيل !

لقد انشأ وزير الزراعة الجديد (في حكومة ليكود) ، ارييل شارون ، فرقا متحركة مسلحة ، سميت « الكوماندو الاخضر » تجوب انحاء النقب وتطلق الرصاص على اغنام البدو وتدمر ابارهم وتصادر اراضيهم وتحاول نقلهم ، بالقوة الى محتجزات خاصة •

ومؤخرا ، وبحجة ان « الوضع الديموغرافي » في الجليل يتحول بسرعة لصالح العرب ، « بشرتنا » الصحيفة المطلعة « هارتس » (١١/٨/١٩٧٨) ان « شخصية كبيرة » اعلنت ، بعد ان قامت بزيارة الجليل ، قائلة : « يظهر انه لا يوجد من طريق سوى احضار الكوماندو الاخضر الى الجليل او اقامة فرقة مشابهة » ••

ان كل مطلع يعرف ان السلطات تملك من الاراضي العربية المصادرة مساحات شاسعة ، في الجليل وفي غير الجليل ، للمحافظة على ما تسميه « التهويد » • فالقضية ليست ، اذن وفي الاساس ، اقامة مستوطنات يهودية • اذن ، ماذا ؟ الا يحق لنا ان نفكر بان التماذي في هذه السياسة العنصرية والجنونية يقود هؤلاء التماذيين الى « العمل » على « تخفيض » عدد العرب في الجليل وفي غير الجليل ؟

الى اين ، وكيف ؟

ان الجماهير العربية ، تدعمها القوى الديمقراطية اليهودية في اسرائيل وعلى رأسها الشبوعيون ، لا يمكن ان تنتظر من احد ان يجيبها على هذا السؤال بل توحد صفوفها وتشن اوسع نضال جماهيري مفتوح دفاعا عن مجرد بقائها في وطنها •

وارجو الا يساء فهمي حين اعود واؤكد دور الشبوعيين ، لليهود والعرب ، الايجابي • انني عالم بحساسية العديد من الوطنيين ازاء هذه المسألة • ولكن ، هل اقيم لهم من الحجارة ، « اولادا لابراهيم » كما جاء في الانجيل ؟ لقد كانت المسألة اكبر من ان يتحملها اي فريق آخر • وهل يستطيع اي كاتب منصف ان يؤرخ لتاريخ العرب في اسرائيل ، بل لتاريخ الشعب العربي الفلسطيني ، في نضاله الحديث ، دون ان يذكر هذا الدور ؟

وفي المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ؟

يكفي ان نستعيد ، بكل المدلولات ، ما كان ليعني اشكول ، وهو رئيس للوزارة ، يردده من اسف لان حكام اسرائيل مضطرون ، « هذه المرة » ، ان يأخذوا اهالي المناطق المحتلة (وكان يسميهم « العروس ») اذا ارادوا ان يأخذوا - اي ان يضموا الى اسرائيل - المناطق المحتلة (وكان يسميها « الدوطة ») . اي ان « هذه المرة » تختلف عن « المرة السابقة » - عن « المرة السابقة » - عن العام ١٩٤٨ !

الم تكن هذه الحقيقة كافية حتى يدرك حكام اسرائيل انه لا « فكاك » - من الشعب العربي الفلسطيني وما من بديل عن التفاهم مع هذا الشعب وعلى اساس احترامه ؟

المرة تختلف عن « المرة السابقة » - عن العام ١٩٤٨ !
وفي بلاد الغربية ؟

ان حكام اسرائيل يعرفون ان الرجعية العربية ، التي تباع شعوبها واطنانها وخيرات شعوبها من المستعمر الاجنبي بصحن من العدس ، مستعدة دائما على التفريط بهذا الشعب « المشكلة » ، الشعب العربي الفلسطيني .

ولكن ، الم تؤد مذابح ايلول (١٩٧٠) في الاردن التي سقي حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير بدماء هذا الشعب والى صقلها على نار الامة ؟ لقد ضحت الرجعية اللبنانية بلبنان كله في محاولتها تدمير الشعب العربي الفلسطيني فلم تدمر سوى نفسها .

انه لامر ناجح حقا ، وبعد هذه التجربة ، ان يعود حكام اسرائيل (في حلف مهلك مع الامبريالية الامريكية) ، الى المقامرة على « مجزرة لبنانية » جديدة يقتربها ، هذه المرة ، الحكم الساداتي الرجعي في مصر .

فهذا الحكم ، مثله مثل الرجعية اللبنانية ، يتوهم انه بتدميره الشعب العربي الفلسطيني - بتقديمه هذا الشعب « كبش ضحية » ، سينقذ نفسه من الدمار . . .

صحيح ان القضية الفلسطينية هي اساس النزاع في الشرق الاوسط . ولكنها ليست اساس البلاء . هذان امران مختلفان .

ان اساس البلاء هو رغبة الامبرياليين في الاستمرار في نهب خيرات الشرق الاوسط ، خصوصا البترولية ، وترتيب الاوضاع السياسية والاقتصادية في دول الشرق الاوسط ترتيبا يتفق وهذه الرغبة . انهم يرغبون ، قبل كل شيء اخر ، بالقضاء على حركة التحرر الوطني العربية وتصفية مكاسبها ومنع الشعوب العربية من مواصلة مسيرتها نحو التحرر السياسي والاجتماعي .

ولذلك كان على انور السادات ، كي ترضى عنه الادارة الامريكية ، ان يفرط بمكاسب الشعب المصري الاقتصادية والسياسية ، ان يفرط بسياسة مصر المستقلة وان يفرط بنظامها الاجتماعي المتقدم ، بل يفرط بالشعب العربي الفلسطيني وبحقوقه .

فهل من الممكن ان ترضى الشعب المصري ، في المدى التاريخي ، هذه السياسة وان يرضيه هذا الحكم ؟ من الواضح ان الجواب هو سلبي كما كان سلبياً في مصر في عهد الحكم الملكي الرجعي وفي العراق وفي السودان وفي اليمن وفي ليبيا وغيرها .

اننا لا نستهيين بهذه « المجزرة السياسية » التي اقدم عليها انور السادات بحق الشعب العربي الفلسطيني بحق الشعب المصري نفسه . ولكن نتيجتها لا يمكن ان تكون مختلفة عن المجازر السابقة والحالية التي تعرض لها ويتعرض لها الشعب العربي الفلسطيني . انها ستجر كوارث جديدة على شعوبنا ، ولكنها لا يمكن ان تحقق السلام الذي تنشده الشعوب .

فالتعاون بين الرجعيين الحاكمة في خدمة الامبريالية وعلى حساب الشعوب ، لم ولا يمكن ان يؤدي الى تسوية قضايا العلاقات بين الشعوب . ما من طريقة الى تحقيق السلام في الشرق الاوسط الا اذا كان سلاماً عادلاً . لقد استطاع الشعب العربي الفلسطيني ان يحافظ على وجوده وان يشحذ نضاله العادل من اجل حقوقه القومية لانه وجد طريقه الى انصار الحرية والسلام في العالم اجمع .

حينئذ لم يفقد امله ولم يرام يراه السادات بان الامبريالية « قادرة على كل شيء » . وحين كانت اقسام من قيادات هذا الشعب ، وبسبب مصدرها الطبقي ، تصاب باليأس كانت اما ان تنطوي على نفسها واما ان تنتهج سبيل المغامرة والسياسات غير العادلة التي تقود الى الامر نفسه - الانطواء على النفس .

وعلينا ان نلاحظ ان الطعنة التي وجهها انور السادات - بالنيابة عن الرجعية العربية كلها - الى الشعب العربي الفلسطيني تستهدف ، فيما تستهدفه ، رمي هذا الشعب وقياداته في مهاوي اليأس . ان اخطر شيء على الشعب العربي الفلسطيني في الوقت الحاضر - وتبعاً لذلك : اخطر شيء على قضية السلام - هو الوهم بان المخطط الامبريالي - الصهيوني - الرجعي العربي - متحقق لا محالة .

ان تلك الاوساط العربية ، التي عادت من جديد الى المزايدة على الشعب العربي الفلسطيني وعلى حقوقه ، هي اوساط تساعد على نشر اليأس وعلى تمرير المؤامرة الامبريالية .

ان الاخطار على السلام وعلى حقوق الشعوب جدية وتتفاقم . ولكن ، بالمقابل علينا ان نرى ان الرجعية اصبحت تمارس خيانتها على المكشوف . ان الامبريالية تقامر على الانظمة المعفنة التابعة لها مقامرة الخسران على ثيابه الداخلية .

من الضروري ، اكثر من اي وقت مضى ، المحافظة على وحدة الصف الوطنية والتشبث بالسياسة العادلة والعقلانية التي تؤيدها كل الشعوب والدول المتحررة والمحبة للسلام . فبذلك فقط لا تعود « المعجزة » معجزة بل امرا طبيعيا ومفهوما في الربع الاخير من القرن العشرين .

ان تجربتنا في بلادنا ، خلال ثلاثين عاما من الصمود في اقصى الاوضاع ، تؤكد هذه الحقائق المضيئة .

ان طريق الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية هو طريق مسدود . لم يؤد ولن يؤدي الى السلام المنشود . وما من طريق للخروج من حلقة السدم المفرغة سوى طريق الشعوب - سلام الشعوب .

هذا ما اردت ان اقله لاختوتي العمال من غزة الذين التقيتهم في صباح يوم من الايام في ساحة العجمي ببيافا . ولكنني اجلت هذا القول حتى اقله ليس باسم حزبي وحده . واعتقد ان هذا اليوم قد جاء !

الحواشي

- (١) من بيان اللجنة المركزية للاحصاء (لجنة حكومية) الى الصحف ، قسي ١٩٧٨/٧/١٣ .
- (٢) من تصريح لمدير قسم الخدمات في وزارة العمل ، باروخ حقلاني ، «الاتحاد» ، ١٩٧٨/٩/١٩ .
- (٣) من كتاب الاحصاءات السنوي *Statistical Year Book* رقم ٢٨ (١٩٧٧) .
- (٤) الاشارة الى ما انتشر من يقين في غزة وفي بقية انحاء المناطق المحتلة ، في اواخر ايلول ١٩٧٢ ، عن تحرك الشواهد فوق قبور الشبان الاربعة في مقبرة حسي الشجاعية في غزة - مصطفى عبد القادر وحسين سليمان وعون سعيد وتوفيل شمالي الذين صرعهم رصاص الاحتلال .
- (٥) « الوقائع الغربية في اختفاء سعيد ابي الخس المشائل ، القدس ، منشورات صلاح الدين ، صفحة ١٠٦ .
- (٦) الامين العام للحزب الشيوعي الاسرائيلي (ركاح) .
- (٧) الاتحاد ، ١٩٧٨/٩/٢٣ .
- (٨) يوسف فايس في مقال ظهر في صحيفة «دافار» ، ١٩٦٧/٩/٢٩ .
- (٩) من بيان المكتب السياسي للحزب الشيوعي الاسرائيلي حول اتفاقية كامب ديفيد ، «الاتحاد» ، ١٩٧٨/٩/١٩ .
- (١٠) « حادث كفر قاسم » هو مجزرة كفر قاسم الرهيبة التي اقترفتها فرقة من حرس الحدود التابعة للجيش الاسرائيلي في الساعة الخامسة من مساء ١٩٥٦/١٠/٢٩ ، (بداية العدوان الثلاثي على مصر) وقتلت ، بدم بارد ، ٤٩ من اهالي القرية العربية كفر قاسم (مواطني دولة اسرائيل) وبينهم ١٣ امرأة و ١٥ طفلا .
- (١١) من مقال بقلم امنسون لين ، « يديعوت احرونوت » ، ١٩٧٥/١٢/١٩ .

ظاهرة الارتداد في مصر من إنقلاب ١٥ مايو إلى إتفاقيّة كامب ديشيد

ان ظاهرة الارتداد التي شهدتها وتشهدها مصر ، والتي حولت مصر من مركز للتقدم خلال سلطة عبد الناصر الى مركز للتراجع والثورة المضادة خلال حكم السادات ، لم تنبت بشكل مفاجيء ، ولم تستو في فراغ ، خارج الظروف الموضوعية . بل كانت لها مقدماتها وجذورها على قاعدة الصراع الاجتماعي الطبقي الذي لا توقفه النوايا ولا الارادات في مجتمع ما تزال الرأسمالية هي علاقات الانتاج السائدة فيه .

احتدام الصراع داخل النظام الناصري وضده

وفي الحقيقة فان المجتمع المصري ، في الفترة الاخيرة من حياة الرئيس عبد الناصر ، كان يعج بالتناقضات والصراعات التي تفاقمت الى حد التفجر باشكال مختلفة وفي مجالات متعددة ، شملت كلا من المدينة والريف . وكان جوهر هذا الصراع اجتماعيا طبقياً ، وكان قطباه : قاعدة اجتماعية واسعة من العمال والفلاحين والفئات المسحوقة من البورجوازية الصغيرة عبر عبد الناصر موضوعيا عن مطامحها في التحرر والتقدم ، وفئات من البورجوازية وجدت في حركة عبد الناصر ما يتناقض مع مصالحها الاساسية . الا ان هذا الصراع لم يحسم ، ولم يكن من الممكن ان يحسم ، لصالح القوى الثورية . لان هذه القوى وجدت في وضع ذاتي صادرت فيه السلطة السياسية حقها وقدرتها بالتحرك السياسي ، واستبدلت فيه مبادراتها بالقرارات . وحرّم في هذا الوضع على

القوة الاجتماعية الأكثر جذرية فيها ، الطبقة العاملة ، ان يكون لها تنظيمها السياسي الثوري ، الحزب ، وتنظيماتها الديمقراطية الجماهيرية المستقلة . بينما حافظت البورجوازية كطبقة على قدرتها في التحرك السياسي ، وعلى تطوير هذه القدرة ، داخل السلطة ومؤسساتها التشريعية والتنفيذية وخارج السلطة ايضا . ووجهت خط تحركها المضاد ، في بادئ الامر ، ضد التحولات الاجتماعية الاقتصادية وبغاية اجهاضها وافراغها من محتواها التقدمي . ومن ثم ضد السلطة السياسية نفسها ، وتحديدًا ضد قيادة عبد الناصر بالذات ، بغاية التضيق على حركتها وازاحتها وصولا للاستيلاء على هذه السلطة . وبكلام آخر ، فلقد كانت تتحول مسألة التحولات الاجتماعية الاقتصادية ذاتها ، مسألة الحفاظ عليها وتطويرها ، الى موضوع صراع محتدم بين قوى غير متكافئة من حيث القوة والقدرات الاقتصادية . ولكنها غير متكافئة ، خاصة من حيث القدرات السياسية . وهو الامر الاخطر الذي يشير اولا ، ومجددا ، الى الثغرات العضوية الاصلية في النهج السياسي الذي كان يقود العملية الثورية . ويطرح ، ثانيا ، مسألة ارتباط تلك التحولات وافاق تطورها ومصائرهما بالسلطة السياسية كمسألة مركزية . ولا يوصد الباب ، ثالثا ، بوجه الصراع الاجتماعي ، بل هو يشرعه ولمصلحة القوى المحافظة والرجعية . بهذا المعنى ، يعود السبب الاساسي لاحتدام الصراع الى ان عبد الناصر كان يحاول تحديد موقفه في اختيار طريق تقدمي لتطور مصر دون ان يحسم في مسألة اساسية ذات وجهين متلازمين : السلطة اولا ، ثم الحزب والنظرية الثورية التي يستند اليها . ان بقاء عبد الناصر في موقف اللاحسم هذا مع استمراره في محاولة السير بمصر على طريق تقدمي ، ايقظ لدى القوى الطبقية السياسية المعادية للثورة كل الغرائز الشرسة ، وشجع الفئات العليا والمتوسطة من البورجوازية على التصدي لسلطته من اجل قلبها ، او احداث التغيير في موقعها لصالح البورجوازية قبل ان تتوفر الظروف لاحتمال تحولها الى سلطة مستقرة لصالح الطبقة العاملة . وبالإضافة الى ارتكاز هذه القوى في تحركها الرجعي على نقطة الضعف الاصلية في بنية النظام الناصري ، فلقد استفادت هذه القوى من الضعف العام الذي مني به هذا النظام بعد هزيمة حزيران والخلل الذي أحدثته هذه الهزيمة في مؤسسات الدولة . ولم تنجح المحاولات التي قام بها الرئيس عبد الناصر لاصلاح هذه المؤسسات واحداث بعض التغييرات فيها في ازالة هذا الخلل .

ومن العوامل الحاسمة في فشل هذه المحاولات ، كبرنها انطلقت الى موجبات التصدي للقضية الوطنية والقومية المتفاقمة بعد حرب الخامس من حزيران من فصلها لا من ربطها بالقضية الاجتماعية ، وذلك في مرحلة باتت سمتها الاساسية

هي الترابط بل التشابك الموضوعي بين القضية الوطنية والقضية الاجتماعية . لكن السلوك السياسي للقيادة كان يفترق عن موجبات هذا التشابك ، على مستوى التدابير التي اتخذت في تلك الفترة وعلى مستوى الموقف من القوى التطبيقية السياسية . ومن ذلك ، على سبيل المثال ، تعديل قانون التعاون الزراعي لمصلحة اغنياء الريف عام ١٩٦٩ ، التراجع عن تطبيق قرارات اجتماعية وسياسية سابقة يعكس تساهلا صريحا تجاه الرأسمالية التجارية والعقارية ، السكوت عن تعميم مفهوم رجعي « بالوحدة الوطنية » ينعش ، عمليا ، القوى والاتجاهات اليمينية ، قمع التحرك الجماهيري الواسع في نوفمبر ٦٨ ٠٠٠ مما كان يصب ، في النهاية ، في افراغ « بيان مارس » (٦٨) من محتواه الوطني التقدمي من جهة ، ويفسح في المجال ، من جهة اخرى ، امام القوى التطبيقية المعادية للثورة لان ترفع رأسها وتغذي عملية الفصل بين القضيتين : الوطنية والقومية والقضية الاجتماعية ، وتجهر بمسؤولية التحولات الاجتماعية الاقتصادية عن الهزيمة العسكرية . ولقد كان هذا الواقع ايدانا ببداية تحرك داخلي رجعي يتكفل ، من موقعه ، بنقل الهزيمة العسكرية للنظام الناصري الى الهزيمة السياسية الكاملة ، مستفيدا ، الى ذلك ، من الصعوبات المتزايدة امام قيادة عبد الناصر في مواجهته للمشكلات المتفاقمة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وظلت هذه الصعوبات تتفاقم ، وظل النظام الناصري اسيرا لها ، عاجزا عن ايجاد المخرج منها ، الى ان بلغت ذروتها في العامين الاخيرين من حياة الرئيس عبد الناصر . ان قسما كبيرا من هذه المشاكل نجم عن الازمة العامة التي تترتبت عن العسودان والتي استمرت مدة طويلة دون حل بات الالحاح بضرورة توفيره ظاهرة عامة ، مصريا وعربيا ، تجلت بوجهين مترافقين : احساس الناس والجماهير ، في الداخل وعلى الصعيد العربي ، بوطأة الهزيمة وبما يشكل ذلك من عناصر ضاغطة تستدعي الاستجابة لها ، وحصول تغيرات نوعية جديدة هامة على المستوى العربي الشعبي والرسمي باتجاه الرد على الهزيمة . ولقد تجسدت هذه التغيرات ببروز المقاومة الفلسطينية تأخذ بيدها القضية الفلسطينية وتطرحها بمحتوى نوعي جديد كحركة تحرر وطني ، وبانتقال السلطة السياسية في كل من ليبيا والسودان الى القوى الوطنية والديمقراطية ، وبالتحول التقدمي في السلطة في اليمن الجنوبية . ولم تكن هذه الظاهرة العامة بمجمل عناصرها ومضامينها الثورية والديمقراطية مجرد رد على هزيمة الخامس من حزيران ، بل كانت ، في الرقعة نفسها ، تعبيرا عن غليان عربي عام بضرورة التغيير وباتجاهه . كانت ، بمعنى من المعاني ، تفجرا لطاقت الحركة الثورية العربية تتطلع الى احتلال مصر موقعها المعين المحدد في قلب هذا التغيير ، وتنتظر منها ان تلعب الدور الاساسي العائد اليها فيه .

لكن مصر ، في تلك الفترة ، لم تكن قادرة على القيام بهذا الدور - فعبء الناصر ، من جهته ، لم يعد قادرا على ممارسة زعامته وقيادته وتحكمه السابق بمجاري الصراع وتوجيهها . كما ان ردود الفعل العامة على الهزيمة ، على اهميتها ، لم تتمكن بدورها من ايقاف الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية ضد حركة التحرر الوطني العربية التي تستهدف ، فيما تستهدف ، جني ثمار الهزيمة العسكرية انهيارا سياسيا كاملا للنظام الناصري . وهي الهجمة التي باتت تأخذ طريقها وتحرز المواقع في داخل مصر نفسها . فالبورجوازية المصرية باتت على عجلة من امرها لازاحة عبد الناصر ولاستلام السلطة مباشرة .

من هنا ، كان عبد الناصر يفتش عن حلول تمنع الانهيار او تؤجله . ولكنها لم تكن الحلول المطلوبة لمواجهة الاوضاع المتفاقمة ، من وجهة نظر القسوى الصاعدة ، ويحكم اندفاعها الثوري . وفي هذا السياق من الظروف الصعبة وضع الرئيس عبد الناصر امام الموافقة على مشروع روجرز الذي لا بد من وضعه في مكانه الطبيعي كواحد من مخططات الهجمة الامبريالية . ولقد كانت الغاية الاصلية من هذا المشروع وضع عبد الناصر في المأزق من اجل اسقاطه ، خاصة وان هذا المشروع اشترط ، من جهة ، ايقاف حرب الاستنزاف ، وترافق ، من جهة اخرى ، بتوجيه الضربة الموجعة للمقاومة الفلسطينية في ايلول ١٩٧٠ . ولقد خلق هذا الوضع بحد ذاته ، مناخا جديا ملائما لقيام قوى تعارض عبد الناصر وسط الجماهير الشعبية ، للمرة الاولى .

في هذه المرحلة ، وفي هذا السياق ، بدأ عبد الناصر يدفع من رصيده الشعبي ومن سلطته الفعلية ثمن كل سياسته السابقة : ثمن سياسته في فترات الاقدام والجرأة في التصدي للامبريالية وللوقى الرجعية ، و ثمن سياسته في فترات التردد التي طبعت مواقفه وفي فترات الهزائم . وان الضربة التي وجهت للنظام الناصري في حرب حزيران لم تكن ، في الحقيقة ، مجرد انذار ترفعه القسوى الامبريالية والصهيونية والرجعية بوجه عبد الناصر من اجل ان ينكفيء ويضع حدا لطموحاته في توحيد الامة العربية وتحرير ثرواتها الوطنية ، بل كانت تستهدف الاجهاز على قيادته وكل تجربته . كانت ترمي ، في النهاية ، الى الاسراع في احداث التغيير داخل مصر وفي موقع مصر ودورها المحدد في الوضع العربي العام ، اي الى الوصول بمصر مباشرة بعد هزيمة ٦٧ المسمى الوضع الراهن المتجسد بوصول السادات الى السلطة .

وبهذا الصدد ، فلقد اكد تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني الصادر في اواخر ١٩٧٠ على ان هذه الفترة هي بداية مرحلة جديدة ، مبينا ان الاتجاه العام فيها هو بدء هجمة امبريالية صهيونية رجعية شرسة جديدة تستهدف قمع حركة التحرر الوطني العربية وتحقيق كامل اهداف الامبريالية في السيطرة الكاملة السياسية والاقتصادية على شعوبنا العربية .

وفي ظروف هذه الهجمة ، كان على عبد الناصر من الموقع الذي يحتله في قيادة حركة التحرر الوطني العربية ان يختار طريقا اكثر حزمًا في العمداء للامبريالية وفي مواجهتها ، واكثر استنادا الى القاعدة الجماهيرية الواسعة المداعمة لقيادته . ولكنه لم يتخذ القرار في اللحظة الحاسمة ، وتحديدًا بعد التاسع والعاشر من حزيران غداة الهزيمة ، عندما خرجت ملايين مصر والعالم العربي ترفض تخليه عن المسؤولية في قيادة شعب مصر والامة العربية ، مع يقينها بانه يتحمل قسطا اساسيا من المسؤولية عن وقوع الهزيمة . عندها كان عليه ان يحسم في اختيار الطريق . وحينما تردد في هذا الاختيار فاته الوقت ولم يعد يملك ، تجاه تراكم الاحداث وتعمق تأثيرها السلبي على مجرى التطور ، لا القدرة ولا الادوات لكي يختار ويحسم . فالصراع الطبقي الذي كان يحتدم ويتفاقم في المدينة والريف كان يجد تعبيراً عنه داخل السلطة نفسها ، بسائر مؤسساتها واجهزتها ، ومن رأس الهرم فيها الى اسفله . بحيث لم تعد هذه المؤسسات والاجهزة تلك الاداة الرئيسية المطواعة المنسجمة مع خياراته ، كما في السابق . ان انعكاس الصراع على السلطة لم يكن بمعنى انها لم تعد بمنأى عن هذا الصراع وحسب ، بل ، اساسا هنا ، بمعنى ان القوى البورجوازية التي تمكنت من التسلق والاستقرار في مؤسسات السلطة اندفعت باقصى امكانياتها لاستخدام موقعها هذا من اجل حسم الصراع المحتدم لمصلحتها المطلقة . لقد وجدت نفسها في مواجهة ظروف نوعية جديدة لمجرى الصراع واتساعه ولضامينه الطبقي النوعية ، فاستنفرت كل قدراتها الذاتية لقمع اي تحرك من شأنه ان يدخل مصر في عملية تطور جديدة لغير صالحها الاقتصادي والسياسي . ولم تكن مخاوف البورجوازية من الطابع الجديد لاحتدام الصراع بلا اساس . فهي لم تر في حركة التاسع والعاشر من حزيران مجرد انتفاضة جماهيرية تطالب بعودة عبد الناصر ، بل اعتبرت انتفاضة موجهة ضدها ، ضد مجيئها الصريح الى الحكم . كما تسارع قلقها حيال ظاهرة جديدة من التحرك الجماهيري الواسع في المدينة : ظاهرة اختراق الطبقة العاملة المصرية القيود القانونية والبوليسية (مسيرة عمال المصانع في حلوان) ، مع ما استثار هذا التحرك العمالي من تحرك طلابي وشعبي عريض لم يعد يهاب القمع . لم تتوقف البورجوازية طويلا عند مطالب هذا التحرك ، وهي الراضة من قدراتها على اجهاضها (الامر الذي حصل بالنسبة لبيان ٣٠ مارس) ، ولكنها توقفت مليا عند هذا التحرك بحد ذاته ، وبطبيعة القوى الطبقيّة المشاركة فيه . ورأت في ذلك مؤشرا على بداية عملية استقطاب اجتماعي لا يقل شكل التعبير فيه خطورة عن مضمونه . لا سيما ان هذه العملية لم تقتصر على المدينة بل طالت الريف ، هو

الآخر ، وعلى اساس اجتماعي جديد وبمستوى من الوعي الطبقي أخذ فسي التبلور . فالصراع الاجتماعي كان يحدث في الريف ، على ارض الواقع ، ولم يبق مكتوما الا في وسائل الاعلام الرسمي . ولم تكن حادثة كمشيش هي الحالة الفريدة الاولى المتفجرة ، تدليلا على احتدام هذا الصراع ، كما انها لم تكن الاخيرة . لقد وجه الاصلاح الزراعي الضربة الحاسمة لعلاقات الانتاج الاقطاعية في الريف المصري . وهو بهذا المعنى يكتسب الجانب الثوري من مضمونه . لكنه ، وبسبب من عدم جذريته ، ادى الى احلال علاقات الاستثمار الرأسمالية في الزراعة ، والى تمايز اجتماعي جديد على قاعدة هذه العلاقات . وعلى هذا الاساس المادي ، بدأ يتخذ الصراع في ريف مصر طابعا اكثر تقدما واكثر احتداما . وفي مجاري هذا الصراع ، كانت قوى الرأسمالية الزراعية تمكك من القدرات المتنوعة والمتعددة ما يمنحها المواقع الاقوى ، سواء في « الاتحاد الاشتراكي » الذي هو السلطة السياسية الاولى في القرية ، او في « الجمعية الزراعية » التي هي بمعنى من المعاني ، مكان السلطة الاقتصادية فيها ، او المكان الذي كانت تطرح فيه وتعالج المصالح الاقتصادية للفلاحين . فلا يبقى من المظاهر الرسمية المعبرة عن صراحة ذلك الصراع سوى دوائر البوليس التي تثبت سجلات الشكاوى فيها ان معظم هذه الشكاوى في القرى المصرية تدور على النزاعات الاقتصادية الاجتماعية بين كادحي الريف المصري وبين مستثمريهم ، بين العمال الزراعيين وبين اصحاب العمل ، بين مستأجري الارض وبين مؤجريها . وعلى اساس من هذا التمايز الاجتماعي الذي بدأ يتخذ طابعا اكثر حدة وشمولية ، في المدينة والريف ، بدأ يتجلى وعي طبقي عام في مصر استنفر بمواجهته البورجوازية في المدينة والريف بأشكال متعددة من المواقف السياسية والتحالفات التي تعني في ما تعنيه ، استباق قيام التحالف الثوري بين الطبقة العاملة والفلاحين ، وقد استوت اساسه المادية . انها ، بالواقع ، المرة الاولى التي تشهد فيها مصر هذا التحرك الذي تشترك فيه في آن معا جماهير العمال والفلاحين .

ومن اشكال تجلي هذا الوعي الطبقي كان التمسك بعبد الناصر نفسه من قبل القوى الاجتماعية الواسعة ذات المصلحة بالتغيير . لقد اصبح الصراع على عبد الناصر ، في الفترة الاخيرة من حياته ، قضية هامة من قضايا الصراع المحتدم . ان عددا من اقرب المتعاونين معه لم يترددوا في لحظات معينة من ان يسفروا عن موقف معاد لعبد الناصر ، مناهض لخطه العام ، متعارض مع المبادئ والافكار التي يدعو للالتزام بها . وفي حالات عديدة ، كان يجري قمع العمال والفلاحين والطلاب الذين كانوا يضرّبون ويتظاهرون تحت شعارات

الناصرية ومبادئها ، دفاعا عن مصالحهم وعن هذه المبادئ . كانوا يجمعون باسم عبد الناصر وباسم سلطته وباسم الثورة التي قادها . ولم يكن عبد الناصر ليستطيع منع ذلك الا في الحالات النادرة .

لقد كان من شأن ذلك كله ان يؤدي تدريجيا الى تحول داخل اجهزة السلطة باتجاه معاد لتوجهاتها ، يصب ، في النهاية ، في خدمة مصالح البورجوازية وتعزير مواقعها داخل السلطة وفي المجتمع .

في سياق هذه العملية الاجتماعية والسياسية العامة ، تكمن اسباب ما حصل من تغييرات بدت وكأنها مفاجئة غداة غياب الرئيس عبد الناصر واستلام السادات للسلطة في مصر وسلوكه منذ البدء نهجا مغايرا لنهج عبد الناصر ، متذكرا للمبادئ الاساسية لثورة ٢٣ يوليو . وبكلام اخر ، فان وصول السادات الى السلطة ، وبالنهج الذي يمثله ، لم يكن حادثا طارئا بل كان من الناحية الموضوعية ، تطورا طبيعيا . وان لم يكن حتميا - من داخل الاسس الاجتماعية والسياسية التي راحت تتكون في احشاء النظام . وهو ، بهذا المعنى ، تعبير ، في عملية الصراع ، عن هجمة القوى البورجوازية الرجعية المصرية ، وعن رغبتها الجامحة ، لموضع اليد على السلطة . وقد حظيت ، الى ذلك ، بكل اسباب الدعم من قبل القوى الخارجية الامبريالية والرجعية العربية التي تعتبر ، من وجهة مصالحها ، ان التحكم بوضع السلطة في مصر هو مفتاح الوضع في المنطقة ككل . لقد كانت هذه القوى ترى ان تمكثها من اجراء التعديل النوعي في اساس توجهات هذه السلطة ومواقفها ، يمكنها ، بالتالي ، من وضع مصر خارج المعادلة الثورية في حركة التصحر الوطني العربية . مما يسمح لها ، من وجهة نظر مخططاتها ، ان تحجم اية تغييرات او ردود فعل ثورية قد تواجه تنفيذ هذه المخططات على الصعيد العربي .

الارتداد الساداتي نهج متكامل

بوضع ظاهرة الارتداد في مصر ضمن عواملها وظروفها الموضوعية الداخلية، وفي اطار واهداف الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية على حركة التصحر الوطني العربية ، نرى ان ما جرى في مصر منذ انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ حتى اتفاقية كامب ديفيد هو نهج منسجم متكامل كان يتتابع في الافصاح عن جوهره الواحد حلقة اثر حلقة وتديبيرا اثر تديبير ، على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وليس هذا النهج ، في النهاية ، سوى تعبير حاد عن استنفار القوى الرجعية محليا وعربيا وامبرياليا كل امكانياتها في الصراع الاجتماعي الطبقي المحتدم على صعيد مصر الداخلي ، وعلى صعيد المنطقة ، وبالارتباط الوثيق بالصراع الطبقي الاشم على الصعيد العالمي . وبهذا المعنى هو نهج

متكامل لانه يستوي على اساس طبقي واحد ، اي يعبر عن مصالح طـسرف اجتماعي محدد في هذا الصراع هو القوى الرجعية ، على الاصعدة الثلاثة • وبهذ المعنى ايضا كان لا بد من ان يبقى منسجما الى النهاية ، حتى ذروته الخيانية ، اي انه لا رجعة عنه بالنسبة لمن يمثله ويقود عملية فرضه وتحققه العملي • واذا كانت مسألة تناول مضمون هذا النهج الطبقي واهدافه على الاصعدة واذا كانت مسألة تناول مضمون هذا النهج الطبقي واهدافه على الاصعدة الثلاثة ، محليا وعربيا وعالميا ، قد لا تستلزم التوقف التفصيلي عند كل محطة من محطاته ، فهي تستلزم ، بالمقابل ، التوقف عند الدلائل العميقة الاساسية لكل محطة سياسية واقتصادية في هذه السلسلة ، باتجاه رؤية الجوانب الثلاثة الاساسية التالية معا في كل منها :

الاول : طبيعة هذه المحطة او تلك بما تملك ، بحد ذاتها ، من ايجاب او تعبير صريح عن المضمون العام للنهج •

والثاني : بما تحمل من عناصر تمهد وتهيء للحلقة او المحطة التالية •

والثالث : بما تظهره كل حلقة من تشابك او تقاطع بين نتائج تدابيرها المتخذة محليا وبين نتائجها على صعيد الصراع العربي والعالمي • اي ان كل تدبير او اجراء محلي مصري كان يسقط اهدافه وانعكاساته ، في الوقت نفسه ، على مجمل الصراع وحركته وقواه •

ففي حالة مصر ، يكتسب هذا التناول اهميته النظرية القصوى ، لما يطرح من جوانب وقضايا كلية الارتباط بواقع حركة التحرر الوطني العربية وبقاـساق تطورها في هذه المرحلة النوعية الجديدة التي تشكل ظاهرة الارتداد في مصر واحدة من ثلاث ظاهرات اساسية فيها • الاولى ، هي ظاهرة الارتداد هذه • والثانية ، هي ظاهرة الحرب الاهلية في لبنان • والثالثة ، هي ظاهرة التحول النوعي في اليمن الديمقراطية وقيام اول سلطة للطبقة العاملة على ارض عربية • كما يكتسب هذا التناول ، في الوقت نفسه ، اهميته السياسية الملحة الراهنة على مستوى تحديد الموقف المنسجم السليم من هذه الظاهرة ، وعلى مستوى تحديد مواجهة ناجحة لها ، وعلى مستوى الوقوف بحزم ضد امكانية تكرار هذه الظاهرة في بلدان عربية اخرى لا تنعدم فيها الاسس الموضوعية لمثل هذا التكرار •

نقول انه في حالة مصر يكتسب هذا التناول الاهمية القصوى بجانبها النظري والسياسي • لماذا ؟ لان مصر كانت تسير في خط تقدمي من التطور الداخلي يجري الارتداد عنه بشكل كامل ، مما يطرح ، هنا ، مسألة طبيعية السلطة السياسية على انها هي العامل الحاسم في تحديد طبيعة التحولات •

ولان مصر كانت تحتل موقعا طليعيا في قيادة حركة التحرر الوطني والقومي والاجتماعي العربية يجري الان التحول عنه كليا ، وتنقل مصر الى موقع يعزلها عن هذه الحركة ويجعلها مركزا مشاركا وقائدا في قمعها وتصفية منجزاتها . مما يشير الى انتقال فعلي للاجنحة اليمينية في حركة التحرر الوطني الى مواقع القوى المعادية لهذه الحركة . ولان مصر كانت بحكم موقعها وخطها المعاديين للامبريالية ، جزءا مكونا من الحركة الثورية العالمية يجري ، اليوم ، دفعها الى التحالف مع الامبريالية وتحويلها الى اداة من ادواتها والى مركز من مراكز الثورة المضادة .

انطلاقا من رؤية الاسس الاجتماعية التي كانت تتكون في الفترة الاخيرة من سلطة عبد الناصر ، وبرؤية الصراع الاجتماعي الآخذ بالاحتدام ، يشكل انقلاب ١٥ مايو ، بحد ذاته ، انتصار الطرف الرجعي في هذا الصراع ، ويعلن وصول البورجوازية الى السلطة تمسك قضيتها بيدها . اذ ما هي ، في الحقيقة ، مضامين المواقف والاجراءات التي سارعت السلطة المصرية الجديدة السى اتخاذها فور ترؤس السادات وطوال العامين الاولين من حكمه ؟ ولمصلحة من كانت هذه المواقف المتخذة على الصعيدين السياسي والاقتصادي ؟ .

على الصعيد السياسي ، نتوقف ، اولاً ، عند مجموعة من المواقف تفصح ، في جوهرها ، عن بداية تعديل نوعي عام في موقع مصر داخل حركة التحرر الوطني العربية باتجاه انسحابها الى موقع الرجعية العربية وصفها . فالتدخل العسكري المباشر ضد حركة هاشم العطا في السودان كان يعني ، عدا عن جذوره الطبقية ، فائزاً اولى تسدها القيادة المصرية الجديدة لحساب الرجعية العربية ولتطمئننا الى ان تعاطي « مصر الجديدة » بالقضايا العربية سيكون بالاتجاه الرجعي المغاير لتعاطي مصر الناصرية الوطني المعادي للامبريالية والرجعية في اليمن الشمالية ، كمثال . اما المظهر الثاني المهد لهذا الانسحاب باتجاه الرجعية فكان السكوت عن اطلاق حملة اقليمية قديمة جديدة في مصر تطالب بانكفاء مصر عن العالم العربي ، تشكك بانتمائها العربي ، وتنادي ، صراحة ، بفك ارتباط مصر بالقضية القومية عموماً والقضية الفلسطينية بشكل خاص . واذا كانت هناك قوى اخرى غير السادات نسبت لنفسها اطلاق هذه الحملة والترويج لها ، فمن لا شك فيه ان السادات نفسه واجهها بالالتشجيع ، سواء بشكل مباشر عندما اقدم على تعديل التسمية لمصر من « الجمهورية العربية المتحدة » السى « جمهورية مصر العربية » بكل ما ترمز اليه هذه الخطوة ، وسواء بشكل غير مباشر عندما لم يقف بوجه تلك القوى ، او عندما كان وقوفه بوجهها شكليا تماما . بيد ان حقيقة الامر في هدف هذا « الانكفاء الاعلامي » هي التستر على انخراط فعلي جديد في الوضع العربي ومن الموقع الرجعي ، وان كان هذا

الانكفاء يجمع ، بحد ذاته ، حول السلطة الجديدة قوى تقليدية معينة انتعشت بعد غياب عبد الناصر . لكنه يسهم ، من جهة أخرى ، في غرس البدايات الاولى لخط سيتكامل لاحقا : خط الفصل بين قضية احتلال الاراضي المصرية وقضية احتلال الاراضي العربية الاخرى ، بين القضية الوطنية المصرية والقضية القومية العربية . واذا كانت القوى البورجوازية والرجعية قد نشطت ، في فترة ما بعد الهزيمة ، لتحميل التحولات الاقتصادية والاجتماعية مسؤولية الهزيمة بغية الانقضاء عليها فما هي ، الان ، تنشط باتجاه تحميل انخراط مصر في القضية القومية مسؤولية الهزيمة ومسؤولية الضيق الاقتصادي والاجتماعي ، بغية احداث التأثير العام الداخلي باتجاه خروج مصر من المعركة القومية اولا ، وباتجاه التمهيد للقبول بحلول استسلامية للقضية الوطنية المصرية ذاتها .

اما المظهر الثالث لبدايات هذا التعديل النوعي العام في موقع مصر العربي فيبقى في اقدم السادات ، في سنة حكمه الاولى ، على توثيق العلاقات المباشرة مع الرجعية العربية ، ومع الرجعية الايرانية . اي توثيق العلاقة لا مع قوتين رجعيتين وحسب ، بل مع اهم ركيزتين سياسيتين رجعيتين للامبريالية الاميركية في المنطقة ، واهم دولتين اقتصاديتين منتجتين للنفط ، تشغلان موقعا رئيسيا بالغ الاهمية في كل استراتيجة الامبريالية الاميركية على مستوى المنطقة وعلى الصعيد العالمي . ولم يكن هذا الاختيار مجرد انحياز في العلاقات الخارجية للقوى الرجعية . بل كان يشكل بداية عملية للتوجه الى الولايات المتحدة الاميركية وازهار استعداد النظام المصري للتفاهم مع قوى ومقتضيات استراتيجيتها في المنطقة . وبدأ يشير ، من ناحية اخرى ، الى رغبة ، مكتومة بعد ، عند النظام المصري باستعداده لاكثر من التفاهم ، باستعداده للاندراج ضمن محور ويصب ، ثالثا ، في بلورة سياسة السادات النظامية العاملة على اجراء تبديل نوعي في تحالفات مصر الخارجية .

وهنا ، نتوقف ، ثانيا ، عند حلقة من اهم الحلقات المعبرة عن مضمون هذا النهج على الصعيد السياسي . وهي البدء بقطع العلاقة مع الاتحاد السوفياتي والمتجسد بقرار انتهاء خدمات الخبراء العسكريين السوفيات الذي اقدم عليه السادات في بداية العام الثاني لتوليته رئاسة النظام المصري (يوليو ٧٢) . ولم يعن هذا القرار ، في الحقيقة ، وبكل ما رافقه واستتبعه من خطوات مصرية ساداتية بهذا الصدد ، مجرد قطع العلاقات مع الاتحاد السوفياتي - على خطورة هذه الخطوة بحد ذاتها - بل كان استبدالا مباشرا لهذه العلاقات ولمضامينها التقدمية بالعلاقات مع الولايات المتحدة الاميركية وبمضامينها الرجعية . ان ما هي ، اساسا ، وظيفة هذا القطع مع الاتحاد السوفياتي بالنسبة للنهج الساداتي ؟ وما هي دلالاته الاساسية على صعيد النزاع العربي (والمصري) -

الاسرائيلي وعلى صعيد العملية السياسية الاجتماعية داخل مصر نفسها ، وعلى صعيد كل مواجهة حركة التحرر الوطني العربية مع الامبريالية ؟

١ - ان انتهاء العلاقة مع الاتحاد السوفياتي يعني ابعاده عن الصراع الدائر في المنطقة ، اي الغاء فعل عنصر قوة اساسية ومحددة للمصالح العربي التحرري العام في هذا الصراع . كما يعني على صعيد مصر ذاتها ، تجريد مصر من اهم قدراتها السياسية والاقتصادية والعسكرية الحاسمة في مواجهتها لمهمات ازالة اثار عدوان ٦٧ . فنهج القطع مع الاتحاد السوفياتي ، كان ، اذن ، مؤشرا على كونه نهج تفتيت لا تجميع عناصر المواجهة مع اسرائيل ، نهج عزل مصر في هذه المواجهة واضعافها .

ب - لكن هدف ابعاد السوفيات عن الصراع العام في المنطقة ، هو هدف امبريالي اميركي بالدرجة الاولى . فهو يراد له ان يمكن الولايات المتحدة الاميركية من الغاء عامل اساسي لاجم لبسط سيطرتها المطلقة على المنطقة ، وهو يستهدف اطلاق يدها في تنفيذ مخططاتها . وبهذا المعنى ، كان نهج السادات ، عبر هذه الخطوة ، يمهّد للوصول الى وضع يوفر للولايات المتحدة تفردا في حل النزاع . ويمهّد لتشكيل قاعدة سياسية جديدة تجري على اساسها التسوية تسوية اميركية استسلامية .

ج - هذه القاعدة السياسية الجديدة لحل النزاع العربي - الاسرائيلي كانت ترمي ، في النهاية ، لا الى مجرد ادخال الولايات المتحدة كطرف وحيد في الوساطة والتسوية ، بل ترمي عبر ذلك الى اجراء التعديل النوعي في محتوى الصراع العام الدائر في المنطقة ، الذي هو في جوهره صراع ضد الامبريالية . ان كل تعاطي الاتحاد السوفياتي بالنزاع العربي - الاسرائيلي كان يتحدد انطلاقا من اعتباره جزءا محوريا من الصراع العام بين حركة التحرر الوطني العربية وبين الامبريالية . وكل الجهود التي بذلها الاتحاد السوفياتي في اطار ايجاد تسوية قابلة للحياة لهذا النزاع كانت تنطلق من هذا الاعتبار ، وبالتالي ، من الحفاظ المبدئي والسياسي على حقوق العرب الكاملة في استعادة الاراضي المحتلة في حرب ٦٧ ، وعلى الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني بتقرير مصيره وباقامة دولته الوطنية المستقلة .

وبهذا المعنى فان سياسة طمس او تغيير جوهر الصراع تلغي التناقض مع الامبريالية للوصول ، استطرادا ، الى الغائه مع دركيها الاول في المنطقة : اسرائيل . وهذه هي ، في النهاية ، الوظيفة الخطيرة التي كانت ترتسم ، ضمنا ، في وعي واضعي ومنفذي النهج الساداتي ، لمسألة القطع مع الاتحاد السوفياتي . اذ ما هو ، عمليا ، مدلول شعار تنويع مصادر الاسلحة وممارسته لاحقا ، بالنسبة لبلد بنيت كل قدرته العسكرية على السلاح السوفياتي ؟ انه ، تفتيت هذه

القدرة وانهاؤها • اي ان القطع مع السوفيات ، كان يعني ، على هذا المستوى ، التحضير لانهاء القدرة العسكرية القتالية المصرية ، التحضير لحل الجيش المصري ، انطلاقا من ان شعار التنوع لم يكن لتنوع السلاح لان السادات لم يحصل على سلاح جديد • فكان الشعار نزعاً لسلاح الجيش المصري ، ففي الواقع العملي • هذا من جهة • ومن جهة ثانية ، كان ذلك يؤدي الى تعزيز الفرص امام التسوية الاميركية التي لا تفترض استبعاد الاحتكام للسلاح نهائيا في حل النزاع ، بل تعتمد لاستبعاد السلاح المصري تحديدا ، وتضاعف من قدرة اسرائيل العسكرية من اجل ان يظل التوازن مختلا في المنطقة لصالحها •

د - وعلى صعيد العملية الاجتماعية الداخلية في مصر ، كان هذا الموقف بانهاء العلاقة مع الاتحاد السوفياتي تعبيرا مباشرا عن مصلحة الفئات العليا من البورجوازية المرتبطة بالاحتكارات العالمية ، في مجرى الصراع الاجتماعي الطبقي الداخلي ، ومصحتها في الاجهاز على كل خط التطور التقدمي لمصر ، ومصحتها في الاجهاز على كل عنصر قوة مادي من شأنه ان يساعد قوى التغيير في صراعها ضد هذه الفئات ، ومصحتها في تصفية كل ما من شأنه ان يساهم في تشكيل قاعدة اقتصادية مستقلة او مناهضة ، بهذا الحد او ذلك ، لشبكة العلاقات الرأسمالية والامبريالية التي استنفرت كل القوى الرجعية من اجل تسيدها في مصر • وعلى هذا الاساس ، فان قطع العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، وبمضامينها الاقتصادية هنا ، كان يستهدف ، من جهة ، سد الافق بوجه تطور للقطاعات المنتجة مستقل عن تقسيم العمل الرأسمالي • كما كان يستهدف ، من جهة اخرى ، خلق الارضية الملائمة لنهج تعميق تبعية مصر للاحتكارات الامبريالية والذي يشكل « الانفتاح الاقتصادي » ابرز تعبير عنه •

هـ - لقد اظهر السادات قطع علاقات مصر بالاتحاد السوفياتي بانها تجسيد « للاستقلالية عن القوتين العظميين ، وبكون خطوته تعبيرا عن اقامة علاقات متوازنة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية » ، على حد تعبير بعض الاوساط التي تأبى رؤية الصراع العالمي كما هو وتسميته بما هو : الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية ، بين المعسكر الاشتراكي وبين المعسكر الامبريالي ، بين الثورة والثورة المضادة • وعدا عن انعدام الاساس الموضوعي لهـذه « الاستقلالية » ولهذا « التوازن » المزعومين ، فأساس موقف السادات هو التضليل ، بمعنى تغطية التحاقه النهائي بالولايات المتحدة الاميركية •

ان الموقف النقيض الصحيح لنهج السادات في موضوع العلاقة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية ، بين النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي ، هو الخط السياسي الذي يستند الى تحديد علمي لموقع القوى الطبقي على الصعيد العالمي ، لموقع كل من النظامين العالميين المتناقضين المتصارعين ، ولموقع حركة التحرر الوطني في هذا التناقض وهذا الصراع •

وفي هذا الاطار ، فان اي حديث عن « الاستقلالية » بالمعنى الذي اراد ان يوحي به السادات ، ربما روجت له بعض القوى اليمينية في حركة التحرر الوطني العربية ، يتناقض مع الظروف الموضوعية لنضال حركة التحرر الوطني العالمية المعاصرة ، الظروف التي تحددها ميزة عصرنا وسمته الرئيسية بأنه عنصر انتقال البشرية من الرأسمالية الى الاشتراكية والذي تشكل فيه هذه الحركة جزءا من الثورة الاشتراكية .

هذا التوجه الرجعي في علاقات مصر الخارجية ، كان يترافق ، على الصعيد الداخلي ، بجملة من الاجراءات السياسية والتشريعية والاقتصادية التي تستهدف الاسراع في تثبيت القاعدة الاجتماعية والاقتصادية لسلطة البورجوازية . وفي هذا السياق ، تشكل حملة « الديمقراطية » التي اطلقها السادات **الحلقة الثالثة** الهامة في حلقات نهجه العام ، اخذت على عاتقها مهمة حشد كافة قوى وفئات البورجوازية والرجعية التقليدية ومختلف الفئات الاجتماعية التي تضررت من الاجراءات الناصرية حول السلطة المصرية الجديدة . فباسم هذه « الديمقراطية » ، عمد السادات الى الغاء كل القيود التي كانت تحد ، بهذه الدرجة او تلك ، من حرية الحركة السياسية والاقتصادية لكافة هذه القوى المحافظة والرجعية (الغاء الحراسات ، اعادة الاملاك المؤتممة ، فتح مجالات الاستثمار امام القطاع الخاص) ، وباسمها ايضا ، وفي الوقت نفسه ، فرض العديد من القيود على الطبقة العاملة وتحركها وتصفية العديد من مكتسباتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وشنت بموجبها حملات الاعتقالات والقمع والعزل السياسي والثقافي ضد كل الشيوعيين واليسار الناصري ، والقيادات العمالية والفلاحية والطلابية . اما المضمون الاقتصادي لهذه « الديمقراطية » ، لهذا الانفتاح السياسي المطلق على اليمين والرجعية ، فقد تجسد « **بالانفتاح الاقتصادي** » الذي فتش ابواب مصر على مصاريعها امام الرساميل والاستثمارات العربية والاجنبية .

ان تركيب عناصر هذه الحلقة الخطيرة النتائج كان قد بدأ مع وصول السادات الى الحكم (ايلول ١٩٧١) ، عبر اصدار سلسلة من القوانين تستدعي التوظيفات الاجنبية والعربية ، وتقدم الضمانات المذهلة لعمل وانتقال الرأسمال الاجنبي .

الا ان هذا الانفتاح الذي اراده السادات تدفقا للرساميل الاجنبية على مصر لم يكن ، في الواقع ، كما اراد له . بل شكل الاساس ، عبر هذه السلسلة من التشريعات والقوانين ، لدخول قسم من الرساميل العربية والاجنبية وظفت في قطاعات غير منتجة (التجارة ، الخدمات) وأحكمت اخضاع مصر للاحتكارات العالمية ، دون ان تؤدي الى توسيع وتنشيط الحركة الاقتصادية فيها . وقد ادى

هذا « الانفتاح الاقتصادي » الى تعزيز الدور القيادي للرجعية وللإمبريالية الأميركية في توجيه السياسة المصرية . وبرؤية الفترة الزمنية القصيرة لهذه العملية الاقتصادية الكبرى التي لم تعتمد كليا آلية التطور الرأسمالي الداخلي ، يمكن الاستنتاج بأن ثمة قرارا سياسيا إمبرياليا بهذا « الانفتاح الاقتصادي » يتوافق ويتزامن مع الهجمة الإمبريالية الشاملة ولخدمة اهدافها الأساسية .

بهذه الحلقة الاقتصادية ، تكتمل عملية اعادة صياغة مصر من وجهة نظر مصالح الإمبريالية التي لم تتناقض مع مصالح الطبقة العاملة وجماهير الكادحين فقط ، بل ايضا مع مصالح فئة واسعة من البورجوازية المرتبطة بالانتاج المحلي انتعشت في ظل العلاقات المتطورة مع الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية .

في هذا السياق من التطور الذي يبدو متكاملا في نهج السادات ، لا بد من التوقف عند حرب تشرين وتحديد موقعها بشكل موضوعي ، أخذين بعين الاعتبار انها لم تكن حربا مصرية وحسب بل كانت حربا عربية اشتركت فيها كل القوى العربية ، سياسيا واقتصاديا وعسكريا . وفي الواقع فان الظروف التي أدت الى الحرب تختلف عن النتائج التي أسفرت عنها . وفي هذا الاطار ينبغي التأكيد على ان الحرب نشأت كحاجة موضوعية فرضها استمرار العدوان الاسرائيلي والضغط الشعبي العربي بما في ذلك ضغط الشعب المصري وقواته المسلحة بشكل خاص ، من اجل وضع حد لهذا العدوان واستعادة الاراضي العربية المحتلة ومساعدة الشعب الفلسطيني على استعادة حقوقه . فهي ، اذن ، بهذا المعنى حرب وطنية ولكن السادات حاول ان يستفيد من هذه الظروف التي سبقت ورافقت الحرب ، معتمدا في ذلك على خطة اميركية متكاملة من اجل تأييد استمرار نهجه السياسي ، والوصول في هذا النهج الى تحقيق اهداف محددة اضطرت له الانتصارات التي برزت خلال الحرب الى الكشف المبكر عن جزء منها تجسد في الخطاب الذي أنهى به الحرب ، وضمنه برنامجا يجهض بشكل واضح الانتصار الذي حققه الجيش المصري بعبور القناة ، وحول هذا الانتصار الى هزيمة . وانتهى هذا البرنامج من التراجع الى توقيع اتفاقية فك الارتباط في الكيلو ١٠١ ، والذي كان الخطوة الاولى باتجاه توقيع اتفاقية سيناء وصولا الى اتفاقية كامب ديفيد . فالطريق الى هذه الاتفاقيات انما هيها موقف السادات في حرب تشرين ومنها . وفي غضون ذلك ، كانت تظهر اكثر فأكثر ملامح تكون وتحرك محور جديد على المستويين الاقتصادي والسياسي ، محور واشنطن - الرجعية - القاهرة . اي بدأت تتضح ، بكلام اخر ، الابعاد النوعية الجديدة للهجمة الإمبريالية الشاملة على المنطقة .

ما هي دوافع استمرار هذه الهجمة ؟ وما هي اهدافها ؟ وما هي نقاط الارتكاز
الاساسية في خطتها العامة ؟ *

ان تركيز هذه الهجمة على المنطقة العربية يجد دوافعه في ضعف الامبريالية
وتراجعها عموما * لا سيما بعد الهزيمة السياسية والعسكرية التي منيت بها
في فيتنام وفي مناطق اخرى من العالم * لكن الدوافع المباشرة والخصوصية
لهذه الهجمة تكمن في محاولات الامبريالية حل ازمته الاقتصادية والنقدية
والطاقية ، وبخاصة في الولايات المتحدة الاميركية * وهذا ما جعل الهجمة
الامبريالية على المنطقة تستهدف ضمان عناصر القوة وال طاقة : النفط العربي
واستقرار امواله في المؤسسات المالية الاميركية * وبهذا الصدد ، فلقد قدرت
الرساميل العربية التي تدخل يوميا الى الولايات المتحدة بـ ٢٠٠ مليون دولار
(٠١ رولو - جريدة « الموند » الفرنسية : ١٢-١٣-١٤ حزيران ١٩٧٤) ان
ضمان ذلك يستدعي ، تحديدا ، اعادة ترتيب الوضع العام في المنطقة بشكل
يحقق الاستقرار السياسي والامن الطويل الامد لمصالح السيطرة الاميركية *
والوصول الى هذا الاستقرار يشترط ، من جهة مباشرة اولى ، حل النزاع
العربي - الاسرائيلي الذي يستلزم بدوره حل القضية الفلسطينية * ولكنه حل
يجري البحث عنه من وجهة مصالح الولايات المتحدة ، فهو بطبيعته معاد ، اذن ،
لحركة التحرر الوطني العربية *

بيد ان توفير ذلك الاستقرار يشترط ، من جهة دائمة ثانية ، تصفية كاملة
لكافة قوى حركة التحرر الوطني العربية ، الاقل جذرية فيها والاكثر جذرية ،
في الانظمة وخارج الانظمة ، كقوى منظمة وكحركة شعبية * فعبر هذه التصفية
الكاملة تتمكن الامبريالية من ترتيب للاوضاع نهائي يقضي على كل احتمالات
تغيير وطني وتقدمي لاحق * لكن الضلوع الامبريالي المباشر بهذه العملية التي
ستتخذ حتما الطابع العسكري في بعض الاحيان تبقى مسألة محفوفة بالمخاطر *

اذ من شأن ذلك ان يوجب المجابهة ويدفع بالتناقض مع الامبريالية الى المزيد من
الاحتدام والتفجر * فلا بد ، بالتالي ، من البحث عن قوة اخرى لا يستثير تدخلها
العسكري مثل هذه المخاطر او يحد ، على الاقل ، من مدى اضرارها * ويصعب ،
بهذا الصدد ، ان تمثل اسرائيل مباشرة هذه القوة ، اذ من شأن ذلك ان يوجب
النزاع العربي - الاسرائيلي بدل ان يحله ، ويلغي فرص الاستقرار بسدل ان
يوفرها * ومن هنا ، كان تخطيط الامبريالية الاميركية وسعيها لتشكيل قوة قمع عربية
قادرة بالمعنيين الاقتصادي والعسكري على تنفيذ تلك المهمة *

لقد مورست الضغوط المتعددة الاشكال على سائر البلدان العربية الوطنية

للتوجه بشكل عام . لكن مصر كانت محط انظار ومساعي الامبريالية واسرائيل والرجعية . فلماذا اختيرت مصر من وجهة نظر المشروع الامبريالي ؟ لان مصر ، بالدرجة الاولى ، كانت تحتل الموقع القائد في حركة التحرر الوطني العربية . فكان لا بد أن يجري التركيز عليها لتغيير موقعها . ولان مصر ، ثانيا ، طرف مباشر واساسي في النزاع مع اسرائيل ، بل هي الطرف الاقوى والمحدد من بين سائر الاطراف العربية الاخرى في هذا النزاع . فمعها وبها تتوافر شروط انجاح حل النزاع العربي - الاسرائيلي بشكل افضل . ان الحل ، على الاقل ، لا يبدأ الا معها . وفي هذا الاطار يمكن الاستشهاد بما كتبه شمعون بيريز قبل حرب حزيران ٦٧ :

« علينا ان نلاحظ اولاً ان ليس ثمة من نقص بالمرشحين العرب للسلام مع اسرائيل . يوجد مرشحون من درجة ثانية وثالثة ورابعة (لبنان مثلاً ، الاردن ، تونس) ، لكن ما ينقص هو المرشح رقم ١ ، ولقد كان هذا المرشح وسيبقى على الدوام ، كما يبدو ، مصر » (مجلة « الازمنة الحديثة » الفرنسية - عدد خاص عن النزاع العربي - الاسرائيلي ، ١٩٦٧) .

ولان مصر ، ثالثاً ، بحكم امكانياتها وقدراتها كأكبر بلد عربي ، وبحكم موقعها الاستراتيجي عربياً وافريقياً ، تملك من المؤهلات ما يجعلها المرشح رقم ١ لا للتصالح مع اسرائيل وحسب ، بل المرشح الاول لان تشكل هي قوة القمع المطلوبة ، فيما لو نجحت الامبريالية واسرائيل والرجعية بتحويلها عن موقعها الطبيعي بشكل نهائي .

بعد فك الارتباط في سيناء ، بدأت الولايات المتحدة الاميركية بتسريع نشاطها لحل النزاع العربي - الاسرائيلي . نشطت لحله بالانطلاق ، اولاً ، من سعيها الحثيث لاستبعاد الاتحاد السوفياتي عن التعاطي بالحل . لما يوفره تفرداً من ضمانات لانجاح حلها المعادي بطبيعته للشعوب العربية وللشعب العربي الفلسطيني .

ونشطت لهذا الحل ، بالانطلاق ، ثانياً ، من سعيها الحثيث لاستبعاد القضية الفلسطينية عن النزاع العربي - الاسرائيلي . وهو استبعاد لا يمكن ان يتم الا بتصفية هذه القضية . وفي هذا السياق ، فجرت الحرب الاهلية اللبنانية عام ١٩٧٥ بهدف اول هو الاجهاز على الوجود الفلسطيني الوطني السياسي والعسكري ، وبهدف ثان مترابط معه هو تثبيت تركيبة سياسية رجعية فاشية تؤمن ارتباط لبنان بالامبريالية . وبهذين المعنيين ، اختير لبنان ليكون البلد العربي الثاني ، بعد مصر ، المسفر عن تحالفه النهائي مع اسرائيل والمنخرط بالحل الاميركي العام والمسهل امر تعميمه . كما استهدف المشروع الاميركي توريث سوريا في الازمة اللبنانية ، واشغال بلدان عربية اخرى في معارك وصراعات تفرض عليها الانكفاء .

ونشطت لهذا الحل ، بالانطلاق ، ثالثا ، من الحفاظ على التفوق الاسرائيلي السياسي والعسكري وتعزيزه ، في مشاريع التسوية التي طرحتها للتداول ، وعلى ارض الواقع نفسه ، بما يعكسه هذا من ثقة مطلقة لديها بثبات التركيبة الاسرائيلية كضمانة اولى ، ومن قلة او انعدام ثقتها حتى بالتركيبات العربية التي تشكلها هي او بتلك التي تشارك في تثبيتها .

ونشطت لهذا الحل بالتركيز ، رابعا ، على اجرائه بأسلوب المفاوضات المباشرة بين اطراف النزاع ، باسم اقامة علاقات طبيعية بين اسرائيل وكل جيرانها العرب . لكن اندفاع السادات بزيارته الى اسرائيل فضح جوهر الموقف الاميركي المصر على اسلوب التفاوض المباشر . فعبر هذه « المبادرة » الخيانية التي تشكل بحد ذاتها التجسيد الكامل لنهج السادات ، كان يتضح ان اميركا تسعى الى الغاء التناقض العربي - الاسرائيلي ، الى كسر طوق العزلة عن اسرائيل ، اي الى ادخال اسرائيل جزءا طبيعيا عضويا مكونا في المنطقة . مما يتيح لاسرائيل ، من جهة ، ان تنتقل من مجرد كونها دركيا للامبريالية لان تصبح قاعدة سياسية واقتصادية وعسكرية للمصالح الامبريالية . ومما يعزز ، من جهة ثانية ، قدرتها ، وباستمرار ، التحكم بمصائر الوضع العام في المنطقة ، بمصائر تطور دول المنطقة وثرواتها النفطية . ومما يمكنها ، من جهة ثالثة ، لان تمارس بنجاح مهمة تشديد تبعية هذه الدول وبلدان المنطقة لعلاقات السيطرة الامبريالية .

ونشطت الولايات المتحدة الاميركية لحلها العام للوصول ، خامسا ، الى اقامة التحالف السافر بين اسرائيل ومصر . وهذه هي ، في الجوهر ، اتفاقية كامب ديفيد التي تشكل ذروة كل ذلك النهج ، ومطافه النهائي ، وحلقته الاخيرة . فعلى اساس هذا التحالف بين اسرائيل ومصر يقوم التحالف الرجعي العربي العام مع اسرائيل . بما يعنيه ذلك من استكمال قوى ومقتضيات ضرب حركة التحرر الوطني العربية . وعلى اساس هذا التحالف ايضا ، والقائم على قاعدة الغاء التناقض العربي - الاسرائيلي ، تثار تناقضات جديدة في المنطقة بين الدول العربية نفسها . وترفق بتناقضات مماثلة بين بعض الدول العربية وحركات تحرر ناهضة في افريقيا وفي غيرها من المناطق المحيطة بالعالم العربي . وهذا ما عبر عنه دايان بشكل واضح في حديث له نقله هيكل اكد فيه ان اسرائيل لا تستطيع ان تشعر بالاستقرار الا في الوقت الذي تجد فيه ان التناقض الاساسي في البلدان العربية ليس معها وانما بين هذه البلدان نفسها من جهة ، وبينها وبين المناطق المجاورة من جهة ثانية . اي تتحول المنطقة العربية ، وفق هذا الحل الامبريالي العام ، الى مركز للثورة المضادة .

ان الطابع الجذري لاهداف هذه الهجمة ، في ظروف الازمة التي تواجهها

الامبريالية ، يفسر ، أولا ، اندفاع الولايات المتحدة الاميركية للتدخل مباشرة ، وبكل ثقلها ، لا في صياغة خطوط الحل وحسب ، بل وفي تفاصيله ، وفي التفصيل اليومية لمسيرة محاولات فرضه وتنفيذه . فآزمة الطاقة ، من جهة ، تتفاقم ، ويشدد معها ويتسارع تأزم العديد من المشكلات السياسية والاقتصادية والمالية امام الامبريالية الاميركية ذاتها ، وامام الدول الامبريالية الاخرى ، وفيما بينها جميعا . ان أوروبا الغربية واليابان يتزايد ارتباطهما الوثيق اكثر فأكثر وباستمرار بثروة الشرق الاوسط النفطية . لكن بعض المصادر يؤكد ان الولايات المتحدة الاميركية ستجد نفسها مضطرة هي الاخرى لاستيراد نصف استهلاكها النفطي من المنطقة ، ابتداء من العام ١٩٨٠ . (« استراتيجيات من اجل الشرق الاوسط » - كتاب فرنسي صادر في ١٩٧٤) فتغدو هذه الازمة عنصر ضغط متزايد يجبر الولايات المتحدة على التسريع بانجاح حلها العام . كما ان التغييرات والتطورات السياسية والاجتماعية المتسارعة في مناطق اخرى محيطة بالعالم العربي وفي افريقيا (الحبشة ، افغانستان ، ايران مؤخرا) تشكل بدورها ، من جهة اخرى ، عنصر ضغط اخر باتجاه انجاز الحل .

لكن هذا الطابع الجذري لاهداف هذه الهجمة ، وعلى مستوى المنطقة العربية نفسها ، يفسر ، ثانيا ، طابع العنف والشمول الذي تتصف به مراحل او حلقات هذا الحل ، لا سيما الاخيرة السافرة منها . ان في زيارة القدس واتفاقيه كامب ديفيد استفزازا عنيفا لتاريخ امة بكاملها ، لتراث شعوبنا النضالسي بأكمله . ان فيهما كسرا عنيفا لجملة من المفاهيم والقيم . ان حلا تتوافق اهدافه مع مثل هذه المظاهر المتحدية لا يسعه الا ان يكون عنيفا كيما يضع الجميع امام تحققة كأمر واقع ، كحقيقة قائمة لا مناص من التسليم بها . اي لكي يستيق ، سلفا ، امكانيات مواجهته ويقضي عليه في المهد . وبهذا المعنى « بدأ نهج السادات بمدلولاته وبالذروة الخيانية التي انتهت اليها ، وكأنه يضع حركة التحرر الوطني العربية امام مرحلة جديدة . ولا شك باننا فعلا امام مرحلة نوعية جديدة من المواجهة الشاملة للهجمة الامبريالية الشاملة التي تشكل ظاهرة الارتداد في مصر واحدة من اهم ركائزها ومظاهرها .

تعمق مازق النهج الساداتي واتساع قاعدة مواجهته

ان هذا العرض لتاريخ نشأة وتطور نهج السادات يشير بوضوح الى انه ولد في غمرة الصراع الذي لا يزال يتفاقم ويحتمد بين نوعين من القوى الطبقيسة والسياسية . القوى التي تريد ان تدفع مصر ، تطويرا لثورة ٢٣ يوليو ، باتجاه اكثر تقدما ، والقوى التي تريد ان تلغي كل اثر لانجازات العهد الناصري والسير بمصر بطريق تطور رأسمالي طفيلي خاضع بشكل مطلق للاحتكارات الامبريالية

منفذ لارادتها على صعيد المنطقة وخارج حدودها . ان هذا الصراع هو صراع قديم متجدد . وقد رأينا كيف انه كان يتفجر بأشكال مختلفة في عهد الرئيس عبد الناصر . وهو بهذا المعنى صراع جوهره طبقي ، اي صراع بين ما تمثله مصالح الطبقة العاملة وحلفائها بمن فيهم اوساط واسعة من البورجوازية الصغيرة ، وبين الفئات العليا من البورجوازية المرتبطة مصالحها بالامبريالية واحتكاراتها . وهذا الصراع الذي كان يجري في فترة اشتداد الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية لم يتوقف ، بل تعمق محتواه ، وان كان واضحا حينذاك ان ميزان القوى فيه يميل ، بفعل عوامل عديدة ولا سيما بفعل هذه الهجمة ، لصالح القوى اليمينية والرجعية . وكان طبيعيا ان يحقق نهج السادات اهدافه ولكن ذلك كان نجاحا مؤقتا . لان كل الاهداف التي ترتبط بنهج السادات تتعارض مع المستوى الذي بلغه تطور مصر اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، كما تتعارض مع مصالح الاكثرية الساحقة من جماهير الشعب المصري . فقد كان في رأس هذه الاهداف القضاء على كل ما قدمته ثورة يوليو من مكاسب لمصر وشعبها وجماهيرها الكادحة بشكل خاص . واهم هذه المكاسب على الصعيد الاقتصادي وضع اسس لسياسة تنمية مصر صناعيا وزراعيًا وتكنولوجيا واقامة قطاع عام كبير الهمية والوزن في اقتصاد مصر ، وعلى الصعيد الاجتماعي تحرير الفلاحين من نير الاقطاع عبر تحقيق الاصلاح الزراعي واقامة تشريعات لحماية مصالح العمال والمستخدمين ، وعلى الصعيد السياسي تحرير مصر وتعميق ارتباطها بالبلدان العربية بأفق تحقيق التكامل الاقتصادي والسياسي وصولا الى الوحدة العربية بمضمونها المعادي للامبريالية . ان هذه المكاسب ورغم كونها غير جذرية وتتميز بثغرات ونواقص كبرى ، قد نقلت مصر من حال الى حال اخر مختلف اختلافا اساسيا ، ووضعت جماهيرها على الطريق الذي يقودها الى مزيد من التحرر والتقدم . فهي ، اي جماهير الشعب المصري ، اذن ، بالضرورة في موقع النقيض لنهج السادات ، لا من حيث المصالح الطبقيّة وحسب ، بل من حيث الوعي لهذه المصالح والتمسك بها والدفاع عنها . وبهذا المعنى يمكن القول ان نهج السادات ظل طيلة الفترة التي نشأ وتكون فيها يواجه معارضة حقيقية لكن في ظروف داخلية وخارجية غير ملائمة . وجدير بالذكر انه في عهد السادات بالذات ، تبلور بشكل اكثر وضوحا وعي طبقي وسياسي وجد تعبيرا عنه بأشكال مختلفة اهمها : ولادة الحزب الشيوعي المصري وولادة حزب اليسار المصري « التجمع الوحدوي التقدمي » كصيغة متقدمة للجبهة التي تضم ماركسيين وناصريين يساريين وتقدميين مستقلين ، وقيام انتفاضات جماهيرية عمالية وفلاحية وطلابية ، وبين المثقفين تميزت بالجرأة وباتساع المشاركة فيها والعمق في محتوى الشعارات التي رفعتها . وليس صحيحا ادعاء السادات ان هذه المظاهر الصارخة لمعارضة نهجه هي تعبير عن الديمقراطية

التي « منحها » للجماهير بعد ان كانت محرومة منها . فان ديمقراطيته هذه لم تمنع سلطته من استخدام كل اشكال القمع في مواجهة هذه القوى وتحركاتها بما في ذلك العزل السياسي والحرمان من العمل فضلا عن الاعتقالات ومنع حرية التعبير الشفهي والمكتوب . وهو الامر الذي يزداد تفاقمًا مع اغال السادات في نهجه الذي وصل في العامين الماضيين الى الخيانة القومية بعد زيارة القدس وتوقيع اتفاقية « كامب ديفيد » وسعيه الراهن لعقد « معاهدة سلام » مع اسرائيل .

وليس صحيحًا ايضا في هذا السياق ان مظاهرات التأييد المنظمة بأوامر بوليسية خطية ومشاركة جماهيرية من قوى السلطة نفسها هي ادلة على ان نهج السادات يحظى بتأييد شعبي . فبالاضافة الى طبيعة هذه المظاهرات وطبيعة تنظيمها وطبيعة قسم كبير من المشاركين فيها ، لا بد من الاشارة الى عاملين يساعدان في توضيح الصورة : العامل الاول هو ان للسلطة في مصر عبء التاريخ هيبه تترك دائما تأثيرها على الجماهير في ابي سلوك تسلكه تجاهها . العامل الثاني ، هو ان حالة الترددي في الوضع السياسي والاقتصادي بتاثير من نهج السادات ويفعل الهزائم العسكرية واخطرها هزيمة حزيران خلقت لدى قسم من الجماهير ، اسير العفوية في تحركه ، حالة من اليأس والقدرية جعل منه احتياطا لسياسة السادات حتى ليكاد يبدو تحركه مرسوما بقرار من فوق ، قرار من السلطة .

اذن الجانب الاساسي في حركة الجماهير ، عمالا وفلاحين وطلابا ومثقفين ، هو الجانب المرتبط بتعاضد الوعي السياسي والطبقي وتعمقه . ومن هنا يبرز الاساس في تطور النقيض السياسي والطبقي لنهج السادات داخل مصر انطلاقا من ان هذا النهج يزداد وضوحا كل يوم في تناقضه مع المصالح الاساسية ، ليس فقط للعمال والفلاحين وجماهير الكادحين المصريين ، بل لكل شعب مصر ولمصر كدولة لها تاريخ ولها موقع ولها دور في هذا العالم العربي المترامي الاطراف ، الغني بثرواته ، العميق التأثير في الوضع السياسي على صعيد المنطقة وعلى الصعيد العالمي . فليس من مصلحة مصر ان تنكفيء عن هذا العالم العربي الى نوع من المصرية الفرعونية او سواها وهي الاكثر حاجة الى الارتباط بهذا العالم العربي اقتصاديا وسياسيا وثقافيا . وليس من مصلحتها بالتاكيد ان تستبدل هذه العلاقة بالعلاقة مع اسرائيل المرفوضة عربيا ، المتناقضة مع هذا العالم العربي ، المغروسة فيه غصبا عنه وضد مصالح شعوبه وعلى حسابها . وليس في مصلحة شعب مصر ان تتحول بلاده الى مركز للتأمر على الشعوب العربية وحركتها التحررية الوطنية وان تكون دركيا بيد الامبريالية الاميركية في قمع حركات التحرر الوطني الافريقية . وليس في مصلحة شعب مصر اخيرا ان يتحول اقتصاد بلاده من اقتصاد وطني نام متطور متناسق الى اقتصاد تابع

بالمطلق للامبريالية واحتكاراتها يخدم حاجاتها المتناقضة مع حاجات مصر
شعبا ودولة .

لهذه الاسباب جميعها كان نهج السادات نهجا متناقضا مع طبيعة الاشياء .
حتى فئات واسعة من البورجوازية ، بما في ذلك قسم من فئاتها العليا ، لم
تستطع ان تنسجم مع هذا النهج وانتقلت الى معارضته . وبذلك تكونت وتتكون
داخل مصر طيلة هذه الفترة من حكم السادات ، ولا سيما في الظرف الراهن ،
أسس واضحة لجبهة معارضة واسعة تلتقي عند نقطة واحدة عامة هي رفض
هذا النهج حتى اسقاطه .

كل ذلك يشكل جزءا من الاسباب العامة التي تجعل السادات في حالة
الارتباك التي يعاني منها الان وتضع نهجه على طريق الانحدار بعد ان بلغ ذروة
صعوده . ان كل ما حظي به السادات من دعم وتأييد من قبل الامبريالية
واوساط واسعة من الرجعية العربية لم يمكنه من تجاوز المأزق الذي يشهد اكثر
فأكثر ولن يكون الخروج منه امرا سهلا ، حتى ولو اقدم على توقيع معاهدة
سلام بشروط اسرائيل كلها او بجزء منها . فالسادات محكوم عليه بالسقوط .
وبسقوطه الذي بدأنا نشهد مقدمات له ، يكون قد تحول نقيض نهجه ، ولو
جزئيا ، الى موقع الهجوم المضاد من اجل الخروج بمصر من حالة الارتداد
فيها ، ومن اجل وضعها من جديد على طريق التطور التقدمي المنسجم مع
تاريخ شعبها الحديث ، المنسجم مع موقع مصر الطبيعي في قلب العالم العربي
وفي قلب الحركة الوطنية التحررية فيه .

وبالتأكيد ، فان الرد الشامل الذي واجهت به حركة التحرر الوطني العربية ،
جماهير وقوى وطنية وتقدمية ، في السلطة وخارجها ، « مبادرات » السادات
المعادية لمصالح الشعب المصري والشعوب العربية ، يشكل عاملا اساسيا في
دعم هذا التحول الذي يجري داخل مصر باتجاه اسقاط نهج السادات وممثليه
في السلطة . وقد تجسد هذا الرد في حركة جماهيرية واسعة شملت ارجاء
الوطن العربي . كما تجسد في قيام جبهة الصمود والتصدي ، وفي توقيع ميثاق
بغداد - دمشق ، وفي القرارات التي انتزعت في قمة بغداد بعزل السادات
ورفض اتفاقية كامب ديفيد . وهو يتجسد منذ اربع سنوات في هذه المقاومة
اليومية للمؤامرة على الساحة اللبنانية ، هذه المقاومة التي تضطلع بها بشرف
وبطولة الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية .

وهذا الرد العربي الذي تنشط القوى التقدمية العربية من اجل تحويله الى
خطة حقيقية شاملة في مواجهة الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية وادواتها
المحلية ، يتوافق مع نهوض للقوى الثورية على الصعيد العالمي ، وانتصارات
تتحقق هنا وهناك ، بما في ذلك في المنطقة على حدود العالم العربي (اثيوبيا

وأفغانستان وإيران) في المعركة العامة ضد الامبريالية التي تتعمق ازمتها
وتصبح أقل قدرة على مواجهة تطور العملية الثورية على الصعيد العالمي .

من هنا ، قناعتنا بأن القاعدة الاساسية الثابتة لمواجهة الهجمة الامبريالية
الصهيونية الرجعية والتصدي الحقيقي لها تتوفر ظروف تكوينها وتطورها . ومن
هنا ، مصدر الثقة بأن حركة التحرر الوطني العربية ، التي تنتقل الآن الى
مرحلة جديدة ، قادرة على احباط نهج الارتداد والخيانة ، في اطار هجومها
المعاكس للهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية .

التطور الاقتصادي والصناعي في الاردن

وأثره على تشكل الطبقة العاملة (١٩٥٠-١٩٥٧)

١ - الاقتصاد الاردني في الخمسينات : سماته واتجاهاته وتطوره

على الرغم من اتسام التطور الاقتصادي في صفتي الاردن في الخمسينات بتسارع وتيرة نموه العام سنة بعد اخرى ، الا ان هذه السمة لا تلمس السمة الابرز والاكثر جوهرية للتطور الاقتصادي وهي : تعاظم تبعية الاقتصاد الاردني للخارج وازدياد طابعه العام تشوها واختلالا في توازنه وانسجامه الداخلي . وهي السمة التي تفقد تسارع النمو الاقتصادي مدلوله ومغزاه الضروري .

لقد قدرت المصادر الرسمية الاردنية نسبة نمو الانتاج المحلي الاجمالي سنويا بنسبة ١١.٥٪ ، وارتفع الانتاج المحلي الاجمالي بسعر الكلفة من اقل من ٣٥ مليون دينار عام ١٩٥٠ الى ٤٥ مليون دينار عام ١٩٥٣ ، الى ٥٠ مليون دينار عام ١٩٥٤ ، الى ١١١ مليون دينار عام ١٩٦١ (١) . ويقدر الخبير بورتر قيمة الانتاج المحلي الاجمالي في السنوات ٥٤ - ١٩٥٧ كما يلي وبملايين الدنانير الاردنية : ٤٧٨ ، ٤٣٠ ، ٦١٤ ، ٦١٩ بالترتيب (٢) . وتشير المصادر الرسمية الاردنية الى ان نسبة الزيادة الحقيقية في الانتاج المحلي الاجمالي كانت توازي اكثر من ٩٪ سنويا بالمتوسط ، بعد حذف تأثير الغلاء والزيادة السكانية . وتبرز هذه المصادر هذه الزيادة في الانتاج المحلي الاجمالي كافة حصيلة زيادات الانتاج في القطاعات المختلفة بالنسبة التالية : فقد كان معدل نمو الانتاج الصناعي (اي الصناعة والتعدين والكهرباء والانشاءات) يوازي ١٣٪ بالاسعار الثابتة ما بين عامي ٥٤ - ١٩٦١ ، في حين كان انتاج قطاعات الخدمات ينمو

بمعدل مشابه ، اي ١٢٪ سنويا في الفترة ذاتها ، لكن معدل نمو الانتاج الزراعي اقتصر على ٢٪ سنويا فقط (٣) .

اما التكوين الرأسمالي الاجمالي للاقتصاد الاردني فقد كان ينمو بنفسب متزايدة توازي ١٥٪ في متوسطها السنوي . فقد ارتفع حجم التكوين الرأسمالي الاجمالي (اي المعدات والالات والتجهيزات وادوات النقل) من ٥٠ مليون دينار عام ١٩٥٤ الى ١٨ مليون دينار عام ١٩٦٢/٦١ ، وبذلك ارتفعت نسبة التكوين الرأسمالي الى الانتاج المحلي الاجمالي من ١١٪ عام ١٩٥٤ الى ١٨٪ عام ١٩٦٢/٦١ (٤) .

ان توزيع الانفاق على التكوين الرأسمالي ما بين قطاع الدولة والقطاع الخاص في هذه المرحلة ، يبرز غلبة استثمارات القطاع الخاص بمقدار الضعف على استثمارات القطاع العام . اما توزيع هذه الاستثمارات قطاعيا ، فيظهر ان نسبة الاستثمار في معدات النقل والالات كانت توازي ٣٤٪ من مجمل التكوين الرأسمالي ، مقابل ٣٣٪ تعود الى الاستثمار في المساكن والابنية ، فيما يعود ٢٥٪ من مجموع التكوين الرأسمالي الى الاستثمار في الانشاءات العامة (٥) .

لكن مؤشرات النمو السريعة هذه ، لا تعكس الا جانبا واحدا من اتجاهات تطور اقتصاد الاردن بصفتيه ، بينما الجوانب الاخرى الاكثر جوهرية تشير الى ازدياد تبعيته وطابعه الطفيلي - الكولونيالي ، الامر الذي يبرر عدم اخذ وتأثر النمو السريع للاقتصاد على علاتها ، حيث انها لا تعكس نموا حقيقيا في الانتاج ولا ترسيخا متناميا للقاعدة المادية للانتاج بقدر ما تعكس تعاظم مكانة القطاعات الخدمية - غير الانتاجية في الاقتصاد الوطني ، هذا التعاظم الذي يعود بدوره الى تزايد هيمنة السوق الرأسمالي من جهة ، والمساعدات الخارجية للامبريالية من جهة ثانية على الاقتصاد الوطني . فالعجز في الميزان التجاري والاعتماد على المساعدات الخارجية في تمويل الموازنة الحكومية ظللا يطبعها الاقتصاد الاردني منذ بداية الخمسينات ، تماما كما كانا يطبعانه خلال السنوات السابقة ومنذ ١٩٢١ ، بسماة التبعية للامبريالية والسوق الرأسمالي .

لقد ارتفع العجز في الميزان التجاري من ١٠٠٥ مليون دينار عام ١٩٤٨ الى ١٥٨ مليون دينار عام ١٩٥٢ الى ٣٠٠٥ مليون دينار عام ١٩٥٧ (٦) . وكان متوسط العجز التجاري يوازي ٣٩٪ من الانتاج المحلي الاجمالي خلال ٥٤ - ١٩٦١ (٧) ، وكان هذا العجز يتزايد بمتوسط ١١٪ سنويا خلال الفترة ذاتها .

اما الإيرادات العامة للدولة ، فقد كانت تمول بنسبة ٥٧٪ خلال ٥٤ - ٦١ من المصادر الخارجية ، مقابل ٤٣٪ هي حصة الإيرادات المحلية ، المعتمدة اساسا على الضرائب غير المباشرة . وكانت نسبة الزيادة السنوية للإيرادات الخارجية للموازنة توازي ٧١٪ خلال الفترة ذاتها . لقد تراوحت نسبة الإيرادات العامة

للحكومة من الانتاج المحلي الاجمالي بين ٣٣٧٪ عام ٥٧/٥٦ و ٤٠٣٪ عام ٥٨ - ١٩٥٩ (٨) ، مما يشير الى تعاظم دور الانفاق الحكومي ودور المساعدات الخارجية في رفع القيمة الاجمالية للانتاج المحلي وفي اضطراد نموه العام من خلال ارتفاع مساهمة قطاع الادارة العامة والدفاع في الاقتصاد الوطني .

يعود تسارع وتيرة النمو العام للاقتصاد الاردني ، منذ مطلع الخمسينات ، الى جملة من العوامل الموضوعية ابرزها اتساع السوق المحلي للاقتصاد بعد ان تضاعف عدد سكان الاردن الى ثلاثة اضعاف عددهم في منتصف الاربعينات ، والى ضرورة تعويض الهيكل الانتاجي الذي فقد في فلسطين ، والذي كان يزود سكان الضفتين بقسم هام من موادهم الاستهلاكية ، وقيام حاجات ملحة لتوفير المساكن ووسائل النقل والمرافق الخدمية الكافية للسكان . ومما لا شك فيه ان تعاظم اعداد الايدي العاملة الماهرة من غير الماهرة ، وانخفاض اجورها ، قد ضاعف من فرص الاستثمار العام وعوض الى حد كبير عن تدني مستوى التجهيز الرأسمالي . ولقد شكل وجود اعداد كبيرة من الايدي العاملة اساسا مكينا لنمو القوى المنتجة في المدن والريف على حد سواء . وفي هذه الظروف اتاحت فرص واسعة للراسمال المحلي للنشاط ، كما تضاعف عدد الشركات العاملة في الضفتين في سنوات قليلة . على ان تبعية الطبقة الحاكمة للامبريالية واستمرار توجيهها للتطور الاقتصادي ، ضمن التوجيهات نفسها التي سادت الاقتصاد قبل عام ١٩٥٠ ، وتزايد حاجة الامبريالية لتعزيز وجودها في الاردن ولدعم قدرة السلطة من خلال المساعدات المالية على اداء دورها اللاحقي والقمعي ، وعلى مجابهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تلت الحرب الفلسطينية والنزوح والضم ، ادى هذا كله الى اضعاف قدرة البرجوازية الوطنية على التوجه نحو الاستثمار الانتاجي ، مما ادى بالتالي الى توجيهها نحو التطور بأفق ومنظور كومبرادوري - خدماتي بصورة متزايدة .

ان ارقام الانتاج المحلي الاجمالي المبينة في الجدول رقم « ١ » (وفق التقديرات بورتر) توضح السمات العامة للاقتصاد الوطني الاردني في الخمسينات . ومنها يلاحظ انطلاق الاقتصاد الوطني للاردن (بصفته) من قاعدة اختلال مستوى تطور القطاعات الاقتصادية وانعدام التوازن في نموها ، وتحديد انطلاق هذا الاقتصاد من واقع هيمنة القطاعات الخدمية وغير الانتاجية على التركيب العام للاقتصاد ، وتدني مكانة القطاعات الانتاجية الاساسية فيه ، حيث نلاحظ ان متوسط مساهمة القطاعات الانتاجية (الزراعة والصناعة والتعدين والكهرباء والانشاءات) في الانتاج المحلي الاجمالي لا تتجاوز ٣٦٣٪ ، في حين تسهم بقية القطاعات ، اي القطاعات الخدمية بالحصة الاعظم من الانتاج المحلي الاجمالي وهي ٦٣٧٪ (٩) .

فمن الجدول المذكور نلاحظ ايضا ان القطاع الانتاجي الرئيسي ، الزراعة ، يعاني من استمرار اعتماده الشديد على المطر والعوامل المناخية ، الامر الذي

يفسر تذبذب انتاجيته وبالتالي تذبذب مساهمته في الانتاج المحلي . ان عدم استقرار نمو الانتاجية الزراعية تفسر تأرجح مكانة هذا القطاع في اطار الاقتصاد الوطني ، ما بين المرتبة الاولى والثانية والثالثة من حيث المساهمة في الانتاج الوطني . وغني عن البيان ان هذا التأرجح بل والتراجع في المراحل التالية انما يعود الى غلبة الزراعة البعلية ، غير المروية على الزراعة عموما ، وضعف الاعتماد على الري القديم واستغلال مصادر المياه ، وتدني مستوى تطوير وسائل الانتاج في الريف .

لقد تركت ازمة نمو القطاع الزراعي في الاردن ، اثارها الضارة على الاقتصاد الوطني عموما ، حيث أدت الى تزايد الاعتماد على استيراد السلع والمواد الزراعية والغذائية ، كما ان هذه الازمة تفسر انخفاض معدلات الدخل العام للسكان ، الذين هم في غالبيتهم سكان ريفيون ، وارتفاع معدلات البطالة بأشكالها المختلفة في صفوفهم .

جدول رقم (١)

المصدر الصناعي للانتاج المحلي الاجمالي بسعر الكلفة (بملايين الدنانير)

١٩٥٧	١٩٥٦	١٩٥٥	١٩٥٤	القطاع
١٢ر٨	١٩ر٠	٦ر٢	١٤ر٢	الزراعة والحراج
٦ر٨	٦ر٣	٥ر٢	٤ر٢	التعدين والصناعة والكهرباء
١ر٩	١ر٧	١ر٥	١ر٢	الانشاءات
٨ر٣	٦ر٨	٥ر٥	٤ر٤	النقل والمواصلات
١٢ر٠	١٠ر٥	٩ر٣	٩ر٣	التجارة والبنوك
٣ر١	٢ر٩	٢ر٣	٢ر٣	ملكية المساكن
١٣ر٣	١١ر٥	٩ر٧	٩ر١	الادارة العامة
٣ر٧	٢ر٧	٢ر٣	٣ر١	الخدمات
٦١ر٩	٦١ر٤	٤٣ر٠	٤٧ر٨	المجموع

المصدر : مجلة « التقنية » الاردنية ، دائرة المطبوعات والنشر ، عمان ، العدد ٣٧ ، السنة الرابعة ، نيسان ١٩٧٦ ، ص ١٩ .

ولا يعود تدني مكانة القطاعات المنتجة في الاقتصاد الوطني الى تذبذب الانتاجية الزراعية ومساهمتها في الانتاج الوطني وعدم اضطراد نموها فقط ، وانما يعود ايضا ، الى ان الاقتصاد الوطني للضفتين قد حافظ على بنيته الكولونيالية الكوميرادية الموروثة منذ فترة الاستعمار البريطاني ، سواء في فلسطين او شرق الاردن . هذه البنية التي تقوم في اساسها على غلبة القطاعات غير المنتجة وذات الطابع الخدمي الصارخ . ولقد جاءت ظروف الحسب الفلسطيني ، ثم فترة اعادة بناء الاقتصاد الوطني في ظل التبعية للامبريالية ،

ورغم الاستقلال السياسي الشكلي الذي حظي به الاردن ، لتحافظ على نفس السمات البنوية السابقة للاقتصاد الاردني ، على مواقع الهيمنة للقطاعات الخدمية التي نمت بوتيرة سريعة ، الامر الذي اغلق فرص تعديل التركيب غير المنسجم للاقتصاد الوطني لصالح تغليب القطاعات المنتجة ، والصفة الانداجية على الاقتصاد الوطني . فلقد نمت القطاعات الخدمية بمعدلات توازي معدلات نمو القطاعات المنتجة ، مما جعل من المستحيل التغلب على الطابع الخدمي - الكومبرادوري للاقتصاد الوطني في ظل استمرار سياسة التبعية للامبريالية والاعتماد على نموذجها التنموي .

ان التقدم المضطرب لنمو قطاع الادارة العامة ، المترافق مع تزايد اهمية مساهمته في الانتاج المحلي الاجمالي ، قد جعل هذا القطاع يحتل المكانة الاولى في ترتيب القطاعات الاقتصادية المختلفة ، وفي كل الاحوال ادى هذا التقدم المضطرب لنمو قطاع الادارة العامة الى احتلاله المكانة الثالثة او الثانية من حيث مساهمته في الانتاج المحلي الاجمالي ، وحيثما نجحت الزراعة في الحفاظ على مكانتها الاولى .

وغني عن البيان ان المكانة الراسخة والتي تزداد تعززا لقطاع الادارة العامة في الاقتصاد الوطني ، لا يعود الى وجود مساهمة حقيقية لهذا القطاع فسي الانتاج ، وانما لاعتماد هذا القطاع على المساعدات والهبات الخارجية ، التي تراوحت نسبتها ما بين ٢٤ ٪ و ٣٤٫٩ ٪ من الدخل القومي الصافي ، كما يبين الجدول رقم «٢» .

جدول رقم (٢)

ارقام الدخل القومي الاجمالي والصافي وارقام المساعدات الخارجية ونسبتها الى الدخل الصافي (بملايين الدنانير الاردنية)

السنة	الدخل القومي الاجمالي	الدخل القومي الصافي	مجموع المساعدات الخارجية	نسبة المساعدات الخارجية الى الدخل القومي الصافي
١٩٥٢	٤٥٦	٤٣٧	١٠٥	٢٤٫٠
١٩٥٣	٣٩٩	٣٨٣	١٢٩	٣٣٫٧
١٩٥٤	٥٢٤	٥٠٣	١٣٩	٢٧٫٦
١٩٥٥	٤٩٨	٤٧٨	١٦٧	٣٤٫٩
١٩٥٦	٦٨٥	٦٥٧	١٦٦	٢٥٫٣
١٩٥٧	٧٠١	٦٧٢	١٦٦	٢٤٫٧

المصدر : IBRD—IDA, *Current Economic Position and Prospects of Jordan* , Dec, 1969, p. 23 .

ان ما يسمى بمساهمة قطاع الادارة العامة في الانتاج المحلي الاجمالي ، اي الدخول الناجمة عن العمل في هذا القطاع ، ليس محصلة اعادة توزيع الدخل المنتج محليا ، كما هي الحال في البلدان الاخرى (بغض النظر عن اعتبار الطريقة البرجوازية المعتمدة في حساب الانتاج القومي لقطاع الخدمات قطاعا منتجا للدخل ، بينما هو في الواقع قطاع يقتسم الدخل المنتجة في قطاعات الانتاج المادي ، المنتجة الحقيقية للفائض) ، وانما يعود القسط الاكبر من مساهمة قطاع الادارة العامة في الانتاج المحلي الاجمالي الاردني الى مصدر خارجي للدخل ، اي الى المساعدات والهيئات الامبريالية الخارجية ، والتي تصب في قطاع الادارة العامة والدفاع وتعطيه قوة متعاظمة التأثير ، سواء من حيث كونه يشغل قسما كبيرا من القوة العاملة ومصدرا لدخلها ، ومن حيث قدرة هذا القطاع على تحريك القطاعات الاقتصادية الاخرى وتوجيهها ، مما يضفي عليه دورا قياديا لبقية القطاعات .

ولم يتسبب نمو قطاع الادارة العامة في الحد من اهمية ومكانة القطاعات المنتجة في اطار الاقتصاد الوطني فقط ، وانما تسبب بذلك ايضا تعاظم الاعتماد على التجارة الخارجية وتنامي اهميتها . فلقد شكل قطاع التجارة والبنوك القطاع الثاني من حيث « مساهمته » في الانتاج المحلي الاجمالي عامي ٥٤ و ١٩٥٥ و القطاع الثالث في عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧ . حيث بلغت بالنسب المئوية ١٩٪ ، ٢١٪ ، ١٧٪ ، ١٩٪ بالترتيب (١٠) ، ان نمو مساهمة هذا القطاع في الانتاج المحلي يعود الى تنامي الارياح الناجمة عن الاستثمارات التجارية والمالية بعيد الحرب الفلسطينية ، مع تزايد عدد السكان واتساع السوق الداخلية وتعاظم اهمية التبادل البضاعي ، وازدياد الحاجة الى السلع الاستهلاكية الجاهزة في ظروف ما بعد الكارثة الفلسطينية ، في حين لم يكن مستوى تطور الانتاج المحلي كافيا لمجابهة الاحتياجات المستجدة للسكان .

ان المعطيات المختلفة تؤكد ان هذا القطاع كان منشغلا بشكل رئيسي في التجارة الخارجية ، وبلاستيراد . اما ارباح التبادل البضاعي في السوق المحلي فكانت متأتية عن تداول البضائع المستوردة اساسا . ان الجدول التالي رقم « ٣ » ، يظهر ارقام التجارة الخارجية في السنوات التي سبقت الحسب الفلسطينية والتي تلتها ، ويشير الى ازدياد وتيرة اعتمادها على الاستيراد في تأمين السلع الاستهلاكية والضرورية .

جدول رقم (٣)

التجارة الخارجية خلال سنوات ١٩٥٧/٤٦ (بالالف دينار)

السنة	المستوردات	الصادرات الوطنية	البضائع المعاد تصديرها	المجموع	الميزان التجاري
١٩٤٦	٨٧٨٧٠	٢٠٤٤٢	٦٥٠٠	٢٦٩٤٢	٦٠٩٢٨ -
١٩٤٧	١٠١٤٦٨	٥٠٦١	٣٦٥٢	٠٨٧١٣	٩٢٧٥٥ -
١٩٤٨	١٢٦٢٧٨	٧٢٧٦	١٧٨٣٦	٢٥١١٢	١٠١١٦٦ -
١٩٤٩	١٤٦٦٢٤	١٠٥٣٤	٤٥٠٥١	٥٥٥٨٥	٩١٠٣٩ -
١٩٥٠	١٠٧٦٦٦	١٥٣٧٠	٠٣٥٥	١٥٧٢٥	٩١٩٤١ -
١٩٥١	١٥٦٧٢٠	١٠٤١٠	٤١٢٩	١٤٥٣٩	١٤٢١٨١ -
١٩٥٢	١٧٣٣٤٥	١٢٨٠١	٢٥٢٧	١٥٣٢٨	١٥٨٠١٧ -
١٩٥٣	١٨٣٩٥٠	١٩٠٠٤	١٩٧٩	٢٠٩٨٣	١٦٢٩٦٧ -
١٩٥٤	١٩٨٤٠٥	٢٤٣٣٩	٣٨٩٨	٢٨٢٣٧	١٧٠١٦٨ -
١٩٥٥	٢٧٠٥٨٥	٢٦١٩٤	٢٤٨٨	٢٨٦٨٢	٢٤١٩٠٣ -
١٩٥٦	٢٧٨١٨٧	٤٣٧٩٣	٥٨٠٥	٤٩٥٩٨	٢٢٨٥٨٩ -
١٩٥٧	٣٤٠٢٩٧	٣١٣٩٣	٣٩٢٩	٣٥٣٢٢	٣٠٤٩٦٥ -

المصدر - : النشرة الاحصائية السنوية ، دائرة الاحصاءات العامة ، عمان ١٩٧٣ ، العدد الرابع والعشرون ، جدول ١٠٢ ، ص ١٥٤/١٥٥ .

لقد قفزت ارقام المستوردات من ٨٨ مليون دينار عام ١٩٤٦ الى ٣٤ مليون دينار عام ١٩٥٧ ، اي انها تضاعفت باكثر من اربع مرات . كما تضاعف العجز التجاري في نفس الفترة باكثر من خمس مرات . ولو اخذنا الفترة التالية على عام ١٩٥٠ ، لوجدنا ان المستوردات قد ازدادت خلال سبع سنوات بنسبة ٢٨٢٪ ، اي تضاعف نحو ثلاث مرات . اما العجز التجاري فقد ارتفع من ١٥٨٪ عام ١٩٥١ الى ٢٨١٪ عام ١٩٥٧ . ورغم ان الصادرات الوطنية قد ازدادت عام ١٩٥٧ بنسبة ٢٨٦٪ قياسا لعام ١٩٥٠ . الا ان وتيرة زيادة الصادرات ظلت ضعيفة جدا نظرا لضعف قطاعات الانتاج المادي ، ولضعف حجم التصدير منذ البداية ، ولزيادة المستوردات بقوة سنة بعد اخرى . فنسبة الصادرات الوطنية الى المستوردات ظلت نسبة محدودة جدا طوال هذه السنوات . ففي عام ١٩٥٠ كانت نسبة الصادرات الى المستوردات ١٣٪ . وفي عام ١٩٥٧ لم تزد عن ١٤٪ (١١) . ان كون الصادرات الوطنية هي صادرات زراعية في ، معظمها ، جعلها متفاوتة ومتقلبة ارتفاعا وهبوطا بسبب

خضوع انتاجية الزراعة وصادراتها للنقلبات الطبيعية الامر الذي عكس نفسه على الصادرات ارتفاعا وهبوطا . كما ان ارتفاع المستوردات بين سنة واخرى بوتيرة عالية جدا ، كان بسببذبذبة نسبة الصادرات الى المستوردات . فهي تنخفض الى ٦٣٪ عام ١٩٥١ ، او ترتفع الى ١٥٩٪ عام ١٩٥٦ ، هكذا (١٢) .

ومن الهمية بمكان ، ان نلاحظ في تركيب السلع المستوردة للاردن خلال هذه الفترة ، غلبة سلع الاستهلاك النهائي على الاستيراد وقلة السلع الرأسمالية والسلع الوسيطة . الامر الذي لا يقدم اي اساس للتفاوض بتعديل العجز في الميزان التجاري . ان الجدول التالي ، رقم «٤» ، يبين ان ما بين ٧٦٪ و ٩٠٪ من المستوردات هي سلع استهلاك نهائي ، في حين تتراوح السلع الرأسمالية بين ٣٢٪ و ٩٦٪ ، والباقي هي المستوردات من السلع الوسيطة . ان هذه الارقام تفسر استمرار العجز التجاري ، الذي يعكسه الجدول السابق . كما تشير الى محدودية تطور قطاعات الانتاج المادي المختلفة .

جدول رقم (٤)

السنة	قيمة المستوردات (مليون دينار)	سلع رأسمالية %	سلع وسيطة %	سلع استهلاك نهائي %
١٩٥٠	١٠٠٨	٣٧٪	١٨٥٪	٨٧٫٨٪
١٩٥١	١٥٧	٣٢٪	١٧٢٪	٨٩٫٦٪
١٩٥٥	٢٧١	٩٦٪	١٤٤٪	٧٦٪

المصدر : وديع شرايحة ، « التنمية الاقتصادية في الاردن » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٦٦ .

لقد حافظت بقية القطاعات على ترتيب مساهمتها في الانتاج المحلي ، فاحتل قطاع النقل المرتبة الرابعة مع ازدياد حجم اسهامه بالارقام المطلقة في الانتاج المحلي من ٤٤ مليون دينار الى ٨٣ مليوناً بين عامي ٥٤ و ١٩٥٧ وبالنسب المئوية من ٩٢٪ الى ١٣٤٪ وحافظت بقية القطاعات الاخرى كالخدمات وملكية المساكن والانشاءات والصناعة على ترتيب مساهمتها في الانتاج المحلي مع بعض التغييرات وتبادل المواقع احيانا . وفي هذا الاطار ظل قطاع الصناعة والتعدين والكهرباء يشغل الترتيب الخامس من حيث أهمية مساهمته في الانتاج المحلي الاجمالي ، رغم ارتفاع هذه المساهمة بالارقام المطلقة من ٤٥ مليون دينار عام ١٩٥٤ الى ٦٨ مليون دينار عام ١٩٥٧ (١٣) .

اما سمات التطور الصناعي واطوار الصناعة الاردنية في الخمسينات فسوف نعالجها بشيء من التفاصيل لصلتها الوثيقة بنشوء الطبقة العاملة وحركتها النقابية .

ب - الصناعة والتطور الصناعي في الاردن (فترة الخمسينات)

اتسمت الصناعة الاردنية في فترة الخمسينات بغلبة الطابع الحرفي ونموذج المنشأة الصناعية الصغيرة على تركيبها العام ، كما اتسمت ايضا بصفها الاستهلاكية وباستهدافها تلبية الحاجات المباشرة للسكان . الا ان هذه الفترة شهدت ايضا قيام العديد من الصناعات الكبيرة المتطورة التي لم تلبث ان شكلت العمود الفقري للصناعة الاردنية ، غير ان تأثيرها على التركيب العام لم يظهر خلال هذه الفترة ، أما لانها لم تكتمل او لم تبدأ الانتاج الا في نهاية الخمسينات ومطلع الستينات (١٤) .

استند التطور الصناعي في الاردن في مطلع الخمسينات الى قاعدة من المؤسسات الحرفية والصناعية الصغيرة القائمة في ضفتي الاردن قبل عام ١٩٥٠ ولا سيما في الضفة الغربية ، والتي نشأت قبل حرب ١٩٤٨ وضم الضفة الغربية او بعيد هذه الحرب وقبل الانحاق والضم الرسمي . فقد كان عدد المؤسسات الصناعية والحرفية في الضفتين قبل ١٩٥٠ ١٨٠٤ مؤسسات . ولقد شكلت المؤسسات العاملة في صناعة الملابس والاحذية الكتلة الاكبر بين هذه المؤسسات ، اذ بلغ عددها ٧٦١ مؤسسة . تلتها المؤسسات العاملة في صناعة المواد الغذائية وعددها ٤٢٥ مؤسسة ، ثم كتلة مؤسسات المنتجات المعدنية وعددها ٢١٦ مؤسسة ، وصناعة الاثاث والمفروشات وعددها ١٧٤ مؤسسة (١٥) .

ولقد تضاعف عدد المؤسسات الصناعية والحرفية في الاردن خلال الخمسينات حتى بلغ عددها عام ١٩٥٩ ، ٦٨٨٧ مؤسسة اي قرابة اربعة اضعاف قبل عام ١٩٥٠ (١٦) ، مما يشير الى الوتيرة السريعة للتطور الحرفي - الصناعي خلال سنوات الخمسينات .

على ان التطور العددي للمؤسسات الحرفية والصناعية لم يغير من الطابع العام للصناعة في الاردن ، اذ ظلت تغلب عليها صفة الصناعة الاستهلاكية المكرسة لتلبية الحاجات المباشرة للسكان . ففي نهاية عام ١٩٥٩ ، كان ٤٦٫٥٪ من المؤسسات يعمل في صناعة الملابس والاحذية و ١٨٫٦٪ منها في صناعة المواد الغذائية ، و ١١٫٩٪ منها في صناعة الاثاث والمفروشات ، و ٩٫٧٪ منها في صناعة المنتجات المعدنية . لكن الى جانب هذه الصناعات نما عسدد المؤسسات الصناعية والحرفية العاملة في فروع تصليح السيارات (١٩٠ مؤسسة) وفي المنتجات غير المعدنية (١٢٩ مؤسسة) والنسيج (١٠٣ مؤسسة) كما ازداد عدد المؤسسات العاملة في تصليح وصيانة المعدات الكهربائية وغير الكهربائية وفي صناعة الطباعة والنشر (١٧) .

وتظهر مختلف المؤشرات من جهة اخرى ان الطابع العام لهذه المؤسسات هو الطابع الحرفي والصناعي الصغير ، فعلى سبيل المثال بلغ متوسط عدد العاملين

في هذه المؤسسات ثلاثة عمال فقط . ويؤكد الطابع الحرفي للصناعة الاردنية في الخمسينات المسح الاحصائي الذي قامت به دائرة الاحصاءات العامة في عام ١٩٥٤ . والذي اظهر ان عدد المؤسسات الصناعية التي يعمل فيها خمسة عمال فاكثر لا يتجاوز ٤٢١ مؤسسة . وبالمقارنة مع عدد المؤسسات الصناعية والحرفية في العام نفسه والبالغ ٢٣٤١ مؤسسة يتضح ان نسبة المؤسسات الصناعية « غير الصغيرة » (اي التي تستخدم خمسة عمال فاكثر) لا يتجاوز ١٢.٦٪ مقابل ٨٧.٤٪ من المؤسسات هي من الحجم الصغير والحرفي (١٨) .

يظهر المسح الصناعي لعام ١٩٥٤ السمات البنوية للصناعة الاردنية ، سواء من حيث حجمها ، او من حيث فروعها الانتاجية ، او من حيث حجم استخدامها ونتاجيتها الاجمالية . ويؤكد هذا المسح ان المؤسسات الصناعية التي تستخدم خمسة عمال فاكثر تقترب هي ايضا من الطبيعة الحرفية ، ان لم تتجاوز رؤوس اموال هذه المؤسسات (وعددها ٤٢١ مؤسسة) ٤.٣ مليون دينار ، اي ان متوسط رأسمال المؤسسة الواحدة هو ١٠.٢١٦ دينار اردني . كما انها استخدمت ٨١٩٨ عاملا ، (بمعدل ١٩ - ٢٠ عاملا للمؤسسة - تدفع لهم رواتب سنويا مقدارها ٦٧٣٤٤٨ دينارا ، في حين بلغت القيمة الاجمالية لانتاجها الصناعي ٧٢١٤٩٧٩ دينار اردني (انظر الجدول رقم «٥») .

جدول رقم (٥)

الصناعة	عدد المؤسسات	الراسمال الموظف	عدد العاملين	الاجور والرواتب (بالدينار)	قيمة مجمل الانتاج (بالدينار)	القوة المشغلة بالحضان
الصناعة الغذائية	٦١	١٠١٤٠٠٠	١١٢	٨١٦٢٢	٢٧١٦٧٢٠	٢٤١٦
المشروبات والمياه الغازية	٣٠	٢٦٦٨٥٥	٣٥٣	٣٥٥٩٨	٢٢٢٤٥٠	٣٧١
التبغ والسجائر	٥	٤٠٧٠٠٠	٥٨٢	٥٣٣٢٠	١٠٧٥٠٠٠	١٢٩
الغزل والنسيج	٢٦	١٠٢٢٠٠٠	٧٨٨	٢٢٢٦٦	١٧١٢٧٨	١٧١
الملابس والاحذية	٥٧	٢٦٧٤٠٠	٩٠٦	٧٧١٧٤	٢٤٨٧٠٠	١٠٤
التجارة والخشب	٢٥	٧٧٩٥٠	٣٢٢	٣٠٩٨٤	١١٧٠١٠	٤٢٥
المفروشات الخشبية	٢٥	١١٧٦٠٠	٤٤٥	٣٩٩٠٦	١٧٣٤٧١	٥٣٥
الورق والكترتون	٨	٨٦٧٠٠	١٧٩	١٣٠٢٠	١٥٦٠٠٠	٧٥
الطباعة والتجليد	١٤	٢٠٠١٠٠	٣٥١	٢٤٥٠٩	١٧٦٤٤٨	١٤٥
منتجات جلدية	١١	١٨٢٠٠	٧١	٢٤٨٤	٥٥١٠٠	٥٣
منتجات الطماط	٣	٣٢٥٠٠	٢٠	٢٥٠٠	٤٠٩٥٠	٥٢
المنتجات الكيماوية	٢٧	٢٣٦٠٠٠	٤٥٢	٢٩٥٨٢	٢٤١٠٦٢	٧٠
المنتجات غير المعدنية	٢٧	١١٤٦٣٠٠	٨٦١	٩١٧٤٧	٩٤٢٢٥٠	٤٥٨٩
المنتجات المعدنية	٢١	١٣٣١٥٠	٣٩٢	٣٦١٢٠	١٩٦٧٥٠	٨٢٢
الخراطة والاعمال الميكانيكية	١٨	١٠٠١٠٠	٨٩٦	٦٧٠٠٠	٢٤٠٠٠٠	٤٢٨
صناعة اجسام السيارات	١١	٦١٦٥٠	٢٥٦	٢٩٧٠٠	٨٤٧٠٠	٢٧٦
اعمال الصياغة والمجوهرات	٢٢	٣٤٢٠٠	٢٣١	١٥٠٠	٦٦٢٠٠	٢٣
مجموع الصناعات	٤٢١	٤٣٠١٢٠٥	٨١٩٨	٦٣٧٤٤٨	٧٢١٤٩٨٩	١٠٣٥٦

« The Economic Development of Jordan » (Report of mission organized by the I.B.R.D.), Johns Hopkins Press, Baltimore, 1957
p.p. 207 - 209 .

جدول رقم (٦)

عدد المؤسسات الراسمال الموقوف عدد العاملين والرواتب	قيمة مجمل الانتاج	القوة المشغلة في الصناعة	مؤسسات الصناعات الغذائية في الاردن (٥ صال فاكتر) لعام ١٩٥٤		
٢٤	١١٤٠٠	١٤	٢٧٠٠٠	٢	منتجات الالبان
٧٣	١٢٣٠٠٠	١٣٣	١١٨٠٠٠	٢	المعلبات
٣٤٢	٢١٧٣٠٠٠	٢٠٨٤	٧١٣٠٠٠	١٧	مطاحن الحبوب
٢٠٠	٢٩١٠٠٠	١٣	٥٥٠٠٠	١٦	مخابز
٢٤٤	١٨٠١٢٠	١٣٠	٨٨٠٠٠	٢١	حلويات
٢٩	١٧٧٠٠	٤٢	١٣٠٠٠	٣	Alimentary Paste
٩١٢	٢٧٩٦٧٢٠	٢٤١٦	١٠١٤٠٠٠	٦١	المجموع

Ibid, p. 207 .

المصدر

أما أبرز الفروع الصناعية فقد كانت التالية :

١ - صناعة المواد الغذائية : وتأتي في مقدمة الصناعات الوطنية ، حيث تنتج ٢٨٧٪ من قيمة الانتاج الصناعي الاجمالي ، كما تشغل ١١١٪ من عمال الصناعة ، ويبلغ متوسط عدد العاملين في المؤسسات الصناعية الغذائية ١٠٥ عاملاً .

ومن الجدول رقم « ٦ » نلاحظ ان مطاحن الحبوب تأتي في مقدمة مؤسسات صناعة الاغذية من حيث الراسمال المستثمر (حوالي ثلاثة ارباع الراسمال المستثمر في صناعة الاغذية) ، ومن حيث عدد العاملين (اكثر من ثلثهم) ، وتدفع نحو نصف اجور عمال الصناعات الغذائية ، كما توازي قيمة انتاجها الاجمالي ٧٧٪ من القيمة الاجمالية لانتاج صناعة الاغذية ، وتستأثر بـ ٨٦٪ من القوة المشغلة .

ويليها في الاهمية صناعة المعلبات ، من حيث الراسمال المستثمر ، والمخابز من حيث قيمة الانتاج الاجمالي والحلويات من حيث عدد العاملين ، وهي على كل حال المؤسسات الرئيسية في صناعة الاغذية .

وعموماً تستأثر صناعة الاغذية بـ ٢٣٪ من الراسمال المستثمر في الصناعة الاردنية ، وتشغل ١١١٪ من عمال الصناعة ، وتنتج ما قيمته ٢٨٧٪ من قيمة الانتاج الاجمالي للصناعة .

٢ - صناعة السجائر والتبك : وتلي صناعة المواد الغذائية من حيث الانتاجية والكثافة العمالية ، فهي محصورة في خمس مؤسسات صناعية برؤوس اموال مستثمرة تبلغ ٤٠٧٠٠٠ دينار اردني . الا ان عدد عمالها يبلغ ٥٨٣ عاملاً ، وبلغ مجمل قيمة انتاجها ١٠٧٥٠٠٠ دينار ، اي ١٤٩٪ من قيمة الانتاج الصناعي . في هذه الصناعة تحققت اكبر كثافة عمالية كمتوسط لكل

مؤسسة (١١٦) عاملا ، كما انها تستأثر بـ ٩٥٪ من الرأسمال المستثمر في الصناعة . وعموما تعتبر صناعة التبغ من اكثر الصناعات الاردنية تطورا من حيث تجهيزها الآلي والرأسمال المستثمر ، ومن حيث الانتاجية والعمالة .

٣ - تعود المكانة البارزة للصناعات غير المعدنية في الصناعة الاردنية ، سواء من حيث الرأسمال المستثمر او من حيث قيمة الانتاج الاجمالي ، وارتفاع عدد العاملين فيها ، الى انشاء مصنع الاسمنت . اذ يحظى هذا المصنع بـ ٨٧٣٪ من الرأسمال المستثمر في الصناعات غير المعدنية ، ويوظف ٢٧٨٪ من عمال هذا القطاع الصناعي ، وينتج ٧٩٥٪ من قيمة الانتاج الاجمالي للصناعات غير المعدنية . ويستأثر بـ ٨٦٩٪ من القوة المشغلة . كما يدفع نحو نصف الاجور المدفوعة في الصناعات غير المعدنية . وكما يظهر الجدول رقم « ٧ » فان باقي مؤسسات الصناعات غير المعدنية هي من الحجم المتواضع من حيث الرأسمال الموظف وعدد العاملين والانتاج .

وبشكل عام تتمتع الصناعات غير المعدنية بمكانتها المتقدمة في الصناعة الاردنية ، من حيث حجم الرأسمال المستثمر الذي يوازي ٢٦٦٪ من الرأسمال المستثمر في الصناعة ، وتشغل ١٠٥٪ من عمال المؤسسات الصناعية وتوازي قيمة انتاجها ١٣٪ من قيمة الانتاج الاجمالي للصناعة . ومن بين كافة المؤسسات الصناعية ، كان مصنع الاسمنت اكبر مؤسسة صناعية في البلاد بمختلف المعايير .

جدول رقم (٧)

المؤسسات العاملة في الصناعات غير المعدنية (٥ عمال فأكثر) لعام ١٩٥٤					
عدد المؤسسات	الرأسمال الموظف	عدد العاملين الاجور والرواتب	قيمة مجمل الانتاج	القوة المشغلة في الصناعة	
٢	٤٦٠٠٠	٢٦	٨٨٠	١٠٥٠٠	الزجاج
٤	٢٣٠٠٠	٦٣	٦١٨٠	٢٨٦٠٠	المرابا
٢	٥٣٠٠	٢٧	١٩٨٠	٣٥٠٠	الاراني الخزفية
١	١٠٠٠٠٠٠	٢٤٠	٤٦٠٠٠	٧٥٠٠٠٠	الاسمنت
٢٧	٣٩٠٠٠	٢٦٠	١٩٠١٥	٧٣٠٥٠	الادوات الصحية
١	٧٥٠٠٠	٢٥٠	١٧٦٩٢	٦٦٠٠٠	الرخام
٣٧	١٠١٤٦٣٠٠	٨٦١	٩١٧٤٧	٩٤٢٢٥٠	المجموع
				٤٦٥٨٩	المصدر

ibid, p. 209.

وتلي الصناعات المارة بالاهمية ، من حيث قيمة الانتاج ، صناعة الالبسة والاحذية ، والصناعات الكيماوية وصناعة المشروبات والكحول .

توزيع الصناعة بين الضفتين

ومن الجوانب التي تستحق الدراسة في هذه الفترة ، هي بدء قيام « تقسيمة عمل » داخلية بين الضفتين الشرقية والغربية . فمن المسح الصناعي لعام ١٩٥٤ يمكن ان نلاحظ انه على الرغم من نمو ٦٠٪ من المؤسسات الصناعية المشمولة بالدراسة في الضفة الغربية (٢٥٤ مؤسسة صناعية وتعدينية) ، فان حصة

مؤسسات الضفة الشرقية من العمال الصناعيين هي اكبر من حصة الضفة الغربية ، اذ يعمل داخل صناعة الضفة الشرقية نحو ٥٦٪ من العمال الصناعيين مقابل ٤٤٪ في المؤسسات الصناعية للضفة الغربية (١٩) هذا يعني ان المؤسسات الصناعية في الضفة الشرقية هي من ذات الحجوم الاكبر والاكثر قدرة على استيعاب وتوظيف العمال . وان الضفة الغالبة لمؤسسات الضفة الغربية الصناعية هو صغر حجمها بالمقارنة مع المؤسسات الصناعية في الضفة الشرقية .

ويؤكد هذه الحقيقة الارقام المتعلقة بالقيمة الاجمالية للانتاج الصناعي ، حيث كانت مؤسسات الضفة الشرقية تحقق ٦٧٪ من قيمة الانتاج الاجمالي للصناعة مقابل ٣٢٪ تحققها المؤسسات الصناعية في الضفة الغربية .

وتتعرز هذه الحقيقة اذا ما قارنا بين انتاج القطاعات الصناعية المختلفة في الضفتين ، فنجد ان قيمة الانتاج الاجمالي للمؤسسات الصناعية الغذائية والمشروبات والملابس الاحذية والخشب والمفروشات والطباعة في الضفة الشرقية اعلى بكثير من تلك المتحققة لدى المؤسسات العاملة في الضفة الغربية، رغم ان الاخيرة تفوقها بالعدد مما يبين ان احجام وطاقات مؤسسات صناعة الضفة الشرقية هي اعلى بشكل ملحوظ ، حتى في هذه المرحلة المبكرة .

كما ان الضفة الشرقية تنفرد بوجود عدد من الصناعات ، لا نجدها في الضفة الغربية ، كالصناعات الاستخراجية الاساسية ، وصناعة الاسمنت (وفيما بعد تكرير البترول) . في حين تكاد تنحصر صناعة المنتجات الكيماوية في الضفة الغربية ولا سيما صناعة الزيوت والصابون . فغالبية المؤسسات الصناعية والانتاج الكيماوي يقع ضمن صناعة الضفة الغربية . وتقع اغلبية المؤسسات الصناعية العاملة في الغزل والنسيج والملابس الاحذية ايضا ضمن الضفة الغربية ، وكذلك عدد الصناعات الاخرى المتنوعة .

ان الجدول التالي رقم « ٨ » يظهر التوزيع العام للصناعة بين الضفتين من حيث عدد المؤسسات والعمال ، ومن حيث قيمة الانتاج الاجمالي :

جدول رقم (٨)				
المؤسسات الصناعية والتعدينية التي تشغل ٥ عمال فأكثر في الاردن لعام ١٩٥٤*				
المجموع للضفتين	الضفة الغربية	الضفة الشرقية	عدد المؤسسات	عدد العمال
٤٢٥	٢٥٤	١٧١	٤٠٪	١٧١
٨٠٧٤	٣٠٦٢	٤٥١٢	٥٦٪	٤٥١٢
٦٠٩٢٩١٧٧	٢٠٢٥٠٤٦٥	٤٠٦٧٨٧١٢	٦٧٪	٤٠٦٧٨٧١٢

المصدر : جميل هلال ، الضفة الغربية ، التركيب الاجتماعي والاقتصادي (١٩٤٨) / (١٩٧٤) ، بيروت ، مركز الابحاث ، ١٩٧٤ .

* يتضمن هذا الجدول بعض الاختلافات عن الجدول رقم «٥» الخاص بالمسح الصناعي لعام ١٩٥٤ فالجدول الأخير لا يتضمن المؤسسات الاستخراجية وعددها ٣ مؤسسات . كما ان عدد العمال والقيمة الاجمالية للانتاج في هذا الجدول (اعلاه) اقل من عدد العمال والقيمة الاجمالية التي يظهرها المسح الصناعي . وهذا يعود الى عدم شمول الجدول اعلاه ، الذي اشتققناه من مصدر آخر ، لكن هذا لا يؤثر على صحة الاستنتاجات التي سقناها :

وأخيراً ٠٠ يعود ضعف التطور الصناعي والسمات الحرفية - الاستهلاكية للصناعة في الخمسينات الى الطابع العفوي والعشوائي الذي رسم التطور الصناعي والاقتصادي عموماً . ففي ظل غياب التخطيط والتوجه الحكومي لتسريع التنمية الصناعية ، قام النمو الصناعي على مبادرة القطاع الخاص الذي انهمك في الدرجة الاولى بالاستجابة لتلبية الطلب المتزايد على السلع الاستهلاكية والضرورية في السوق المحلية . ان الخلل الواسع بين الحاجات المتنامية للسكان في فترة ما بعد الحرب الفلسطينية وخصوصاً مع اتساع القاعدة السكانية للبلاد ، وبين ضآلة قدرة المؤسسات القائمة على الاستجابة لهذا الطلب، شكل العامل الرئيسي في توجيه الرأسمال الخاص الى الاستثمار الصناعي ، ولم يكن من شأن هذا النشاط الصناعي ، القائم على المبادرة الفردية وعلى رؤوس الاموال الصغيرة غالباً ، ان يعني باكثر من التوجه لتلبية الحاجات المباشرة للسكان ، ولذلك نشأت الصناعة الاردنية دون ان ترتبط بالموارد والخامات المحلية او القابلة للانتاج المحلي ، وانما بالاعتماد على المواد الخام والوسيطه وشبه المصنعة المستوردة من الخارج . ان تحليل السلع المستوردة في هذه الفترة ، وفي الفترات اللاحقة يؤكد الارتباط الوثيق بين تطور الانتاج الصناعي والمحلي والمواد الخام والوسيطه المستوردة ، ولذلك فان النمو الصناعي لم يكن ليؤدي الى الحد من المعجز التجاري والمديونية للخارج والى تعزيز القاعدة الانتاجية والاستقلال الاقتصادي ، وانما على العكس ، ادى الى استمرار الاعتماد على الخارج والمديونية العامة للسوق الرأسمالي .

لقد ترك الطابع الحرفي - الاستهلاكي للصناعة الاردنية اثاره وبصماته على حجم وتركيب الطبقة العاملة ولا سيما على العمال الصناعيين ، اذ بالاضافة الى ضآلة حجم النواة الصناعية للطبقة العاملة ، فان الطابع الحرفي للصناعة يفسر تبعثها العددي وعدم تجمعها وغلبة الطابع الحرفي والشخصي على انتاجها ، فالعلاقات والشائج التي تسنها وتصوغ منظورها الى الحياة والى المجتمع وعلاقاته بقيت علاقات وروابط حرفية وشخصية وعائلية ، مما اضعف فرص

امتلاكها المزايا التاريخية للطبقة العاملة وقدرتها على ان تلعب دورها الطبيعي .
ان دراسة الاستخدام لعام ١٩٥٧ ، تلقي الضوء على اوضاع العمال والمستخدمين
في قطاع الصناعة وفي القطاعات الحديثة الاخرى ، رغم عدم شمولها لقطاعي
البنوك ومؤسسات النقل الافرادية ، بل وعدم شمولها التام للقطاعات التي قامت
بمسحها .

العمال والمستخدمون في الصناعة وفي القطاعات الاخرى

اظهرت دراسة الاستخدام لعام ١٩٥٧ ان مجمل عدد العاملين في المؤسسات
المشمولة وعددها ١٧١٣٩ مؤسسة قد بلغ ٤٨١٨٧ شخصا كان بين هؤلاء
١٩٥٠٧ يعملون في ٤٧٢٩ مؤسسة صناعية ، و ٣٠٣١ شخصا يعملون في
قطاع التعدين ، و ١٤٧٣٣ شخصا يعملون في ٨٨١٥ مؤسسة في قطاع
التجارة (الجملة والمفرق) (٢٠) .

ان الجدول رقم «٩» يقدم ملخصا لهذه الدراسة ، ويبين عدد المؤسسات
والعاملين فيها حسب النشاط الاقتصادي والجنس والحالة العملية . كما هي عام
١٩٥٧ ، وبناء على دراسة الاستخدام هذه ، يمكننا استخلاص الملاحظات التالية .

أولا : انه من بين ٤٨١٨٧ شخصا ، هم مجموع العاملين في المؤسسات
المشمولة في التعداد كان هناك ٢٠٢٢٨ شخصا يعملون لانفسهم او للعائلة ، اي
لا يتقاضون اجورا عن اعمالهم ولا يعتبرون عمالا مأجورين . وهؤلاء يوازنون
ما نسبته ٤١٩٪ من مجموع العاملين في المؤسسات المذكورة . الامر الذي
يشير الى هيمنة الطابع الانتاجي العائلي والحرفي على قسم هام من مؤسسات
القطاعات المختلفة .

لقد كانت اكبر كثافة للعاملين لانفسهم او للعائلة ، في قطاع تجارة الجملة
والمفرق ، حيث بلغ عددهم ١٠٥٢٥ شخصا من ١٤٧٣٣ هم جميع العاملين في
القطاع ، اي ان نسبتهم قد بلغت ٧١٤٪ ، يلي قطاع التجارة في كثافة العاملين
لانفسهم او للعائلة قطاع الخدمات ، حيث كان ٣٣٤٠ شخصا هم عاملون
لانفسهم او للعائلة ، اي ما نسبته ٤٤٨٪ من مجموع العاملين في القطاع
وعددهم ٧٤٥١ شخصا .

أما في قطاع الصناعة فان ما يزيد على ربع العاملين في القطاع هم عاملون
لانفسهم او للأسرة ، حيث بلغوا ٥٧١٣ شخصا من ١٩٥٠٧ اشخاص . وبذلك
كان ٣٣٩٪ من العاملين هم من غير العمال المأجورين .

ويلي قطاعات التجارة والخدمات والصناعة في كثافة العاملين لانفسهم او
للعائلة قطاعات النقل ، الانشاءات والمؤسسات المالية .

ثانيا : يستفاد من التعداد ، ان اكبر كثافة للاناث العاملات هي في قطاع الصناعة ، ثم في الخدمات ، ثم في التجارة . وبشكل عام كانت نسبة الاناث العاملات الى مجموع العاملين هي غاية في التواضع اذ لم تزد على ٣٤٪ .
 وبلغ عدد العاملات في قطاع الصناعة ١٤٦٤ رافعة ، اي ما يوازي ٨١٪ من عدد العاملين في الصناعة . ومع اخذنا بالاعتبار ان التعداد المذكور لم يشمل العاملات بمهن الخياطة في بيوتهن . فان عدد العاملات في الصناعة ، وفي المؤسسات بشكل عام كان متواضعا جدا .

جدول رقم (٩)

عدد المؤسسات والعاملين فيها حسب النشاط الاقتصادي والجنس والحالة العملية لعام ١٩٥٧	النشاط الاقتصادي		مجموع العاملين		مجموع		العاملون لحسابهم الخاص والعاملون للأسرة	
	عدد المؤسسات	عدد المؤسسات	ذكور	اثاث	ذكور	اثاث	ذكور	اثاث
مصائد الاسماك	٢	٢٠٧	٢٠٧	٢٠٧	١٠	١٠	١٠	١٠
التعدين (١)	٢٢٨	٣٠٢١	٣٠٢١	٣٠٢١	١١٢	١١٢	١١٢	١١٢
الصناعة	٤٧٢٩	٨٠٠١٩٥	٨٠٠١٩٥	٨٠٠١٩٥	٥٤٨٧	٥٤٨٧	٥٤٨٧	٥٤٨٧
الانشاءات	٦٦	٧٨٠	٧٨٠	٧٨٠	٦	٦	٦	٦
التنقل	٢١٢	٢١٦٢	٢١٦٢	٢١٦٢	٣٦١	٣٦١	٣٦١	٣٦١
تجارة الجملة والفرق	٨٨١٥	١١٦١٣١	١١٦١٣١	١١٦١٣١	١٧٣٠١	١٧٣٠١	١٧٣٠١	١٧٣٠١
المؤسسات المالية (٢)	٢٦	٨٧	٨٧	٨٧	٣٨	٣٨	٣٨	٣٨
الخدمات	٨١٢٤	١٥٣٨	١٥٣٨	١٥٣٨	١١١١	١١١١	١١١١	١١١١
شركات القطر والخبث	٢	٧٧٨	٧٧٨	٧٧٨	٢٢	٢٢	٢٢	٢٢
المجموع	١٧١٣٩	٤٨١٨٨	٤٨١٨٨	٤٨١٨٨	٢٠٢٢٢	٢٠٢٢٢	٢٠٢٢٢	٢٠٢٢٢

القوى العاملة لعام ١٩٧٠ (دائرة الإحصاءات العامة ، آذار ١٩٧٢) اشتقاق حسابي من جدول رقم ب - (ص ٤٩ و ٥٠ و ٥١)
 ١ - يشمل هذا القطاع شركة استخراج اللبونات وتشمل ١١٢١ عمالا ، والبالغ ٧٨٤ مؤسسة تشمل ٤٢٤ عمالا و ٥٢ كمارة حجارة وتشمل ٢١٦ عمالا .
 ٢ - المؤسسات المالية هنا تشمل شركات التأمين وهدما ١١ وتشغل ٦٤ شخصيا ، وصرفوا القود و عدد مؤسساتهم ١٥ وتشغل ٢٢ شخصيا . البنوك غير مشمولة بالأحصاء المذكورة .

ثالثا : اما من حيث الاهمية النسبية للكثافة العمالية في مختلف القطاعات ، فان الجدول السابق يشير الى ان متوسط عدد العاملين في المؤسسة الواحدة كان على النحو التالي :

١ - مؤسسات النفط ومحطات الضخ	١٣٧ عاملا للمؤسسة الواحدة
٢ - مصائد الاسماك	٦٩ عاملا للمؤسسة الواحدة
٣ - النقل	٨-٧ عمال للمؤسسة الواحدة
٤ - التعدين	٨ عمال للمؤسسة الواحدة
٥ - الانشاءات	٨-٧ عمال للمؤسسة الواحدة
٦ - الصناعة	٤ عمال للمؤسسة الواحدة
٧ - المؤسسات المالية	٤-٣ عمال للمؤسسة الواحدة
٨ - الخدمات	٣-٢ عمال للمؤسسة الواحدة
٩ - التجارة	٢-١ عمال للمؤسسة الواحدة

ان المتوسط العام المنخفض لعدد العاملين في المؤسسة الواحدة يشير الى تفتت الطبقة العاملة العددى ، والى غلبة المؤسسات ذات الطابع الحرفى والصغير . لكن ينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار ان المتوسط يطمس الفوارق بين المؤسسات الكبيرة والصغيرة . فعلى سبيل المثال نجد ان قطاع التعدين الذي كان متوسط عدد العمال فيه ٨ عمال للمؤسسة الواحدة ، كان يتضمن شركة واحدة لاستخراج الفوسفات تشغل وحدها ١٩٣١ عاملا وهي بذلك اكبر مؤسسة من ناحية الكثافة العمالية . كما اشتمل قطاع التعدين على ٥٣ كسارة تشغل ٦٦٦ عاملا (بمتوسط ١٢ - ١٣ عاملا) و ٢٨٤ مقلع للحجارة تشغل ٤٣٤ عاملا (بمتوسط ١ - ٢) .

رابعا : من بين جميع العاملين مقابل اجور (العمال المأجورين) البالغ عددهم ٢٧٩٥٩ عاملا ، كان عدد العمال الصناعيين مقابل اجور ١٣٧٩٤ عاملا . وتبلغ نسبتهم ٤٩٣٪ من مجموع العمال المأجورين ، اي ان كتلة العمال الصناعيين كانت اكبر كتلة عمالية في سائر القطاعات الحديثة المذكورة ، ويأتي بعدها عمال تجارة الجملة والفرق ونسبتهم ١٥٪ من مجموع العمال مقابل اجور، ثم عمال الخدمات ونسبتهم ١٤٪ من مجموع العمال ، ثم عمال التعديس (١٠٣٪) وعمال النقل (٦٤٪) . ان هذه القطاعات هي قطاعات الاستخدام الرئيسية . واذنا ارقام هذا التعداد كمؤشر على حجم الطبقة العاملة في قطاعات الانتاج الحديثة ، فان ابرز فئات الطبقة العاملة تعمل في الصناعة والتعدين والنقل والانشاءات ومحطات ضخ النفط ، حيث تتكون فيها الصفات البروليتارية للطبقة العاملة ، رغم ان حجم المؤسسة المتوسط ، ومستوى التجهيز الآلي ، ونظام علاقات العمل يضعف من فرص هذا التكون البروليتاري للعمال في هذه المرحلة .

بيد اننا نتحفظ على الارقام السابقة لناحية شمولها عمال كافة المؤسسات التي تدخل في نطاق الدراسة . وسبق ان اشرنا الى ان العاملات في الخياطة

في بيوتهن غير مدرجات في عداد العاملات في الصناعة ، كما ان الجدول «٩» يشير في حاشيته الى عدم شمول المؤسسات المالية للبنوك ، وذكرنا ان الدراسة لم تشمل عمال النقل المنفردين • ولدينا شكوك حول دقة الارقسام الخاصة بالعاملين في الانشاءات حيث لم يتجاوز عددهم في التعداد لعام ١٩٥٧ ٧٣٠ عاملا • في حين كان قطاع الانشاءات والبناء ينمو بوتيرة سريعة ويستقطب الايدي العاملة ، ولو بصورة مؤقتة للعمل في المشاريع الانشائية وغيرها • غير ان انعدام وجود المعطيات الاحصائية الكافية للمقارنة تجعلنا نحجم عن تصحيح او تعديل هذه الارقام ، رغم تحفظنا على دقتها (٢١) •

واذا ما قدرنا حجم القوة العاملة في البلاد (اي الناس الذين هم في سن العمل) سنة ١٩٥٧ بنسبة ٢٢٢٩٪ من السكان (تعداد السكان ١٠٢٨٠٢٨ نسمة) وكان مجموعهم ٣٥٢٢٠٨ شخصا ، فان نسبة العاملين في مختلف المؤسسات المشمولة بالتعداد لا تزيد عن ١٣٧٪ من القوة البشرية العاملة ، اما العاملين منهم مقابل اجور (العمال) فلا تزيد نسبتهم عن ٧٨٪ من القوة البشرية العاملة •

جدول رقم (١٠)

عدد المؤسسات الصناعية والعاملين فيها حسب الحالة العملية لعام ١٩٥٧

النشاط الصناعي	عدد المؤسسات	مجموع العاملين	العاملون لحسابهم او للاسرة	العاملون بأجور
صناعة المواد الغذائية	٧٥٠	٣١٦٧	١٠٣٨	٢١٢٩
المشروبات	١١٠	٦١٩	١٠٦	٥١٣
التبغ والسجائر	٤	٧٦٦	—	٧٦٦
النسيج	٤٣	٣٥٨	٣٢	٣٢٦
الملابس	٧٦٧	٢٦٠٧	٩٢٨	١٦٧٩
الاحذية	٩٣٦	٢٤٢١	١٠١٤	١٤٠٧
الخشب والفلين	١٥	١٠٦	٩	٩٧
الآلات والمفروشات	٧٤٧	٢٨٣٥	٩٥٠	١٨٨٥
الورق ومنتجاته	٣٢	٣٢٥	١٣	٣١٢
الطباعة	٣١	٣٩٩	٢٤	٣٧٥
الجلود	٤٥	١١٨	٦٣	٥٥
المطاط	٣	١٥١	٦	١٤٥
الصناعة الكيماوية	٢٤	٤٠٤	٢٥	٣٧٩
الصناعة غير المعدنية	١٠٦	٩٢٩	١٢٨	٨٠١
الصناعة المعدنية	٧١٩	٢١٠٣	٩٠٨	١١٩٥
صناعة معدات النقل	٢٣٢	١٤٧٨	٢٧٦	١٢٠٢
صناعة متنوعة	١٦٥	٧٢١	١٩٢	٥٢٨
المجموع	٤٧٢٩	١٩٥٠٧	٥٧١٣	١٣٧٩٤

القوى العاملة ، ١٩٧٠ (دائرة الاحصاءات العامة ، آذار ١٩٧٢) ، المقدمة •

وهذا يشير ، (مع اخذنا بالاعتبار العاملين في الادارة الحكومية والقطاعات المدنية غير المشمولة بالدراسة) الى انخفاض مستوى التشغيل ، وارتفاع نسبة البطالة باشكالها . وهو ما سوف نعود اليه لاحقا .

خامسا : اما فيما يتعلق بالعمالة داخل قطاع الصناعة ، فنجد في الجدول رقم «١٠» صورة عن توزيع العاملين مقابل اجور والعاملين لحسابهم او للأسرة، في كل فرع من فروع الصناعة . وفي هذا الجدول نلاحظ ان عددا من الصناعات يخلو او ينذر فيه العمل غير الأجرور (العمل لحساب العامل او للأسرة) كما هو في صناعات التبغ والسجائر والطباعة والورق والنسيج والمطاط والصناعة الكيماوية . فهذه الصناعات تعتمد بصورة كلية او شبه كلية على العمل الأجرور، وفي بعضها ، يشكل العاملون لانفسهم او للعائلة نسبة كبيرة من مجمل العاملين في الصناعة ، منهم يشكلون ٥٣٤٪ من مجموع العاملين في الجلود و ٤٣٢٪ في الصناعات المعدنية و ٤٢٪ في صناعة الاحذية و ٣٥٦٪ في صناعة الملابس ، و ٢٣٥٪ في صناعة المفروشات ، و ٣٢٨٪ في صناعة المواد الغذائية . وتنخفض نسبة العمل غير الأجرور في الصناعات الباقية ، فلا يزيد عدد العاملين لحسابهم او للأسرة عن ١٨٧٪ في صناعة معدات النقل ، و ١٧٪ في صناعة المشروبات و ١٣٨٪ في الصناعات غير المعدنية .

وبشكل عام فان ٢٩٪ من العاملين في الصناعة هم عاملون لحسابهم او للأسرة ، مقابل ٧١٪ من العاملين ، كانوا عمالا مأجورين . وتعتبر هذه النسبة عالية ، بالنظر لطبيعة الصناعة في هذه المرحلة ، ونظرا لان المؤسسات الصناعية الكبيرة التي نشأت في الخمسينات لم تبدأ الانتاج بعد .

سادسا : عند تعداد الطبقة العاملة في الضفتين ، لا بد من الاخذ بعين الاعتبار ، فئات العمال التي لم يشملها التعداد ، او لم يكن بالامكان عددها آنذاك لطابعها غير المنتظم . مثل عمال البناء غير المرتبطين بمؤسسات منتظمة ، وهؤلاء يشكلون غالبية العاملين في قطاع البناء . وهذه الفئة العمالية تكون كتلة هامة في عداد الطبقة العاملة ، ويمكن التوكيد على اهميتها من خلال ملاحظة ارتفاع مساهمة هذا القطاع وقطاع الانشاءات في الانتاج المحلي الاجمالي عن ٣٥ مليون دينار عام ١٩٥٤ الى ٥ مليون عام ١٩٥٧ . وارتفاع مساهمتها النسبية من ٧٣٪ الى ٨٪ خلال السنتين ٥٤ و ١٩٥٧ (٢٢) وكان عدد رخص البناء قد تضاعف بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٢ ثلاث مرات ، من حيث المساحة ومن حيث قيمة هذه الرخص بالدنانير (٢٣) .

الى جانب عمال البناء المرتبطين بمؤسسات منتظمة ، هناك العمال الزراعيون الذين تحولوا الى كتلة بارزة ايضا في المجتمع ، اغلبيية هؤلاء هم من اللاجئيين الفلسطينيين ، ويتركز غالبية العمال الزراعيين في وادي الاردن . اذ كان يعيش ٨٥٨٨٥ لاجيء فلسطيني في وادي الاردن وفقا لتقرير وكالة الغوث عام ١٩٥٢

كان يعيش منهم ٢٩٨٣٣ في اماكن متفرقة من الضفة الشرقية للوادي والباقيون في ضفته الغربية ، وفي عام ١٩٥٣ نما عدد الملاجئين في الوادي الى ٩٣٠٥٧ شخصا منهم ٣٣٧٦٧ كانوا في الضفة الوادي الشرقية (٢٤) . واستمر التدفق نحو الوادي في السنوات اللاحقة . وعلى اكتاف هؤلاء جرى تحويل الزراعة في الاغوار من حيث المحاصيل ، كما زرع الوادي في كل سنة بدلا من تركه لثلاث سنوات بلا زراعة ، كما تحسن ري الاراضي واصطلحت الاراضي غير المستغلة وباتت الزراعة تتجه نحو السوق بدلا من زراعة الاكتفاء الذاتي . ان قسما هاما من لاجئي الوادي باتوا عمالا زراعيين ، كما تحول قسم منهم الى مستأجر للارض على أساس المحاصصة وفي كلا الحالتين كان العامل الزراعي والمحاصر يتعرض لاستغلال ملاكي الاراضي . وكان العمال الزراعيون في الاغوار وفي المناطق الاخرى يتلقون أجورا قليلة ، كما سنرى ، بالاضافة الى تعرضهم للبطالة بعد انتهاء الموسم الزراعي .

هناك ايضا عمال اجهزة الدولة ، وهؤلاء ايضا لا توجد اية احصاءات حول عددهم وتوزعهم المهني . المهم انهم لا يختلفون عن بقية العاملين مقابل اجور ، فهم غير مرتبطين بالنظام الخاص بالموظفين « نظام الخدمة المدنية » ولا يتمتعون بالتالي بحقوق المواطنين .

الحواشي

سابق ذكره ، ص ٣ .

- (١) راجع خطة التنمية الخمسية ، المجلس القومي للتخطيط ، عمان ١٩٨٠/٧٦ ، ص ١ .
- (٢) راجع مجلة « التنمية » الاردنية ، عمان ، دائرة المطبوعات والنشر ، العدد ٣٧ ، السنة الرابعة ، نيسان ١٩٧٦ ، ص ١٩ .
- (٣) راجع « خطة التنمية الخمسية » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢ .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ٢ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٣ .
- (٦) راجع : النشرة الاحصائية السنوية عمان ، دائرة الاحصاءات العامة ، ١٩٧٣ ، العدد الرابع والعشرون ، جدول ١٠٢ ، ص ١٥٤/١٥٥ .
- (٧) « خطة التنمية الخمسية » ، مصدر .
- (٨) المصدر نفسه ، ص ٤ .
- (٩) مجلة « التنمية » الاردنية ، مصدر سابق ذكره ، العدد ٣٧ ، نيسان ١٩٧٦ ، ص ١٩ . النسب مستخرجة من الجدول رقم «١» من هذه الدراسة .
- (١٠) المصدر نفسه ، النسب مستخرجة من ارقام الجدول رقم «١» .
- (١١) انظر مصدر الحاشية (٣) .
- (١٢) راجع الجدول نفسه .
- (١٣) النسب التي تشير الى مساهمة مختلف قطاعات الاقتصاد في الانتاج المحلي مشتقة من الجدول رقم «١» في مطلع هذه الدراسة .
- (١٤) ابرز الصناعات الكبيرة التي اقيمت في الخمسينات : صناعة الاسمنت، مصفاة البترول ، مصنع الدباغة ، الزيوت النباتية .

الأردنية الهاشمية ، عمان ، دائرة الإحصاءات العامة، ١٩٥٧. انظر ملخصاً لها في دراسة القوى العاملة لعام ١٩٧٠ ، دائرة الإحصاءات العامة ، آذار ١٩٧٢ ، ص ٤٩ و ٥٠ و ٥١ .

(٢١) من الواضح ان الأرقام الخاصة بالعاملين في الانشاءات قد شمل فقط العمال المنتظمين ، فالى جانبهم يوجد الاف العمال العاملين في البناء والانشاءات .

(٢٢) راجع تقديرات بورتير للانتاج المحلي الاجمالي ، مجلة « التنمية » ، العدد ٣٧ ، السنة الرابعة ، نيسان ١٩٧٦ ، ص ١٩ .

(٢٣) راجع : شرايحة ، وديع ، التنمية الاقتصادية في الأردن ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤ .

(15) « *Manufacturing Industry In Jordan*, Report on the Industrial Census » Statistics Department, Amman 1959.

(16) *Ibid.*

(17) *Ibid.*

(18) *The Economic Development of Jordan* , « Report of a mission organized by the I.B.R.D» Baltimore, 1957. p.p. 207 - 209 .

(١٩) راجع هلال ، جميل ، الضفة الغربية ، التركيب الاجتماعي الاقتصادي ٤٨ - ١٩٧٤ ، بيروت ، مركز الأبحاث ، ١٩٧٤ ، ص ٥٣ .

(٢٠) دراسة الاستخدام في المملكة

هزيمة الديمقراطية وصعود القومية الرجعية

الصراع بين البورجوازية والاقطاع

كان اكتمال الدولة الوطنية المتحررة ، ونموها ، هو الحدث البارز في تاريخ القرن التاسع عشر ، وكان نضال البورجوازية ضد الاقطاع في بداية القرن (١٧٨٩) هو الذي أشعل الثورة الفرنسية ، وهى السبيل لانتشار المبادئ القومية والحرية الديمقراطية التي جاءت ثمرة لهذه الثورة في اوربا . ولقد تمكنت البورجوازية المتوسطة الثورية في ظل المبادئ الوطنية الديمقراطية من أن تؤسس على صعيد الغرب الاوروبي كياناتها الجديدة ، ودولها القومية على انقاض العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الاقطاعية القديمة . وقد اقترن ذلك بنضج المشاعر القومية لدى الشعوب ، وانبعثت في كل مكان في اوربا حركات قومية ترفع شعارات الوحدة القومية والديموقراطية ، وتناضل من أجل دولها وحكوماتها على هذا الاساس . ولا جدال في ان عهد السيطرة البونابرتية على القارة واكتساح جيوشه للعروش والامبراطوريات الاقطاعية قد اكد النصر الذي احرزته البورجوازية ضد الاقطاع ، ولكنه اشعل من ناحية اخرى المشاعر القومية لدى الشعوب التي خضعت لسيطرته ، والقى عليها وقودا مجددا . ولقد كان نضال البورجوازية عنيفا في الفترة التي تلت سقوط نابليون ، وقيام الحلف المقدس الرجعي ، عندما حاول الملوك والامراء العائدون ، والذين استردوا عروشهم ، تجاهل الحقوق

التي اكتسبتها البورجوازية . وكان من المستحيل ان تتخلى البورجوازية الثورية والنامية عن حقوق عرقها ومارسها بل وتتطلع الى المزيد منها من خلال المشاركة في السلطة او الانفراد بها اذا تيسر لها ذلك . لذلك ناضلت هذه البورجوازيات نضالا متصلا في مطلع القرن ، من اجل تغيير اسس السلطة والحكم بصورة تسمح لها بالمشاركة الفعلية على اقل تقدير ، في ادارة دفنة الامور والمغاء امتيازات الطبقات القديمة وحقوقها الموروثة . ومن هنا ، فقد سار النضال الوطني القومي من اجل التحرر من كل سيطرة اجنبية ، وتحقيق الوحدة القومية ، جنبا الى جنب مع النضال الديموقراطي من اجل تقييد سلطة الملوك والامراء وازالة الفوارق الطبقية الاقطاعية . وقد سجلت البورجوازيات المظفرة الحقوق الجديدة التي اكتسبتها في موثيق هي دساتيرها الليبرالية (١) .

الحركة الرومنسية والقومية

نما تيار الرومنسية في الفن والحياة ، في عصر الاستنارة ، كتيار سفلي في اول الامر تحت سطح العقلانية ، ثم تمرد على سيطرتها مع الوقت . وفي حين طالب العقليون بتحرير العقل من اغلال الماضي الصدئة ، تاق الرومنسيون كما شهدنا الى حرية العاطفة والانفعال والخيال ، وقد كرسوا سعيهم في بداية الامر على اصلاح الادب ، وبخاصة الشعر ، ولكنهم سرعان ما اصطدموا بالقيود والمواضعات الاجتماعية الاقطاعية الجاثمة (٢) ، فأمتدت حركتهم بشكل طبيعي الى ميدان السياسة ، ودخلوا حومة النضال الثوري ضد النظم الاقطاعية السائدة ، وسرعان ما جاءت غزوات نابليون وقتوحاته في اوروبا ، لتشعل مشاعر القومية والطموح القومي في جميع انحاء القارة . وكانت كتابات الرومنسيين وحركتهم بوجه خاص في هذه المرحلة من عوامل تفجير المشاعر القوية وتأجيج نارها ، كما تأثرت هي بدورها بالمرجة المتعاطمة من الوعي القومي التي زودت الرومنسية بمثل اعلى يتجسد في « الوطنية » ، تحيط بها هالة من مشاعر الولاء والحب والانتماء التاريخي ، وتأكيد الشخصية القومية، بعد الشخصية الفردية ، من خلال التراث وعراقة التاريخ والاصل .

وكان من سمات الادب الرومنسي الاهتمام « بعوام الناس » وبالاشياء الصغيرة العادية ، مما نبه الازنهان الى دراسة الادب الشعبي والاساطير والموسيقى والاغاني الشعبية ، وقد اسهمت هذه الاهتمامات بدورها في تكوين ودعم الطوابع القومية ، كما اشادت الرومنسية كحركة ادبية بلغات الشعوب وثقافتها ، وخصت كل شعب بصفات عقلية وعرقية متأصلة ، وانماط في الحياة وعادات متميزة ، فكرست الخصائص القومية الحياتية . والواقع ان الحركة القومية بلغت على يد الرومنسية دفعة بالغة القوة ، سواء ذلك بالنسبة

للفرنسيين أو الانجليز أو السلافيين (٣) وبالنسبة للامان بوجهه اخص * واصبحت القومية والوطنية هما الشغل الشاغل للجميع ، تتجسد في العادات والتقاليد الشعبية ، وفي اللغة ، قبل كل شيء التي تربط الامة وتحفظ تراثها وتحمل روحها وتاريخها *

وقد تحولت الرومنسية كما ذكرنا مع العصر لتعكس كل البلبلة وصراع الايديولوجيات في ذلك الزمان المضطرب ، فقد جمعت في السياسة بين خليط مشوش من الافكار التقدمية والرجعية ، والثورية والمحافظة ، اختلط فيها السعي الانفعالي نحو الحرية العاطفية وخيبة الامل في العقل الانساني * تصدت لمؤسسات البورجوازية ومعتقداتها واعتبرتها مؤسسات مصطنعة ، وبدت عقلية البورجوازي واخلاقياته في أعينها كئيبة ، ولكنها من جهة اخرى وقفت ضد الراديكالية في الاقتصاد والسياسة لانها في نظرها تفسد روح الفرد بالتركيز على الكتل والجمهير (٤) * وبعد فشل انتفاضات سنة ١٨٤٨ حدث التحول الكبير في اواسط القرن في اتجاه الردة والمحافظة * ووقفت الحركة الرومانسية بشكل عام في صف الرجعية والقوى المحافظة * فقد تحول الكثيرون من الليبراليين الديموقراطيين بتأثير الهزائم المفجعة لحركة الثورة في اوربا ، الى قوميين محافظين * وتقدمت قضية الوحدة القومية لتحتل مركز الاهتمام الاول على حساب قضية الحرية والديموقراطية في بعض الاحيان ، كما حدث في المانيا البسماركية * واتجهت بعض المذاهب الرومنسية الى عبادة الدولة ذاتها ، بصرف النظر عن طبيعة الحكم او السلطة فيها * وفي انجلترا كانت الرومنسية من عوامل دعم الاتجاهات المحافظة ممثلة في دزرائيلي (١٨٠٤ - ١٨٨١) وحزب التوري (المحافظين) ، وكان هذا الحزب يدعو الى نوع من الاصلاح الاجتماعي ، وتحسين حال الجماهير ، من خلال التعاطف والمحبة واحياء نماذج العصور الوسطى في التنظيم الاجتماعي ، خاصة في « الجلد » الذي اصبح رمزا للانسجام والتآلف بين ارباب المهنة واتباعها * وروجت الرجعية لدعاوى التعاون بين العمال واصحاب الاعمال والسلام الاجتماعي ، وكانت رؤى الرومنسيين الرجعيين مما ينسجم وهذا الاتجاه ، في نزوعهم نحو الماضي والسلام المفقود ، وحياة الهدوء في جنة الفلاح البسيط الراضي وصور الفروسية والشهامة والحب في الماضي الغابر * كانوا يبحثون عن طريق لا هو بالبرلماني المقيت ولا الراديكالي الاشتراكي (٥) * طريق بين هذا وذاك ينهي الخلافات وي طرح الصراع والتوتر ، فانتهى بهم المطاف الى دعم الحكومات الاستبدادية والرجعية التي تكبت حركة الجماهير وتخدم صوت الطبقة العاملة ، التي كانت قد بدأت تتبلور وتستهقط وتعي ذاتها كطبقة في هذه المرحلة ، وجاء الاحياء الديني المسيحي والكاثوليكي بوجه الخصوص ، في هذا الجو الرومنسي السائد ، ليدعم مفاهيم التعاون والتعاطف والحب بالضمون السلفى ، وفي

اطار التنظيم الاجتماعي للعصر الوسيط وقيمه الابوية العائلية ، وكان ذلك كله مما ينسجم وجو الرومنسية ونزوعاتها للعودة الى سلام العصور الوسطى ، وهدهود البلدان النائية ، وحياة البدائي والفلاح .

والواقع ان بروز الطابع الاجتماعي الراديكالي لانتفاضات سنة ١٨٤٨ ، ودور الطبقة العاملة المتعاضم خلال هذه المرحلة ، وتشكيل تنظيماتها واحزابها المستقلة ، اثار خشية اقسام من الليبراليين ، كما اوقع الرعب في قلوب بعض قادة الطبقة الوسطى ، ودفع بهم الى صفوف المحافظين . لقد اصبح الفكر الاشتراكي العلمي ، طرفا في الساحة الاوروبية .

في ظل هذه الصراعات الاجتماعية المحتدمة ، والازمات الخائقة التي تلحن الطبقة الوسطى الصغيرة بوجه الخصوص ، ومن بينها اعداد كبيرة من اليهود ، ليس من الغريب ان تتحول بعض فئاتها عن مثلها واهدافها الثورية ، وتسقط في مهاوي العدمية واليأس المطلق ، وقد تجد اللجأ والامان في احلام الرومنسية السلفية او احضان الكنيسة والتصوف ، او في عبادة الدولة والنزعة القومية المجردة عن اي مضمون اجتماعي متقدم . وقد تنشده السلام المفقود في بلاد بعيدة وفي الارض البكر التي لا يقطنها انسي ولا يفسدها توتر ولا صراع . وستصادف هذا المفهوم الرومنسي والديني السلفي عن السلام الاجتماعي والتآخي والمحبة ، والتعاون كأساس للتنظيم الاجتماعي ، كأحد دعائم الفكر الصهيوني ومفهومها القومي ، وان قام على اساس عرقي ، وفي اخلاقيات الرواد او المستعمرين اليهود الاول لفلسطين .

لقد تخبط الرومانسيون بين التغني بجلال الشعوب ولغاتها واشعارها ، وجلال الملك . بين النزعة الانسانية ، والتعصب المحلي ، بين كراهية البورجوازية واخلاقياتها المنحطة والرعب من الطبقة العاملة وحركتها ، ولكنهم وضعوا انفسهم آخر الامر بعد منتصف القرن في خدمة القوى المعادية للديموقراطية الليبرالية والرديكالية (٦) .

الرومانسية واللغة

كان الاهتمام الكبير الذي اولاه الرومانسيون اللغات القومية ، لصيقا بالدور البارز الذي لعبوه في الحركة القومية . وكان من الطبيعي ان تحتل اللغة هذا المركز في حركة هي في الاساس حركة ادبية ، وثورا على المعايير الكلاسيكية في اللغة والادب . وقد كان للرومانسية الفضل في الكشف عما للغات القومية والشعبية من قيمة فريدة ، فهي رمز شخصية هذه الشعوب وأصالتها ، تتجسد فيها روح الشعب وتراثه ، وأصبحت اللغة اساس الرابطة القومية بديلا عن العرق .

وقد لعبت اللغة دورا خاصا ومبرزاً في ايديولوجية النزعة القومية الالمانية بوجه الخصوص ، حيث ظلت هذه الامة لظروف تاريخية مشتتة ومقسمة على رقعة واسعة من الارض لا يجمعها سوى رباط اللغة ، وقد اشاد فخته باللغة الالمانية في خطاباته الشهيرة الى الامة الالمانية سنة ١٨٠٧ - ١٨٠٨ ، والتي يستنهض فيها الامة الالمانية ضد السيطرة الثابوليونية ، مؤكدا ان الشعب الالمانى له رسالة روحية واخلاقية كبرى لمصلحة الجنس البشرى ، وهو ينفرد بها ، لانه الشعب الوحيد الذي احتفظ بلغته الاصلية في راية ، بعكس الفرنسيين والانجليز .

وكانت وجهة النظر هذه ، باعتبار اللغة الاصلية للشعوب اللغة العامية والدارجة واللغة التاريخية هي وعاء روح الشعب ورمز اصالته ونبوعه الخلاق ، من الافكار العميقة الجذور في الفكر الرومانسي الثوري ، بعكس فلسفات الاستنارة التي وجهت همها الى الطبقات المثقفة ، الى جانب احتفائهم بالاساطير والقصص الشعبي والاغاني والموسيقى الشعبية وبكل ما يشكل التراث ويصوغ العبقرية الخاصة للامة وشخصيتها المتفردة .

ولا تحتاج الامور الى جهد كبير لاثبات اثر هذه النظرية الرومانسية ، وبالاخص الرومانسية الالمانية ، في اللغة باعتبارها الوعاء الحافظ لروح الشعوب واصالتها وتفردا ورسالتها التاريخية . خاصة وان تراث التفرد والاصالة التاريخية له مكانته الخاصة في تراثهم الديني - ويشير هيرتز (٧) الى هذا الاثر . فقد احتفظ اليهود بلغاتهم الالمانية والاسبانية ، مع شيء من الاختلاط بالعبرية عند نزوحهم الى بولندا وتركيا اثر الاضطهادات الدموية في العصور الوسطى . وعند العودة الى المغرب في مطلع العصر الحديث احتفظوا بكثير من سماتهم اللغوية الخاصة ، ولكنها سرعان ما اختفت وذابت مع انتشار التربية الغربية ، واتساع حركة الذوبان والاندماج في شعوبهم ، واصبح الكثير منهم من ابرز الكتاب والمتحدثين والخطباء باللغات القومية ، بل ومن ابرز اساتذة الالمانية والفرنسية وغيرها من اللغات الغربية . ثم جاءت حركة الردة ودعوات الصهيونية للعودة الى فلسطين ، فكان الاهتمام المفرط من جانب المفكرين والدعاة الصهيونيين الاول من امثال هس سمولنسكين وبن يهودا واحدها عام وغيرهم ، ببعث اللغة العبرية كلغة قومية ، ووعاء للتاريخ والتراث اليهودي ، ورمز للتفرد والاستعلاء ، واداة لتحقيق الحلم الصهيوني .

حركة القومية الالمانية وتطور الفكر العنصري والعرقى

لم يكن من قبيل الصدفة ان حركة الاصلاح اليهودي والاندماج على يد مندلسون تنبع من المانيا ، وان حركة الردة الصهيونية على يد موسى هس

(١٨١٢ - ١٨٧٥) الرائد الاول للفكر الصهيوني والدعوة الصهيونية في كتابه الشهير « رومه والقدس » ، والذي قال عنه هرتزل « كل شيء حاولناه يمكن العثور عليه في آثاره » ، ولدت ايضا في المانيا ، فقد ولد هس وعاش في المانيا ، خاض غمار السياسة الالمانية في اواسط القرن الماضي ، صعد مع حركتها الثورية الى ذروتها ، وهبط الى قاعها العرقي والهمجي بعد هزيمتها وتبعثرها .

والواقع ان المانيا ، بحكم المواطنة اليهودية الواسعة فيها، منذ بداية العصور الحديثة وعودة اليهود الى بلدان الغرب ، وبعد ان تزايد اضطهاد اليهود في شرق اوروبا ، ظلت من مراكز التأثير الاساسية في الفكر اليهودي ، وفي تيارات السياسة والحركة بين اليهود يضاف اليه ان المانيا بحكم موقعها في وسط اوروبا ، وامتداد اللغة الالمانية في انحاء الشرق خاصة ، كانت على الدوام مركزا اساسيا من مراكز التأثير الفكري في اوروبا ، وكان للفلاسفة والمفكرين والمصلحين الدينيين الالمان تأثير عميق وبعيد على الصعيد الاوروبي كله ، منذ الاصلاح الديني وعصور الاستنارة ، وفي القرن التاسع عشر بوجه اخص . ومن المعروف ان ضعف البورجوازية الالمانية وعجزها عن تحقيق الاهداف الاساسية لثورتها ، وبالاخص الوحدة القومية والديموقراطية ، بالطرق الثورية او الدستورية على غرار ما حدث في الغرب ، ضاعف من دور الفكر والمفكرين الالمان ، وحول جاذبا كبيرا من الصراع بين القديم والجديد ، بين الثورة واعدائها ، من مساحات السياسة العملية والواقع ، الى جبهة الفكر والايديولوجية ، واحتلت معارك الفكر والفلسفة في « امة العقل » كما كانت تلقب عادة ، مركز الصدارة ، واصبح لها تأثيرها الواسع في اوروبا ، خاصة في مناطق الوسط والشرق . ومن هنا لم يكن غريبا ان تكون المانيا هي مهد الاصلاح الديني المسيحي واليهودي معا ، حيث انجبت لموثر وموسى مندلسون ، كما اصبحت فيما بعد مهد الردة الصهيونية على يد موسى هس ، يوم فقدت الثورة الالمانية والاوروبية زخمها في اواسط القرن ، وبدأت الردة القومية ، والقومية الرجعية الشوفينية في الصعود ، وبدأ الفكر العرقي والعنصري في اكثر صوره فجاجة وبشاعة ، حتى اوصلنا آخر الامر الى الفاشية والنازية .

ولا شك ان عجز البورجوازية الالمانية نتيجة ضعفها التاريخي ، وسيرها تحت مظلة طبقات الاقطاعيين والديونكرز الرجعيين ، بعد الهزائم المتوالية التي لحقت بالثورات القومية الديموقراطية تحت لواء الليبرالية ، قد اصاب البورجوازية الصغيرة الالمانية ، وكان اليهود يشكلون قسما كبيرا منها - بالاحباط الشديد ، ووقعها في كل صنوف الحيرة والنشبت . كما زاد من تعقيد الحركة السياسية في المانيا ، وضراوة الصراع الذي انتج لنا قمعة الاستنارة والرايكاالية في الماركسية ، واتساع الحركة الاشتراكية الالمانية التي

ضمت بين صفوفها اعدادا كبيرة من المواطنين اليهود من جانب ، وفي الجانب الاخر برز الفكر الرجعي والعنصري في اكثر صوره صراحة وبشاعة .

لهذه الاسباب يحتل الفكر الالماني بوجه الخصوص اهمية خاصة في تفهم جذور العرقية الاوروبية والصهيونية معا .

القومية الثقافية

تخلف المانيا عن بقية دول الغرب ، وخاصة انجلترا وفرنسا جاء نتيجة لعاملين : اولهما اكتشاف امريكا وطريق الهند وتحول طرق التجارة لمصلحة القوى المعادية الاطلنطية ، وثانيهما فشل حرب الفلاحين ، وفقدان المانيا لخبرة عناصرها الثورية ، والخراب الذي اصابها نتيجة هذه الحرب . ولم تتمكن المانيا من الخروج عن هذه الازمة بسبب التدهور الاقتصادي ، لهذا تخلفت لدى قرنين عن الثورة الصناعية التي قلبت الاوضاع في انجلترا وفرنسا (٨) .

ترتب على ذلك ضعف البورجوازية الالمانية ، مما جعل تأثير الافكار السياسية لعصر الاستنارة ، يختلف في المانيا عنه في دول الغرب الاخرى اختلافا بينا . ففي فرنسا ، وبصورة اخرى انجلترا ، ادت هذه الافكار الى اندلاع الثورات البورجوازية الكبيرة ، ووصول البورجوازية الى السلطة وانفرادها بها ، او على الاقل المشاركة فيها بدرجة فعالة ومؤثرة ، بعكس ما حدث في المانيا ، فقد تحولت الاستنارة الى المثالية الميتافيزيقية على يد كانت ولسننغ وفخته (٩) ، وحتى حركة الاصلاح الديني التي صاحبها تدمير الامتيازات الفئودالية ، ودعم السلطة والدولة المركزية في كل من فرنسا وانجلترا ، ادت فيما تتصل بالمانيا الى دفع هذه الامتيازات الى مرتبة السيادة ، بحيث أصبحت كل من الوحدات الفئودالية تتمتع بنفس الحقوق التي للسول الكبرى ، فالحرب الدينية مزقت المانيا تماما ، وجاء صلح اوجسبورج (١٥٥٥) ليؤكد هذا التمزق بالسماح لكل حاكم بأن يختار الكاثوليكية أو البروستنتينية (١٠) .

يضاف اليه عمق الصراعات الاجتماعية كما ذكرنا ، والعداء الشديد المتأصل بين طبقات المجتمع نفسه ، وهو الامر الطبيعي نتيجة قوة الفئودالية ، مما زاد من اتساع الهوة بين الطبقات الاجتماعية وتمسك الطبقات العليا من اليونكرز بعزلتها واحتقارها لعامة الشعب ، بل لقد استطاعت هذه الطبقات في كثير من الاحيان استقطاب جماهير الشعب على حساب الطبقة البورجوازية ونداءاتها الليبرالية (١١) .

وترتب على ضعف البورجوازية الالمانية هذا وعجزها عن تحقيق ثورتها ،

وبناء دولتها المستقلة الحرة والموحدة • واحساسها بهذا العجز والقصور ، ترتب عليه تزايد مشاعر الارتباط بالثورة البورجوازية العالمية ، وعقد الامال على انتصارها ، والانتبهار بانجازاتها في البلدان المجاورة وهو ما ادى بدوره الى التعلق بمفاهيم « العالمية » التي شاعت في فكر الاستنارة ، ويقول هرتز ان الشعور العام بين الطبقات المتعلمة في المانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان عالميا (١٢) •

ولكن ذلك ادى في نفس الوقت الى نمو ما سمي بالقومية الالمانية الثقافية التي مهدت بدورها لظهور القومية السياسية اثناء حرب التحرير • والحقيقة ان فلاسفة الاستنارة ومفكرها الالمان حولوا عجز طبقتهم في الواقع العملي الى نجاحات وانجازات ضخمة في الفكر والثقافة وحلت « القومية الثقافية » والاعتزاز المفرط بالثقافة والفكر الالمانى محل القومية السياسية المحبطة والمفتقدة ، ومحل الموحدة القومية التي بدت بعيدة المنال •

ولنا ان نقدر الاثر البعيد لهذا الفكر الالمانى التقدمي في الاساس ، سواء في دعواته الى العالمية ، او القومية الثقافية في الفكر اليهودي في المانيا ، وفي شرق أوروبا حيث امتد نفوذ هذا الفكر • لقد كانت له جانبيته الخاصة بين مثقفي اليهود وفئاتهم المستنيرة • فالمفهوم العالمي يتسع ليحتضن كل الثقافات دون تمييز ، ويرتفع على كل التحيزات القومية ضيقة الافق ، كما ان مشاعر الاعتزاز والفخر بالثقافات القومية من الجانب الاخر ، يفسح المجال ايضا للاعتزاز بالتراث الثقافي الانساني اليهودي •

ولكن هذا المفهوم بالذات ، مفهوم القومية الثقافية ، انقلب الى نقيضه عند رواد الفكر الصهيوني الاول ، مع طغيان موجة القومية الرجعية في المانيا وأوروبا عموما • فقد وجد هؤلاء المفكرين الصهيونيين الاول في مفهوم القومية الثقافية مبررا وسندا للمناداة بقومية اخرى تبدو مشابهة في الظاهر ، وتفقد الوحدة هي ايضا ، وهي القومية اليهودية • نجد هذا المفهوم عند هس الالمانى وسمولينسكين الروسى (١٨٤٢ - ١٨٨٥) في دعاواه عن الامة الروحية التي تركز الى التوراة وعند الميعازرين يهودا الليتوانى (١٨٥٨ - ١٩٢٣) ، والذي كان يكتب في مجلة الفجر التي كان يصدرها سمولينسكين ويعتق نظرية القومية الثقافية • وقد عمل بدأب واصرار على احياء اللغة العبرية الحديثة ، واسرائيل عنده شعب روح وكذلك نجدها عند ليبرينسكى (١٨٢١ - ١٨٩١) وغيرهم وتكاد تكون قاسما مشتركا شائعا بين هذا الرعيل الاول من المفكرين الصهيونيين (١٣) وكأنا بهؤلاء المفكرين الرجعيين السلفيين ، والذين وقفوا في مواجهة تيار الاندماج اليهودي الجارف ، قد وجدوا في مفهوم القومية الثقافية الالمانى ضالتهم لينصبوا في قلبها قوميتهم المتخيلة التي تفقد

مقومات تحقيقها في الواقع . واذا كانت القومية الثقافية الالمانية بمثابة الامل المحرك لقومية حقيقية لا بد ان تنتصر وتحقق وحدتها في النهاية فان مفهوم الامة الروحية والاخلاقية والقومية الثقافية العبرية كان لا بد ان يحرف انظار البورجوازية الصغيرة اليهودية في ظروف التخبط والحيرة والبلبلية ليصرفها عن هدفها الحقيقي في الديموقراطية والحقوق المدنية والاندماج في شعوبها . كان لا بد ان يتحول الى عامل ردة ونكوص . وان مجرد المفهوم الالمانى التقدمي في الاصل من مضمونة ليحواله الى مفهوم يوتوبي رومنسي رجعي في « القدس الجديدة » عند موسى هس وغيره ممن سار على دربه .

الرومنسية الرجعية تركيب موجة القومية في المانيا

كان لتحطيم الامبراطورية الالمانية القديمة على يد بوناپرت والاطاحة بنظامها الاقطاعي ، اثر بعيد في انتعاش الافكار الثورية والتيار الليبرالي في المانيا ، خاصة بين المثقفين الالمان . ولكن هذا التيار اكتسب سمة وطنية وقومية بارزة نتيجة السيطرة والقهر البوناپرتي ، تطلعا في نفس الوقت الى التحرير والتوحيد القومي المفتقد (١٤) .

ولكننا نشهد ايضا مولد الاشتراكية مع الثورات البروليتارية الالمانية الاولى سنة ١٨٣٠ ، ومنذ ذلك التاريخ تتميز الحركة السياسية في صفوف المعارضة للنظام الاقطاعي القائم ، بتواجد الحركتين الليبرالية البورجوازية والاشتراكية جنبا الى جنب . ولكن كان هناك ميل واضح الى الانفصال والتباعد بينهما يزداد بالتدرج نتيجة نمو البروليتاريا وضعف البورجوازية النسبي . ومن هذا لم تأخذ الليبرالية الالمانية نفس الطابع الثوري الذي اخذته فرنسا في القرن الثامن عشر بل اتجهت البورجوازية الالمانية الى انتهاج سياسة وسط مثلها مثل البورجوازية الفرنسية بعد ثورات سنة ١٨٣٠ . سياسة تتسم بالمحافظة والجنوح الى صف الرجعية . ولكن هزيمة ثورة ١٨٤٨ هي التي وجهت ضربة قوية وقاصمة لحركة الليبرالية دفعت اقسامها متزايدة من المثقفين الالمان الى اليأس ، وفقد الثقة في العقل ، والتشاؤم . وطلعت الرومانسية الرجعية على الساحة كما اضفت الرجعية الالمانية على كل ما هو متخلف وبربري همجي في التراث الالمانى ، صفات « القومية » . واصبحت السلفية ، واحياء التقاليد التوتونية هي التعبير عن الروح الالمانية والاصالة الالمانية اما الديموقراطية البرلمانية المنتصرة في فرنسا وانجلترا وغيرها من بلدان الغرب ، فقد اعتبرت « لا المانية » « ومستوردة » تخون اصالة الامة وعبريتها الخاصة « (١٥) .

والحقيقة ان القوى المحافظة والرجعية منذ قيام الحلف المقدس وسياسة مترنيخ ، في خضم الحروب ضد الثورة ، كانت قد تعلمت درسا وعته جيدا ،

هو ان الوطنية تشكل أقوى راية يمكن ان تلف حولها الامة . وحاولت - وهي العدو الحقيقي للقومية المتحررة الديمقراطية ان تتركب موجة القومية المصاعدة وان ترفع رايتها ، ولكن بشرط ان تفصم ما بين الحرية والانبعاث القومي من علاقة ، وان تحول القومية الليبرالية العقلانية ، الى قومية همجية لا عقلانية . عدوانية توسعية . لقد استغل المحافظون المشاعر القومية الملتهبة ضد القهر اليونانبرتي ، لدحر الثورة ، ولكنهم سرعان ما افصحوا عن نواياهم الحقيقية المعادية للقومية ولحقوق الامم في التحرر والوحدة عندما طبقوا مبادئ الشرعية ضد تطلعات القوميات المشروعة في الاستقلال والوحدة - خاصة في وسط وشرق أوروبا . وتكمن مأساة النصف الثاني من القرن التاسع عشر في استيلاء قوى الرجعية والمحافظه هذه على قومية ثورات سنة ١٨٤٨ وسلبها للراية القومية بعد ان جردتها من كل مضمون ديمقراطي ، وحولتها الى معاني التوسع والغزو والضم واللاحق تحقيقا لمصالحها .

صنع المحافظون من هذه المعاني ديناً صوفياً جديداً ، هو مزيج من التقاليد الممجية القديمة والمشاعر الوطنية الملتهبة المتهوسة والملاعقلانية ، واستمدوا من تراث الفكر والفلسفة الالمانية اكثر جوانبه رجعية وتخلفا بعد ان اسقطوا منه كل ما هو ثوري وتقدمي . اسقطوا من هيغل ، هذا الفيلسوف الشامخ ، اروع ما قدمه للبشرية من مفاهيم ثورية : جدل التاريخ ، او الحركة والتطور الذي لا ينقطع من خلال المجدل في الفكر والتاريخ والواقع صوب الهدف الاسمي وهو الحرية - وتمسكوا بأسوأ ما يحمله فكره وتراثه من دعم للدولة البروسية الرجعية . فقد اعتبر هيغل في كتابه « فلسفة الحق » ان روح العالم افصح عن نفسها في الماضي ، في الشرق وفي اليونان وفي روما ، اما اليوم فقد اكتمل نموها وتطورها في الامة التيوتونية والدولة البروسية ، التي هي التجسيد الاسمي لارادة الله وغايته على الارض . ولم يكن يصعب على القوى الرجعية حيثما كانت ان تستبدل هذا المفهوم الصوفي الملاعقلاني عن الامة التي تجسد كمال التطور والفكر على الارض ، وتنقله من الامة التيوتونية الى السلافية الى العبرانية حسبما تشاء لها الاهواء .

هذا المسعى لتجسيد المثل الاعلى والروح في التاريخ ومن خلال التاريخ ، كان سمة عامة في الفكر الرومنسي كما رأينا ، ووصل به هيغل الى القمة ، ليعد الرجعية بسلاح لا يبارى عندما تلوى رقبه التاريخ ، وتثبت هذا المثل في العصور الوسطى، أو ما هو اكثر قدما وتوغلا في التاريخ . ومن ثم تصاعدت النداءات بالتمسك بالتقاليد والتراث . واخذ الناس يكبون على دراسة التاريخ، لا كما كانوا يقبلون عليه في عصر النهضة والاستنارة ، ليستخرجوا منه اروع ما تكنه الروح الانسانية بل يهدف اضعاف صفات النبالة والمجد على الماضي والباسه اكاليل الغار . وقد بجل سافيني والفقهاء الالمان بشكل عام التاريخ

ورفعوه فوق جميع الاشياء (١٦) ، وقد انقلب هذا الحس التاريخي الذي نما وترعرع في بوتقة الفكر الرومنسي خلال القرن التاسع عشر ، وكان من مكتسباته التقدمية ، انقلاب في مفهوم الرومنسية الرجعية في أواخر القرن لتبني نماذج العصور الوسطى ، او ما هو اقدم منها ، كمثال اعلى للتنظيم الاجتماعي فيوتوبيا خيالية يسكن اليها معذبو الارض ويلجأون اليها من جحيم الحاضر :

هردر ، فخته ، شليجل ، شوبنهاور ، نيتشة ، شبنغلر .

ولكي تفهم مأساة العصر ، مأساة الفكر القومي الذي يبدأ من الثورية ، ودعوات الانبعاث القومي ، والاعتزاز بالشخصية القومية مجسدة في اللغة والتراث والطوايع القومية والتاريخ القومي ، ثم ينحدر ويسير في طريق الانحطاط حتى ينقلب في اخريات العصر الى اشكال التعصب وضيق الافق القومي ، ومعاني التفرد والاستعلاء العرقي والردة الى جوف التاريخ ، لكي نفهم مسار القومية من الصحة والبعث ، حتى انهار الدم في حربين عالميتين على يد القوميين المتهورسين ، ثم الفاشيين والنازيين ومن بعدهم ورثتهم من الصهيونيين ، لا بد ان نتتبع حركة الفكر القومي الرومنسي حتى يسقط في يد الطليقات الرجعية والاستعمارية الامبريالية في اخريات القرن التاسع عشر لنستخرج اكثر عناصره سوءا ودناءة وتخلفا ، وقد اختلطت في هذا الفكر منذ البداية كما رأينا جوانبه الثورية والرجعية التقدمية والمتخلفة ولا يتسع المجال سوى لعجالة ولحاحات خاطفة .

ونبدأ بهردر (١٧) فقد كان من رواد الفكر الرومنسي مثل روسو ، وظل مخلصا للمبادئ الاخلاقية الجوهرية للاستنارة ، وكان هو البادئ بالاهتمام الحماسي « بروح الشعب » كما تعبر عنها اللغة والشعر والفن والتقاليد . وقد اشاد بصفة خاصة بالتراث الثقافي العظيم للشعب الالمانى ، وكان يتوق لحياء مجده في ميادين الادب والفن والعلم ، وكانت عواطفه مع الامة التي رأى فيها نموا طبيعيا مثل العائلة ، وكان يعتقد ان كل شعب مهما كان صغيرا ومتخلفا يحمل شعلة مقدسة من الجمال والحرية (١٨) .

وقد انكب على دراسة الاساطير الشعبية واشعار القدماء واغاني الحب واهازيج الحرب واغاني البحار من الشعوب الشمالية في فنلنده والنرويج حتى بحار الجنوب ، ثم اصدر مؤلفه في الادب الالمانى الجديد سنة ١٧٦٧ ، نحا فيه منحى جديدا فلم يقتصر نقده الادبي على المقاييس الفنية وحدها ، بل حاول فهم الروح التي تتجلى في كتابات الادباء الالمان ، بحثا عن عبقرية الامة ، والعوامل التي تتضافر في تكوين وانماء عبقرية الشعوب (١٩) .

وقد توفر بعد ذلك على دراسة الكتاب المقدس ، وتاريخ الشرق القديم ،

واثمرت دراساته في بحث عن (الشعر العبري) نشر سنة ١٧٧٣ ، ولم تكن دراسته من الناحية الدينية بل الانسانية ، محاولا ان يفهم حركة السروح الانسانية كما تمثلت في المدينت الشرقية القديمة التي عاصرت الكتاب المقدس (٢٠) ، وعنى هرردر بشكل خاص بدراسة فلسفة التاريخ ونشر بين سنتي ١٧٨٤ - ١٧٩١ . اعظم مؤلفاته اطلاقا (اراء في فلسفة تاريخ الانسانية) ثم رسائله عن تقدم الانسانية سنة ١٧٩٣ وفي مؤلفه (صوت الشعوب) سنة ١٧٧٨ نشر مجموعة من الاناشيد الشعبية من مختلف البلدان والفضل يعزى لهرردر في انشاء المدرسة التاريخية ، ويرى هررتز (٢١) ان مونتسيكيو وهرردر هما اللذان اثارا الحس التاريخي لدى هيجل .

وقد قدم هرردر منحنى جديدا في دراسته للادب وتاريخ اللغة ، فقد عني بإبراز الجانب القومي وتتبع كل مرحلة تاريخية من مراحل نمو الشعوب وتطورها ، وصولا الى الاسس التي تقوم عليها عبقرية الشعوب ، وفي رأيه ان لكل شعب خصائصه التي يتميز بها عن غيره شأن الافراد وان الثمار التي تنبت من الاعماق ، ومن تلقاء نفسها هي التي تفصح عن عبقرية الشعب ، وان كل تقليد او خضوع لمؤثرات خارجية او اجنبية تشوه شخصية الشعوب وفكرها .

ويرتبط بهذا المنهج ايضا القول بان اللغة او لسان الشعب ، هي أدواته الاساسية في الافصاح عن عبقريته ، وفي تجسيدها لروح الشعب ، ومزاجه واحساسيه وفكره ، وتتبع الاطوار التي تمر بها اللغة يعني التعرف على تاريخ الشعوب .

والامة في رأي هرردر ان هي الا كائن حي ، وجسم نابض له وجوده الذاتي والبدائي ، وتتمتع بغريزة حية نشطة وعبقرية خاصة تفصح عن نفسها تلقائيا في لغة هذا الكائن وعاداته البدائية واخلاقياته ، وبذلك اصبحت القومية كائنا طبيعيا ، من صنع الصدفة ولا ارادة لاحد فيه ولا حيلة لانسان ازاءه ، ولسه حياته التاريخية (٢٢) .

ومفهوم هرردر عن القومية يختلف بلا شك عن نظرية روسو وحركة الاستنارة عموما . وقد انتشر مفهومه في المانيا بصورة مزدوجة : في شكل الحركة الرومانسية في الادب معتمدة على عناصر الحياة البدائية والتاريخ الالمانى ثم في شكل حركة علمية قوامها فقهاء اللغة والمؤرخين الذين يدرسون تاريخ الاديان والشعوب على اساس ارتكاز عبقرية الشعوب على لغاتها الاصلية . وعلى الرغم من كل الجوانب الايجابية في فكر هرردر ، الا ان تأثيره الضخم في المانيا كان من العوامل الهامة في ارتداد الفكر الالمانى ونكوصه على عقبيه ، من فلسفة التنوير العقلانية فنظريته التاريخية والقومية تنتهي اخر الامر الى لا عقلانية مطلقة ، وسيطرة قوى غريزية على حركة الامة . والانسانية

ليست من صنع الإنسان ، ولا ثمرة لجهوده ، بل من صنع الطبيعة والغريزة وهي عكس افكار التنوير التي تعطي للعقل والارادة البشرية قوة الحسم .
وبذلك يكون هردر قد افسح مكانا عريضا في نظرية لفعل قوى تتصف بالغموض .
وواقع الامر ان المذهب العضوي في تفسير حركة التاريخ والبشرية وصحوة الامم ، تنتهي الى تغلب القوى اللاواعية واللاعقلانية ، قوى الغريزة العمياء والنمو التلقائي والعبقرية التي تفصح عن نفسها في الاشكال البدائية . اما قوة العقل فتشغل حيزا ضئيلا ، ولا تبدل الحياة او تغيرها او تؤمن تقدمها (٢٣) ،
لقد وضع هردر اللبنة الاولى في التيار اللاعقلاني المدمر الذي حل الغريزة والطبيعة والمتفتح الطبيعي والاسطورة محل العقل والارادة .

اما فخته (١٧٦٢ - ١٨١٤) فهو بلا جدال من الرواد الاول للقومية الالمانية ، امتلا حماسة للثورة الفرنسية ، وكانت تحركه الافكار العالمية والثورية والانحياز للطبقات الشعبية ، ولكن هزيمة بروسيا امام نابليون وسحق جيوشها في بينا سنة ١٨٠٦ كان له وقع عميق من نفسه ، احدثت فيه تحول بعيدا ، فقد اصبح الداعية الاول للوطنية والقومية الالمانية . ففي سنة ١٨٠٧ وجه خطابه المشهورة الى الامة الالمانية عزا فيها الكارثة المروعة التي حاقت بالمانيا الى انحطاط الخلق الالمانى ، وبخاصة انانية الطبقات العليا ، وعقد آماله مثل روسو على الطبقات الدنيا .

والشعب الالمانى في نظره هو شعب العقل ، له رسالة روحية واخلاقية كبرى عليه ان يحملها لمصلحة الجنس البشري ، وهو وحدة الذي يصلح للقيام بهذه الامة ، حيث انه احتفظ بلغته الاصلية وهي لغة حية شعبية وخالقة اما الامم الاخرى فقد لحقها العجز .

والعالم الجديد الذي يدعو اليه فخته ، يبدأ في نظره من حقل التربية : «لقد اضعنا كل شيء ولم يبق لنا سوى التربية » هذه التربية ستظهر « ارض الميعاد » « الفكرة الحقة » . ومن هو القادر على تقبل « التربية الجديدة » ال « الثقافة الجديدة » ؟ انه الالمانى والالمانى وحده . الالمانى في ذاته ولذاته ، وذلك بسبب « طابع اساسى » يحمله الالمان دون غيرهم من الامم الاخرى ، فلقد بقي الالمانى في مكان الإقامة الاصلى للقبائل الجرمانية التي غزت اوروبا الرومانية واحتفظ بلغته . وباختصار فان الشعب الالمانى هو شعب العقل ، وهو المؤهل وحده لانشاء دولة العقل ، وانسان العقل ، بواسطة التربية وهو امة الخلاص . المؤهل وحده لخلاص البشرية هكذا خاطب مواطنيه في خطابه الرابع عشر والآخر .

ولم تكن افكار فخته هذه بدافع من التعصب العرقي أو أفكار الاستعلاء القومي ، بل كانت خطابات ملتهبة تستنهض همم أمة تواجه قضية تحرير ،

ولكن لم يكن من الصعب بكل التناقضات التي يحملها هذا الفكر ، ان ينقلب على يد الرجعية الى معاني التفرد والاستعلاء القومي ، حتى لقب « بالفيلسوف التيوتوني » .

ونتابع بانوراما افكار الرومانسية الالمانية ، من الرسالة السامية للامة الالمانية ، والاصالة اللغوية والثقافية والاخلاقية ، حتى تنتهي الى معاني الاستعلاء والتفرد العرقي والعنصري ودعوات العنف والقوة .

فها هو فردريك شليجل (٢٤) (١٧٧٢ - ١٨٢٩) يعتبر الذكريات القومية التي تعادل روح الشعب ، هي مفتاح الخلود التاريخي . والشعوب والامم التي لها « ذكريات قومية عظيمة » هي وحدها التي خلدت على مر التاريخ « والتاريخ هو الوعي الذاتي للامة » او « وعي الامة بذاتها » ، ولكنه يؤكد ان الفكرة الالمانية ليست مجرد ماض فحسب بل مثل للمستقبل وكان شليجل في البداية داعية جمهوريا قويا ، ثم تحول ليصبح كاثوليكيًا محافظا ، من ذلك الفريق الذي يناصر النمسا وهو الاشد محافظة ، ويحلم بعودة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، رمز الروح الالمانية .

اما ادم مولر فكانت تربطه باليونكرز الرجعيين وشائج قوية ، واصبح اداة في يد مترنيخ ، وقد تحول الى الكاثوليكية واكتسبت افكاره السياسية مسحة صوفية ، وقد تصور الامة في اطار المفهوم الحيوي والصوفي ، تناسقا مقدسا وتفاعلا متبادلا بين المصالح الخاصة ، وحلقة تربط بين الفرد والانسانية وصفة التفرد هي القيمة العظمى للامة وكان يرى في الحرب وسيلة لا غنى عنها لتربية الامة ونموها وكان الامل الذي يحرك مولر هو قيام فيدرال عظيم يجمع الشعوب الاوروبية تحت الزعامة الالمانية (٢٥) وقد رأى في الزراعة تحقيقا للمبادئ المرسومة ، في حين رأى في حركة الاصلاح الديني والاستنارة ، والتصنيع والرأسمالية ، والثورة الفرنسية كلها نتائج السروح الرومانية الكئيبة .

ثم جاءت فلسفة شوبنهاور لتعكس موجة التشاؤم السائدة بعد هزيمة ثورة سنة ١٨٤٨ . واكتسبت فلسفته شعبية واسعة في اجواء اليأس والتراجع ، وبدت له الدنيا كابوسا كئيبا لا يحكمه العقل بل الغريزة العمياء الجشعة ، وهي ارادة الحياة .

وكان نيتشه هو الوريث الاخير للرومانسية على غير ارادته ، وكان هو ايضا يعتقد ان العالم لا يسيره العقل بل الارادة ، وهي ارادة القوة ويبدو انه استرعى الفكرة من مسيرة الجيوش الالمانية الى ساحات القتال في حرب ١٨٧٠ وهو يحتقر النفعية الانجليزية ، ومعها الديموقراطية الليبرالية . فالانسان لا يطلب السعادة بل القوة ويحب القسوة ، اما المسيحية واخلاقياتها فهي تخفي

السعي الى القوة من جانب الضعفاء ورجال الدين .

ولا شك ان فكر نيتشه يزخر بالمتناقضات ولكن فلسفته حملت في طياتها الازدراء العميق للعقل البشري ، كما دعمت بالتحديد نزعات القومية الالمانية اللاعقلانية .

وكان ريتشارد فاغنر ونيتشه صديقين وثيقي الصلة . وكان تأثير فاغنر عميقا في العقل الالمانى ، كما كان تأثيره بجوبينو وهوستون ستيوارت شمببرلين من غلاة القوميين العرقيين لا شك فيه .

الدارونية والقومية العرقية

تركت البيولوجيا الحديثة كما تمثلت في الدارونية خلال القرن التاسع عشر بصماتها على الرومنسية ، وامتزج المذهب الطبيعي بالرومنسي ، واتخذت الرومنسية مسحة طبيعية علمية فقدمت الانسان بنزعاته الغريزية الشريرة ، حيوانا كاسرا ، على انه الانسان الطبيعي ، ونيتشه يقيه اعجابا بهذا الوحش الادمي العجيب . ووجدت نزعات العرقية ضالتها في مفاهيم البيولوجيا الحديثة ، وبالاخص فكرتي « الوراثة » و « الصراع من أجل البقاء » . ويدفع شينجلر بهذه الاتجاهات بعد الحرب العالمية الاولى الى نتائجها الطبيعية في « افول الغرب » ، وغيره من كتاباته التي كان لها ابلغ الاثر في تفكير المثقفين الالمان ، وهو يدعو صراحة للدكتاوترية العسكرية ، وقد اسهمت بقوة في تغذية تيار القومية العرقية ، وفي تسميم عقول الشباب الالمانى ، فقد حرقت ومهدت الارض أمام هتلر ، وشعاراته الديماغوجية ، حتى تحول هذا الشباب على حد تعبير هرتز الى اداة في يد اكبر نخاس العبيد في العصر الحديث (٢٦) .



القدر - في نظر هؤلاء المفكرين الرومانسيين - قد وكل الى الامة الالمانية تنمية الطبيعة البشرية والسمو بها الى اعلى القيم الثقافية والاحلام ، وهذه رسالتها الى كل الشعوب . ولتكن السيطرة عن طريق الروح لا السيف عند البعض . هذه الفكرة ذات الجذور العميقة في التراث المسيحي والعبري ، عندما اختلطت بمفاهيم الدارونية الاجتماعية ، وفي اجواء الازمات المتتالية التي بدأت تأخذ بخناق النظم الرأسمالية الاوروبية ، والبطالة المتفشية ، ومع صعود الامبريالية ، ونزعات العدوان والتوسع والعنف ، ومحاولات الرأسمالية الاوروبية تهجير ازمتهما الى ما وراء البحار ، وفي المناخ الفكري السائد والمسيطر على القارة ، مناخ الرومنسية الرجعية ، ونزعات الهروب الى الجنة

المفقودة في الماضي الغابر ، أو الغد المأمول في بلاد بعيدة .. كل هذه العوامل مجتمعة ، شكلت التربة التي نبتت فيها اشواك العرقية والعنصرية ، وحركات الاستيطان العنصري .. من كل لون وصنف .

لا غرابة اذن في ان نجد نفس الافكار ، بل العبارات نفسها والالفاظ احيانا تتردد وتلوكها السنة الصهيينة الاول ، وقد تخلقت حركتهم وولدت داخل نفس الرحم ، ورضعت من نفس الثدي الملوث . وقد نقلت هذه الافكار وترجمت في قاموس الصهيونية - كما سنرى في مقالنا القادم - الى مقابلاتها العبرية والتراثية : شعب الله المختار .. الامة العبرية عبر التاريخ ، ذات الرسائل الروحية والاخلاقية ، والتي اوكل اليها كهانة البشر وقيادة البشرية وهدايتها، بالروح لا بالسيف !! مزاعم كذبها الواقع والتاريخ .

الحواشي

(14) Cornu, *op. Cit*, p. 4.

(١٥) الياس مرقص ، بعد الفكر القومي - ساطع الحصري ، بيروت دار الطليعة ، ص ٤١٠ .

(١٦) جون راندال ، تكوين العقل الحديث ، ج ٢ ص ٧٨ .

(١٧) جوهان جوتغريد هرذر Herder (١٧٤٤ - ١٨٠٧) .

(١٨) هرتز ، القومية في التاريخ والسياسة ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(١٩) شكري ، مصدر سبق ذكره ، مجلد (١) ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢٠) المصدر نفسه ، مجلد (١) ، ص ٦٤ .

(٢١) هرتز ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٩٢ .

(٢٢) شكري ، مصدر سبق ذكره ، مجلد (١) ، ص ٦٧ .

(٢٣) نور الدين حاطوم ، دراسات مقارنة في القوميات ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٦ ، ص ٣٢ .

(24) Mosse *op. Cit*, p. 40.

(٢٥) هرتز ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٠٦ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٤١٠ .

(١) فؤاد شكري ، الصراع بين البورجوازية والاقطاع ، المجلد الاول ، ص ١٤ - ١٥ .

(٢) فردريك هرتز ، القومية في التاريخ والسياسية ، ترجمة د عبد الكريم احمد ص ٤٠٠ .

(٣) عبد الكريم احمد . القومية والمذاهب السياسية ، القاهرة الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، ص ١٦٢ .

(4) George I. Mosse, *The Culture of Western Europe*, p. 22.

(5) *Ibid*, p. 38.

(6) *Ibid*, p. 237.

(7) *Ibid*, p. 107-108 .

(8) A. Cornu, *Marx & Engels Tom I* p. 4.

(٩) احمد ، مصدر سبق ذكره .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

(١٣) راجع الفكرة الصهيونية - النصوص الاساسية ، اشراف الدكتور انيس صايغ ، سلسلة كتب فلسطينية ، وسنعود الى هؤلاء المفكرين الصهيونيين تفصيلا فيما بعد .

فيليب حتي

المؤرخ العرّيف في الولايات المتحدة

مدخل تاريخي

بين الولادة في شمالن ، القرية الوداعة في متصرفية جبل لبنان ، في الرابع والعشرين من حزيران ١٨٨٦ ، والوفاة في الولايات المتحدة الاميركية في الرابع والعشرين من كانون الاول ١٩٧٨ رحلة قرن شبه كامل من الزمن .

لقد ابصرت عيناه النور في « لبنان الصغير » او المتصرفية . وكانت ذكريات مذابح ١٨٦٠ الطائفية لا زالت حديث كل الناس بالرغم من « وطنيات » المعلم بطرس البستاني التي تجاوزت الثلاث عشرة وطنية تيشر بالحبية وتدعو لازالة الاحقاد الطائفية . وينتهي البستاني وطنيته العاشرة بالقول : « يا ابناء الوطن الذين قد اتصفتم واشتهرتم بالكرم والنخوة والحماسة والحدق والمروءة والسماحة ، وانتم الان ممتطون سنام الجيل التاسع عشر ، جيل المعرفة والنور ، جيل الاختراعات والاكتشافات ، جيل الاداب والمعارف ، جيل الصنائع والفنون ، جيل التقدم والتمدن ... لا تدعوا تلك الفتن الشديدة تحملكم على هجر هذه الخلال الحميدة ، بل هبوا ، انتبهوا ، استيقظوا ، شمروا عن ساعد العزم والهمة ... ها الاداب والتمدن ووسائل الاتحاد والالفة واقفة من كل جهة ، مزدحمة على ابوابكم تقرع بقوة وسرعة طالبة الدخول الى مدنكم الزاهية الشبيهة وجبالكم الشامخة البهية ، واوديتكم وصحاريكم وسهولكم التي زينتها الطبيعة بحلها الفاخرة وقواها الباهرة ، فانيدوا عنكم تعصبانكم الدينية ، وتحزبانكم المذهبية ، وعداوانكم الطائفية ، واغراضكم النفسانية ، وافتحوا الابواب لتلك الضيوف الفاضلة ، وترحبوا بها ، وقدموا لها يدا واحدة لمصافحتها واقبلوها بالفرح والحبور ، فتملا بلادكم راحة ورفاهية وامنا ، وتكسو دياركم بهجة ورونقا وفخرا » .

تلك « الوطنية » التي نشرتها « نغير سوريا » البيروتية في الثاني والعشرين من شباط سنة ١٨٦١ تختصر السمات الاساسية لهذه المرحلة على عدة مستويات : محاربة الداء

الطائفي دون العمل على محاربة الذين ينفخون بناره ، اي الارساليات والقنصليات الاجنبية ، الدعوة الى « التغريب » حيث « الاداب والفنون والصنائع ٠٠٠ تنتظركم فاقبلوا عليها بالفرح والحبور » ، العمل على استنهاض كافة الصفات الرومانسية القروية دفاعا عن المتصرفية او النظام الجديد ذي الوجه الطائفي الواضح بثنايئة مارونية - درزية ، وهيمنة مارونية . فالترقي اذا سيكون بالتوجه شطر الغرب ، ولا سبيل الى ذلك الترقسي دون المرور في القناة الثقافية لذلك الغرب اي مدارس الارساليات . ذلك كان الحلم الذي راود سكان المتصرفية ، خاصة المسيحيين منهم . وكان فقراء المسيحيين يجهدون النفس لتعليم احد ابنائهم ، اذ لم يكن بمقدورهم تعليم جميع ابنائهم فيها نظرا لحاجتهم المادية الى عمل ابنائهم كي يستمروا على قيد الحياة .

هذا الواقع بالذات يرسم جوانب اساسية من الاطار التاريخي لولادة فيليب حتي ونشأته الاولى ويدخوله في مدرسة « السنديانة » في القرية ثم في مدرسة الاميركيين في سوق الغرب حيث يبدأ بالترقي عبر قنوات التغريب ليصبح واحدا من اكثر المؤرخين العرب شهرة عالمية خاصة في ديار الاغتراب الاميركي ، وتفتتح له خزائن المخطوطات العربية فيبوب قسما هاما منها على رفوف مكتبة جامعة برنستون الاميركية التي اقتنت ، بفضل حتي بشكل خاص ، اضخم مكتبة اسلامية وعربية خارج الديار الاسلامية والعربية ، كما جاء في الكراس الذي تكلم عن حياة فيليب حتي .

يبدو هذا الوضع لافتا للنظر في الوهلة الاولى . اذ كيف تسنى لفيليب حتي امتلاك ذلك النفوذ عند الاميركيين بحيث يعتبر ركيزة صلبة للتاريخ بين مرحلتين من مراحل الدراسات الاسلامية والعربية في الولايات المتحدة الاميركية . فقبل فيليب حتي كانت هذه الدراسات شبه معدومة ، ان لم نقل معدومة تماما ، وبعده مئات المتخصصين الاميركيين وغيرهم الاميركيين فيها . وقد تتلمذ على ايديه مئات الطلبة العرب على كافة مراحل التخصص العالي . وساهم شخصيا في حوالي ثلاثماية كتاب وبحث في دوائر المعارف العالمية ، ومقالة ، وتعليقات حول كتب تاريخية وادبية هامة تناولت مبحثا في الاسلام او تاريخ العرب .

ان الطريق التي سلكها حتي الى الشهرة مرت عبر الارسالية الاميركية في سوق الغرب الى الجامعة الاميركية في بيروت ، الى مؤتمرات الطلبة المسيحيين في العالم ، الى جامعة كولومبيا ، وكلها تؤكد على الثقافة المسيحية التي اثرت دون شك في تكوينه الفكري وكتابات اللاحقة . وقد عمل طويلا في حقل الاهتمام بالطلبة اللبنانيين والسوريين والعرب عموما ثم الطلبة الاجانب في الولايات المتحدة الاميركية . وكان عمله ذاك يدافع من حاجته المادية لكسب لقمة العيش والاستمرار في تحصيل الدراسة الاكاديمية . فكانت له عدة دراسات اعتبرت دليلا يتناول وضع الطلبة الاجانب في الولايات المتحدة ، ومنهمم الطلبة العرب .

لكن هذه المرحلة انتهت مع اكمال دراسته الجامعية ونيله الدكتوراه من جامعة كولومبيا ، اذ عاد للتدريس في الجامعة الاميركية في بيروت وكتب عدة ابحاث في المجالات العربية ، خاصة المصرية واللبنانية منها .

وكان عام ١٩٢٦ عاما مميزا في حياته حيث دخل جامعة برنستون برتبة استاذ معيد ولم يلبث ان اصبح فيها استادا مساعدا في الدراسات السامية عام ١٩٢٩ . ومنح لقب بروفيسور ورئيسا لقسم اللغات والاداب الشرقية منذ عام ١٩٤١ حتى تقاعده عام ١٩٥٤ .

ويعتبر حتى عام ١٩٢٥ نقطة تحول أساسية في الدراسات الإسلامية والعربية داخل الولايات المتحدة الأميركية ، وتحديدًا في جامعة برنستون . فقد عرض حتى على زملائه مشروعًا يقضي بجمع المخطوطات العربية والإسلامية وتعزيز هذا القسم في الجامعة . وكان رأيهم أن المشروع لن يستدر « ورقة طوايح بقيمة قرشين من الإدارة الأميركية » ، استنادًا إلى تعبير كتاب التكريم . وكانت دهشة حتى كبيرة جدًا لكنها أقل من دهشة زملائه الآخرين إذ وافقت إدارة الجامعة على رصد كامل المبلغ المطلوب ذلك العام وهو ٢٥٠٠ دولار كتمويل أول للمشروع . ويبدو أن سبب الدهشة ناتج عن قناعة مغلوبة لدى هؤلاء الأساتذة مردها إلى الاهتمام المضعف الذي توليه الولايات المتحدة الأميركية للشرق الأوسط والعالم الإسلامي ، وهي القناعة التي رسختها تقارير لجنة كينغ - كراين لعام ١٩١٩ وعجز الأميركيين عن زحزحة النفوذ الأنكلو - فرنسي في المنطقة . يبدو أن ظروف ١٩٢٥ أي قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بقليل كانت تحصل معها تغييرات جذرية في التقرير السياسي والمخططات والمواقف . فكل الدلائل تشير إلى عجز الفرنسيين والإنكليز عن الاستمرار في السيطرة على الشرق العربي وبالتالي فإن انهيار نفوذهما سيكون قريبًا وأن خطر سقوط هذه المنطقة بيد السوفييات سيكون كبيرًا إذا لم تسارع الولايات المتحدة الأميركية لتلعب دور البديل السياسي للانتداب السائر نحو التفكك والزوال .

هذا الإطار التاريخي يلقي أضواء كاشفة على الكرم الحاتمي الذي منحت له الإدارة الأميركية للبروفسور حتى وبرامج التدريب الصيفية التي أعدها في جامعة برنستون تحت رعاية « الجمعية الأميركية لدراسة المجتمعات » . وكان عدد الطلاب يتزايد بشكل هائل ، ومن بينهم أسماء كل السفراء والملحقين السياسيين والثقافيين والعسكريين وغيرهم . وإدارة الجيش الأميركية تطبع خمسين ألف نسخة من كتاب فيليب حتى « مختصر تاريخ العرب » . وتتكاثر الجمعيات الأميركية المهتمة بشؤون الشرق الأدنى بشكل ملحوظ . فمن « أصدقاء الشرق الأدنى في أميركا » إلى « قسم تدريس العربية والتركية للعسكريين - الأميركيين المتخصصين » إلى « قسم اللغات والآداب الشرقية » الذي تحول إلى « قسم الدراسات الشرقية » إلى « برنامج دراسات الشرق الأدنى » إلى العديد من الأقسام التي تناولت اللغات والمجتمعات التركية والفارسية والصينية الهندية وغيرها .

وهذا الواقع الموضوعي يشير بوضوح إلى حاجة الأميركيين الملحة إلى هذه الدراسات نظراً للدور السياسي والعسكري الاستعماري الموكول اليهم تاريخياً بعد الضعف الشديد الذي أنتاب الفرنسيين والإنكليز واليابان والإيطاليين أي استعماريو المرحلة السابقة والأحققة على الحرب العالمية الأولى حتى الحرب العالمية الثانية . لكن هزيمة هؤلاء جميعاً في هذه الحرب الأخيرة وثبات وتمزز مواقع الاتحاد السوفيياتي وقيام المنظومة الاشتراكية جعلت الولايات المتحدة الأميركية تتبوأ دور قطب الصراع الأساسي في الصدام مع كافة حركة التحرر الوطني في العالم وتصبح الدركي العالمي للمع دون منازع .

فالظروف الموضوعية لتلك المخططات كانت تفرض التفتيش عن باحثين متخصصين في شؤون الشرق الأدنى والعالم الإسلامي عامة . فكان حتى واحداً من هؤلاء ، لا بل أكثرهم شهرة علمية . فأغدقوا عليه كل التعمير وحفلات التكريم والمواطنة الأميركية والمناصب الأكاديمية تماماً كما فعلوا مع الكثيرين غيره من أميركيين وغير أميركيين . ويمكن التأكيد على فقدان العلاقة المباشرة بين الباحث العلمي والمخططات الاستعمارية . لكن من الخطأ القول أن المؤسسات العلمية الأميركية لم تكن على علاقة وثيقة بتلك المخططات

لان دراسات الباحثين تشكل حجر الزاوية في تكوين الاستراتيجية التي تعتمد عليها تسلك الدول - ولنا في دراسات الرحالة الفرنسيين والانكليز ، منذ القرن السادس عشر ، الى المشرق العربي ، خير نموذج على صحة ما نقول .

فانبروفسور حتي استحق هذه المنزلة العلمية المميزة بفضل جهوده وابحائه العديدة . وهذه الابحاث كتبت اساسا باللغة الانكليزية ، ونشرت في الاوساط الاميركية بشكل خاص ، ومهدت الطريق لتأسيس العديد من المؤسسات السياسية ذات الوجه الثقافي لتدريب السفراء والملحقين الاميركيين في الخارج . اي أن الظروف الموضوعية التي دفعت السياسة الاميركية للاهتمام المتزايد بشؤون الشرق الادنى والعالم الاسلامي افسحت المجال امام البروفسور حتي كي ينال هذه الشهرة العالمية الفائقة . وكانت ابحاثه ، وسعة اطلاعه وعمق تحليلاته ، ووفرة طلابه ومعارفه تلعب الدور الاساسي في ترسيخ تلك الشهرة وديمومتها زمنا طويلا حتى ارتبطت باسمه مؤسسات ثقافية اميركية هامة لدراسة الشرق الادنى والعالمين العربي والاسلامي . وما يؤكد وجهة تحليلنا هذه ان مركز الدراسات الشرقية التابع لجامعة برنستون الذي أسسه ورعاه فيليب حتي فترة طويلة من الزمن وجعله واحدا من اهم المراكز لدراسة التاريخ العربي والاسلامي في الغرب، تعرض لهجمات المنظمات الصهيونية الاميركية التي استطاعت اخيرا السيطرة عليه بعد تقاعد فيليب حتي عام ١٩٥٤ . مما يثبت جدلية النفع المتبادل بين مراكز الابحاث العلمية ومراكز القوى السياسية التي تسيطر عليها .

النشأة الاولى : فيليب حتي بقلمه

في العشرين من تشرين الثاني ١٩٥٤ ، اقام نادي الخريجين في جامعة برنستون حفلة كبيرة على شرف البروفسور فيليب حتي لمناسبة تقاعده من رئاسة قسم الدراسات العربية والاسلامية في جامعة برنستون . وقد اقيمت الحفلة في « تاون هول » في نيويورك سيتي وكان بين المتحدثين الدكتور شارل مالك الذي ركز على جوانب اربعة في حياة حتي : نشاطه الطلابي ، مرحلة التعليم الاكاديمي في الجامعة الاميركية في بيروت ثم في برنستون ، الدراسات العربية والاسلامية الخاصة بالشرق الادنى ، اهتمامه المميز بالقضايا اللبنانية . ان رحلة فيليب حتي الزمنية هي رحلة الولد الفقير في قرية لبنانية صغيرة وصولا الى رئاسة واحد من أبرز المنابر الاكاديمية العالمية ، وفي اوج مجده الثقافي وشهرته العالمية لم ينس فيليب حتي شيئا من ذكريات طفولته القاسية بل فاخر بها في حفلة تكريمه بالذات ، مشيدا بالدور البطولي لابييه وأمه وشقيقه الذين كدسوا طويلا في سبيل تنشئته . كما لم ينس صراعه المزير مع الفقر ولقمة العيش داخل الولايات المتحدة الاميركية بل فاخر بها في حفلة تكريمه ايضا . فقد عمل حارسا ليليا وموظفا في دائرة التسجيل يوم كان على ابواب التخرج الجامعي برتبة دكتور في الدراسات الاسلامية . كما لم ينس فيليب حتي موطنه لبنان وقضاياها العربية ، خاصة القضية الفلسطينية ، بل دافع عنها بنشاط في أكبر المحافل الدولية وداخل الولايات المتحدة الاميركية نفسها حيث تتمتع المنظمات الصهيونية بقدرة هائلة على التصفية الجسدية والحرمان من المناصب . لكن فيليب حتي لم يبالي بل اندفع يرد على دعاوى الصهيونية بحقها في اقامة وطن قومي في فلسطين . وكان دفاعه صلبا مما يقتضي بالضرورة افراد بحث ، لا بل ابحاث خاصة لابراز هذا الجانب الهام من نشاط فيليب حتي التاريخي والسياسي . في حفل التكريم تكلم فيليب حتي مطولا عن جوانب حياته الجديدة نحاول ان نقدم عرضا مكثفا لهذه الكلمة النابغة من

القلب . يقول حتي : « ان من بين الذين ادين لهم في نجاصي بشكل خاص هما ابي وامي ، هذان القرويان اللينانيان الساذجان والعفويان . واشير هنا الى ابي ، تلك المرأة التي لا تحسن القراءة والكتابة ولا الكلام بلغة اجنبية ، لكنها تتكلم لغة بسيطة يفهمها كل الناس . كانت تكلمنا لغة الحب . هذه الام القديسة التي تتمنى الخير للجميع ولا تطلب السوء حتى لاعداؤها ، كانت تقوم بتدبير اعمالها البيئية من الفجر حتى وقت متأخر من الليل لتعيل ستة صبية وابنتين ، وتوفر من راتب زوجها الضئيل ما تدفع به قسما دراسيا لابنها الذي يتعلم في المدرسة الاميركية المجاورة في سوق الغرب . تلك المرأة الفقيرة والاب الضئيل الراتب كانا يجهدان نفسيهما لدرجة الاختناق كي يرسلوا ولدهما الى مدرسة لم يدخلها احد من ابناء القرية (شمالان) حتى ذلك الحين . وكان الاخ الاكبر من الصبية الستة يعمل مساعد نجار ، يحمل عدته على كتفيه متنقلا من قرية الى قرية كي يساهم ايضا في تعليم اخيه . كان ذلك الاخ يحمل عدته ويضيف اليها عدة معلمه من القرية المجاورة ويتنقل بحمله اليومي الثقيل بين قرى عالية ويحمدون وصوفر على قدميه ليبنسي أو يرمم سطوح القرميد لمنازل البيروتيين الاثرياء . فكان هؤلاء يتنعمون في فراشهم الوثير حينما يعود اخي في المساء الى البيت كي ينام على لوح خشبي جعل منه فراشا املس . تلك الذكريات لا زالت تعصف برأسي حتى اليوم . واذكر هنا حادثة كان لها تأثير كبير على مجرى حياتي كلها . ففي ذات يوم كسر ذراعي كسرا مزدوجا استعصت معالجته على « الجبرين » في شمالان والقرى المجاورة لها .

وبدا مرض « الفرغرينا » يدب في ذراعي واتحمل منه الالام المبرحة وانا الولد الطري العود . واذا بشاب جامعي من مدرسة الطب التابعة للجامعة الاميركية يعلم بالمقصصة ويزورني في المنزل ينصح بنقلي حالا الى الجامعة الاميركية حيث اجررت لي على الفور عمليتان جراحيتان ساعتا في انقاذ ذراعي وحياتي معا . فقد كان كسر ذراعي سببا في ادخالني الى المركز الاميركي للتعليم . وكانت بنيتي الجسدية الضعيفة تؤكد لدي الجميع ، خاصة اهلي ، ان لا بد من مهنة اكسب بها عيشي وان هذه المهنة ستكون بالضرورة فكرية لا يدوية .

وذكريات المدرسة القروية الاولى ماثلة في ذهني لانها تختلف تماما عن اية مدرسة يمكن للغربي ان يتصورها بخياله . انها مدرسة لا جدران لها بل سقف من اغصان شجرة سنديان ذات وقار وشيخوخة لا تزال شاهدا حيا حتى الان . وكانت المقاعد حجرية . والهيئة التعليمية ليست سوى راهب متشع بالسواد ، ومخيف المنظر . كان يؤمن بقول لا ينفك يردده « انك تفسد الاولاد عندما تترك العصا جانبا » . وكان عالما بتحديد الوقت من خلال رصده الدائم لظلال اغصان السنديانة . وتنتهي الدراسة عندما يصبح بمقدور الطالب قراءة المزامير بالعربية او السريانية اذ لا يبقى له مكان في « المدرسة » ولا مواد اخرى يدرسها وكان ان دخلت مدرسة سوق الغرب الاميركية حيث تعلمت الانكليزية والفرنسية وفي ذات يوم من ايام الصيف دخلت مكتب مدير المدرسة الذي كان قد أرسلني للتدريب في قرية درزية مجاورة على أمل توفير خمس ليرات فرنسية تساعد اهلي على ادخالني الى الجامعة الاميركية في بيروت . حينئذ كان القسط المدرسي كله لا يزيد على ثمانية عشر ليرة فرنسية تشمل الماكل والنماة والتدريس .

استقبلني المدير مرحبا بالمدرس الذي لا يتجاوز عمره الرابعة عشرة وراتبه الشهري ليرة فرنسية واحدة . وكانت لحظة تاريخية لا انساها مدى الحياة . فقد واجهت المدير بالحقيقة المرة : « لم استطع توفير أكثر من اربع ليرات فرنسية طيلة العام » . نظر الي

المدير ، السيد هاردين ، نظرة طويلة ودون ان يثبت ببنت شفة اخرج ليرة من جيبه
واضافها الى ليراتي الاربعة وربت على كتفي قائلا : رافقتك السلامة .

ومرت الاعوام وانا ادرس في الجامعة الاميركية في بيروت . وفي احد ايام اب المحرقة
اجتمعت بالرئيس بليس في مقره الصيفي في قريتنا ، شمالان الساحرة . فابلغني انني
رشحت من قبل الجامعة لالقاء محاضرة في مؤتمر الجمعية العالمية للطلاب المسيحيين في
صيف ١٩١٢ في ولاية نيويورك . وابلغني ايضا ان بامكاني متابعة دراستي الجامعية
العليا في احدى جامعات اميركا مشيرا الى ان الجامعة ستستمر بدفع راتبي الشهري ثلاث
ليرات تضاف اليها بعض النفقات وان الجمعية ستتكفل بنفقات السفر .

لم اصدق ما سمعته اذناي ، فهل اكون اول جامعي من الناطقين بالعربية يكمل دراسته
العليا في جامعات الولايات المتحدة الاميركية ؟ لكن الصعوبة التي واجهتني انني اساعد
اخوتي على تحصيل دراستهم الجامعية . ولحسن الحظ ان واحدا اكبر مني ، واثنين
اخرين دوني سنا قد اكملوا دراستهم . والاكبر مارس التدريس في المدرسة الاميركية في
سوق الغرب ، والاثنان الصغيران باتا الان طبيبا ومهندسا في بيروت .

.. ومضت رحلة الدراسة اشواط طويلة في جامعة كولومبيا . وكان علي ممارسة
العمل نظرا لضالة الراتب . فكنت اعمل حارسا لغرفة الجرائد اليومية في مكتبة الجامعة
وموظفا في دائرة التسجيل فيها . وفي ذات يوم تعرفت على صبية من وتريري في ولاية
كونكتيكت جاءت لتسجل في المدرسة الصيفية التابعة للجامعة . وكانت تلك الصبية برفقة
صديقة لي . وسرعان ما تعارفنا واصبحت شريكة حياتي والسند المتين لي خلال سنوات
الدراسة الصعبة في كولومبيا واما مارتر Alma Marter واخيرا في جامعة برنستون . ثم
مارست التدريس في برنستون بعد سنوات من التدريس في الجامعة الاميركية في بيروت .

وفي صيف ١٩٢٥ قررنا وضع برنامج لتدريس اللغة العربية والتعريف بالدراسات
الاسلامية . وكان احد الاساتذة يشك بقدرتنا على تحصيل طابع بريدي بقيمة قرشين يرصد
من اجل تنفيذ المشروع . لكن اول اجتماع برئيس الجامعة اثمر عن ٢٥٠٠ دولارا صرفت
باسم الجمعية الاميركية للتعريف بالمجتمعات . ونشطت الدراسات العربية والاسلامية في
الجامعات الاميركية وتكاثر عدد خريجيها وطلابها . واغتنت مكتباتها بمئات المخطوطات
والوثائق النادرة والدراسات العلمية .

فاليكم يا زملائي الخريجين ، اليكم يا ابناء العروبة المقيمين في اميركا او في الوطن
الام عبر البحار ، الى صحفنا العربية التي افسحت لي صدر صفحاتها لكتب وناقش وانا
مدين لها بكل ما قدمته من اجلي ، اليكم جميعا جزيل شكري وامتناني .

مكانته العلمية ونشاطاته الاكاديمية

بدأت شهرة فيليب حتي مع ترجمته الى الانكليزية وشروحه لكتاب « فتوح البلدان »
للبلاذري . ثم لكتاب « الاعتبار » لاسامة بن منقذ ، ودراسته عن « الدرور » . وهذه
الاعمال لا زالت تعتبر من الركائز الاساسية لدراسة هذه الموضوعات في الولايات المتحدة
الاميركية . لكن كتابه « تاريخ العرب » الذي صدر عام ١٩٢٧ وطبع عدة طبعات وترجم
الى اللغات الفرنسية والعربية والاردنية والاسبانية والهولندية وغيرها كان في اساس الشهرة
العالمية التي احتفظ بها حتي . كذلك كتاب « تاريخ سوريا ويشمل تاريخ لبنان وفلسطين »

الصادر عام ١٩٥١ . وبدأ حتى باعداد كتاب « الشرق الاوسط في التاريخ » . منذ تلك الفترة . ويعتبر اصدار حتى لكتاب « لبنان في التاريخ » عام ١٩٥٧ تحولا واضحا في المنصى العام الذي اختاره في البداية اي الكتابة الشمولية عن المشرق العربي بشكل خاص ، وتاريخ العرب بشكل عام ، بالاضافة الى العديد من الدراسات الاسلامية . ويعتبر الكتاب اضعف الحلقات في سلسلة حتى التاريخية . هذه المؤلفات الهامة ساعدت حتى على تبوء مكانة علمية مرموقة في الولايات المتحدة الاميركية وخارجها . فقد كان عضو اللجنة الثقافية لمعهد الشرق والغرب التابع للجمعية اللبنانية والسورية في الولايات الشرقية الاميركية . كما ترأس جمعية أبحاث الشرق الأدنى التابعة للجمعية الاميركية لدراسات المجتمعات الاخرى . وترأس أيضا المركز الاميركي لنشاطات الشرق الأدنى . وكان عضوا مؤسسا لجمعية الاميركيين اصداق الشرق الأدنى .

وكان حتى سكرتيرا لجمعية الاميركيين الجغرافيين ، وعضوا في مجمع اللغات في اميركا ، وعضوا في الجمعية التاريخية الاميركية ، وعضوا في الجمعية الشرقية الاميركية ثم رئيسا لها ، وعضوا في الجمعية الاميركية للدراسات الاكاديمية عن القرون الوسطى ، وعضوا مشاركا في جمعيات المدارس الاميركية المتخصصة بأبحاث الشرق الاوسط ، وعضوا في لجنة توزيع المنح لدراسة الشرق الاوسط ، وعضوا في مجلس أمناء الجامعة الاميركية في بيروت ، وفي مجلس أمناء الكلية الاميركية في سوق الغرب . يضاف الى ذلك ان فيليب حتى كان عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق ، وعضو جمعية الابحاث الاسلامية في بومباي ، وعضو شرف في الجمعية الثقافية الهندية - العربية في بومباي ، وعضو دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد . وقد ساهم حتى كذلك بالقاموس العالمي المشهور « ويبسترز » الجديد ، كما كان مشرفا على مجلة جامعة برنستون المتخصصة بشؤون الشرق الاوسط التي اصدرت ١٨ مجلدا حول الدراسات الاسلامية والعربية وغيرها . وكان مساعدا في الاشراف على دائرة المعارف البريطانية ، ودائرة المعارف المتخصصة بالعلوم الاجتماعية ، ودائرة المعارف الاميركية ، ودائرة المعارف المتخصصة بالعلوم الاجتماعية المجردة . كما كان مستشارا في مجلة « المختار » ومشرفا على اصدار « المجلة العربية » . وقد حاضر فيليب حتى في جامعة برنستون ، وجامعات سان باولو ، والجامعة الاميركية في بيروت والعديد من الجامعات الاخرى ، وحضر مؤتمرات تاريخية كثيرة .

وخلال سنوات ١٩٤٤ - ١٩٤٥ عمل مستشارا للوفد العراقي وغيره من الوفود العربية في سان فرانسيسكو . كما طلب للشهادة امام اللجنة الخارجية التابعة لمجلس النواب الاميركي حول القضية الفلسطينية وقدم أدلة قاطعة حول بطلان المزاعم الصهيونية في فلسطين . وخلال اقامته في برنستون استضاف حتى العديد من الملوك والرؤساء في الشرق الاوسط خاصة الملك سعود آل سعود ، والامير فيصل آل سعود ، والشاه رضا بهلوي ، والامير عبد الاله ولي عهد العراق ، والامبراطور هيل سيلاسي وغيرهم .

وقد نال وسام الاستحقاق اللبناني ووسام الارز من رتبة فارس ، ووسام الاستحقاق السوري من الدرجة الاولى « اعترافا من الحكومة السورية ومؤسساتها العلمية باسهامه العظيم في تطوير البحث العلمي حول دراسات التاريخ العربي عامة ، والسوري خاصة ، ونال كذلك مدالية الدكتور هيوارد بلس ، وهي أعلى مدالية تمنحها الجامعة الاميركية في بيروت . ومنحته الحكومة اللبنانية وسام الارز . وكان العربي الوحيد الذي تسجل اسمه في المعرض العالمي في نيويورك للاميركيين والاميركيين المولودين من أصل غير اميركي

« نظراً لدوره المميز في تطوير المجتمع الأميركي الديمقراطي » ، وقد نال حتى جوائز وأوسمة عديدة من مؤسسات ثقافية في مختلف أنحاء العالم .

بقي أن نقول أن مكانة حتي العلمية وجدت ركائزها في البحث العلمي الهادي والدراسات العديدة التي نشرها أو حققها . وكانت معرفته لعدة لغات ركيزة أساسية في اتساع أفق دراساته الرصينة . فقد كان يتقن الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية بالإضافة إلى العربية . وكان يتقن لغات قديمة أيضاً منها البابلية والآشورية والسريانية والعبرية . وقد استمر حتى آخر حياته في العطاء العلمي الجاد فكان آخر كتبه « المعارك الحاسمة في التاريخ العربي » ، صدر بالإنكليزية عام ١٩٧٥ عندما كان حتي يقارب التسعين من عمره .

بعض الملاحظات

يعتبر فيليب حتي واحداً من كبار مؤرخي هذه الحقبة التي تمتد على الربع الثاني من القرن العشرين . فقد نال شهرة عربية وعالمية مكنته من المساهمة الفكرية في العديد من دوائر المعارف العالمية وتخرج على يديه عدد كبير من المؤرخين العرب ومن شتى أرجاء العالم . لذا لا بد من التأكيد في هذا المجال أن محاولة تقليص ظل فيليب حتي الثقافي إلى حدود مرضى الوهم من الطائفتين اللبنانيين ستكون تشويهاً أكيدا لكامل تراثه الكبير . فالجانب اللبناني لم يشغل سوى مساحة ضيقة جداً من اهتمامات فيليب حتي قياساً إلى الحجم الضخم لدراساته العربية والإسلامية . وفي اعتقادنا أن « لبنانيات » البروفسور حتي هي الجانب الشديد الهزال في حجم تراثه التاريخي وهو الجانب الذي ارتكز إلى اسقاطات كثيرة حاولت عزل تاريخ لبنان عن محيطه العربي الواسع . ودراسات فيليب حتي الأخرى ، خاصة كتابه المترجم بعنوان « تاريخ العرب الطويل » ، وكتابه الآخر المترجم بعنوان « تاريخ سوريا ويشمل لبنان وفلسطين » يقدمان رداً مباشراً على تلك الاسقاطات ، وبقلم فيليب حتي بالذات . ولا يتسع المجال هنا لدراسة هذا الجانب اللبناني في تراث فيليب حتي التاريخي (ولنا عودة أكيدة إليه) بل نود انصاف البروفسور حتي وأخراجه من دائرة القوقعة اللبنانية التي فرضت على مؤلفاته ودراساته العربية والإسلامية . ولعل نظرة تحليلية لعناوين الدراسات التي قام بها حتي أو تلك التي قدم لها أو عرضها ونقدتها ، تشير بوضوح إلى سخف الدعوة الرامية إلى اظهار فيليب حتي « المؤرخ اللبناني » كبديل لفيليب حتي « المؤرخ العربي » والمباحث المتعمق في الدراسات الإسلامية .

فهذا الفيض من الدراسات العربية والإسلامية يؤكد بطلان مثل تلك الاسقاطات دون أن ينفي الجانب اللبناني لديه . لكن هذا الجانب ، إذا ما طغى على الجوانب الأخرى ، وإذا لم يوضع في إطاره التاريخي الذي كتب خلاله ، فإن شخصية حتي العربية يتضاءل ظلها كثيراً ويتقدم المؤرخ الكبير إلى إحدى شخصيات المر أو سعيد عقل أو بطرس زور وغيرهم .

أن تراث فيليب حتي التاريخي يضعه في عداد كبار المؤرخين العرب في النصف الأول من هذا القرن . وشخصية هذا المؤرخ شديدة الصلة بالواقع الموضوعي الذي عاشت فيه حيث طغت ثقافته الأميركية وتنشئته المسيحية وارتباطه الوثيق بالمراكز الثقافية الأميركية ذات النفوذ . فيقدر ما أفسح الأميركيون أمام حتي للظهور عالمياً ، بقدر ما استفادوا من كتاباته في إطار مشاريعهم السياسية في العالم العربي والشرق الأدنى وكانت له منزلة

خاصة بين الأميركيين المتحدرين من أصل غير أميركي ، كما كان عميسد الأميركيين المستعربين والمهتمين بالدراسات الاسلامية .

ويعتبر فيليب حتي احد الرواد الاوائل لجيل الاساتذة العرب الذين تعلموا في الجامعات الاميركية ثم عادوا للاستقرار في الولايات المتحدة والتدريس في جامعاتها ونالوا الجنسية الاميركية دون ان يفقدوا صلاتهم الوثيقة ببلدانهم وقضاياهم العربية . فقد ساهم حتي وغيره من هؤلاء الاساتذة في التعريف بالمشاكل العربية وطرح وجهة نظر علمية حولها في الجامعات والايوساط السياسية والثقافية والشعبية وكتبوا العديد من المقالات العلمية ، وعقدوا الندوات والمؤتمرات تعريفاً بالثقافة العربية واهتماماتها القديمة والحديثة والمعاصرة ، دون ان يغيب عن بالنا الحيز الضيق لنتائج هذه الاعمال بسبب النفوسود الصهيوني داخل الولايات المتحدة الاميركية .

كما ان دراسات فيليب حتي العربية ودفاعه الصلب عن القضية الفلسطينية في وجسه الاطماع الصهيونية اكسبته مكانة خاصة لدى الحكام والشعوب العربية خاصة وان ذلك الدفاع يأتي داخل الولايات المتحدة الاميركية نفسها حيث للصهيونية العالمية بالغ القوة والنفوذ . وقد كتب البروفسور حتي سلسلة من المقالات رداً على زميله في جامعة برنستون العلامة المشهور انشتاين الذي اتبرى للدفاع عن حق الصهاينة في فلسطين . وفند حتي حجج انشتاين واحدة واحدة مختتماً مقالاته بالقول : « ان انشتاين يعرف عن القضية الفلسطينية بقدر ما اعرف انا عن علم الذرة » . لذا لا بد من جمع مقالات حتي وتبويبها ودراستها في كافة جوانبها خاصة الفلسطينية منها .

ونشير هنا الى شهادة صادقة قالها الدكتور قسطنطين زريق في ذكرى استاذة فيليب حتي (جريدة « النهار » بتاريخ ١٢/٢٩/١٩٧٨) : « لقد تميز حتي بوضوح التفكير وسلامة التعبير ، فكانت له المحاضرات والخطب في المحافل الدولية العلمية والادبية ، انصب اكثرها على مآثر الحضارة العربية حتى قيل فيه انه اكثر من اي شخص آخر استطاع ان يعرف الأميركيين بعمق الاثر العربي في اوربا ... »

وقبل ان يبدأ الاعلام العربي في اميركا ، كان الدكتور حتي في الثلاثينات والاربعينات في مقدمة المدافعين عن القضايا العربية ، وعن الحق العربي في فلسطين . وكثيراً ما صارع الاساتذة الصهيونيين وتفض دعوواتهم بالحجج التاريخية ، وتحمل من اذاهم ما لا يعرفه الا المقربون اليه . وصوب الصهيونيون هجماتهم على المركز الذي انشأه في برنستون للدراسات العربية . ولكنهم لم يستطيعوا ان ينالوا منه ماخذاً خلال ولايته ، ثم نجحوا - مع الاسف - في التسرب اليه بعد ان تخلى عنه .

وحتى آخر لقاء صحافي معه (راجع ملحق النهار العربي والدولي الصادر في ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٩ - ص ٦٢) . كان الهم الفلسطيني يرافق فيليب حتي طيلة ايام حياته . فهناك قناعة راسخة لدى هذا المؤرخ ان اسرائيل زائلة حتماً و « ان هؤلاء الصهاينة ستبتلعهم الصحراء » تبعا لعبارة شارل ديغول . واذا كانت الظروف الموضوعية قد حالت الان امام دراستنا لهذا الجانب الهام من شخصية حتي ، ان لم نستطع بعد جمع الدراسات الفلسطينية التي كتبها فاننا نحسد موقفا قوميا عربيا صلبا لفيليب حتي دفاعا عن قضية فلسطين وحق شعبها في العودة وتقرير المصير . يدلنا على ذلك رفضه وتقنيده للمزاعم الصهيونية بحقهم في فلسطين وذلك داخل الولايات المتحدة الاميركية نفسها . وفي اللقاء الصحافي الاخير معه لا ينسى حتي ان يكرر هذه العبارة « اسرائيل كدولة

الصلبيين « معللا التشبيه بالقول : « تذكرني اسرائيل بفترة الصليبيين الذين اسسوا مملكتهم في القدس عام ١٠٩٩ والذين سيطروا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط حتى عام ١١٨٨ عندما وحد صلاح الدين مصر وسوريا وتغلب عليهم في معركة حطين . مملكة القدس آنذاك تذكرني باسرائيل اليوم » . تلك هي عبرة التاريخ التي يراها حتي ماثلة امام عينيه . فعاجلا ام اجلا ستزول اسرائيل تحت ضربات حركة التحرر الوطنية العربية وقواها الاكثر جذرية .

نخلص من كل ذلك الى وجود جوانب عديدة بحاجة الى الدراسة والتحليل في كتابات حتي التاريخية . ولعل هذا التثيت الملحق بالبحث يوضح اهم الدراسات والمقالات العلمية التي كتبها في مجالات متنوعة حتى يتم جمعها ودراستها بعمق وشمولية . لكننا نشير الى ان هذا التثيت لا يطال سوى المرحلة الزمنية التي تنتهي بتقاعد فيليب حتي من رئاسة قسم « دراسات الشرق الادنى » في جامعة برنستون عام ١٩٥٤ ، وهي بحاجة الى استكمال حتى وفاته عام ١٩٧٨ .

فيليب حتي في سطور

- ولد في ٢٤ حزيران ١٨٨٦ في قرية شملان ، قرب سوق الغرب ، التابعة آنذاك لتصرفية جبل لبنان او لبثان الصغير .
- والده اسكندر حتي ووالدته سعدى نوفل .
- درس علومه الابتدائية في مدرسة « تحت السنديانة » في قريته شملان على يد المعلم جرجس صغير .
- اكمل دراسته الثانوية في مدرسة سوق الغرب التي كانت تسمى « المدرسة الاميركية العالية في سوق الغرب » حيث امضى فيها ثلاث سنوات ١٩٠٢ - ١٩٠٦ .
- نال شهادة بكالوريوس في الآداب A. B. بمرتبة الشرف الاولى من الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٠٨ ودرس التاريخ فيها حتى عام ١٩١٣ .
- ارسلته الجامعة الاميركية في بيروت كمندوب عنها الى مؤتمر « جمعية الطلبة المسيحيين في العالم » الذي عقد في اسطنبول عام ١٩١٠ .
- عام ١٩١٣ ذهب الى الولايات المتحدة الاميركية مندوبا عن الجامعة الاميركية فسي مؤتمر الجمعية نفسها التي عقدت مهرجاناتها الثامن في موهوك في نيويورك .
- بدأ دراسته الاكاديمية في جامعة كولومبيا بدعم من الجامعة الاميركية في بيروت وجمعية الطلبة المسيحيين في العالم بالاضافة الى عمله كحارس ليلي لغرفة الجرائد في الجامعة وموظف في دائرة التسجيل فيها .
- تخرج من جامعة كولومبيا بدرجة دكتور في الفلسفة عام ١٩١٦ بعد ان ترجم القسم الاول من كتاب « فتوح البلدان » للبلاذري ، وضبط حواشيه وعلق عليه .
- بقي في جامعة كولومبيا برتبة محاضر في قسم اللغات الشرقية حتى عام ١٩٢٠ حيث نال الجنسية الاميركية في السنة ذاتها .

- في عام ١٩١٦ ترأس الجمعية التربوية السورية كما ترأس نادي مدينة نيويورك للتنسيق بين المعاهد .
- في ٢٢ ايار ١٩١٨ تزوج من ماري جورج من مدينة وتربري في ولاية كونكتيكت ورزق منها ابنة وحيدة هي فيولا .
- في عام ١٩٢٠ عاد الى الجامعة الاميريكية في بيروت حيث درس التاريخ الشرقي .
- بين اعوام ١٩٢١ - ١٩٢٤ كان عضوا في مجلس ادارة المدرسة الوطنية في بيروت وعضوا في الجمعية الادارية لشؤون الشرق الادنى خاصة سوريا ولبنان .
- في عام ١٩٢٦ حصل على دعوة ليحاضر في جامعة برنستون ولم يلبث ان اصبح استاذا مساعدا فيها عام ١٩٢٩ متخصصا بالدراسات السامية .
- في عام ١٩٣٥ حتى ١٩٣٨ ثم ١٩٤١ اشرف على دورات تدريب باللغة العربية واللغة التركية حول شؤون الشرق الادنى .
- في عام ١٩٤١ اصبح رئيسا لقسم اللغات والاداب الشرقية الذي تحول الى قسم الدراسات الشرقية في جامعة برنستون . واستمر في رئاسة هذا القسم حتى تقاعده عام ١٩٥٤ .
- حاضر في العديد من الجامعات العالمية وشارك في كثير من المؤتمرات التاريخية .
- توفي في ٢٤ كانون الاول ١٩٧٨ في الولايات المتحدة الاميريكية .
- اهم الكتب والدراسات التي نشرها تبعا لتسلسلها التاريخي .
- ١ - الكتب والتحقيقات
- « انطانيوس البشعلاني اول مهاجر سوري الى العالم الجديد » ، نيويورك ، المطبعة السورية الاميريكية ١٩١٦ .
- « جذور الدولة الاسلامية » . ترجمة كتاب فتوح اليلدان للبلاذري ، نيويورك - منشورات جامعة كولومبيا ، ١٩١٦ .
- « التهذيب العصري » ، بوسطن ، المطبعة السورية ، ١٩١٦ .
- « الدليل التربوي للطلبة السوريين في الولايات المتحدة الاميريكية » ، نيويورك ، المطبعة السورية - الاميريكية ، ١٩٢١ .
- « دليل الطلبة الاجانب في الولايات المتحدة الاميريكية » ، نيويورك ، المعهد الدولي للتربية ، ١٩٢١ .
- « السوريون في الولايات المتحدة الاميريكية » القاهرة ، مطبعة المقطف ، ١٩٢٢ .
- « اميركا في نظر شرقي او ثماني سنوات في الولايات المتحدة الاميريكية » القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٤ .
- تحقيق ونشر كتاب « مختصر كتاب الفرق بين الفرق » لابي منصور البغدادي تبعا لمخطوطة عبد الرزاق ابن حلف الرسيغي ، الهلال ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

- « السوريون في اميركا » نيويورك ، مطبعة دوران ، ١٩٢٤ .
- « سوريا والسوريون من نافذة القاريخ » نيويورك ، المطبعة السورية - الاميركية ، ١٩٢٦ .
- تحقيق ونشر كتاب « نظم العقيان في اعيان الاعيان » . لجلال الدين السيوطي - نيويورك ، المطبعة السورية - الاميركية ، ١٩٢٧ .
- « اصول الدروز وعقيدتهم الدينية ، مع مقتطفات من كتاباتهم المقدسة » نيويورك ، منشورات جامعة كولومبيا ، ١٩٢٨ .
- « قائد ومحارب سوري زمن الصليبيين : مذكرات اسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار » - نيويورك ، منشورات جامعة كولومبيا ١٩٢٩ .
- تحقيق ونشر « كتاب الاعتبار » لاسامة بن منقذ ، برنستون ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٣٠ .
- « قاريخ العرب » لندن ، مطبعة ماكميلان ، ١٩٢٨ .
- « تبويب ووصف لمجموعة غاريت Garrett عن المخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنستون » . بالاشتراك مع نبيه امين فارس وبطرس عبد الملك ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٢٨ .
- « تبويب ووصف لمجموعة غاريت عن المخطوطات الفارسية والتركية » - بالاشتراك مع محمد موغانم ويحيى ارمجاني ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٢٨ .
- « مختصر قاريخ العرب » قام بالاختصار المكثف بيرون داكستر ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٤٣ .
- « قاريخ الشعب الاميركي » لفرحات زيادة وابراهيم فريجي - باشراف فيليب حتي ، برنستون ، ١٩٤٦ .
- « مؤتمر التحضير للدروس العربية لتدريب الفرق العسكرية الاميركية المتخصصة » ، برنامج عامي ١٩٤٣ - ١٩٤٤ - برنستون ، ١٩٤٨ ، باشراف فيليب حتي .
- « قاريخ سوريا ويشمل قاريخ لبنان وفلسطين » لندن ، ماكميلان ، ١٩٥١ .
- « لبنان في القاريخ منذ القرون الاولى حتى اليوم » لندن ، ماكميلان ، ١٩٥٧ . ترجم الى العربية ثم اعيدت طباعته بعنوان « قاريخ لبنان منذ اقدم العصور حتى اليوم » ، دار الثقافة - بيروت ، ١٩٧٢ .
- « مختصر قاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » لندن ، ماكميلان ، ١٩٥٩ .
- وبعد تقاعده صدرت له عدة مؤلفات ابرزها « الشرق الادنى في القاريخ » و « الاسلام والغرب » و « الاسلام منهج حياة » و « صانعو القاريخ العربي » وكلها نقلت الى اللغة العربية . وفي اواخر ايام حياته كان لا يزال منكباً على تأليف كتاب حول « النساء العربيات المشهورات » . فكان حتي واحداً من اكثر المؤرخين العرب المعاصرين نشاطاً في مجال البحث التاريخي .

ب - المقالات والابحاث

- « حياة صلاح الدين استنادا الى تاريخ ابي الفداء » بيروت ، مجلة الكلية ، ١٩١٠ .
- « سمات الطلاب السوريين » لندن ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لجمعية الطلبة المسيحيين ، ١٩١١ .
- « مؤتمر جمعية الطلبة المسيحيين في العالم » بيروت ، مجلة الكلية ، ١٩١١ .
- « صديقة للسوريين - كتاب يتضمن تاريخ حياة فقيده العلم والادب والمروءة الانسة ايفي ستوارت هاردين » بيروت ، مطبعة صبرا ، ١٩١١ .
- « لصداقة ميرتل » ملحة الكلية ، ١٩١٢ .
- « الامة للدستورية » بيروت ، مدرسة التهذيب ، ١٩١٣ .
- « استعمار السوريين بين العهدين » ، المقتطف ، ١٩١٧ .
- « مهاجرة السوريين واستعمارهم : العهد الفينيقي والعهد الحاضر » ، نيويورك ، ١٩١٩ ، المطبعة السورية - الاميركية .
- « الوضع التربوي في السلطنة العثمانية » ، مجلة الطالب العالمي ، ١٩١٨ .
- « المسألة السورية » ، مجلة عالم القضاء ، ١٩١٨ .
- « وضع سوريا » ، جريدة نيويورك تايمز ، شباط ، ١٩١٩ .
- « تجار جنوى السوريون في القرن الثاني عشر » ، في المجلة التجارية السورية الاميركية ، ١٩١٩ .
- « السوري كمهاجر وتاجر » ، المجلة التجارية السورية الاميركية ، ١٩٢٠ .
- « تحليل المهاجرة السورية الحديثة ومميزاتها » ، المجلة التجارية السورية الاميركية ، ١٩٢٠ .
- « بين نظامين » ، مجلة المعارف ، تشرين الثاني ١٩٢١ .
- « حاجة سوريا لشبابها » ، مجلة المرأة الجديدة ، تشرين الثاني وكانون الاول ١٩٢١ .
- « جمعية الشبان المسيحيين واعمالها في الولايات المتحدة » ، مجلة النشرة اليسوعية ، تشرين اول ١٩٢١ .
- « المرأة الاميركية والمرأة السورية » ، مجلة المورد الصافي ، نيسان ١٩٢١ .
- « مسؤوليتنا الجديدة » ، مجلة الكلية ، تشرين الثاني ، ١٩٢١ .
- « الطلبة الشرقيون في اميركا » ، مجلة الكلية ، ايار ، ١٩٢١ .
- « الصهيونية » ، مجلة الفتاة ، ١٩٢١ .
- « التهذيب العصري » ، مجلة الكلية ، كانون الاول ١٩٢١ .

- « البهائية في الولايات المتحدة » مجلة الكلية ، كانون الثاني ١٩٢٢ .
- « الحالة الاقتصادية والحضارية في سوريا » ، المجلة التاريخية السورية الاميركية -
أب وايلول ١٩٢٢ .
- « اللغات السامية المحكية في سوريا ولبنان » ، مجلة الكلية ، شباط واذار ونيسان
وايار ١٩٢٢ . ثم طبعت المقالات في كتيب صدر عن المطبعة الادبية في بيروت ١٩٢٢ .
- « آثار السريانية في اللغة العربية » ، مجلة الكلية ، حزيران ، ١٩٢٢ .
- « القديم والحديث في عالما الميكانيكي والادبي » ، المجلة التاريخية السورية
الاميركية ١٩٢٢ .
- « سهرة مع طاغور » - الكلية ، كانون الاول ١٩٢٢ .
- « اهداء للدكتور هيوارد بلس » ، منشورات جامعة نيويورك ١٩٢٢ .
- « العالم المدرسي الذي نعيش فيه » - مجلة الكلية ، تشرين الثاني ١٩٢٣ .
- « سفراء في الارض الموعودة » - مجلة الكلية ، كانون الاول ١٩٢٣ .
- « اسعد يعقوب الخياط » - مجلة الكلية ، اذار ونيسان ويار ١٩٢٣ .
- « هل وصل العرب الى اميركا : اشارة جامدة في الادريسي » ، مجلة الفجر ،
تشرين الاول ١٩٢٣ .
- « كلمة تاريخية حربية » مجلة المعارف ، كانون الثاني ١٩٢٣ .
- « حبيب رزق الله افندي - درس في احوال سوريا الاجتماعية » ، مجلة الكلية ،
نيسان ويار وحزيران ١٩٢٤ .
- « طلاب درسوا في سوريا » ، مجلة الطالب العالمي ، تموز ١٩٢٤ .
- « وظيفة رجل العلم في عصر الانتقال » ، الكلية ، تموز ١٩٢٤ .
- « التعرف الى مذهب التصوف » ، مجلة الكلية ، تشرين الثاني ١٩٢٤ .
- « اثر تذكاري لاحق لسليمان البستاني » ، مجلة الاخلاق ، حزيران ١٩٢٥ .
- « فنادق شركة ستيتلر الاميركية ونظامها البديع » ، مجلة العالم الجديد ، تموز ١٩٢٥ .
- « كيف اهل سوريا بعدهم طيبين » ، مجلة الاخلاق ، عدد خاص ١٩٢٥ .
- « ماذا استفاد الغرب من الشرق : الحروب الصليبية ؟ » ، مجلة العالم الجديد ،
تشرين الثاني ، كانون الاول ١٩٢٥ .
- « المجمع العلمي العربي في دمشق » ، العالم الجديد ، آب ١٩٢٥ .
- « مشاكلنا » ، مجلة السائح ، عدد خاص ١٩٢٥ .
- « تحضر السوريين واللبنانيين : الشعوب السامية » ، العالم الجديد ، ايلول وتشرين
اول ١٩٢٥ .

- « كلمات لتهدئة الخواطر » ، نشرة حركة الطلاب المتطوعين ، كانون الاول ١٩٢٥ .
- « الآثار القديمة على نهر الكلب » ، مجلة العالم السوري ، نيويورك ، ايلول ١٩٢٦ .
- « اقدم كتابية هجائية اكتشفت حديثا في جبيل » ، العالم الجديد ، حزيران ١٩٢٦ .
- « تبنى نهر الكلب بالآثار التاريخية » ، العالم الجديد ، تموز ١٩٢٦ .
- « تحديث الشعوب الناطقة باللغة العربية » ، العالم السوري ، تشرين الاول ١٩٢٦ .
- « المساهمة الفكرية للشعب السوري » ، العالم السوري ، كانون الاول ١٩٢٦ .
- « سوريا في اعلى قمم مجدها - العصر الاموي الزاهر » ، العالم الجديد ، شباط واذار ١٩٢٦ .
- « تحفة المشرق في مدينة الغرب - في القرون الوسطى » ، الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ، مطبعة المقتطف والمقطم ، القاهرة ١٩٢٦ .
- « المصادر العربية ودانتي » ، العالم السوري ، نيسان وايار ١٩٢٧ .
- « اكتشاف امبراطورية قديمة : الحثيون » ، العالم السوري ، شباط ١٩٢٧ .
- « قيادة سوريا للسياسة العربية » ، العالم السوري ، آب ١٩٢٧ .
- « قائد ومحارب سوري في زمن الصليبيين » ، العالم السوري ، ايلول وتشريين-اول ١٩٢٨ .
- « فصل من كتاب اسامة بن منقذ » ، العالم السوري ، ايار ١٩٢٩ .
- « مقام جبران في الادب العصري » ، مجلة المقتطف ، اذار ١٩٢٩ .
- « مكافأة الشهامة وقصص اخرى من كتاب اسامة بن منقذ » ، العالم السوري ، حزيران ١٩٢٩ .
- « مساهمة الريحاني في الفكر القومي العربي » ، العالم السوري ، نيسان ١٩٢٩ .
- « تاريخ التجارة السورية في المهاجر الاميركية » ، مجلة الكشف ، آب ١٩٢٩ .
- « ابر العلاء واسامة » ، مجلة المجمع العلمي العربي ، ايار ١٩٣٠ .
- « درس في حياة اسامة بن منقذ وكتاب الاعتبار » ، مجلة المجمع العلمي العربي ، ايلول وتشريين الاول ١٩٣٠ .
- « رد على انتقاد » ، مجلة المشرق ، شباط ١٩٣٠ .
- « كلمات عربية في اللغة الانكليزية » ، الفجر ، ١٩٣١ .
- « هل اللبنانيون عرب » ، العالم السوري ، شباط ١٩٣١ .
- « الفروسية العربية » دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية ١٩٣١ .
- « الفروسية عند العرب والمسلمين » ، العالم السوري ، ١٩٣١ .

- «الفروسية العربية» ، مجلة الكلية ، ايلول ١٩٣١ .
- « الادريسي » دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية ١٩٣١ .
- « الاستشراق في الولايات المتحدة » ، مجلة السميع ١٩٣٢ .
- « ماذا استفاد الغرب من الشرق ؟ » ، مجلة المعارف ، ١٩٣٢ .
- « تحضر السوريين واللبنانيين » ، مجلة المعارف ، كانون الثاني ، شباط ١٩٣٢ .
- « الفنادق كيف يجب ان تكون » ، المعارف ١٩٣٣ .
- « المسعودي » و « معاوية » ، دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية ١٩٣٣ .
- « السكر واصله » ، مجلة السميع ، ١٩٣٣ .
- « الدراسات الاسلامية والعربية في اميركا » ، مجلة المعاهد الجديدة للشرق الادنى .
- ١٩٣٤ .
- « الخطوط الكوفية » ، منشورات جامعة برنستون ، ١٩٣٤ .
- « من المعلوم » ، مجلة المعارف ، ١٩٣٤ .
- « الاداب والعلوم الشرقية » ، المنشورات الاسبوعية لرابطة الطلبة في برنستون ،
- حزيران ١٩٣٤ .
- « عالم الطب العربي » ، مجلة المقتطف ، شباط ١٩٣٥ .
- « التمايز بين السوريين واللبنانيين » ، المجلة الفينيقية ، آذار ١٩٣٥ .
- « لمحة تاريخية في الطب العربي » مدخل لترجمة الدكتور يوسف حثي « معضلة السرطان » عن كتاب وليام بايندرج ، منشورات المطبعة الاميركية ١٩٣٥ .
- « دراسات في الثقافة الشرقية » ، المنشورات الاسبوعية لرابطة الطلبة في برنستون ،
- نيسان ١٩٣٥ .
- « ياقوت الرومي الحموي » ، دائرة المعارف للعلوم الاجتماعية ١٩٣٥ .
- « الدروس العربية في الولايات المتحدة » ، المعارف ١٩٣٦ .
- « كلمة في نعوم فائق : ذكرى وتخليد » ، دمشق ١٩٣٦ .
- « قوم لبنان في التاريخ » الكتاب اللبناني ، نيويورك ١٩٣٦ .
- « نهر الكلب » ، مجلة لبنانو ، البرازيل ، ريو ديلبارو ، كانون الاول ١٩٧٣ .
- « شرعية انفصالنا عن سوريا » ، الاذاعة السورية ، تشرين الثاني ١٩٣٧ .
- « المجموعة الطبية التاريخية » ، التقرير السنوي للإدارة ، مكتبة جامعة ستانفورد
- ١٩٣٧ .
- « ادوار الهجرة الثلاثة » ، جريدة الهدى ، نيويورك ١٤ كانون الاول ١٩٣٩ .

- « لماذا الدراسات السامية ؟ » ، يوميات مواطن من برنستون ، نيسان ١٩٣٩ .
- « الدراسات العربية في أميركا » ، المجلة السورية - الكندية الوطنية ، آب ١٩٤٠ .
- « القلاع الصليبية » ، مجلة الاسبوع الاميركي ، ايار ١٩٤٠ .
- « الاستعراب في العالم الجديد » ، مجلة العصبية ، كانون الثاني وشباط ونيسان ١٩٤٠ .
- « الاستعراب في الولايات المتحدة » ، مجلة الهلال ، نيسان ١٩٤٠ .
- « الدراسات العربية والاسلامية في جامعة برنستون » ، مجلة العالم الاسلامي ، تموز ١٩٤١ .
- « مشاكلنا والخطوات المقترحة لها » ، مجلة اتحاد التحكيم ، حزيران ١٩٤١ .
- « الشرقي والغربي » ، مجلة السلام ، نيسان ١٩٤١ .
- « مساهمة العرب في العلوم » ، مجلة الشرق الادنى ، شباط ١٩٤٢ .
- « المخطوطات العربية والاسلامية » ، مكتبة جامعة برنستون ، حزيران ١٩٤٢ .
- « اول كتاب طبع باللغة العربية » ، مكتبة جامعة برنستون ، تشرين الثاني ١٩٤٢ .
- « اول دبلوماسي اميركي في سوريا ولبنان » ، مجلة اتحاد التحكيم ، كانون الاول ١٩٤٢ .
- « مستقبل الدراسات العربية والاسلامية » ، مجلة اتحاد التحكيم ، ايار ١٩٤٢ .
- « خطبة في حفلة الامير فيصل » ، جريدة الهدى ، نيويورك ٤ تشرين الثاني ١٩٤٣ .
- « امكانية الاتحاد بين الدول العربية » ، مجلة الدراسات التاريخية الاميركية ، تموز ١٩٤٣ .
- « الصهيونية » ، مجلة الاستقلال ، ايلول ١٩٤٣ .
- « صقلية العربية » ، مجلة المقتطف ، ١٩٤٣ .
- « اميركا والتراث العربي » ، مجلة التراث العربي ، منشورات جامعة برنستون ١٩٤٤ .
- « الاحلام العربية تتحقق » ، مجلة المركب السوري ١٩٤٤ .
- « وثائق تاريخية للدفاع عن حق العرب في فلسطين » ، دار الطباعة ، بيروت ١٩٤٤ .
- « الاتحاد العربي : هل هو ممكن ؟ » ، مجلة الهلال ، تموز وآب ١٩٤٤ .
- « الفلسطينيون العرب ما قبل ابراهيم » ، مجلة تحكيم برنستون ، نيسان ١٩٤٤ .
- « مقالة عن الوطن القومي اليهودي في فلسطين » ، قدمت للجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الاميركي ، ١٥ شباط ١٩٤٤ .
- « الفلسفة العربية - اللغة العربية - الادب العربي » ، دائرة المعارف الاميركية ، ١٩٤٥ .

- « الجزيرة العربية - باب المندب - حسا - نجد - عمان - يمن - عدن - حجاز - حديدة - جدة - كويت - مكة - المدينة - مسقط - قطر - رياض - صنعاء ٠٠ » ، دائرة المعارف البريطانية ١٩٤٥ .
- « مخطوطة ابي العلاء المعري في مكتبة جامعة برنستون » ، المهرجان الالفى لابي العلاء المعري ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٤٥ .
- « النهضة العربية » ، مجلة الهلال ، ايلول ١٩٤٥ .
- « قرطبة جوهرة العالم » ، مجلة الاستقلال ١٩٤٥ .
- « شهادة امام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الاميركي : اوراق عن فلسطين » ، شباط ١٩٤٤ ، منشورات المعهد العربي ، الاميركي ، نيويورك ١٩٤٥ .
- « الصراع في المشرق العربي » ، منشورات فرجينيا ، ١٩٤٦ .
- « الادعاءات الصهيونية والحقوق العربية في فلسطين » ، عالم الاعمال ، آذار ١٩٤٦ .
- « الوحدة العربية » ، الكتاب السنوي لدائرة المعارف البريطانية .
- « هل يتلاقى الغرب بالشرق ؟ » ، مجلة الكلية ١٩٤٧ .
- « فضل العرب على المدنية الغربية » ، مجلة العصبية ، نيسان ، ايار ١٩٤٧ .
- « الفنون الجميلة عند العرب » ، تشرين الثاني ، كانون الاول ١٩٤٧ .
- « الحقوق العربية والدعاوي الصهيونية » ، الفكر الحديث ، ١٩٤٧ .
- « الكتب العربية في مكاتب الولايات المتحدة ، خزائن الكتب العربية في الخانقين » ، منشورات فيليب طرازي ، مطبعة صيقلبي ، بيروت ١٩٤٧ .
- « الثقافة والمجتمع في المشرق الاوسط : العالم العربي والاسلامي ، دراسات ومشاكل » ، محاضرات جامعة برنستون ١٩٤٧ .
- « الفنون الجميلة : انطولوجيا الكتاب اللبنانيين باللغة الانكليزية » ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٨ .
- « لبنان ، الدليل الاخضر » المطبعة الدولية ، بيروت ١٩٤٨ .
- « اليوم العربي العظيم » ، مجلة العروة ، كانون الثاني ١٩٤٨ .
- « الاشعاع الروحاني » ، العصبية ، شباط ١٩٤٩ .
- « الاسلام ، محمد ، الطوائف الاسلامية » دائرة المعارف الاميركية ١٩٤٩ .
- « لبنان » ، جريدة الهدى ، ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٩ .
- « خلاصة الخطبة » ، جريدة بيروت ، ٥ تشرين الثاني ١٩٥٠ .
- « ما اتحف به متكلمو العربية المدنية الغربية ، ولا سيما الاسبانية والبرتغالية ،

- ونهبوض الدول العربية الحديثة ، اصل اسباني ثم ترجمة الى العربية ، المطبعة التجارية ، سان باولو ١٩٥١ .
- « دقيقة حاسمة في حياة فتى قروري لبناني » ، النشرة ، حزيران ١٩٥١ .
 - « التيارات الاسلامية الحديثة » ، مجلة الاسلام فيالعالم المعاصر . معهد دراسات الشرق الاوسط ، واشنطن ١٩٥١ .
 - « الحضارة العربية » ، مجلة الضاد ، تشرين الثاني ، كانون الاول ١٩٥١ .
 - « ماذا قال لي نابغة التاريخ ؟ » ، مجلة العصبية ، كتب المقال نجيب حنكش ، تموز ١٩٥١ .
 - « محاضرات » ، العصبية ، تموز ١٩٥١ .
 - « مستقبل الثقافة والمجتمع فيالشرق الادنى » ، منشورات جامعة برنستون ١٩٥١ .
 - « رسالتنا روحية » ، مطبعة الصفدي التجارية ، سان باولو ١٩٥١ .
 - « الخلافة العربية : نهوضها وسقوطها ، مقدمة لدراسة الشرق الاوسط » ، منشورات جامعة كورنيل ١٩٥٢ .
 - « فضل المدنية العربية على المدنية الغربية » ، مجلة الرسالة ، اعداد ٢ و ٩ و ١٦ حزيران ١٩٥٢ .
 - « تاريخ سوريا ولبنان الوسيط والحديث ، نماذج ومراجع مسن كتب ودورينات باللغات الغربية » ، المركز الاميركي لدراسة المجتمعات ١٩٥٢ .
 - « مقدمة تاريخ سوريا » مجلة الاجيال ، حزيران ١٩٥٢ .
 - « قصة الحضارة العربية » ، مجلة الحديث ، كانون الثاني ١٩٥٢ .
 - « العباسيون ، الخلافة العربية ، الدروز ، الفاطميون ، الامويون ، الساسانيون ، السلوقيون » ، دائرة المعارف الاميركية ١٩٥٣ .
 - « البيروني ، المسعودي ، ابن النديم ، ابن الاثير ، ابن بطوطة ، ابن جبير ، ابن خلدون ، ابن قتيبة » ، دائرة معارف « عالم الادب » ، ١٩٥٣ .
 - « الدراسات الاسلامية في الولايات المتحدة الاميركية : ندوة حول الثقافة الاسلامية في علاقتها بالعالم المعاصر » ، جامعة برنستون ١٩٥٣ .
 - « الاتجاه الحديث في الاسلام » ترجمها اسحق موسى الحسيني بعنوان « الاسلام في نظر الغرب » بيروت ١٩٥٣ .
 - « لتكن أراؤك من وحي ضميرك » سلسلة « علمتني الحياة » ، كتاب الهلال ١٩٥٣ .
 - « الموارنة » ، دائرة المعارف البريطانية ١٩٥٣ .
 - « مقابلة صحفية » صوت المرأة ١٩٥٣ .
 - « الجزيرة العربية ، لبنان ، الموارنة » ، دائرة المعارف الدينية ١٩٥٥ .

- « الدراسات العربية والاسلامية في الولايات المتحدة » ، مجلة الشرق الاوسط تشرين اول ١٩٥٥ .
- « الفاطميون ، الحاكم ، الحكيم ، الحريم » ، دائرة المعارف الاميركية ١٩٥٥ .
- « ازمة الغرب في سوريا ولبنان في القرن التاسع عشر » ، مجلة « عالم التاريخ » ، ايلول ١٩٥٥ .
- « خاتمة الكلام » ، « الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة » ، اصدار محمد خلف الله ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- « مساهمات الادب العربي في الفكر والثقافة الغربية » ، عالم الادب ، جامعة بتسبورج ١٩٥٦ .
- « العلاقات العربية الاميركية مع مراجع خاصة عن اسرائيل » ، مجلة كارافان ، كانون الثاني ١٩٥٦ .
- « حدثنا » ، مجلة الحكمة ، ايلول ١٩٥٦ .
- « حديث » جريدة التلغراف ، ١٢ ايلول ١٩٥٦ .
- « محطة تاريخية : الملكة الاردنية الهاشمية » ، منشورات نيو هافن ، ١٩٥٦ .
- « محطة تاريخية : الجمهورية السورية » ، منشورات نيو هافن ، ١٩٥٦ .
- « محطة تاريخية : الجمهورية اللبنانية » ، منشورات نيو هافن ، ١٩٥٦ .
- « المفاضلية ، الشافعي ، الزبير ابن العوام ، الحاكم الاول ، الحاكم الثاني ، السبثيون ، صلاح الدين ، السلاجقة ، الشيعة ، السنديباد ، الصوفية ، سليمان الاول ، السنة ، سوريا ، طرابلس ، صور ، ٢٠ » ، دائرة المعارف الاميركية ١٩٥٦ .
- « الشرق الادنى في الماضي والحاضر توتر في الشرق الادنى » معهد دراسات الشرق الادنى ١٩٥٦ .
- « تحفة الصحافة العربية » ، القلم الصريح ، آب ١٩٥٦ .
- « امير ، هارون الرشيد ، حمص ، حسين بن علي ، اندريس ، الادارسة ، اللاذقية » ، دائرة المعارف الاميركية ١٩٥٧ .

ج - مراجعة بعض الدراسات العلمية

وتجدر الملاحظة هنا الى ان الدكتور فيليب حتي قام بمراجعة وتقديم ونقد اكثر من مئة كتاب في مجالات مختلفة ابرزها كتب : « خطط الشام » لمحمد كرد علي . و « اصول الدولة الاسلامية » لمور فوتن . و « لبنان في الدوامه » لاسكندر ايكاريوس . و « سوريا » للاب لامنس . و « البيئات في الدين والاجتماع والادب والتاريخ » لعبد القادر المغربي . و « مساهمات العرب في التربية » لخليل طوطج . و « مجموع الالفاظ السريانية ٠٠٠ » ، « ليلاس بالاك » و « المعجم العصري في الانكليزي والعربي » لخليل سعد . و « تحليل

للالفاظ العربية السائدة في لبنان ، ميشال فغالي . و « ابراهيم باشا في سوريا » لسليمان ابو عز الدين . و « النجوم الزاهرة » لابن تغري بردي . و « مجموعة نصوص غير منشورة تتناول تاريخ التصوف في الاسلام » لمويس ماسينيون . و « مشكلة الجريمة في سوريا ولبنان وبلاد العلويين وفلسطين » لفؤاد عمون . و « ملوك العرب » لامين الريحاني . و « معجم البستان » لعبد الله البستاني . و « النقوش الملكية في سومر واكاد » لجورج يارتون . و « اكتشافات معابد بنو في نينوي » لطومسون . و « سوريا المعاصرة » لمايو سترامسي . و « علم الجبر عند الخيام » لداود كازير . و « احداث دمشق زمن الصليبيين » لهاملتون جب . و « هارون الرشيد وشارل الكبير » ليوكلر . و « ابن رشد في كتاب تهافت التهافت » لموريس بويغس ، و « الاسكندر الكبير » لاندلسون . و « الافكار الاقتصادية عند ابن خلدون » لصبحي محمصاني . و « كتاب الاكليس » للمهداني . و « تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية » لطوبيا العتيسي . و « تلخيص كتاب المقالات لابن رشد » . و « امراء الشعر في العصر العباسي » لانيس الخوري المقدسي . و « ابو نواس في الحياة والاسطورة » لانغرامس . و « بدائع الزهور في وقائع الدهور » لابن اياس . و « كتاب فرق الشيعة » للنونجتي . و « كتاب الوافي بالوفيات » لابن ابيسك الصفدي . و « النصف الاول من كتاب الزهرة » لابي سليمان الاصفهاني . و « الرحلة الدانتية في الممالك الالهية » لعبود ابر راشد . و « امراء غسان من الجنة » لتيودور نولديك . و « ابن عبد ربه وعقده » لجبرائيل جبور . و « تاريخ الصحافة العربية » لفيليب طرازي . و « جيولوجية لبنان وسوريا وفلسطين » لالفرد داي . و « المجالس البلدية في لبنان » لريختر . و « الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا » لاسد رستم . و « الاسلام والتجديد في مصر » لادامس . و « النظام النقدي والصيرفي في سوريا » لسعيد حمادة . و « اليزيديون ماضيًا وحاضرًا » لقسطنطين زريق . و « تطور الاساليب النظرية في الادب العربي » لانيس الخوري المقدسي . و « عمر بن ابي ربيعة » لجبرائيل جبور . و « لبنان في عهد الامراء الشهابيين » للامير حيدر الشهابي . و « قصص واساطير وتقاليد شعبية في لبنان وسوريا » لميشال فغالي . و « التساوير الطبية » لبول سباط . و « النصوص العربية السودانية » لهيلا لسون ، و « مخطوطة هامة عن التقاليد للبخاري » نشر مينغانا . و « النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان » لسعيد حمادة . و « الفارابي » للخوري الياس فرح . و « القرقة القطاشية والمدراويش » لبيرج . و « العراق دراسة في التطور السياسي لايرلند » و « الاسلام » لهنري ماسيه . و « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » لاوليري . و « المتوسط » للودفيغ . و « الشرق الاوسط ملتقى الطرق في التاريخ » لبين هورين . و « تاريخ الاسلام » لحسن ابراهيم الحسن . و « التيارات الحديثة في الاسلام » لهاملتون جب . و « سوريا ولبنان » لالبرت حوراني . و « تاريخ الشعوب الاسلامية » لكارل بروكلمان . و « مختصر تاريخ الشرق الاوسط » لجورج كيرك . و « العرب في التاريخ » لبرنارد لويس ، و « المجتمع الاسلامي والغرب » لجب وبيون . و « خلافة المعتصم استنادا الى الطبري » لاما مارين . و « ابن خلدون وتيمورلنك : لقاءهما التاريخي في دمشق » لفيشل . و « الشرق الاوسط اثناء الحرب » لجورج كيرك . و « الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية » لغوستاف فسون غراونباوم . و « محمد في المدينة » لمونتغمري واط . و « ثورة علي النبل » لانور السادات . و « دلالات التقاليد الاسلامية » لغيسنيك . و « تاريخ الصليبيين ومملكة الفرنج في القدس » لرينييه غروسيه . و « مملكة الصليبيين » لمونرو . و « الفرق بين الفرق » للبيغدادي . وعشرات الكتب والدراسات العلمية الاخرى .

الفنّان العصريّة

١٩٠٨ ، هو تاريخ بداية الحياة الدستورية في السلطنة العثمانية . وهذا التاريخ ، هو في الآن نفسه ، تاريخ ولادة الحركة الصحفية الحرة في فلسطين وسوريا ولبنان . حيث صدرت مئات الصحف والمجلات السياسية والأدبية . وهذا يعني ، ان نضال الصحافة في سبيل حريتها لم يكن ممكناً ، الا في إطار الحد الأدنى من الحرية نفسها . وهذا يفسر ، هجرة الصحفيين الفلسطينيين واللبنانيين الى مصر وباريس وأميركا ، في المرحلة السابقة على إعادة الاعتبار للدستور العثماني ، حيث أصدروا ، من هناك ، المطبوعات الصحفية ذات النزعة التحريرية والتحريرية .

وما ان ارغم السلطان عبد الحميد على اعتماد الحياة الدستورية في السلطنة ، حتى ظهرت فجأة ، وبكثافة ، الصحف والمجلات في فلسطين . فمنها من عاد من ديار الغربية القسرية ، ومنها من ولد لحظة ولادة الحرية .

كان ظهور المجلات الأدبية في تلك الحقبة ملفتاً للنظر ، سواء من جهة العدد المتزايد للمطبوعات والصفحات ، أو من جهة المضمون والمستوى الرفيع . ولا عجب . فقد سارت الصحافة الأدبية في هاتيك الاعوام على الطريق نفسها التي سارت عليها الصحافة السياسية : أي الحرية ، والمزيد من الحرية . خصوصاً ، وان الحرية في نظر صحافة الامس ، السياسية منها والأدبية ، كانت المفتاح الموحد لكل القيم الأخرى التي ناضل رواد النهضة ، وضحووا واضطهدوا من أجل انتصارها .

ولم تشذ « الفنّان العصريّة » عن القاعدة . فقد أصدرها الروائي خليل بيدس بعد أشهر قليلة من عودة الدستور العثماني . وقد توسل من مضمونها الأدبي ، الروائي وغير الروائي ، حرية الانسان في وطنه ، بأسلوب أدبي مداور في أكثر الاحيان بل ان هذه المجلة الأدبية كانت في طليعة مجلات فلسطين ، سواء في استمراريتها ، أو في التزامها الأدبي عبر الروايات التي كان يعربها بيدس عن الروسية بشكل خاص . لذلك ، رأينا ان نخصص لها حلقة كاملة في سلسلة التعريف والتعرف بالصحافة الفلسطينية .

فضلا عن تكريسنا الحلقة الاولى من الحلقات الخاصة بصحف فلسطين الادبية ، لها .

صدرت « النفائس العصرية » في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨ (١) ، وكانت اسبوعية . ثم تحولت الى نصف شهرية ، فشهريه . واختصر بيدس هوية مجلته فقال على علاف العدد الاول انها : « مجلة لطائف وفكاهات » . ومما قاله في الافتتاحية الاولى : « لا يخفى ما للروايات على اختلاف مواضعها من التأثير الضخيم في القلوب والعقول ، حتى اعتبرت انها من اعظم اركان المدنية ، بالنظر الى ما تستبطنه من الحكمة في تثقيف الاخلاق وما تنطوي عليه من العبر والمواعظ في تنوير الازهان » (٣) . ولكن ما علاقة اللطائف والفكاهات بالروايات ؟ كانت الرواية ، في القاموس الادبي - الصحافي ، مرادفا لـ اللطافة «الفكاهة» (٤) . ومن هنا اعتماد المجالات الخاصة بالقصة عنوان « اللطائف والفكاهات » (٥) امثال مجلة «سلسلة الفكاهات» لنخلة قلفاط (بيروت ١٨٨٤) ، و « الفكاهات العصرية » لعبد الله غزالة الحلبي (القاهرة ١٩٠٨) .

ثم ان اسم المجلة كان « النفائس » فقط . وقد اُضيف بيدس كلمة « العصرية » بدءا من العدد العاشر الذي صدر في اول كانون الثاني (يناير) ١٩٠٩ . وكالعادة ، اوضح بيدس في الافتتاحية سبب تعديل اسم مجلته فقال : « اننا اصدرنا هذه المجموعة باسم « النفائس » وليس لنا علم بالغيب او اطلاق على خفايا الامور . وقد قدمنا الى جانب الحكومة المحلية وقتئذ عريضة بطلب الرخصة فمضى على ذلك نحو الشهرين ونحسب نعد انفسنا بقرب صدور الرخصة ، الى ان وردنا في الاسبوع الفائت بواسطة الحكومة المحلية بلاغ رسمي من لدن الولاية الجليلية مفاده ان هذا الاسم (النفائس) مختص بغيرنا بموجب رخصة رسمية موجودة في يده . فأصبح هذا الاسم ملكا شرعيا له ، وملك علينا حق استخدامه ، مع ان المدعي لم يصدر الى الان مجلته ، ولم نر في جريدة من الجرائد اعلانا او اذاعة يصدر الرخصة الرسمية اليه بامتلاك هذا الاسم » . ويضيف بيدس بكلام لا يخلو من المرارة والسخرية : « وما كنا ، يعلم الله ، لنرضى على هذا الاديب بهذه اللفظة ، لولا ان المجلة اشتهرت الان بها ونكرتها جميع الجرائد . ولذلك فقد اضفنا الى لفظة « النفائس » التي هي ملكه الشرعي لفظة « العصرية » ليكون لنا نصيب من هذا الملك » (٦) . ومما يجدر ذكره هنا ، ان المجلة قد تحولت من اسبوعية الى نصف شهرية ، بدءا من العدد الذي صار اسمها « النفائس العصرية » (٧) اذ ان ذلك ان عدد صفحات « النفائس » الاسبوعية كان ١٦ صفحة فقط ، في حين صار عدد صفحات « النفائس العصرية » ٦٤ ، ثم ٨٠ صفحة (٨) والتغيير شمل ايضا هوية المجلة ومضمونها فبعد ان كان تعريف بيدس لمجلته بانها « مجموعة لطائف وفكاهات » . صار التعريف بـ « النفائس العصرية » على انها « مجلة فكاهية ادبية » (٩) . وقد تغير التعريف تبعا للتعديل الذي طرأ على المضمون . ذلك ان « النفائس العصرية » لم تعد تقتصر على الروايات ، كما كانت عليه يوم كان اسمها « النفائس » ، بل اصبحت تتضمن ، اضافة الى الروايات ، العديد من الموضوعات الادبية ، بل والابحاث الفكرية والتاريخية (١٠) . ومن الاضافات التي طرأت على المجلة بعد تعديل اسمها ، انها لم تعد تحرر بقلم خليل بيدس وحده . فقد شارك بيدس عدد من المحررين ، نذكر منهم اسكندر الخوري البيتجالي ، وأنطون بلان ، وعبد الله البستاني ، وقسطاكي الحمصي ، وحليم دموس ، وشبل دموس ، وابراهيم سليم النجار ، وعلي الريماوي ، وجورج متى ، وخليط مطران ، وبولس خولي (١١) . وكسائر المجالات الصادرة في تلك الاعوام ، فان زميلاتها قد استقبلتها بالترحاب باعتبار ان المنافسة الايجابية هي التي كانت تسود اجواء صحافي الامس ، بعيدا عن اي

شتيمة أو تجريح . قال عنها جرجي زيدان في « الهلال » ، مجلد ١٧ ، ص ٢٥٤ ، انها « مجموعة لطائف وفكاهات تصدر في حيفا - سوريا مرة في الاسبوع لمنشئها خليل افندي بيدس ، بدل اشتراكها ستة بشالك في حيفا ومجدي واحد في الخارج » .

أما جرجي نقولا باز فقد كتب في مجلته « الحسناء » ، مجلد ١ ، ص ٢٢٢ ، بشأن « النفاثس » هي « مجلة فكاهة ادبية تاريخية تصدر في حيفا مرة في الشهر بنحو تسعين صفحة لمنشئها خليل افندي بيدس صاحب المؤلفات العديدة . بلغت عامها الثاني بنشاط دل عليه جزؤها الاول بما حواه من مختلف المواضيع وأهمها » .

ورود في مجلد « العروس » مجلد ٣ ، ص ١٤٤ ، « النفاثس :عصرية مجلة تصدر في القدس ، لها من اجتهاد صاحبها خليل افندي بيدس الكاتب الروائي المشهور ما يكفل لها النجاح » .

أما التقرير الذي تدفق على ادارة المجلة من قبل القراء فحدث عنه ولا حرج .

ولاقت المجلة انتشارا واسعا خصوصا في اميركا اللاتينية . وهو امر تؤكد المصنحة الاخيرة من كل عدد ، حيث تنشر اخبار الهدايا التي هي اعداد من المجلة نفسها يتبادلها القراء . فمثلا في العدد الثاني من السنة الخامسة الصادر في شباط ١٩١٣ ، نقرأ في الصفحة ١٠٤ الاخيرة ، تحت عنوان « اهداء المجلة ، مجموعة من الاهداءات التي يقدمها القراء لاصدقائهم ، والملفت انها تشمل مدن وقرى الوطن ، ومدنا في المهاجر الاميركية (كندا ، البرازيل) او في اوستراليا ، وهذا يدل على سعة انتشار المجلة » .

وهنا ، تجدر الاشارة الى ان معظم هؤلاء القراء ينتمون الى طائفة الروم الارثوذكس . وهذا امر طبيعي ويديهي ، اذ ان خليل بيدس كان ارثوذكسيا ومسؤولا في المجلس الملي الارثوذكسي في فلسطين ، وهو اول من درس اللغة الروسية ودرسها للعديد من ابناء الطائفة الارثوذكسية ، امثال الاديب الكبير ميخائيل نعيمة .

والسؤال الان : ماذا عن كتابات بيدس وسائر محرري النفاثس العصرية ؟

لنبدأ بمحرر المجلة الرئيسي خليل بيدس ، وذلك عبر ما كتبه من افتتاحيات وتحقيقات، وعربه من روايات . بالنسبة للافتتاحيات ، لا بأس من استعراض البعض منها ، على غرار عرض الافتتاحية الاولى . خصوصا وان افتتاحيات « النفاثس العصرية » هي التي ترسم هوية المطبوعة ، ودقائق التطور والتبديل التي حصلت في سياق صدورها على مدى سنوات .

يقول بيدس في افتتاحية العدد الاول (١٢) ، من السنة الثانية : « لقد كانت هذه المجلة في اول عهدها كراسة صغيرة مقتصرة على الفكاهات فقط ، غير اننا ، اجابة لاقتراح جمهور من القراء ، لم نلبث ان ادخلنا فيها بعض الادبيات على قدر ما اتسع لنا المجال » . وأضاف : « لقد المينا ان لاندخل سنة جديدة الا ونزيد في صفحاتها وترقيتها وترتيبها رجاء ان تعيش وتنمو شأن كل ما يؤمل له الحياة والدوام » . ويوضح بيدس ان زيادة الصفحات يعود الى ان « حجم المجلة لا يتسع لكل هذه المواضيع - الروايات الصغيرة والمتسلسلة ، المقالات ، المنثورات - » مقابل « ان نصدرها مرة واحدة في الشهر ونزيد في اتقانها وتوسيع فوائدها لتتال بين القراء او فر حظ من الرغبة والارتياح » . واخيرا

يطلب بيدس من الله ، كعادته في نهاية كل افتتاحية ، « ان يوفقنا في خدمة الامنة والوطن الى كل عمل مفيد وقول سديد » .

حتى نهاية السنة الثانية ، بقي بيدس يصدر المجلة في حيفا ، ويمارس ، في الوقت نفسه ، مهنة التدريس (١٢) . ولكن ، حصل تغيير في مكان الصدور قبل بدء السنة الثالثة لصدور المجلة ، اضافة الى تفرغ بيدس الكلي للنفاثس ، وفي هذا المصدد يقول صاحب المجلة في افتتاحية العدد الاول من السنة الثالثة (١٤) : « مر على النفاثس سنتان » كنا على وشك اصدار المجلة في وقتها ، اي في تشرين الثاني الذي هو بدء كل سنة من سنيها . وقفت في طريقنا عوائق . فاضطررنا الى حجبها شهرين كاملين ، واهم تلك العوائق انتقال صاحبها من حيفا - مكان ادارتها - الى القدس لبعض شؤون طائفية وطنية لا محل لذكرها هنا » . ويضيف بيدس في ختام الافتتاحية : « اننا قد تفرغنا منذ الآن للمجلة ، ولم يبق ما يشغلنا عنها من الواجبات المدرسية التي كانت تستغرق اكثر ساعات نهارنا » .

لم يكتب خليل بيدس افتتاحية لكل عدد ، وخصوصا في السنتين ١٩١٢ و ١٩١٤ . كان العدد من « النفاثس العصرية » يبدأ برواية معربة بتصرف او بتحقيق عن الجرائد في التاريخ وما شاكل . أما اذا اراد صاحب المجلة ان يبلغ قراءه شيئا مما تتضمنه عادة الافتتاحيات ، فانه يكتب ذلك في احدى صفحات العدد الاخير . وهذا ما قام به مرتين في العام ١٩١٣ .

تحت عنوان « الى حضرات المشتركين الافاضل » (١٥) كتب خليل بيدس يقول . « انقطعت المجلة عن القراء الشهرين الماضيين لاسباب كثيرة اعترضت في سبيلها لم نستطع الانباء بها قبل وقوعها ، فنلتس من حضرات المشتركين الكرام عذرا » . ويؤكد بيدس « اهم تلك الاسباب » ، وهو اضطراره الى « ترك العمل بضعة اسابيع من هذا الصيف » ، تماما كما جرى له مثل ذلك في « الصيف الماضي ، وكانت المجلة قد تأخرت وقتئذ عن الصدور ، ولم يزل هذا التأخر ملازما لها حتى الان » . وثلافا لهذا التأخير ، وبعد استشارة للعديد من المشتركين ، « واقتداء بغيرنا من اصحاب المجلات العربية في مصر وسورية » قرر صاحب المجلة توقيف اصدارها « في شهري الصيف من كل عام » . ويعدد بيدس فوائد التدبير الجديد ، فيشير الى دور العطلة في تجديد النشاط ، ويحول ذلك دون « التشويش والخلل » في عملية وصول المجلة الى المشتركين الذين « يغيبون محل اقامتهم في شهري الصيف » . ويستدرك بيدس ليؤكد للمشاركين بانهم لن يخسروا شيئا بفعل احتجاب المجلة خلال شهري الصيف . « فقد زدنا عدد صفحات المجلة ابتداء من هذا الجزء ، وسنستمر على هذه الزيادة في السنة الآتية ان شاء الله ، فتصبح المجموعة السنوية للمجلة على هذه الصورة : ٨٠٠ صفحة في عشرة اجزاء اي ٨٠ صفحة لكل جزء مع ابقاء قيمة الاشتراك بحالها » . اكثر من ذلك ، فالربح لا الخسارة هو الحاصل من جراء التدبير ، لان ادارة التحرير قد عازمت ان تقدم للمشاركين « كتابا خارجا عن المجلة نجعله هدية للمشاركين » . بل ان بيدس قد عين « هدية السنة القادمة » وهي « الجزء الاول من رواية « حنة كارنين » وهي اشهر روايات الفيلسوف تولستوي ، بل اشهر الروايات الاجتماعية على الاطلاق ، وقد ترجمت الى جميع لغات العالم المتمدن ما عدا العربية » . ويؤكد بيدس لقرائه في هذه « الافتتاحية » ، بان المجلة سوف تصدر « في اول كل شهر بدون ابطاء ، ولن تتأخر عن ميعادها بعد الآن » . واخيرا ، يبشر صاحب المجلة القراء بادخال « كل تحسين في المجلة ، فنهيه لها اجزل المباحث قائدة ،

واحسن الروايات فكاهة ومغزى ، وتزينها بالرسوم الجميلة وبكل ما يلحقها بارقى المجلات موضوعا وحجما واتقاناً .

ويعود خليل بيدس في ختام السنة الخامسة ليكتب افتتاحية (١٦) . في الصفحة الأخيرة من العدد السادس ، يعيد فيها معظم ما كتبه في الافتتاحية السابقة . وفي هذه « الافتتاحية » يعلن بيدس أن « النفاثس العصرية بهذا الجزء تتم السنة الخامسة وتدخل مع سنة ١٩١٤ في سنتها السادسة » .

كذلك يكتب بيدس في نهاية الجزء العاشر من السنة السادسة « الى حضرات القراء الافاضل » (١٧) ، مؤكداً انه قد باشر بطبع الهدية ، وهي رواية « حنة كارنين » لتولستوي . وهنا يطالب بيدس المشتركين بتسديد قيمة اشتراكاتهم ، « فنزداد نشاطا في خدمتهم ورغبة في اطراد تحسين هذه المجلة واتقانها لتصل الى الهيئة المثلى التي نسعى نحوها » .

قبل ان تنتقل الى روايات المجلة المعربة بتصرف من قبل بيدس ، لا بد من ابداء ملاحظة حول افتتاحيات صاحب النفاثس العصرية . ذلك ان ما يلفت النظر في الافتتاحيات انها كانت قليلة العدد ، قليلة الكلمات ، قليلة الوعود . وربما يعود ذلك الى منحى بيدس العملي ، بحيث يترك للقارئ ان يقيم مضمون المجلة من غير ان يتدخل هو في التقييم . اضافة الى ان بيدس كان يخشى ان يكثر من الوعود البراقة ، ثم يجد نفسه عاجزا عن تحقيقها . وعلى الرغم من انه قد اختصر وعوده حتى الحد الأدنى ، فقد بقي مقصرا في مجال التنفيذ . اذ ان مجلة « النفاثس العصرية » لم تكثر من الرسوم الجميلة الملونة كما وعد صاحبها قراءه في احدى افتتاحياته التي اشرنا اليها سابقا .

اما القصص التي كانت السبب الاساسي ، بل الوحيد في بادئ الامر لاصسدار المجلة ، فقد نشر بيدس في مجلته الروايات الطويلة ، والقصص القصيرة على حد سواء . ويقول بيدس عن ذلك في احدى افتتاحياته (١٨) : « اما المواضيع التي ستتضمنها المجلة في سنتها الرابعة فهي كما يأتي : الروايات ، وينشر منها في كل جزء روايتان او اكثر من الروايات الصغيرة التي تبدأ وتختتم في نفس الجزء . ورواية كبيرة متسلسلة في جميع الاجزاء . وستكون كلها من احسن ما كتب في هذا الموضوع فكاهة وادبا وفائدة » وتجدر الاشارة هنا ، الى ان عدد من كتاب القصة قد ساعدوا بيدس في كتابه بعض قصص المجلة ، امثال انطون بلان ، وجبران مطر ، وكلثوم عوده ، وفارس مدور . وابراهيم حنا (١٩) .

ولنستمع الى بيدس نفسه وهو يقدم رواية « شقاء الملوك » التي افتتح بها سلسلة الروايات في المجلة . يقول بيدس : « هذه الرواية تتضمن من المعبر والحكم تحت ثوب الملهو والفكاهة ما يجعلها من انفس الذخائر ، فانها تمثل بأسلوب شائق حالة الملوك ونسبتهم الى الرعية وواجباتهم نحوها ، ونسبة الرعية اليهم وحقوقها عليهم ، وما يتصل بذلك من شؤون الملك واحوال رجال الدولة والبلاط وقوة الشعب ، بصورة مختلفة تنطبق على الحقيقة » . ويضيف بيدس ، ان الرواية تنطوي على « حوادث مشوقة ومباحث فلسفية اجتماعية يستعجبها السمع ويتعشقها الطبع » . الفتهما ماري كورلي الكاتبة الانكليزية الشهيرة ، ونقلتها ز. جورافسكايا الى اللغة الروسية بعنوان « تحت نير السلطة » فعربناها عن الروسية باسم « شقاء الملوك » وتصرفنا فيها بزيادة واسقاط

وتغيير وابدال وتبويب وغير ذلك لتوافق ذوق القراء ، فعسى ان يتلقاها ابناء العربية بما هي اهل له من الايثار والاقبال ، وعلى الله الانتكال .

وعن رواية « احوال الاستبداد » التي نشرها في الاعداد الاخيرة لعام « النفائس العصرية » الثاني ، يقول بيدس : « وضع هذه الرواية المؤلف الشهير والكاتب البليغ الشاعر الذائع الصيت الكونت الكسي [أم ليون؟] تولستوي الروسي وهي من خيرة الروايات الادبية لما تتضمنه من العبر والحكم في تثقيف الاخلاق وتنوير الازمان وحث النفوس على الكمالات الانسانية فضلا عما تنطوي عليه من الحقائق التاريخية والوقائع المؤثرة ، والحوادث المشوقة الى غير ذلك مما يتفكه به المطالع ، ويستفيد منه المتأمل بصيرورة وعلماء » . ومن ادلة بيدس على الشهرة العالمية للرواية كونها « ترجمت الى اكثر اللغات الافرنجية كالفرنساوية والنمساوية والانكليزية والبولونية والاطالية وغيرها » . الى ان يقول : « ولقد تصرغت في تعريبها بزيادة واسقاط وتغيير وابدال وتبويب لتكون موافقة لذوق قراء العربية » . وسميتها « احوال » الاستبداد » لما يراه المطالع فيها من الاستبداد والجور والعسف والظلم وغير ذلك من الفظائع والكبائر التي تعافها الانسانية . اما اسمها الحقيقي فهو « كنيان سيريرياني » اي الامير سيريرياني وهو احد ابطالها (٢٠) . اما الروايات التي نشرها بيدس في النفائس العصرية فهي ، حسب التسلسل الزمني : شقاء الملوك . احوال الاستبداد . الحسنة المتكرة (للكاتب الايطالي اميل سلغاري) . ملوك الروس . هنري الثامن وزوجته السادسة (تأليف الكاتبة الالمانية ف . ملباخ) . العرش والحب . حنة كارنين (لتولستوي) .

وعن قصصة القصيرة التي نشرها في النفائس ، ثم عاد وجمعها في كتاب اسماه « مسارح الازمان » ، يقول خليل بيدس انها « مجموعة ادبية فنية روائية في حقيقة الحياة » (٢١) .

وقد نشر بيدس الكثير من القصص القصيرة . فلو اخذنا على سبيل المثال المجلسد الخامس من النفائس ، لرأينا ان الاجزاء العشرة من المجلة قد احتضنت ٢١ قصة منها : الاب (رواية واقعية جرت حوادثها في عصر الثورة الفرنسية) . الاسبانولوية الحسنة (وهي رواية حقيقية جرت وقائعها في قرطبة ، عاصمة الدولة الاموية في الاندلس في ايام السلطان عبد الرحمن الثالث الذي ولي الملك سنة ٩١٢ م) . المتعب والموت والمرض (لتولستوي) . اليد السوداء للكاتب (ماك دونتيل) . كاترين (رواية واقعية جرت حوادثها في بعض المدن الشرقية) الخ (٢٢) .

بالنسبة لروايات وقصص خليل بيدس التي نشرها في النفائس العصرية ، يمكن تسجيل الملاحظات التالية : اولا : ان الروايات والقصص في المجلة تحتل معظم الصفحات ، فضلا عن مراكز الصدرة . وهذا امر بديهي . ذلك ان خليل بيدس قد اصدر مجلته لكي ينشر فيها قصصه ورواياته ، وليس العكس . وهو لم يبدأ بكتابة هذا اللون الادبي منذ بدء صدور النفائس ، ولا هو اوقف كتابة القصة حين احتجيت مجلته في ١٩٢٣ . فالقصص والروايات المنشورة في المجلة هي جزء قليل من انتاج بيدس القصصي ، الذي اعطاه قبل صدور المجلة وبعد توقفها .

ثانيا : ان قصص وروايات بيدس في النفائس هي انتاج ادبي « لرأس مدرسة قصصية في القصة الطويلة (الرواية) ، كذلك كان بيدس رأس المدرسة القصصية في القصة القصيرة ، وعنايته بالقصة القصيرة من اجل مجلته « النفائس » لا تقل عن عنايته بالقصة

الطويلة للغرض نفسه (٢٣) . وهذا امر يجعل « النفائس العصرية » مجلة ادبية غير عادية ، بل مجلة فلسطينية رائدة على صعيد الادب القصصي .

ثالثا : ان جميع قصص بيدس المنشورة في المجلة هي معربة وليست موضوعية . ومعظمها ، بالتالي ، مأخوذ عن الادب الروسي الذي كان يتقنه بيدس دون سائر اللغات الاجنبية . ولكن بيدس كان « يفسطن » القصة ، بحيث تصير وكأنها في نقطة وسط بين الترجمة والتأليف . ولعل سر احجام بيدس عن تأليف القصة يعود الى خوفه من ملاحقة السلطة العثمانية ، أما الترجمة ، فقد كانت تشكل له ، ولغيره من الادباء الملتزمين ، غطاء واقيا ضد غارات المكتوبي المتلاحقة .

رابعا : كان بيدس في قصصه مصلحا اجتماعيا ، يهدف الى حرية مجتمعه ووطنه ، عبر تحرير الانسان من كل المثالب والمعوقات التي تحول دون تحقيق قيم الحياة العليا ، وعلى رأسها الحرية . من هنا ، سر تصرفه في الترجمة ، وعدم نقله القصة كما هي اي بأحداثها ومناخها واشخاصها التي تكون شبه غريبة عن اشخاص واجواء واحداث فلسطين وشعبها والمحيط ، مما يفقدها الكثير من دورها التثقيفي التحريري .

خامسا : استعمل بيدس في قصصه المنشورة في النفائس لغة عربية سليمة ، ولكن بسيطة واضحة ، بعيدا عن العبارات الغامضة ، والكلمات القاموسية .

لم تقتصر كتابات خليل بيدس على القصة والافتتاحية . فجميع المقالات والدراسات في المجلة التي لا تحمل أي توقيع هي بقلمه ، انطلاقا من تأكيد بيدس ان كل الموضوعات الخالية من التواضع هي بقلمه (٢٤) . ولعل ابرز اهم ما كتبه بيدس في هذا النطاق هي التحقيقات التي كان يصدر بها اعداد مجلته . فمثلا ، كتب بيدس في العدد الاول ، من السنة السادسة ، الصادر في كانون الثاني ١٩١٤ ، تحقيقا عن « الجرائد » في العانم « منذ ثلاثمئة عام » . والتحقيق يمتد في ثماني صفحات . وبعد ان يظهر الكاتب كيف كانت صحف القرن السابع عشر تنشر اخبار همجية الانسان ، يقول : « الحمد لله اننا من اهل القرن العشرين ، لا من اهل القرن السابع عشر » . ولكنه يستدرك قائلا : « ولستنا نعلم كيف نكون في نظر ابناء القرن الثالث والعشرين . وهذه جرائدنا طافحة بأخبار الحروب والاهوال والشدائد والدواهي التي تقشع لها الابدان ، فيستعاذ بالله من شر الانسان » . هنا ، يتبع خليل بيدس الاسلوب الادبي نفسه ، لجهة توظيفه كل تحقيق في خدمة الانسان في بلاده . والكاتب لا يكتفي بان يستنتج قارئه الفكرة الاساسية التي يريد ان يؤكد على صحتها ، من خلال النص الادبي ، بل تراه يلخص تلك الفكرة في نهاية التحقيق ، او المقال ، خوفا من ان تفوت القارئ مما يقضي على رسالة الادب واهدافها التوجيهية .

ولنقلب الصفحة . ثمة ادباء شاركوا بيدس في تحرير المجلة تطوعا . فمن هم هؤلاء ؟ وما هي ابرز الكتابات التي نشرها في « النفائس العصرية » ؟

نجيب ميخائيل ساعاتي القدسي ، دكتور في الحقوق ، يكتب في النفائس (٢٥) ، عن « بعض مزارع يهود فلسطين من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٩٠٠ » . ويمهد الكاتب لدراسته ، المعززة بالجداول الرسمية ، بكلمة طويلة عن فلسطين ، يشير فيها الى ما وصلت اليه « في سالف الاجيال من المقام المنيع والشأن الرفيع » . ويضيف ان ارجاء فلسطين الرجبة « كانت أهلة بكثير من الاسرائيليين ولا تزال هذه الاراضي المقدسة ملجأهم الوطنيـ

ومحط رحالهم الوحيد ، فيصعدونها زرافات ووحيدانا ، أفرادا وازواجا فرارا من مقاومات الغرب والشمال لهم » . ويقول الكاتب ان « هذه الحركة طالما استوقفت انظار القوم وغدت بحكم الضرورة من المسائل الشاغلة لافكار اولي الامر والنهي ، ولا غرو اذا شغلت كثيرا من الصحف العربية وغيرها وشحذت قرائح كتبها . فالامر جلل والتقاعد عن استقرائه يحملنا على الندم ، ولات ساعة مندم » . ويوضح انه « لا يقصد بذلك التنديد بمساعي زيد وانصاره او الاستخفاف بمزاعم عمرو وخدمة افكاره ، بل ارغب في الامناع الى واقع الحال حذرا من الخطر المقبل » . ذلك ان الاسرائيلي « اينما حل ونزل وايران سار وقصد ، لم يزل طامح البصر الى اراضي الميعاد منازل يعقوب واسحق ، فينشق الابريز الخالص واللجين المصفى في سبيل امتلاكها مهما كلفه ذلك من انواع المشقات وضروب العذابات ، وهيئات ان يعود عن سعيه هذا بصفقة الخاسر الواجم » .

بعد المقدمة الطويلة ، يدخل الكاتب صلب الموضوع ليعود الى خمسين سنة خلت او اكثر حين « انتبه يهود فلسطين الى امر الزراعة فوطنوا النفس على مزاولتها وممارستها لعلمهم اليقين ان في ذلك مدعاة للثروة ومجلبة لرغد العيش ، وسعته . فلذا خصصوا قسما واقيا من مستعمراتهم الفلسطينية لهذه الغاية وجل ما اعتنوا به غرس الكرمة » . ويقول الدكتور ساعاتي ان « ما يلفت النظر ، ويسترعي الخواطر ، ان ليهود فلسطين مكتبا زراعيا في « منزل اسرائيل » على مقربة من طريق يافا المؤدية الى اورشليم » . اما المكتب المذكور فهو « عبارة عن حديقة واسعة الارحاء كثيرة الاشجار وافرة الغلات ، تبلغ سعته نحو ٢٤٠ هكتارا وقد جعلها منشئها شرن نثر سنة ١٨٧٠ كمكتب زراعي يتخرج فيه زهاء ستين شابا من اليهود على الفنون الزراعية » . ويستدرك الكاتب في نهاية كلامه عن المكتب الزراعي ليقول بان منافعه « لا تتجاوز الشعب الاسرائيلي شأن مشاريعهم الخيرية » .

ويضع الكاتب جدولا عن مزارع اليهود في فلسطين وذلك على النحو التالي :

مزارع القدس وضواحيها

اسم المزرعة	مؤسسها	سنة تاسيسها	مساحتها بالهكتار	موقعها
منزل اسرائيل	شرن نثر	١٨٧٠	٢٤٠	قرب يافا
ملبس	روتشيلد	١٨٧٨ و ١٨٨٢	١٣٠٠	قرب يافا على طريق نابلس
عيون قاره	تحت حماية روتشيلد	١٨٨٢	٥٩٤	على طريق غزة هاشم
محطة عاقر	روتشيلد	١٨٨٣	٧٠٠	قرب الرملة
قطرا	جمعية احباء صهيون	١٨٨٤	٢٨٠	على بعد ساعة من عاقر
قسطينة	روتشيلد	١٨٨٨	٦٣٠	على بعد نصف ساعة من قطرا
خربة ديران	جمعية اعيان اليهود الروسين	١٨٩٠	٩٥٠	قرب الرملة
ملك راوبين	الحاخام راوبين	—	١٣٥	وادي حنين

مزارع حيفا وملحقاتها

اسم المزرعة	مؤسسها	سنة تاسيسها	مساحتها بالهكتار	موقعها
زمار	تحت حماية روتشيلد	١٨٦٢	١٢٠٠	بين القيسارية والكرمل
حضيرة ابو شوشه	شركات روسية اسرة برغيم	١٨٩٠	٤٠٠٠	بقرب زمار في سهل مرج ابن عامر

مزارع صفد وبلاد بشارة

اسم المزرعة	مؤسسها	سنة تاسيسها	مساحتها بالهكتار	موقعها
بوش فنسا	اليوم لروتشيلد	١٨٨٢	٧٢٠	بين صفد والاردن
خربة زيد	اليوم لروتشيلد	١٨٨٢-١٨٨٨	٢٦٠	على شاطئ بحيرة الحولة
جسر الاردن	بعض اليهود	١٨٨٤	٢٠٠	شمال صفد
عين الزيتون	بعض اليهود	١٨٩٠	٤٣٠	بين صفد
محناييم	روتشيلد	—	٤٧٠	وبحيرة الحولة
شمر همبردن	رباني من صفد	—	١٨٠	قرب مستعمرة جسر الاردن

ويضيف الكاتب الى ان لليهود « مزارع ذات شأن في حوران وعبر الاردن ، فمساحتها تنيف على ٢١٠٠٠ هكتار منها ١٢٠٠٠ على مقربة من قرية شيخ سعد قد ابتاعها اللجنة الفلسطينية ، الباريزية سنة ١٨٩٢ و ١٩٠٠ بقرب دمشق عند سفح جبل حرمون » .
ويؤكد ان « لهم ايضا مزارع واسعة عند جبل الطور في سهل مرج ابن عامر تربو مساحتها على ٢٠٠٠ هكتار » . ويسمي الدكتور ساعاتي «جمعية هجليم (اي الجليليين) المؤسسة في صفد سنة ١٨٩١ » لكونها ابتاعت لليهود « نحو ٢٠٠٠ هكتار في ميسرون (قربي صفد) وكفرسبت (بين الناصرة وطبرية) وزعيم (قرب صفد) وحطين ، الى غير ذلك » . اضافة الى ما لليهود « في ارجاء فلسطين من البساتين الغناء ، نخص منها بالذكر بستان السيد موسى مونتيفيوري الثري الشهير الكائن في شمالي شرقي ياغا على طريق نابلس » .

ينتهي الكاتب في ختام دراسته الى القول : « ان عزيمة الجمعية الصهيونية المعروفة بالصيونييزم بوليتيك لمؤسسها تيودور هركل (هرتزل) سنة ١٨٩٧ ، فلا يبعد ان تصبح فلسطين مستعمرة كبيرة يؤمها اليهود الاسبانيون المعروفون بالسفديم والاشقنازيم اي السكان من كل صقع ، فتجمع شملهم وتغص بهم اراضيها الرحبة » .

مما تقدم ، يلاحظ الدور الرئيسي الذي لعبه روتشيلد في مجال انشاء المزارع اليهودية في فلسطين ، توطئة لتهويد فلسطين وصهينتها . ولكن من هو روتشيلد ؟

هذا السؤال أجابت عليه النفاثس العصرية بنشرها تحقيقا عن « بيت روتشيلد » ، نقلا عن « تاريخ الاسرائيليين » ، و « مجلة اسبوع الكلمة العصرية » الروسية (٢٦) ، ومما ورد في التحقيق ، ان « اول من غرس دوحه مجد هذا البيت هو ماير اسليم روتشيلد . ولد في فرنكفورت سنة ١٧٤٢ وتوفي فيها سنة ١٨١٢ . واصله من عائلة اسرائيلية فقيرة الحال ، ارسله ابوه من صغره الى مدينة فرس بيقاريا فدخل إحدى مدارسها حيث تلقى الدروس الابتدائية ثم استعد لدرس العلوم الدينية لان اباه كان يريد ان يكون حاخاما . ولكنه غير فكره عند رجوعه الى فرنكفورت وعزم على الدخول في مضمار التجارة لشدة ميله اليها من صغر سنة » .

ومن القطع الادبية القليلة المنشورة في النفاثس ، التي تتناول فلسطين بصورة مباشرة، قصيدة لاسعاف النشاشيبي عنوانها « فلسطين والاستعمار الاجنبي » (٢٧) .
يقول النشاشيبي في قصيدته الوطنية :

انها اوطانكم فاستيقظوا	لا تتبعوها لقوم دخلاء
كيف ترجون حياة بعدها	ونعيا وهناء وصفاء
فاعلموا يا قوم ان لم تعلموا	ان عقباكم هلاك وفتاء
اذكروا ان غركم ما لهمسو	عزة لانفس دوما والاياء
لن يفيد المال شيئا ان اضا	ع الفتى في الكون مجدا وعلاء

واعلنت النفاثس ، في سنتها السادسة ، لقرائها ، عن موضوع لسابقة كتابية تدور حول « فلسطين والمهاجرة » (٢٨) . ثم عادت النفاثس وكررت الاعلان نفسه في سياق سنتها السابعة (٢٩) . والغريب ان كلمة واحدة لم تنشر في موضوع المسابقة ، كما ان رئاسة تحرير المجلة لم توضح سبب ذلك .

هذا تقريبا كل ما كتب عن القضية الفلسطينية ومسألة الهجرة اليهودية . ولكن النفاثس كانت تتناول الموضوع مداورة عبر نشرها المقالات والدراسات العديدة لبيدس وغيره من كتاب النفاثس .

لعل قسطاكي الحمصي هو ابرز واغزر كتاب المجلة ، خصوصا عبر الرسائل المتبادلة بينه وبين ابراهيم اليازجي ، حيث تولت النفاثس نشرها في المجلد الخامس ، في الاعداد السبعة الاولى . والرسائل تتمحور حول موضوعات ادبية ولغوية وقصائد مديح متبادلة، فضلا عن امور شخصية تتعلق بانتاج اليازجي الادبي ، الا ان قسطاكي الحمصي كتب في النفاثس ، موضوعات اخرى وطنية ، تشكل المسألة الفلسطينية جزءا منها .

تحت عنوان « هل يرجى اصلاحنا ؟ » (٣٠) كتب قسطاكي الحمصي يقول : « ان اوجه الشبه بيننا وبين اليابان اقرب ، ولكن تنقصنا اخلاقهم » . كيف ؟ « نحن نبيع الوطن بدينار ، وهم يبذلون دونه ارواحهم وابدانهم » . نحن اذا فتشنا في كتب مدارسنا لا نجد فيها كلمة وطن ، ويحتاج الغلام عندنا الى ان ينثب عن معناها في كتب اللغة فيرى انها (محل الانسان ومستقره ومواطن الغنم ومرابضها) فيفهم من ذلك ان لا فرق بين الغنم والانسان ولا فرق بين الوطنيين . ويضيف هذا الكاتب المسيحي : « المسلمون شركاء

حياتنا ومقاسمو لذاتنا وخيرنا وشرنا ، شئنا وشاؤوا أم ابينا وأبوا ، لا غنى لاحدنا عن الآخر فإن سعدوا سعدنا وأن شقوا شقينا » . وعن الوطن ومحبه وهويته يقول الكاتب ، ان محبة الوطن ليست سوى « محبة المواطنين وهم اهلي وجيراني ومعارقي ومن ربيت بينهم وعاشرتهم دهرًا ٠٠٠ والمراد بذلك ما جاورني من البلاد وهم أبناء جنسي من العرب ، ثم كل من انتمى الى الحكومة العثمانية » .

وتناول انيس متري الحلو من « المشتى » - قضاء صافيتا - موضوع النظر والعمل في دراسة بعنوان « العلم الاعزل » (٣١) ، متسائلا : « ما بال العلم عقيما في بلادنا مع قدم العهد به ؟ وللاجابة ، يقارن الحلو بين نتائج العلم في اليابان ونتائج في سورية ، فيقول : « لو قابلنا بين دخوله الى بلادنا على يد البعثات والارساليات العلمية والدينية الاوروبية والاميركية ، ودخوله الى بلاد اليابان على يد تلك البعثات او الارساليات نفسها ، لوجدنا تاريخ دخوله الى البلدين واحدا اذا لم نقل ان دخوله الى بلادنا كان اولا » . ويسارع الكاتب الى التاكيد بان « الفرق عظيم واليون شاسع فاليابانيون بفضل ما اتاه العلم في بلادهم من الصالحات الطيبات اصبحوا في عداد امم الارض المتمدنة والشعوب المراقية المرهوبة ، واما سوريا - من ضمنها لبنان وفلسطين وشرقي الاردن - فلم تزل هي هي سوريا المنحلة » . ما هو سر ذلك ؟ يجيب الكاتب : « معلوم ان العلم ينهض بالامم المنحلة وهو سبب الرقي في كل مكان وزمان بشرط استعماله فنا اي بصب مدلول لفضة » فن « التي تطلق على العلم والصناعة مجتمعين » والفرق بين استعماله في بلادنا واستعماله في بلاد اليابان هو الذي اوجب وجود تلك المباشرة السحيقة ، لان اولئك استعملوه فنا فنجحوا وارتفعوا ، ونحن استعملناه نظريا او « اعزل » فلبثنا في جمودنا وهبوطنا » . ويرى الحلو ان نجاح سورية لن يكون الا « بالمزوجة بين العلم والصناعة » .

هذه المقالات هي ايضا قليلة العدد في « النفاثس العصرية » تماما كما هو حال الكتابات التي تناولت الشأن الفلسطيني مباشرة . ذلك ان « النفاثس العصرية » قد توسلت في الدرجة الاولى الادب ، في كل اللوانه ، من اجل النهوض بالانسان بعد تثقيفه وتعميق مجتمعيته . لذلك امتلأت مجلة خليل بيدس بالروايات ، والقصص القصيرة ، والتحقيقات التاريخية ، والحكم ، والاخبار التي تضج بالعبر .

ولنقرأ اولا ، وعلى سبيل المثال ، عناوين بعض محتويات المجلد الخامس من « النفاثس العصرية » : « اتصبح الصحراء بحرا » (ص ٢٣٥) ، « أمم البلقان (ص ٣) ، « سكان سوريا » (ص ٣٢٤) ، « هل الخوف مرض » (ص ٨٥) ، « بنت مصر وبنت الشام » (ص ٢٢٠) ، « شهيدة العلم » (ص ٢٩١) ، « هدية ولاء » (ص ٢٤٠) ، « أصل الفلسطينيين » (ص ٢٤١) ، « أمثال تركية » (ص ٢٣١ و ٢٥٤) ، « الثورة في المكسيك » (ص ٥٦٩) ، « ديوان الدول » (ص ١٠٠) ، « الذهب في العالم » (ص ٤٩٤) ، « زنوج الولايات المتحدة » (ص ٥٦٤) ، « ست وصايا للمرأة الهندية » (ص ٤٨٨) ، « السكك الحديدية في العالم » (ص ٢٧٣) ، « شهيد القطب الجنوبي » (ص ١٥٠) ، « قتلى حروب نابوليسون » (ص ٥٦٢) ، « لص شريف » (ص ٥٤) ، « متحف اسرائيلي في القدس » ، « مرقا ياقا » (ص ٤٩٦) ، « مهارة فتاة » (ص ٤٩٣) ، « النساء في الجيش الصيني » (ص ٢٤١) ، « نسبة النساء الى الرجال » (ص ١٩٦) .

ولا بأس من قراءة بعض المقالات الأدبية ، وتسجيل بعض مقتطفاتها . تحت عنوان « زنايق الحقل » (٢٢) كتب أسكندر الخوري البيتجالي مقالا ، أكد في نهايته ، ان « بين البراميل والمخلوقات شبه أقرب من اليوم الحاضر لأمس الغابر ، فكما انك تسمع للبرميل الفارغ اذا دحرج على الرصيف دويا لا يسمعك اياه البرميل المملوء ، هكذا اصحاب الرؤوس الفارغة يملأون الدنيا صراخا وتبجحا والحقيقة غير ما يظهرون » . وجوابا على السؤال « كيف تتمنى ان تكون ابنتك » (٢٣) . عرب الشاعر حليم دموس عشرين جوابا قرأها في مجلة برازيلية فكاهية ، وينص احد الاجوبة ، وهو الجواب الثامن ، على الآتي : « اتمنى ان تكون ابنتي برازيلية حرة ، اي ان تحب وطنها قبل كل وطن فسي العالم . وان تدرس جغرافيته فتعلم مثلا طول نهر الامازون وعرضه وعمقه قبل ان تتعلم اسم النيل والمسيبيسي والهدسن والسين . وان تحفظ تاريخ وطنها وتردد اسماء مشاهير رجالنا وملوكنا وابطالنا كما تردد كل يوم « السلام عليك يا مريم » في الكنيسة » .

وكتب المؤرخ بولس مسعد عن « تدمر » ، فتمنى « لو كانت حكومتنا الدستورية تتمثل بالحكومات الاوروبية فتصرف بعض عنايتها الى الآثار القديمة الحافلة بها البلاد السورية ، فان في جمع هذه الآثار في متاحف خصوصية من الفوائد المادية ما لا يقل قيمة في اعتبار الامم المتمدنة فضلا عما في ذلك من عبر التاريخ البالغة والفوائد الادبية للبلاد التي تشتمل على آثار جليله كآثار تدمر وبعلبك ودمشق والقدس وغيرها مما يعرض لنا كل يوم ان نوردته مثلا من الامثلة العديدة على بلوغ التمدن الشرقي اقصى درجات الكمال في زمن كانت أوروبا تتخبط في دياجي الجهل والانحطاط » (٢٤) .

ويقول بولس خولي ، في حفلة تكريم جرجي زيدان ، التي اقيمت في القدس ، « ان للجامعة الوطنية واللغوية شأننا عظيما في قيام الامم وتكوين اخلاقها الاجتماعية ، ونحن ابناء الوطن العثماني وابناء اللغة العربية اذا قمنا اليوم نكرم واحدا من ابناء وطننا ولغتنا ، فكاننا نحن نكرم الوطن العثماني والامة العربية ونعمل مع العاملين على تنشئة الحياة القومية وترسيخ الاخلاق المراقية في نفوس افراد الامة » (٢٥) .

وفي احدى رسائل ابراهيم الميازي لصديقه قسطنطين الحمصي ، يقول الاول للثاني ، ان « العرف الطيب قد تيسر لي بمدد الله تعالى ورضى الاخوان اتمامه ، ولكن حال من دون توزيعه صدور الامر العالي بحبس المطبوعات في ضمن جدر المطابع ووراء زجاج المكاتب ، لا يقام لها دعوى ، ولا يسمع منها شكوى ، ولا يقبل فيها شفيح ، ولا يعرف فيها جرم الا ما جره بعض اهل العبث . . . فأخذ البريء باثم الجاني واقتص من الكل فسي جريرة البعض ، بل استغفر الله ان هذا الكل لا يرضى ان يكون ذلك الجزء له بعضا ، انما هم في منزلة الجمر من الفحم ، او في مثابة السرطان من اللحم ، نسال الله العافية وقطع دابر المفسدين » (٢٦) .

وبعد ، ان « المنفاس العصرية » التي صدرت في فلسطين ، من ١٩٠٨ الى ١٩٢٣ ، والتي كانت في طليعة المجلات الفلسطينية الادبية المتزاما وفنا ادبيا رفيعا ، هي ، الان ، موضوعيا ، جزء من التراث الفلسطيني في حقل الصحافة الادبية .

الحواشي

- (١٨) المصدر نفسه ، المجلد الرابع ، ص ٤ .
- (١٩) ياغي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٥٢ .
- (٢٠) المصدر نفسه ، نقلا عن مقدمة الرواية المنشورة في ختام السنة الثانية من مجلة النفائس ، ص ٤٤٦ .
- (٢١) المصدر نفسه ، نقلا عن كتاب « مسارح الازهان » ، ص ٤٥٣ .
- (٢٢) النفائس العصرية ، المجلد الخامس ، ص ٢٠٨ ، ٤١٣ ، ٤٨٥ ، ٢٦٢ ، ٥٣٧ .
- (٢٣) ياغي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٥٢ .
- (٢٤) النفائس العصرية ، المجلد الخامس ، ص ٥٧٦ .
- (٢٥) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، الجزء العاشر ، ١٩١١ .
- (٢٦) المصدر نفسه ، المجلد الخامس ، ص ١٨٢ - ١٨٧ .
- (٢٧) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني عشر ، ١٩١٠ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، المجلس السادس ، ص ٢٦٧ .
- (٢٩) المصدر نفسه ، المجلد السابع ، ص ١٩٢ .
- (٣٠) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، الجزء التاسع ، ١٩١١ .
- (٣١) المصدر نفسه ، المجلد السادس ، ص ١٩٥ .
- (٣٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ .
- (٣٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .
- (٣٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠١ .
- (٣٥) المصدر نفسه ، المجلد الخامس ، ص ٣٥١ .
- (١) ناصر الدين الاسد ، محاضرات عن خليل بيدس ، ١٩٦٣ ، ص ٣٠ .
- (٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .
- (٣) عبد الرحمن ياغي ، حياة الادب القلبي الحديث ، ص ٤٤٢ .
- (٤) محمد يوسف نجم ، القصة في الادب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٦٦ .
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٦٨ - ٦٩ .
- (٦) الاسد ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٢ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .
- (٨) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
- (٩) المصدر نفسه ، ص ٣١ .
- (١٠) النفائس العصرية ، القدس ١٩١٢ المجلدان السادس والسابع - (انظر مكتبة ياغت التابعة للجامعة الاميركية في بيروت ، او دار الكتب الوطنية اللبنانية) .
- (١١) المصدر نفسه ، السنة الخامسة ، ١٩١٣ .
- (١٢) المصدر نفسه ، تشرين الثاني ، ١٩٠٩ .
- (١٣) الاسد ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩ .
- (١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .
- (١٥) النفائس العصرية ، المجلد الخامس الجزء السابع ، ١٩١٣ ، ص ٣٦٧ .
- (١٦) المصدر نفسه ، الجزء العاشر ، ١٩١٣ ، ص ٥٧١ .
- (١٧) المصدر نفسه ، المجلد السادس ، الجزء السادس ، ص ٣٣٦ .

الفلسطينيون في السجون الاسرائيلية

مقدمة

تحاول هذه الدراسة ان تتقصى اوضاع السجناء الفلسطينيين في سجون الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما تهدف الى القاء نظرة موثقة على اساليب التعذيب والقمع والقهر والاذلال التي يزرع تحتها اولئك السجناء ، من خلال تصور كامل للموقف الاسرائيلي ومراميه في سحق كل شكل من اشكال المقاومة للاحتلال سواء كانت هذه المقاومة عسكرية او سياسية او حتى على شكل نضال جماهيري او حركة في الرأي العام تعمل على المطالبة بانتهاء الاحتلال .

لقد انتشرت السجون والمعتقلات التي تضم السجناء من الاسرى الفلسطينيين داخل الضفة والقطاع وكذلك داخل فلسطين المحتلة ، ودأبت سلطات الاحتلال على رصد وتعقب كل شكل من اشكال النضال الوطني ، بل كل حالة اشتباه بسيطة ، واخذت تزج بالالف المواطنين الفلسطينيين في السجون والمعتقلات الرهيبة لمتارس ضدهم افظع انواع التعذيب الجسدي والنفسي بهدف القضاء على المقاومة واسكات كل صوت يرتفع مطالبا بانتهاء الاحتلال وارهاب كل من يفكر بمقاومة المحتلين ، وكذلك محاولة معرفة اية جهة تتحرك في الخفاء ضد الاحتلال . ولذلك فان الشين بيت - المخابرات - والشرطة تغطي اهمية لا حد لها للتحقيق وما يمكن ان ينتج عنه من جمع معلومات عن النشاطات السياسية والعسكرية لقوى المقاومة الفلسطينية وجيوش الدول العربية . ان مجرد الاشتباه بان هناك معلومات لدى السجنين تحفز المحقق على التنكيل بذلك السجنين وشعارهم في ذلك : « اما ان تعطينا ما عندك من معلومات او نصفيك هنا ، ولا احد يعرف انك عندنا » (١) .

يبدأ التحقيق مع السجنين بالترغيب والتهديد ، واما الترغيب فهو يتضمن اغراء المعتقل بان يقبل بالتعامل مع الاسرائيليين ، واذا فشل هذا الاسلوب فانهم يبدأون بالتعذيب الجهنمي . وفي كثير من الحالات فان التعذيب لا يؤدي الى نتيجة ، اما لصلابة المقاتل او لان المعتقل هو اصلا بريء ولا يملك اية معلومات وبالتالي لا يسمح له ضميره بان يتهم اناسا ابرياء . من هذا النوع من المعتقلين رشاد محمد الصغير من الخليل الذي اعتقل

في سجن القدس (المسكوبية) وقد ضربوه وكوهه في بطنه بالنار وضربوه على الرأس حتى سقط على الارض وقال انه سيوقع على كل ما يريدون ان ليس لديه شيء يقوله ولا يستطيع ان يتهم احدا (٢) . وكذلك فهمي الحموري المقاتل المقدسي الذي حاولوا ان يمنعوه من اكمال بناء مدرسة في القدس وعندما فشلوا اعتقلوه اعتقالا اداريا وضربوه وعذبوه وليس له ذنب كما لا يملك اية معلومات (٣) . وفي حالة ما يعرف المحقق بان المعتقل ينتمي الى تنظيم فلسطيني او عربي فان الانتكار من جانب المعتقل لا يفيد في شيء ، كما ان صلابة المعتقل تتعرض لافطع تعذيب غوستابي بهدف ابتزاز الاعتراف . ان العدو يعرف ان كل منظم ينتمي لخلية والتي تضم من ٢-٧ اشخاص . ولا بد من ان يستمر التحقيق والتعذيب الجهنمي الى ان يعترف المعتقل . شيء اخر له اهميته ، فاذا عرف المحقق ان المعتقل ينتمي للتنظيم منذ فترة طويلة ، فان اساليب التحقيق والتعذيب تطول لابتزاز اكبر قدر من المعلومات (٤) . وهكذا فان المحقق يبدأ بطرح اسئلة عديدة عن الوضع الاجتماعي للمعتقل ليستغل كل ذلك ضده اثناء رحلة التحقيق الطويلة . وخلاف ذلك فان المعتقل الصلب يمكن ان يحقق نجاحا بالخلاص من ايدي سجنائه اذا لم يعترف في البداية واستمر في الصمود رغم التعذيب والتنكيل (٥) . من هذا النوع من الصمود الاسطوري ما مارسه سليمان النجاب عندما قال له المحقق الاسرائيلي ، بعد ان عراه وضربه على اعضائه التناسلية لمدة اربع ساعات ، بانه سيأمر بالاعتداء على زوجته ، وجعله يسمع صوتها . لقد كان سليمان النجاب مقتنعا تمام الاقتناع بان شرف زوجته الحقيقي هو في صموده ، اما استسلامه فمعناه تقديم زوجات رفاق آخرين الى العدو . وصمد سليمان النجاب الى ان طرده الاسرائيليون الى حدود لبنان في ٢٨/٢/٧٥ (٦) . ولقد لاحظت من خلال دراسة مئات الحالات لمعتقلين فلسطينيين في السجون الاسرائيلية تلك القدرة غير المحدودة على الاستمرار من جانب المقاتلين والمواطنين الفلسطينيين في الصمود والتمسك بالمبادئ رغم التعذيب الفاجر والفظيع ، ونجد ذلك وقد تجلى في الاضرابات والمصادمات التي تشهدها سجون الارهاب الاسرائيلي ، وهكذا فلقد أصبح السجن بالنسبة للمعتقلين مكانا جيدا للنضال ضد جلاوزة الاحتلال ، واصبح ذلك النضال يدور حول المطالبة بمعاملة افضل للسجناء ، ومن اجل الاعتراف بهم كأسرى حرب (٧) .

وتنطلق الشرطة ، الشين بيت والقضاة العسكريون الاسرائيليون من منطلق عنصري وحقد اسود على المعتقلين الفلسطينيين ، وتصدر الاحكام القاسية الفظيعة في ظل التحزب العنصري البغيض وتكون نتيجته حكما قاسيا قراقوشيا . ويذكر ان عقوبة الاعدام فرضت في ٨ ايلول ١٩٧٢ في اوج الهستيريا المعادية للعرب التي نشأت اثر حادثة ميونيخ . واخذت احكام الاعدام تصدر من قبل القضاة « بمبادرتهم » ، دون ان يطلب ذلك النائب العام ! (٨) .

لقد احضر نعيم قبلاني امام مدير سجن عسقلان وهناك ركله سجان في بطنه ، بحضور المدير ، فرأى انه لا يرى اية فائدة من الشكوى حيث يجري التنكيل امام مدير السجن نفسه ! (٩) .

وحاول احمد حسن ناجي بحيص ان يشتكي من الفظاعة التي يتعرض لها ، ترى ماذا كانت النتيجة ؟ لنسمعه يقول : « بعد ان اشتكيت لووا ذراعي خلف ظهري ودفعوني مرة اخرى الى مكتب التحقيقات ، وضعوا شيئا على عيني لكي لا ارى من يضربني ، كانوا يضربون من الخلف ، على الظهر ، لم اعرف من الضارب ، احدهم بدأ يخبط رأسي بالحائط ، ثم اعادوني الى السجن بعد الساعة التاسعة والنصف مساء » (١٠) .

وعندما مثل بحيص امام المحكمة وشرح قضيته وعرض جروحه قال المساعد حـداد للمحكمة (١١) :

« علامات الضرب يبدو انها حدثت بسبب هياجه ، في اليوم نفسه الذي حققت معه في ٦٩/٨/٣ وسألته عن حادثة البيت بدأ يهيج وبدأ يضرب رأسه بالحائط ، لم لاحظ علامات ، ولكن بعد بضع ساعات ربما كانت هناك علامات » .

ان مسؤولي السجن يصرون على انكار تعذيب المعتقلين ، وحين يسألون يقولون : « هذا لم يحدث هنا » نحن لا نعلم من فعل له هذا « (١٢) . وكذلك يصم القضاة اذانهم عن اصوات المضرابين ، فعند ما صرخ فيهم بشير الخيري قائلاً : « تعالوا معي الى مسافة امتار من هنا الى زفزانات سجن رام الله لكي تروا بأعينكم المضرابين والمعتدين هناك » قالوا : ان هذا ليس من شأننا !! (١٣) . وتبلغ الوقاحة بالمفتش كليتش الى ان يقول : « انهم يجرحون انفسهم ثم يوجهون اللتهم ضدنا ! » (١٤) . ترى اي كذب يضاهاي هذا الكذب واية صفاقة هي اكثر من هذه الصفاقة ! وكثيرة هي امثلة التحايل والمراوغة التي يمارسها البوليس الاسرائيلي ، فمن اجل مقابلة معتقل يجب الحصول على تصريح من المدعي العسكري والذي يؤكد ان الامر صعب للغاية ، وفي كثير من الحالات لا يمكن معرفة الجهة التي يجب ان تصدر التصريح . لقد حصلت الحامية لانجر على تصريح لزيارة السيوري في سجن الخليل ، ومع ذلك لم تره لان حالته لا تسمح بذلك (المقصود وضعه الصحي المتردي من التعذيب) . واما اسحق المراغي الذي كانت جروح رأسه متقيحة من الضرب فقد ابعد الى الضفة الشرقية من الاردن حتى لا يروي القصة في المحكمة (١٥) .

ويحاول السجناء التستر على اضراب السجناء . . . خمسة ايام مرت على اضراب سجناء كفار يونا عن الطعام حتى علمت الحامية لانجر بذلك واخبرت عضو الكنيست مثير فلذر الذي نقل الخبر الى وكالة عيتيم . وعندما جوبه مدير السجن ٠٦ نير بذلك قال ان السجناء لا يتناولون الا الطعام الذي يأتيهم من البيت . اما الوزير هيلل فكان اكثر شجاعة وصرح بأن لكل سجين الحق في الاضراب !! (١٦) .

ان السلطات الاسرائيلية لا تعتبر رجال المقاومة الفلسطينية او رجال التنظيمات الوطنية المحلية في الضفة والقطاع عندما يقعون في الاسر اسرى حرب ، ولكنها تعتبرهم مخربين ومجرمين وتسجنهم مع اللصوص والقتلة اليهود ، كما تسجن المناضلات الفلسطينيات مع المجرمات والمومسات اليهوديات . وحتى اسرى معركة الكرامة لم يحصلوا على حقوق اسرى الحرب ، على الرغم من ان المعركة جرت بين قوات اسرائيل النظامية وقوات عسكرية تابعة للمقاومة الفلسطينية . هذا فضلا عن ان اسرى الكرامة قد وقعوا في الاسر الاسرائيلي وهم في مواقعهم خارج « فلسطين » المحتلة ، وان المبادرة بالاعتداء جاءت من جانب الاسرائيليين . ان اسرائيل بذلك تخالف المادة الرابعة من حقوق الانسان (١٧) . والتي تعطي حقوق اسرى الحرب « لاعضاء القوات المسلحة لطرف من النزاع وكذلك المليشيا والمتطوعون » . لقد ادنى الوضع الشاذ للمواطنين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية الى مصادمات بين هؤلاء الوطنيين والسجناء المجرمين اليهود ، وقد جرى الكثير من هذه المصادمات بتحريض السجناء الشوفينيين الاسرائيليين . لقد اقتتل رجال المقاومة السجناء (١٨) في سجن شسطا في مرج ابن عامر مع السجناء اليهود وسبعة من السجناء ، ويجوز لنا الشك بان ذلك كان بتحريض من سلطات السجن وحثنا في ذلك اشترك سجناء يهود في العراق . وبدأ الهدف واضحا من ذلك ، وهو محاولة اذلال

رجال المقاومة ، عندما رفض السجناء اليهود العودة لغرقهم حتى لا يدخل معهم رجال المقاومة العرب (١٩) . لقد ارادوا الايحاء بان المعتقل الفلسطيني احط من المجرم الاسرائيلي !!

من هذا النوع من محاولة الازلال ما تعرضت له السجينة الفلسطينية عبلة طه ، قالت عبلة « بعد اعتقالي ادخلت الى غرفة سجن فيها المومسات . هؤلاء هاجموني وضربوني بقسوة حتى فقدت الوعي . لقد مزقن ملابسني امام عيون رجال الشرطة وبقيت عارية . بعد ذلك ادخلوني مدة ثمانية ايام في زنزانة بدون مرحاض » (٢٠) . وقد قصت المومسات الاسرائيليات جزءا من شعر لطيفة الحواري ، والسؤال : « من اين للمومسات مقص في السجن ؟ » يؤكد دور سلطات السجن التحريضي ضد السجناء الفلسطينيين .

لقد احتجزت السجينات العربيات داخل غرف السجن كعقوبة يوم عيد الفطر ، ومنعتن من الاستماع لصلاة عيد الفطر بواسطة المذياع ، في حين ان الاحتجاز يوم العيد غير متبع بالنسبة للمعتقلات اليهوديات . حتى في السجن ليس لديهم مساواة ! (٢١) .

وبعد انفجار محني يهودا بدأ المجرمون من السجناء اليهود يقذفون نعيم الاشهب بكل ما كان في ايديهم في سجن الرملة . وعندما استغاث نعيم بالسجان طالبا ان يسمح له بالخروج الى غرفة اخرى رفض السجان الطلب ، وهكذا اخذ المجرمون اليهود يضايقون نعيم ، صبوا الماء على فراشه وجسده ، وظل نعيم الليلة بطولها قرب الباب . كان يصرخ ويستغيث ولكن ما من مجيب . وظل نعيم يعيش مع اخطر المجرمين اليهود . ذات يوم ضربه سجين محرض من اليهود يطبق الحديد على رأسه ، واراد ذلك المجرم الاستمرار ، لكن السجناء العرب انتزعوه من يده وهو يقطر دما .

لقد بلغ التماذي في محاولة اذلال سلطات السجون الاسرائيلية للمعتقلين العرب ان عينت هذه السلطات سجناء يهود محكومين احكاما جنائية ليحلوا محل رجال مصلحة السجون . والحراس المجرمون الجدد يفعلون كل ما بوسعهم لجعل حياة السجين العربي مريرة للغاية بهدف ان ينال المحكوم اليهودي تخفيض ثلث مدة سجنه . ان مصلحة السجون ترمي الى خلق عداة عنصري مستحكم بين العرب واليهود ، وتريد ان تكبح جماح ايسة مطالب انسانية لدى السجناء الفلسطينيين بتخفيفهم بواسطة الرادع اليهودي المتمثل في تحريض السجناء اليهود على العرب وتعيين المجرمين اليهود في وظائف سجانين . ان السجين الفلسطيني يبذل ما في وسعه للمحافظة على صورته كسجين سياسي قاتل ضد الاحتلال وما زال يناضل حتى داخل السجن من اجل المبادئ الانسانية العادلة المتمثلة في حقه بالمعاملة كاتسان ، لكن سلطات السجون الاسرائيلية تمنع في تشويه صورة المناضل الفلسطيني عندما تغري السجانين المحكومين احكاما جنائية باذخال الافيون والحشيش في حجرات المعتقلين بهدف الاساءة الواضحة والادعاء بان مثل تلك الاشياء تخص السجين الفلسطيني .

ان الجلادين الاسرائيليين لا يكتفون بتحطيم المعتقل الفلسطيني جسديا ، بل ويحاولون تحطيم روحه المعنوية وتشويه صورته كسجين سياسي ومناضل ضد الاحتلال .

التعذيب

« فليتسيا ، رأيت الموت بعيني ! »

هكذا قال مصطفى الشاعر للمحامية اليهودية فيلتسيا لانجر . ان الكلمات لتعجز عن وصف فظاعة التعذيب في السجون الاسرائيلية ، فضلا عن الضرب ، والتعذيب بالكهرباء وهدم الجسد بالعقاقير الكيميائية ، وكلها اعمال موجبة لتهديم المناضيل كجسد يقوم الجلادون الاسرائيليون بتعرية المناضيل وعصر اعضائه الجنسية وممارسة اقدر ما يمكن ان يتصوره العقل مثل ادخال المخاط من الانف الى الفم ، البصق في الفم او البصق على الثياب والطلب الى السجين لعق البصاق .

ولكن يكون القارئ صورة عن وضع السجين الذي يصمد بعد التعذيب ندون هنا مما قاله سجان اسرائيلي .

« مديرنا يرفض استلامهم بعد التحقيق وهم شبه اموات . نحن نرفض هننا استلام اي معتقل بعد تحقيق الشين بيت ان لم يكن كاملا » .

يبدأ السجين مع رجال الشين بيت - المخابرات - ويهدف التحقيق المصحوب بالتعذيب الفظيع الى ما يلي :

١ - الحصول على معلومات استخبارية عن الوضع السياسي والعسكري للمنظمات الفلسطينية والدول العربية . ولا تقتصر استخباراتهم على الاشخاص الذين يقعون في اسرهم ، بل على « زوار الصيف » من العرب الذين تكون لدى المخابرات الاسرائيلية معلومات في انهم يعملون في أجهزة عسكرية او امنية خاصة ، من ذلك ما حصل لذلك الفني العربي الذي يعمل مع شركة بن لادن في المملكة العربية السعودية في انشاء مطار عسكري ، لقد قبض رجال الشين بيت عليه دون ذنب اقترفه ، وعندما سألوه عن المطارات العسكرية في المملكة العربية السعودية ولم يعط معلومات افهموه انهم يعرفون جيدا كل المطارات التي عمل فيها ويريدون المزيد :

٢ - الحصول على معلومات استخبارية تفيدهم في الحرب الوقائية التي يشنونها ضد المنظمات الفلسطينية في الداخل والخارج ، وضد التنظيمات الوطنية في الضفة والقطاع وبين عرب الارض المحتلة وانصارهم من اليهود المعادين للصهيونية . ولذلك فانهم يمارسون ابشع صنوف التعذيب في محاولة لمعرفة خلايا القداميين في الداخل التي تخطط لضرب منشآت العدو وتخزين السلاح في « تخوم الارض الفلسطينية » ، لكنهم كثيرا ما يحاولون اعتصار المعلومات من شخص برئ لا يمتلك السلاح ولا ينتمي لاي تنظيم مثل صلاح مداح الذي قال لمعذبيه :

« انا بريء : اذا اعترفت ، في اعقاب التعذيب ، بان لدي سلاحا ، وهو كذب ، فمن اين اتي به ؟ » .

فاجابه المحققون بسخرية :

« اشتر ! »

فقال :

« اقتلوني ، انا بين ايديكم . خير لي ان اموت انسانا بريئا ، من ان اعترف ، خوفا منكم ، بشيء لم افعله » (٢٢) .

٣ - واذا لم ينجح المحقق الاسرائيلي في الحصول على معلومات من المعتقل فانه يعرضه

لتعذيب قطيع سادي بهدف هدم جسده ومحاولة النيل من صموده ، او ان المحقق يلجأ لوسيلتين :

الاولى : مطالبة السجين بالموافقة على ابعاده ، فلقد طلب حاكم غزة العسكري من مفيد رمضان العودة الى المانيا الشرقية حيث امضى مفيد فترة دراسته الجامعية ، كما اقترح نفس الشيء على تيسير العاروري .

الثانية : قتل السجين وانهاء حياته .

٤ - كما يهدف التعذيب الى تحويل السجين الى مواطن مهدم من الناحية الفسيولوجية وضرب روحه المعنوية وتحويله الى انسان ذي عاهة غير قادر على مواصلة النضال بعد ابعاده او الافراج عنه .

لقد قال استاذ جامعي لبعثة من بعثات الامم المتحدة التي زارت اسرائيل بان التعذيب يجري خلال الاستجواب ، وليس في السجن الرسمي (٢٢) ، لكن مئات المواقف دلت على ان السجناء الفلسطينيين عذبوا بعد صدور احكام المحاكم عندما حاولوا المطالبة بتحسين الاحوال او اضربوا من اجل الضغط باتجاه تحقيق هدفهم في المعاملة الانسانية ، او ردوا على استفزازات ادارة السجون والسجناء اليهود .

لقد خرج الكثيرون من السجناء الفلسطينيين من سجون العدو ، او استمروا فسي تفضية مدة الحكم بعد ان فقدوا سمعهم ، نظرهم ، اعضاء من اجسادهم وعاشوا في عاهة مزمنة ، فهذا يوسف الحلبي يعيش في سجن الرملة مقطوع الرجلين ونرى السجنان يكسر العصا التي يتوكأ عليها على رأسه - لقد تسبب السجناء محمود ابو دنهش في اشارة الاضراب العام في سجن عسقلان لانه اعمى ومريض ويمضي فترة حكمه السوداء . لم يتمكن السجناء الاعمى والمريض من الوقوف في حالة استعداد اثناء تفقد السجناء وظل مستلقيا بسبب عماه وعرضه فاقترب منه السجنان واخذ يضربه حتى جرح في جميع اثناء جسده . وكانت تلك الشرارة التي اشعلت الاضراب .

ولا بأس من ان نعطي مساحة للتحدث عن العاهات التي اصابت بدر دعنا ، سالم وعبيد وعبد اللطيف ابو رميلة من جراء التعذيب في سجون اسرائيل .

اصيب بدر دعنا بانهيار عصبي وهو محجوز على انفراد ، بدأ يثور ثم يهدأ وهو ملاحق بالخاوف ، ويظن انهم يريدون قتله ، وان الجميع يكرهونه ، انه لا يريد مقابلة احد ، ويتصرف كطريدة هاربة ، فالطبيب يعطيه اقراص النوم فينام طويلا ثم يستيقظ ويجلس منطويا على نفسه ويرفض تناول الطعام (٢٤) . واستمر بدر دعنا يرفض مقابلة والديه والمحامى ويرفض الطعام . وحتى اليوم لا يوجد من يوافق على معالجة بدر دعنا او نقله الى المستشفى ، وليس هناك من هو مسؤول عن صحة بدر غير سلطات السجون الاسرائيلية التي تضاهى سجاني العهد النازي .

واما سالم بن جاد عبيد من بيت لحم فقد اصيب بالجنون بسبب فظاعة تصرف رجال الشين بيت . لقد جاء الاسرائيليون لاعتقال اخيه . كان سالم نائما ، ولم يكن يعرف شيئا . لقد ايقظوه واوقفوه الى جوار الحائط وبدأوا يضربونه على ظهره ورأسه . لقد سمعت الام والاخت ، ورائتا ولكنهم لم يسمحوا لهما بمساعدته او الاقتراب منه (٢٥) . يبدو انهم ضربوه ضربة في المكان غير الصحيح . وبعد ان ذهبوا في اليوم التالي كان

سالم يعاني من ألم شديد في الرأس وبدأ يهذي حتى دخل مستشفى الأمراض العقلية .

والحالة الثالثة هي حالة عبد المطلب أبو رميلة الذي تعذب بالهراوات والكهرباء وبإدخال عيار بندقية في شرجه . هددوه بأنه إذا لم يتكلم فإنهم سيأتون بزوجته ويضاجعونها أمامه . كانوا يضربونه بعنف ، لكن حاييم - أحد الجلادين والذي كان يرتدي قميصاً أحمر - كان يضربه أكثر من الآخرين . وهكذا أصيب أبو رميلة بإكبر عقدة من اللون الأحمر ، وصارت تصيبه نوبة هستيرية كلما شاهد اللون الأحمر . في البدء قالوا إن لا مكان له في مستشفى الأمراض العقلية التابع للسجن . وحكموا عليه بالسجن عشر سنوات . وظلت تعود إليه الكوابيس وأخيراً لم يعد يرى بسبب خلل في جهازه العصبي .

وسائل التعذيب في جحيم السجون الإسرائيلية :

١ - الضرب

« هؤلاء هنا لا يفهمون سوى لغة الضرب » .

هكذا قال سجان إسرائيلي نازي الطبع . نعم الضرب . . . والضرب يهدف السحق والكسر والتهديم وخلق العاهة . . . إنه ضرب لا أخلاقي بالدرجة الأولى . لقد لخص إسرائيل شاحك ، رئيس عصابة حقوق الإنسان في إسرائيل ، عمليات الضرب في السجون الإسرائيلية بأنها : صفع على الوجه ، لكدمات ، ضرب الرأس بالجدار ، وضرب في كل مكان في الجسد (٢٦) .

هناك حالات يضرب فيها المعتقل في البيت (٢٧) ، ويضرب المعتقل في الطريق إلى سيارة الشرطة وداخل السيارة . لنسمع أفسادة يوسف العجوري : « بدأوا يضربوني مباشرة بعد إخراجي من البيت وعندما أدخلوني في مصفحة الجيش ضربوني بعقب البندقية وعينايا معصوبتان » (٢٨) .

إنه ضرب يحمل أهداف التدمير التام ، لقد القوا يوسف محمود على الأرض . . . وأخذوا يضربونه ويدوسون عليه (٢٩) ، في نفس الوقت ، كانوا كمن يرقصون رقصة جنونية شاذة ، وضربوا طالب سمارة بشارة على الأعضاء الجنسية حتى اغمى عليه ، وعندما كان يفيق كانوا يستأنفون الضرب (٣٠) .

لقد ضربوا عبد الله من بني نعيم ما لا يقل عن ثمانين بسطاراً بمجرد دخوله إلى صرفند ، سألوه عن اسمه فقال : عبد الله ، وهنا أنهالت البساطير . ويشترك في الضرب أكثر من شخص واحد ، ولدي أربع حالات اشترك في ضرب المعتقلين فيها على التوالي : أربعة سجانين ، ستة سجانين ، سبعة سجانين وعشرون (!) سجاناً بين نفر وضابط .

أحاط أربعة رجال بالسجين أحمد راعي بمجرد ولوجه غرفة التحقيق [للأيحاء بالطبيعة الجهنمية للغرفة !!] وبدأوا يضربونه على كل مكان من جسمه وعضوه التناسلي ورأسه واشترك ستة سجانين في ضرب صبحي نعراني أثناء التحقيق (٣١) أما زياد عاشور فقد دخل إلى غرفته سبعة رجال وأحاطوا به وضربوه جميعاً بعد أن علقوه على قضبان الشباك (٣٢) . كان زياد في وسط ذلك الجحيم من الكراهية يتلقى سبع ضربات كل طرفة عين ومئات الشتائم المهينة . كان في بحر من الكراهية الفاشية . واشترك عشرون سجاناً بين نفر وضابط (٣٣) ، في ضرب يوسف الحمدان .

وللتدليل على أن أسلوب الضرب في السجون الإسرائيلية هو أسلوب لا أخلاقي

وهمجي نورد الحالات التالية :

* افادت عبلة طه ان الشرطي دويك رفسها وشمها بينما كانت مستلقية ومغشياً عليها من شدة الضرب . كانت حاملاً في شهرها الثاني !! وبدأت تنزف دماً ، وعندما طلبت طبيباً لم يلب أحد طلبها (٣٤) .

* قال احمد الهدمد بأنهم ضربوه بكاوتشوك عريض ، املس وناعم ، وهذا النوع من الكاوتشوك يترك على جلد الانسان علامة حمراء تختفي بعد ساعة ، لكنها تترك جرحاً داخلياً تحت الجلد ، ومن قلة الغذاء والمعالجة فإنه يترك التهابات داخلية تتحول بعد ذلك الى امراض فتاكه . وغرض هذا ان لا تظهر اثار التعذيب امام اللجان الطبية (٣٥) .

* ضربوا نجيب سليم محمود على مكان « قطب » عملية اجريت له في المرارة والمعروف ان مثل هذا الضرب الهمجي قد يؤدي الى تخريب العملية الجراحية والوفاة .

* لقد ضربوا عبد الله من بني نعيم بوسيلة ضرب مزدوجة ، كانوا يوقفونه ووجهه ملتصق بالجدار ، بحيث كلما ضرب ضربة واحدة نتج عنها ضربة في الظهر وأخرى في الوجه ناتجة عن اصطدام الوجه بالجدار . لقد استمر الضرب والتحقيق مدة ستة شهور كاملة .

* طلبوا من عبد الجابر السبيوري ان يخلع ملابسه ثم كبلت يداه ، وهو عار ، الى الخلف ، وتم تعليق عبد الجابر بحبل ربط بجسده بحيث اصبح يتأرجح وهو معلق وعار لتظهر كل الاماكن الحساسة للضرب . واخذوا يضربون بحقد (٣٦) .

* كلما كانوا يأتون لاحضار الطعام ليوسف العجوري في زنزانتة كانوا يضربونه ضرباً موجعاً وطويلاً ، وكانهم ارادوا ان يلقوا عقدة كبرى لدى يوسف من الطعام ليمتنع عنه ويموت جوعاً . وليتصور القارئ وضع سجين يرتبط بذهنة الطعام بالضرب .

* ادخل جميل الحسن الى الزنزانة وربطوه بالسلاسل ووضعوا الى جواره سجناً مهمته ان يضرب السجين كلما « داعب النوم اجفانه ! » (٣٧) . ترى اي حقد اسود يعمل على الربط بين النوم والضرب !؟

التعذيب بالنار

واي شيء اكثر اثراً من النار ؟ هذه النار يعاقب فيها المقاتل الفلسطيني من اجل الحرية ومواطنو الضفة والقطاع الرافضون لاحتلال بلادهم .

لقد اشعلوا اوراقاً ودسوها بين اصابع قدمي فندي فارس وكان الرجل يراقب اللهب وهو يأكل الورق ويأكل ابضاً جلده فيما كان السجنان يساوم .

وكانوا يصلبون عبد الله يوسف عدوان في سجن طولكرم (٣٨) ثم ياتون بعلبة كبريت ويأخذون في اشعال عود بعد اخر ويقربونه من شفتي عبد الله ليبدأ الجلد بالذوبان . كان ذلك بمثابة تسلية للسجانين !

واما عبد اللطيف ابو رميلة فكانوا يكوونه بالسجائر المشتعلة في شفتيه وحلمتي ثدييه واعضائه التناسلية ، ثم ادخلوا عياراً نارياً في قفاه .

وتعرض المهندس حسني حداد لاطفاء السجائر المشتعلة في باطن القدم ، حتى احترق الجلد ، ففضلا عن الالام التي ليست في طاقة الانسان والتي كان يعانيها من جراء حروق السجاير فانه وجد نفسه غير قادر على المشي او الحركة .

التعذيب بالكهرباء

اعلن يسرائيل شاحاك مأساة شوقي الخطيب عندما كتب عن تلك المأساة في جريدة الاتحاد (٣٩) . لقد اودع شوقي الخطيب في زنزانه واخذوا يعذبونه بالصدمات الكهربائية بحيث يدق سجان كل ربع ساعة على باب الزنزانه ويخرجه ليضرب بصدمات كهربائية متعاقبة ، ثم تتم تعريته ورشه بالماء البارد . والمعروف ان الماء يساعد على زيادة اثر الصدمة الكهربائية .

ان تناوب تغطيس السجين في الماء البارد (٤٠) والصدمة الكهربائية يمكن ان يؤدي لضاعافات توصل الى الوفاة . وهذا النوع من التعذيب الذي تمت ممارسته مع شوقي الخطيب انتهى بان احرق السجان الاعضاء الجنسية لشوقي بصعقات كهربائية متلاحقة .

وظل شوقي الخطيب يزرع تحت تاثير الصدمات الكهربائية التي كانت تسلط على كل مكان في جسده (٤١) ، دون استثناء .

وعذب زياد عاشور بالكهرباء وذلك بوضعها في قفاه ، وعندما طلب فحصا طبيا لم يجبه احد ، حتى شلت يده اليسرى .

وتتم عملية تعذيب السجين بالكهرباء وهو مقيد او معلق الى السقف ، وتربط ذراعا السجين من الخلف لتقيده الى السقف ، وهكذا يتدلى جسد السجين في الهواء ، وبعد ذلك تعصب عيناه ثم يبدأ السجان بتقريب الرأس الكهربائي في صدمات مفاجئة . ولهذه الصدمات مفعول مزدوج : الالم والخوف المفاجيء ، اذ لا يدري السجين الذي عصبت عيناه متى تأتيه الصدمة .

وهناك اسلوب آخر واسمه اسلوب التليفون ، وفي هذه الحالة يجلس السجين الذي يراد تعذيبه على مقعد وتعصب عيناه ثم تشد ذراعا الى الوراء . بعد ذلك يربط مصدران من مصادر الكهرباء بحلمتي اذني السجين . وتبدأ الصعقات الكهربائية كما تأتي موجات الكلام من التليفون .

لقد تعرض زياد المعزة (٤٢) ، لتيار فظيع من تلك « السماعات » التي تزود الرأس بالام لا حد لها .

التقييد ، الشد والتعليق

ويقوم السجانون بربط السجين بسلاسل حديدية وشده الى السقف ، الجدار ، بساب الزنزانه ، او ارضيتها ، والهدف من هذا الشد هو تقييد الحركة او جعلها غير مريحة بحيث لا يستطيع السجين ان يحصل على قسط من النوم والراحة . كما يهدف التعليق الى جعل ثقل الجسم محملا على الرسغين ، الذراع الواحدة ، الذراعين المربوطين الى الخلف او ابي عضو يتم تعليق السجين منه . وهناك نوع من التعليق يهدف الى جعل كامل الجسم

معروضا ومتأرجحا لينتقي السجان المكان الذي يبدأ منه التعذيب بسهولة ويسر . وبصورة عامة فإن الشد والتعليق يهدفان الى شل حركة وقدرة السجين على المقاومة او مجسرد حماية نفسه او اي عضو في جسده ، اذ ان السجين بصورة غريزية يحاول دفع الاذى عن نفسه او تغطية المواقع الحساسة من جسده . ولو بالاعضاء اذا كان عاريا ، فالانسان بصورة غريزية يحمي رأسه وعينه واهضاه التناسلية او يتكور كما يفعل القنفذ ليحمي جسده . وهكذا يهدف السجان الى حرمان السجين من هذه الوسائل الغريزية البسيطة وجعل جسد السجين صفحة بيضاء مفتوحة امام الجلاد النازي .

من اشد انواع التعليق ما تعرض له عبد السلام التميمي من النبي صالح عندما قيدوه الى باب الزنزانة بقيد ذي اطراف حادة جارحة ، حتى اذا ما حاول السجين الاسترخاء اصطدم معصماه بالقيد الجارح فيجرح وهنا يضطر الى البقاء منتبها ورافعا يديه الى اقصى حد يطبق ليحمي يديه من الجراح .

لقد علقوا سليمان النجاب في قبو حجمه ٦٠ سم × ٦٠ سم × ١٦٠ سم وتنازلوا رضيته من حجارة مدببة تلمس ارجل السجين (٤٣) .

لمدة ٢٢ يوما ظل يوسف العلي مقيد الايدي والارجل في زنزانة مرصوفة الارض بحجارة مدببة (٤٤) . وكانوا ينقلونه الى التعذيب مجنزرا بالحديد ومغطي الرأس بكيس من القنب السميك الاسود ، ويجبرونه على الزحف فوق الحصى الخشن . ظلوا يجبرونه على الزحف عاريا معقود الايدي خلف العنق ثلاث مرات يوميا بعد وجبات الطعام ، كما ارغموه على السير في اخدود متناهي الضيق والكيس يغطي رأسه بحيث يسقط عند كل خطوة . اجبروه على القفز داخل الاخدود ليقع ويؤذي نفسه والكيس يكتم انفاسه عن الهواء ، وعندما يخطئ في التنفيذ كانوا يضربونه بشكل همجي ويقفزون على اكتافه او يدوسون بين معصميه . لقد كان كل ذلك التعذيب البشع والسجين مقيدا معصوب العيون امعانا في التضيق عليه وشده الى جحيم دنياوي لا يطاق .

لقد مارسوا ضد عبد الله ، من بني نعيم ، نوعا من التعليق (٤٥) الذي يذكر بعقوبة الاعدام ، فقد علقوه بالكليشات في سقف الغرفة بعد ان اوثقوا ذراعيه من وراء وظل مستندا على طاولة بثقل جسده ، ثم بدأت اسئلة التحقيق حتى اذا ما وصلت الاسئلة الى النقطة الحرجة اسرع المحقق يسحب الطاولة من تحت قدمي عبد الله ، ليصبح كل ثقل الجسم على الذراعين .

واجبر فواز تركي على ان يظل مشدودا في وضع غريب للاشياء . احضروا طاولة ووضعوا فوقها علبة من التنك وتركوه يقف على العلبة برجل واحدة (٤٦) .

وشدوا سليمان النجاب برجله اليمنى الى الباب بواسطة سلسلة طولها ٣٠ سم بحيث لا يقوى على الوقوف الا مستندا الى الجدار . اما اذا رام النوم بين نوبات التعذيب فكان يتكور بحذاء الباب الحديدي . وفي حالات اخرى كانوا يوثقون السجين بحيث تشد رجل للسقف واخرى للارض .

اما احمد راعي ، فقد اوثقوا قدميه ويديه خلف ظهره بحبل وعلقوه في وتد مثبتة بالنافذة . وراح واحد من السجانين يؤرجحه بينما قام اخر بجلده على اخمصيه حتى تحولت اصابعه الى لون الفحم .

التعذيب بالعقاقير الكيماوية

اي تهديد سادي احقر من ان يحمل المحقق محققنا ويقول للمعتقل : عما قليل ستصبح امرأة بعد ان احقنك بهذا المحقن ؟ (٤٧) .

لقد حقنوا عطا القمري حقنة بعضوه الجنسي حتى اغمي عليه ، وعندما افاق بسداوا يضربونه على خصيتيه (٤٨) . وكذلك احمد الهدمد فقد حقنوه بابرة في الوريد انتفخ بعدها جلد رأسه بالماء ، ونقلوه الى المستشفى لرفع هذا الماء من رأسه ، لكن العملية فشلت ونزل الماء على عينيه . وعندما اعادوه الى سجن الرملة منعوا عنه الدواء ليفقد بصسره تدريجيا . وكانوا يجرحون جسمه ويرشونه بالملح (٤٩) .

واقاد المقاتل عبد الله من بني نعيم ان السجناء زرعوه في حفرة وصبوا عليه الماء والملح تدريجيا ليرتخي لحم الجسم ويتعفن (٥٠) .

وقال احد المعتقلين لمدوب الديلي ستار ، ان السجناء ربطوا شكلا من اشكال البلاستر اللزج على رأسه ورجليه ، واحس المعتقل انه بحاجة ماسة لان يصرخ ، لكنه لم يستطع اخراج الصوت وكأنه اصيب بالخرس .

واقاد سليمان النجاب بان السجناء استخدموا مادة محرقة رشوها على خصيتيه ، فاضطرم فيهما الم يجل عن الوصف ، وشعر بان نارا حامية تغرق الخصيتين . كما رشوا من نفس المادة على حلمتي صدره (٥١) . ومثل ذلك حصل لزيد العزة (٥٢) .

ويتجلى الحقد النازي بالممارسة القذرة التي مارسها السجناء الاسرائيلي مع عيد الرحمن حمدان المصلح والذي تعرض لوضع قطعة قماش مغمسة بحامض النيتريك بين شفاهه (٥٣) .

التعذيب بالماء البارد

بصورة عامة يمكن القول ان سلطات السجن في اسرائيل تعتمد ترك السجناء يعانون من شدة البرد وذلك بمنع ادخال الالبسة والاعطية الدافئة في الشتاء ، كما تعتمد حشر السجناء في غرف مكتظة او زنازين انفرادية غاية في الضيق مليئة بالمرطوبة وتكاد تكون عديمة التهوية .

وبالاضافة لكل هذه الاجراءات الحاقدة فان سلطات السجن تسخن وتبرد السجناء على التوالي لتدمير صحته واصابته بالربو وامراض الرئة وتشقق الجلد وما شابه ذلك .

لقد كانوا يعتمدون تعرية احمد هواري وصيحي نعاراني ورشهما بالماء البارد . لما علي شجار فتركوه يجلس فترة طويلة الى جانب فرن ثم اخذوا يصبون عليه ماء مثلوجا . وقال عبد الله السرياني في افادته انهم كانوا يعرونه في الليل من ثيابه ويشدون وثاقه الى باب الزنزانة ثم يسكبون عليه الماء البارد ، وفي احدى الليالي الثلجية اخرجوه الى العراء ثم راحوا يدحرجونه على الثلج ويضعون الثلج تحت ابطيه وبين فخذه (٥٤) .

التعذيب بالحرمان من الحاجات الاساسية

من اشد وسائل الضغط من جانب سلطات السجناء على السجناء حرمانهم من الحاجات

الاساسية للانسان مثل الاكل والنوم وقضاء الحاجة والعلاج الضروري .
لقد كان اصعب شيء عاناه عبد العزيز شريف هو حرمانه من الخروج الى المراض .
لقد فعلوا ذلك وكان صعبا للغاية (٥٥) . ومنعوا سليمان النجاب من النوم لمدة ثمانسي
واربعين ساعة .

ومن استقراء افادات السجناء والمعتقلين يتبين ان المعالجة الطبية هي نوع من الضحك
على العقول ، وفي كثير من الحالات يحرم السجن من اي معالجة ليموت موتا بطيئا . من
الامثلة الكثيرة على الحرمان من العلاج ما عانته لطفية الحواري من التأخير في العلاج ،
وعندما فحصها طبيب العظام صعق لان مريضة مثلها بقيت دون فحص لطبيب العظام طيلة
ثلاثة اشهر . لقد سأل الطبيب ادارة السجن اذا كان لديها طبيب للمعالجة الفيزيائية ،
وعندما سمع اجابة سلبية علق على ذلك بقوله :

« فقط زنانات يوجد لديكم » (٥٦) .

لقد اظهرت فحوصات دم لطفية فقرا في السكر وفي الدم وفقرا في الكريات الحمراء
(الهيميا) . كانت تشعر احيانا بضعف عام لدرجة انها لم تكن تستطيع تحريك اعضائها ،
ولكن برغم نوبات الالم ونتائج الفحوص كانت ادارة السجن تدعي ان لطفية تمثّل وان
مرضها ليس مرضا صعبا الى هذا الحد .

وتصر سلطات السجن على حرمان لطفية من العلاج بالتحايل والتمسك بحرفية النصوص،
اذ زار لطفية عدد من اطباء القدس العربية المشهورين وقد اوصى احدهم بمعالجة مرضها
لكن شيئا من ذلك لم يتم بحجة ان العلاج يجب ان يتم في المستشفى !

اشياء اخرى كثيرة يعاقب بها المسجونون مثل الحرمان من التدخين والقراءة وشراء
الحاجيات من الكانتين او الخروج الى النور والشمس . وكذلك الحرمان من تقديم فحص
البحرور (الشهادة الثانوية) او الاستماع الى صلاة العيد .

الحقن بالماء

تم عملية التعذيب هذه بواسطة انبوب يوضع طرفه في مؤخرة المعتقل ويوصل الطرف
الآخر بحنفية الماء . وهكذا بعد فتح الحنفية يتم حقن الماء داخل بطن السجن حتى
يمتلئ .

التعذيب بواسطة الكلب

للكلاب البوليسية دور كبير في اسرائيل في مجال ملاحقة ومطاردة العناصر الوطنية ،
كما تستعمل الكلاب ايضا في حراسة السجن والمعتقلات ومرافقة الدوريات ، وفوق ذلك
فهي تستغل في تعذيب وايداء المعتقلين والسجناء .

لقد افاد احمد الهدهد بان سلطات السجن احضرت اليه كلبا ملوثا ومنزوع الشعر
وجسده ملئ بالدمامل وينزف منها القيح الابيض . وقد عروا احمد الهدهد وعلقوه من
معصمه في السقف . وجاءت فتاة واخذت تمسك بالعضو التناسلي للمعتقل وتحته حتى
احمر واتسعت مسام جلده الخارجية ، وبعد ذلك جعلت الكلب يهجم على احمد ويصق عليه
قيحه ، وبعد ذلك ظهرت على جسمه نفس الدمامل المتقيحة التي كانت على الكلب (٥٧) .

أما عبد الله من بني نعيم فقد عراه السجن تماما ثم علقه من رسيه في السقف ،
وأحضر كلبا أخذ يلعب كل نقطة في جسده العاري .

ويستفاد من افادات المعتقلين ان سلطات السجن كان تلقي بالسجين داخل زريبة الكلاب
لتقوم هذه بنهشه وتمزيق ملابسه وتجريحه حتى يغمى عليه .

التعذيب النفسي

يمكن ان تلخص مفهوم التعذيب النفسي بأنه محاولة لتدمير معنويات السجين وبث الرعب
في نفسه واذلاله وسحق كل امكانيات الامل لديه بهدف ان يدلي بكل ما لديه من معلومات
والتعاون مع سلطات السجن .

أولى اساليب التعذيب النفسي هي تحقير السجين واذلاله من خلال الشتائم الفاجرة التي
تمس شخص السجين وعرضه وعائلته ودينه وشعبه . وهناك ممارسات أخرى للتحقير مثل
البصق في وجه السجين وداخل فمه او مؤخرته . وقد يعمد الجلاد الى « نتف » شوارب
السجين وعانته لانه يعرف ان شارب السجين العربي يرمزان الى كرامته . ومن وسائل
الاذلال ان يضع السجنان عصا في دبر السجين ، كما فعلوا مع عثمان (٥٨) .

وهناك وسيلة تعرية السجين من ملابسه بهدف فضح عوراته وجعله مثار سخريسة
السجائين وسخرية كل من يراه ، هذا فضلا عن استعمال التعرية لنشر الالام في كل مكان
من الجسد بالضرب وعند الزحف ونحوهما .

ان الجلاد الاسرائيلي يعرف اهمية حفظ العورة عند العربي ولذلك فهو يضغط من هذه
الزاوية ليذل ضحاياه ، فمثلا يعمد الجلادون الاسرائيليون الى تعرية النساء بحجة
التفتيش وايقافهن شبه عاريات ، او عاريات تماما مدة طويلة امام الجدار . لقد تصرفوا
على هذا النحو في باص للممرضات كن في طريقهن الى المستشفى في الشارع الرئيسي .
وبعد تدخل هيئات دولية اوقف هذا التصرف في الشوارع الرئيسية ولكنه استمر في
الازقة (٥٩) .

هناك معتقل عراه ضابط التحقيق تماما ، وربط خصيتيه بخيط من النايلون وربط الخيط
بمسمار في طاولة التحقيق ، وبدأ بتوجيه اسئلة من نوع : متزوج ؟ قال المعتقل : لا . قال
السجان : يا للخسارة ! سوف اقطع خصيتيك بموسى الحلاقة وبحيث لا تتمكن من الزواج .
أما إذا اعترفت انك نفسك (٦٠) . ترى اي عذاب نفسي يمكن ان يسببه هذا التهديد .
الجرمان من الرجولة ! ان الجلاد يريد ان يبث رعبا ما بعده رعب في نفس السجين عن
طريق الايحاء بأنه على وشك ان ينهي حياة السجين . فمثلا يضع السجين في حفرة ويطلق
النار فوق رأسه ويفهمه بأن الحفرة ستكون قبره . وقد يعمد السجنان الى اسماع السجين
اصوات اطلاق نار غزير وانفجارات او صراخ شديد . وكذلك فهناك وسيلة التعذيب أثناء
عصب العيون ، والمقصود منها ان يظل السجين في رعب دائم وتحسب مستمر حول ما يمكن
ان يحق به على يدي ذلك السجنان الذي لا يرحم .

ويطالب السجين بأن يقول كلمة « سيدي » للسجان بعد كل كلمة يقولها ، وان لم يفعل ذلك
ضرب ضربا شديدا . ترى اي اذلال اكبر من ان يتنادي المقاتل عدوه بكلمة « سيدي » ؟

ويمكن ان يزرع المقاتل في حفرة ليأتي حارس فيلعب الكرة بالراس البارز . ثم يقدم

الطعام لذلك الشخص المدفون حيا وراسه فوق التراب ليأكل لعقا مثل الكلاب ، ويقول السجنان : « كل يا كلب ! » وفي حالات اخرى يدفع السجنان الطعام الى السجنين بواسطة ركله بالقدم .

ان تهديدات السجنان لذوي السجنين تبعث بالام نفسية لا حد لها ، كما ان تهديدهم بنسف بيت السجنين تجعله يعاتي عذابا نفسيا لا حد له . لقد هددوا احمد الهدهد بنسف بيته ، وهدد وليد الديسي باحضار والديه وسجنهما . كما هددوا سليمان النجاب بالاعتداء على زوجته ، وسمعوه صوتها ، لكن الرجل قال :

« كنت مقتنعا ان شرف زوجتي الحقيقي هو في صمودي ، واستسلامي هو تقديم زوجات رفاق آخرين الى العدو » .

وهددوا رشاد الصغير بنسف بيته وباحضار شقيقاته وامه ومضاجعتهن امامه .

السجون والمعتقلات

يمثل الاحتلال الاسرائيلي بحد ذاته سجنا كبيرا لاعتقال الشعب الفلسطيني والشعب العربي في الاراضي المحتلة . فبالاضافة الى تقييد التنقل واشتراط الحصول على التصاريح ، فان العربي مهدد في اية لحظة بالاعتقال عند وقوع اي حادث امني مهما كانت طبيعته وجوده في منطقة الحادث . وفي حين تمر السيارات اليهودية بأمان ويسر تتوقف السيارات العربية عند الحواجز للفتيش ، وينزل الركاب لتقلب مقاعد السيارة ايضا . وبالاضافة لوجود السجنين في كل مدينة فهناك معسكرات الاعتقال الجماعية التي يعتقل فيها الوطنيون وعائلاتهم واقاربهم . وكذلك هناك معسكرات تجميع السكان في مختلف انحاء قطاع غزة . وتتوفر القوانين التعسفية اللازمة لجلب اي مواطن عربي وحجزه وحتى اعتقاله اعتقالات اداريا اذا لم تكن هناك اسباب منظورة لاعتقاله .

وتحت هذه الفقرة نحاول اللقاء نظرة على السجنين ذاتها من خلال المعلومات المتوفرة عن مواقع هذه السجنين وظروف تكوينها وطبيعتها القمعية والحياة اليومية للسجناء فيها .

١ - سجن عسقلان : هذا السجن مخصص للسجناء الفلسطينيين الذين صدرت بحقهم احكام فوق العشر سنوات ، ويرسلون اليه لقضائهم ، ولذلك فهو اشبه بمعسكر اعتقال ، والاجراءات فيه صارمة وقمعية . وهو سجن محروس بشكل جيد . فبالاضافة للحراسة العسكرية والالكترونية ، هناك حراسة الكلاب البوليسية . عن هذه الكلاب نقول من لانجر :

« كان كلبان كبيران يدوران في الفناء . كلاب اخرى احتجزت في منطقة مسيجة . وهذه نبتت بغضب خاص . الاثنان اللذان كانا ظليقين رفاقائي حتى المكتب . ليس لدي مسا اقوله . حرس شرف حقيقي . احد الكلاب كان خاصا بالدير . وهذا لم يفارقني . بينما يتسم نائب المدير وهو يقول : « لقد اعجبته ! » اعترف بأن الاعجاب لم يكن متبادلا » .

الطبيعة القمعية لهذا السجن واضحة تماما ، لا يسمح للسجنين بأن يرفع راسه وهو يكلم احدا من السلك . يقف السجنين مخفوض الرأس والعين ، ويتلقى الضربات على اليمين وعلى اليسار .

وينام السجناء على حصير رقيق جدا ، وطوال اليوم يجلسون على ارضية الباطون

والكثيرون يشكون من انهم اصيبوا بالروماتيزم * ان جميع السجنون الاخرى بما في ذلك الخليل جنة عدن اذا قورنت بهذا السجن (٦١) *

ولا يسمح بادخال الكتب او الصحف الى هذا السجن ، ويسيطر عليه نظام صارم ، وعندما لا يطيع السجناء الامر يقمع المعتنقون بالقوة *

ويرى السجناء في سجن عسقلان محشورين في القفص طيلة ثلاث وعشرين ساعة في اليوم بمعدل عشرين سجيناً او اكثر في كل غرفة * وعندما زار مندوب الصليب الاحمر هذا السجن في ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ تموز من عام ١٩٧٥ وجد فيه :

القطر	عدد السجناء
مصر	١٠
الاردن	٢٠٧
سوريا	٢٢
لبنان	٩
العراق	٨
غزة	١٣٣
المجموع	٣٨٩

وتوفي في سجن عسقلان الدموي في ٢١/١/٧٥ عمر احمد عوض الله عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني في قطاع غزة ، كان عمر يقضي حكماً بالسجن مدى الحياة منذ عام ١٩٧٠ بصفته قائد الجناح المسلح للحزب الشيوعي والجبهة الوطنية المتحدة (٦٢) *

وعلى جدران احد غرف سجن عسقلان رسم السجناء لوحة تضم ستة وجوه عربية وشعار المنجل والشاكوپش وقد انبثقت منه زهرة وكتبوا تحت اللوحة : « اهداء فيليسيا » *

٢ - سجن الخليل :

يقع سجن الخليل على هضبة وكان السجن في ٢٠ و ٢١ آب من عام ١٩٧٥ يضم مائتين وثلاثين عربياً كلهم من اهالي الضفة الغربية *

يتألف من القسم العام - تحت - وطابق الزنازين - فوق - ، وهي الزنازين الانفرادية والتي يشرف عليها رجال - المشين بيت - مباشرة ، فيقررون بأية زنازنة يزج بالمتعقل ، وعدد الحرامات وعدد مرات الاغتسال وتغيير الملابس وفتح الكوة وكثافة الشتائم من السجنائين !

وفي هذا السجن قضى عبد الجابر عبد الله السيوري واحداً وثلاثين يوماً دون ان يسمح له بتبديل ثيابه او الاغتسال ، ودون ان يرى نور الشمس ، وطيلة هذه الفترة كانت لديه بطانيات رقيقة فقط ، وكان ملقى على ارض باطون وجسمه كله يؤله ، وهو يرتعد من البرد *

ونجد وصفاً لزنازنة في هذا السجن قضى فيها فتحي توابته ٢٣ يوماً ، والزنازنة هي عبارة عن غرفة صغيرة مظلمة بدون نافذة ، والنور الوحيد نفذ اليها من ثقب في السقف ، وحجمها نحو متر ونصف في مترين ، ارض باطون بدون بلاط * وجدرانها خشنة مع جص

مرشوش بصورة فظة • وفي داخل هذه الزنزانة كان فتحي ينام على الارض ولم يكن لديه سوى عدد من البطانيات ، وكان ذلك في شهر كانون الاول وفي الركن كان دلو لقضاء الحاجات ، وكانوا يفرغونه مرة كل ثلاثة ايام • ولم يكن فتحي يخرج الى الهواء الا عندما كانوا يأخذونه الى التحقيق (٦٣) •

٣ - سجن غزة

هناك وصف للحياة في هذا السجن من خلال اقوال السجين دحمان لمحاميته (٦٤) ، فالسجانون يضربون السجناء دون تمييز ودون سبب ، حتى عندما يطلب هؤلاء اشعال سيكارة وهو الامر المسموح به في السجن • وترفض جميع الطلبات لمقابلة المدير ، كما لا يجوز الاشتكاء من الضرب • ان السجناء دائما صادق ، والمشتكى فيما بعد يتلقى حصة مضاعفة من الضرب ، بالاضافة الى التقرير الذي يسجل ضده • وبعد تسجيل التقرير تنفذ عقوبة خاصة بحق السجين •

في هذا السجن زنزانة للعقاب يلقي فيها المعاقب عاريا وبدون ملابس وبدون بطانيات ، كما يصب ماء على ارض الباطون لكيلا يستطيع ان يستريح او يستلقي •

والنوم في النهار ممنوع وشفرة واحدة تعطى لسجينين لمدة طويلة بحيث لا يستطيعون الحلاقة الا بصعوبة ، ولا يتوفر الماء الساخن للحمام الا مرة كل اسبوعين • ولا يجوز للسجناء تبادل الاحاديث فيما بينهم ، ومن يتحدث يخرج من الغرفة الى زنزانة ويضرب بتهمة التحدث في السياسة (٦٥) •

وحجم الزنازين ١٠٠ سم × ١٠٠ سم ، وفي الزاوية مرحاض لا غطاء له ، والنور مبهز ومثبت في السقف ، والزنزانة حارة رطبة وعديمة الهواء • ولا يحق لساكن الزنزانة الخروج الى الفسحة ، وكل ما لديه روائح كريهة سامة وحرارة خانقة ، وهو يأكل ويقضي حاجته وينام على حصير مطاطي سمكه سنتمتر واحد مفروش على الارض مباشرة •

في القسم العام تقيم النسوة بعد انتهاء التحقيق • لا توجد اسرة هناك • ويسمح بالفسحة ساعة واحدة في اليوم ، وليس لدى السجنيات من عمل سوى الجلوس على البساط المطاطي ودون ان يسمح لهن بالحديث في السياسة ، وكل من تتكلم منهن تمنع من الخروج الى المرحاض وعليها ان تقضي حاجتها في الجردل لتزعج كل من في الغرفة • لقد علقوا على باب السجن لافتة تقول : « سجن غزة » والواجب ان يكتبوا مكانها : « جحيم غزة » • هكذا قالت رسمية عردة للمحامية لانجر (٦٦) •

وعندما زار مندوب الصليب الاحمر هذا السجن في ٥ ، ٦ ، ٧ اب ١٩٧٥ كان فيسه سبعمائة وثمانية معتقلين :

العدد	القطر
٦٥٤	غزة
٥٠	مصر
٥٠٢	الضفة الغربية
٥٠٢	الضفة الشرقية
٧٠٨	المجموع

٤ - سجن بئر السبع :

يقع سجن بئر السبع منعزلاً في الصحراء على طريق ايلات في ارض قاحلة من كل شيء ، وهو سجن صحراوي يبني بايدي ساكنيه المعتقلين والسجناء العرب من الاراضي المحتلة . ويشبه السجن بلدة صغيرة محاطة بأسوار عالية واسلاك شائكة ، وابراج مراقبة ، حجم كل واحدة منها كحجم غرفة واسعة . والجو لافح الحرارة ، لا وجود للظل . وللسجن فناء ضخم فارغ في احدى زواياه قطعة ارض مسفلتة (٦٧) .

يعتبر السجناء في هذا السجن سجناء عمل ، فهم يصنعون صنائيق بالآلاف الاطنان ويخيطون ملابس جاهزة مقابل اجر مقداره ٦ سجاثر في اليوم . كما يكلفون بصنع شبكات الترميم للجيش الاسرائيلي .

وعندما زار مندوب الصليب الاحمر في ١٣ ، ١٤ ، ١٥ تموز من عام ٧٥ كان في السجن ٤٩١ معتقلاً :

العدد	القطر
١٠	مصر
٩٧	من الضفة الغربية
٦٠	من الضفة الشرقية
١٠	من ليبيا
٢	من سوريا
٣٠٨	من غزة
٣	من العراق
٤٩١	المجموع

٥ - سجن كفار يونا :

يقع في بيت ليد على الطريق بين حيفا وتل ابيب ، وشروط السجن فيه اسوأ من شروط بقية السجون ، وازدادت سوءاً في عام ١٩٧١ عندما تحول السجن الى سجن انتقامي .

يقضي السجين في هذا السجن ثلاثاً وعشرين ساعة ونصف الساعة ، ويسمح بالفسحة لمدة نصف ساعة دون كلام ، واذا ارتكب احدهم جريمة الكلام مع زميله يوضع في الزنزانة .

يقضي في هذا السجن الشيخ ابو طير مدة حكمه ، وعندما زاره مندوب الصليب الاحمر في ٨ تموز ٧٥ وجد في هذا السجن مائة وتسعة وعشرين سجيناً عربياً :

العدد	القطر
٥٠	من القدس العربية
٣٠	من الضفة الغربية
٣	من الضفة الشرقية
٣٦	من غزة
١	من ليبيا
٤	من سيناء
٥	من مصر
١٢٩	المجموع

٦ - سجن رام الله :

يضم القسم العام وكذلك مجموعة الزنازين والتي مساحتها كل منها ٢ × ٢ م ويحشر في كل واحد عشرة سجناء . هناك ينامون ويأكلون .

وعندما زاره مندوب الصليب الاحمر في ٧ آب ١٩٧٥ وجد فيه ١٤٧ معتقلا :

١٢٨	الضفة الغربية
٠٠٥	الضفة الشرقية
٠٠٢	القدس العربية
٠٠٢	سوريا
١٤٧	المجموع

٧ - سجن القدس :

يقع في ساحة الروس في القدس ويسمى سجن المسكوبية ، وتوفي في هذا السجن قاسم ابو عكر (٣٠ سنة) بعد اعتقال اسبوع . وقاسم من سكان بيت حنينا . وعند موته اطلق سراح زوجته . ولم يحضر الدفن سوى الزوجة والداها وحفار القبور . وقالت الشرطة ان قاسم توفي لانه تزحلق وسقط على الدرج (٦٨) .

٨ - سجن الرملة :

خرجت من هذا السجن الى الحرية المناضلة فاطمة برناوي بتاريخ ٢٩/١١/٧٧ .
وبتاريخ ١٦ ، ١٧ تموز ١٩٧٥ زار مندوب الصليب الاحمر هذا السجن ووجد فيه :

١١٠	من القدس العربية
٢٤	من الجولان
٩	من الضفة الغربية
٢	من الضفة الشرقية
٣	من ليبيا
٣	من غزة
١	من العراق
١٥٢	المجموع

٩ - سجن طولكرم :

عندما زاره ممثل الصليب الاحمر في ٢٥/٨/٧٥ وجد فيه مائة واحدا وعشرين عربيا من الضفة الغربية ، وسجيناً واحداً من سينا .

١٠ - سجن المدامون :

زاره مندوب الصليب الاحمر في الثاني عشر من آب ١٩٧٥ وكان فيه مائة وثلاثة من المعتقلين العرب :

٦٧	من القدس العربية
١٠	من الضفة الغربية
٢٠	من الجولان
٦	من غزة
١٠٣	المجموع

١١ - سجن نفى ترزا :

وجد فيه مندوب الصليب الاحمر ٢٧ معتقلا عربيا في ١٠/٧/٧٥ :

١٥	من الضفة الغربية
١	من الضفة الشرقية
٤	من القدس العربية
٧	من غزة
٢٧	المجموع

١٢ - سجن الجملة :

تنتصب من حول السجن الجبال ، وتكاد الاشجار الباسقة الخضراء تخفيه بين كنفاتها (٦٩) . وفي الناحية الشمالية من السجن تقع زنازين العزل . ويتألف هذا القسم من سرداب مظلم وطويل تنتشر على جانبيه غرف مهجورة وموحشة ، انها غرف التعذيب [المسلخ] . وقد تدلت من أعلى الجدار لافتة تقول : خارج النطاق ، وهي عبارة تعلق فوق الاماكن الخاصة بالمشين بيت ، وترمز الى الخطورة والسرية (٧٠) .

١٣ - سجن جديون :

وضعوا في هذا السجن ما تبقى من اسرى معركة الكرامة وعددهم خمسة وستون . وفي هذا السجن كان مائة وخمسة وثلاثون معتقلا عندما زاره مندوب الصليب الاحمر في ١١ آب ١٩٧٥ :

١	من غزة
١١٣	من الضفة الغربية
٤	من الضفة الشرقية
١٦	من سوريا
١	من العراق
١٣٥	المجموع

١٤ - سجن صرقند :

وهو سجن قمعي يضم مجموعة من الزنازين المعبأة بجو ارهابي . وقد ورد في افسادة أحد المعتقلين (مؤيد عثمان البخش) انه حشر في زنزانة داخل هذا السجن حجمها ٥٠ سم × ٥٠ سم (٧١) .

١٥ - سجن نابلس :

بتاريخ ٢٦ ، ٢٧ آب ١٩٧٥ وجد فيه مندوب الصليب الاحمر ٤٦١ معتقلا .

٤٤٣	من الضفة الغربية
١	من القدس العربية
١١	من الضفة الشرقية
٢	من سوريا
٢	من العراق
٢	من غزة
٤٦١	المجموع

١٦ - سجن شطبا :

زار هذا السجن مندوب الصليب الاحمر في ١٣ آب ١٩٧٥ ووجد فيه ١٦ عربيا :

١٠	من القدس العربية
٥	من الجولان
١	من غزة

ومن المسجون الاخرى : سجن ياجور ، سجن عكا ، سجن بيت شيش ، سجن تلموند ، سجن النبي صالح .

المعتقلات الاسرائيلية

لا بد من التمييز بين نوعين من هذه المعتقلات :

الاول : معسكرات الاعتقال الجماعية ، وقد اقامت سلطات الاحتلال في البدء ثلاثية منها هي : نخل ، ابو زنيمة والقصيمة ، ثم اقيمت في مطلع ١٩٧١ معسكرات اعتقال اخرى في وادي موسى بالقرب من مدينة الطور وفي منطقتي دير سانت كاترين والعريش . وقد نفت السلطات الاسرائيلية الى هذه المعسكرات الاف السكان المدنيين من اقارب رجال المقاومة بحيث يتم نفي العائلة بكاملها الصغار والكبار ، وحيانا يشمل النفي ابناء العمومة .

تكون هذه المعسكرات قريبة او ملحقة ، بأحد معسكرات الجيش الاسرائيلي ، والمعسكر عبارة عن عدة خيام محاطة بالاسلاك الشائكة ، وتعطى لكل عائلة خيمة واحدة ، وحيانا تحشر عدة عائلات في خيمة كبيرة ، ويفصل بين عائلة واخرى ستار من قماش ، ولا يسمح لهذه العائلات باحضار اي متاع او ملابس اضافية .

يتولى الجنود حراسة المعسكر ولا يسمح لاحد بالخروج منه ، كذلك يحظر على اي كان الاقتراب منه حتى للجنود الاسرائيليين غير المكلفين بالحراسة ، ويعزل المعتقلون عن العالم عزلا كاملا ولا يسمح لهم بسماع الراديو او اقتناء الكتب او قراءة الصحف .

وكان معسكر نخل يتألف من جناحين منفصلين أحدهما للعائلات والاخر للرجال وقد ضم جناح

الرجال في مطلع عام ١٩٧٨ نحو ٤٠٠ رجل معظمهم من المهنيين والمتقنين ورجال الاعمال المعروفين بتعاطفهم مع حركة المقاومة . وتعيش العائلات الفلسطينية في هذه المعسكرات حياة رهيبة وقاسية وهي لا تتجاوز كونها مجرد احتجاز في الصحراء .

الثاني : معسكرات تجميع السكان في مختلف انحاء قطاع غزة . وقد احيطت هذه المعسكرات بأسلاك شائكة وحظر على المواطنين مغادرتها دون اذن مركز الحراسة القائم على مدخل المعسكر . وكان يطلب من الجميع ان يأووا الى بيوتهم بعد الغروب وفرض على اشخاص اثبات وجودهم مرتين داخل المعسكر .

وفي منطقة رفح ثلاث مناطق تجميع للسكان داخل الاسلاك الشائكة . وقد اجبرت مئات العائلات على ترك منازلها والانتقال الى داخل الاسلاك الشائكة للعيش في الخيام والاكوخ . ومناطق التجميع في رفح :

١ - منطقة البيوك (شمالي رفح) ويقدر عدد المقيمين فيها بنحو ٣٥٠٠ شخص بينهم عائلات ابو الحصين والحمامشة والمغاصية والديبارين وابو سينمة .

٢ - منطقة ام الكلاب شمالي رفح ويقدر عدد المقيمين فيها بنحو ١٥٠٠ شخص بينهم آل المصري وابو شعث وابو معمر وغيرهم .

٣ - منطقة مشروع عامر (شرقي رفح) ويقدر عدد المقيمين فيها بنحو ٦٠٠ شخص من عائلات الملاحه وابو طعيمة وبعض آل ابو ماضي وجميعهم من الذين رفضوا التعاون مع سلطات الاحتلال .

وتشير معلومات مؤكدة الى ان قرار انشاء معسكرات الاعتقال الجماعية في سيناء قد اتخذ من جانب اعلى القيادات السياسية والعسكرية الاسرائيلية . لقد اعرب الصليب الاحمر عن قلقه لما يجري في قطاع غزة ، لكن اسرائيل نفت ما نشر عن معسكرات الاعتقال . وفي ٧٢/٢/٢٢ جاء في تقرير لصحيفة « جيروزالم بوست » ان حاكم قطاع غزة رفض اعطاء فرصة للصحافيين لزيارة هذه المعتقلات .

وقد اضطرت اسرائيل الى اغلاق معسكر نخل الكبير في شباط بعد تدخل الصليب الاحمر واعيدت ٢٨ عائلة فقط الى مساكنها بينما نقل الباقون الى معسكرات اخرى . وفي ٧١/١١/٢٩ تم اغلاق معسكر ابو زديمة ونقلت معظم العائلات المحتجزة فيه الى معسكرات اخرى .

أما المعسكرات التي لا تزال قائمة فهي وادي موسى وسانت كاترين والقصيمة والعريش . وعندما استفسر الصليب الاحمر في مطلع شهر اذار ١٩٧٢ عن امكان زيارة معسكر وادي موسى في منطقة الطور اجاب الاسرائيليون انه لم يكن هناك في اي وقت معسكر للاعتقال .

الرفض والمقاومة داخل السجون الاسرائيلية

يعيش السجناء الفلسطينيون في السجون الاسرائيلية حياة لا انسانية فظيعة ، حيث يرزحون تحت التعذيب والاذلال وسوء المعاملة والتمييز العنصري والحرمان من الحقوق الاساسية ، ولذلك فان السجن الفلسطيني اعتبر السجن مرادفا لمقاومة الاحتلال الاسرائيلي مارس في هذا الاحتجاج الوانا من الاضراب ، التظاهر ، الاحتجاج الجماعي وحتى مقاتلة السجناء بالعراك .

النضال من أجل الحقوق القانونية : حسب رواية المقاتل عبد الله من بني نعيم (٧٢) ، رتب المعتقلون من اسرى معركة الكرامة حملة اضراب شاملة ويداؤوا بالمطالب الصغيرة من اجل نشر الصمود في السجن ، وطالبوا بحضور مدير السجن لتوجيه سؤال اليه عن سبب اعتقالنا فقال :

- لانكم مخربون !

« وجادلناه في ذلك وقلنا بأننا اسرى حرب ، ولا بد من ان يتحول اعتقالنا الى مشكلة سياسية ، واعلنا الاضراب الشامل بناء على مطالبتنا بان نكون اسرى حرب » (٧٣) . « وبواسطة ام واحد منا جعلناها تطوف على كل السجون نشرنا فكرة الاضراب الذي تحقق واستمر سبعة ايام » ثم طالبنا بحضور مندوب الصليب الاحمر وقدمنا المطالب التالية :

١ - لا بد من اعتبارنا اسرى حرب .

٢ - نعلن الاضراب عن الطعام حتى الموت او الخروج من السجن .

واستمر ذلك حتى افرج عنا في ١٣/٥/٧٠ « (٧٤) .

رفض الاعتراف بمحاكم الاحتلال : لا يعترف السجن الفلسطيني بشرعية الاحتلال ، وبالتالي فهو لا يعترف باهلية محاكم الاحتلال لمحاكمته . لقد سال القاضي المعتقل صبحي الذي جاء الى بيته بدون تصريح :

- وماذا تقول دفاعا عن نفسك ؟

فأجاب صبحي :

- وهل مذنب انا حتى ادافع عن نفسي ؟ ومن المؤهل لان يمنعني من العودة الى الوطن ؟ (٧٥) .

وخاطب بدر دعنا القضاة رافضا الاعتراف بهم ورافضا في نفس الوقت ان يطلب الرحمة . « كعربي فلسطيني اعمل على تحرير العرب وتحريركم انتم اليهود ايضا من الصهيونية والامبريالية ، انني لم اقم بالعمل الذي نسب الي ، انا بريء ، ولكن اذ اكنتم مع ذلك قد ادنتموني فانني لا اعترف بكم ، فقط محكمة من ايام العصور الوسطى كان من الممكن ان تتصرف كما تصرفتم » .

الاضراب : في الثلاثين من ايلول من عام ١٩٧١ ركل السجناء توليدانو سجيننا مريضا واعمى في سجن عسقلان وضربه مسببا جروحا في جميع انحاء جسمه لانه لم يقف في حالة استعداد ، وهنا ثار السجناء وردوا ردا عفويا على السجناء النازي ، وبعد ذلك رد السجناء بقوة كبيرة وانتقموا من السجناء ، كثيرون منهم ضربوا ضربا مبرحا وكسرت ايدي عدد منهم او اسنانهم ونقل ١٨ سجيننا للمعالجة وهم حفاة وثيابهم ممزقة .

لقد ضج الرأي العام ، واكتفى مدير السجن ارييه نير بالقول ان تمرد سجن عسقلان هو محاولة لتقليد تمرد السجناء الكبير في سجن اتيكا بولاية نيويورك الذي قمع بوحشية .

وأوصد السجن - سجن عسقلان - في الحال بوجه الصحفيين ، واما التلفزيون الاسرائيلي فلم يصور مقابلات مع السجناء بل اكتفى بتصوير نير وجليونه من جميع

الزوايا الممكنة (٧٦) ، وعزل سجن عسقلان عزلا تاما عن العالم وقلصت زيارات الاقارب ، وقد عزز كل ذلك الاشتباه بان لدى الشرطة ما تخفيه .

وطالبت جمعية حقوق الانسان في اسرائيل بلجنة تحقيق عامة ، كما اقترح عضو الكنيست م . فيلنر من قبل كتلة رايح تشكيل لجنة تحقيق برلمانية مؤلفة من جميع الكتل لتحقق في تمرد سجن عسقلان . لكن مدير السجون ارييه نير كلف ضابطين من ضباطه بالتحقيق والذين يجب ان يكونوا هم المحقق معهم ، ولم ينشر تقريرهم !

وفي ٧/٧/٧٣ بدأ اضراب ٦٧٨ سجيناً في سجن بئر السبع احتجاجاً على تشغيـل السجناء بانتاج شبكات تمويه للجيش الاسرائيلي على اعتبار ان ذلك يؤدي للنيل من مشاعر السجناء القومية وكرامتهم وقال احدهم - ابو علي - لمدير السجن :

« انت تريد ان نساعد الدولة التي تقتل اشقائنا على قتلهم بأيدينا ! لن نستطيع ارغامنا على ذلك بالرشاشات » .

لقد اضررب سجناء بئر السبع في هذه المرة عن حلق ذقونهم وقص شعورهم ، ورفضوا قبول الزيارات العائلية وكذلك تسليم اغراضهم للغسيل . وبهذه الطريقة احتج السجناء على القذارة في السجن . وطالبوا بتحسين الطعام والنظافة ووقف المعاملة القاسية للاسر التي تأتي لزيارتهم .

وتسترت سلطات السجن على الاضراب الى ان كشفته لانجر بعد خمسة ايام وسارعت الى نقله الى عضو الكنيست فلنر الذي اسرع بنقله الى وكالة عيتيم .

وعندما جوبه نير - مدير السجون - بوجود الاضراب قال بان جميع المعلومات جاءت من مصدر واحد ، وبعد ان ضيقوا عليه قال بان السجناء لا يتناولون الا الطعام الذي يأتيهم من البيت ، اما الوزير هيلل فكان اكثر شجاعة وتملص بالقول بان لكل سجين الحق في الاضراب (٧٧) .

وفي ٤/١١/٧٢ اضربت جميع الموقوفات والسجينات العربيات في سجن صرفند احتجاجا على حرمان لطفية الحواري ، المشلولة ، من العلاج ، وارسلن عريضة الى مدير السجن تطالبه بالمعالجة الطبية للطفية ويقلن بان على السلطات ان تعالجها بصورة انسانية والا تسمح بان تتعذب لطفية ، بالاضافة الى اعتقالها ، بالالام .

وفي الحال وضعوا السجينات في زنزانات ، ومن داخل الزنازين اطلقت السجينات نداءات تشجيع للطفية : « نحن معك ٠٠٠ لن نتركك » واطعموا لطفية بالقوة ثم نقلوها الى المستشفى .

تصفيية جاسوس : « بعض رفاقنا كان قد نفذ حكم الاعدام في حق احد الجواسيس الذي قررت محكمتنا اعدامه ، فأدموه بمقصد الحلاقة بضربه ٣٦ ضربة » (٧٨) .

الحواشي

- (١) الطليعة ، القاهرة ، ايار ١٩٧٥ ، ص ٣٨ ، من افادة سليمان النجاب .
 (٢) فيليتسيا لانغر ، بام عيتي ، ص ١٠٦ .
 (٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .
 (٤) فلسطين الثورة ، ١/١/١٩٧٦ ، ص ٧٥ ، من افادة احمد الهدهد .
 (٥) الطليعة ، ايار ١٩٧٥ ، ص ٣٨ .
 (٦) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

- (٧) فلسطين الثورة ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٧ .
- (٨) لانغر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٠ .
- (٩) المصدر نفسه ، ص ٢٩٤ .
- (١٠) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
- (١١) المصدر نفسه .
- (١٢) المصدر نفسه ، ص ٦١ .
- (١٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .
- (١٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ .
- (١٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .
- (١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٨٧ .
- (17) 3 Rd Geneva Convention
articale 4 .
- (١٨) عل همشمار ، ٢٧ آب ، ١٩٧٣ .
- (١٩) ديلي ستار ، ٢٣ آب ، ١٩٧٣ .
- (٢٠) لانغر، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥ .
- (٢١) المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .
- (٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٠٨ ، كان
صلاح مداح في سجن عكا .
- (٢٣) جيروزاليم بوست ، ١٢ نيسان ،
١٩٧٣ .
- (٢٤) لانغر ، مصدر سبق ذكره ،
ص ١٧٤ .
- (٢٥) المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ .
- (٢٦) الاتحاد ، ١٩٧٣/١/١١ .
- (٢٧) مثلما ضرب اولاد جاد عبيد في
بيت لحم .
- (٢٨) لانغر ، مصدر سبق ذكره ،
ص ١٨١ .
- (٢٩) الاتحاد ، ٢٢ ايار ، ١٩٧٣ .
- (٣٠) الغارديان ، ٢٦ شباط ، ١٩٧٣ .
- (٣١) لانغر ، مصدر سبق ذكره ،
ص ٢٣ .
- (٣٢) المصدر نفسه ، ص ٧٥ .
I.V. (33)
- (٣٤) فلسطين الثورة ، ١٩٧٦/١/١ ،
ص ٧٥ .
- (٣٥) لانغر ، مصدر سبق ذكره ،
ص ٤٠٧ .
- (٣٦) المصدر نفسه ، ص ٢٩٦ .
- (٣٧) الاتحاد ، ٦ آذار ، ١٩٧٣ .
- (٣٨) لانغر ، مصدر سبق ذكره .
- (٣٩) الاتحاد ، ١٩٧٣/١/١١ .
- (٤٠) جيروزاليم بوست ، ١٢ نيسان ،
١٩٧٣ .
- (٤١) الاتحاد ، ٢ شباط ، ١٩٧٣ .
- (٤٢) لانغر ، اولئك اخواني ، ص ١٨٩ .
- (٤٣) الطليعة ، القاهرة ، ايار ١٩٧٥ ،
ص ٣٨ .
- (٤٤) لانغر ، مصدر سبق ذكره ، ص
٦٢ .
- (٤٥) فلسطين الثورة ، ١٩٧٦/١/١ ،
ص ٧٧ .
- (٤٦) الاتحاد ، ١٩٧٣/١/١١ .
- (٤٧) لانغر ، مصدر سبق ذكره ،
ص ١٨٦ .
- (٤٨) المصدر نفسه ، ص ٤١٧ .
- (٤٩) فلسطين الثورة ، ١٩٧٦/١/١ ،
ص ٧٥ ، افادة احمد الهدهد .
- (٥٠) ديلي ستار ، ٢٣ ايار ، ١٩٧٣ .
- (٥١) لانغر ، مصدر سبق ذكره .
- (٥٢) المصدر نفسه .
- (٥٣) الاتحاد ، ١٩٧٣/١/١١ .
- (٥٤) لانغر ، مصدر سبق ذكره ،
ص ١٣٧ .
- (٥٥) المصدر نفسه ، ص ١٨ .

- (٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨١ .
- (٥٧) فلسطين الثورة ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٥ .
- (٥٨) لانغر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٨٩ .
- (٥٩) المصدر نفسه ، ص ٣٥٠ .
- (٦٠) فلسطين الثورة ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٥ .
- (٦١) لانغر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٢ .
- (٦٢) ولد في المسمية سنة ١٩٣٤ وفي الخمسينات التحق بصفوف « عصبة التحرر الوطني » التي أسسها الشيوعيون العرب الفلسطينيون منذ العام ١٩٤٣ . وفي آب ١٩٥٣ تحولت هذه العصبة الى « الحزب الشيوعي الفلسطيني » .
- (٦٣) لانغر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٣٢ .
- (٦٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥٢ و ٣٥٨ .
- (٦٥) المصدر نفسه ، ص ٣٥٨ .
- (٦٦) لانغر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٧ .
- (٦٧) المصدر نفسه ، ص ٢٨٢ .
- (٦٨) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .
- (٦٩) لانغر ، اولئك اخوتي ، ص ٦٧ .
- (٧٠) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .
- (٧١) I.V. p. 41 .
- (٧٢) فلسطين الثورة ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٧ .
- (٧٣) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .
- (٧٤) المصدر نفسه .
- (٧٥) لانغر ، بأم عيني ، ص ١٢٥ .
- (٧٦) المصدر نفسه ، ص ٢٩١ .
- (٧٧) المصدر نفسه ، ص ٣٨٧ .
- (٧٨) فلسطين الثورة ، ١٩٧٦/١/١ ، ص ٧٧ ، شهادة عبد الله من بني نعيم .

الحبيب

ليست بيروت هي المدينة الوحيدة التي لا نستطيع أن نضرب فيها موعدا * فسي باريس أيضا ، تأخر عن الدين قلق عن الموعد الأخير ، فلم يأت الى مطعم الخبز الطازج ، ولم يحدثنا عن علاقته الليفة بالموت الذي يرافقه * القى تحية الصباح على شاب يشرب القهوة عند مدخل البناية ، فرد عليه بأحسن منها * * ويقبلة

وفي لندن أيضا ، تأخر سعيد حمامي ، فلم يف بوعدته أن نذهب معا الى بحيرة شعراء انجلترا الرومانتيكيين ، أو اى طريق اسفورد حيث توقف فجأة وتساءل عن بيروت التي تشبه غرفة على الطابق الاعلى من بركان ، تذكر شارع الكومودور المظلم الذي كانت تضيئه ، بين الفنية والأخرى ، قذائف الهاوتزر التي هدتنا الى الفندق * .

واضاف غسان كنفاني سببا آخر لذبذبة مواعيده ، فلم يأت الى الجريدة ، ولم يعتذر عن موعد الغداء * .

فلماذا نصدق علي حسن سلامة اذن ، ما دام هؤلاء الفتيان الفلسطينيون يكذبون على أصدقائهم جميعا ، في بيروت وخارجها ، ولا يأتون الى مواعيدهم !

انتهز ابو حسن فرصة وجودنا في دمشق ، وانفجر كوردة ضخمة في فردان ، قريبا من دم كمال وكمال وابي يوسف الذين أعطوا أيضا مواعيد لا تتحقق * .

نعرف أبا حسن كما نعرف الكهرياء التي تسري بين العظم واللحم في تراجيديا فلسطينية ، ونعرف صموده الطويل في المبارزة المضنية مع موت يشتهي ومع حياة يشتهيها * هذا السيف الذي صك من شهوة ودم لم يغمد لحظة واحدة في حياة يوقن أنها خاطفة ، كحياة الذين لا يمشون الا على حبال البرق * . واذا كان قد استطاع ان يبتكر هدوء وسكينة للتعامل مع الآخرين ، فلأنه كان قد نجح في ترويض الهاجس الذي يحتله * .

لقد صاغ حياته كلها ، بنظامها وتفصيلها ، وذوقها المنتقى ، وشهيتها المفتوحة على الربيع ، كما أملت عليها عليه لياقة الفرسان وشجاعتهم في نزولهم ، أو صعودهم ، الى الموت المحتبي وراء كل لحظة * كان عريسا جاهزا للزفاف الدموي الخاطف * وكان الفارس يعرف أنه الخاسر ، ولكنه كان يعرف أيضا ان معادل الريح في هذه المبارزة هو خسارة الحياة والتاريخ معا ، وسائلة تنحدر من ذهب * .

دائما كان يقول * * ساموت غدا ، فماذا سكتبون عني ؟ أنتم تكتبون ونحن لا

يبقى منا غير ملصق على حائط ، وما أسوأ حظ الذين يموتون في الشتاء لان المطر يجرف ملصقاتهم !

ويحب القراءة ، والنهارات الجميلة ، وينتزعهُ أبو عمار من أي وقت ومن أي مكان • كان اسمه الحبيب • ومن فرط ما كان قويا ووسيعا ووفيا ويقظا لسم نصديق أنه سيذهب • وفي الشتاء ، في الشتاء الذي لا يريده ، كانت جدران بيروت وأشجارها تنفجر ضورا للشهيد البطل أبو حسن •• علي حسن سلامة ، كما تنفجر أرض فلسطين بزهر اليرقوق بعد قليل • تنأ نيكى في آخر الجنائز ، لاننا أدركنا ان عليا لم يكن يمزح ، وأنه تحول الى ملصق على حائط والسماء تمطر •

لا ، لن يجرفه المطر من القلوب التي يسكن ، ومن فلسطين التي اعطاها اللاف الازهار • ولا يتمجد بانشهاده وحدها ، فهذا الفتى الذي هو ابن ابيه • كان يعرف كيف يعد حياته حجرا في بناء فلسطين الغد ، ويعرف كيف تولد فلسطين الغد بالثورة ، ويعرف كيف يقوم بواجبه اليومي ، الصامت حيننا والصارخ حيننا ، ويعرف كيف يتبارى مع الموت الذي لاحقه من باب الى باب ، ومن موجة الى موجة ، ومن سطوح المنازل وأزقة الشوارع ، ومن درجات السلم ، ومن دقائق الساعة ، ومن رنين الهاتف ، حتى أعاده الى ابيه •••

ولا نسأل كثيرا : لماذا يغتالون هذا الجمال ؟ لماذا يرسلون هذه الرسالة بخمسين كيلو غراما من المتفجرات ! الان ايا حسن مر في ميونيخ كما يقولون ، أم لان الغزاة الاسرائيليين مروا في بلاده واحتلوها منذ ثلاثين سنة ! هذه الطنولة - الشاهد التي تحولت الى ثورة هي التي تشكل جوهر المبارزة • انهم يريدون تدمير الذاكرة الفلسطينية التي تورث الاجيال فلسطين جديدة ، طازجة ، تولد من ذاتها ومن ابناءها ومن كل نبض العرب ، ومن ايران الجمهورية ••

انها حرب الإبادة التي أعلنتها الاسرائيليون علينا منذ أعلنوا حضورهم على أرض فلسطين • وأبو حسن احد المقاتلين الذين يعلنون حضور فلسطين في العالم ، فاذا حضرت فلسطين غابت اسرائيل • وفي حرب الحضور - الغياب التي لا تتوقف ، نودع الحبيب ايا حسن ، ونذكر أن مواعيدنا لن تصدق الا هناك ، حيث يصسب شهداؤنا خطاهم ، وحيث سيكون حضورنا كاملا على أرضنا التي تتوهج •• ومنتصر •

« شؤون فلسطينية »

حوار مع البروفيسور إسحاق شاحك : الدور الإسرائيلي في المأزق

اجرى هذا الحوار مع البروفيسور إسحاق شاحك احد الصحفيين العرب المقيمين في أوروبا ، و « شؤون فلسطينية » تنشر هذا الحوار نظرا للمعلومات الهامة التي يتضمنها ، ويوصفه شهادة من احد كبار المفكرين الاسرائيليين المعادين للصهيونية .

★ كيف نقيم وضع اسرائيل خلال السنوات الخمس الاخيرة التي اعقبت حرب اكتوبر ؟

□ اعتقد ان اهم التطورات التي تعرضت لها اسرائيل ، او لنقل الصهيونية العالمية ، في السنوات الخمس الاخيرة ، تتعلق بتزايد دورها العسكري والاقتصادي خارج الشرق الاوسط ، فالكثيرون ، والفلسطينيون خاصة ، وهم الطرف الاساسي الذي يخوض الصراع ، يسقطون من اعتبارهم الدور الهام الذي تلعبه اسرائيل كجزء من السياسة الاميركية خارج المحيط العربي .

لنبدأ بثورة نيكاراغوا ضد نظام سيموزا ، المسألة المجهولة بشكل كامل ، هي الدور الهام الذي لعبته اسرائيل ضد الثورة ، ففي بداية عام ١٩٧٨ ، وبعد مقتل رئيس تحرير احدى الصحف في نيكاراغوا ، عم الاحتجاج اوساط الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة ، فواقفت الولايات المتحدة ، او لنقل قللت من كميات الاسلحة المرسلة الى نيكاراغوا ، لكن اسرائيل وابتداء من شهر نيسان (ابريل) ١٩٧٨ ، قامت بالدور الذي كانت تلعبه اميركا ، فارسلت كميات من الاسلحة ، وخاصة الاسلحة الخفيفة الفردية ، بنادق رشاشة من نوع « جليل » ، وكذلك بنادق « عوزي » .

الواقع ان بعض الصحف في الولايات المتحدة وفرنسا لم تشر الى هذه المسألة ، لكن الصحف البريطانية وخصوصا « الغارديان » و « التايمز » ، كما ان الصحف العبرية نشرت بعض التقارير والشهادات من داخل نيكاراغوا ، ومن واجب جميع المعادين

للمهيوينية معرفة هذه الحقائق ، ومعرفة الدور الذي تقوم به اسرائيل في دعم الانظمة الرجعية . فنكاراغوا هي الدولة السابعة في اميركا اللاتينية التي تتلقى معظم حاجاتها من الاسلحة من اسرائيل . والدول الست الاخرى هي : تشيلي ، الاكوادور ، سان سلفادور هندوراس ، غواتيمالا والمكسيك . ولقد عبرت بعض الصحف التقدمية في المكسيك عن احتياجها على وصول شحنات من الاسلحة الاسرائيلية . ومنذ اشهر ، قام الجنرال غور ، الرئيس السابق لاركان الجيش الاسرائيلي ، بزيارة تشيلي ، وظهرت صورته في الصحف الى جانب الجنرال بينوشيه ، بعد ان تم التوصل الى اتفاق مشترك لتزويد تشيلي بالاسلحة الاسرائيلية . ولقد اعرب غور عن تقديره الكبير ، للانتصارات التي حققها الجيش التشيلي . وارىد ان اشير هنا ، الى انه عندما يقال عن اسلحة حفظ الامن الداخلي ، فان هذا يشتمل ايضا على ملابس عسكرية وخوذات تصنع في كيبوتز ، اخل اسرائيل يدعى كيبوتز « مشمار هعيمك » ، وهو تابع لحزب الميام الذي يملك مصنعا يسمى تامي .

بالاضافة الى البلدان السبعة التي ذكرت ، هناك بلدان اخرى تتلقى بعض الاسلحة . واود ان اشير الى الارجننتين بشكل خاص . فالارجنتين هي اكثر بلدان العالم عداء للسامية . وبالاضافة الى الاسلحة التي ترسلها اسرائيل الى الارجننتين ، فان اسرائيل تساعد ايضا في متع اية حملات ضد العداء للسامية في الارجننتين . كما قام بعض المسؤولين بزيارة الارجننتين ومن بينهم الجنرال غور . وساهمت اسرائيل في العمل من اجل منع نجاح مقاطعة مباريات بطولة العالم في كرة القدم والتي جرت في الارجننتين العام الماضي .

اما الدور الاسرائيلي في هايتي ، فانه لا يشتمل فقط على شحنات الاسلحة ، بل يمتد الى مجال البعثات الزراعية . وفي نيكاراغوا بعثة زراعية اسرائيلية ارسلها وزير الزراعة شارون ، بهدف المساهمة في تعطيل مستوى انتاج البنودرة هناك .

وفي القارة الافريقية تلعب اسرائيل دورا كبيرا . فبالاضافة الى التدخل الاسرائيلي في القضايا الامنية في جنوب افريقيا ، فانها بنت شريطا امنيا بين كل من جنوب اريقيا وكل من انجولا ونامبيا . وقليل من الناس يعلمون ان الاجهزة التي يستخدمها البوليس في جنوب افريقيا هي من صنع اسرائيل . واود ان اشير الى الدعم الاقتصادي . وكما هو معروف فان جنوب افريقيا لا تستبعد من اية تخفيضات جمركية او اية تسهيلات اقتصادية في اسواق الولايات المتحدة او مع السوق الاوروبية المشتركة ، غير ان اسرائيل ، وهي العضو المشارك في السوق الاوروبية المشتركة ، تتمتع بتخفيضات جمركية عادية في السوق المشتركة . فترسل جنوب افريقيا الكثير من صادراتها الى اسرائيل وخصوصا الحديد والصلب ، وتوضع عليها شارات انها صنعت في اسرائيل ، ويعاد تصديرها الى الاسواق الاوروبية واسواق الولايات المتحدة . ونشرت مجلة اميركية تدعى «Buisness Week»

اسم الشركة المتورطة في هذه العملية وهي شركة « كور » التي تتبع الهستدروت . هذا الواقع بالاضافة الى دور كيبوتز « مشمار هعيمك » ، يكشف ان الاحزاب المسماة « اشتراكية » تذهب بعيدا في التعاون مع انظمة من هذا النوع . اما العلاقات الاقتصادية بين اسرائيل وجنوب افريقيا ، فان مثال ترانسكاي يعطي عنها صورة كافية . فالمعروف ان الدولة التي تدعى ترانسكاي لا تتمتع باعتراف اية دولة في العالم غير جنوب افريقيا . وهذا يعني ، ان اية دولة في العالم لم تبد استعدادا لارسال خبراء اقتصاديين السى

ترانسكاي من اجل دعم اقتصادها • غير ان اسرائيل فعلت ذلك • ويمكنني تسمية الاسرائيلي الذي ذهب الي هناك • وهذه المعلومات مستقاة من الصحافة العبرية والتلفزيون الاسرائيلي • فمنذ بضعة اشهر ظهر الرجل بنفسه على شاشة التلفزيون ، انه البروفيسور جوزف بنتاك • وهو استاذ في جامعة حيفا • كما انه ينظم مؤتمرات سلام للبحث عن حل للمسألة الفلسطينية • لقد ذهب هذا البروفيسور بنفسه الى ترانسكاي ، وقدم مساعدات لحكومة ترانسكاي في مسائل هامة جدا • فكما هو معروف يستطيع العمال الذكور في ترانسكاي ، الخروج من هذا البانتوستان والذهاب للعمل في جنوب افريقيا ، وهو شيء يحدث مع العمال الفلسطينيين من المناطق المحتلة • قدم البروفيسور بنتاك ، وباسم حرية المرأة ، اقتراحا باقامة مزارع لا يعمل فيها غير النساء • هكذا ، وبينما يكون العمال الذكور يعملون في مزارع جوهانسبرغ ، تعمل نساؤهم ، باسم حرية المرأة ، في مزارع خاصة من اجل دعم الاقتصاد • ومن المؤكد ، انه لم يظهر اي احتجاج في اسرائيل على هذا النوع من الاقتراحات ، باستثناء احتجاجات من جماعات صغيرة معادية للصهيونية ، وهي في مجملها ، احتجاجات ضد الانغماس الاسرائيلي في جنوب افريقيا •

سوف اشير الآن الى بعض الدول الافريقية باختصار • فبينما التعاون الاسرائيلي مع دولة كينيا هو امر معروف جيدا ، غير ان الامر غير المعروف هو البعثة الزراعية الاسرائيلية هناك • وقدمت هذه البعثة مشورات للحكومة الكينية من اجل اقامة مزارع ضخمة ، بدل ان تشير بضرورة توزيع الاراضي على الفلاحين • ويعمل الخبراء الاسرائيليون في ادارة هذه المزارع • كما ان هناك علاقات اسرائيلية مع ملاوي ، حيث ان حركة الشبيبة ، التي يقودها دكتور باندا ، وهي مجموعة من القتلة المعادين لقوى السلام في ملاوي ، يقوم خبراء اسرائيليون من مجموعات الشبيبة التي تعرف باسم « جاهنا » بتدريبها • كذلك هناك علاقات مع دولة شاطيء العاج • اما المثل الاهم على علاقات اسرائيل الافريقية ، هو العلاقة مع امبراطورية افريقيا الوسطى التي يحكمها الامبراطور بوكاسا • فالمستشار الاول للامبراطور المذكور هو الجنرال غونين الذي كان قائدا لمنطقة خط بارليف خلال حرب ١٩٧٣ • ولقد نال الجنرال غونين تسهيلات كبيرة في مجال تجارة استخراج الماس • ويشيع الجنرال غونين دعاية حميدة عن الامبراطور بوكاسا في اسرائيل ، باعتباره يختلف عن الشاه •

ومن المؤكد في مجال العلاقة الاسرائيلية مع ايران ، هو العلاقة الامنية وتبادل المعلومات مع جهاز السافاك • غير ان الامر المجهول كليا ، هو دور البعثة الاسرائيلية الزراعية التي قدمت المشورة والنصائح للشاه فيما عرف بالاصلاح الزراعي والثورة البيضاء • اشير الى هذا ، لانني اخشى من حدوث ما يشبهه في مصر ، الا اذا كان هذا قد حدث فعلا !

الذي تم في هذا المجال ، هو انشاء مزارع ضخمة في ايران ، نحو الف او خمسمائة هكتار للمزرعة الواحدة • اي تم تجميع بضع قرى من اجل ان تكون مزرعة واحدة • ولقد تحول الفلاحون في هذه القرى الى مجرد عمال زارعين ، حيث يسكن هؤلاء العمال في منازل تملكها الشركة التي تملك كل شيء في المزرعة • والمزارع مغلقة ، بحيث يصعب على اي كان مغادرتها • اما الشركات التي تمتلك المزارع فهي شركات متعددة الجنسية ، لكن تغلب عليها دائما الجنسية الاميركية ، كما ان عائلة الشاه هي شريكة في ملكية هذه

الشركات . والملاحظة التي اود الإشارة إليها ، وهي مأخوذة من شهادات ادلى بها الخبراء الاسرائيليون الذين عادوا من ايران ، هي ان هذا الاصلاح الزراعي ، وبكامل المقاييس الانسانية ، هو اسوأ من الوضع الاقطاعي الذي كان سائدا في السابق . فرجال الاقطاع يمارسون الاضطهاد عبر الضرائب التي يفرضونها ، اما هذا الاستغلال المفضوح فهو اكثر سوءا من الاقطاع . ثم اسمح لي ان اشير الى بلدان اخرى . وسأوجز حصول العلاقات الاسرائيلية مع تايلاند وسنغافورة . فالجيش في سنغافورة يقوم بتدريبه خبراء من الجيش الاسرائيلي . اما الانغماس الاسرائيلي في تايلاند فإنه يعود الى عام ١٩٧٦ ، بعد سنة على سقوط سايفون . فلا اظن ان اية دولة في العالم ، بما فيها الولايات المتحدة ، كانت قادرة على تحدي الرأي العام العالمي عبر ارسال اسلحة الى القوى المضادة للثورة في تايلاند . لكن اسرائيل فعلت ذلك . كما توجد بعثة زراعية اسرائيلية في تايلاند ، ويقوم أفراد العائلة المالكة في تايلاند بزيارات دائمة لاسرائيل . والرأي السائد في تايلاند ونيكاراغوا ومناطق اخرى ، هو ان اسرائيل تقوم بالاعمال القذرة بالنفياية عن الولايات المتحدة ، التي لا تستطيع القيام منفردة بهذه الاعمال ، بسبب من ضغط الرأي العام الداخلي .

ان هذا الواقع هام جدا من اجل اللقاء ضوء جديد على كامب ديفيد ، اذ انه ساهم في ازدياد التأثير الاسرائيلي على الرأي العام الاميركي .

نحن نعرف ان المكانة الخاصة التي تحتلها اسرائيل في واشنطن تأتي من الدور الذي تلعبه اسرائيل في منطقة الشرق الاوسط . غير انه في السنوات الخمس الاخيرة ، اصبح دور اسرائيل في بلدان من خارج منطقة الشرق الاوسط يساوي تقريبا دورها في المنطقة . لذلك ، يجب ان تكون حملتنا ضد الصهيونية عالمية في توجيهها . اي يجب فضح وكشف الدور الاسرائيلي في جميع بلدان العالم . وعلينا القيام بالاعلام ضد الصهيونية ، ليس فقط لانها تقوم بدورها في خدمة الامبريالية في منطقة الشرق الاوسط فحسب ، بل بسبب دورها في نيكاراغوا وتايلاند ايضا . وبذلك نحرز نتائج افضل في حربنا ضد الصهيونية ، لاننا نقدم للشعوب حقائق ووقائع تعرفها بنفسها .

ولكن ، ما هي الفائدة التي يجنيها المجتمع اليهودي في اسرائيل من صفقات تصدير الاسلحة هذه ؟

نستطيع ان نؤكد ، استنادا الى الصحافة العبرية ، ان كل الصناعة المعدنية في اسرائيل ، وهي صناعة كبيرة ، موضوعة في خدمة الانتاج الحربي . فالصناعات المدنية ، كصناعة البرادات مثلا ، قادرة ايضا على انتاج قطع غيار للاسلحة . كما تقوم الصناعات الالكترونية بانتاج متنوع . فهي تنتج شبكات اتصال لجنوب افريقيا ، كما تنتج اجهزة راديو عادية . اي ان كلا الصناعتين ، المعدنية والالكترونية ، موضوعة في خدمة الانتاج الامني والعسكري .

اما بخصوص العمل في هذه المصانع ، فمن المعروف ان الحصول على وظيفة في مصنع مرتبط بالانتاج الامني ، بشكل مباشر او غير مباشر ، تتطلب الالتحاق بالجيش . وبذلك يكون جميع الفلسطينيين العرب مستثنين من هذا العمل . ثم يخضع طالب الوظيفة لعملية غسل دماغ يقوم بها البوليس السري الاسرائيلي .

وبالاضافة الى مسألة انتاج الاسلحة ، هناك ما يمكن تسميته بالدور الامني المباشر ، اي

الجيش . فعلى سبيل المثال ، يقوم الجيش بنشر اعلانات دائمة عن حاجاته للطاقتة البشرية ، وعن الحاجة الى رجال من جميع الاختصاصات . حتى ان اعلانات المدارس المهنية تتضمن الاختصاصات التي يحتاجها الجيش بما فيها الطبخ . كذلك ، فلم ترتفع فقط اعداد رجال البوليس في اسرائيل ، بل ان اعداد حرس الحدود وهو المعروف عند الفلسطينيين بذوي القبعات الخضراء قد ارتفعت ايضا . وما علينا سوى مطالعة الصحف من اجل اكتشاف طرق تجنيد رجال الشرطة . وكمثال على ذلك هناك اعلان يقول ان بمقدور الشباب الذين انهوا دراستهم الثانوية العمل في المناطق المحتلة مقابل مرتبات جيدة وسيارة خاصة . كما ان هناك اعلانا آخر يقول ان الذين يرغبون في العمل في المناطق المحتلة يحصلون على مبالغ جيدة وسيارة خاصة .

نلاحظ كذلك ، ان الكثير من الشركات الخاصة في اسرائيل يديرها جنرالات . وربما كانت اهم هذه الشركات هي تلك التي يديرها الجنرال رايفي ، الذي عمل قائدا للمنطقة الوسطى ومستشارا لرابين . وشركته تصدر الان خبراء امنيين الى اميركا اللاتينية .

ثم هناك اعلانات تعد الخبراء بمبالغ كبيرة من المال ، وبالنسبة فان الاعلانات تحدد ان هذه المبالغ ستدفع بالدولار . كما تعدهم برحلات سياحية في اوربا كوسيلة للاغراء . هكذا نلاحظ ، ان التوجه العام هو توجه نحو اخضاع الاقتصاد الاسرائيلي للاغراض الحربية والامنية .

هناك الآن عدد كبير من اليهود ، كانوا يعملون قبل عام ١٩٦٧ في وسائل الانتاج ، فصاروا اليوم يعملون في النشاطات الامنية . هنا ، يقوم الفلسطينيون من المناطق ، بتلبية الاحتياجات الاقتصادية التي شغرت . تقول صحيفة « يندستيتسمن » البريطانية في عدد ٧٨/٩/٢٨ ، بان حاجتنا الى الايدي العاملة العربية ستبقى في حالتها التوصل الى سلام مع العرب او الفشل في ذلك .

قبل البحث في اوضاع الفلسطينيين في المناطق ، اريد ان اعطي بعض الارقام ويموجب التعبير العبري العام المستخدم ، فان الفلسطينيين يمرورون في سوق الاستخدام . وعليه ، فان الارقام التي تقدمها الحكومة والمستوحاة من مكاتب العمل لا تنطبق باية حال على الحقيقة . غير اني استطيع ، واستنادا الى ارقام استقيتها من البوليس ومن مصادر اخرى ، ان اقول بان عدد العمال الفلسطينيين القادمين من المناطق وحتى نهاية عام ١٩٧٨ هو ٢٥٠ الف عامل ، هذا دون ان يشتمل هذا الرقم على العمال الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الاسرائيلية . اي هناك ربع مليون عامل فلسطيني . ويعود الارتفاع الكبير في هذا الرقم ، بحسب اعتقادي ، الى كونه يشتمل على عدد كبير من الاطفال والنساء . فهناك الكثير من الاطفال الفلسطينيين في سن الثامنة يعملون في اسرائيل . اما الصبيان الذين هم في سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، فهم عمال عاديون ويمكن النظر اليهم على هذا الاساس . اما السبب الثاني فيمكن في كون فرص العمل قليلة جدا في قطاع غزة ، كما ان الاقتصاد الزراعي في الضفة الغربية قد دمر بسبب المصادرات التي يقوم بها الحاكم العسكري ، وبسبب الاسعار المنخفضة للمنتجات الزراعية . وعلى سبيل المثال فان المزارعين في الضفة الغربية لا يزرعون القمح لان اسرائيل تحصل على كميات كبيرة مجانية من القمح الاميركي .

وبناء على هذا الواقع نستطيع ان نقول ، ان الفلسطينيين في المناطق المحتلة وحتى

دأخل اسرائيل قد اصبحوا من الطبقات العاملة التي تعتمد على اجورها . وحسب تقديراتي فان نسبة الذين يتقاضون اجورا هي حوالي ثمانين بالمئة من الفلسطينيين . وبما انهم لا يجدون اماكن للعمل في الضفة الغربية او في غزة فانهم يضطرون للعمل في اسرائيل . واريدها ان اوجه نداءا انسانيا . فانت لا تستطيع ان تقول لكل الشعب الذي يعاني من الجوع والبطالة لا تذهب للعمل وعان الجوع . فانا اعتقد انهم مجبرون على العمل ، كما هو الحال في جوهانسبرغ وفي شروط شبيهة بشروط العمل المفروضة على شعب سوتسو .

هناك مسألتان هامتان فيها يتعلق بشروط عمل الفلسطينيين في المناطق في اسرائيل . **النقطة الاولى :** هي ان الفلسطينيين في المناطق ممنوعون من الاقامة في مناطق تدخل في نطاق الحزام الاخضر او التواجد فيها ما بين الواحدة والثالثة صباحا . وهذا يعني ان على جميع العمال العودة ليليا الى مناطق سكنهم ، والعودة منها صباحا الى اماكن عملهم . هكذا يصبح العمال مرهقين الى درجة لا يستطيعون بعدها القيام بشيء ما عدا النوم . فالذي يعمل ثمان ساعات يحتاج الى ساعات اخرى للعودة الى منزله ، ولا يتبقى له من قوة للقيام بأي عمل اخر سوى النوم . ان هذا القانون هو قانون عنصري فاضح ويشبه القانون الذي يطبق في جوهانسبرغ . ان هذا التشابه بين اسرائيل وجنوب افريقيا هو امر بالغ الاهمية .

النقطة الثانية : هي العدد القليل من العمال الفلسطينيين الذين يعملون عن طريق مكاتب العمل الاسرائيلية . فالعدد الاكبر من العمال يعمل على مسؤوليته الفردية .

فالذين يعملون عن طريق مكاتب العمل يخضعون لسلطة الحاكم العسكري بشكل كامل . حتى انهم يحصلون على اجورهم عن طريقه ، كما انه يحسم ما بين ٣٥-٤٠٪ من هذه الاجور للخدمات الاجتماعية . وهم غالبا ، لا يحصلون على اجورهم فورا ، بل بعد مرور حوالي شهرين او ثلاثة . والاهم من ذلك ، هو ان الحاكم العسكري يحتفظ بقائمة باسماء العمال بحيث يصعب التهرب او ابداء الرغبة في التوقف عن العمل . ولا يحق للعمال في حال مرضه اختيار الطبيب ، فالحاكم العسكري هو الذي يختار الطبيب .

واخيرا اريد ان اقول انه في فلسطين ، وهنا ساستخدم تعبير صحيفة « نيوسيتسمن » يجري خلق اوضاع شبيهة باوضاع جنوب افريقيا ، وهذه مسألة ملائمة جدا للولايات المتحدة ولدورها العالمي .

★ كيف يمكننا ، وانطلاقا من هذا الدور الاسرائيلي الذي اشرت اليه ، فهم لحظة التوصل الى اتفاق ثنائي بين مصر واسرائيل . هنا ، وبالنظر الى توسع الدور الاسرائيلي ، فان اسرائيل لن تكون بحاجة الى العمال الفلسطينيين فقط ، بل سنكتشف الطاقة البشرية المصرية العظيمة . ومنذ فترة قصيرة تقدم ايزمان باقتراح الى السادات من اجل الاستفادة من مياه النيل من اجل تحقيق مشروع زراعي كبير في سيناء والنقب ما هي رؤيتكم لهذه المرحلة القادمة ؟ وما هي النتائج الاجتماعية للتحويلات المحتملة ؟

□ انني اوافق مع جميع ما اشرت اليه . بل انني اتخوف من نتائج اسوأ . امامي الان تقرير نشرته مجلة « نيوزويك » الاميركية عن نتائج كامب ديفيد بقلم كبير محرريها « انولد دي بورجر » ، يقول فيه ان من بين اسرار كامب ديفيد هو ان الولايات المتحدة ستمارس مزيدا من الهيمنة على الصناعة الاسرائيلية . وانا اعتقد بان التعاون المصري

الاسرائيلي سيكون هاما على اكثر من مستوى - فعلى المستوى السياسي ، سوف يمتد ليشمل الخدمات السرية • اما على المستوى الاقتصادي ، فاننا اعتقد بان مصر لديها الكثير الذي تعطيه لاسرائيل ، بينما ليس لدى اسرائيل الا القليل الذي تعطيه لمصر • ويمكن كمثل على ذلك ، ايراد مشروع تزويد النقب او سيناء بمياه النيل • والسؤال هو عن النتائج الاقتصادية والسياسية لمشروع من نوع نقل المياه هذه مسافة كبيرة بدل استخدامها قرب النيل نفسه • ان نقل المياه الى النقب لا يزيد في قوة مصر ، بل يزيد في مصالح السادات على المستوى الشخصي ، اذ ستذهب بعض المبالغ من المال الى عائلته مقابل المياه • وبالقدر نفسه ، فاننا لا اعتقد ان مصر ستنال فائدة على المستوى الاقتصادي من هذا السلام • دعنا اولا نرى الفائدة التي جناها نظام السادات من الولايات المتحدة خلال السنوات الاخيرة • لقد اقيمت الفنادق والنوادي الليلية ومصانع الكوكا كولا ، ولم اسمع عن انشاءات في مجالات الصناعات الثقيلة ، كما لم اسمع عن اصلاحات في التعليم او في شبكة التلغرافات او المواصلات • ومساعدات الولايات المتحدة لمصر لا تختلف عن مساعداتها لبلدان اخرى تثور الان ، كما هو الحال في ايران ، لان هذه المساعدات تذهب اساسا من اجل شراء الاسلحة • ثم ، ان جميع الاضطرابات في مصر هي بسبب فساد نظام السادات ، فالشعب يزداد فقرا •

يقول السادات ان جميع المشاكل هي بسبب الحرب ، وهذا غير صحيح • فالصحيح ان سبب المشاكل هو نظام السادات • كما اني لا اعتقد بان السلام سيحل كل المشاكل • فالسادات بحسب ما جاء في « النيوزويك » ، يقول بانته لن يرفع عدد افراد القوات المسلحة الى اكثر من ٢٠٠ الف رجل ، مما يستوجب تسريح حوالي نصف مليون رجل • وفي جميع الحالات ، فليس هناك نصف مليون وظيفة شاغرة في مصر • فخلال سنة على توقيع اتفاقية السلام ، يمكنك توقع أزمة في مصر تشبه أزمة كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧-

وبالمناسبة فان الاوضاع الاقتصادية في اسرائيل لا تختلف كثيرا في سوتها عن اوضاع مصر • فاسرائيل تعاني مستوى عاليا من التضخم • وحسب ما تورده المصادر الرسمية ، فان نسبة التضخم في اسرائيل هذه السنة قد تصل الى ١٠٠٪ ، رغم ان تقديراتي الشخصية هي بنسبة ٧٢ بالمئة • ولقد اورد نسبة المئة بالمئة نائب وزير المالية الاسرائيلي السيد فلومن • فالنسبة الكبيرة من الضرائب في اسرائيل مستوفاة من اصحاب الاجور وليس من اصحاب الشركات الخاصة وهذه احد اسباب التضخم ، وهو يشبه الوضع في مصر • وهذه الاموال التي لا تستوفي دفع الضرائب لا يمكن ان توضع في الانتاج • وهي لذلك تصرف على الكماليات ، والكماليات تزيد من التضخم والحقيقة انك في اسرائيل يمكنك توقع مصاعب اقتصادية • وهي ستكون في البدايات مصاعب محض اقتصادية • من نوع زيادة الاجور ودعمها • لكن ما الذي تستطيع اسرائيل بيعه لمصر • حسب ما اسمع برادات وادوية ومكيفات • لكن السؤال كم عدد المصريين الذين يستطيعون شراء هذه المنتجات • ان الحالة هي ان الامر بالنسبة لاسرائيل ومصر كحال مفلسين يودان دعم بعضهما •

★ اذا عدنا للمسألة الفلسطينية ، فان هذه المحصلة تعني ان الاثار السلبية لاتفاقية السلام المنفردة والازمة التي سيعانيها الفلسطينيون لن تطولا لفترة طويلة •

□ انني موافق الى درجة كبيرة • نعم • هذا صحيح واعتقد ان الفترة الزمنية لن تكون اطول من سنة او سنتين • غير ان نصيحتي للفلسطينيين هي ان يستمروا في اثبات

وجودهم عن طريق نضالهم وان يحافظوا على وحدتهم خلال هذه الفترة . ولا شيء يمكن رؤيته او اخذه بعين الحسبان خلال الاشهر التي تلت توقيع كامب ديفيد سوى ان الفلسطينيين ما زالوا موحدين وحريصين على هويتهم الوطنية ويصرون على الاستقلال وحق تقرير المصير . وانا اعتقد ان الوضع في الفترة القادمة لن يتغير فقط ، بل سيتطور نحو الافضل . لانه ما الذي يمكن للسادات ان يقوله بعد ان يتوصل الى اتفاقية لا يمكن تطبيقها . ثم ما الذي يمكن لبيغن ان يقوله بعد ان يتوصل الى اتفاقية سلام مع السادات من غير ان نقدم حلا للمسألة الفلسطينية .

★ عندما كنت تتكلم عن الوحدة الفلسطينية ، اعتقد انك تعني من بين ما تعنيه ان مشروع « تقرير المصير » سوف ينهار ايضا في الضفة الغربية وقطاع غزة ولن يكون ذلك حقيقيا للمسألة الفلسطينية .

□ انني اتفق كلية حول ذلك مع التحفظ بخصوص انهم في اسرائيل لا يسمونه حق تقرير المصير . بل هم يتجنبون كلمة تقرير . ويسمونه الحكم الاداري او المجلس الاداري وهذا لن يعطي ، في رأيي ، اية شخصية او هوية وطنية فلسطينية . وهو برأبي كذبة كبيرة لانه لن يشتمل على اي نوع من المضمون الوطني ليس فقط بما تعبر عنه منظمة التحرير بل حتى بما يعبر عنه الفريق الذي يدعم الملك حسين ، وهو يضم اسما مثل مصطفى دودين وعبد الرؤوف فارس من نابلس . ولن احكي شيئا عن السيد دودين لانكم انتم العرب تعرفونه اكثر مني . لكنني سأخبرك ان السيد دودين ظهر على شاشة التلفزيون وادعى ان ياسر عرفات ليس فلسطينيا بل هو مصري . ودعني اخبرك انه بعد ذلك اصبح اليهود بغالبيتهم ينظرون اليه باحتقار . ان الذي يريده الاسرائيليون ليس ذاتيا او تقريرا للمصير . انه شيء آخر تماما . واذا اردت مثلا فربما كان يشبه الحكم الذاتي الذي تحاول جنوب افريقية تطبيقه في سويتو . او كما هو الحال بالنسبة للهنود في الولايات المتحدة الاميركية . ان اسرائيل تريد اناسا يحتقرهم ويرفض ٩٩.٩٪ من الشعب الفلسطيني من غير ان يكون لهم اي تأثير اكان عاثليا او اقطاعيا او اي شيء غيره . واستطيع القول انه اذا استطاع الفلسطينيون تجاوز هذه الازمة كما فعلوا في الشهر الماضي ، فانهم سيخرجون اشد قوة مما كانوا عليه . ودعني اضيف شيئا آخر بخصوص الوضع الداخلي للمجتمع اليهودي . ان الاسرائيليين يمسرون الان بامتحان .

فقد ظهرت باسم مجلس اسرائيل من اجل السلام في المسدة الاخيرة ، مجموعة من المقالات ذات الدلالات السياسية ومن بينها مقالات تطلب من الفلسطينيين الاعتراف بصهيونية دولة اسرائيل . وانا لا اتكلم كرجل معاد للصهيونية لكنني اتكلم كرجل يعرف بعض الشيء عن مرحلة الاستقلال والسيادة . فاذا طلبت الولايات المتحدة من الاتحاد السوفياتي الاعتراف بالولايات المتحدة كدولة راسمالية واذا طلب الاتحاد السوفياتي من الولايات المتحدة الاعتراف بالسيادة وبالايديولوجية التي تقوم عليها الدولة . ان الطلب من الفلسطينيين الاعتراف بصهيونية الدولة الاسرائيلية والاصرار على القول اننا صهيونيون وتجنب القول اننا اسرائيليون هي سابقة لا مثيل لها في تاريخ العلاقات الدبلوماسية خلال السنوات المائتين الاخيرة . غير ان هناك امرا اكثر اهمية . يتعلق بالتعذيب . يمكنك القول انه بالاضافة الى المسائل الايديولوجية التي تقسم المجتمع اليهودي للاختيار بين السلام والعدل . ان سلام السيد بيغن هو سلام هؤلاء الذين يغفلون ما ستتؤول اليه الاوضاع خلال السنتين القادمتين . وهم سيحققون السلام مع مصر وربما مع دول عربية

اخرى الا اذا كانوا عازمين على شن عدوان * ثم ان رأيي كان دائما ، خصوصا فسي السنوات الاربع الاخيرة ، هو ان الذين ينتقدون التزامات ايدولوجية ، خصوصا بمعاداتهم الصريحة للصهيونية ، لن يكون بمقدورهم مواجهة الامور عندما يحل السلام * وانت تعرف ان المنظمة المعروفة باسم « السلام الان » تدعم بيغن وهي تتظاهر من اجله ، غير ان الذي اود قوله ، ليس حول هذه المنظمة غيرالمنظمة جيدا ، بل حول اليسار الصهيوني ، لان ما اقوله بصراحة وامانة ليس هدفه النقد بل من أجل المستقبل اود الكلام عن اليسار الصهيوني ، عن اشخاص مثل الجنرال بيليد و أفنيري انهم جميعا يدعمون السيد بيغن * ففي رسالة مفتوحة الى السيد عرفات دعاه افنيري لقبول الحكم الذاتي الذي دعا اليه مؤتمر كامب ديفيد * ان احدهما مثلا يقول ان قطار كامب ديفيد سائر وليس امام الفلسطينيين الا اللحاق به وهو امر سيقدر مصيرهم * وهو في كل الاحوال امر يعود الى تقديرهم * وبمقدوري القول بصراحة وبصدق ان حق تقرير المصير ، الذي لم تلحظه اتفاقية كامب ديفيد او حكومة بيغن ، لن يكون من بين ما سيدافعان عنه *

وهناك مسألة التعذيب والصهيونيون يطبقون افواههم تماما حول قضايا التعذيب التي يتعرض لها الفلسطينيون * وبالنسبة فان افنيري كتب عدة مقالات عن المجرمين اليهود الذين يعذبون * وهو محق في هذا الامر الا ان افنيري ليس فقط كان يرفض الكتابة عن تعذيب الفلسطينيين بل هو يدعي ان الفلسطينيين لا يتعرضون للتعذيب * ان التعذيب الذي يتعرض له الفلسطينيون الان والذي تستمر في محاربته هو الجانب الاخر لتقرير المصير * ان الاشخاص الذين لا يصرحون بالحد الأدنى ضد عمليات التعذيب التي يتعرض لها الفلسطينيون يقفون الى جانب كامب ديفيد *

محاكم البدو الشرعية في فلسطين

(١) يبحث هذا النص الذي تقدمه في هذا العدد من « شؤون فلسطينية » وضع المؤسسات التشريعية التقليدية لدى بدو فلسطين ، وهي ، بطابعها الأصلي ، ذات أهمية كبيرة من أجل التعرف على بنية المجتمع الفلسطيني التقليدي ، وهذه المؤسسات - على العكس من محاكم الدولة التي تتجلى فيها ، عبر مفهوم العدالة ، علاقة الفرد بالسلطة المركزية - إنما هي جملة أساسية للمعرفة ، لكونها نوعاً من الانبثاق الداخلي النابع من تركيبة العشائر نفسها . وهي ، بالمعنى نفسه ، تتحلى بصفة اجماع كبيرة من العناصر المنضوية تحت هذا الشكل من العدالة . فهذا النوع من ممارسة العدالة ، والذي يلتبس الواقع من الداخل بمعنى ما ، أكثر فعالية وأكثر قبولاً . فبينما تكون سلطة الدولة القمعية هي التي تجعل القرارات نافذة ، نجد ، تقديراً ، أن قرارات قاضي العشيرة تنبع من شكل قبول محدد وإرادي لدى أعضاء المجموعة أو العشيرة . ويجب ألا نخطئ في الفهم : فالقبول هنا ليس منبثعاً نوعاً من « المواطنة البدائية » ، بل ناتج عن اقتناع الأفراد بأن هذه العدالة ، التي تسري منذ قرون ، على الأرجح ، هي ميزة تخلق الانسجام داخل العشائر ، وهذا ما يجعلها مقبولة .

(٢) النص نفسه مكتوب بقلم تقني . فقد مارس الكاتب بنفسه ، ولدة طويلة ، دور القاضي في هذه المحاكم . ولذا تكمن إحدى أهم مواصفات هذا النص في دقته ، وفي شموليته ، طالما يتناول جميع نواحي المؤسسات التي أراد أن يعرفنا عليها .

(٣) من دون أن ندخل في التفاصيل التي يعرضها النص بطريقة بليغة ، واضحة ودقيقة ، يمكننا أن نشير إلى بعض المسائل . فعلى الرغم من أن الانقسام العام بين القيسيين واليمنيين موجود في هذه المحاكم ، إلا أن الانقسام ليس قاطعاً ، فكانما ثمة إقرار بأن العدالة والذات القبلية هي فوق المنازعات . ويمكننا معرفة قدرة هذا الجهاز على كسب الولاء قياساً إلى الهوية في العلاقات القيسية - اليمينية . ويمكننا أيضاً ، ملاحظة أن مهنة القضاء هي وراثية لدى أعضاء العائلات نفسها ، وهذا يعكس ، بالتأكيد ، موقفاً سلطوياً ، ولكنه يعكس متطلبات تقنية أيضاً : فهذه العدالة تقليدية وشرفية ، ومن هنا يجب توفير إطار محدد لنقله ، وخاصة من أجل جعله احتراماً في العشيرة ، حيث النواة الأساسية هي الحمولة . وهنا نفهم بالطبع مبدأ أن تلعب

احدى العائلات - ذات النفوذ - هذا الدور الذي يقوم به ، عادة ، موظفون مجتمعون في مؤسسات الدولة .

(٤) ولهذه العدالة اهمية اخرى على صعيد اصدار الاحكام ، فهي ، من ناحية ، تقدر الاحكام حسب الحالات ، مما يحتم ضرورة وجود قضاة منصفين ، بل هم مضطرون الى ان يكونوا منصفين ، اذ ان قبولهم من قبل افراد العشيرة ، هو الذي يعطيهم وزنهم . وهم ، من ناحية ثانية ، يلجأون الى المصالحة في حال وجود معطيات كثيرة التعقيد ، قد تؤدي الى اعتراضات كثيرة حين اصدار الحكم .

(٥) تبعد هذه المعطيات استغراب القارئ حين يقرأ ان هذا النوع من القضاء يتلائم طالما اقتربنا من المدن ، حيث يكون لوجود السلطة المركزية تأثير كبير من ناحية ، وحيث - وهذا هو الالم - تكون البنى العشائرية اكثر اضمحلالا ، اذ ان وجودها هو الشرط الضروري لنمط تشريعي كهذا .

وهنا تجدر الإشارة الى ان نفور اهل السلطة الكبير من الذين يقومون بالقضاء ليس نايبا من ان العدالة البدوية هي عدالة غاب ، بل تابع من ان يتعاطى الناس القضاء بعضهم بين بعض ، في معزل عن اهل السلطة .

(٦) والنقطة الالم ، في هذا كله ، ان المتهم ، في حيثيات هذا النمط من القضاء ، لا يتقابه شعور فرد معزول في مواجهة سلطة هي سلطة المجتمع بأسره ، تدعي الدولة انها تمثلها ، بل هو في وضع تأخذ فيه العدالة ، بعين الاعتبار ، البنية القبلية ، حيث المتهم هو جزء من كل ، وليس معزولا . وهذا ما يجعل الحكم اكثر فعالية نتيجة لركون المتهم اليه ، وتقبله له .

الياس صنبر

قانون البدو هو واحد من اكثر الفروع اهمية واثارة للاهتمام في الفلكلور العربي . ولان الموضوع واسع ، فقد اخترت لهذه الدراسة مرحلة واحدة منه : « المحاكم الشرعية بين البدو » (١) ، وأرجأت الموضوعات الاخرى : قانون الضيافة ، قانون الاجازة (القانون الجنائي) ، قانون العرض ، قانون الحقوق (القانون المدني) .

كان هناك نظام شرعي بين العرب قبل الاسلام بزمن ، وقد بقيت اسما بعض المحامين المشهورين مثل أكتم بن صيفي (٢) ، حاجب بن زيرارة (٣) ، أمير بن الظرب (٤) ، عبد المطلب بن القرشي (٥) . وكانت هناك ايضا محاميات مشهورات مثل هند بنت الحسن (٦) ، وجمعة بنت حابس (٧) . ومع انتشار الاسلام تأثرت تلك القوانين والشرائع وعدلت بدرجة او بأخرى بقوانين الدين الجديد . وكان ، وما زال ، من المألوف انه حين يختلف فردان او قبيلتان ، أن يتم عرض الامر على قاض ، هو الذي يقضي في الخصومة تبعا لقوانين الوراثة . وهذه القوانين تناسب العرب اكثر من الاخرين ، حيث تتفق مع حالتهم النفسية ، وعاداتهم واسلوب حياتهم .

هذه المبادئ التشريعية تحكم ايضا التشريعات القانونية بين فلاحي فلسطين ، مع اختلافات سناحظها دائما ، فيقسم سكان بلادنا في حزبين سياسيين : قيسي ويمني .

ولكلا المحكمتين قضاة يساعدون على حل القضايا وتسوية النزاعات . وليس ثمة اعتراض إذا ما احضرت إحدى المحكمتين القضية إلى قضاة المحكمة الأخرى ، لأن القضاة لا يتحزبون ولا يخطئون في البحث عن الحقيقة . وهم عادلون . ولا تختلف القضية عندما يأتي قيسي أو يمئي يملك حجة إلى قاض ينتمي إلى واحد من القسمين . فالقاضي يقضي فقط بما يعتقد أنه الصحيح ، لأنه يخشى من مجالس الضحى ، أي من الأحاديث التي تدور في المضافة (٨) قبل الظهر (صبحية القبل والقال) (٩) .

وتولي منصب القاضي حق لعائلات معينة فحسب ، مثل عائلة المناصرة في بني نعيم (١٠) ، وعائلة أبو عيرام من يطة (١١) ، وعائلة المحامدة في السامر (١٤) ، الخ . ولا تستطيع عائلات أخرى أن تتبوأ القضاء . وهكذا فإن إدارة القضاء وراثية . فالأب يدرّب ابنه الأكثر ذكاء ومهارة ، أو يدرّب العم ابن أخيه ويشركه في محكمته حتى يصبح متمرسا على جميع أنواع القضايا ، وبعد ذلك يسمح له بأن يحكم ويفصل في قضايا بسيطة تحت إشراف الأول ، وعندما يحصل على تدريب كاف ، ويتمتع بثقة الناس ، تقدم له القضايا الصعبة ، وبالتدريج يكتسب الثقة الداخلية للقرويين (١٥) .

وقد يكون هناك قاض أو أكثر من عائلة واحدة . والأكبر هو الأكثر احتراما . وإذا تساوى اثنان في السن ، يكون الأغنى والأبرز هو الأكثر قبولا . في حالة ما ، إذا كانا متساويين في الغنى والشهرة ، يختار منهم من كان أبوه قاضيا أفضل من القاضي والد الآخر .

ولا يزال القضاة حتى الآن ، ينتمون لأنبل عائلات الناحية (١٦) . ولهؤلاء سلطة كافية ، وهم غير ملزمين بتبرير قرارهم بأي قانون يحوي عقوبة قصوى أو دنيا . وأهم واجباتهم أن يعرفوا مراتب العائلات المختلفة . فإن ارتكاب جريمة أو انتهاك شرف انثى أو حق نبيل واسرة قوية السلطان ، له وزن أكبر من جريمة أو اغتصاب ، الخ ، يرتكب ضد عائلات أخرى . و « الحمولة » (أي الأسرة) التي انتهكت فيها كثيرا أعراض الاناث ، أو قتل كثير من أفرادها ، تكون محقرة وتعتبر ضعيفة وبلا كرامة ، ومن ثم فإنها تندرج في مرتبة أدنى من العائلات الأخرى (١٧) . ويتمتع القضاة بسلطة كاملة لزيادة العضوية أو ضعفها ، أخذين دائما في الاعتبار الرفاهية العامة والنفوذ الشخصي للطرفين . وهم أحيانا يعاقبون على جريمة بنصف « الدية » ، وفي أوقات أخرى ، وعلى الجريمة نفسها ، بثلاث الدية ، وحتى في أحوال أخرى ، فإنما يعاقبون على الجريمة ذاتها بأكثر من « دية » و « جرة » (١٨) . ولا بد للقاضي أن يعرف المركز الاجتماعي للمتهمين وعائلاتهم على وجه الدقة . والمعرفة الدقيقة بكل هذه التفاصيل ، يل تختلف بين القضاة ، حيث أن بعضهم امهر من الآخرين ، ولديه خبرة أكبر ، وأكثر تعودا على القضايا المعقدة . وأحيانا لا يكون باستطاعة القاضي أن يتخذ قرارا في قضية ما ، لأنها أكثر تعقيدا من أن يحكم فيها (١٩) . فإذا لم ينجح لجا إلى تأجيل قراره ، إلى أن يكتشف القرار الصحيح بمساعدة قاض آخر يطلب نصيحته .

واليوم يتناقص عدد القضاة ، ولم يعد يوجد أي منهم في شمال فلسطين . فالبدو وأشباه البدو محافظون للغاية ، وكلما ازدادنا اقتربا من المدن كلما ندر وجود قضاة حقيقيين ، وازداد لجوء الناس إلى المحاكم الحكومية الرسمية .

ويدفع للقضاة اجر عن التحقيق في القضايا والفصل فيها . ويطلق على الاجر فسي القضايا الجنائية « الرزقة » (٢٠) ، بينما في قضايا الملكية والقضايا الاخرى المهمة يسمى « الجعلة » . ويتحدد الاجر وفقا لاهمية كل قضية : فالاجر على قضية قتل او انتهاك عرض هو ١٠٠ مجيدي تركي ، والاجر على قتل من غير عمد ، او اصابة عضو هام في الجسم ، ٥٠ مجيديا ، وفي قضية السرقة او الجرائم الصغيرة الاخرى ١٠ مجيديات ، وهناك ايضا رسم يدعى « البسلة » يدفع الى « الشريعة » (القانون الديني) والذين يطلب منهم احيانا ان يفتوا في مسائل معينة . وهذا المبلغ الذي يتراوح بين عشرة ومائة مجيدي ، يقدره بصورة عامة الطرفان المتنازعان والقاضي معا (٢١) . وهناك اربعة انواع مختلفة من الدفع : ١ « رزقة مبتل » وهي الغرامة التي يدفعها المتهم ، اي اذا تشاجر زيد وعمرو وكسب الاخير القضية فان الاول يدفع الغرامة ٢٠ - « رزقة مجرم » وهي الغرامة التي يدفعها المجرمون ٣٠ - « رزقة مناصفة » وهي تسوية بالتراضي يدفع فيها كل طرف النصف . ويتم هذا الدفع حينما تكون القضية متوازنة وقابلة للشك ، وكل طرف فيها يطالب باكثر مما يستحق . ويعرف هذا الدفع ايضا بالقانون الكنسي .

٤ - « رزقة منتصر » ويدفعها الطرف الذي يكسب الانتصار ، او الشخص المتهم الذي برئ من الذنب .

وقبل تناول القضية يتقرر اي نوع من « الرزقة » سيدفع ، ومن الذي سيدفعه . وبمجرد ان يتفق الطرفان مع القاضي على احد انواع الدفع هذه ، تأخذ القضية مجراها العادي . ولما كان من الطبيعي ان يكون الشك قائما حول الذي سيكسب القضية ، فان الطرفين لا يدفعان في البداية ، انما يقدمان للقاضي ضمانا ، كان تكون عقدا او غليون او علبه تبغ او حقيبة . وعلى الرغم من ان هذه الاشياء لا تعد ذات قيمة في ذاتها ، فانها تسدل على ان الطرفين المتقاضيين قد اعطيا كلمة شرف . فاذا لم يدفع احدهما غرامة الحكم عليه ، فأنه لا يستطيع ان يقطع وعدا ، ويصبح محتقرا الى اقصى حد (٢٢) . وبعد ان يتخذ القرار يحتفظ القاضي بضمانة الشخص الذي يتعين عليه دفع الغرامة ، وينبغي على هذا الاخير الا يغادر غرفة الاجتماع (المضافة) حتى يدفع دينه (٢٣) . ويعاد الضمان الى الشخص الاخر فورا . ولا يحدث الا نادرا ان يقدم بيت او بندقية كضمانة . ولا يخجل القاضي من ان يطلب اجره ويشهد الناس انه دفع . فاذا نشأت اية مصاعب ، فان عائلة المتهم تجبره على ان يدفع ما يتوجب عليه .

وينقسم القضاة الى اربع فئات :

(١) « قضاة الضيوف » . (٢) « قضاة الصلح » . (٣) « قضاة الدم » . (٤) « قضاة السيوف » .

والفئتان الاخيرتان هما الاكثر اهمية والاكثر سلطانا . وتنقسم محاكم « قضاة الدم » الى ثلاثة انواع :

(١) المحاطيط (المفرد المحطوط) (٢٤) ، وهي محاكم الدرجة الاولى ، وتل الزهيرية محكمة من هذا النوع .

(٢) المناصد (المفرد : المنصد) (٢٥) ، محاكم الاستئناف • محكمة الحمامدة في السامو هي من هذا النوع • وحينما يستأنف شخص أمام هذه المحكمة يقول المرء لخصمه « عليك بالمنصد » •

(٣) المناقع (المفرد : المنقع) (٢٦) ، محاكم الاتهام ، محاكم الاستئناف العليا • وقراراتها نهائية • وتمثل « دار التلج » هذا النوع من المحاكم •

هذه المحاكم الثلاثة تقضي في قضايا الدم وحدها • أما حالات انتهاك العرض فانها تعرض على محكمة « العرض » في « بني عقبة » • وأي قضية قتل يمكن ان تعرض مباشرة على اي من هذه المحاكم من دون عرضها على محاكم أدنى في البداية ، ولكن باستطاعة المرء ان يوافق من البداية على اللجوء الى المحاكم الثلاث •

وليست لقضاة الضيافة اية سلطة رسمية ، في كل قرية يوجد قاض فقط من هذا النوع ، يكون بوجه عام شخصا ذا شعبية ، او من الاعيان • فاذا وصل ضيف الى قرية فان القرويين يتنافسون على حق وشرف اكرامه • وحتى النساء يمكن ان يشتركن في هذه المنافسة •

ويمكن تقسيم القرى الى نوعين فيما يتعلق بأسلوب اظهارها لحسن الضيافة تجاه الضيف :

١ - قرى توفر مسبقا شروط تقديم الواجبات للضيوف •

٢ - قرى حيث يتنازع الناس ، كما ذكرنا آنفا ، على شرف اعداد وجبة للضيوف • وهناك اربعة « قواس » يتشكل كل منها بعضا ربط في كل طرف منها خيط • وتعلق في الخيوط قصاصات ورق ، كل قصاصة تحمل اسم قروي •

ويقسم القرويون الى اربعة اقسام : (١) الاغنياء الذين لا بد ان يقدموا وجبة طيبة للزوار النيلة ، وتتألف الوجبة من خروف والمقيلات • (ب) اولئك الذين لن تسمح لهم امكانياتهم بان يقدموا اكثر من دجاجة • (ج) اولئك الذين يعدون وجبة من الطعام المتوافر دائما في البيت ، مثل الجبنة والزيتون والبيض والزبد ، واللبننة ، الخ • (د) الاكثر فقرا ، الذين لا يستطيعون ان يقدموا الا العلف لدواب الضيوف •

هذه الفئات الاربع تسمى ، على التوالي : « دور كبير » ، « دور صغير » ، « دور نهار » ، « دور مخلة » • فاذا وصل ضيوف كثيرون معا ، فان واحدا من « الدور الكبير » لا بد ان يطعمهم •

ويعلن القاضي حكمه لصالح احد الاشخاص المنتمين الى هذه الفئات بناء على السلطة المخولة له ، ويكون ذلك دائما وفقا للقواعد التالية :

(١) رفيق الطريق للضيف في رحلة ، يكون له الحق اولا في تقديم الوجبة (لا بتقاضي ولا بتحاكم) •

(٢) الضيف يكرمه شخص من مرتبته •

(٣) الشخص الميسور يختار مرات عديدة لآكرام الضيف ، طالما أن الفقير لا يستطيع أن يوفر نفقات ذلك (٢٧) .

فإذا كان هناك رجلان يودان استضافة الضيف نفسه ، فإن أحدهم يدعم مطلبه بالقول بأنه لم يقدم وجبة منذ وقت طويل ، بينما الآخر فعل ذلك مؤخرًا . وفي مثل هذه الحجج تستخدم التعبيرات التالية : ما سبق لي تنيه ، تنيته خضرا ، ويش تقول بالعفي اللي لزيد الضيوف مستحي ، الله يحيي الضيوف في قدر ما ضرهم الخيل ووفق البعيل ، وأنا الموعود فيهم من زمان . وهناك قول أكثر أسهابا هو : « ويش تقول وعيني تراهم من مساهم للقاهم ، يحيي الضيوف يحيي لحيتك ولحاهم ، يحيي قاضي اتاني اياهم (٢٨) . وأنا المسمن المقدر » . أي ماذا تقول ، وعيني ترقب الضيوف من نقطسة البدء الى حضورهم ، فاهلا بالضيوف ، اهلا بلحيتك ولحاهم (٢٩) ، واهلا بالقاضي الذي اعطاني اياهم . وهذه العادة آخذة بالانقراض أو هي - لا تمارس الآن الا بين بدو غزة والمنطقة المحيطة بها ، بين بني حسن (٣٠) ، وبني سالم (٣١) ، وفي الخليل والقدس (٣٢) ، وخاصة حيث يوجد اتصال وثيق بالبدو .

ويختار قضاة الصلح من بين اعيان القرى ورؤسائها وهم حين يسمعون عن صراع في قرية ، فانهم يذهبون على الفور الى المكان ، ويوقفون الشجار بالفعسل بين الطرفين المتشاجرين . وبعد هذا فانهم يقفون حول قبر الرجل المغدور . فإذا كان المجني عليه من اسرة طيبة فإن الرجل الذي يطلب الثأر له ، اخ « ولي الدم » - أو ربما كبير العائلة - يقف عند الجانب العلوي من القبر . وعادة ما يأخذ في قبضة يده حفنة من التراب ، ويلقيها ويقول : « اشهدوا يا ملائكة السماء والارض اني نثرت دمي على الحاضرين وهم احق مني بطلب الثأر » (٣٣) . ثم يشجع الحاضرون طالب الثأر ، ويوجه كلامه الى المغدور : « أنت عليك النوم وحننا علينا القوم » (٣٤) . ويساعد المترجون عائلة المغدور على انزال الثأر بالقاتل أو تأمين ديتة . بعد هذا التمهيد القصير لمهمتهم المضجرة والعسيرة يغادر الجميع المقبرة ويمضون الى القرية ، حيث يمنعون اقارب المغدور من مهاجمة بيت القاتل . وينظر القاضي أو القضاة في القضية وأهميتها ، ويحاولون أن يقدموا تسوية . فإذا ما اخفقوا فانهم يحاولون تحقيق هدنة اولية ، عطوة الفترح (٣٥) . وهي تدوم من ايام قليلة الى عدة اشهر . احيانا يرفض اصحاب الدعوى قبول الهدنة التي رتبها قضاة الصلح . وفي هذه الحالة يأتي على الفور واحد من قضاة الدم ، ويرتب هدنة على النحو الذي نصفه فيما يلي وهكذا فإن اية هدنة يرتبها قضاة الصلح هي أكثر فاعلية من تلك التي يأمر بها قضاة الدم ، الذين هم أكثر أهمية بكثير من الفئة الاولى . فهم يتمتعون بالثقة الكاملة للناس الذين يقرون بعدالة وانصاف قراراتهم ، ومن ثم يحترمونهم ويخشون قراراتهم .

ونظرا لانتشار القانون الحديث ، فإن عدد هؤلاء القضاة قد تناقص كما لاحظنا سابقا . وبين قضاة الدم من البدو والقبائل شبه البدوية يمكننا أن نذكر : حجاج ابو فهد من قبيلة حطيم ، ويمكن الرجوع بعائلته الى بهيلة التي ينتمي اليها أيضا قتيبة بن مسلم القائد العظيم لعبد الملك بن مروان وابنه وليد ، ومحمد الزبير من التعامرة .

أما قضاة السيف فانهم يقومون بعمل المحكمة العسكرية . ومن بين هؤلاء القضاة ابو غرث (٣٦) ، البراغتي (٣٧) ، الجيوسي (٣٨) ودار الجرار (٣٩) . وهم ليسوا قضاة

حقيقيين ولا يحكمون طبقا لقانون البدو . فاذا ما نشأ نزاع او صراع في ناحيتهم فانهم يذهبون الى اطرافه او يرسلون في طلبهم ، ويتخذون قرارهم على اساس اعتبارات سياسية بحثة ، بغض النظر عن العدالة . ولهذا فانهم مكروهون من الناس ، الذين يبذلون ما بوسعهم لكي يقضي بينهم قضاة الدم ، ليتأكدوا من ان المجرم سيعاقب . وهؤلاء القضاة يفرضون غرامة يأخذون منها نصيبهم . وكثيرا ما يصحبون معهم رجلا على علم بالقانون الاسلامي (عالم) ، يتبع في اتخاذ قراره احكام الشريعة ، التي يستطيع المحكوم عندها وضعها موضع التنفيذ . وعندما تجتمع الجمعية يقول « قاضي السيف » : « هنا الجنة (مشيرا الى العالم) وهنا النار (مشيرا الى نفسه) وهنا السيف (مشيرا الى نفسه مرة اخرى) وهنا المصحف (مشيرا مرة ثانية الى العالم) » ، وبعبارة اخرى يقول « من تريدون ان يقضي بينكم ، انا ام الشريعة » (٤٠) . وبالنسبة للجيلين الاخيرين فان هؤلاء الحكمين لم يعد لهم - عمليا - أي وجود .

اما وقد تناولنا القضاة تناولا كاملا ، فلنصف الاجراء التمهيدي في احدى القضايا ، ثم الخطوط العامة لمسار المحاكمة . فاذا لم تتخذ خطوات قانونية ، لا بد ان يموت القاتل او المغتصب . وفي هذه الحالة لا سبيل الى الوفاق ، وتستمر العداوات . فصاحب الدم والمطالب بالعرض (٤١) ، جسوران للغاية ويملكان حق قتل خصومهم حيثما وايثما قابلوهم ، ولا يعتبران مسؤولين عن فعلهم . وتبعاً لذلك فان اقارب القاتل يبذلون كل ما بوسعهم للحصول على هدية (عطوة الفتوح) (٤٢) ، كما ذكرنا سابقا . ويدفع القاتل ١٠٠ مجيدي (٤٣) ليتمتع بهدنة ، ولا تحسم هذه النقود قيما بعد من الدية . وبعد انقضاء الهدنة الاولى ، تدفع ٥٠ او ٧٠ مجيديا لهدنة ثانية - (عطوة القبول) (٤٤) - وهذا المبلغ يحسم من الدين . فاذا منحت هدية ثالثة او رابعة لا يدفع شيء عنها (٤٥) . بل انه يمكن تمديد الهدنات لسنوات الى ان يعلن الصلح ، ولكن الصلح لا يتم ابدا من دون الهدنة الاولى . وينتظر ذرو المغدور فرصة للثأر لانفسهم ، ولكن الهدنة تمنعهم من تنفيذ غرضهم . فاذا ما ارتكبت جريمة عن غير قصد فان الغرامة التي تدفع من اجل الهدنات لا تتجاوز نصف المبلغ المذكور عن قضايا القتل او الاغتصاب المتعمدة . وعندما يتهم عضو في احدى العائلات بجريمة وتكون عائلته عاجزة عن معارضة المتهمين ، فانهم يلجأون (يطنّبوا) الى وجيه قوي (مطنّب) (٤٦) ، يكون قادرا على حمايتهم ، ويبدأ الاخير التفاوض على الصلح . بل يمكن ان يجبر عائلة الشخص المتهم على ان تنقل ممتلكاتها القابلة للنقل الى مكان آخر ، حيث تكون آمنة ، حيث ان ما من شيء يسرق خلال الايام الثلاثة والنصف التالية للجريمة وتحسم قيمته من الدية . وفي حالة ما اذا تساوى المذنب وعائلته في المركز والشرف مع خصومهم ، فانهم يبحثون في طلب اناس يحترمهم اصحاب الدعوى . ويستجيب هؤلاء للدعوة ويبدأون المهمة الصعبة ، مهمة تحقيق هدنة . واثناء الهدنة فان المشاعر المتحفزة تهدأ ، وقد تقوم علاقات افضل بين الطرفين . ويجبر الوسطاء الطرف المذنب على ان يدفع اية غرامة يفرضها القاضي .

ويمكن اجبار عائلة المتهم وذويهم حتى الدرجة الخامسة (٤٧) ، على النزوح من القرية، ويتعين على اولئك الذين يرغبون في البقاء في منزلهم ان يدفعوا غرامة لا تتراوح قيمتها بين ٣٠ و ١٠٠ مجيدي (تسعة النوم) (٤٨) . وعدة قطع من الملابس لعائلة المدعي . وهم

لا يكونون بمأمن من الثأر الى ان يفعلوا ذلك . وهذا المبلغ لا يحسب من الدية ما لم يكن دافعه قريبا من بعيد (ابعد من الدرجة الخامسة) .

ومزايا الهدنة هي : انها تمنع استمرار الاعمال العدائية ، وقبولها اعتراف جزئي من جانب الشخص المتهم . مع مضي الوقت تختفي الحرارة المصاحبة للجريمة . وتصاغ الشروط بواسطة اتفاق بين الطرفين . ومن بين هذه الشروط : الا يسمح للقاتل بدخول القرية حيث يسكن ذوو المغدور ، لا يسمح له بالاقتراب من نبع يرتاده الطرف الاخر مرارا . واحيانا يطلب المدعون فقط الا يدخل حيهم . وبعد الاتفاق يصبح القاتل حرا في الذهاب الى حيث يشاء عدا الاماكن المحددة في الاتفاق . فاذا التزم بالاتفاق فانه لا يتعرض للاهانة من الطرف الآخر .

ولا تتحقق الهدنة الى أن يكون القضاة قد عينوا رجلا للقيام بدور الضامن للمتهمين . ويسأل القاضي الضامن : « هل تضمن انهم (المدعون) لن يتعدوا على المتهمين ولن يأتوا أي عمل شرير ، انما سيعيشون مع المتهمين بسلام كما خيوط التماس (٤٩) ، وانهم سيضعون على الناقة حملها معا ويخرجون الماء من الحوض معا في سلام ؟ » (٥٠) ويسأل الرجل أو الرجال الذين يقومون بدور الضامين - المدعين : « هل تقبلوننا كضامين ضد الخديعة والحنث بالقسم ، والمس باعدائكم ، وتغيير رأيكم [اي خرق الهدنة] » (٥١) ، فاذا اجابوا بالاجاب قامت هدنة في قرية المغدور . ولا بد ان يكون الضامنون ، الذين يكونون قد عينوا هكذا ، من مرتبة اعلى من اولئك الذين يضمنونهم ، وهم يختارون عادة من جانب المتهمين أو القضاة . ويحتفظ المدعون بحق الاعتراض على هؤلاء الاشخاص ، اذا كانوا ، على سبيل المثال ، اعداء لهم . واختيار « الوجوه » قد يتم في غيابهم . ويمكن ان يقف « امير » ضامنا لنديل او وجيه . ومهما تكن الظروف مثيرة للتوتر فانه لا يكون باستطاعة المدعين خرق قواعد الهدنة ومهاجمة اعدائهم . انما هم يحاولون تخليص انفسهم من « الوجوه » بان يطلبوا من الضامن ازالة « وجهه » . فاذا قبل ان يكون احرارا في ان يفعلوا ما يحلو لهم ، يستخدم تعبير « عداهم اللوم » (٥٢) ، عن الداعين في مثل هذه الحالة . أما اذا لم يقبل فعليهم ان يحافظوا على الهدنة سلميا حتى انقضاء أجلها ، ولكن عليهم عندئذ ان يرفضوا تجديدها . فاذا خرق المدعون الهدنة يحق للضامن ان يقتل المعتدين اذا قابلهم اثناء الايام الثلاثة ، والنصف الاولى . اما اذا لم يقابلهم فانه يقدمهم للمحاكمة (٥٣) .

وحقوق الضامن اكبر من حقوق الدم ، من حيث انه يتناول عددا اكبر من الاشخاص ولا يدافع عنها الضامنون وحدهم ، انما يدافع عنها ايضا شاهدو العيان بوجه عام . فاذا رفض الشخص الذي خرق قواعد الهدنة المثول امام القاضي ، استدعاه الاخير نفسه . فاذا ظل على رفضه ، استبيحت حياته واملاكه لاولئك الذين مس شرفهم بخرقه للهدنة (٥٤) ، كما لا يعود له اي حق في ان يطلب تعويضا عما حدث . فيتترك دمه دية ودون « وجاهة » ، (بلا عوض ولا قوة) (٥٥) . ويتعين على الضامن ان يدفع تعويضا عن العطل او الضرر الذي يكون قد لحق بالطرف المسالم نتيجة خداع الطرف الاخر ، حتى لا يقال : « المتغافي بوجه فلان مثل المتغافي بالسحاب » (٥٦) . ونظرا للقسوة المتناهية للعقوبة التي تلحق بالمخادع المنتهك للهدنة ، ونظرا للعار الذي ينتج عنها ، فانه نادرا ما تصدث .

وعندما يؤجل النظر في قضية ما لفترة كافية للسماح بتهدئة المشاعر المتأججة ، فإن الطرفين يتوصلان الى اتفاق ، ويختاران القضاة . ويمكن ان يطلب من القاضي ان يأتي الى قرية المدعين ، او الى قرية مجاورة ، او يمكن ان يتفقوا على الذهاب اليه ، « بيت المقاضاة » . ولست اعرف الا بيت مقاضاة واحدا في الوقت الحاضر بين الفلاحين ، هو بيت موسى هريب الدواية . وهناك ايضا واحد بين بنى عقبة من قبيلة التياهة .

ولا بد لاهل القرية من اكرام القضاة ، ويتحمل نفقات ذلك اهل القرية جميعا . وفي حالة عقد الجلسة في قرية الطرف المذنب يتعين على عائلته ان تدفع كل النفقات . ويسير المدعون في المقدمة ويتبعهم المتهمون ، ولكنهم لا يلتقون . ويقيم كل طرف في بيت ضيافة مختلف (٥٧) ، يصلون اليه في الصباح السابق على المحاكمة . وقبل دخول المحكمة يمكن لاحد الطرفين او كليهما ان يعينا محامين يقال لهم « الحجاج » (يضم الحاء) . ويقوم العميل بتوكيل محاميه علنا قائلا « اني اعطيت لساني لفلان ليدافع عني » . ومع ذلك فإنه من المسموح به لكل طرف ان يدافع عن نفسه . ويمكن لاي من الطرفين - لاسباب وجيزة - ان يغير محاميه او ينحيه اثناء اجراءات المحاكمة . واسباب تعيين محام هي :

- (١) عدم القدرة على الدفاع عن النفس بسبب نقص المعرفة بالقانون .
- (٢) في حالة ما اذا كان احد الطرفين امرأة .
- (٣) حينما يكون المدعي والمتهم من مرتبتين اجتماعيتين غير متكافئتين . فالانبل بينهما يعتبر انه من العار ان يواجه خصمه الادنى منه .
- (٤) حينما يكون احد الطرفين او كلاهما في حالة هياج شديد .
- (٥) حينما تكون الجريمة وضيعة الى حد يجعل المتهم يخجل من الظهور امام المحكمة .
- (٦) حينما يكون طرف مكونا من عدد من الاشخاص ، حتى ليصعب سماع من الصعب الاستماع اليهم جميعا .

ولا يدفع رسم معين للمحامين . انما يحاول المحامي عن كل من الطرفين كسب القضية لعميله ، ومن ثم ان يرفع مستوى فريقه . والمحامي الراجح يعطى عادة رداء جديدا (هدم) . وهناك محامون كثيرون في كل ناحية . وهم يكتسبون شهرة من خلال مهارتهم في الخطابة ، وخطبهم الشعرية ، واسلوبهم الرفيع في صياغة الجمل . كذلك يختار القضاة من صفوف اولئك الذين اكتسبوا شهرة كمحامين .

حينما تفتح الجلسة ، يجلس القاضي وحده ويمثل الطرفان المتنازعان امامه . وينشر كل طرفا من « عبائته » على الارض ويقول « هي فرج عباتي للحق » ، اي انه مفتوح الصدر للحكم . ثم يطلب القاضي « الرزقة » ، ويطلب مجموعتين من الضامنين ، واحدة لضمان دفع كل النفقات من جانب الطرف المذنب (كفالة الدفع) ، والثانية لمنع الطرف المتهم من ارتكاب تعديلات اخرى ضد الطرف الاخر (كفالة المنع) . ولا بد ان يكون الضامنون مساوين او متفوقين في المرتبة على اولئك الذين يضمنونهم .

يقول القاضي للضامن الاول : « يتكفل هادا القاعد على الدية وبننت الدية ؟ » والمقصود بتعبير بنت الدية الجاهة والوجهة . فاذا توصل القاضي والطرفان الى اتفاق على الامر

فإن القاضي عندئذ يطلب رجلاً ليقف ضامناً لحسن سلوك المتهم . وعندما يتم ايجاد الضامن يسأله القاضي : « بتكفل الامان هادول وتوقفهم الحق وابن الحق ؟ » ، فإذا كان الرد بالإيجاب تبدأ المحاكمة .

وثناء المحاكمة يمنع الكلام والتدخين وشرب القهوة (٥٨) . ويتابع الجميع سير الاجراءات بصمت وانتباه . ويحق للمدعي ان يبدأ . فيقول : « الله يمسيك بالخير يا قاضي . ويش تقول في ابن عمي او خويي (٥٩) ، طيب الاصل (٦٠) جيد الفرع طاهر الذيل (٦١) ، طاعم الزاد قاهر الاعداء ، مفرج الكروب ، ناقل السيف ، محبي الضعيف ، ساتر الرحم (٦٢) ، جابر العظم (٦٣) ، ابن ثلاثين ما شبع من زمانه وما فرح بصباه ، فجاه فلان بن فلان ، وطرف البارود ما عليه قالح ، عطاء النار فتيهه وارداه وانا طالب حقي منه وناتر دمي (٦٤) ، عال حاضرين » .

ثم يتقدم الطرف المتهم خطوة ويقول « الله يمسيك بالخير يا قاضي . ويش تقول والدم فاير والعقل حاير واللي - ما بينصر ابن عمه في الكونة ما بيعرف اباه (٦٥) ، وضاع صوابي وطار حسابي وضربت ويشهد الله اني ما اريد الشين ولا بنيتي السد ، وصار ما صار ، والحكم عندك (٦٦) . ويش تقول ما بيني وبين فلان لا عطوة ولا قدوة (٦٧) . وهو قابل ابن عمي وصدفتي وما تنصى ، واللي ما بياخذ التار بيكون راضي الحال (٦٨) . فأخوته واصطديته دم بدم . وابن عمي ما هو روي ، ان ما كان غير منه ما هو دونه ، واللي يسأل محل العدل تاره ما ينقلب . ويش تقول . اذكر الله يا قاضي ، في العيفسي الديقي (٦٩) ، والجهل يواق والصبي مزراق (٧٠) ، والصوت جماع وانا سمعته فطرت له وساعدت ولد عمي وانا من لحم ودم . واللي بينكل قومه ما يستر رحمه وفرجت (٧١) . لكنني ابي والله ما تهزمت بين عمه ولا ادري له خصم ، والله الوكيل » .

الفقرات السابقة هي صورة عامة موجزة لدفع نموذج في قضية دم ، اختصرت خشية التكرار الملل . وفي قضية اغتصاب ، اي انتهاك عرض انثى ، تكون الدفوع النموذجية كالتالي : « ايش تقول قللي من مي وطنين ، ومعرض للخطا واغراء الشيطان كما اغرى ابونا آدم وكل ما فيه شهوة يسوقه الحب ، ويدفعه الشباب الى محادثة النساء فلانة ، والله يستر عليها وانا ما بريد منها السوء لكن حبه ولعبه » (٧٢) .

وهناك تنويعات كثيرة على الدفاع الاولي في قضايا القتل والاغتصاب ، التي اعطينا امثلة منها . كذلك تدخل تنويعات اخرى بفضل مهارة المحامين . فاذا حللنا انواع الدفاع سنجد الفئات التالية :

(أ) اعتراف كامل واعتذار .

(ب) اعتراف بالفعل ، مع تفسير بان الجريمة كانت نتيجة صراع (كما في الحالة المذكورة اعلاه) .

(ج) اعتراف ، ولكن الجريمة كانت عارضة وغير مدبرة .

(د) انكار الذنب الشخصي . فالذنب كان جماعيا . واذا كان ثمة صراع اشترك فيه كثيرون ، ينكر المتهم ذنبه ويعزوه الى واحد أو أكثر من الفريق ، دون ان يستطيع تحديده

- الذنب الذي ارتكبه واحد او آخرون على وجه الدقة .
 (هـ) انكار تام مع الادلة .

وينصت القاضي الى القضية كما يعرضها كل من الطرفين ، ثم يطلب البينة من الطرف المدعي والمدافع من المتهم . ولكن البينة كثيرا ما يصعب العثور عليها في قضايا القتل والاعتصاب . ومن هنا القول : « لا دم عليه شهود ولا عيب عليه ورود » . ويكون لانواع البينة التالية وزن في القضية :

- (١) شهادة المغدور قبل موته بأن شخصا معيننا هو المذنب .
 (٢) اعتراف القاتل بجرمه في حضور أناس متحررين من الكراهية او الشهوة فيما يتعلق بالمتهم (خالية الغيظ والطمع) (٧٣) .
 (٣) حينما يضبط المذنب بالجرم المشهود .
 (٤) علامات الجريمة على الشخص المتهم .
 وفي كل قضية لا بد ان يكون الشهود رجالا شرفاء .

فاذا كان لا يمكن اثبات الاتهامات بواسطة شهود قادرين وثابت كونهم صادقين على الاطلاق ، عندئذ يطلب القاضي من المتهم ان يعطي « التسع ويمين وخمسة » ، و « التسع » يعني تسع الدية ، او ٣٦٧٠ قرشا ، وهو مبلغ يدفع فورا . اما « الخمسة » فتشير الى اليمين الذي لا بد ان يحلفه المتهم وواحد من اقاربه - بينما يردد ثلاثة من اقاربه اليمين ، بأن يقسموا على حسن النية . والشخص الذي يقسم مع المتهم (« جيد الامانة ») يختاره المدعي ، ويكون دائما أكثر افراد عائلة المتهم شرفا وتميزا . اما الثلاثة الآخرون فيقسمون « المزكين » .

ويذهب الأشخاص الاربعة الذين يقسمون مع المتهم الى « ولي » او « نبي » معروف ليتنوا اليمين (٧٤) . واما ان يذهب القاضي معهم بنفسه او يرسل شخصا ما لينوب عنه . وهم يخلعون نعالمهم ويدخلون في وجل . و « يقرص » المتهم في الحراب ويمسك يده ويقسم . ويأتي بعده « جيد الامانة » الذي يعتبر اهم الجميع . ويتلوه الثلاثة الآخرون لتأكيد يمين الاثنين . فاذا كان احد غائبا حل محله فرد يمسك به واحد من المزكين . ويمضي اليمين - الذي ينبغي الا يقاطع من احد - على النحو التالي : « والله العظيم (تكرر ثلاثا) خالق الليل والنهار ، الواحد القهار ، ميمم الأطفال ، مرمم النسوان قاهر الملوك ، ومبين الظالمين ، اني ما فعلت ، ولا قتلت ، ولا رأيت ، ولا سمعت ، ولا دريت ، ولا قدمت اسية ممسية » . ويقسم المزكون الثلاثة : « نشهد بالله ان يمينكم وكل ما قالوه صدق » .

وحيثما يقسم « جيد الامانة » فان القاضي يحكم على المتهم بتسع الدية فقط (انظر اعلاه) او بالف قرش عند دخوله (الدخلة) ، وبالف آخر عند خروجه (الخرجة) ، او بناقية بيضاء عند دخوله واخرى عند خروجه (٧٥) . وتدفع هذه المبالغ حينما يدخل الشخص المتهم بيت المدعي للمصالحة وعندما يغادره (٧٦) .

فاذا رفض « جيد الامانة » ان يحلف اليمين طلب منه ان يفسر سبب رفضه ، واديين المتهم يدفع مبلغ الدية كاملا اذا كان قد قبل قسمية « جيد الامانة » . وللمتهم حق رفض رجل سماه المدعون ليكون « جيد الامانة » ويتم هذا حينما يكونون على علاقة غير ودية ، ولا بد ان يعلن المتهم صراحة : « انكروا الله يا ناس وبيني وبين فلان شال ومال » .

وسيرفض المزكون الثلاثة تأكيد يمين الآخرين فقط حينما لا يكون اي عضو من قبيلتهم موجودا لحمل هذه المسؤولية على عاتقهم . وبوجه عام لا يملك احد - باستثناء الاقوياء - حق اداء اليمين . وبعد اليمين يدفع المتهم تسع الدين ، ويتم الاعلان عن حرите . ويطلق على هذا الحفل اسم « التسع والبراءة » .

وفي حالات السرقة والخصومة الناشئة عن تحويلات تجارية يقبل الشهود ايضا بعد ان يقسموا على الصحف او بولي او نبي .

واذا قتل شخص واتجهت الشبهة الى عديدين ، يلجأ الى « نار التجربة » او « نسا البراءة » او « البشعة » ، وهي قطعة من الحديد ، او « مهمزة » تحمى حتى تصبح متوهجة ، ويتقدم المشتبه فيهم واحدا بعد آخر للعقها بالسنتهم . ويتم هذا العمل الوحشي تحت اشراف شيوخ الدراويش من الطائفة الرفاعية ، الذين يلقبون « المبشعين » . ويقول الشخص المتهم : « انا بكوك البشعة ، محمول ، مزوم ، والبشعة والغرامة علي » . وكل من يمتحن بهذه المحنة لا بد ان يدفع رسما قدره ٥٠٠ قرش ، وهذا الرسم هو « البشاعة » . ويصحب الشهود المدعي والمتهم . ويلعق الاخير الحديد المحمي . اما من يفزع او يصرخ او يظهر علامات الالم فيعد المتهم . ولعل هذه العادة اندخلت في الاصل بهدف اخافسة الناس ، واجبارهم على قول الصدق . وكثيرا ما يحاول الرجل الذي يشعر بذنبه ان يجد سرا - واحدا يرتب الامر مع المدعي قبل ان يؤتي به الى « نار التجربة » (٧٧) .

وثمة اختبار آخر من هذا النوع ، وان كان اكثر انسانية الى حد كبير - هو « البلعة » ويقوم على الابتلاع السريع ودون تردد اما لشيء صلب - كالحبز الجاف - او شيء مثير للغثيان او كريه كالدواء . ومن يتردد او يشكو او يتقيأ يتهم ، حتى على الرغم من انه ربما يكون شخصا ذا معدة ضعيفة . اما اولئك الذين يؤدون هذا الفعل سريعا وبرباطة جاش فتعلن براءتهم ، على الرغم من انهم قد يكونون الجناة الحقيقيين . ويخيف الشيخ المتهم بتكرار بعض الكلمات السحرية والادعية على الاشياء التي يتوجب ابتلاعها ، زاعما انها بذلك تكتسب مقدرة خاصة ، لها تأثير مختلف على المذنب منه على البريء (٧٨) . ولا اعتراض على نتيجة هذه التجربة .

وبعد ان يكتمل التحقيق يسأل القاضي المتهمين عما اذا كان لديهم ما يضيفونه ، او اي اعتراض يقدمونه ، قائلا : « لقد قررت ٠٠٠٠ » ثم يأمر الضامن بتنفيذ القرار . ويمكن للقاضي ان يؤجل القرار الى ان يتم حلف يمين . وقد يحدث هذا في الحالات التالية : (١) لتأمين دليل جديد ، (ب) لاعطاء وزن اضافي لالتماسات احد الطرفين ، (ج) لاتاحة الوقت لدراسة اكثر عناية للقضية ، ومقارنتها بقضايا اخرى ذات طبيعة مماثلة ، (د) وحينما يكون هناك احتمال لتسوية بالتراضي . ويعلن الحكم عادة في ختام الجلسة الاولى ، حيث ان امتداد القضية قد يفضي بالناس الى الاشتباه او الشك في نقاء ضمير القاضي .

ولا يضم قانون البدو الجنائي اية مواد وملحقات بها . انما هو يتألف من قوانين— تحكم قضايا معينة وعقوبات في كل قضية منها . والعقوبات الاساسية التي يفرضها القاضي تنتمي الى الفئات التالية :

(١) القصاص . (٢) الدية . (٣) الجلي . (٤) العين بالعين .

ولا يفرض القصاص الا في الحالات التالية :

(أ) ينتهك رجل عرض امرأة متزوجة ، زوجها لا يزال على قيد الحياة .

(ب) حينما يقتل رجل احد الوجهاء .

وفي الحالة الاولى - وحتى اربعين سنة مضت - كانت المرأة وعشيقها يعدمان . أما الآن فتعدم الانثى الزانية وحدها ، بينما يسمح للرجل بان يخلص نفسه . اما بدفع مبلغ من المال او بتقديم بنتين على النحر الذي نصفه ادناه . وفي الحالة الثانية كان القاتل يعدم دائما . اما اليوم فان هناك حدا اكبر من الرافة ، ويكتفي الناس بدفع دية او اكثر .

ويصدر الامر بالطرد لمدة شهور او سنوات معدودة حينما يتهم شخص بالاغتصاب او القتل ، وفي تلك الاثناء فان الانطباع الذي تخلقه الجريمة يزول جزئيا . فاذا لم يكسب الطرفان قد توصلا الى وفاق فان القاتل يكون معرضا للقتل على يد واحد من افراد الطرف المدعي (الغارم) ، وهو فعل يذهب دون عقاب .

ولا يقضي القاضي بدفع تعويض الا في حالة الضرر او في حالة سرقة ملكية منقولة غير المنقود ، بما في ذلك انواع الملكية المعروفة ب « العروض » (٧٩) . فمثلا ، اذا سرقت شاة لا بد من دفع شاة كتعويض ، وناقة مقابل ناقة ، وحمار مقابل حمار ، وهكذا . ودفع ثمن الشيء مسموح به ايضا وخاصة في الحالات التي لا يمكن فيها اعادة الشيء الاصلي ، كما في حالة احتراق خيمة او في حالة افساد كومة قمح . وحينما لا يكون بالامكان اعادة الشيء المسروق نفسه ، يستعاض عنها بملكية مماثلة ، او فان الثمن المقدر يدفع للمالك . والاصايل (الخيول الاصيلة) (٨٠) حالة يكون فيها مثل هذا التقدير صعبا . فكما ان الخيل الاصيلة لا تباع ابدا دون « فوايد » (٨١) ، فان المالك يصر على ان يتلقى حصانا مساويا في قيمته للحصان الذي فقده ، او ثمنه مع اضافة « الفائدة » . وعقوبة سرقة الفرس الاصيلة تكون شديدة ، ويجبر السارق على ان يدفع تعويضا عن مهورها ايضا .

والدية هي اهم عقوبة . وتحدد بـ ٣٣ الف قرش ، وهو مبلغ يفترض انه مثل قيمة ١٠٠ ناقة . وثمان مائة جمل مقابل رجل مغدور هو عادة قديمة سابقة على الاسلام ، استمرت ممارستها حتى الوقت الحاضر . وفي حالة والد النبي دفعت مائة جمل او ٣٣ الف قرش ، على اساس انهم اعضاء في قبيلة اقوى بأسا او في فريق اكثر نبالة . وهذه بدورها عادة قديمة جدا ، فقد كان الملوك والامراء يقدون بمبلغ يعادل اربعة امثال الدية العادية .

والممتلكات التي ينهبها الطرف الواقع عليه الجرم خلال فترة ثلاثة ايام وثلاث يوم من يوم جريمة ، لا تكون واجبة الاعادة ، ولا تحسم من الدية . اما الممتلكات التي تنهب بعد انقضاء هذه الفترة فانها اما ان تستعاد عينا او ثمنها كما يقدره محكم تزيه ، يعين باختيار مشترك من الطرفين ، ويدفع المبلغ الذي يحدد الى اصحاب تلك الممتلكات .

والدية لا بد ان تدفع تحت كل الظروف ، الا حينما يكون القتل عارضا ، وفي هذه الحالة لا يدفع الا نصف دية . ولا فرق بشأن الكيفية التي ارتكبت بها الجريمة ، او لماذا ارتكبت ، او اذا كانت قد ارتكبت في حالة هجوم او دفاع ، بوجه حق او بغير وجه حق . ويستحق مبلغ الدية نفسه عند رجل او صبي ، او عبد مولود في البيت (٨٢) . او عبد معتوق (٨٣) ، او زنجي حر (٨٤) . والدية التي تدفع عن عبد كان مالكة الحالي هو الذي اشتراه تكون نصف الدية الكاملة . ويدفع رجل محرر وعبد مولود في البيت نصيبهما في الدية ، ولكنهما لا يتلقيان اي تعويض ، اي انهما لا يشتركان في دية يقبضها فريقيهما . وتدفع الدية كاملة عن امرأة مغدورة من بين البدو ، وما يتراوح بين نصف الدية ودية كاملة عن واحدة من بين الفلاحين . والمرأة الحامل يدفع عنها ما يتراوح بين دية كاملة ودية ونصف ، حيث يؤخذ طفلها في الحسبان . والاخير لا يعد كائنا حيا كاملا بعد ، حيث لا يزال معرضا لخطر جسيمة (« تحت الفرق والسرق ») (٨٥) . فاذا قتلت امرأة رجلا فان ابويها - وليس زوجها - يكونان مسؤولين عن الدية . فاذا قتلت فان زوجها يشارك مع اعضاء عائلتها في الدية . وهذا التمييز يصوره المثل الذي يقول : « خير المرا لجوزها وشرا ع اهلها » . وفي حالة ما اذا قتلت انثى بيد مفتصب تدفع عنها دية تتراوح بين دية ونصف واربعة امثال الدية العادية ، وذلك بسبب اجتماع جريمتين يشعتين واسقاط جنين عمره اقل من سبعة اشهر يعاقب عليه بنصف دية . وغالبا ما يتم صلح على اساس دفع خمسين جنيها او جملين . ويقدم احد هذين الجملين في بداية المصالحة في بيت المدعي (الداخلة) ، والثاني يسلم بعد الاتفاق (الخارجة) . اما اذا تم الاجهاض بعد الشهر السابع فان الدية تحسب كاملة اذا كان الجنين ذكرا ، ونصف دية اذا كان انثى ، وعندما يكون القاتل صبيا صغيرا فان اولئك الذين في مثل سنه في عائلته (٨٦) ، يكونون مسؤولين عن الدية .

في عراق عام ، حينما لا يكون القاتل معروفا ، فان القبيلة كلها او العائلة لا بد ان تدفع الدية ، وهي تسمى عندئذ « دية مغلولة » واذا وجد رجل ميتا خارج قرية فان القرية كلها تكون مسؤولة ، بل قد يشارك ذويه في جمع المبلغ . وعندما يقتل رجل في بيت آخر ، فلا بد للقاتل ان يعطي مالك البيت ناقة بيضاء وعيدا اسود . ولا يستطيع القاتل ان يجلب هذه الاشياء بنفسه ، انما تؤخذ بمقتضى مبدأ « الجاهة » ، ويعتقد ان هذه الهدية ترد كرامة الرجل الذي ارتكب في بيته هذا الفعل الشائن .

ويمكن التمييز بين الانواع الهامة التالية للجريمة :

- ١ - قتل افراق ، حينما يموت المغدور فورا ، او في خلال ساعات قليلة .
 - ٢ - قتل دغمة ، قتل عند الغسق او في الليل .
 - ٣ - قتل انثية ، قتل شاب غير متزوج ، وهو ما يعني القضاء على امكانية انجاب نسل ، وبالتالي طمس اسمه .
 - ٤ - نزلة العرض ، قتل شخص على وشك اغتصاب امرأة . وفي مثل هذه الحالة لا تدفع دية .
- وحينما يكون القاتل معروفا فانه يدفع ثلث الدية ، ويدفع ذويه الثلثين ، ويتلقى ورثة

المغدور ثلث الدية وذووه الثلثين . ويقول مثل عربي : « حطاط في الدية اخاد فيها » .
 واذا شارك شخص في عراك ، وكان لا ينتمي لاي من العائلتين المتعاركتين ، لا بسد ان
 يشارك في دفع الدية اذا كان قد ساعد جانب القاتل ، ولكنه لا يشارك في الدية المدفوعة ،
 اذا كان مع الطرف الاخر . ويعبر عن هذا المبدأ بوضوح المثل الآتي : « من فرح كفه في
 الضرب فرحها في الدفع » . وفي صراع كبير بين فريقين ، يقتل فيه عديد من الطرفين ، فان
 زيادة المقتولين من طرف او آخر لا يكون موضع نظر عند المصالحة ، حيث انه يقال : « حفر
 وغفر على ما غاب وبان » . بمعنى دعنا ننس كل ما حدث . ويصبح الشيء نفسه عن
 الاضرار في مثل هذه القضية ، ذلك انه لا القضاة ولا اي شخص غيرهم يمكنه ان يقرر
 بالعدل في مثل هذه المسألة الصعبة .

• واذا مات القاتل قبل المصالحة تدفع عائلته وذووه الدية .

وفقد اي عضو حيوي او طرف من الجسم ، مثل العين او الذراع او الساق ، يوجب
 دفع ما يتراوح بين ربع ونصف دية . وعند اصابة انف يدفع نصف دية . وعندما يصاب
 عضوان - عينان او عين وساق ، الخ ، يدفع ما يتراوح بين نصف دية ودية كاملة . ومقابل
 جرح في الوجه يترك ندبة قبيحة يدفع نصف دية ، وتدفع « جاهة وجاهة » ، لئلا - « هواية
 الوجه المشهر » . وفي حالة الجرح البسيط تقدم شاة كوجاهة ، الى جانب تعويض كامل عن
 الضرر والنفقات او الخسائر الحاصلة (٨٧) .

والعقوبة في حالة الاغتصاب تختلف تماما . فاذا ما تحرش رجل بفتاة ولكن لم يتم
 الفعل ، فان عليه ان يقسم انه لم يكن يقصد سوءا من لمسها ، وان يثبت صحة قسمه
 بشهادة خمسة شهود صادقين تعرف باسم « دين وخمسة » . وبالإضافة الى هذا فانه
 عندما يدخل بيت ابيها لا بد ان يدفع عند مغادرته اياه بعد المصالحة (خارجة) . فاذا
 كانت البنت تنتمي الى مرتبة اجتماعية دنيا يدفع مبلغ اصغر . فاذا اغتصبت البنت حكم
 على الرجل بدفع ضعف مبلغ مهرها . ثم تمنح له كزوجة . ومع ذلك فانها اذا كانت من
 عائلة احسن تعين عليه ان يقدم فتاتين كاعتراف بخطئه وكطلب للصفح . والرجل الذي
 يخطف بنتا برضاها يحكم عليه القاضي بتقديم بنتين ومهرين ، وبان يأتي بشاهد ليشهدانه
 لم يمسه الا بعد اتفاق رسمي . ويطلق على هذا الشاهد اسم « المبري » (٨٨) ، فاذا
 اخفق في الاتيان بالشاهد تعين عليه ان يدفع خمس ناقات بالاضافة الى ما ذكرناه .
 والمرأة المتزوجة التي ترتكب الزنا تعذب ، ويدفع المعتدي قيمة مهر لزوجها وآخر لعائلتها ،
 او بنتين . واذا اباحت بنت نفسها لرجل فان على الاخير ان يأتي بشاهد ليشهد على انه
 لم يمسه الا بعد ان تزوجا رسميا ، ولا بد ان يدفع لها مهرا . هذه هي القاعدة في شرق
 الاردن . اما في فلسطين فان ذويها يذبحونها . وانتهاك عرض ارملة يعاقب عليه عادة
 بما يتناسب مع اهمية عائلتها . ولا بد ان يدفع المعتصب مهرها ويتزوجها .

اذا اعتدى رجل على امرأة في وضح النهار ، او بالقرب من تجمعات بشرية ، وطلبت
 النجدة (٨٩) ، فان حياة المعتدي تصبح في ايدي ذويها لمدة ثلاثة ايام وثلث يوم . فاذا
 افلتت من الموت تكون العقوبات التالية هي المعتادة (على ان الممارسة الآن اصبحت اقل
 تشددا في هذه الناحية) : يقطع ذراعه ، يتعين عليه ان يسلم كل الاسلحة التي بحوزته
 وكذلك حصانه الذي كان معه الى ذويها . والى جانب هذا عليه ان يضع صفا من الجمال

او الغنم من المكان الذي ارتكب فيه الاغتصاب او محاولة الاغتصاب الى المكان الذي سمع فيه صياح الفتاة . ويعدّها يقوم آخرون بدور المحكمين وينخفض عدد الحيوانات تدريجيا الى ان يصبح في حدود قدرته على الدفع . فاذا كان بإمكان المعتدي اقامة الدليل على أنه لم يمسه الا بعد اتحاد قانوني سمح لها بالزواج منها ، ويقال عن الفتاة « توبها قسادر وخرزها يادر » . ولا يحق لمثل هذا الرجل ان يطلب هدنة (عطوة) وانما يعرف بانـه « مشمس » ويبقى على هذه الحال الى ان تنتهي القضية .

من المعروف ان البنات العربيات ملكية لعائلاتهن ككل . ومن ثم غالبنت ليست ملكية ابيها وحده ، ولا اخيها وحده . فاذا ما طلب احدهم يدها دعا الاب كل ذويه ، ويتوقف زواج الفتاة على رضاهم او استيائهم . وابن العم هو صاحب الحق الاول في فتاة ، حيث انه اقرب ذويها خارج المحارم ، ويأتي بعده ابن الخال ، ويليهم الآخرون في العائلة وشقيق زوج اختها ، لكل منهم حق اولوية يتناسب مع درجة قرابته .

وابن العم يدفع دائما نصف المهر المعتاد . ويقول المثل : « ابن العم بيتيه عنـ الفرس » (٩٠) ، و « دور الدورة ولو دارت خذ بنت العم ولو بارت » . ويتراوح المهر بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ قرش عادة . ولاتتلقى الفتاة من مهرها الا ريعه فقط وتحرم من نصيب في ميراث ابيها وزوجها . وهي تعرف اجحافه المعاملة ولكنها لا تجرؤ على طلب حقوق اكبر بسبب صرامة العادة . وليس من الواضح لماذا تعامل بهذا القدر من الظلم في هذه الناحية ، وتراعى باحترام كبير غيما عدا ذلك (٩١) .

ولا يوجد نص بين القضاة العرب لتناول حالات اللواط ، حيث ان مجرد ذكر هذا الفعل محرم . وفي العربية لا يوجد تعبير محلي عن هذا الفعل المستمد في الواقع من اسم لوط شقيق ابراهيم النبي (٩٢) .

ذكرنا بالفعل بعض اساليب العقاب في قضية السرقة ، ولكن اساليب اخرى قليلة تحتاج بعد لان توصف . حينما يسرق قطيع ماشية فان القاضي احيانا ما يأمر بدفع رأس غنم عن كل خطوة من الموقع الذي تمت فيه السرقة الى اول وقفه بعده . ولكن - كما رأينا - فان المعتاد ان تنخفض هذه العقوبات المبالغ فيها تدريجيا « لاجل خاطر الحاضرين » وتختلف عقوبة السرقة طبقا للعلاقات بين القبيلتين المتنازعتين :

١ - فالسرقات من قبيلة معادية : « رد ناقة » (اعلان حرب) . ولا يمكن ان تستعاد الاشياء المسروقة طبقا للمثل القائل : « التهاية رايحة » .

٢ - في حالة القبائل او العائلات الصديقة ، يطبق مبدأ « عين بعين » (٩٣) ، على النحو الذي سبق وصفه (٩٤) . وهذه ايضا تسمى « بوقه » .

٣ - حينما يكون الطرفان محايدين تعاد الاشياء المسروقة مضاعفة لاربعة امثالها ، ولكن لا بد من التوصل اولا الى اتفاق بين الطرفين ، وهو اتفاق يمكن ان يعدل المبدأ العام ، وعندما يتم التوصل الى تفاهم فيما يتعلق بـ « التربيع » (أي دفع اربعة امثال المسروق) يقال الآتي : « السرقة بينا مربعة تا ينشف البحر وينبت عالكف شعر ، شاتنا بأربع وحلالنا تربيع (٩٥) ، وكل ما راح بيننا مربع » .

والهنسة او الهجزة (٩٦) ، أي الدخول الى مكان مغلق ليلا للسرقة يعاقب عليه بغرامة ٥٠٠ قرش ، ولا بد من دفع ٥٠٠ قرش أخرى عند المصالحة تسمى « السددة » .

وبعد اعلان قرار من أي نوع يقول القاضي : « هذا حكمي ، فاذا لم يكن احد راضيا به فليرفع الدعوى الى قاض آخر او يأخذ نصيحة بني عقبة (٩٧) ، ويتعرض القاضي لخطر النقد من جانب اولئك الذين يكونون حاضرين ويسمعون قراره ، ومن جانب القضاة الآخرين ، ومن ثم يكون وشرفه وسمعته في الميزان . وقد يؤدي خطأ واحد لا الى سقوطه وفصله فحسب ، انما ايضا الى فقدان الثقة بكل افراد عائلته .

اما اذا قبل الطرفان كلاما القرار المعلن من القاضي فانهما يمضيان الى تحديد وقت وشروط تنفيذ الحكم . فاذا اعتبر احد الطرفين نفسه قد عومل معاملة ظالمة فانه يطلب نسخة من القرار موقعا عليها من القاضي ، ويستأنف لدى قضاة آخرين ، فاذا وافسق القاضي او القضاة المستأنف لديهم على الحكم ، تعين تنفيذه . فاذا لم يوافقوا يكتسب الاعتراض على نسخة القرار وتعاد الى القاضي الذي اتخذه . ويتعين على الاخير ان يتحدث مع القاضي المحتج ويحاول اقناعه . فاذا نجح تاكد حكمه . واذا لم ينجح يتعين على القاضي الاول ان يدفع للخاسر في القضية الفرق بين حكمه ، وحكم القاضي الثاني . واذا كان الحكم خاطئا كلية يمنع القاضي من اية ممارسة بعد ذلك ويحتقر احتقارا شديدا . وعندما يرفض القاضي الاول وخصمه التسليم أي منهما للآخر ، يرفع الاستئناف الى قضاة آخرين يكونون عادة من اعضاء « التياهة » في ناحية « بئر سبع » ، او « واد عمور » في ناحية الخليل ، او « المساعد » او « الفاعور » وكليهما في « الغور » (بوادي الاردن) جنوبي نابلس .

ويعرض الحكم الاول والاحتجاج عليه كلاهما على هؤلاء القضاة ، وفي النهاية يرضخ الطرف الخاسر للطرف الاخر . ويعلن الطرف الرابع - الذي تاكد او صدق عليه ، في جميع انحاء البلدة . ولا بد للخاسر (المفلوج) ان يعتذر وان يقدم شاة ، الخ الى القاضي الذي يتغلب قراره ولكلا الطرفين من الاستئناف ويطلق على هذا الفعل اسم « لفية المفلوج » .

وفي قضية قتل حينما يعلن الحكم النهائي - يحدد وقت ويخطر اهل المغدور . ويجتمع اعيان الناحية في قرية او مخيم القاتل . فاذا كان الطرفان ينتميان الى القرية نفسها فانهم يلتقون في حي الطرف المذنب . ويأخذ الآخرون معهم « الوجاهة » ، وتتألف من اربز وشاة وزيد وطحين وبن وتبغ وسكر وشعير ، وحتى خشب (٩٨) . ولا بد ان تسبق « الوجاهة » قليلا « الجاهة » - او الاعيان - الذين يحرسون الشخص المذنب الى مسكن الطرف المجنى عليه . وعندما يقترب الموكب من غايته تزال عمامات المجرم وعائلته او اغطية رؤسهم وتوضع حول اعناقهم دلالة على المهانة والخضوع . ويختبئ المجرم خلف الاعيان اثناء دخول بيت الطرف المجنى عليه ، الذي يبقى افراده جالسين . ثم ينهض الآخرون ويرتبون عمامات المجرم وعائلته ، وبعدها يقدم هؤلاء القهوة للجميع . وفي حالة مقتل شخص مغمور ، فان والده او عضوا اخر من عائلة المغدور يعفى من اعداد الوجبة لوفا الصلح، ولكن هذا الامر يترك للأعضاء الآخرين في العائلة والاقارب الابعد فيها(٩٩) .

وفي القضايا المتصلة بشرف الانثى ، يمكن ان تعد عائلة المجنى عليها الطعام . ولا يقال شيء عن غرض الاجتماع الى ان يكون الطعام معدا . عندئذ يلح المضيفون عليهم ان

يأكلوا • بينما يرفض الضيوف • وبينما يستمر هذا يقول القاضي - الذي يحتل أرفع مكانة بين الحاضرين - لاهل البيت : « لن نأكل أبدا ما لم تعدونا بأعطائنا ما جئنا من أجله » • ويدور نقاش طويل حتى يقطع الوعد في النهاية ، وعندئذ يشارك الجميع في تناول الطعام • وهذا تصوير جيد لضيافة وكرم المضيفين ، الذين يكونون مستعدين للتضحية بكل شيء من أجل ارضاء ضيوفهم •

وعندما ينتهي الطعام وتقدم القهوة ثانية ، ينهض احد الاعيان ويقول : « احنا للحم وانتمو السكين » • بمعنى اننا في حماكم ، وبإستطاعتكم ان تفعلوا بنا ما شئتم • ويأخذ القاضي عصا طويلة وقطع من نسيج الموصلين الأبيض ، ويعقدها بطرف العصا ، جاعلا ثلاثا وثلاثين عقدة ، اشارة الى ان الدية هي ٢٢ الف قرش • ويعتبر من قبيل التشريف الكبير لرجل ان يربط هذه العقد ، اذ انه عندئذ يجري الحديث عنه بأنه الرجل الذي « يعقد الرأية » بعد اراقة دم او انتهاك عرض انثى • ثم يعطي القاضي العصا للقاتل او المعتصب ، فيقف هذا ويمسك بها عاليا • ويناشد القاضي شرف وكرم وفروسية الطرف المجني عليه بأن يسأل : « كم تقدرون وجه الله والنبي و ابراهيم و فلان (ذاكرا اسم احد الاعيان الذين لا يكون حاضرا بالضرورة) ؟ » وبعبارة اخرى يسأل القاضي كم يستعد الطرف المجني عليه للحسم من المبلغ الكلي ، الذي يتجاوز قدرة الشخص المتوسط • ومع ذكر اسماء اعيان عديدين يخفض المبلغ الاصيل تبعا لكرم الناس المعنيين ، وعن كل الف قرش تحسم محل القاضي واحدة من العقد • ويستمر القاضي في ذلك حتى يصبح المبلغ الباقي معقولا • وفي حالة ما اذا كان الجاني فقيرا يسمح له بأن يدفع بالتقسيط ، الثلث مقدما ، والثلث الثاني بعد ستة اشهر والثالث بعد سنة • وقيل ان يغادر الشخص المذنب المكان - بعد التسوية - ينهض احد الحاضرين ويقول : رايتك بيضا يا راعي الغرمة (١٠٠) •

ونظام « الجاهة والوجاهة » (الذين يأتون مع الجانب المذنب) والمهدية (من الطعام الذي يأتي به هؤلاء) - كما ظهر بين عرب الصحراء - هو افضل اسلوب ممكن لتأمين خفض الدية وتقليص العقوبة • كما انه يبرهن على كرم الطرف المجني عليه ويشجع على هذا الكرم •

أما عندما يهرب القاتل من قريته او قبيلته فانه لا يمكن ان يعود ما لم ، او الى ان ، يتكفل شخص معروف بمسؤولية اعادته الى القبيلة كمجرم ، وتسليمه سالما الى اهله (« يورده زالم ويصدره سالم ») • ويمضي الاجراء بعدئذ على النحو التالي : يقيسد القاضي يدي المذنب معا ، ويقوده الى خصومه ، اما وحيدا او مصحوبا باهله • ثم يوجه خطابه الى الطرف المجني عليه : « خذ فلان بن فلان عوض عن فلان » (١٠١) • وينهض اقرب اقرباء القاتل وفي يده سيف او سكين ، ويسأل المتهم : « هل لديك ضامن او ضمان ؟ ، - « لا » - « هل لي ان اقتلك اذن ؟ » ويجيب المجرم بالاجاب ، وعندها يقطع الآخر قيده ويعفو عنه •

فاذا كان المجرم مصحوبا بذويه فانه لا ينضم اليهم ، انما يجلس وحده • وعندما يقدم الطعام لا يشارك ضامنه الى ان يتأكد من ان الجزء من الدية سيدفع • وبعد ان يتم هذا يشارك الجميع في تناول الطعام •

ولا يقوم القاضي بنفسه بأي محاولة لخفض الدية او تخفيف القرار الذي اتخذه ، بل

انه - على النقيض من ذلك يطلب من الضامنين ان ينفذوه ، ويتعيّن على الاخيرين ان يتأكدوا من تحقيقه . فاذا رفض الطرف المجني عليه لسبب أو لآخر تخفيف قسوة الدية اجبر الضامنون المجرم على ان يدفع المبلغ المطلوب باكماله ، ويتسلم الضامنون عشر المبلغ الذي يأخذونه من المجرم . ومع ذلك فان المدعين لا يكونون ابدا من الناحية العملية بهذه الدرجة من القسوة ، انما هم يتصرفون بنزاهة ويسلمون . وهكذا يتم الصلح وتتصافى قلوب الاخصام المليئة بالمرارة ، ويعد ان تسوى قضية دم او عرض . وتتفد كل الشكليات تصبح القبيلتان على ود من جديد ، ويعقدان تحالفا . وتسمى العلاقة الجديدة « امومية » .

وقد جاء ذكر بعض العقوبات القاسية وحتى التي لا تغتفر ، فاذا لم يعاقب المجرم بقسوة فانه سيواصل فعل السوء ، ويحذو آخرون حذوه ، حتى يتعرض الامن العام للخطر . فكانت العقوبات البالغة القسوة - التي عدلت الآن - مفيدة للغاية غالبا في مجتمع بدائسي .

وختاما نجد ان لمعظم القانون المدني ما يقابله في نظيره البدوي . فاذا قارنا بينهما سنجد ان الاخير اكثر دقة واكثر تعادلا في كثير من جوانبه ، كما هو الحال مثلا في مسألة اليمين والشهود والاستئناف ورد القضاة . وما شابه ذلك .

عمر اقندي الجرعوتي (القدس)

نقلت النص الى العربية

اجلال عبده

(٢) من قبيلة بني تميم ، بين يمامة واحصا . وقد توفي عقب ظهور النبي مباشرة .

(٣) معاصر للاول ومن رجال قبيلته .

(٤) ديتو .

(٥) من قريش . مسقط رأس النبي .

(٦) ابنة امير الحسا امير بني تميم .

(٧) ابنة محارب موهوب من بني تميم .

(٨) « المضافة » غرفة للاستخدام المشاعي للقرويين ، حيث يتم اكرام الضيوف . وتوجد عادة المضافة في كل قرية تقريبا في جنوب نابلس ، وبين بني صعيب على شاطئ البحر . وفي شمال نابلس نجد بدلا من « المضافات » - « دواوين » ، وهي حجرات للزوار في بيت كل من الاعيان . وينفق كبار السن في القرية معظم وقتهم في « المضافة » .

(٩) احاديث المستنين والخم في

الحواشي

(١) كاتب هذا البحث مسلم ، هو ابن واحد من أبرز شيوخ جنوب فلسطين . تعرف عن قرب منذ صباه على عادات وممارسات الفلاحين والبدو الذين لا يكاد يوجد بينهم فرق في جنوب فلسطين . حيث تمتزج تدريجيا طبقة في الاخرى . وقد عكف على جمع المواد الفولكلورية والاشنية طوال ١٣ عاما مدونا اياها في يوميات ومذكرات خاصة ، ومن المؤسف ان عددا منها قد وقع في يد العدو اثناء الحرب ، واتلف . وستكتسب معرفتنا بتاريخ ولغة وعادات جنوب فلسطين الكثير من المعرفة الواسعة ومن المجموعات الضخمة التي قام بجمعها . ونأمل ان تكون هذه مجرد دفعة اولى .

اود ان اعبر عن تقديري للدكتور وف. اولبرايت والدكتور ط. كتعان للتشجيع والمساعدة اللتين قدماها لاعداد هذا البحث .

- المضافة ، بينما يكون الآخرون في العمل .
- (١٠) في جبل الخليل .
- (١١) ديتو .
- (١٢) ديتو .
- (١٣) الوعدية منطقة تقع الى الشرق والجنوب الشرقي من القدس .
- (١٤) في ناحية جنين .
- (١٥) فيما يلي أسماء القضاة الحاضرين من هذه العائلات ، وكلهم من الفلاحين : الحاج حسين وعيسى محمد من المناصرة ، شحادة من أبو عرام ، عبد الرحيم تالنج من الحامدة ، وحسن أبو كارب من دير جرير ، وستذكر أسماء القضاة الببدو وأشبهه الببدو فيما يلي .
- (١٦) امر النبي بأن يسوي اعيان القوم القضايا التي تنشأ بين الناس . ويحذر حديث نبوي من خطر العهدة بمنصب السى شخص غير كفؤ .
- (١٧) الامثلة التي تشير الى النظر من هذه الزاوية هي : « دم رخيص وعرض رخيص » . « هالعيلة لا يتوخذ التار ولا بتتقي العار » . ويشار الى الانتهاك المتكرر لعرض الانثى بجملة تقول ما معناه : الزيتون دعس قبل خزنه .
- (١٨) الدية هي ثمن الدم . والجرة فتاة تؤخذ من فريق القاتل وتزوج الى رجل من العائلة التي فقدت مغدورا . وتزوج الفتاة دون مهر .
- (١٩) « اطيب عليهم » في حالة القتل او الاغتصاب ، وعدا ذلك « اسألهم » .
- (٢٠) عادة الرزقة (الرهان) عادة قديمة جدا . قصة القمت الفحل وادين طفيل في « رسالة بن زيدون » .
- (٢١) في اراء فضل القافي انه يمكن ان يأخذ شاة أو قماشاً بدلا من النقود . وعندئذ
- يسمى « معارض » .
- (٢٢) عادة العهد قديم للغاية ، ونجد في وقت يرجع الى زمن الجاهلية ، قمارن قصة حاجب بن زرارة وكسري في « العقد الفريد » لابن عبد ربه . المجلد الاول ، ص ١٢٠ .
- (٢٣) لكل مضافة فاطورها الخاص ، ويختاره المسنون . وهو في بعض الاماكن يتلقى اجرا يصل الى مائة مجيدي فسي السنة وفي قرى اخرى يأخذ ما يصل ١١ مائة صاع من القمح اي من ٦:٢ رطل او من ١٨:٩ كيلو .
- (٢٤) حرفيا « الشخص المختار » .
- (٢٥) حرفيا « مكان اليمين » .
- (٢٦) حرفيا « مكان التوقف ، حيث يتوقف سير العدالة » .
- (٢٧) في مثل هذه الحالة يمكن ان يقول الغني « مصاريف اقوى من عظامه » ، بمعنى اموال اكبر من امواله .
- (٢٨) يستخدم الفلاحون كلمة عطاني او انطاني من اعطاني .
- (٢٩) بين العرب ، اللحية او الشارب رمز لشرف الرجل . ولما كانت اللحية بهذا القدر من الاهمية فانها لا تحلق ابدا ، ومن الهزوء حلقها .
- (٣٠) يعيش بنو حسن في قرى بيتعير ، ولوجة ، مالي ، بيت جالا ، الخ .
- (٣١) في قرى الطيبة ، دير جرير ، كفر مالك ورمعون .
- (٣٢) يستخدم هذا المصطلح هنا ليشمل جبل القدس . اي القرى المحيطة ببيت المقدس حتى « البيرة » نحو الشمال .
- (٣٣) ذر التراب يمثل نثر الدم . وكل من يقع عليهم التراب لهم حق والتزام بأن ينتقموا للمغدور .

(٤٩) صفوف من القماش معلقة بجانب بعضها في تناغم تام .

(٥٠) معناها ، ابتكفل انهم لا يعدو ولا يبدو مثل حبال الغسيل ، ايشيلو على بير ويريدو على بير ؟

(٥١) هل قبلتم وجوهنا من الحق واليق والعاطل والباطل ؟

(٥٢) حرقيا « لا لوم عليهم » اي انهم لا يلامون على ما يفعلون حيث ان الوجه قد انسحب .

(٥٣) يقال عن اولئك الذين يخرقون الهدنة ، طاحو بالوجه اي انتهكوا الضمان .

(٥٤) « هدنة » هي الكلمة العربية المقابلة لكلمة عطوة الفلاحين .

(٥٥) كلمة « قود » تعني حرفيا حيوانا يقاد بواسطة حبل ، مثل العنزة او الشاة .

(٥٦) هناك قول اخر هو : « اللي متحزم به عريان » .

(٥٧) عادة توجد مضافة واحدة في كل قرية ، ولكن عندما تكون القرية منقسمة الى فريقين مختلفين ، يؤسس كل منها مضافة خاصة به . وحيانا ما تطلق على المضافة اسماء اخرى مثل الساحة والقنق (وهي من اصل تركي) والجامع . وهي عادة غرفة كبيرة لها وجاه شرقي مبني في الحائط البعيد عن الباب .

(٥٨) يظهر هذا السكون رصانة المناسبة ، ذلك انه اثناء الصلاة في مسجد أو قراءة القرآن يراعى مثل هذا السكون .

(٥٩) خويي ، مثل « خيي » الفلسطينية .

(٦٠) هذا يعني ان العائلة تحظى باحترام شديد ، ولا احد يجرؤ عادة على مهاجمة افرادها .

(٦١) حرقيا « نظيف القميص » ، اي

(٦٤) انظر حداد « بلوتارخ قسي فلسطين » ، (الماني) ١٩١٧ .

(٦٥) احيانا ما تعطى هدنة قصيرة لمدة اربعة ايام تسمى « عطوة كم ولم » اي هدنة ليضعة ايام لجمع النقود .

(٦٦) من قرين العنب (بني مالك) .

(٦٧) من دير غسانة (بني زيد) .

(٦٨) من كور (بني صعيب) .

(٦٩) من سعنور (مشارق الجرار) .

(٤٠) هو بهذا يعزو الاوامر الدينية الى الرجل المتعلم والسلطة الدنيوية الى نفسه .

(٤١) على التوالي اقرب اقرباء المغدور وطالب الشرف (في قضايا الاغتصاب) .

(٤٢) كلمة « فتوح » من « الفتح » تشير الى فتح المفاوضات على الهدنة . ولم اسمع ابدا تعبير « عطوة الفورة » الذي ذكره حداد في المصدر المذكور .

(٤٣) مجيدي تركي او خمس جنيه تركي ، يساوي ٢٠ قرش صاغ ، او نحو ٤٤ فرنك .

(٤٤) يستخدم تعبير « القبول » لان قبول هدنة ثانية يمهد الطريق لاتفاق نهائي .

(٤٥) في بعض الاماكن تدفع النقود عن كل هدنة ، حتى الهدنة الرابعة والخامسة ، الخ .

(٤٦) كلمة « طناب » من « طنبة » ، وهي نشر خيمة الى جانب اخرى . « انا طاناب عليك » تعني اود ان تقبلني جارا لك .

(٤٧) حرقيا « الجد الخامس للاب » .

(٤٨) تعني الامان والاطمئنان (قارن حداد) .

ان يكونوا طاهرين قبل الدخول • وعادة
يعين يوم الجمعة لليمين ، لجعل القسم
اكثر تبجيلا •

(٧٥) يتم هذا عندما تكون العائلة
المتدينة معروفة بأنها فقيرة جدا •

(٧٦) هناك تعبيران اخران للدخلة
والخرجة هما التيهة والطلعة •

(٧٧) اهمماكن الاختبار هي العلا، خان
يونس (في اراضي قبيلة الايادة) شيخ
مبروك (بين الخرازة وبين بن عطية
(شرق الاردن) •

(٧٨) قارن الاختبار بواسطة نرح الماء
المقدس (ماء الغيرة) العدد ٥٠ ص
١١ : ٣١ • الذي يصبح مرا ويسبب مرضا
في جسم المرأة غير العفيفة ، ولكنه لا يؤثر
على العفيفة ابدا •

(٧٩) كل شيء يعرض للبيع الا
الحيوانات والنقود والغلال والسوائل ،
طبقا للمادة ١٣١ من القانون المدني
التركي ، المجلة • « الفلاح » يدخل الان
تحت هذه كل شيء الا النقود •

(٨٠) جمع اصيل •

(٨١) جمع فائدة • كما بيعت فرصة قوية
البنية يوقع عقد يقضي بان يعطي اثنان
من ذريتها الاناث للملكها الاول وتسمى هذه
الذرية من الاناث فوايد او متاني •

(٨٢) عبد مولد ، عبد مولود لاب عبد
في بيت سيدة •

(٨٣) عبد معتوق •

(٨٤) عبد هنا تعني الزنجي •

(٨٥) حرفيا : تحت خطر الغرق
والاختناق (في الرحم) •

(٨٦) في جانب الاب • يقول حديث
« البدية على القيلة » •

(٨٧) يقتضي فقد كل سنة اولى من

انه لم يقتل بسبب فعل وضيع •

(٦٢) حرفيا « الفرج » ولكن هنا « علاقة
انثوية » •

(٦٣) العظم تعني هنا حرفيا عضوا او
اعضاء فقراء في العائلة •

(٦٤) دم ابن عمي هو بالفعل دمي انا •

(٦٥) اي انه ابن زنا •

(٦٦) هذا تهديد يصور قضية القتل فيها
معترف به •

(٦٧) اي انه لم يتم شيء للتعويض عن
موت ابن عمي •

(٦٨) تصويرا لهذا المفهوم يمكن تذكر
بعض الامثال : « تلتين الولد لحاله » -
« ما يترك التار الا راضي البال » •

(٦٩) حرفيا « صحي ودافىء » ،
ومعناها رجل موفور الصحة والثروة •

(٧٠) حرفيا « الشاب رمح » •

(٧١) معناها فقدت السيطرة على يدي •

(٧٢) هذه حالة نموذجية حيث الذنب
معترف به • اما حيث ينكر فانه تستخدم
صيغة كالتالي : « صلي عالنبى يا قاضي ،
ويش تقول في التاييم ليله وحافظ ديله ، لا
بيعلم ولا بيدري وبيرموا عليه بحال بليه •
ومن يوم لحقت مقعدك وصلت مسلسل
الانصاف تراني ما انتهم على كلام سايع
بن رايح » •

(٧٣) الفلاح العادي والصقار (الذي
لا يزرع الا قطعة ارض صغيرة) والسياف،
الخ لا يملكون حق الادلاء بالشهادة • ويقال
ان هذه القاعدة وضعها ابن السمير من
الحرشان (سحور) • وهي قاعدة قديمة •
ان ناشف الجلد (اي الرجل بلا لحية)
والمقطوع الولد لا يحق له ان يدلسي
بالشهادة •

(٧٤) اولئك الذين يقسمون اليمين لا يد

وبتريرون عند النمورة والديابة واللي مسا
يصغر لابن امه ما يكبر عند عدوه .
تحداكم البين واتعداكم النيه واتحدفكم
القوم ، حارب عداكم ياخذونا غداكم » .

بعد هذه الانشودة تملك الرجال الخجل
فاوقفوا القتال ، وتصالحو فيما بعد .

(٩٢) تطبيق حكم الموت في مثل هذه
الحالة .

(٩٣) كلمة « عين » تعني ايضا « عين
الشجاعة » .

(٩٤) قارن
Ex 21, Len 24, Dent 19 Cet.

(٩٥) يفهم البدو بالحلال الغنم والماعز
والجمال والخيل والحمير والخ .

(٩٦) فلاح : الحتاسة تعادل الحتاسة
(قارن محيط المحيط ، الجزء الثاني ،
٢١٨٢) .

(٩٧) محكمة الاستئناف العليا ، التي
يلجأ اليها عادة في قضايا الشروق .

(٩٨) هناك ايضا وجامة صغيرة يقال
لها لاقية . ويذهب الطرف المذنب الى
منزل الخصم اخذا معه شاة او اثنتين .
وبعد ان يعترف ويعتذر يطلب المصالحة .
وهذا هو المتبع فقط بين عداك الناس
وحين تكون الجريمة صغيرة ، مثل قطع
اشجار الزيتون وسرقة الثمار ، الخ .

(٩٩) حينما يكون الغدور منتميا الى
عائلة نبيلة فان ذويه لا يعدون الطعام انما
يتركون ذلك لعائلة القاتل .

(١٠٠) هذا يعني « المالك » طبقا
للاستخدام العربي الحديث .

(١٠١) هذه عادة عربية قديمة للغاية
(سابقة على الاسلام) . انظر ابن الاثير
المجلد الاول : حرب البسوس .

القواطع ٥٠٠ قرش كتعويض ، والثانية
٢٥٠ : وللناب من كل ناحية ١٢٥ ! ولكل
من الضروسين ٦٢٣ ، وللضروس الاخيرة
٣١٣ .

(٨٨) لا بد ان يتم حفل الزواج الرسمي
في حضور القاضي او العالم او
الخطيب ، ولكن عمليا يكفي ان يطلب
الرجل الفتاة في حضور شخص ثالث ،
لا بد ان يكون من الاعيان لكي يقبله
زوجا لها .

(٨٩) تعرف مثل هذه المرأة بصيحية
الضوى .

(٩٠) اذا منحت فتاة لغريب فانه يحق
لابن عمها ، حتى في اخر لحظة ، ان
ياخذها . وهو عندئذ ياخذها من فوق
حصانها في موكب الزفاف ويصحبها
الى البيت .

(٩١) بين البدو تشترك المرأة في
صراعات الرجل وتصاحب المحاربين ، بل
انها تذهب الى الحرب معهم . وكل من
يضرب امرأة ، حتى ولو كانت قد اصابته
بجرح يحتقر . فاذا وقعت نساء في الاسر
فانهن لا يبقين اسيرات ، انما يرسلن الى
موطنهن مع الحماية والتكريم اللازمين والبدوي
غزواتهم ياخذون النساء الاسيرات من
قبيلة العدو معهم لا لسبيهن انما لاعادتهن
الى اهلن بما يلزم من احترام في اول
فرصة . وللأغنية التي ترددها النساء
اثناء القتال اثر محفز على الرجال .
فيدعونهم لان لا يخافوا من العدو
ويلمنهم على الجبن حتى يجبرتهم على
الصمود . ويقال انه عندما تنازع رجال
قرية ما بدأ القتال فظهرت النساء بقيادة
واحدة من ارفع السيدات ينشدن كلمات
ملتهية : « هيا عليكم يا رجال (رجل) الكلب
بيعوني باب داره ، والجهاز بتحارش
عا مزابلها ويتناهق عسا مداودها

ميشال شيحا

فلسطين

منشورات ميشال شيحا ، بيروت ١٩٦٨ .

- دوليا : تراجع الاستعمار الاوروبي القديم ممثلا ببريطانيا وفرنسا والمانية المهزومة لصالح العملاقين الصاعدين : الولايات المتحدة الاميركية من جهة والاتحاد السوفياتي من جهة اخرى .

وسط مجمل هذه التحولات كان لبنان الناشئ حديثا يبحث عن موقع له وضمانات جديدة لاستمراره .

ولم يخل البحث على يد شيحا من ماضوية تحمل على الدوام بذور تراجيديا قد تصيب لبنان ، فهناك تمسك بأوروبا بدل الصعود الاميركي السوفياتي ، (٢) ورغبة في ابقاء الوضع العربي بعيدا عن الرياح التحررية ، (٣) ونزوع الى التمسك بالسلم « العالمي » بعد الحرب الثانية بدل الحرب التي هي لا مندوحة آتية الى المنطقة العربية (٤) وهذا ما جعل شيحا يتنبوء باهر يطلق على الحرب « حرب المائة عام » .

بل وصل الامر بشيحا الى ما يشبه الوقوف المبكر على اطلال لبنان « فنحن اللبنانيين مدعوون الى رؤية هذا السلطان على حدودنا يتسع واحتمال المعيب الساقط بوجوده ومحاولاته والى الاشتراك في تحبير المراثي » (ص ١٢٥) .

على ان شيحا لم يكن « انعزاليا » بالمعنى المبسط والمتعارف عليه اليوم ، والاصح ان يقال ان موقف شيحا غير

ميشال شيحا هو أحد أهم منظري الكيان اللبناني ان لم يكن الأهم ، وهو في مقالاته الصحفية التي كتبها وجمعت تحت عنوان « فلسطين » (١) يتناول القضية الفلسطينية وقيام دولة اسرائيل وما تلا قيامها تناولا متعدد الابعاد والاتجاهات .

ففي كتابه قراءة « لبنانية » للمسالتين الفلسطينية واليهودية معا ، ومساهمات في صياغة سياسة عربية في التعاطي مع اسرائيل والغرب والشرق ، وقبل هذا وذاك ، محاولة لتطبيق قوانين الصياغة اللبنانية على فلسطين ، ومحاولة موازيه لقراءة الوضع اللبناني على ضوء نشأة اسرائيل الدولة والمستجدات التي طرحها .

لقد جاء كتاب شيحا وسط ظروف تميزت بالتالي :

- **لبنانيا** : نشأة « الدولة » والبحث عن ظروف سلمية ملائمة ، خصوصا بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية ، لتكوين عصبية لبنانية تسير الى جانب التوطيد الاقتصادي والسياسي .

- **عربيا** : بلوغ الانظمة القديمة ، التي ساومت الغرب لانشاء لبنان ، مستوى بالغ من التعفن يقربها الى حدود الانهيار، سيما وان نهاية الحرب كانت تطلق في « العالم الثالث » موجة تحررية وطنية مالبثت ان ترجمت نفسها عربيا في مصر .

المسدود أمام مواقف بعض الاقطار العربية التي لم تؤيد سياسة السادات) : فمن موقع الحرص على « المساومة » في المنطقة حرص شيحا على مطالبة المغرب وخصوصا الولايات المتحدة ، بايجاد « حل سلمي » اكثر تقدما بكثير من الحالة الساداتية الراهنة ، (٦) وأقل بكثير من الدعوة لجعل الشعب العربي يمارس نضاله التحرري ضد اسرائيل، وهي دعوة لشد ما خافها شيحا و « لبنان » الذي كان مؤجلا .

فلنحاول ان نعين كيف أعاد شيحا قراءة « الصيغة اللبنانية » على ضوء اسرائيل ، بل تلاوة هذه الصيغة على اسرائيل تلاوة لا تخلو من التبشير اللبناني الذي لم يطل به العمر .

لقد مثل تقسيم فلسطين بالنسبة له انكسارا في « نظرية » النموذج اللبناني ، فهو يطمح الى « لبننة » الكائن الجديد عن طريق « تعايش الطوائف » فيه ، ووقف الجروح الى الصهينة والعنصرية بوصفهما يقطعان مع ما يمثله « التعايش » اللبناني .

وبلغة أخرى ، قدم « لبنان » عبر شيحا رده - بالطوائف - على اسرائيل ، فهذا يضمن عدم استنهاض الرد الاخر : الرد بالجماهير ... وهو ايضا يوفر تعميم الغلبة المارونية (وهنا الغلبة اليهودية) بدل الهيمنة العنصرية الكاسحة والمشمولية التي تضع المنطقة بكاملها على فوهة البركان ، (٧) وهذا التصور يشكل امتدادا طبيعيا لمحاولة الحفاظ الماضي على مناخ امبريالي معتدل (بدل ان يكون متطرفا) .

والخوف من اختلال الصيغة اللبنانية على يد الصيغة الاسرائيلية يجعل شيحا يدق أعلى نواقيس الخطر واكثرها مباشرة ووضوحا فـ « اعتبروا ان الدولة اليهودية قد صنعت . حتى بتنا نرتقب على ريبة

الانعزالي ذلك هو بالضبط جذر الحالة التراجيدية التي أثبت لبنان (بعد تجاوز ماض مؤقت) انه لا يتسع لها . (٥)

وبقدر ما يخطيء الذي يقول ان سعد حداد هو الوجه الاخر لميشال شيحا ، يخطيء كذلك من يقول ان سعد حداد لا يتصل بميشال شيحا ، اذ الشيوحية هي حالة من تأجيل الواقع ، ومع ولادة اسرائيل والعناصر الاخرى المستجدة تحرك الواقع بسرعة فكان سعد حداد حفيد ميشال شيحا الوحيد .

وبلغة اكثر وضوحا يمكن القول ان تحولا قد حصل في المناخ الامبريالي بين الفترة التي تلت الحزب الاولى والفترة التي تلت الحرب الثانية ، ففي الاولى كان المناخ الامبريالي « معتدلا » يجد رموزه في استعمار اوروبي ووسائل محلية (لبنانية مثلا) لكن جدلية العملية الاستعمارية الغت او اهملت الكثير من العناصر التي اوجدتها في تلك الفترة .

فاذا وجد لبنان عام ١٩٢٠ من ضمن ترتيب الوضع القائم لمصلحة الغرب ، ففي المرحلة الثانية حيث بات المناخ الامبريالي حارا باتت الرموز البديلة مغايرة : أميركا بدلا عن اوروبا ، وهزيمة العرب بدل المساومة معهم ، اي اسرائيل بدل لبنان .

ولبنان لا يستطيع ان يلعب دوره كاملا الا في مناخ من المساومة العربية الغربية ، مساومة مغلقة بلون من التوازن .. فهو كائن يتمتع عن « التطرف » ولا يرتاح اليه ، خصوصا وان نشأة اسرائيل قد تقود الى هيجان سياسي في العالم العربي كثيرا ما حذر منه شيحا .

والتراجيدية تأخذ شكلا ناجما عن مخاطبة « المتطرفين » بلغة « معتدلة » .

(وهذه تراجيدية نراها اليوم في الاق

مخاطبة العرب من على منصة « فالبلدان العربية لم تدرك بعد ان خطر الدولة اليهودية اعظم ما يهددها من مخاطر » (١٠٨)
من هذا الموقع يريد شيحا للعرب الا يرجع نضالهم ضد « الغرب » (١١) على نضالهم ضد اسرائيل ، ورغم ملامات كثيرة يوجهها للسياسات الغربية عموما والاميركية خصوصا ، فهو يلتقي عند هذه النقطة مع منطق تاريخي تمسكت به الرجعييات العربية ومقاده ان بالامكان مقاتلة اسرائيل من ضمن الصداقة مع الغرب ممثلا مرة ببريطانيا ومرة اخرى بالولايات المتحدة .

ويحذر العرب من الاندفاع نحو « الشيوعية » ، (١٢) فد « لاشك في ان العرب سوف يوازنون ما بين الروس والاميركيين » (١٩٤) ويوظف في هذا كل طاقته الاقناعية ليرهنه الدور الروسي - الاميركي في انشاء اسرائيل ، بل وأحيانا لا يحيا ان اميركا ارتكبت خطا لن يستفيد منه سوى الروس فد « من المحتم ان الدولة اليهودية - كما شاءتها واشنطن وموسكو - ستكون مدعاة لخلاف أبدي داخل حدود الشرق الاوسط جمعاء . وخارجها . أهذا ، ترى ، ما يلائم واشنطن حقا ، أم تراه بلائم موسكو ؟ » (٦٣)

أما وقد قامت اسرائيل فماذا اختار شيحا ردا عليها بقي لبنان شر العثرات المقبلة ؟

ان « الحل » هنا لا يتعدى التنظير المبكر للشهائية . اي بناء جيش « يحمي الحدود ، واقتصاد له توجه « انمائي » مع المحافظة الوطنية على الصداقات والعلاقات الدبلوماسية مع الغرب (١٣) ، وبالنظر المجرد الى هذا الحل فهو يبدو أشد تماسكا من الحل الانعزالي الراهن

واحتراز ، هذه المحنة الخطابية والجدلية التي يهيا لها في بقعة من جبل لبنان ، فيتشرف بها لبنان » (٤٣) .

ان الدعوة الى اللقاء على الاديان تحمل اوضح تعابير الفهم الرجعي للمسألة الدينية ، بوصفها مستعدة لالغاء الاسلام (التصرري) شرط ان يرافقه الغناء اليهودية (المعادية) وصولا الى حالة من التصالح « اللبناني » الذي « يتساوى » أمامه التطرف العربي والتطرف « اليهودي » الصهيوني ، ولا يبقى من خطر سوى « الاتحاد والشيوعية » . ويتذكر المرء أمام دعوة لبنان هذه ، الاستهلال الديني الملفت الذي استهل به أنور السادات خطابه الشهير في الكنيسة الاسرائيلي (توافق مع اسرائيل أوله الدين وأخره المعاداة للشيوعية مزورا بالتصالح مع الغرب « المؤمن ») .

و « التطرف » الذي تمثله اسرائيل يهدد عظيم التهديد وظيفة « الاعتدال الذي مثله لبنان وليس ايدولوجية فحسب . فهناك خوف اقتصادي (١) من التطور الاسرائيلي وتقدم « العلوم والعقول اليهودية » . وهناك خوف استراتيجي من ذلك البلد التوسعي الذي يقع « في امت الجوار » (٩) ممزوج بخرافية النظرة الى اليهود وامكاناتهم التي « لا تحد » (والتي « سيطرت » على اميركا وبريطانيا) .

والتلاوة التبشيرية للصيغة اللبنانية ، لم تكن تلقى على اسرائيل فحسب ، بل على العرب أيضا ، حيث حدد لهم شيحا « اللبناني » للصراع مع اسرائيل : الاعتدال والاهتمام بالاعلام والصداقات الدولية وغير ذلك . (١٠) وفي لحظة من لحظات المخاطبة يبدو شيحا معلما لبنانيا أهله الموقع للاطلاع على الحضارات واللغات وأساليب السياسة مما خوله

وها هي حكومة بيغن تستعين مؤخرا بالاختصاصي الاقتصادي الاميركي فريدمان لاحتلال المزيد من الحرية في الاقتصاد الاسرائيلي ورفع بعض القيود التي اقامها « حزب العمل » .

هذا حتى لا نقول شيئا عن الاحتمالات الكبيرة للمصلح الاقتصادي المصري - الاسرائيلي بعد كامب ديفيد .

لقد حاول شيحا ، لابقاء العرب في موقع « الاعتدال » ، أن يقنعهم بالدور « الماركسي » في انشاء دولة اسرائيل ، وان هذه الدولة تعتمد الاشتراكية والرأسمالية على السواء في نظامها الاقتصادي (١٤) . لكن ماذا يستطيع « لبنان » أن يقول اليوم للعرب بعد أن حسم منحيم بيغن هذه « الالتباسات » باتجاه المزيد من « التطرف » الاقتصادي والسياسي والدولي ؟

والحقيقة ان اسرائيل كانت دائما اعرف من شيحا بـ « لبنان » وانتقاله ، والميول الحتمية والاخيرة للانعزال اللبناني ، فد « النقاشات بين انصار التعنت والعناصر الاكثر اعتدالا حول لبنان قديم قدم ايجاد الدولة (الاسرائيلية) ، وقد قدمت معاريف في عدد ٢٢ تشرين الاول ١٩٧٨ نموذجا لهذا المناخ عندما اوردت جزءا من مذكرات موشي شاريت وزير خارجية اسرائيل السابق ، الذي ذكر ان بن غوريون قد طالب في شباط ١٩٥٤ بدفع الموارنة الى « اعلان دولة مسيحية في لبنان » ، قلت له ان ذلك سراپ ، فرد بن غوريون بغضب وبدأ يدلل على القاعدة التاريخية للدولة المسيحية الصغيرة في لبنان » . وامام اعتراضات موشي شاريت الذي لفت النظر الى مخاطر مغامرة كهذه ، قال بن غوريون « انه يكفي ارسال

حول ضرب الفلسطينيين وتوزيعهم في « مشكلة اللاجئين مهما بدت جارحة ، فيحلها لن يستتب السلام » (٢٢٢) .

لكن تقدم شيحا على الانعزالية الراهنة هو تقدم لخطة استثنائية دامت بين ١٩٤٣ و ١٩٤٨ ووجدت أن عليها بعد ذلك ان تمارس الاختفاء شيئا فشيئا اذ كل مقوماتها السياسية والمادية تنهار او تسير نحو الانهيار .

فالعرب تغيروا بصعود الناصرية ثم المقاومة الفلسطينية ، أما اسرائيل فتوطدت وازدادت جنوحا نحو التطرف مع مجيء منحيم بيغن ، وأما لبنان فكيف يمكن ان يستشعر بعد الان بخطر اقتصادي وخطر استراتيجي طالما ان « البورجوازية » المالية لا تلعب اي دور في رسم الحياة السياسية ، وان « وحدة البلد وعدم التفريط بترابيه » ما عادت تشكل امورا حيوية في الوعي السياسي اللبناني .

لقد ولد غكر ميشال شيحا في لحظة من الوهم : وهم انشاء دولة وتأسيس سيطرة رأسمالية تستدعي وضوحا في حدودها وموقعها المتميز ، لكن انبثاق « الحقيقة اللبنانية » كشف استحالة الدولة والرأسمالية وأكد طابع الانقسام الجوهري المؤسس على ترابط المسائلتين القومية والطائفية .

وهنا يظهر الخيل اللبناني في ميشال شيحا ، خيل تحويل لبنان الى دولة ومجتمع ، وهنا تكمن بذور التراجيديا .

وإذا كانت « دولة لبنان » استطاعت ان تحافظ على ذاتها بعد انشاء « دولة اسرائيل » بصعوبة فائقة ، فكيف يمكن ان تصان « الدولة » الاولى ، اذ مثلما انتهى ميشال شيحا على يد سعد حداد انتهت اسرائيل الاولى على يد حزب « ليكود » ،

١٩٥٦ وانتهى شاريت نهاية مأساوية (كنهاية شيحا) فيما اعتبر بن غوريون مؤسس الدولة الذي وجد امتداده في من كانوا دائما على يمينه .

حازم صاغية

الطبيعية ثلاثي وضمانته « (٢٠١) وبمعزل عن شعطة الجنون المثالية هذه (واللبنانية بالضرورة) يبدو أن موقف شيحا متعادل مع جماعة الحوار العربي - الاوروبي « الراغبين في تمايز نسبي عن الولايات المتحدة ، وهو تمايز مسدود الافق كما يشير « الحوار » .

(٢) « كيف بهم يبتغون انتقال اليهود (٠٠) والا يهيج انتقالهم اليها عرب فلسطين معهم جوارهم قاطبة « (١٦) ، وهم « يؤلبون عليهم هذا المقدار مسن الشعوب « (١٨) . « ان الجار الهائل (٠٠) لكفيل وحده بتحريك الثورة والحرب « (١٤١) . ويقول بلغة اوضح « ولكن كيف لا يبتغون ان يتسلح العالم العربي ايضا والا تنتهي المغامرة الجنونية الى ليل من القنابل والى مجزرة ؟ وحسينا ان نستمع الى الزعيم الشيشكلي واللواء نجيب لنذكر ماهية الجو الذي نعيش فيه « (١٧٦) وهو يصل الى مطالبته « الله « و « الاقدار » بالحل لقطع الطريق على حل يأتي به الشعب العربي « فلا بد من ان نرى يد المدبر الحكيم ، مرة اخرى ، ولونا من السخط والعقاب غير منتظر « (٥١) . « والحق يقال انه لا بد في هذه القضية من تدخل القدر او مشيئة فوق ارادة البشر ، كمثل ما تم منذ تسعة عشر قرنا ، اذ حل الدمار ببيت المقدس « (٦٥) .

المبعوثين ودفن الاموال (٠٠) واذك يحدث تغيير عميق في الشرق الاوسط ويبدأ عصر جديد « (١٥) كان ذلك السجال عشية الصدام مع مصر عامي ١٩٥٥ و

الحواشي

(١) كتاب صادر عن منشورات مؤسسة ميشال شيحا ، بيروت ١٩٦٨ ، ترجمه عن الفرنسية انطون غطاس كرم .

والكتاب يقسم الى مقدمة هي كناية عن مقال مؤرخ في ١٥ حزيران ١٩٤٤ وثلاثة أقسام تتوازي مع تطور الاحداث السياسية في فلسطين .

- القسم الاول يتناول الفترة الممتدة بين ١٩٤٥ و ١٩٤٧ . تحت عنوان « الاخلاق في انهيار » .

- القسم الثاني بين ١٩٤٨ و ١٩٥٠ بعنوان « التخلي عن ارض القدس » .

- القسم الثالث بين ١٩٥١ و ١٩٥٤ بعنوان « النكبة زاحفة » .

(٢) كثيرة هي تعبيرات التمسك بأوروبا ومحمولها السياسي الذي مفاده ان الاستعمار القديم يصلح الوضع اللبناني مع الوضع العربي ولا يستغز الاخير فيما المستجد الاسرائيلي - الاميركي يهدد المعادلة : « لن ينقضي زمان طويل حتى تضحى انكلترا في الشرق الادنى هدفا لضغط متزايد من قبل روسيا والولايات المتحدة (معا او مداولة) وذلك عن طريق اسرائيل « (١٤١) « ويازاء الامبرياليات المستحدثة تضحى امبرياليات الماضي (كالكومنولث البريطاني) الاحلاف

جانبا من الخطورة يكفل توجيه مصير
العبريين داخل فلسطين ، وان لم تقسم
ولا مرية بأن في حوزة هذه الاقلية اليهودية
عناصر القوة جمعا « (٢٢) ويبرر
بالطوائف معما « لبنان » (متجنبا
العرب) « ان المغامرة الصهيونية يعسر
ان تلقى مسوغا (٠٠٠) اذا ما هي قوبلت
بموقف المسيحيين وموقف المسلمين من
ارض المقدس « (٢١) « فيتحذ جميع
المتعبدين لله « (٤٩) « واذا نرى (ما اتبع
لنا ان نراه حتى الان) اليهود وحدهم من
جانبا والمسلمين والمسيحيين من جانبا ،
بئس ما صارت اليه في هذا العصر سياسة
كبرياء وطموح الخ « (٧٨) ويظهر الخوف
على المعادلة اللبنانية من « النمساويج »
الاسرائيلي فـ « كانه لم يتبق في العالم
مسيحية ولا اسلام « (١١٥) والحل هو
باللبننة وضبط الاندفاع الى الصهيونية
الاحادية « فهذا هو الحل اللبناني (٠٠٠)
حب التعايش المشترك الى مجلس مشترك
في بلد يتكون من اقلية مجتمعة « (٢٨)
« فأي رجاء لا يتولد انذاك من التعبد
الثلاثي ، القريسي ، الاضوي ، لاله
واحد « (٤٥) « ونرى اننذ ، وما اروع ما
نرى ، العرب واليهود ، والمسلمين
والمسيحيين واليهود يتعاونون بفلسطين في
قلب حكرمة واحدة « (٨١) « ولكان يعترف
العرب بوجود اسرائيل السياسي في الشرق
الادنى لو انه حد من دولة
اسرائيل « (٢٣٦) « انما تقسيم فلسطين
الى شطرين هو بمثابة تجديد لقضية
« السودات » في تشيكوسلوفاكيا او افتعال
مأساة اجلة او عاجلة « (٤١) »

(٨) « فهو مشروع وقاح ، جسور ، من
الاستيلاء الاقتصادي والمالي والناعي
والتجاري « (١١٨) « فلربما كان للعلاقات
الاقتصادية مع اسرائيل مغزى مباشر الا
وهي انفراج اسرائيل او هي المحاولات
المختلفة ليتمكن جيراننا في الجنوب من

(٤) « ولا بد والحرب مؤذنة بانتهاه ان
نفكر في السلم « (١٦) ، « فبينما ينبغي
ان تسهر الامم لتدرا النار عن التهام
الارض جمعا بداعي تشاحن العقائد الذي
يزحزح اركانها راحوا هم يصلون النار
ويجعلون لها مركزا جديدا « (٨٠) »

(٥) « فعلى كل لبناني وكل سوري ان
يتذكر باننا من هذا المطمح وهذا السلطان
في امت جوار وان المغامرة اليهودية لن
تؤتي توسعها المنشود الا بمشيتها على
اجسامنا « (٥٥) ويلوم سياسة المسك
عبد الله (١٤٦) وتقصير الجامعة العربية
(٢٠٨) ويستعد للانخراط في « دفاع
مشترك « (٢٠٥) »

(٦) رفض شيحا المساومة والمصالحة
والهدنة مع اسرائيل ما لم تكن مضمونة
بضمانات دولية جدية اوجزها بـ « تدويل
القدس والضمانة التعاقدية للحدود »
وحرص على عدم الصلح الاقتصادي ، بل
وصل بعد انشاء اسرائيل مباشرة الى
الدعوة لـ « المقاومة العربية » واعتبارها
« امرا حيويا « (٩٥) وظل يحرص على
« ان تحل مشكلة اللاجئين المفجعة « (١٨١)
واقترن في بعض الاحيان من منطلق جمال
عبد الناصر في مواجهة الاحلاف ومشاريع
دالاس وايدن فـ « خطر الحرب ، بالنسبة
الى العرب ، لا يكمن في روسيا بل في
اسرائيل « (٢٠٤) على ان ترسخ القناعة
سنة بعد سنة بتوطد دولة اسرائيل قادت
شيحا الى قبول الاعتراف السياسي قسي
النهاية (١٨٢) »

(٧) الغلبة تكفي ولا حاجة لهيمنة :
« كان في وسع العرب واليهود ان يتعايشوا
بفلسطين في سلام . وحسب ازدهار اليهود
في ارض المقدس دليلا عليه « (٧١-٧٢) »
و « غير ان الاقلية اليهودية في فلسطين
(ورؤساءها الموزعون في المعمورة) على

(١١) من هنا يخاطب شيحا جون فوستر دالاس مطالبيا اياه بشيء يشبه اقامة حلف يوازن بين العرب واسرائيل ضمن التوازن الاميركي (١٩٦) ويرى وجوب التضحية بمعركة السويس حيث « لا بد لصر من ان تتنازل في السويس بعض التنازل المقبول لتخلص القدس » (٢٤٢) .

(١٢) يقول بعد الخلاف السوفياتي - الاسرائيلي « ان في اضطهاد البلدان السوفياتية اليهود الان ، استمالة منهم للعرب ، لدعاة لحدرد اللبنانيين ، لا سيما وقد دعمت هذي البلدان عينها اسرائيل على التوالي » (١٩١) .

(١٣) ترى هذا الاتجاه مبثوثا في كل كتاباته ومنها « لا بد لنا ان نعمن الفاتا الى ان فلسطين تتاخم لبنان من جهة الجنوب ، وان لبنان في هذه الجهة وغيرها من الجهات مفتقر الى اراضيه برمتها ، مفتقر الى اخر سنبله من سنابلها واخر

زيتونه » (١٢) و « ساعبة سياسة وديبلوماسية بصيرتين ولسنا نحاشي اللجوء الى القوة » (١٩٣) « اننا نرى انه لا ندحة عن امتلاك حد من القوة ادنى ، يكفيها لدرء التناول عنها . وغني عن البيان ان قوة الامم لا تتأتى مما هي حوزتها من الات الحرب فحسب ، وانما نلقاها ايضا ، وفوق ذلك ، في ما تنتهج من سياسة ومحالفات » (١٤٨) .

(١٤) « ليس افضل من اسرائيل معين على الثورة حيثما كان ، وهذا ما يعلمونه جيدا في موسكو » (٩٦) ومثل هذا يتردد بكثرة في كتاب شيحا .

(١٥) من مقال للصحفي الاسرائيلي عمنون كابليوك منشور في جريدة « السفير » ، ٧٨/١١/١٩ .

وضع يدهم على اقتصادنا الخاص وعلى مصادر طاقتنا » (١٨٠) . ويقول في كتابه « لبنان في العالم » : « اما على الصعيد الاقتصادي فان اسرائيل لا يلين لها عيش دون صناعة ضخمة . فاذا هي صنعت نفسها بما لديها من وسائل تقنية ومالية ، اكتسحت جوارها وقضت على كل شيء . واسرائيل من جهة اخرى لا تستطيع التنفس بدون تجارة مكثفة . وما ان تجارته تقيد من علائق لها صلات ، من حضور في العالم واسواق ، من استلافات شتى وتيسيرات وسوف تكون التجارة الاسرائيلية ، في شرقي المتوسط ، بفعل ما توفره لها الدولة من حوافز ، تحديدا لا مناص منه ، لكل المشروعات ، لكسب المرافىء ، لكل التجارات والوكالات . ولكل المهن التي تقتضي خدمة معينة » (نقل عن: فواز طرابلسي ، قضية لبنان الوطنية والديمقراطية ، دار الطليعة، ص ١٠-١١) . ولذا كان شيحا متحمسا للمقاطعة الاقتصادية التي تضمن للبنان تفرده بدور الوساطة دون منافسة اسرائيل بنتيجة وصولها الى العالم العربي ، احد طرفي الوساطة .

(٩) « وما لعب ان يستشعر البلد الصغير خطرا مثل هذا الخطر يرهق منه الحدود » (١٠٠) « ولا يتم نمو اسرائيل ولا يسعه ان يتم الا على حساب جيرانها » (١٨٧) « قد نضحى بعد الان في ناظر اليهود الزاحمين من الجنوب ، ارض الميعاد ، وهجرتهم تفوق الحصر » (٩١) . و اشار الى مخاطر اكثر تحديدا بشكل يذكر بمنطق ريمون اده « اما نرى حقا نهرنا ، الليطاني ، يتراءى في الافق ؟ فهذا المسيل ، وهذا النهر الصغير لا يضاعف هواجسنا الا بداعي مشاريع اسرائيل ومطامحها » (١٦٢) .

(١٠) انظر مثلا ، لا حصر ، الصفحتين ٢٨ و ٣٤ .

حسين عبد الرزاق
، مصر في ١٨ و ١٩ يناير

دراسة سياسية وثائقية ، بيروت دار الكلمة ، الطبعة الاولى ١٩٧٩ .

التي ترددها وسائل الاعلام المصرية بلا
توقف وبصخب شديد *

وفي المجال الخارجي ، شهدت نهاية عام
١٩٧٧ - الذي وقعت الاحداث في بدايته -
مبادرة الرئيس انور السادات الاستسلامية
وزيارته للقدس بكل ما لحق بذلك من
تطورات تمثلت في توقيع « اتفاقيتي كامب
ديفيد » * وقد اصبح من المعروف كيف
ان الحكم في مصر قد استغل الوضع
الاقتصادي في البلاد ، ومعاناة الجماهير
في مصر ، لتبرير الاندفاع في خطوات
التسوية التي صورت للمصريين على انها
هي التي ستحقق له السلام .. والرخاء

وقبل ان نعرض للكتاب ، الذي يسجل
عنوانه انه « دراسة سياسية وثائقية » من
المفيد ان نشير الى ان المؤلف لم يكن
بعيدا عن الموضوع الذي عالجه ، بل انه -
على العكس - كان لصيقا به طوال الوقت
والى ابعد حد * ويكفي هنا ان نقول ان
حسين عبد الرزاق هو واحد من الصحفيين
والكتاب المصريين البارزين الذين يعملون
بنشاط في الحقل السياسي ، كذلك فانه
عضو بسكرتيرية حزبه التجمع الوطني
التقدمي الوجودي الذي حاولت الحكومة
المصرية ، عقب احداث كانون الثاني
١٩٧٧ ، ان تلصق به تهمة التحريض على
اعمال الشعب التي رافقت هذه الاحداث ،
وقد تعرض حسين عبد الرزاق باعتباره من
قيادات الحزب النشطة ، لالقاء القبض

ويبدو صدور هذا الكتاب في هذه الايام
بالذات ، بعد مرور عامين على الانتفاضة
الجماهيرية في مصر ، ذا اهمية خاصة ،
فيعد انقضاء هذين العامين الكاملين ،
يمكن القول ان تأثيرات تلك الاحداث التي
يتناولها قد انسحبت على كل ما مر على
مصر بعد ذلك من تطورات متلاحقة ،
وانعكست على توجهات الحكم ووسائل
معالجته للسياسة الداخلية والخارجية على
السواء *

ففي المجال الداخلي ، لا جدال في ان
احداث كانون الثاني ١٩٧٧ قد احدثت
تأثيرات واسعة ومتلاحقة فرضت - في
النهاية - الاطاحة بحكومة ممدوح سالم
التي حملت وزر رفع الاسعار ، الذي كان
هو السبب المباشر في تفجير الاحداث ، كما
اطاحت ايضا بحزب مصر الذي كان ممدوح
سالم رئيسا له * ورأى الرئيس المصري
انور السادات ان يقبض بنفسه ، بعد
ذلك ، على زمام العمل السياسي
الجماهيري مما جعله ينشئ حزبا يتولى
هو رئاسته ليحل محل الحزب السابق
الذي تحمل الادانة وكل تهمة الفساد
والرشوة والعجز عن مواجهة مشكلة رفع
الاسعار * ثم بدأ الترويج بعد هذا ، في
حملة اعلامية رسمية واسعة ، لما ينبغي
عمله من اجل « رفع المعاناة عن الجماهير »
وتحقيق « الامن الغذائي » فضلا عن
« السلام الاجتماعي » واقامة « المجتمعات
الجديدة » وغير هذا وذلك من الشعارات

الحكم عن طريق العنف وانهاء ثورة ١٥ مايو المجيدة ٠٠ ولعل خط سير الاحداث يكشف عن ان العناصر الشيوعية المنظمة ، وبعض قيادات حزب التجمع ، كانت ترصد تطورت الموقف الاقتصادي ، ومن وجهة نظر واحدة ، تقف على ارضية سياسية واحدة ، هدفها الانقراض على الساحة الجماهيرية والسيطرة عليها ٠ وان الفريقين ، تشاركهما بعض العناصر من مدعي الناصرية التي اشتركت في المظاهرات ، سارعوا الى تحديد توقيت التفجير بمجرد اعلان القرارات الاقتصادية التي أصدرتها الحكومة ٠ وكان اسلوب التفجير متجها منذ البداية الى اشارة مشاعر السخط الجماهيري ، الى الحد الذي يصل بالامور الى اشارة الاضطرابات على مستوى محافظات الجمهورية باكملها ٠٠ » ٠

وبعد بيان الحكومة يأتي بيان ٢٤ يناير الذي صدر عقب اجتماع رئيس الجمهورية بالقيادات السياسية ، الذي نلمس التناقض فيه واضحا ، فالبيان يقول « ان حدوث ردود الفعل بالنسبة للقرارات الاقتصادية التي صدرت اخيرا وان كان امرا طبيعيا لما تمثله من اعباء على بعض قطاعات الشعب ، الا ان العناصر التخريبية التي يهملها عدم خروج البلاد من ازمته الاقتصادية التي تكون المناخ الصالح لتنفيذ اهدافها ركبت موجة رد الفعل الشعبي واخرجتها عن مسارها السلمي ، وحولتها الى الاحداث المؤسفة ٠٠٠ » ٠

وينتهي حسين عبد الرازق مقدمته بالتنبيه الى ان المدخل الصحيح الذي على ضوءه تفهم احداث يناير في مصر ، هو تقييم قرارات ١٧ يناير بشأن رفع الاسعار وعلاقتها بالممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي بدأت في معركة التصحيح

عليه ، وما زالت قضيته معروضة على القضاء المصري الذي لم يبت بها حتى الان ٠

ينقسم الكتاب الى قسمين خصص اولهما للدراسة ، التي اجراها المؤلف من موقعه القريب جدا من الموضوع ، بينما خصص القسم الثاني للوثائق ٠

وتشتمل الدراسة ، بعد المقدمة ، على اربعة فصول تعالج الوضع السياسي الداخلي في مصر منذ « انقلاب ١٢ مايو (ايار) ١٩٧١ » كما اسماء المؤلف وتشرح كيف فتحت الطريق الى « هبة يناير » ٠٠ ثم تتعرض لاسباب حصول المظاهرات السلمية الى العنف والالتهام الذي وجه للميسار بالتحريض على الشعب ، الى ان تتدرج لتشرح كيف انهضت مؤامرة الحكومة ٠

في المقدمة ، التي جعلها المؤلف تحوت عنوان « ١٨ و ١٩ يناير » ٠٠ مؤامرة ام انتفاضة شعبية ، يسجل حسين عبد الرزق شهادات الصحافة العالمية ووجهات نظر حزب التجمع الوحدوي والحزب الشيوعي المصري في الاحداث ، والتي جاءت جميعها مخالفة لوجهة نظر الحكومة المصرية التي اتهمت الشيوعيين وحزب التجمع والناصرين بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم ٠ فقد وصفت الصحف ووكالات الانباء العالمية هذه التهمة « ساذجة » واجمعت كلها ، تقريبا ، على ان قرارات رفع اسعار السلع كانت هي السبب المباشر للانفجار نظرا لما تعانيه الجماهير من اعباء اقتصادية ٠

فالحكومة تصف احداث ١٨ و ١٩ يناير - على لسان رئيس الوزراء ممدوح سسالم امام مجلس الشعب - بأنها « مؤامرة سافرة استهدفت وثوب المتأمرين الى

ومع ازمة الديمقراطية يتناول المؤلف قضية الحريات العامة في مصر والجراءات التي اتخذتها سلطة مايو فيما يتعلق بإعادة انتخابات الاتحاد الاشتراكي عام ١٩٧١ والذي سبقه القاء القبض على المثات من انصار علي صبري وشعراوي جمعة ٠٠٠ ثم محاصرة قرية كمشيش واعتقال العديد من ابناءها .
التقدميين وإبعاد البعض الآخر عن القرية ٠٠ ثم حادثة (أبو كبيرة) وتدخّل السلطة المباشر لصالح مرشحها والاصطدام بالجماهير الرفضية ، ثم الغاء اللجنة التنفيذية العليا ، وتعيين الامين الاول للاتحاد الاشتراكي من قبل رئيس الجمهورية و أعضاء الامانة العامة .
ومن الاتحاد الاشتراكي الى الاتحادات العمالية وتدخّل السلطة في الانتخابات والمصادمات التي تمت بسبب ذلك التدخّل في كل من شبين الكوم وحلوان .
ويعد العمال يأتي دور الصحفيين حيث تم فصل (١٠٢) صحفي ما بين شباط واذار ١٩٧٢ .

وتتدرج الاحداث ، فمع نهاية عام ١٩٧٥ وبداية عام ١٩٧٦ طرحت الحكومة قضية تعدد الاحزاب وشروط قيامها ثم الانتخابات البرلمانية وقوائم الاحزاب وملابسات النشاط الدعائي وبرامج التشريع ومضايقات السلطة وحملة الاعلام المضاد ضد حزب التجمع الوطني ومرشحيه .

من خلال كل هذه الاجراءات والممارسات يكشف حسين عبد الرازق عن طبيعة النظام اللاديمقراطي ، منتقلا فيما بعد الى ما يسميه بالازمة الوطنية بعد حرب ١٩٦٧ وما تمخض عنها من اتجاهات :

- اتجاه يدعو الى حرب تحرير شعبية .
- اتجاه يدعو الى التفاهم مع امريكا .
- اتجاه يدعو الى ممارسة ضغوط

في ١٢ مايو ١٩٧١ وتؤكد بعد حرب اكتوبر . وهذا ما تعرض له في الفصل الاول .

في هذا الفصل يحلل حسين عبد الرازق طبيعة نظام مايو وتركيبه فيحدث عن ثلاثة تيارات يراها داخل التركيبة الحاكمة .

التيار الاول : ويعبر عن الجزء الغالب من الطبقة الجديدة ، التي تكونت اساسا خلال ثورة يوليو من الفنيين والعسكريين واقاربهم واصهارهم ، الذين استفادوا من تصفيات الطبقات القديمة . وقد شارك هذا التيار في اقامة سلطة مايو .

التيار الثاني : ويعبر عن تحالف الراسمالية الطفيلية من السماسرة والمضاربين ووكلاء نليوت الاجنبية والمقاولين ونجار الجملة ونصف الجملة والعمالين في الاستيراد والتصدير والتجريب . والناطق الحرة وكبار المسؤولين من اصحاب العمولات المضخمة مع البرجوازية الريفية من اصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة والمتوسطة .

ويعتبر المؤلف ان هذا التيار هو اقرب تيار في تركيبة نظام مايو الذي يتميز بالضعف الفكري وانخفاض مستوى الثقافة ، وضيق الافق السياسي والاجتماعي ٠٠٠ ولكن اهم صفاته ، كان غياب احساس الانتماء للوطن او الامة . والاندفاع المصوم للارتقاء تحت اقدام الاستعمار الامريكي . ويؤمن شخصي رخيص .

التيار الثالث : ويستند الى بعض قيادات القطاع العام واجهزة الدولة وقيادات العمل السياسي في الحقبة الناصرية ، وقد حاول طرح نفسه كيسار لسلطة ١٥ مايو واستمرار ديمقراطي لما كان يمثله علي صبري وشعراوي جمعة في السلطة الناصرية .

في الفصل الثاني (المظاهرات السلمية تتحول إلى العنف) يصف حسين عبد الرازق مظاهرات الاحتجاج التي اجتاحت مصر كلها من اسوان الى الاسكندرية الى السويس ٠٠٠ حسبا اوردها تقارير اجهزة الامن المصرية .

بدأت مظاهرات القاهرة في ضاحية حلوان اولاً من شركة الغزل والنسيج ثم من جامعة عين شمس ، وفي اسكندرية بدأت من اترسانة البحرية ٠٠ وبعد ان تحدد التقارير بداية المظاهرات واماكن انطلاقها اذ بها تتحول من اسلوب الوصف الى اسلوب الاتهام بادعائها ان التظاهرات تحولت باتجاه الشعب والعنف ، لكنها لا تحدد المسؤولين . وهنا يتساءل المؤلف عن سر ذلك وعن سر رفض طلب خالد محي الدين الذي طالب فيه بتشكيل هيئة برلمانية للتحقيق فيما جرى يوم ١٨ و ١٩ يناير ٠٠ وبناء عليه وعلى دلائل اخرى يذكرها يتم المؤلف السلطة - ممثلة باجهزة الامن المركزي والمباحث - في انها كانت وراء تحول المظاهرات باتجاه العنف .

وفي الفصل الثالث ، تتساعد الحملة المباحثية والاعلامية ضد اليسار الوطني المصري . وتبدأ موجة الاعتقال باوامر غير قانونية ويتهم لا تستند الى دلائل منها ما سمي بقضايا الشعب ومنها ما سمي بقضايا التحريض ومنها ما سمي بالتنظيمات السرية .

ومن الطرائف النادرة التي يذكرها حسين عبد الرازق ان المباحث داهمت بيت المرحوم الدكتور محمد القويسني الذي توفي قبل الاحداث باسبوع للقاء القبض عليه ٠٠ وصدور امر من النيابة بالقاء القبض على اخر مضى على خروجه من مصر ثلاث سنوات .

حسين نجار

سياسية واقتصادية وعسكرية .
وقد اختار عبد الناصر الاتجاه الثالث في خلال إعادة بناء الجيش وحرب الاستنزاف وتوثيق العلاقات بالاتحاد السوفياتي الصديق وبلاستعانة بالخبراء السوفيات ٠٠٠ وقد انتهى هذا الاتجاه بوفاة جمال عبد الناصر ومجيء سلطـ مايو التي اختارت اتجاه التفاهم مع الامريكان بتجديد وقف اطلاق النار الذي اتخذ اثر مبادرة روجرز واجراء الاتصالات السرية مع الولايات المتحدة وتازيم العلاقة مع الحليف السوفيتي واخراج الخبراء السوفيات ، الى ان جاءت حرب اكتوبر وكانها تبرير للاندفاع اكثر نحو الولايات المتحدة واعلان العداء التام للاتحاد السوفيتي ، وشن الهجوم عليه في حين فتحت ابواب مصر لتستقبل هنري كيسنجر ومخططاته . فتم اتفاق فك الاشتباك الاول والخافي ثم بدأ « الانفتاح الاقتصادي » الذي ضرب الصناعة المصرية لحساب البضائع الاجنبية ، وزاد في الغلاء وعجز ميزان المدفوعات مع العالم الخارجي وزيادة الدينون ، وسوء توزيع الدخل وانتشار الفقر . وهكذا « خطوة خطوة » يأتي قرار المجموعة الاقتصادية : زيادة مباشرة في اسعار السلع الضرورية للجماهير وكانت سبب هذه الاجراءات تحمل المواطنين عبئا يقرب من خمسمائة مليون جنيه .

لقد جاءت القرارات مفاجأة للجماهير الكادحة والتي يعيش قسم كبير منها دون حد الكفاف بعد حملة رسمية واعلامية تحدثت طويلا عن تثبيت الاسعار وتخفيف الاعباء عن كاهل الجماهير ٠٠٠ كما تحدثت عن الانفتاح الاقتصادي الذي جاء « لتمليك الناس لا تجريدهم من ملكيتهم ، وانه سوف يحل جميع مشاكلهم ٠٠٠ الخ .

I

الثورة الايرانية والصراع العربي - الاسرائيلي

ان الانتفاضة المتواصلة للشعب الايراني ، ضد نظام الشاه ، الذي يشكل جزءاً من الاستراتيجية العامة للامبريالية الاميركية ، سوف يكون لها تأثير بالغ على النضال المعادي للمصالح والنفوذ الاميركيين بصورة عامة ، وعلى مسار الصراع العربي - الاسرائيلي بشكل خاص . ان انتصار الثورة وتمكنها من اقامة نظام وطني ديمقراطي معاد للامبريالية الاميركية واسرائيل ، سيغير بشكل حاسم وجه الخارطة السياسية في المنطقة ويحدث اختلالاً حاداً في ميزان القوى الاقليمي القائم ، بما ينتج عن ذلك من تغيير في شكل وطبيعة مجرى الصراع العربي - الاسرائيلي .

لقد طرحت الثورة ، بقوتها واتساعها واستمرارها ، بشعاراتها واهدافها وممارساتها ، الكثير من القضايا النظرية والسياسية ، واثارت مظاهرها والطابع الديني البارز لقيادتها ، الدعوة لـ « اعادة النظر » او تفحص عدد من الافكار والقناعات والمسلمات التي كانت سائدة ، وذلك بهدف نفيها او تجديدها او التاكيد من صحتها . . الا ان رصد ومتابعة التأثيرات السياسية لتلك الانتفاضة على مجرى الصراع الدائر في المنطقة ، وخاصة الصراع العربي - الاسرائيلي ، هي مسألة تحتل الاهتمام ذاته ، بل وتشكل التطبيقات العملية ، التي تمتحن بها ، في الواقع ، تلك الافكار والقناعات والمسلمات .

التدخل الاميركي العلني يترافق مع تصاعد الثورة

مع بداية الخريف ، وتحديدًا ، بعد مظاهرات السابع من ايلول الماضي الشهيرة ، ابرزت الانتفاضة قوتها من جهة ، وظهرت انعدام قابلية القضاء عليها بسهولة من جهة اخرى . وخلال ذلك بدأت تتبلور بوضوح اكبر اهدافها وشعاراتها المعادية للولايات المتحدة ومصالحها الاستراتيجية في ايران . وهذا ما دفع القوى الاقليمية والدولية التي ظلت تراقب الاحداث منذ بدايتها ، بعدم اكرثاث او بحذر شديد ، دفعها الى تحديد مواقفها من الصراع الجاري . وحيث ظلت نظم الخليج والسعودية تعبر عن هواجسها بالاعلان عن خطورة الاحداث وتدعو الدول العربية الاخرى « لساندة الشاه » ، كان الموقف الظاهري للادارة الاميركية يقتصر على تردد « عدم السماح بزعة الاستقرار في المنطقة » . لكن ما ان تطورت الاحداث حتى يادر زبغنيو برجنسكي ، مستشار الرئيس كارتر لشؤون الامن القومي وناظر سياسة ادارته ، الى الحديث عن الخطورة التي تنطوي عليها تلك الاحداث بالنسبة للولايات المتحدة . ففي تصريح له في نهاية شهر تشرين الثاني الماضي قال برجنسكي : « اذا ترك شاه ايران يسقط وتسقط ايران . . حتى ولو لم يكن سقوطها لحساب الاتحاد السوفياتي ، انما لحساب المصدقين (نسبة الى الدكتور مصدق رئيس

الجبهة الوطنية السابق) والخمينيين ، فما فائدة كل ما نحن بصدد من تحويل مجرى الصراع بين العرب واسرائيل عن طريق التمهيد لسلام مصري - اسرائيلي ، وما فائدة كل محاولاتنا لاقتناع العرب بالاعتدال واغراء نظمهم بالمساومات وتخريف نظمهم الاخرى من خطر الشيوعية ٢٠٠٩ » *

هكذا رسمت بدايات الضغط العلني للادارة الاميركية على الانتفاضة ، بهدف اجهاضها ودعم الشاه وانقاذه ، مؤشرا بارزا للذعر الذي اصاب تلك الادارة من جراء تطوّر الانتفاضة وقوتها من جهة ، مثلما اوضحت ، من جهة اخرى ، طابع الانتفاضة المعادي للامبريالية وللولايات المتحدة الاميركية ومصالحها ونفوذها في ايران بشكل خاص ، وبما كان يعنيه ذلك ايضا ، من دخول مباشر للعوامل الخارجية ، لتلعب دورها ، وبالتفاعل مع العوامل والاسباب الداخلية الاخرى ، في تحديد وجهة سير الانتفاضة واستمرارها .

اما انعكاس ذلك ، على مواقف بعض قوى المعارضة في الداخل ، فقد اوضحه التقرير الذي كتبه « جان غوبراس » في صحيفة « اللوموند » الفرنسية (اعادت السفير البيروتية نشره في ٢٦/١٠/٧٨) ، ففي مقابلة شخصية للكاتب مع (سيد جوادى) وهو كاتب سياسي ومؤسس مشارك في حركة الدفاع عن الحريات وحقوق الانسان في ايران ، قال جوادى : « ان المجموعات المعارضة تعرف الان ان عليها ان تكون واقعية بسبب الوضع الجيويوليتيكي » لايران ، وترجمة هذا تعني اننا لا نستطيع ان نطالب بتنازل الشاه ، لانه مدعوم اميركيا » . اما شاهبور بختيار (الذي كلفه الشاه لاحقا بتشكيل حكومة مدنية وطردته الجبهة بسبب موافقته على هذا التكليف) ، فقد قال انذاك ، للصحفي : « اذا لم يتم التوصل الى تسوية قوية ودائمة ٢٠٠ فانه سيكون من الخطر - بالنظر الى وضع ايران الجغرافي السياسي « الجيويوليتيكي » - اللجوء لاي حل اخر سوى الحل الذي يطرحه الدستور » . ومن هنا يتضح ، ومهما كان مصير تلك التوقعات ، - خطأها او صوابها - فان الامر الهام في تلك التقديرات هو التأكيد ، بشكل مبكر على دور الجغرافية السياسية، اي دور العوامل الخارجية الاقليمية والدولية ، في التأثير على سير الاحداث والانتفاضة في ايران ، وهو ما اكدته بوضوح التطورات اللاحقة . وحيث رمت الولايات المتحدة بثقلها ، للتأثير على سير الاحداث ، الى درجة تحريك السفن الحربية بالقرب من الشواطئ الايرانية ، والى استخدام شتى اساليب التدخل ، انتقل الاتحاد السوفياتي من موقف المراقبة والتحفظ الى موقف التأييد الضمني للانتفاضة باعتبارها حركة شعبية معادية للنفوذ والمصالح الاميركية ، ثم الى التحذير المستمر من التدخل في شؤون ايران الداخلية .

اما النظم العربية ، وخاصة في الخليج ، فقد تحركت بشكل نشيط وملحوظ « لتحقيق وحدة دول الخليج ! » لمواجهة التطورات التي تجري في المنطقة . واشتركت صحافة هذه الدول ، مع الصحافة المصرية في التنديد بالانتفاضة والدفاع عن الشاه ونظامه وفي التحذير من مخاطر امتداد تأثيرات الانتفاضة الى تلك الدول .

الاهمية الاستراتيجية لايران ودور نظام الشاه

ان الذعر الذي اصاب الادارة الاميركية وحلفاءها ، وكذلك دول المنطقة الحليفة للشاه ، يعود الى التهديد الجدي الذي طرحته الانتفاضة لاسقاط نظام الشاه ، الذي يعني سقوط

ركيزة اساسية من ركائز الاستراتيجية الاميركية في المنطقة . فبعد انقلاب الجنرال زاهدي الذي دبرته وكالة الاستخبارات المركزية ضد حكومة مصدق الوطنية عام ٥٣ ، وحتى اندلاع الانتفاضة ، عملت الولايات المتحدة على دعم نظام الشاه ومنه بكل اسباب القوة والاستمرار ، لكي يتمكن من القيام بالادوار التي تناط به . وقد اصبحت ايران بذلك ذات اهمية استراتيجية عظيمة ، وجزءاً من « شبكة الدفاع » الاميركية و « محور الاهتمام الاميركي في الشرق الاوسط وافريقيا » . كما ان « الاستراتيجية الشاملة الاميركية تعتبر ايران اهم موقع لها من اسرائيل واليابان » ، كما تؤكد على ذلك باستمرار الصحف الاميركية . ويذهب الخبراء الاميركيون المهتمون بالشؤون الايرانية الى القول بان المصالح الحيوية لاميركا في ايران تنبع من موقعها الاستراتيجي اولا ، ومن المصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية المتواجدة فيها ثانياً .

فعلى الصعيد الداخلي ، تتمثل هذه المصالح ، بكون ايران تشكل سوقاً تجارية ضخمة للبضائع الاميركية ، ومركز استثمار هام لرؤوس الاموال الغربية . وهي مستورد كبير للسلاح الاميركي ، ومصدر للنفط بما يغطي اكثر من ٧٥٪ من احتياجات أوروبا واليابان وجنوب افريقيا واسرائيل ، عدا عن وجود اكثر من ٤٥ الف خبير اميركي يعملون في الجيش وباقي المؤسسات الحكومية الايرانية .

اما على صعيد دورها في الخليج ، فانها تعتبر « عنصر استقرار » بالمفهوم الاميركي ، وتشترك مع عمان في السيطرة على مضيق هرمز ، وتشرف على الممر الجوي (ر - ٢١) في النصف الشمالي من الخليج .

لقد عبر الشاه عن طموحاته ومخططاته التوسعية منذ ان اعلنت بريطانيا « الانسحاب من الخليج » ، فبدأ بتعزيز قواته العسكرية الى الحجم الذي لا تتحمله طاقة البلاد . وفي العام ١٩٧١ قامت القوات العسكرية الايرانية باحتلال الجزر العربية الثلاث (طمب الكبرى ، طمب الصغرى ، ابو موسى) .

ويبرز نظرية « غوام » للرئيس الاميركي الاسبق نيكسون عام ١٩٧٢ ، والتي تقول بتشجيع القوى المحلية وتسليحها للقيام بمهمة الدفاع الاقليمي . اختيرت ايران لتكون نقطة الارتكاز الاساسية في السياسة الاميركية في الخليج وفي منطقة شبه الجزيرة الهندية . وفي عام ٧٥ تدخل نظام الشاه علناً لدعم حكومة سلطنة عمان لضرب الثورة الوطنية في ظفار .

وعدا ذلك ، فقد تزايدت الادوار والمهام التي انيطت بنظام الشاه : شرقاً ، باتجاه الهند والمحيط الهندي لتحقيق هدفين : محاولة اعادة الاحلاف العسكرية في تلك المنطقة وربطها بالولايات المتحدة ، والعمل على اقامة سوق اسيوية مشتركة يكون فيها لنظام الشاه الدور المسيطر ، والتابع استطراداً للسوق الرأسمالية العالمية . وغرباً ، باتجاه البحر الاحمر والشرق الاوسط وافريقيا ، وهو الدور الذي عبر عنه الشاه بالدعوة والعمل لتحقيق الشعارين الاميركيين : أمن الخليج ، وأمن البحر الاحمر . وكذلك دور المساندة والدعم لحكومة جنوب افريقيا ، ودعم القوى الرجعية في القرن الافريقي في صراعها ضد النظام الاثيوبي ، وفي تأييد نظام المغرب في صراعه ضد الجزائر حول مسألة الصحراء الغربية . اما على صعيد الصراع العربي - الاسرائيلي ، فان نظام الشاه ، عدا عن كونه

يقيم امتن العلاقات الودية مع اسرائيل ويزودها بالنفط . فانه أيد ، بحماسة ودعم ، نظام السادات والنظم العربية المتحالفة معه والمالية لاميركا ، ومن ثم تبني الدعوات الاميركية والاسرائيلية لفرض « السلام » والهيمنة الاميركية - الاسرائيلية على المنطقة العربية .

مواجهة نظام الشاه .٠٠ مواجهة النفوذ الاميركي

منذ البدء ، كانت الدعوة لاسقاط الشاه ونظامه ، تعني المواجهة غير المباشرة للنفوذ والمصالح الاميركية في ايران ، وذلك قبل ان تحدد الانتفاضة بوضوح ، شعاراتها المعادية لاميركا . فبعد ان خرجت شعارات ومطالب الانتفاضة من اطارها الاصلاحى والمطلبى والديمقراطى ، اتخذ مضمون الدعوة لاسقاط الشاه ، معنى الدعوة لاسقاط سياسته وادواره في ايران والمنطقة ، والتي هي اساسا في خدمة السياسة الاميركية . وازضافة الى ما تعنيه مهاجمة المتظاهرين للمصالح والمؤسسات الاميركية في ايران ، فانهم والقيادة الدينية (الخميني) ، قد رفعوا اهدافا محددة لانهاء النفوذ الاميركي ، وتمثلت في الدعوة الى : طرد الخبراء والمستشارين الاميركيين ، الغاء النهب الاميرالي لثروة البلاد الاساسية (النفط) وبيعها بأسعار عادلة ، الغاء تبعية الاقتصاد الايراني للاقتصاد الاميركي واعادة بنائه على اساس تخدم مصالح الشعب والبلاد ، انتهاء النفوذ الاميركي في الجيش وادواره التوسعية واعادة تنظيمه بما ينسجم مع مصالح الشعب والدفاع عن سيادة البلاد . الخ . ان هذه النقاط « البرنامجية » كانت تعني توجيه ضربة قوية للعديد من المرتكزات المادية للوجود الاميركي في ايران ، كما وتعني ايضا الغاء « دور الدركي » لها ، الذي جعله الشاه ركنا أساسيا من اركان سياسته .

لقد طرحت الانتفاضة ، وبشكل مبكر ، معارضتها القوية للسياسة التي ينتهجها الشاه ازاء الصراع العربي - الاسرائيلي ومن مسألة اعترافه باسرائيل ، فرفعت الشعارات التي تدعو لقطع العلاقة معها ، وقطع البترول عنها . وفي مقابل ذلك عبرت ، وعبر شعاراتها ايضا ، عن دعمها للثورة الفلسطينية .

وتتجسد اهمية الموقف من القضية الفلسطينية ، بأنه يتعدى التعاطف والمساندة المؤقتة ، ويتبلور الى موقف سياسي ، لم يقتصر تبنيه على الحركة الدينية (الائمة ورجال الدين) ، بل تعداه الى مواقف « الجبهة الوطنية » ، ومن قبلها ، حزب « تودة » .

وعندما اقام نظام الشاه شكلا محمدا وسريا ، من العلاقة بينه وبين اسرائيل بعد عام ٤٨ ، ألغت حكومة الدكتور مصدق اعوام ٥١ - ٥٢ هذه العلاقات . وكانت صحف حزب « تودة » تهاجم الصهيونية واسرائيل . اما بعد وقوع الانقلاب الاميركي عام ٥٣ وعودة الشاه الى الحكم ، فقد استأنف مجددا هذه العلاقات ، بل وعمل على تطويرها وتوسيعها على امتداد العقود الثلاثة الماضية .

وابان عدوان حزيران عام ١٩٦٧ ، خرجت المظاهرات الجماهيرية التي تندد بالعدوان وتؤيد البلدان العربية وتطالب بقطع العلاقة مع اسرائيل . اما موقف رجال الدين ، والقيادة الدينية للانتفاضة (الخميني) المعادي لاسرائيل ، والمؤيد للقضية الفلسطينية ، فقد تم التعبير عنه في الكتابات والخطب « منذ ١٧ عاما » . كما يقول الخميني نفسه .

ومن هنا يتخذ موقف الانتفاضة الشعبية من المسألة الفلسطينية ، بطابعه الموضوعي ، وبجذره التاريخي ، أهمية كبيرة في دعم الثورة الفلسطينية ، وفي التأثير على مجرى الصراع العربي - الاسرائيلي في حال تغيير الموقف الايراني الرسمي ، من موقف معاد الى موقف حليف .

تأثير الانتفاضة على الصراع العربي - الاسرائيلي

إذا كانت اية ضربة توجه الى النفوذ والمصالح الاميركية في اي بلد عربي تنعكس ايجابيا على مجرى الصراع في المنطقة ، لصالح قوى حركة التحرر الوطني فيها ، فان ضرب وازاحة النفوذ الاميركي تماما من ايران سيعكس تأثيرات ايجابية كبيرة الاهمية على مجرى ذلك الصراع ، بسبب قلب الدور الايراني ، من دور مساند ومؤيد لاسرائيل وللنظم العربية المتحالفة مع اميركا ، الى دور معاد لاميركا واسرائيل ، ومؤيد ومتحالف مع حركة التحرر الوطني العربية ، وخاصة الفلسطينية ، ويؤثر كذلك على اوضاع ومواقف البلدان العربية ، التي لا تسمح لها علاقاتها العلنية وغير العلنية ، مع الولايات المتحدة ، ولا انظمتها اللاديمقراطية من القيام بأية مواجهة حقيقية وجادة ضد العسود الاسرائيلي - الاميركي .

ومن هنا ، فان النظم العربية المعنية بالصراع المباشر مع اسرائيل ، ستتأثر كثيرا بانهيار ايران كركيزة اساسية لهذه السياسة وسيضعف من اوضاع بقية الركائز العربية ، عدا عن التهديد الذي يمثله تأثير الاحداث في ايران عليها . فالوقوف في ايران ، كما يقول كيسنجر ، « قد يصيب دولا مثل مصر والمغرب ، وكذلك اسرائيل » . أما شليسنجر ، وزير الدفاع الاميركي الاسبق ، فانه يعترف بان « ما يحدث في ايران سيمثل خسارة واضحة للمغرب ومكسبا لصالح الاتحاد السوفياتي ، وتحديرا جادا للدول الاخرى المنتجة للبترول في الخليج وخاصة العراق والسعودية » .

ان ضعف النظم العربية الموالية لاميركا بسبب احداث ايران وانهايار نظام الششاه ، سينعكس ايجابيا لصالح حركة التحرر الوطني العربي وعلى الصراع ضد اميركا واسرائيل . فحتى إذا لم تحدث تغييرات قريبة في النظم المجاورة لايران بفعل تأثير احداثها ، فان قدرة هذه النظم على مواجهة قوى حركة التحرر الوطني العربية ستضعف . وتشمل من قدراتها على القمع وتهديد النظم التقدمية ، كما هو الحال في قمع سلطنة عمان للثورة في ظفار ، او قمع بقية النظم لشعوبها وحركاتها الوطنية والديمقراطية . وهذا الشلل في قدرات وادوار النظم الموالية ، سينعكس ايجابيا على امكانيات تصعيد قوى حركة التحرر الوطني لنضالها سواء ضد الوجود والنفوذ الاميركي في بلدانها ، او في تزايد قدراتها للضغط على حكوماتها لانتهاج سياسات وطنية وجدية في الصراع العربي - الاسرائيلي . هذا من جهة ، اما من جهة اخرى . فان هذه النظم ستضعف قدراتها في فرض هيمنتها السياسية او دعمها للنظم العربية الاخرى التي خضعت لهيمنتها وقبلت بالكثير من شروطها السياسية خلال السنوات الماضية .

ان هذا الشلل والضعف الذي اصاب ، نسبيا ، وسيصيب كليا في حال انهيار نظام الشاه ، الانظمة الموالية لاميركا ، سيدفعها الى اعادة النظر في صياغة سياسات جديدة ،

تأخذ في الاعتبار ما يجري حولها من تطورات .

أما نظام السادات ، فإنه هو الآخر ، ستفرض عليه الأحداث إعادة صياغة لسياسته ، سواء بسبب التأثير المباشر لها على مصر وفقدان حليف مهم لنظامه ، أو بسبب اضطرابه للتلاقي مع النظم العربية الأخرى المختلفة معه ، بهدف مواجهة « الخطر المشترك » الناتج عن الأحداث ، ومحاولة تعطيل تأثيراتها الحادة على أوضاعهم الداخلية .

وبالاساس ، فإن الولايات المتحدة الأميركية ، التي رهنت تلك النظم سياستها اليها ، هي المعنية ، بشكل مباشر ، « بإعادة تقييم » لاستراتيجيتها في المنطقة . وخلال بحثها عن حليف أو حلفاء بديل ، بعد انهيار حليفها في إيران ، ستواجه مسألة القدرة على تعويض ذلك عبر بعض النظم العربية .

كامب ديفيد والمبادرات المصرية - الإسرائيلية ١٩٧٧ والانتفاضة

أن كون مؤتمر كامب ديفيد ومقرراته ، هو حصيلة لسياسات النظم العربية الموالية لأمريكا ، والتتمة الطبيعية للزيارة التي قام بها السادات لإسرائيل في تشرين الثاني عام ١٩٧٧ ، فإن التهديد بضرب النفوذ والمصالح الأميركية في إيران والمنطقة بفعل الانتفاضة ، قد أثر وسيؤثر على طبيعة تطبيق الاتفاقيات الناتجة عن كامب ديفيد .

وإذا كانت خطوط وعناصر الاستراتيجية الأميركية ، والإسرائيلية « الجديدة » ، لم تتم بعد بشكلها النهائي ، انتظارا لنتائج الصراع في إيران ، فإن ما أثرت به الانتفاضة ، خلال تلك الفترة ، على المبادرات المصرية - الإسرائيلية ، وعلى مواقف النظم العربية المعنية بشكل مباشر أو غير مباشر بالصراع يبرز مؤثرات هامة لطبيعة تلك التأثيرات في الفترة القادمة التي سيتبلور خلالها الوضع في إيران أكثر فأكثر .

تحدثت الشاه في نهاية شهر ايلول الماضي الى صحيفة « كوربيرووي » الايطالية مبدئا مخاوفه من التطورات التي تجري في إيران ، ومحجما لنتائج مؤتمر كامب ديفيد ازاءها ، فقال : « حتى ولو كان قد انبثق في كامب ديفيد منفذ صغير . . فإن « الاستقرار » في الشرق الاوسط وفي القرن الافريقي يجتاز مرحلة دقيقة . . وإذا وقع شيء هنا (في إيران) فإني اعتقد أن ذلك سيكون بداية النهاية ، إذ أننا نتحكم في مضيق هرمز » .

وبعد تعثر المفاوضات الثنائية بين إسرائيل ونظام السادات ، تزايدت المخاوف من أحداث إيران وانعكست على سير المفاوضات . ففي إسرائيل كان « الموقف في إيران يستأثر بجانب مهم من مناقشات الحكومة الإسرائيلية » ، وأن « تطورات الوضع الإيراني أثرت في معالجة الوزراء الاسرائيليين لموضوع استئناف المفاوضات مع مصر » . هذا ما نقلته وكالات الأنباء في اوائل شهر كانون الثاني الماضي . أما في مصر ، فإضافة الى المخاوف التي عكستها الصحافة وتصريحات المسؤولين هناك من أحداث إيران ، فإن روبرت ويلسون ، النائب الجمهوري في مجلس النواب الاميركي الذي كان قد التقى السادات في الاسبوع الاول من شهر كانون الثاني الماضي ، صرح « بأن الرئيس السادات قلق للغاية بشأن تطورات الموقف في الشرق الاوسط وخاصة في إيران وتركيا ، وهو

يرغب في ان يقول لبيغن ان هذه التطورات تحتم الاسراع في اقرار السلام بين البلدين *
 وفي محاولة لابتزان الموقف المصري ، وصفت الاذاعة الاسرائيلية (١/٤) البيان المصري الذي دعا لاستئناف المفاوضات الثنائية المتوقفة « بأنه يتضمن الحاجة الى تحقيق تسوية مع اسرائيل في ضوء التطورات الاخيرة في ايران ، ويشير الى الامة التي توليها مصر للسلام في ضوء المتغيرات السياسية الاخيرة في الشرق الاوسط » وان الحكومة المصرية تريد تحديد المفاوضات وكسب الوقت نتيجة تقدير الموقف في المنطقة عقب ما حدث في ايران وارتفاع اسهم العرب في الولايات المتحدة بسبب ما لعبته سياستها في ايران وسيكون موقف اسرائيل ضعيفا * .

وهكذا نجد ان مواقف معظم الاطراف المعنية بالصراع تنتظر بترقب ما سيسفر عنه الصراع في ايران ، في حين شل مجرى الصراع المحادثات الثنائية بين مصر واسرائيل .
 وستكون الخيارات امام الادارة الاميركية ، وبتأثير الظروف والوقائع الجديدة ، متعددة : اما انها ستواصل مخطتها السابق الذي ادى الى كامب ديفيد ونتائجه ، وافرز حالة من الاستقطاب في الوضع العربي ، واحراج للنظم العربية الموالية لها ، او « قلب » موقفها شكليا بالتوجه لارضاء هذه النظم وطرح مشاريع جديدة تساعد على « تضامنها » ازاء الاخطار التي نتجت او ستتنتج عن الاحداث الايرانية ، ومن ثم تقليص اندفاعها في الدعم العلني المطلق للمواقف الاسرائيلية ، وذلك بهدف مساعدة السادات في التقدم خطوة باتجاه النظم العربية الاخرى .

ان نسجا جديدا من التحالفات ، والتغييرات في مواقف القوى المعنية بالصراع في المنطقة ، ستقرضه ضرورات تطور الاحداث في ايران سواء بهدف « التكيف » مسع المستجدات التي افرزتها ، او بهدف ايجاد معادلات جديدة لمواجهة امتداداتها وتأثيراتها ، الا ان قوى التحرر الوطني العربية وخاصة الثورة الفلسطينية ستكون قادرة ، ويطروف افضل ، على الفعل وتوظيف الاثار الايجابية للاحداث ، لتغيير الوجهة التي يدار بها الصراع العربي - الاسرائيلي الان ، لصالحها .

اما « قوة المثال » و « النموذج » الذي تعطيه الثورة الايرانية لشعوب البلدان العربية ، خاصة المتأثرة مباشرة بالاحداث ، فان من المرجح ان يكون عامل الهام يساعد ، في تفاعله مع الظروف الداخلية ، على فتح الافاق للنضال ضد النفوذ والمصالح الامبريالية وخاصة الاميركية في تلك البلدان ، وبما يعنيه ذلك من تغيير في ميزان القوى لمصلحة النضال ضد اسرائيل وضد الوجود الاميركي في عموم المنطقة .

حليم احمد

اسرائيل... الخاسر الأكبر من ثورة ايران

مهما اجتمعت الاوساط السياسية الاسرائيلية ، على ان اسرائيل هي « الخاسر الاكبر » من الثورة الإيرانية ، بما سترتب عليها من نتائج ، سواء بالنسبة لمنطقة الشرق بمرمتها ، او بالنسبة لما أحدثته من خلل في التوازن الدولي على الصعيد الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي العام ، اذ تشكل انذارا لاسرائيل ، بل وربما « الانذار الاخير » ، لا يمكن لنا ان نقف مكتوفي الايدي ازاء هذا « التحول الذي يحدث امام اعيننا في اكثر المناطق حساسية في العالم ، وعلى عتبة بيتنا » فسياسة أمننا القومي ، وبقدر ما لها من اعتبارات محلية وقطرية خاصة ، ترتبط ارتباطا وثيقا بميزان القوى العالمي ، واي خلل حاد لميزان القوى هذا لا بد وان يترك آثاره مباشرة على مكانتنا ايضا « (معاريف ، ٧ / ١ / ١٩٧٩) »

وعبر اسحق رابين (يديعوت أحرونوت ١٢ / ١) عن فهمه لموقع ايران في ميزان القوى العالمي النفاذ بقوله : « وما تدخل الدول الكبرى في النزاع العربي الاسرائيلي في اساسه ، الا وسيلة ثانوية فقط ، فبينما حاول الاتحاد السوفيتي ويحاول استغلال هذا النزاع للوصول الى هدفه المركزي : السعودية وامارات النفط العربية ، فان الولايات المتحدة حاولت وتحاول الوصول الى تسوية هذا النزاع ، لسلب الاتحاد السوفيتي الوسيلة لزيادة نفوذه في المنطقة ومنعه من التغلغل الى السعودية »

واضاف : « ان التطورات الاخيرة في ايران وانتصار الثورة فيها تشير الى امكانية تغلغل سوفيتي مباشر الى مصادر الطاقة الشرق اوسطية ، وتحول النزاع العربي الاسرائيلي ، من حجه المصغر ، لنزاع ثانوي من وجهة نظر الدول الكبرى » (المصدر نفسه)

ولهذا ، فلا بد وان يكون هناك تأثير على المفاوضات الجارية بين اسرائيل ومصر ، بعد انهيار الدعامة الرئيسية في الحلف الاستراتيجي الذي كانت الولايات المتحدة تسعى الى اقامته من مصر - اسرائيل - الرجعية - ايران ، بعد توقيع معاهدة سلام بين اسرائيل

ومصر . الا انه وعلى الرغم من وجهات النظر المختلفة للطرفين فان القلق من الثورة الايرانية وما قد يترتب عليها من نتائج على الساحة الشرق اوسطية يجمعها ويوحدهما ، ولا بد وان يقودهما الى عدة استنتاجات عملية :

١ - « الاسراع في توقيع معاهدة السلام بين اسرائيل ومصر لانشاء حلف مصري اسرائيلي موال للغرب . فكلما استمرت المفاوضات ، قد تظهر عقبات متوقعة وغير متوقعة تؤثر على نهايتها الايجابية . موجة اسلامية متطرفة قد تطفئ على العالم العربي فتثقل على السادات وتقيد خطواته ، وفشل خطرات الرئيس المصري ، اي عدم الوصول الى سلام اسرائيلي مصري قد يضع علامة استفهام على استمرار سياسته . وهذه السياسة تركز ومنذ يوم الغفران على الولايات المتحدة ، وهي تسعى لسلام مع اسرائيل . وثمة خطر فيما اذا تفجرت المفاوضات بان يحصل تغيير سياسي في مصر فتعود الى حظيرة النفوذ السوفييتي » .

٢ - « يعد توقيع معاهدة السلام مع مصر ، هناك مكان لاعادة نظر اسرائيلية لموقفها من موضوع الحكم الذاتي . وذلك لايجاد طريق تؤدي الى اشراك الاردن في العملية السياسية . فالاردن هو نظام موال للغرب ومستعد لسلام كامل مع اسرائيل ، وقد تورط رغما عنه في جبهة الرفض العربية المتطرفة نتيجة لسياسة حكومة اسرائيل الحالية التي لم تترك له اي منفذ يستطيع الانضمام من خلاله الى الحلف المصري الاسرائيلي الذي سوف ينشأ مع توقيع معاهدة السلام . وفي مواجهة الاخطار النابعة من التطورات في ايران وانعكاساتها على العالم العربي الاسلامي ، فهناك اهمية كبرى لاجراء الاردن من الدائرة العربية المتطرفة » .

٣ - « العمل على تحييد الاتجاهات السلبية التي نشأت بعد فوات الاوان في الولايات المتحدة ، بسبب الازمة الحادة التي الت بها . فمن المعلومات الواردة في هذه الايام من الولايات المتحدة ، نستدل على ان استنتاج رسمي سياسة هذه الدولة ستكون على ما يبدو، عودة الى الحل الشامل ، اي العمل بشكل اسرع للوصول الى سلام شامل في جميع اطراف النزاع العربي . وكل ذلك سيتم على حساب اسرائيل . فاذا كان ثمة مكان فعلا لاحتمال اشراك الاردن في المفاوضات الاسرائيلية المصرية من وجهة نظر الولايات المتحدة أيضا ، فليس لديها ما تعتمد به بالنسبة لسوريا » (اسحق رابين ، يديعوت احرونوت ، ١٢ / ١ / ١٩٧٩) .

٤ - « استقطاب اهتمام كل الذين يسعون للمحافظة على مصالحهم في الشرق الاوسط ومصالح دولة اسرائيل ، بصفتها الدولة الديمقراطية الوحيدة في هذه المنطقة والتي هي قوة عسكرية اثبتت نفسها في امتحان التنفيذ والقدرة ، واقناع الشعب الاميركي ، ان التوظيف الامثل من وجهة نظر أمن الولايات المتحدة وامن الغرب الذي كرسه حتى الان بنفسها في الشرق الاوسط ، هو التوظيف في اسرائيل ، والتأكيد على الخاص والهم في مكانة اسرائيل في المنطقة في مواجهة التطورات في الشرق الاوسط وحوض البحر المتوسط » (حاييم هر تسورغ ، معاريف ٢٢ / ١ / ١٩٧٩) .

هذا من حيث ما ترتبه الثورة الايرانية على دولة اسرائيل من خطر على مستقبلها على المدى القصير والبعيد ، كجزء في المعادلة الدولية في الشرق الاوسط ، وما أحدثته هذه

الثورة من خلل في هذه المعادلة - أما تخوف اسرائيل مما يجري في ايران « اكثر من اي طرف آخر في العالم » بشكل خاص ، فذلك لان « آية الله الخميني وانصاره هم اعداء دولة اسرائيل بكل معنى الكلمة » (اوري افنيري ، هعولام هزية ١٧ / ١ / ١٩٧٩) .

بل لا يوجد في اي « مكان في العالم العربي ظاهرة عداء اعمى كهذا لاسرائيل ، كما هو قائم بين الثوار الدينيين في ايران - - ولذلك عدة اسباب عملية وعقائدية - - والنتيجة هي رهيبة ومخيفة » (المصدر نفسه) .

الاسباب العملية معروفة وخطيرة :

١ - السافاك

« فوفقا لمعلومات متكررة كانت قد نشرت في الخارج ، والتي يؤمن كل إيراني بصحتها ، فان ضباط السافاك دربوا على أيدي الاسرائيليين في اسرائيل نفسها وفي ايران - - ويكفي ان يقرن اسم اسرائيل باسم السافاك ، كي يجعل من اسرائيل عدوة الثورة الايرانية حتى بدون اي سبب آخر » (اصدر نفسه) .

٢ - اصديقاء الشاه

« رجال الاعمال اليهود انتعشوا لدى الشاه وترعرعوا تحت سلطته وكانوا مخلصين له من كل قلوبهم . وفي اعين المغالبية الشيعية في ايران ، لم يخطئ اليهود بسبب كفرهم الديني وحسب ، وانما بسبب مساندتهم غير المحدودة للنظام الكريه والفاقد والقمعي ، والوحشي أيضا . وتعامل الشاه مع اسرائيل دعم صورة الحلف الرباعي - الشاه - اليهود - اسرائيل - اميركا - والتي سوف تنتقم الان من اسرائيل ومن اليهود » (اصدر نفسه) .

٣ - عقائدنا

« بين اسرائيل والعالم العربي ثمة نزاع عميق قائم ، مصدره الصدام التاريخي بين الصهيونية والشعب الفلسطيني . انه صراع سياسي وعقائسي ، على ارض يرى فيها الطرفان وطنهما ، وكل واحد منهما يدعيها لنفسه . حتى مشكلة المدينة المقدسة - القدس - تعتبر في اعين الطرفين مشكلة سياسية في اساسها ، على الرغم من ان كليهما يستغل شعارات دينية لتبرير مواقفهما ، فالعرب يطالبون باعادة القدس - للسيطرة العربية - وليس - للسيطرة دينية - اما بالنسبة للخميني وانصاره ، فالقدس مدينة عربية ، من الممكن ايجاد حل لها يكون مرضيا للعرب - فهذا لا يعنيه اليته . القدس في نظرهم هي المدينة المقدسة ، مدينة الاسلام ، والتي من اجلها يتوجب عليهم خوض حرب مقدسة لتحريرها من الكفار . ومن أجل القدس فانهم يكرهون اسرائيل ، ومستعدون لمحاربتها حتى الموت » (المصدر نفسه) .

أما على مستوى الخسارة المادية والاستراتيجية السياسية المباشرة التي الحقها الثورة الايرانية بالنسبة لاسرائيل في استمرار اغتصابها لفلسطين وحربها التي تشنها ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية واحتلال اراضيها ، « فميزان الخسارة لاسرائيل كبير سواء من ناحية ما تخسره على الصعيد المادي ، ومن ناحية ما يحصل عليه اعداؤها على نفس الصعيد كما على الاصعدة الاخرى » (يديعوت احرونوت ، ١٩ / ١ / ١٩٧٩) .

فاسرائيل تفقد :

- « مصدر النفط الذي كان يعد في الماضي مضمونا » .
 - « المزود الوحيد والدائم لخط انابيب البترول ايلات - عسقلان ، والذي كان معدا لنقل بترول الخليج الفارسي الى اوروبا » .
 - « زيونا مهما جدا للمنتوجات الزراعية والصناعية الاسرائيلية » .
 - « احدى البلدان المجاورة القليلة جدا التي تستطيع اسرائيل ان تزودها بامكانياتها التكنولوجية من خلال ضمانها لعمل وارباح طائلة جدا لشركات اسرائيلية معينة » .
 - « حليفا قويا على الصعيد الاستراتيجي - السياسي في مواجهة اي سيطرة عربية جنوب البحر الاحمر » .
 - « حليفا قويا في صراعها ضد التغلغل السوفييتي » .
 - « احدى الدول الاسلامية القليلة التي كانت مستعدة لدعم مبادرة الرئيس السادات لخلق علاقات طبيعية بين اسرائيل وجاراتها العربية حتى في شروط تكون فيها اسرائيل غير مستعدة لقبولها » . (المصدر نفسه)
- الا ان ميزان الخسارة هذا يكون اثقل اذا ما اخذت « اسرائيل بالحسبان ما يربحه اعداؤها ... ويشكل خاص النصر الذي حققته م٠ت٠ف٠ » (المصدر نفسه) .
- اذ ان ما حدث هو « انتصار للاسلام » ، وقد تحول الخميني الى « رمز الاسلام المنتصر والى رمز المعارضة للانظمة المحافظة » وهذا مما سيثجع والى حد كبير ، تطرف ونشاط الاوساط الاسلامية المتطرفة في اماكن اخرى ايضا ، في اسيا وافريقيا « وان هذا النشاط سيوجه قطعاً ضد اسرائيل مما سيزيد من عزتها » (المصدر نفسه) وبإستثناء ذلك ، فان سقوط الشاه وانتصار الثورة الايرانية ، هو « انتصار كبير لم٠ت٠ف٠ » التي دعم اعضاؤها الخميني وتصلوا جزءا مهما جدا في الاحداث ويمنحها الشعور بانها تسير في الطريق الصحيح . وان مصر - كما قال ياسر عرفات - سوف تجد خمينيتها « (المصدر نفسه) .

توفيق فياض

المقاومة الفلسطينية

البرنامج السياسي والتنظيمي
للوحدة الوطنية الفلسطينية

وحقوقه الوطنية الثابتة في وطنه فلسطين
وثورتنا الفلسطينية .

ان موقف جماهيرنا الفلسطينية الباسلة
داخل الوطن المحتل وخارجه وموقف
جماهير امتنا العربية في رفض اتفاقيات
كامب ديفيد ، واعلانها العزم على التصدي
لهذه المؤامرة الجديدة على شعبنا وحقوقه

الوطنية الثابتة وامتنا العربية يمنحنا
المزيد من التصميم على مواجهة المؤامرة
والمزيد من الثقة على دحرها .

وفي الوقت نفسه فانه تقع على عاتقنا
مسؤولية كبرى لا يمكن القيام بها الا عبر
موقف وطني وشعبي موحد من خلال
منظمة التحرير الفلسطينية .

واستجابة منا لارادة شعبنا وللتحديات
التي تواجهنا وايماننا منا بالوحدة الوطنية
في منظمة التحرير الفلسطينية طريقنا
وحيدا لانتصارتنا وانطلاقا من الميثاق
الوطني الفلسطيني وقرارات المجلس
الوطنية الفلسطينية ووثيقة طرابلس
الوحدوية بين فصائل الثورة الفلسطينية
وحق شعبنا في اقامة الدولة الديمقراطية
على كامل ترابه الوطني وفي مواجهة هذه
المرحلة الدقيقة والخطيرة من نضال
شعبنا نعلن نحن ممثلي كافة فصائل
الثورة والقوى الوطنية الفلسطينية ما
يلي :

ان التسوية الاميركية للصراع العربي
الصهيوني التي تجسدت في اتفاقيات
كامب ديفيد تشكل خطارا مصيرية على
قضية فلسطين وقضية التحرر الوطنية
العربية . فهي تسلم للعدو الصهيوني
بمواصله اغتصاب التراب الوطني
الفلسطيني ، وتلغي حق الشعب العربي
الفلسطيني الثابت في وطنه فلسطين وحقه
في العودة اليه وتقرير مصيره وممارسة
استقلاله الوطني فوق ارضه وتفرط فيه
اجزاء اخرى من الارض العربية وتتجاوز
منظمة التحرير الفلسطينية قائدة الكفاح
الوطني لشعبنا وممثله الشرعي الوحيد
الناطق باسمه والمعبر عن ارادته .

كما ان هذه الاتفاقيات تشكل اعتداء
على الشرعية الفلسطينية والعربية
والدولية وتمهد الطريق لاحكام السيطرة
الامبريالية والصهيونية على منطقتنا
العربية والبلدان الافريقية والاستخدام
النظام المصري - في اطار التحالف مع
الامبريالية والصهيونية - كأداة قمع
لحركة التحرر الوطني العربية والافريقية .

وادراكا منا لخطورة المؤامرة الجديدة
وابعادها ، فان مسؤولياتنا الوطنية فسي
منظمة التحرير الفلسطينية كممثلة لشعبنا
العربي الفلسطيني بجميع فصائله وقواه
الوطنية تحتم علينا رفض المخطط التأمري
الجديد والتصدي له والدفاع عن شعبنا

خامسا : رفض ومقاومة مشروع الحكم الذاتي في الوطن المحتل الذي يكرس الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لارضنا المحتلة ويتنكر لحقوق شعبنا الفلسطيني .

سادسا : التأكيد على وحدة شعبنا العربي داخل الوطن المحتل وخارجه ووحدة تمثيله من خلال منظمة التحرير الفلسطينية والتصدي لجميع المحاولات والمشاريع التي تستهدف تجزئة شعبنا او الالتفاف على منظمة التحرير الفلسطينية والعمل على دعم نضال شعبنا في المناطق المحتلة وتعزيز وحدته وضموده .

سابعا : تدعيم بناء الجبهة الوطنية الفلسطينية في الداخل باعتبارها جزءا لا يتجزأ من منظمة التحرير الفلسطينية وتوفير كل وسائل الدعم السياسي والمادي لها بما يمكنها من تعبئة جماهير شعبنا في الداخل في مواجهة الاحتلال الصهيوني ومخططاته ومشاريعه المعادية لشعبنا وحقوقه الوطنية الثابتة .

ثامنا : التمسك بفلسطين وطننا تاريخيا لا بديل عنه للشعب الفلسطيني ومقاومة كافة مشاريع التوطين او « الوطن البديل » التي يطرحها العدو الامبريالي الصهيوني لتصفية قضية فلسطين والنضال الوطني الفلسطيني والالتفاف على حق العودة .

في المجال العربي

اولا : التأكيد على ان مواجهة اتفاقيات كامب ديفيد وملحقاتها ونتائجها بما تمثله من اخطار مصيرية على قضية النضال العربي والتي هي مسؤولية الجماهير العربية باسرها وقواها الوطنية والمتقدمة وان الجبهة القومية للصدود والتصدي وحلقتها المركزية سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية هي القاعدة الرئيسية للتصدي لمؤامرة التسوية الاميركية الصهيونية .

في المجال الفلسطيني

اولا : التمسك بالحقوق الوطنية الثابتة لشعبنا في وطنه فلسطين ، وحقه في العودة اليه وتقرير مصيره على ارضه دون تدخل خارجي واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني دون قيد او شرط .

ثانيا : الدفاع عن منظمة التحرير الفلسطينية والتمسك بها ممثلا شرعيا وحيدا لشعبنا وقائدا لنضاله الوطني ، وناطقا باسمه في كافة المحافل العربية والدولية ومقاومة كافة المحاولات التي تستهدف النيل من منظمة التحرير او تجاوزها والالتفاف حولها ، او خلق بدائل او شركاء لها في تمثيل شعبنا الفلسطيني والتمسك بقرارات القمة العربية في الجزائر والرباط وقرارات الامم المتحدة وخاصة القرارين رقم ٢٢٢٦ - ٢٢٢٧ التي تؤكد حقوقنا الوطنية الثابتة والاعتراف العربي والدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني .

ثالثا : التصميم الثابت على مواصلة وتصعيد الكفاح المسلح وكافة اشكال النضال السياسي والجماهيري خاصة داخل الارض المحتلة باعتبارها تشكل ميدان الصراع الرئيسي مع العدو الصهيوني ، وذلك لتحقيق الحقوق الوطنية غير القابلة للتصرف او التفاوض للشعب العربي الفلسطيني .

رابعا : التأكيد على ان قضية فلسطين هي جوهر الصراع العربي - الصهيوني واساسه ، ورفض جميع القسرات والاتفاقيات والتسويات التي لا تعترف او تنتقص من حقوق شعبنا الثابتة في وطنه فلسطين . بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة وبشكل خاص قرار مجلس الامن رقم ٢٤٣

خامسا :

أ - تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية على العلاقة ذات الطبيعة الخاصة التي تربط بين الشعبين الشقيقين الفلسطيني والاردني، وحرصها على استمرار التلاحم بين الشعبين الشقيقين .

ب - تعلن منظمة التحرير الفلسطينية تمسكها بقرارات القمة العربية في الجزائر والرباط التي تؤكد ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وحق شعبنا في اقامة دولته الوطنية المستقلة ، وتعتبر التزام النظام الاردني بهذه القرارات ورفض اتفاقيات كامب ديفيد ونتائجها والتورط فيها وتمكين منظمة التحرير الفلسطينية من ممارسة مسؤوليتها النضالية والشعبية ضد العدو الصهيوني الذي يمثل القاعدة التي تحكم علاقة منظمة التحرير الفلسطينية مع النظام الاردني .

سادسا : تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية حقها في ممارسة مسؤولياتها النضالية على المستوى العربي والقومي وعبر اية ارض عربية في سبيل تحرير الاراضي الفلسطينية المحتلة .

سابعا : تعلن منظمة التحرير الفلسطينية ان مواقفها وعلاقتها مع اي نظام عربي تتحدد على ضوء موقف اي نظام من الالتزام بمقررات قمتي الجزائر والرباط ومن رفض اتفاقيات كامب ديفيد وملحقاتها ومقاومتها .

ثامنا : تدعو منظمة التحرير الفلسطينية كافة القوى القومية والعربية والانظمة الافريقية والصديقة الى دعم ومساندة الشعب المصري وحركته الوطنية ، لتمكينه من التصدي لمواجهة السادات واسقاط اتفاقية كامب ديفيد وانعكاساتها

ثانيا : العمل على تعزيز وتدعيم جبهة الصمود والتصدي وتوسيع دائرتها على قاعدة مقاومة مخططات التسوية الامبريالية والصهيونية والتمسك بهدف تحرير الاراضي الفلسطينية والعربية المحتلة ، والحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني وعدم التفريط او المساس بها، وتوفير كل امكانيات الدعم الجماهيري والمادي لجبهة الصمود والتصدي بشكل خاص لمنظمة التحرير الفلسطينية والقطر العربي السوري .

ثالثا : تدعو منظمة التحرير الفلسطينية كافة الاحزاب والحركات والقوى الوطنية والتقدمية في الوطن العربي الى مساندة وتوفير كل امكانيات الدعم الجماهيري والمادي لجبهة الصمود والتصدي كما تدعوها الى التضامن والنضال على قاعدة مقاومة مخططات التسوية الامبريالية الصهيونية .

رابعاً :

أ - تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية تمسكها الثابت بوحدة وعروبة واستقلال لبنان واحترامها للسيادة اللبنانية والتزامها باتفاقية القاهرة وملحقاتها التي تنظم العلاقات بينها وبين السلطة الشرعية اللبنانية .

ب - تثمن منظمة التحرير الفلسطينية الدور الذي قام ويقوم به الشعب اللبناني وقواه الوطنية والقومية والتقدمية في دعم نضال الشعب الفلسطيني ودفاعها عنه وهي اذ تعبر عن اعتزازها بالتلاحم بين شعبنا الفلسطيني والشعب اللبناني وقواه الوطنية والقومية والتقدمية في الدفاع عن الارض اللبنانية والشسورة الفلسطينية ضد العسكوان الصهيوني ومخططاته وادواته المحلية تؤكد على اهمية استمرار هذا التلاحم وتعزيزه .

افريقيا وتصميمها على تعزيز علاقاتها النضالية معها باعتبار ان النضال ضد الامبريالية والصهيونية والهنصرية قضية مشتركة لكافة قوى التحرر والتقدم في العالم .

خامسا : تعلن منظمة التحرير الفلسطينية تمسكها الثابت بالانجازات التي تحققت للنضال الفلسطيني على الساحة الدولية ، من اعتراف دولي واسع بمنظمة التحرير الفلسطينية وبحق الشعب العربي الفلسطيني الثابت في وطنه فلسطين وفي العودة اليه وتقرير مصيره واقامة دولته الفلسطينية المستقلة فوق ترابه الوطني، وهي الانجازات التي تجسدت في قرارات الامم المتحدة منذ عام ١٩٧٤ حتى اليوم وخاصة القرارين رقم ٢٢٣٦ و ٢٢٣٧ وتؤكد حق منظمة التحرير الفلسطينية بالاشتراك في جميع الاجتماعات والمؤتمرات التي تبحث قضية فلسطين على هذه الاسس وتعتبر ان أي بحث او اتفاق في غيابها فيما يتعلق بقضية فلسطين باطل من اساسه .

في المجال التنظيمي

١ - تشارك فصائل الثورة والقوى الوطنية الفلسطينية وكافة مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية وفي مقدمتها المجلس الوطني المركزي واللجنة التنفيذية وعلى اسس جبهوية ديمقراطية .

ثانيا: القيادة الفلسطينية قيادة جماعية بمعنى ان القرار مسؤولية الجميع سواء من حيث المشاركة في اتخاذه او تنفيذه وعلى اسس ديمقراطي بالتزام الاقلية برأي الاكثرية طبقا للبرنامج السياسي والتنظيمي ، وقرارات المجلس الوطنية

ثالثا : ضمان قيام دوائر المنظمة

على الشعب المصري وعرويته وتاريخه النضالي ضد الصهيونية والامبريالية .

في المجال الدولي

اولا : ان الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة الاميركية ضد شعبنا الفلسطيني ونضاله الوطني وضد حركة التحرير الوطني العربية واهدافها في التحرير والاستقلال ، سواء من خلال دعمها للكيان الصهيوني او من خلال ادواتها في المنطقة العربية يشكل عدوانا سافرا على شعبنا وقضيته الوطنية ، وان منظمة التحرير الفلسطينية بالتلاحم مع جميع فصائل حركة التحرر الوطني العربية وقواها وانظمتها الوطنية والتقدمية تعبر عن عزمها على مقاومة سياسة الولايات المتحدة واهدافها وممارساتها في المنطقة .

ثانيا : تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية اهمية تحالفها مع البلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي باعتبار هذا التحالف يشكل ضرورة وطنية في مجال التصدي للمؤامرات الاميركية

الصهيونية على قضية فلسطين وحركة التحرر الوطني العربية ومنجزاتها .

ثالثا : تؤكد منظمة التحرير الفلسطينية على اهمية تعزيز وتدعيم تعاونها مع دول عدم الانحياز والدول الاسلامية والافريقية والصديقة المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ونضالها في سبيل الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره واقامة دولته الوطنية المستقلة .

رابعا : تعبر منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها حركة تحرر وطني عن تضامنها مع حركات التحرر الوطني في العالم وخاصة في زيمبابوي وناميبيا وجنوب

ينص عليه النظام الاساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية وقرارات المجلس الوطني .

خامسا : تتولى اللجنة التنفيذية القادمة في بداية عملها وضع المخطط اللازم لوضع البرنامج المرحلي موضع التنفيذ وتعيد النظر في دوائر أجهزة المنظمة بشكل تراعي الكفاءة والتنوع لضمان تحقيق المردود الافضل من عمل هذه الدوائر والاجهزة .

ومؤسساتها واجهزتها بممارسة صلاحياتها كاملة وفق الاختصاصات المحددة لها في النظام الاساسي للمنظمة ، وتشكل اللجنة التنفيذية مجالات عليا متخصصة على اسس جبهوية تتولى وضع المخطط ومراقبة التنفيذ لمؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية وخاصة في المجالات العسكرية والاعلامية والمالية .

رابعا : تشكل اللجنة التنفيذية والمجلس المركزي حسب ما يتفق عليه وضمن ما

بيان سياسي عن اعمال الدورة الرابعة للمجلس الوطني الفلسطيني « دورة الشهيد هوارى بومدين »

العربي ، وحدد التزام سوريا بفلسطين قضية وثورة وحقوقا وطنية ثابتة . وحضرت جلسات المجلس وفود كثيرة من الدول العربية الشقيقة والدول الصديقة وحركات التحرير الوطني والتنظيمات السياسية في هذه الدول . وأسهمت هذه الوفود في كلماتها في مناقصات المجلس مؤكدة تأييدها لنضال شعب فلسطين العربي وقضيته العادلة . وخصص المجلس جلسة خاصة لتكريم سيادة مطران القدس المنفي المناضل ايلاريون كبوجي بعد ان اختاره بالاجماع عضو شرف تقديرا لجهاده في سبيل قضية شعبنا العادلة وتكريما لكل مناضلي شعبنا في سجون الاحتلال وجميع المدافعين عن قضية الحرية والعدالة .

لقد جاء انعقاد هذه الدورة في مرحلة حاسمة تعرضت خلالها المنطقة العربية لخطر حلقات هجمة الامبريالية الصهيونية مجسدة في اتفاقيات كامب ديفيد منهاجا ومضمونا ونتائج واثارا تستهدف تصفية قضية فلسطين والحقوق الوطنية الثابتة

جاء انعقاد الدورة الرابعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في الفترة ما بين يومي ١٥-٢٢ كانون الثاني من ١٩٧٩ الموافق ١٦-٢٢ صفر ١٣٩٩ بمدينة دمشق العاصمة السورية بعد ان تعذر انعقاده بمقر جامعة الدول العربية في القاهرة بسبب ابرام مصر لاتفاقيات كامب ديفيد ، وقد حملت هذه الدورة اسم المغفور له الشهيد « هوارى بومدين » رئيس الجمهورية الجزائرية تعبيرا عن تقدير ووفاء شعب فلسطين لنضال القائد الراحل في سبيل قضية فلسطين وقضايا الامة العربية وللدور العظيم الذي قام به في تحرير الجزائر وتقديمها ونصرة قضايا العالم الثالث .

استقبل المجلس في يوم انعقاده الاول سيادة الرئيس المناضل حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية الذي تفضل بافتتاح المجلس وبتوجيه حديث له، أكد فيه عن تلاحم نضال شعب فلسطين العربي بشعب سوريا العربي وبرز خصوصية الثورة الفلسطينية في حركة النضال

كله ، اتخذ المجلس قراراته السياسية والمالية والعسكرية والاعلامية كما ركز بشكل خاص على البرنامج السياسي والتنظيمي ، الخاصين بتعميق فاعلية، وشمولية الوحدة الوطنية الفلسطينية واقرها بالاجماع .

هذا ، وقد اكد المجلس اعتبار منهج واتفاقيات كامب ديفيد وما نتج ومنتج عنها بما في ذلك مشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، مؤامرة يجب رفضها ومقاومتها بكل الوسائل الممكنة ، واعتبار المحافظة على الموقف العربي الجماعي النضالي من هذا المنطلق على ارضية قرارات جبهه الصمود والتصدي ومؤتمر الشعب العربي وقرارات قمة بغداد ، انجازات لا بد من التمسك بها والعمل على تطويرها ، كما اعتبر المجلس ميثاق العمل القومي بين سوريا والعراق مرتكزا اساسيا لمواجهة المؤامرة، واستعادة التوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني ، الامر الذي يحتم الوقوف الى جانب هذا الميثاق ، ودعمه ليحقق اهدافه في اسرع وقت ممكن .

كما اكد المجلس اهمية العمل لدعم صمود اهلنا في وطننا المحتل ونضالهم ضد مشروع الحكم الذاتي والاحتلال الصهيوني ، وما يترتب على ذلك من تصعيد نوعي وكمي للكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني في وطننا المحتل .

كما اقر المجلس موضوع الحوار مع الاردن ، وفق الضوابط والاهداف التي اقرها البرنامج السياسي في هذا المجال وخاصة ما يتصل فوريا بمقاومة واحباط اتفاقيات كامب ديفيد ومشروع الحكم الذاتي . كما بحث المجلس المؤامرة الصهيونية - الانعزالية على لبنان الشقيق

لشعبنا الفلسطيني ، واخراج مصر على يد النظام الحاكم فيها من واقع الصراع العربي الصهيوني خطوة على طريق اخضاع المنطقة العربية ومقدراتها باسرها للامبريالية والصهيونية، والقضاء على منجزات الثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربي ، الامر الذي واجهته جماهير شعبنا بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية وجماهير الامة العربية ، وفي طليعتها شعبنا العربي في مصر ممثلا بقواه الوطنية والقومية والتقدمية من خلال مراقبها النضالية التي تجسدت في قيام الجبهة القومية للصمود والتصدي وقراراتها ، ومؤتمر الشعب العربي العام وعلان ميثاق العمل القومي المشترك بين القطرين الشقيقين سوريا والعراق ، وانعقاد مؤتمر القمة العربي التاسع في بغداد ، فكشفت بذلك عن مدى عمق قضية فلسطين ، في واقع النضال العربي ووجوده والتصميم الراعي والحازم على التصدي لهذه الهجمة الامبريالية - الصهيونية على المنطقة العربية ، ودعم النضال الفلسطيني في داخل الوطن المحتل وخارجه بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، كما كشفت عن مدى عزلة سياسة الولايات المتحدة الامريكية والسادات في المنطقة العربية . ومن خلال وعي قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ومجلسها الوطني لخطورة هذه المرحلة المتجسدة في هذه الاتفاقيات الاستسلامية ، ودور النظام المصري المدمر فيها ، جرت مناقشات المجلس واتخذت قراراته الخاصة بواجبات الثورة الفلسطينية وجماهيرها داخل وخارج الوطن المحتل . واخذا بعين الاعتبار النهوض العربي ، الذي عبرت عنه عمليا، قرارات قمة بغداد والخطوة الوجدانية السورية - العراقية ، وانطلاقا من ذلك

اصداقنا وحلفائنا من الدول الاسلامية ودول عدم الانحياز والدول الافريقيّة والاسيوية والقوى والاجزاب الديمقراطية التي تناصرنا في العالم . كما بحث المجلس الوضع في ايران واكد وقوفه الى جانب ثورة ايران بقيادة المجاهد الكبير الامام اية الله الخميني ، ومواقفها الحاسمة الى جانب قضية فلسطين ونضال شعبها ضد العدو الصهيوني . وقد حيا المجلس هذه الثورة الفتية وتمنى لها النصر الكامل ، لكي تتمكن من وضع امكانات ايران وشعبها البطل الشقيق الى صفوف النضال ضد الامبريالية والصهيونية لتحرير فلسطين والقدس الشريف .

هذا ، وقد كلف المجلس الوطني اللجنة التنفيذية وضع ما ورد في قرارات المجلس المتعلقة بالبرنامج السياسي والبرنامج التنظيمي وقرارات اللجان السياسية والمالية العسكرية وغيرها موضع التنفيذ واعطاء عناية خاصة للمؤسسات الاجتماعية الفلسطينية ورعاية اسر الشهداء والاسرى المعتقلين وبذلك تتابع اللجنة التنفيذية الحالية مسؤولياتها وفقا للنظام الاساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، على ان تجري دراسة واقرار القواعد الجبهوية الخاصة بهذا الموضوع قبل انتهاء مدة المجلس الوطني الحالي .

وقد اختتم المجلس اعماله بارسال برقية شكر وتقدير الى سيادة الرئيس حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية على افتتاحه ورعايته لاجتماعات المجلس وبرقية شكر اخرى الى اتحاد عمال سوريا المناضل لما قدمه للمجلس من تسهيلات اسهمت في تسيير اعماله .

ان المجلس الوطني الفلسطيني اذ

واكد تمسكه بوحدة واستقلال وعروبة لبنان وعلى ضرورة تعميق العلاقات النضالية الوثيقة مع القوى الوطنية والقومية اللبنانية جماهير الشعب اللبناني البطل على اختلاف طوائفه ، انطلاقا من ان القيادات الانعزالية - اللبنانية لا تشكل ارادة من تدعي تمثيلهم من جماهير شعب لبنان البطل ، وقد دعا المجلس الوطني كافة القوى الوطنية والقومية والتقدمية في العالم العربي وخاصة في مصر للتنسيق فيما بينها وتطوير علاقاتها لاسقاط اتفاقيات كامب ديفيد ، ولسقاط منهج التسوية الامريكية الصهيونية ، ودعم الثورة الفلسطينية في تحقيق اهدافها الوطنية . وقد لاحظ المجلس بقلق التأثير الامريكي الرامي الى تعطيل دور وكالة غسوث الفلسطينيين ، وكذلك المؤامرات المتوالية التي اخذت تمارسها الوكالة تجاه اهلنا في المخيمات الفلسطينية داخل وخارج الوطن المحتل .

وقرر اتخاذ الاجراءات والاتصالات اللازمة في هذا المجال بما يضمن مصالح جماهير شعبنا ، ويحبط هذه المؤامرات ، وان المجلس الوطني يحمل وكالة الغسوث مسؤولية ما سبترتب على ممارساتها الاخيرة ، المشبوهة من اضرار بمصالح شعبنا ومن ردود فعل الجماهير الفلسطينية على ذلك .

ان المجلس الوطني الفلسطيني اذ يعي الدور الامريكي الصهيوني في التامسر الشرس على قضية فلسطين وشعبها وقيادة هذا الشعب ممثلا بمنظمة التحرير الفلسطينية ، فانهيحي كافة القوى الصديقة في العالم التي تقف الى جانب شعبنا في نضاله من اجل استعادة حقوقه المغتصبة ، وخاصة الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي ، الى جانب

المصرية ، التي ترفض مؤامرة كامب ديفيد ليعاهد شعب فلسطين وكل احرار العالم بأن يستمر النضال حتى تسقط كل المؤامرة ويتحقق النصر .

يحيي صمود ونضال شعبنا في الارض المحتلة ويحيي شعب لبنان وقواه الوطنية التي تعمل من اجل وحدة لبنان وعرويته واستقلاله ويحيي كل اصديقاء وحلفساء شعب فلسطين في العالم والقوى الوطنية

المناطق المحتلة

١٩٤٨ - ١

العرب الدرزي في الارض المحتلة والتجنيد الاجباري

وضحت لهم الرؤيا وانكشفت الحقيقة ، (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٢٨) .

وكانت هذه المؤامرة قد بدأت بتكليف العصابات الصهيونية ابان حرب عام ١٩٤٨ ، اكبر المتعاونين معها من الزعماء الدرزي ، وهو الشيخ صالح خنيفس من مدينة شفا عمرو ، للعمل على تجنيد الدرزي في الجليل وفي جيش الانقاذ للقتال الى جانبها . وقد « استطاع الشيخ صالح خنيفس هذا ، ان يقنع شكيب وهاب ، قائد الكتيبة الدرزية التي كانت تعمل في اطار جيش الانقاذ التابع للجامعة العربية بقيادة فوزي القاوقجي ، بان يجري مباحثات مع قادة عصابة الهاغاناه في عام ١٩٤٨ ، والوصول الى اتفاق مع موسى ديان ، تنسحب بموجبه الكتيبة الدرزية وتحل نفسها ، وقبول كل من يريد الانضمام من جنودها الى الجيش الاسرائيلي » (هارتس ، ١٩٧٨/٩/١٥) .

ومنذ ذلك التاريخ و « حتى عام ١٩٥٦ ظل التطوع للجيش الاسرائيلي جزءا طبيعيا من حياة الاكثرية للشباب الدرزي في

منذ ثلاثين عاما والدولة الصهيونية تحاول وبالتعاون مع كبار المتعاونين والنفعيين من زعماء الطائفة العربية الدرزية في فلسطين المحتلة ، تنفيذ اشنع الجرائم ضد ابناء هذه الطائفة ، وهي طمس هويتهم القومية والدينية ، واجبارهم على حمل السلاح لمقاتلة ابناء شعبهم العربي ، بل وابناء وطنهم الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة وخارجها ، باعتبارهم « امة » منفصلة قائمة بذاتها ، تختلف عن الامة العربية ، لاجئة في ذلك ، وبالتعاون مع عملائها من زعماء هذه الطائفة الى تزيف التاريخ والتنكر للانتماء القومي العربي الصريح لابتداء هذه الطائفة ، واختلاق « القومية الدرزية » ، ومن ثم الى انتهاج سياسة القمع والملاحقة . الا ان التاريخ الوطني لابناء هذه الطائفة في سوريا ولبنان وكثير من ابنائها في فلسطين المحتلة ، وتلاحمها بالقومية العربية وتفاعلها مع الثورة الفلسطينية في السنوات الاخيرة وخاصة في لبنان ، عرقل تمرير هذه المؤامرة « وانشأ جيلا من الشبان المتمردين الذين

التجنيد في الجيش الاسرائيلي لاسباب قومية وسياسية وانسانية وضميرية « (المصدر نفسه) . مما حدا بالسلطات الاسرائيلية هذه المرة لاستعمال كـبل « اساليب الارهاب والاعتقالات والسجن بل وحتى البطش » (المصدر نفسه) .

ففي « ليلة الخميس ١٩٧٨/٤/٢٩ ، شنت السلطات الاسرائيلية في منتصف الليل هجوما بوليسيا على قرانا » - كما ورد في المنشور الاحتجاجي الذي وزعته لجنة المبادرة الدرزية فرع قرية البقيعة - « واعتقلت العديد من شبابنا الراقضين للخدمة الاجبارية في الجيش » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٥/٢) . وفي نهاية هذا المنشور دعت لجنة المبادرة الدرزية السلطات الاسرائيلية الى « الغاء التجنيد الاجباري حالا وعدم المس بمشاعر الدرور القومية واطلاق المعتقلين فورا » (المصدر نفسه) .

الا ان السلطات الاسرائيلية استمرت في حملة المدامات والاعتقالات هذه ، حيث بلغ مجموع من « سجنوا من قرية البقيعة وحدها ٤٠ شابا ، كان من بينهم الاستاذ الشاعر مهنا حسين مهنا الذي حكمت عليه المحكمة العسكرية في حيفا في ١٩٧٨/٦/٨ بالسجن لمدة سنتين ، وذلك بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية في الاحتياط في الجيش الاسرائيلي ٠٠ ولم يحسب في احصاء المسجونين هذا الا الذين سجنوا من الستة أشهر فما فوق ، (الاتحاد ، ١٤ و ١٥/٦/١٩٧٨) . وقد بلغت هذه الحملة ذروتها في ١٩٧٨/٦/٢١ حيث « قامت قوات عديدة من الشرطة والجيش في ساعة متأخرة من الليل ، باوسع حملة اعتقالات ومطاردة في قرية دالية الكرمل بحثا عن عشرات الشباب الهاربين من الخدمة العسكرية الاجبارية

اسرائيل » (المصدر نفسه) . ففي عام ١٩٥٦ « طلب الشيخ صالح خنيفس والشيوخ ابو ركن من عسفا وأخرون من دفيد بن - غوريون ، رئيس الحكومة ووزير الدفاع آنذاك ، ان يطبق واجب الخدمة العسكرية الاجبارية على جميع أبناء الطائفة الدرزية » (المصدر نفسه) .

وهكذا اعلن بن - غوريون انه قرر « الاستجابة » لذلك الطلب و« اصدر امرا عاما يقضي بفرض التجنيد الاجباري على كل الشباب الذكور بين الدرور ٠٠٠ ممسا ادى بدوره الى وقوع خلاف داخل الطائفة بين معارضي التجنيد ومؤيديه » (صبري جريس - العرب في اسرائيل ص ٣٣٧) . الا ان معظم الشباب الدرور اضطروا للخدمة العسكرية الاجبارية دونما اعتراض اللهم الا من « بعض الذين عارضوا تجنيدهم وطلبوا تأجيلا او اعفاء بحجة انهم عتديون او انهم حيويون لاعالمة عائلاتهم ٠٠٠ اما الذين حاولوا ان يمثلوا دور المجانين كي يحصلوا على الاعفاء من الخدمة العسكرية الاجبارية ، فقد واجهوا صعوبات في حياتهم المدنية مما ادى الى زوال هذه الظاهرة ٠٠٠ والاول الذي طرح اسبابا عقائدية ضد تجنيده ، كان الشاعر سميح القاسم ، الا انه اعتقل بعد ان تهرب لعدة اسابيع ، وجند حتى نهاية خدمته » (هارتس ، ١٥/٩/١٩٧٨) . وهكذا ظل الوضع قائما حتى عام ١٩٦٧ .

بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧ ، بدأت ظاهرة معارضة الشباب الدرور للخدمة الاجبارية تتسع اكثر فاكثر ، مما ادى الى قيام « لجنة المبادرة الدرزية » ، التسي تأسست عام ١٩٧٢ ، كأول تنظيم سياسي لمقاومة التجنيد الاجباري » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٢٨) حيث التف حولها مئات من الشباب الدرور معلنين « اننا نرفض

مهووسيكيم . وان شيوخنأ لن يبقوا
رهائن في ايدي المعتدين على البيوت
والحرمان . وان شعور نساننا لم تكن
في الماضي ولن تكون في المستقبل العوبة
للجر والشحشة في ايدي مبعوثيكيم
المهاويس « (المصدر نفسه) .

ورغم كل هذه الاحتجاجات ، فان
السلطات الاسرائيلية زادت من حملتها
ومطاردتها للشباب الدرور الراقضين
للخدمة الاجبارية ، بل وعمدت هذه المرة
الى رفض اعفاء بعض رجال الدين من
الخدمة العسكرية الاحتياطية ، ممن كانوا
قد خدموا في الجيش الاسرائيلي قبل
انخراطهم في الحياة الدينية ، رغم
الشهادات التي يحملونها من الزعماء
الروحيين التي تشهد على ذلك . وكان
من بين المعتقلين لهذا السبب « الشيخ
مفيد ابو ايمن من قرية الرامة في
١٩٧٨/٦/٢٢ ، بحجة غيابه عن الخدمة
الاجبارية في الاحتياط ، على الرغم من انه
يحمل شهادة متدين ، ويعمل بموجب تعاليم
الدين من ٨ سنوات ، اي منذ عام ١٩٧٠ »
(الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٧) . كما وبدأت
هذه السلطات تمتنع تأجيل الخدمة
العسكرية عن شباب متدينين كانوا قد
التحقوا بالجامعات « هارتس ، ١٥/٩/
١٩٧٨) ، مما ادى الى « ادراج موضوع
التجنيد الاجباري المفروض على العرب
الدرور ، ولأول مرة ، على جدول اعمال
الكنيست » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/١٨) .

فقد تقدم النائب الشيوعي توفيق طوبي
باسم كتلة « الجبهة الديمقراطية للسلام
والمساواة » باقتراح عادي لجدول اعمال
الكنيست لبحث موضوع تجنيد الشباب
العرب الدرور . وجاء في اقتراح النائب
طوبي : « ان حملة اصطياد اشبسان
الدرور ، وحملات الارهاب البوليسية التي

وداهم افراد الشرطة البيوت بصورة
استفزازية مما اثار الرعب بين النساء
والاطفال ، واعتقلوا حوالي ٢٠ شابا ،
بينهم الكثيرون ممن لم يبلغوا الثامنة
عشرة بعد ، ونقلوهم في سيارات للجيش
الى مكتب التجنيد في حيفا ٠٠ بينما تمكن
الكثيرون من الهرب » (الاتحاد ،
١٩٧٨/٦/٢٢) . ثم تلتها عدة مدامات
مماثلة في العديد من القرى الدرزية ،
بحيث اصبح شهر حزيران « شهر ارهاب
الدرور حيث شملت لهجة الارهابية
جميع القرى الدرزية كافة » (الاتحاد ،
١٩٧٨/٧/٤) ، مما دفع « لجنة المبادرة
الدرزية » الى اصدار بيان الى الرأي
العام تستنكر فيه حملة الارهاب البوليسية
هذه ، وتستصرخ الرأي العام « لانقاذ
ابناء هذه الطائفة العربية من الاضطهاد
والظلم وسياسة التمييز العنصري التي
تفرضها عليها السلطة بالاعتقالات
والارهاب » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٤) .

ويؤكد هذا البيان « اصرار ابناء هذه
الطائفة على رفض التجنيد وتمسكهم
بعروبتهم رغم كل السياسة العنصرية التي
تنتهجها حكومات اسرائيل منذ ثلاثين
عاما » (المصدر نفسه) . كما ويستدل
من البيان ان « عشرات الشباب الدرور
يقبعون الان في السجون العسكرية ،
ومنهم من حكم عليهم لمدد تتراوح بين سنة
واحدة وستين » (المصدر نفسه) . اما
في ختام هذا البيان فقد جاء : « اننا
نحذر المسؤولين من استمرار هذه
السياسة الهوجاء ونقول لهم : ارفعوا
ايديكم عن قرانا . وكفوا عن مطاردة
شبابنا ونهب اراضيها . ان قرانا لن
تبقى مزارع ومحطات تجارب لاجهزة
الظلام وزبائيتها . وان غرف نوم نساننا
واطفالنا لن تبقى اهدافا لغسزوات

شنتها قوات الجيش والبوليس على ابناء الطائفة العربية الدرزية ، تثبت ان هناك ضرورة منحة للاخذ بعين الاعتبار رفض الشبان الدرور خدمة سبياً. - الاحتملال والتميز لاسباب تتعسق بالضمير . ولذلك فاننا نطالب بادراج هذا الموضوع على جدول اعمال الكنيسة لالغاء التجنيد الاجباري المفروض على ابناء هذه الطائفة العربية وتحويله الى خدمة اختيارية » (المصدر نفسه) . كما تقدم النائبان توفيق طوبي وحننا مويس « بثلاثة استجوابات الى وزيرى الداخلية والمدافع الاسرائيليين حول مطاردة الشباب الدرور ودخول الشرطة الى البيوت دون اوامر من المحكمة . ومعاملة سلطات السجن العسكري للشيخ مفيد ابو ايمن واهانتة والمس بمشاعره الدينية ، ان اجبروه ان يخلع لباسه الديني ولفته ووضعها مع الحذاء في كيس واحد » (المصدر نفسه) .

غير ان سلطات الجيش والبوليس امعنت في المقابل « في تكثيف حملتها وتوسيعها ، حيث قامت « على مدار عشرة ايام متواصلة بحملات اعتقال وارهاب موسعة ومركزة في القرى العربية الدرزية لاكرهه مئات الشبان من رافضي التجنيد الاجباري على الخدمة » ، وتجري هذه الحملات الارهابية في «ساعات الليل المتأخرة في جو من الاستفزاز والتخويف في الشوارع العامة وداخل البيوت، وكذلك باطلاق الشتائم واستعمال المضرب » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٣٠) .

مما دفع النائب طوبي لان يتقدم « بطلب مستعجل الى رئاسة الكنيسة لتدرج على جدول اعمالها موضوع هذه الاعتداءات (المصدر نفسه) . كما واثارت هذه الحملات « موجات عارمة من الضغط

والاستنكار بين ابناء الطائفة الدرزية » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٢٨) . واعلن عشرات الشباب الدرور على اثرها انهم « توجهوا الى المحكمة الشرعية مطالبين بتسجيلهم كعرب مسلمين للتخلص من التجنيد » (المصدر نفسه) . اذ ان السلطات الاسرائيلية كانت قد اعلنت في عام ١٩٥٧ اعترافها بالدرور « كطائفة دينية مستقلة » (الوقائع الاسرائيلية ، مجموعة الانظمة ٢٩٥ ، ١٩٥٧/٤/٢١ ، ص ١٢٨) ومن ثم تسجيل كلمة «درزي» بدلا من « عربي » في بند « القومية » في بطاقات الهوية الاسرائيلية وباقي المستندات الرسمية . وفي مقابلة مع الشاب الدرزي صالح سلمان ، احد الراضين للتجنيد الاجباري كانت قد اجرتها معه جريدة «عل همشمار» الميامية في ١٩٧٨/٧/٢١ في معرض التحقيق الصحافي الذي اجرته في ملحقها الاسبوعي عن شبان قرية يركا الدرزية الذين طالبوا بتسجيلهم « مسلمون » فسي وزارة الداخلية ، قال صالح سلمان : « انسا عربي فلسطيني قوميا ، ومسلم انتمى الى المذهب الدرزي دينيا » وكعربي مسلم ، فانني لست على استعداد ان احمل السلاح واقتل ابناء شعبي العرب الذين خلف الصدود ، وكذلك فانني لست على استعداد ان انفذ الاوامر لضرب ابناء شعبي داخل الحدود ، كما حدث في يوم الارض وفي مجد الكروم » (عل همشمار ، حوتام ، ١٩٧٨/٧/٢٨ والاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٢١) .

واضاف صالح سلمان : « الدرور فسي نظري هم مذهب من مذاهب الاسلام ، وما فعلته جاء ليؤكد هذه النظرية وليضع حدا لمحاولات طمس هويتهم كمسلمين وعرب . والدوافع قومية وضميرية وذاتية ولاتراجع عن هذا القرار ، ولا يستطيع احد غيري

شنتها قوات الجيش والبوليس على ابناء الطائفة العربية الدرزية ، تثبت ان هناك ضرورة منحة للاخذ بعين الاعتبار رفض الشبان الدرور خدمة سبياً. - الاحتملال والتميز لاسباب تتعسق بالضمير . ولذلك فاننا نطالب بادراج هذا الموضوع على جدول اعمال الكنيسة لالغاء التجنيد الاجباري المفروض على ابناء هذه الطائفة العربية وتحويله الى خدمة اختيارية » (المصدر نفسه) . كما تقدم النائبان توفيق طوبي وحننا مويس « بثلاثة استجوابات الى وزيرى الداخلية والمدافع الاسرائيليين حول مطاردة الشباب الدرور ودخول الشرطة الى البيوت دون اوامر من المحكمة . ومعاملة سلطات السجن العسكري للشيخ مفيد ابو ايمن واهانتة والمس بمشاعره الدينية ، ان اجبروه ان يخلع لباسه الديني ولفته ووضعها مع الحذاء في كيس واحد » (المصدر نفسه) .

غير ان سلطات الجيش والبوليس امعنت في المقابل « في تكثيف حملتها وتوسيعها ، حيث قامت « على مدار عشرة ايام متواصلة بحملات اعتقال وارهاب موسعة ومركزة في القرى العربية الدرزية لاكرهه مئات الشبان من رافضي التجنيد الاجباري على الخدمة » ، وتجري هذه الحملات الارهابية في «ساعات الليل المتأخرة في جو من الاستفزاز والتخويف في الشوارع العامة وداخل البيوت، وكذلك باطلاق الشتائم واستعمال المضرب » (الاتحاد ، ١٩٧٨/٧/٣٠) .

مما دفع النائب طوبي لان يتقدم « بطلب مستعجل الى رئاسة الكنيسة لتدرج على جدول اعمالها موضوع هذه الاعتداءات (المصدر نفسه) . كما واثارت هذه الحملات « موجات عارمة من الضغط

درزية في الجليل وفي جبل الكرمل تطالب فيها السلطات الاسرائيلية بالغاء التجنيد الالزامي « (دافار ، ١٠/٩/١٩٧٨) » .

كما وعقدت اللجنة « مؤتمرا صحافيا في ٢٩/٨/١٩٧٨ في بيت سوكلوف في تل ابيب ، حضره مجموعة من مراسلي الصحف المحلية والاذاعة والتلفزيون ومراسلي الوكالات الاجنبية ووكالة عيتيم الاسرائيلية ، طرح ممثلو لجنة المبادرة الدرزية ، الشيخ فرهود قاسم فرهود - رئيس اللجنة - والشاعر سمح القاسم والسيدان حاتم حلبي وجهاد سعد اعضاء لجنة المبادرة ، جميع قضايا الطائفة العربية الدرزية ، وفي مقدمتها التجنيد الاجباري « (الاتحاد ، ١/٩/١٩٧٨) ، حيث قال الشاعر سمح القاسم ان « الاكثية الساحقة من شبائنا ترفض التجنيد والذي يطبق باساليب تركية تماما . والدليل على ذلك كبسات البوليس الليلية على عشرات البيوت في قرانا وتعرضه للاهلين بالضرب والاهانات ، ومئات الفرارية ، والمساجين بشكل دائم » (المصدر نفسه) . وردا على سؤال وكالة عيتيم الاسرائيلية : « كيف نعرف ان ما تقولونه صحيح وليس انجرارا وراء هيئات سياسية ضد الدولة ؟ » اجاب سمح القاسم رافعا رزمة كبيرة من العرائض التي وقعها ابناء الطائفة من معارضي التجنيد مشيرا الى مضمونها : « لدينا حقائق وبإستطاعتك ان تأخذ ذلك وان تتحقق مما نقول ، وامامك قرانا العربية ، يمكنك زيارتها والتحقق من ذلك .. اننا نمثل الالاف من ابناء طائفتنا » (المصدر نفسه) .

وهنا اردف حاتم الحلبي : « لدينا ٧ آلاف توقيع » (المصدر نفسه) . وفي نهاية المؤتمر توجه اعضاء لجنة المبادرة الدرزية الى الصحافيين ، طالبين اليهم ايصال

ان يقرر ان كنت عربيا ام لا . انني انتمي الى عائلة متدينة وكان بإمكانني ان احصل على اعفاء من الخدمة لاسباب دينية « (المصدر نفسه) » .

وقد اقامت هذه الظاهرة السلطات الاسرائيلية واقعدتها ، الى حد ان وزير الدفاع عيزر وايزمان ، سارع واعلن ان « الشباب الدرور الذين يعلنون اسلامهم لن يعفوا من الخدمة الاجبارية » (الاتحاد ، ٢٨/٧/١٩٧٨) . كما و « تناولت الصحف الاسرائيلية خبر لجوء الشبان الدرور الى الاسلام ، بكثير من الاهتمام لانها تعتبرها ظاهرة خطيرة » (المصدر نفسه) . وخاصة بعد ان تقدم الطالب الجامعي كمال محمد كيوف بالتماس الى محكمة العدل العليا يطلب فيه « اقرارا معلنا يقضي بانه استنادا الى انتمائه القومي ، هو عربي ، وأنه محدود على الطائفة الدرزية من الناحية الدينية فقط ، والتي هي دين فقط وليست قومية .. واستنادا الى ذلك فانه يطالب بان يسجل في بند القومية في بطاقة هويته : عربي » (هارتس ، ١٥/٩/١٩٧٨) . الا ان محكمة العدل العليا قررت بان « ليس لديها الصلاحية للبحث في هذه المسألة ، وانما الصلاحية معطاة للمحكمة المركزية في حيفا » (المصدر نفسه) ، حيث عارضت نيابة القضاء العامة للمحكمة المركزية الطلب بدورها بحجة ان « الدرور هم ذوو قومية منفردة من ناحية الارتباط الاقليمي ومن الناحية الحضارية والطائفية » . (المصدر نفسه) .

اما « لجنة المبادرة الدرزية » فقد صعدت في المقابل من تصديها لحمولات الارهاب هذه ومن مقاومتها للتجنيد الاجباري ، حيث قامت بحملة واسعة « لجمع التواقيع على عريضة من ١٨ قرية

الارض المحتلة .

وفي يوم ١٩٧٨/٩/٩ ، عقدت لجنة المبادرة الدرزية مؤتمرها القطري الاول في مدينة شفا عمرو ، حيث خرج المؤتمر بعدة قرارات تتلخص في « تعزيز اللجنة وتقويتها وتشديد الكفاح من اجل تحقيق اهدافها ومطالبها العادلة ، وهي الغاء التجنيد الاجباري والكف عن التدخل في شؤون الطائفة الدينية والقومية والمساواة التامة بدون اي تمييز او تفرقة والاشترك الفعال في جميع معارك شعبنا العربي ، (الاتحاد ، ١٥/٩/١٩٧٨) .

ت . ف

ب- ١٩٦٧

وتلقي القبض على العديد منهم ، ووقوع اصابات .
لم يسبق للمناطق المحتلة ان شهدت فترة ، تفتحت فيها شهوة التوسع الاسرائيلي ، كالفتره التي اعقبت اتفاقيتي كامب ديفيد اللتين تضمنتا موافقة رسمية من جانب اكبر دولة عربية على المشروع الاسرائيلي القديم ، مشروع الادارة الذاتية . ففي هذه الفترة استولت سلطات الاحتلال على عشرات الالاف من الدونمات، واقرت مشروعاً لتدعيم المستوطنات القائمة الى جانب العمل لاقامة مستوطنات جديدة ، ولعل ابلغ مؤشر على تفتح شهوة التوسع هذه ، التوصيات التي خرجت بها لجنة المدراء العاميين برئاسة مدير مكتب رئيس الحكومة ، والداعية للاستيلاء على مليون دونم من اراضي الضفة الغربية خلال فترة الاعوام الخمس القادمة ، ووضعها تحت « الوصاية الاسرائيلية » ، والاستيلاء «الدائم» على مصادر المياه الجوفية في

مطالب الطائفة العربية الدرزية فـ في فلسطين المحتلة الى صحقهم وعلى رأسها « الغاء التجنيد الاجباري على شبابنا » وعدم التدخل في شؤوننا الدينية واعيادنا» (المصدر نفسه) . واعدة على مواصلة الكفاح من أجل ذلك . الا ان معظم الصحف ووكالات الانباء الاسرائيلية والاجنبية كانت قد انتهجت سياسة التعقيم الاعلامي على هذا المؤتمر تمثيا مع سياسة الحكومة الاسرائيلية حيال هذا الموضوع الذي تعتبره من اخطر القضايا التي تواجهها مع الجماهير العربية داخل

منذ مطلع العام الجديد ، وعلى اثر المؤتمرات الشعبية العديدة خلال الربيع الاخير من العام الماضي ، ومع ارتفاع وتيرة شهوة التوسع الاسرائيلي المصاحب لمشروع الادارة الذاتية ، والمناطق العربية المحتلة تشهد بين الفينة والاخرى تفجيرات ومظاهرات واضرابات وطنية في هذه المدينة او تلك ، غدت مع حلول شهر شباط ظاهرة يومية في مدينتي رام الله وحلحول ، وعادية تحدث في اوقبات متقاربة في سائر مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية . والمنظر المألوف في هذه المظاهرات : حواجز يقيمها المتظاهرون في الطرق ، ودواليب مشتعلة ، واعلام فلسطينية مرفوعة ، وهتافات تشجب الاحتلال والاستيطان ومصادرة الاراضي وهدم البيوت ومشروع الادارة الذاتية ، وتشيد بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، وقوات احتلال تصطدم بوحشية مع المتظاهرين

ومن الملاحظ ان منطقة نابلس هي اكثر المناطق العربية المتضررة من سياسة التكتيف الاستيطاني ، ان خصص لها اكثر من نصف مليار ليرة • ومن الجدير بالذكر ان المؤسسات الاستيطانية الاخرى - غير الحكومية - تساهم هي الاخرى في سياسة التكتيف ، بمشاريع وميزانيات خاصة بها • فالهستدروت الصهيونية مثلا خصصت لكل مستوطنة، لهذا العام ، مبلغ ٥٠ مليون ليرة ، وكذلك قررت اقامة مئة وحدة سكنية في كريات اربع •

٢- اقامة مستوطنات جديدة : الى جانب التكتيف ، تعمل سلطات الاحتلال جامدة لاقامة مستوطنات جديدة • وقد اعلنت منذ مطلع شهر شباط عن اقامة مستوطنة جديدة تحمل اسم « ناحال ناعمه » ، تقع على بعد كيلومتر واحد من العوجة • ومن المقرر اقامة مستوطنة ثانية في المنطقة الشمالية من غور الاردن ، وثالثة في قطاع غزة •

ومما تجدر الاشارة اليه ان حركة جوش ايمونيم الاستيطانية ، تمكنت خلال الجزء الاول من كانون الثاني ، عقب سلسلة من المسيرات الاستيطانية في الضفة الغربية ، من دفع سلطات الاحتلال للموافقة على اقامة مستوطنة بالقرب من مدينة نابلس ، تكون بمثابة كريات اربع ثانية ، بهدف البدء في تهويد المنطقة • وتم الاتفاق بين غوش ايمونيم والحكومة على اشادة المستوطنة في جبل هواره الى الشرق من المدينة •

وفيما يتعلق بمدينة القدس العربية التي اصبحت محاطة بسوار من الاستيطان اليهودي ، اخذت انظار المستوطنين ، عقب اخلاء السكان العرب من « الحي اليهودي » في البلدة القديمة ، تصبو نحو مزيد من

الضفة الغربية ، بحجة الحفاظ على ٠٠٠ عذوية المياه الاسرائيلية ! •

اخذ التوسع الاسرائيلي مؤخرًا اشكالا عدة :

١- « التكتيف » الاستيطاني : ظهر اصطلاح « التكتيف » نتيجة تزايد الضغوطات الدولية ضد تكاثر النقباط الاستيطانية ، وخاصة ابان ارتفاع حرارة الحديث حول التسوية ، وذلك رغبة من سلطات الاحتلال في تقليص الضغوطات ، ودعم الاستيطان القائم في الان نفسه • والحقيقة ان الاستيطان الاسرائيلي في المناطق المحتلة ، المتمثل بوجود ٩٥ مستوطنة و ١٥ الف مستوطن، ليس بحاجة اليوم الى زيادة في عدد المستوطنات بقدر ما هو بحاجة الى زيادة في حجمها • ومن هنا فان سياسة التكتيف ، اخذا بعين الاعتبار واقع المستوطنات الصغيمسرة المتناثرة ، تشكل خطورة اكبر على طابع ومستقبل المناطق العربية المحتلة • وانطلاقا من ذلك صادقت لجنة المالية التابعة للكنيست في السابع عشر من كانون الثاني الماضي ، على ميزانية لتكتيف الاستيطان في المناطق المحتلة - باستثناء سيناء - وشق طريق جديدة في الضفة الغربية ، بمبلغ ٧٤٠٨ مليون ليرة • وتوزع المبلغ على المناطق المختلفة كالتالي:

المنطقة	وحدة سكنية	مليون ليرة
الهضبة السورية	١١٢	٧٧٠
غور الاردن	٨٦	٥٨٢
غوش عتسيون	٢٢	١٤٤
منطقة نابلس	١٥٠ +	٥٢١٠
قطاع غزة	٢٠	١٠٠
شق طريق في الضفة	—	٦٠٠

وحظوا هناك بمفاجأة لا تقل عن مفاجأة الجرارات الزائرة . فقد ابلغهم جهاز الحكم العسكري بعد ان اتصل بوزارة الدفاع انه كان قد صدر قبل خمسة اعوام امر بمصادرة اراضيهم ، ويمكن لهم الوقوف على هذا الامر في ملفات وزارة الدفاع ، ولذا فان شكاوهم لا محل لها . وامام هاتين المفاجأتين ، وعلى الرغم منهما، بقيت الجرارات الاسرائيلية تواصل عملها لخلق معالم جديدة بهدف تهويد المنطقة . وقد اكدت وزارة الدفاع في الصحافة الاسرائيلية ، ان الجرارات تعمل لتمهيد الارض لاقامة مستوطنة مدنية ثالثة في المنطقة لتشكل مع مستوطنتي « معاليه ادوميم » و « متسبيه يريحو » والمنطقة الصناعية في الخان الاحمر ، كتلة استيطانية يهودية الى الشرق من القدس العربية .

الى جانب ذلك تعرضت قرية ابو دبس عند اواخر شهر كانون الثاني لعملية تطويق واقتحام وحشية من قبل الجيش الاسرائيلي بحثا عن قذائين محتملين في القرية ، على اثر عملية محنيه يهودا الاخيرة . واستمرت عملية البحث اياما عدة ، مصاحبة بفرض حظر التجول واعتداء على السكان وهدم بعض المنازل .

لم تقتصر زيارة الجرارات على قرية ابو دبس لوحدها ، بل « حظيت » بها ايضا قرية ياسوف الواقعة الى الجنوب من مدينة نابلس ، حين فوجيء الاهالي خلال الجزء الاول من كانون الثاني بجرارات تقوم بتمهيد اراض تخص اهالي القرية . ومن الجدير بالذكر ان الجرارات ذاتها كانت قد زارت القرية قبل بضع سنوات عقب مصادرة سلطات الاحتلال منتهي دونم من اراضي القرية « لاغراض عسكرية » ، ومهدت حينذاك الارض لاقامة مستوطنة

التوسع داخل المدينة . فعند مطلع هذا العام قامت مجموعة من تلامذة مدرسة دينية بعملية استيطانية « في قلب الحي الاسلامي في البلدة القديمة » كما بشرت بذلك الصحف الاسرائيلية .

٣- مصادرة الاراضي وهدم البيوت : انطلاقا من سياسة التكميف ، واقامة معالم جديدة على انقاض معالم قديمة ، استولت سلطات الاحتلال ومصادرت مؤخرا عشرات الالاف من الدونمات العربية ، وهدمت بعض البيوت . فعند اواسط كانون الاول استولت على منتي دونم من اراضي مدينة الخليل تقع الى الشمال الشرقي منها ، وقامت بتسييجها . ويوجد في هذه المنطقة المسيجة ٢٨ منزلا مرشحا للهدم في حال تثبيت المصادرة . وفي الوقت نفسه صادرت مساحة واسعة من اراضي بلدة ساجور تقدر بـ ١٢٤٠ دونما ، اعادت بعد مدة ٢٤٠ دونما الى الاهالي عقب المظاهرات الاحتجاجية التي اعقبت المصادرة ، في محاولة منها لتقليص حدة الاستياء الشعبي .

كما واستولت ايضا على ٣٠٠٠ دونم اراضي قريتي خزما وجبع الواقعة بين بالقرب من القدس . وقد رفض حوالي منتي مزارع عربي وجهت لهم سلطات الاحتلال عند اواخر كانون الثاني رسائل لتلقي تعويضات عن اراضيهم ، الاستجابة لطلب سلطات الاحتلال، وطالبوا باستعادة اراضيهم .

ومع بداية هذا العام فوجيء سكان قرية ابو دبس العربية القريبة من القدس بجرارات تقوم بتمهيد اراضيهم البالغة حوالي ١٥ الف دونم وقسم منها مزروع . وازاء ذلك توجه الاهالي الى مقر الحاكم العسكري في بيت لحم يشكون اليه الجرارات الغربية واستيضاح امرها .

لشخصيات تاريخية مثل ابراهيم واسحاق .
على الرغم من ذلك ، فإن وزير الدفاع
موشيه ديان في ذلك الحين احدث نوعا من
الترتيبات تمكن اليهود من تأدية الصلاة
داخل المسجد في اوقات معينة وفي جزء
معين .

وعند مطلع سبتمبر ١٩٧٢ ، واثناء
الاستعداد لاداء فريضة صلاة يوم الجمعة ،
قامت مجموعة يهودية باحتلال المسجد ،
وعاثت بداخله فسادا ، ومزقت كتبا مقدسة
اسلامية ، وذلك بغرض احدث تغييرات
جديدة على الترتيبات السابقة . وعلى
الرغم من ان قوات الامن قامت باعتقال
هؤلاء ، الا ان سلطات الاحتلال حققت
غرضهم ، وقامت بتقسيم المسجد الى
قسمين ، قسم مخصص لليهود واخر
للعرب ، مع تحديد اوقات للصلاة . وقد
اخذ المستوطنون بعد ذلك ، ومن اجل
الحصول على ترتيبات اخرى افضل
يقومون بين الحين والاخر بالاعتداء على
المصلين العرب بالشمم او الضرب وباتلاف
نسخ من القرآن ووضعها في مراحيض
المسجد ، وذلك بهدف احدث ضجة
تتمخض عنها تغييرات اخرى في
الترتيبات تؤدي الى التوسع اليهودي داخل
المسجد .

وعند اواخر العام الماضي افتتحت
المستوطنون المصلون ضجة . ففي ٣٠
كانون اول الماضي ، واثناء قيام فريق من
مستوطني كريات اربع باداء شعائر الصلاة
في القسم المخصص لليهود داخل الحرم
الابراهيمي ، توسع قرابة ٣٠٠ مصلحي
يهودي واحتلوا المكان المخصص للعرب
داخل المسجد ، وعندما تحرك الجنود
لمنعهم من ذلك ، قاموا بـ « ضرب الجنود ،

« تبوح » . ولم يجد السكان امامهم ،
حيال الزيارة الجديدة ، الا الاحتجاج ضد
التوسع الجديد لمستوطني « تبوح » على
حساب المزيد من اراضيهم .

٤- الاستمرار في نهب بترول سيناء :
الى جانب الاجراءات الاستيطانية وما
يستتبعها من مصادرة للأراضي العربية ،
تستمر سلطات الاحتلال في نهب البترول
من الاراضي المصرية المحتلة ، وذلك بحفر
المزيد من ابار التنقيب . ويصل الانتاج
اليومي من ابار الطور التي تحمل اسم
« علما » الى ٢٢ الف برميل . ويقدر
الخبراء الاسرائيليون ان الانتاج اليومي
المستخرج من الاراضي المصرية سيرتفع
في عام ١٩٨٠ الى مئة الف برميل بقيمة
١٢٢ مليون دولار . ويقدر مخزون البترول
في منطقة الطور بـ ١٥٠ مليون برميل .
وقد اخذ مؤخرا اصحاب الامتيازات في
الشركات الاجنبية يضغطون على بيغن ،
حسب المصادر الاسرائيلية ، لدفعه الى
عدم التنازل عن الابار ، وابقائها تحت
الاشراف الاسرائيلي ، بحجة ان التنازل
سيؤدي الى «انتحار اقتصادي وعسكري» .

التوسع في الحرم الابراهيمي تمهيدا للاستيلاء عليه

يعتبر الحرم الابراهيمي مسجدا
اسلاميا منذ ١٣٠٠ عام وثيق . وبعد
سقوط الضفة الغربية عام ١٩٦٧ ، دخل
الحاخام الرئيسي جورين المسجد ووضع
في احد اقسامه تورا ، اصبغ فيما بعد
وعقب قيام مستوطنة كريات اربع بمثابة
كنيس للمستوطنين . وعلى الرغم من
احتجاج العرب في ذلك الوقت ، وتحريم
الشرع اليهودي على اليهود من تأدية
الصلاة في مقبرة الحرم الذي يضم مقابر

بحضور قائد الضفة الغربية ثات الواف بنيامين بن اليعيزر وسط تدابير أمنية مشددة ، أدى خلالها قرابة ٥٠٠ مستوطن من كريات اربع شعائهم الدينية .

وازاء هذا الهوس التوسعي الذي يشكل حلقة في سياسة التهويد ، لم يبق امام العرب الا الاحتجاج . وفي الثاني من شباط تحركت وفود شعبية اسلامية ومسيحية من جميع ارجاء فلسطين المحتلة ، وأمت مدينة الخليل لاداء الصلاة في المسجد والتظاهر وسط المدينة . بيد ان سلطات الاحتلال وضعت عراقيل امام رؤساء البلديات وحالت دون وصولهم الى المدينة . والقى رئيس بلدية الخليل فهد قواسمه كلمة في الوفود التي تمكنت من الوصول ، شجب فيها اعمال التهويد وانتهاك المقدسات الاسلامية والمسيحية ، ووصف التوسع داخل الحرم بأنه جزء لا يتجزأ من اعمال التهويد .

بيان الهيئة الاسلامية

في اوائل شباط الماضي ، وعقب التوسع الصهيوني الجديد داخل الحرم الابراهيمي ، الذي جاء على شكل « تسوية » جديدة بناء على تعليمات وزير الدفاع عيـزر فايتسمان ، اصدرت الهيئة الاسلامية العليا في القدس بياناً للرأي العام العربي والعالمي ، جاء فيه :

« منذ احتلال الضفة الغربية في حزيران عام ١٩٦٧ والاعتداءات تتوالى على الحرم الابراهيمي الشريف . وقد ابتدأت هذه الاعتداءات بالتسييج ثم تطورت لتأخذ شكل الاستيلاء على بعض الاجزاء ، الى ادخال اثاث مثل طاوولات وخزائن وكتب دينية ، الى استيلاء على قبر يعقوب وصحة الحرم ٠٠٠ ثم في كل يوم صلوات

ودفعوهم ، وركلوهم بأقدامهم ، وبصقوا عليهم وشتموهم بأقذع الشتائم، وناشدوهم بعدم اطاعة الاوامر » وفق ما ذكر عضو الكنيست يوسف سرمد في الكنيست استناداً الى شهادة ضابطين (دافار ١/٤ / ٧٩) .

وفي اعقاب هذا الحادث المفتعل ، بأيام معدودة ، جرى لقاء في كريات اربع بين وزير الدفاع عيـزر فايتسمان وجمع من سكان المتوتنة بزعامه الحاخام موشيه لفنجر ، اعلن خلاله فايتسمان بأنه لن يسمح ثانية بالتعرض لجنود الجيش الاسرائيلي كما حدث داخل الحرم الابراهيمي . وبعد ان تبادل الهدايا مع ممثلي المستوتنة ، ركز المستوطنون على القول بأنه قد حدثت منذ ١٩٦٧ تغييرات عدة في ترتيبات الصلاة في الحرم الابراهيمي « والان ، وحيال الزيارة الكبيرة التي طرات في عدد المصلين اليهود ، فان المطلوب اجراء تغيير من هذا النوع » (هارتس ٦٩/١/٥) .

وبعد هذه المقابلة ، والحادث المفتعل . نشط الحاخام لفنجر مع المستوطنين في الدعوة للسيطرة على الحرم الابراهيمي ، وربط الحاخام لفنجر في تصريحاته بين مسألة « توسيع حدود اسرائيل » بـ « حق اليهود في الصلاة في الحرم الابراهيمي » .

وفي التاسع عشر من كانون الثاني ادخلت سلطات الاحتلال تغييرات على الترتيبات السابقة لصالح التوسع اليهودي الصهيوني في المسجد ، يحق لليهود فيها تأدية فرائض الصلاة في القسم المخصص للعرب ، شرط ان ينتهي ذلك قبيل رفع الاذان الى الصلاة بنصف ساعة ! .

وفي ٢٠ كانون الثاني جرى تنفيذ « التسوية » الجديدة في الحرم الابراهيمي

هذه الترتيبات هي اعتداءات جديدة على الحرم تؤدي الى تحويل الحرم الى كنيس يهودي بما تحويه الكلمة من معنى . ان الهيئة الاسلامية العليا اذ تعلن عن رفضها لاية حقوق او ادعاءات لغير المسلمين في الحرم الابراهيمي الشريف تؤكد ما اعلنته مرارا ان هذا المسجد هو مسجد اسلامي، وهي لا توافق ، ولا تملك ان توافق على التفريط في هذا المسجد الاسلامي العظيم . وهي اذ تستصرخ كل عاقل وصاحب ضمير حي التدخل لحماية هذا المسجد وتمنع غير المسلمين من التدخل فيه او في شؤونه او ممارسة اية طقوس دينية » .

عيد الحفيظ محارب

وممارسات جديدة ورقص ونفخ فسي الابواق ، وتشويش على المصلين المسلمين والاستيلاء على ابواب الحرم الابراهيمي، ومنع السدنة والموظفين من دخول الحرم ، ومنع المؤذن من رفع الاذان في موعده ، ثم تطور الاعتداء ليشمل القرآن الكريم وتمزيقه وبعرثته » .

وبعد ان تطرق البيان الى الاعمال الاستفزازية التي درجت على القيام بها جماعات من مستوطني كريات اربع ، مثل احراق غرفة رئيس السدنة واتلاف الكتب الدينية وسرقة اثاث من المسجد ، ناشد البيان « اصحاب الضمان وانصار الحقائق في كل مكان » بالقول « ٠٠٠ ان

قضايا دولية

ثورة ايران والصراع العربي الاسرائيلي

□ اولا - وضوح تأثيرات الثورة الايرانية على مسار الصراع العربي - الاسرائيلي في اكثر من جانب ، اهمها التأثير الواضح المتبادل بينها وبين الثورة الفلسطينية ، ومنها تأثير هذا التأييد المتبادل وتأثير توجهات الثورة الايرانية في حد ذاتها على مسار محاولات « السلام » الاميركية بين النظام الحاكم في مصر والعدو الاسرائيلي . فقد اصبح من الواضح ، من تصريحات الاطراف ومواقفها ، ان للثورة الايرانية تأثيرات كابحة لجموح كل من هذه الاطراف - ومن زوايا مختلفة - نحو «الصلح» فيما يسمى عملية السلام . وصار من الواضح ان الفصل الذي تم في « كامب ديفيد » لا يجد

اذا كانت الثورة الايرانية الشعبية قد تقدمت على احداث الصراع العربي - الاسرائيلي من حيث قوة الاندفاع واتساع الاثار والاهتمام العالمي خلال الشهور السابقة ، فانها في الشهر المنقضي (كانون الثاني - يناير) قد صحبت معها قضية الصراع العربي - الاسرائيلي الى دائرة الضوء .

فلم يسبق منذ انطلاق هذه الثورة الشعبية في بدايات عام ١٩٧٨ ان ارتبطت الى مثل هذا الحد الوثيق الذي ارتبطت به بالصراع العربي - الاسرائيلي خلال احداث الشهر المنقضي .

تم ذلك بالتحديد من خلال عدة زوايا :

على اوضاع النظم المحيطة ، حيث باتت تشكل نموذجا تخشى منه تلك النظم ، وتتطلع اليه الشعوب والقوى الثورية فيها كعامل ملهم ومشجع لها . وفي المرحلة الراهنة فانه من الواضح ان خشية النظم المحافظة والرجعية في المنطقة ، وخاصة التي ارتبطت استراتيجيا وسياسيا واقتصاديا بالولايات المتحدة الاميركية ، من نموذج الثورة الايرانية هي اقوى بكثير من الاستجابة العفوية للجماهير والقوى السياسية في المنطقة التي شجعتها هذه الثورة . وهذا يؤكد ان ردات الفعل الخائفة قد ظهرت سريعا في سلوك النظم، في حين ان التفاعلات الجماهيرية في المنطقة تحتاج لوقت حتى تعطي نتائجها .

ولعل تصريح رئيس النظام المصري انور السادات (٢/١) يعطي نموذجا لمخاوف النظم اكثر « صراحة » من غيره . فقد اعلن السادات (في حديث السي كوادر حزب السلطة - الحزب الوطني الديمقراطي) انه يعارض بشدة تسييس الاسلام في مصر قائلا : « انني ضد تدخل الدين في السياسة . . . من يريد ان يتعبد فدور العبادة امامه ، ومن يريد ان يمارس السياسة فالقنوات الشرعية للاحزاب امامه » . وحذر السادات من استغلال الدين ومن « احتمال ظهور آيات الله مصريين » .

ويعكس هذا التصريح رؤية احادية الجانب للثورة الايرانية هي رؤية لطابعها الديني وحده دون السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، كما يعكس تصورا مبسطا بان الثورة الايرانية لا تعدو ان تكون آية الله الخميني رجل الدين .

اما رد الفعل السعودي - مثلا - فقد جاء اكثر تعبيراً عن الطابع اللانفعالي الذي تتسم به السياسة السعودية عامة ،

تتمته لاسباب من بينها تأثيرات احداث ثورة ايران .

كذلك وضوح هذه التأثيرات على مواقف وبيانات الاطراف العربية ذات الاموار غير المباشرة في « عملية السلام » وفي اتفاقات « كامب ديفيد » . وبمعنى اوضح انعكاسات احداث ايران على مواقف دول عربية مثل السعودية والاردن وبلدان الخليج العربي ، وتعتمد نظرتها الى دور الولايات المتحدة وقدراتها كحليف ، والى الاحتمالات التي يمكن ان يسفر عنها السير على الطريق الاميركية التي سار فيها شاه ايران من قبل .

□ ثانيا - محاولة العدو الاسرائيلي خلق مشكلة جانبية للثورة الايرانية عن طريق اثاره ما اسماه بمشكلة اليهود الايرانيين (حوالي ٦٠-٨٠ الف يهودي) والحديث عن اخطار تتهددهم وعن دور ينتظر من اسرائيل ان تقوم به بهدف « انقاذهم » ، فضلا عن توجيه الاتهامات لقيادات الثورة الايرانية بالعداء للسامية . ومن خلال هذا بروز خلافات داخل الكيان الصهيوني في شأن السياسة الاسرائيلية تجاه احداث ايران وتجاه اليهود الايرانيين .

□ ثالثا - تأثيرات الثورة الايرانية على دور النفط الايراني خاصة بالنسبة لاسرائيل ، وهو ما انعكس على المحادثات المصرية - الاسرائيلية قبل غيرها ، وادخل النفط عنصرا من عناصر التأثير المباشر على الموقف الاسرائيلي بوجه خاص ، بعدما اصبح واضحا منذ الان ان نفط ايران لن يتجه الى اسرائيل بعد رحيل الشاه ، وحتى قبل انهيار حكومة شاهبور بختيار .

□ رابعا - تأثيرات الثورة الايرانية

(١/١٦) في اكبر انتصار حققته الحركة الجماهيرية الإيرانية بضغطها المتواصل على النظام الامبراطوري، (٢) عودة الامام آية الله الخميني زعيم الحركة الجماهيرية الى طهران (٢/١) بعد ١٥ عاما قضاهما في المنفى، (٣) نشوء ازدواجية فسي السلطة بين القديم ممثلا في حكومة شاهبور بختيار والجديد ممثلا في « الحكومة المؤقتة » التي اعلنتها الخميني وكلف الزعيم المعارض مهدي بازرگان بتشكيلها (٢/٥) .

وفيما يتمسك بختيار بـ « شرعية » حكومته في مواجهة المد الجماهيري المؤيد للخميني يبدو ان للجيش الإيراني دورا لم تتحدد معالمه بعد في محاولة حسم هذا الصراع .

ومن الطبيعي ان القوى الخارجية ترقب هذه التطورات الخارجية باهتمام شديد، وخاصة البلدان القريبة من إيران جغرافيا وهي نفسها البلدان الداخلة بطريقه مباشرة او غير مباشرة في الصراع العربي - الاسرائيلي . وفي هذا الاطار يأتي تصريح زعيم المعارضة الاسرائيلي شمعون بيريز الذي وصف (٢/٥) نجاح آية الله الخميني بأنه سيكون من بين اخطر التطورات التي يتعين على اسرائيل مواجهتها . واعرب بيريز عن اعتقاده بأن الخميني ربما يكون قد قام بدور حاسم في التقارب السوري - العراقي .

كما يقع في هذا الاطار ما نقلته وكالة الصحافة الفرنسية (٢/٥) عن خبراء اسرائيليين في الشؤون العربية والاسلامية من ان القلق الناجم عن التطورات الإيرانية يتطلب للتغلب عليه اقامة « محور استقرار مع مصر » ، وان إيران « ستتحول الى دولة توسعية اذا ما أعلن الامام الخميني قيام الجمهورية الاسلامية فيها » .

على الرغم من ان السعودية ليست اقل انزعاجا باحداث إيران من النظام المصري، وهو ما دل عليه اسراع الولايات المتحدة الى ارسال سرب من طائرات ف-١٥ التابعة للسلاح الجوي الاميركي الى السعودية « بناء على طلبها » و « لتأكيد اهتمام الولايات المتحدة بأمن المملكة » .

وفي تصريح من طراز مغاير لطسراز تصريح السادات قال الامير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي في حديث لصحيفة « السياسة » الكويتية (٢/٥) انه ليست للسعودية سياسة معينة تجاه التغييرات التي تحدث في إيران طالما ان هذه التغييرات لا تحدث بفعل تدخل خارجي . واعرب الفيصل عن اعتقاده بأن « التغييرات التي تحدث حاليا في إيران طبيعية جدا اذا كانت انعكاسات لمطالب الإيرانيين انفسهم . . . لكننا نعتز فقط عندما تكون هناك متغيرات تحدث تدخلا خارجيا قد يقلب موازين القوى في المنطقة » .

□ تأثيرات الوضع الداخلي في إيران ذاتها . فحتى نهاية الاسبوع الاول من شباط (فبراير) كانت قوى الثورة تتقدم نحو مواقع اكثر تأكيدا لانتصارها ، والقوى القديمة تتراجع نحو مواقع يصعب معها تصور امكانية عودتها الى ادوارها القديمة . ومع ذلك فان الصراع بين الطرفين مستمر . القوى الثورية لم تقنع بما حققته من اهداف ، والقوى القديمة لم تستسلم نهائيا وتحاول ان تنساور للاحتفاظ بما تستطيع الاحتفاظ به ، او انقاذ ما يمكن انقاذه .

وهكذا فانه حتى بداية الاسبوع الثاني من شباط (فبراير) كانت التطورات قد انتهت الى : (١) رحيل الشاه عن إيران

وفي نيويورك (١/٨) صرح هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركي السابق (في حديث لمجلة « تايم » الاميركية) بان على الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان - بإزاء ما يحدث في إيران - ان تحدد استراتيجية شاملة لمواجهة « خطر الانهيار التدريجي للحكومات الموالية للغرب في الدول النامية » . وقال :

ان ما يحدث في إيران قد يصيب دولاً مثل مصر والمغرب واسرائيل ، كما انه قد يشجع الحكومات المتطرفة ، بغض النظر كما اذا كان الاتحاد السوفياتي يساندها بطريقة فعالة ام لا ، .

وفي واشنطن (١/٩) قالت مصادر دبلوماسية انه يبدو ان الازمة في إيران وتطورات الهند الصينية (اشارة الى أحداث كمبوديا) قد جعلت ازمة الشرق الاوسط تسقط من رأس أولويات الولايات المتحدة .

وفي واشنطن ايضاً (١/١٠) اصدر الرئيس الاميركي كارتر امره بإرسال ١٢ طائرة من طراز ف-١٥ القاذفة المقاتلة في « زيارة للمملكة السعودية » بناء على طلبها . ويصحب الطائرات ما بين ٢٥٠ و ٣٠٠ من الطيارين والفنيين الاميركيين محمولين على تسع طائرات نقل من طراز « سي - ١٤١ » .

وقالت مصادر حكومية اميركية ان الغرض من هذه « الزيارة » هو اظهار اهتمام الولايات المتحدة « بأمن المملكة والقلق على الوضع في إيران » ، وهو ايضاً ازالة « قلق بلاد مثل مصر والسعودية واسرائيل حول مدى استعداد الولايات المتحدة للوفاء بالتزامها بأمن المنطقة » .

وقال هودنغ كارتر المتحدث باسم وزارة

وبطبيعة الحال فانه مع بداية التطورات السريعة لاحداث إيران التي شملت خروج الشاه من إيران وعودة الخميني واعلانه تشكيل « حكومة مؤقتة » استأثرت الثورة الإيرانية باهتمام كل اطراف الصراع العربي - الاسرائيلي بشكل مكثف ، كل حسب زاوية موقفه وهمومه ازاء تلك الثورة .

وفي تل ابيب (١/١) قالت مصادر مطلعة ان الموقف في إيران استأثر بجانب مهم من مناقشات الحكومة الاسرائيلية ،

وان تطورات الوضع الإيراني اثرت على معالجة الوزراء الاسرائيليين لموضوع استئناف المفاوضات مع مصر ، وانه سادت مجلس الوزراء الاسرائيلي وجهتها نظر متناقضتان :

□ بعض الوزراء - وبينهم موشي دايان وزير الخارجية - يرى ان تطورات الموقف في إيران تستوجب توقيع معاهدة الصلح المصرية - الاسرائيلية في اسرع وقت ممكن . وبناء على تحليل اجرتبه وزارة الخارجية الاسرائيلية فان اختلال توازن القوى في الشرق الاوسط كنتيجة لسقوط نظام الحكم الامبراطوري الإيراني قد يهدد بالخطر مستقبل المفاوضات .

□ بعض آخر من الوزراء الاسرائيليين يرى عدم الثقة بالنوايا المصرية ، ويرى بالتالي ان الازمة الإيرانية تفرض تناولا يتسم بالترقب ، ولو ادى ذلك الى تجميد المفاوضات .

وفي تل ابيب (١/١٠) قال مناحم بيجن رئيس الوزراء الاسرائيلي ان احداث إيران ادت الى تغيير في الموقف الاستراتيجي في المنطقة ، واصبحت تشكل تهديداً للعالم الحر ، وانه ليس في المنطقة من « ديمقراطية » مستقرة غير اسرائيل .

- اعربت اسرائيل عن قلقها لرحيل الشاه واثاره على امن « الجالية اليهودية » في ايران . واعربت الحكومة الاسرائيلية في بيان لها عن قلقها المتزايد بشأن مصير اليهود الايرانيين . واعربت عن خشيتها ان تؤدي المظاهرات المعادية لاسرائيل في ايران الى حدوث موقف صعب بالنسبة لهؤلاء اليهود . وقررت اسرائيل وقف جميع انشطة مؤسساتها في ايران (الطيران ، التجارة ٠٠٠ الخ) واستدعت جميع خبرائها في الزراعة والبناء والتجارة .

في باريس (١/١٧) قال الزعيم الديني الايراني الامام آية الله الخميني تعليقا على زهاب الشاه الى اسوان واستقبال الرئيس المصري انور السادات له : « لقد ذهب الشاه والتحق بحليفه اسرائيل » . وفسر مساعدو الخميني هذه العبارة بأن الخميني يقصد السادات وانه لا يفرق بين السادات واسرائيل .

وفي مونتريال (١/١٧) قال بيغال يادين نائب رئيس الوزراء الاسرائيلي انه يتوقع ان يؤدي رحيل الشاه الى تفاقم العلاقات بين تل ابيب وطهران . واضاف : « ان التهديد لنا (الغرب واسرائيل) كبير للغاية ، واحداث ايران مهمة للجميع في المانيا الغربية وكندا والولايات المتحدة ، وحتى في مصر » . وذكر ان احداث ايران يمكن ان تسرع وتيرة المفاوضات بين مصر واسرائيل . وأشار بدوره الى وجود « جالية يهودية » في ايران قدر عددها بـ ٦٠ الف نسمة ، وقال : « نأمل الا يواجه اليهود صعوبات » ، واعرب عن استعداد اسرائيل لاستقبال المهاجرين منهم .

الخارجية الاميركية في اليوم نفسه ان ارسال الطائرات الى السعودية لا يعبر فقط عن اهتمام واشنطن بأمن السعودية، وانما عن اهتمامها بأمن المنطقة كلها .

وفي تل ابيب (١/١٠) ذكرت وكالة « رويتر » ان شعورا متضاربا ساد امس المسؤولين الاسرائيليين بشأن قرار الولايات المتحدة ارسال سرب الطائرات افسه الى السعودية . وقالت ان المراقبين الاسرائيليين فسروا قرار واشنطن بأنه اشارة الى قلق الولايات المتحدة من تطورات في الخليج في وقت تستمر فيه « الاضطرابات » في ايران .

ونقلت الوكالة تصريحاً لمسؤول اسرائيلي قال فيه ان اسرائيل تبغلت سلفاً امر ارسال الطائرات الى السعودية ، وان ذلك يجري استجابة لطلب سعودي ولمدة قصيرة . وذكر هذا المسؤول باعتراض اسرائيل الشديد على قرار واشنطن فسي العام الماضي بيع السعودية الطائرات في سنة ١٩٨٢ .

وفي موسكو (١/١٦) قالت صحيفسة « برافدا » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي : ان وصول الطائرات الاميركية الى السعودية هو وسيلة ضغط على الايرانيين والعرب على السواء ، وليس صدفة ان تقوم واشنطن في الوقت ذاته بارسال كبار دبلوماسييها الى الشرق الاوسط في سبيل تحريك انجمود والاتجاه نحو ابرام انصفقة المنفردة بين مصر واسرائيل .

في طهران (١/١٦) كان رحيل الشاه الذي سجل انتصارا اساسيا للثورة الشعبية الايرانية ، وكانت له ردود فعل واضحة من اطراف الصراع العربي - الاسرائيلي :

استعداد لعقد معاهدة صلح منفردة مع إسرائيل رغم معارضة الدول العربية المتطرفة . وقال : « ان السادات والمحيطين به سيصلون بدافع من الحرج لما يجري في إيران الى نتيجة مؤداها ان صلحا منفردا مع إسرائيل ضار اكثر مما هو نافع وقد يغيرون رأيهم بالنسبة للصلح . اما بالنسبة لما يتعلق بإسرائيل فانها تريد التاكيد من تأمين احتياجاتها النفطية التي انقطعت بعد احداث إيران قبل ان تنسحب من سيناء » .

وفي تصريح اخر في باريس ايضا (١/٣٠) قال دايمان ان ازمة إيران تبطئ التقدم نحو معاهدة صلح بين مصر وإسرائيل ، وان احداث إيران لن تجعل المفاوضات بين مصر وإسرائيل سهلة . « ان ما يحدث في إيران ستكون له نتائج سلبية . فستحاول مصر ان تتضامن مع الدول العربية الاخرى محاولة البقاء في اتجاه الفكر الاسلامي » . و اضاف : « اننا قلقون على الـ ٨٠ ألف يهودي في إيران وتأثير الاحداث الإيرانية على دول العالم الثالث وعلى علاقات هذه الدول مع إسرائيل » .

في موسكو (١/٣١) قالت صحيفة « برافدا » السوفياتية ان احداث إيران كانت احد اسباب فشل مهمة البعثوث الاميركي الفريد اثرتون الاخيرة في الشرق الاوسط والتي استهدفت اعادة استئناف مفاوضات الصلح بين مصر وإسرائيل . و اضافت ان سير الاحداث احبط السيناريو الذي وضع في « كامب ديفيد » . ولقيت الصفقة المعقودة هناك ادانة شديدة على الصعيد الدولي . وقد اوضحت مصر عمليا معزولة عن العالم العربي ، وخيم فوقها خطر فرض عقوبات سياسية واقتصادية

وفي تل ابيب (١/٢٤) طالب رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحم بيغن كلا من الولايات المتحدة والدول الغربية بصورة عامة بالعمل على المحافظة على إسرائيل قوية « على ضوء الوضع غير المستقر في إيران والشرق الاوسط » . و اضاف انه « اذا كان هناك عامل مستقر وثابت مرتبط بالعالم الحر فهذا العامل هو إسرائيل » . وقال : « ان على الغرب ان يتذكر هذا في ضوء الواقع الحالي للشرق الاوسط حيث يسقط البلد تلو الاخر تحت قبضة الانظمة الشمولية » .

وفي واشنطن (١/٢٦) اعلنت وزارة الخارجية الاميركية ان وفدا اميركيا يضم بعض العاملين في وزارتي الدفاع والخارجية قد غادر واشنطن مساء امس متوجها الى القاهرة ، في حين ذكرت مصادر مطلعة ان هارولد براون وزير الدفاع الاميركي نفسه سيقوم بجولة في الشرق الاوسط خلال الشهر المقبل . وقال الناطق باسم الخارجية الاميركية ان الوفد الاميركي سيتوجه بعد انتهاء زيارته للقاهرة الى السعودية برفقة بعض الخبراء المصريين .

وفي القدس المحتلة (١/٢٦) قالت صحيفة « جيزوراليم بوست » نقلا عن مصادر مطلعة في واشنطن ان وزير الدفاع الاميركي سيزور مصر وإسرائيل والسعودية والاردن لظهار اهتمام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل واستقرار منطقة الشرق الاوسط بعد الاحداث الإيرانية .

وفي باريس (١/٢٦) قال موشي دايمان وزير الخارجية الاسرائيلية انه بعد التطورات الاخيرة التي حدثت في إيران والشرق الاوسط تبقى المسألة الرئيسية هي معرفة ما « اذا كان المصريون على

أوسطية الذي وضع حدا للخبط السابق غير السليم الذي حال دون قيام شخصيات اسرائيلية بزيارة لفرنسا ، في حين ان عددا كبيرا من الوزراء ألغى زياروا باريس » . (هذا نص ما قاله مراسل اذاعة اسرائيل في باريس قبل ساعات من وصول دايان) . وقال المراسل أيضا : « وتنسب وسائل الاعلام هنا (في باريس) اهمية كبيرة للزيارة ، وقد خصصت صحيفة لوموند مقالا رئيسيا لها أمس . كما ان جميع محطات الاذاعة ومعظم الصحف حاولت في الايام القليلة الماضية اجراء مقابلة خاصة مع السيد دايان دون ان توفق في ذلك » .

وفي اليوم التالي مباشرة - اي بعد ان تمت عملية استقبال دايان - كان الوصف الاسرائيلي معاكسا تماما للتوقعات السابقة . فقد لاحظ الاعلام الاسرائيلي ان جان فرنسوا بونسيه وزير الخارجية الفرنسي لم يكن في استقبال دايان في مطار شارل ديغول ، انما استقبله نائب وزير خارجية فرنسا (اوليبييه ستورم) وسفير اسرائيل في باريس والسفير الفرنسي لدى اسرائيل وزعماء الجالية اليهودية . وفي المطار اتخذت اجراءات امن مشددة .

وتحدث المراسل الاسرائيلي نفسه عن الاستقبال فقال (١/٢٩) : « فوجئنا حين عرفنا مساء امس ان لدى الحكومة الفرنسية نية بعدم حصول زيارة دايان على تغطية اعلامية موسعة ، حيث ان اي صحفي فرنسي لم يكن في المطار امس ، كذلك فان السلطات الفرنسية لم تسمح للصحفيين الاسرائيليين بالدخول الى قاعة الاستقبال كما هو متبع » .

اما دايان نفسه فقد صرح قبيلا مغادرته مطار بن غوريون الى باريس

في حالة عقدها معاهدة منفردة مع اسرائيل . وما كانوا يستطيعون في القاهرة تجاهل ان القروض السنوية التي تستلمها مصر من البلدان العربية تبلغ وحدها الملياري دولار . وازدادت «برافدا» ان الولايات المتحدة « لا تتخلى عن المحاولات لربط اسرائيل ومصر في ان واحد بقوة اشد الى عجلتها السياسية ، وهي قد اعلنت - مثلا - انها ستوفد الى القاهرة قريبا وفدا عسكريا اميركيا برئاسة وزير الدفاع هارولد براون ، وبعد ذلك سيزور الوفد اسرائيل والسعودية . . . وليس من الصعب التكهن بمدى بعد اهداف مثل هذه الزيارات من مطامح شعوب الشرق الاوسط في السلام الوطيد والعادل . ذلك انه لا يمكن احلال مثل هذا السلام بواسطة الصفقات المنفردة المعقودة من وراء ظهر العرب وخلافا لمصالحهم » .



العلاقات الفرنسية - الاسرائيلية

علقت الاوساط الاسرائيلية، والصهيونية عامة ، ويصفه اخص الاوساط الصهيونية بين يهود فرنسا اهمية خاصة على الزيارة التي قام بها موشي دايان وزير خارجية اسرائيل لفرنسا (٢٨-١/٣٠) نظرا لانها تتم في اجواء قتور في العلاقات تبذل اسرائيل محاولات مستميتة لتبديلها .

وهكذا بدأت الزيارة يوم ١/٢٨ في وسط تأكيدات الاعلام الاسرائيلي والصهيوني بان دايان « سوف يستقبل في باريس بالترحاب والحرارة وليس فقط من قبل الجالية اليهودية ، بل كذلك من قبل الحكومة الفرنسية ، وهو الامر الذي يمكن استنتاجه من خلال حرص فرنسا الجديد على التوازن في سياستها الشرق

يتمحقق سلام عادل ودائم . واضـاف بونسيه ان السلام الشامل هو الضمان الوحيد لمستقبل اسرائيل . واكد استناد موقف فرنسا مسن الصراع العربي - الاسرائيلي الى قرارات الامم المتحدة . وقال ان اتفاقات « كامب ديفيد » تشكل مرحلة جديدة في تاريخ هذا الصراع ، وان فرنسا تأمل ان تؤدي الحادثات الدائرة بين مصر واسرائيل الى شق الطريق امام اتفاق شامل . واضاف ان حكومة باريس تدرك حقيقة وجود صعاب تعترض المفاوضات ، ولذا فهي معنية بأن تعيش دول المنطقة داخل حدود معترف بها وأمنة .



القمة الرباعية

سيطرت أحداث إيران والشرق الاوسط على جانب كبير من مناقشات القمة الرباعية الغربية التي عقدها في « غوايدلوب » (٤ - ١/٦) الرئيس الاميركي كارتر والرئيس الفرنسي جيسكار - ديستان ، والمستشار الالمانى الغربى شميت ورئيس الوزراء البريطانى كلاهان .

فقد اكدت مصادر القمة الرباعية ان البحث فيها تركز على « مسائل ذات اهمية استراتيجية مشتركة للدول الغربية وعلى رأسها : الوضع في إيران ، الوضع في الشرق الاوسط ، التطورات السياسية في الصين وعلاقات الصين الدبلوماسية والاقتصادية الجديدة مع الغرب ، ومبادرات الحد من الاسلحة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (سالت - ٢) ، بالاضافة الى مسائل

(١/٢٨) بأنه من الممكن ان يتباحث مع الفرنسيين حول مواضيع عملية معينة ربما لا تكون ذات قيمة حاسمة ، ولكنها قد تكون لها اهميتها في مستقبل العلاقات بين اسرائيل وفرنسا .

وقالت المصادر الاسرائيلية ان هذه الموضوعات ستشمل : (١) الاعداد لزيارة رئيس الحكومة الاسرائيلي مناحم بيغن لفرنسا (٢) اتفاقات « كامب ديفيد » والمفاوضات مع مصر في اعقاب جولة المبعوث الاميركي الفريد ائرتسون في المنطقة ، (٣) ترميم وتشديد العلاقات بين اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة ، وبينها وبين فرنسا ، خاصة في المجال الاقتصادي ، (٤) الوضع في جنوب لبنان وقوات الامم المتحدة وموقف فرنسا في هذا الصدد ، (٥) ابعاد طرد الشاه من إيران وتأثيرات الاحداث هناك على الوضع في الشرق الاوسط عامة وعسلى اوروبا الغربية خاصة .

وقالت المصادر الاسرائيلية - اثناء الزيارة - انه لا مجال لتوقع تغييرات جذرية تطرا على المواقف الفرنسية المعلنة كنتيجة لهذه الزيارة ، وخاصة في كل ما يتعلق بالصراع العربي - الاسرائيلي .

اما الجانب الفرنسي فقد أكد مواقفه من جديد في تصريحات أدلى بها وزير الخارجية الجديد بونسيه (١/٢٦) قال فيها

ان تعيين وزير خارجية جديد في فرنسا ليس له تأثير كبير على مستقبل العلاقات الدبلوماسية وسياسة الحكومة . وقال ان فرنسا معنية باقامة علاقات صداقة مع اسرائيل وانها أبدت باستمرار حسب اسرائيل في الوجود ، وانها تسعى الى اتباع سياسة ثابتة في الشرق الاوسط ، وانها واثقة بأن من مصلحة اسرائيل ان

الوضع في إيران - الشرق الاوسط -
مشكلة الطاقة من زاوية امدادات النفط
في ظل الوضع الدولي الراهن - الوضع
في تركيا - الوضع في باكستان -
ومعونات التنمية لافريقيا *

وقالت مصادر المؤتمر انه بالنسبة الى
« المناطق المتهبة في العالم ، دار البحث
حول كيفية قيام حلف الاطلسي بمواجهة
الازمات حاليا وفي المستقبل ، بأقصى
قدر من الكفاءة »

سمير كرم

اسعار النفط ومركز الدولار والعميلات
الغربية الاخرى والتعاون الاقتصادي
الغربي *

وقد لوحظ ان القمة الرباعية الغربية
انتهت دون اصذار بيان رباعي ، انمسا
انتهت باصدار تصريحات منفردة لكل من
الزعماء المشتركين فيها ، وان كان المتحدث
الرسمي باسممقر الرئاسة الفرنسية وباسم
القمة الرباعية قد اعلن (١/٦) ان
الاقطاب الاربعة قد بحثوا على التوالي :

اليوميات الفلسطينية

المجلد التاسع عشر

من ١/١ الى ٣٠/٦/١٩٧٤

مجلد ضخيم مؤلف من ٨٤٣ صفحة من القطع الكبير ، يضم عرضا موجزا ودقيقا
لما يحدث في العالم فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية مباشرة ، او ما يقال او يكتب
عنها ، يوما بعد يوم *

يغطي هذا المجلد الفترة من ١/١ الى ٣٠/٦/١٩٧٤ ويضم جدولا بالعمليات
العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية عن تلك الفترة ، كما يضم فهرسين : الاول
بالاسماء والثاني بالموضوعات الواردة في متن اليوميات *

مجلد لا غنى عنه لكل باحث ولكل مهتم بالقضية الفلسطينية *

سعر المجلد ٣٠ ل.ل (يضاف اليها اجور البريد)
اطلبه من : مركز الابحاث - قسم التوزيع
ص٠ب : ١٦٩١ - بيروت *

يزهار سميلانسكي

خربة خزعة ٢

- ٥ -

والآن ، ونحن نتوغل منحدرين في احد الازقة داخل القرية ، مستغربين ما اذا كان عرضه سيتسع لمرور سيارة الجيب ، ومتهبين لكل المفاجآت التي قد تحدث ، كان صمت القرية يعود فيوغل في السكون ، خلف اخر واحد منا في الطابور ، مباشرة . وكانت البيسوت السجينة بأسوار باحاتها لا تزال تبدو ، لأول وهلة ، تتنفس كسابق عهدها ، ولكن بشيء من الدهشة الحديثة ، ونسيج الاجيال ، ذلك الذي كان قد نسج خطأ خطأ ، وخيطا خيطا ، بفيض من تفاصيل التفاصيل التي محت معالم كل واحد منا ، وتلاشت ربما منذ زمن ، في التعبير الشامل لشكل ثابت الملامح ، دأب النمل هذا لبناء شيء ما ، ذرة بذرة ، والذي كلما كان اكبر واكمل - كلما تكشف عار سخفه وتعري ، وبكى ذل ماله مصيره : كان قد ادين وتم الحكم في الحال عليه ، وتلول الدخان الاولى ، سوف تتصاعد عما قليل هنا وهناك مترددة ، مستحبة بأن كل شيء هنا رطب ويأبى الاشتعال .

تصاعد بعد ذلك انفجار اخر ، كبير وقوي ، فتلاه العويل على الفور . كان يبدو لنا في البداية انها الصرخات التي سرعان ما ستصمت وتهدأ حين يكتشفون أننا لا نمسارس القتل . الا ان العويل ، صرخة حادة ، عالية و متمنعة ، متمردة ، تبعث على القشعريرة ، كانت لا تزال مستمرة ومتواصلة ، ولا تستطيع الفرار منها . انك لا تستطيع التفكير بشيء اخر ، نافذ الصبر انت ، تهز كتفك وتحقق في رفاقك ، وتود لو تبتعد ، الا ان تلك الصرخة لم تعد زعيق دجاج مطارذ خائف - بل زئير نمرة لا يزيدا الالم الا غضبا وشرا ، صرخة محكوم بالاعدام يقاد الي المشنقة كارها لجلاده ، متمردا عليه ، صرخة ذات زئير ، صرخة لن تحرك ، لن استسلم ، اموت ولكن لن تمسوا ، الي ان تشرع الحجارة بالصراخ معها - صرخة رهيبه كانت تتعاظم متقطعة ، تقطعات قصيرة لنفس

خاطف ، بل وكان يمكن تمييز الكلمات التي تعقبها ، الا انها لم تكن مفهومة .

« لماذا يصرخون هكذا هناك ، لماذا ؟ » ، لم يستطع عامل اللاسلكي ضبط نفسه .

« كان الشيطان حل فيها » قال شلومو متيرما وهو يزم عينيه كما لو كان ثمة من يصر له بقطعة من التلك قرب أذنه . ثمة شيء قاتم مر بالقريبة . ثمة بقرة شرعت تخور هي الاخرى ، بياس ، باضطراب ، ببلاهة متكررة ، وكان مجرد خوارها يمنحها نقطة تشبث في عالم حاد عن مساره .

شعرنا فجأة وكأن هجوما صاعق المفاجأة قد يداهنا ، لقد انهارت الاسوار الغريبة كلها علينا ، حاصرتنا بحقد غاضب يفح ، ويدورنا معزولين على حين غرة ، لا حيلة لنا ولا ندرى من اين ستنزل الضربة علينا فجأة - اللهم ما لم تكن غير ذلك - الا انها كانت « نحن » ها هنا ، على هيئتنا وصورتنا . وصلنا مفترق ازقة . انطلقنا نفقش البيسوت المجاورة . كانت كلها خاوية خواء كارثة مباغتة . كان ملل متوتر قد بدأ يلوح بنا . تلك الصرخة الرهيبة لم تتوقف ، بل تحولت الى نواح مكظوم يرتفع بصورة متقطعة ، نواح مبحوح كان قد فقد القدرة على ان يكون صرخة حادة ، وقد اصبح واضحا ان كل شيء قد انتهى واندرش ، ولا شيء ينفع او يتغير .

باغتتنا احد الرجال خارجا علينا فجأة من باب احد الاسوار التي كانت تكيد لنا من الخلف في صمت ، وقد تصور انا كنا قد ابتعدنا ومضينا قدما ، فبوغت بنا وقفز ثم راح يجري في مرتقى الطريق .

« توقف ايها الكلب ! » صرخ به غابي واطلق صلية من الرصاص فوق رأسه ، الا انه قفز وانبطح خلف حجر ملقى بجانب السور ، ودس رأسه بقدر ما سمحت له زحمة الارض .

« انهض ! » صرخ به غابي ، « نقول لك انهض » .

قلم يعارض ، ونهض . كان مروعا بشدة . صوب غابي المدفع الرشاش نحوه بدقة وهو يقول لنا : « يوحى بأنه قدر ! » وضغط على الزناد في الحال واطلق طلقة منفردة ، كانت قد مرت قيد شعرة من فوق رأسه عمدا . فالتفت الرجل الينا ومد يده وتجمد هكذا ، وعنقه يغوص بين كتفيه .

« تعال جاي ! » ، صرخ به غابي .

حاول الشخص ان يتحرك . كان واضحا ان لا علاقة البتة بين رجليه وجسمه . الا ان رجليه تحركتا من تلقاء نفسيهما ، اما الجسم فقد كان مشلولا . ملامح سحنه كانت فارغة من دمها ليس الى حد الشحوب ، وانما اليرقان والصفرة المخجلة . وفي النهاية بلع الرجل ، بعد لأي ، ريقه ، ثم عاد ومد يديه مذعنا وهو يحاول ان يبتسم ابتسامة قناع بائس ، أو ربما ليقول شيئا ما ، فلم يسعفه صوت من داخله أو صدى .

« ما الذي تفعله هنا ؟ » استجوبه غابي .

عاد الرجل وحاول الابتسام بحظ من النجاح لم يكن بأكبر من سابقه .

« يوحى بأنه قدر » ، عاد غابي وكرر مشيرا اليه بابهامه .

كان للرجل فرشاة - شارب رمادي ، ولسانه كان يلحق شفثيه ثم يعود ويلعقهما ثانية كما لو كان وجوده كله قد تركز في هذا اللعق . قرب يديه من صدره وراح يحركهما بدوائر صغيرة يائسة معللة ، من دون ان يجد الارضية لنفسه بين ما كان حتى هذه اللحظة تماما ، وبين ما يجري تماما في هذه اللحظة - وها هو الان امامنا في صميم انسحاب الارض من تحته ، في استدارة الدولاب تماما .

- « لماذا يحوم هنا ؟ فالمشاكل لا تاتينا دائما الا من اولئك الذين يحومون هكذا بين الارجل من امثاله » .

- « مجرد انه لم يستطع الهرب من هنا » ، قال شلومو وهو ينظر حوله يبحث عن شيء ما يقلق .

- « ولماذا يهرب ؟ كلا كلا . ثمة شيء اخر هنا . انني اعرف هذا الطراز . ما كل ذلك الذي يفعله سوى مسرحية ، انه محتال ! » .

- « لقد حدثوه ، كما يبدو ، قصصا شتى عنا - انه يكاد يموت خوفا ! اسأله يا غابي ، اسأله ما الخير » .

وهنا تدخل مويشي وقال ان ثمة من يطرح الاسئلة ، وما علينا الا ان نتركه وشأنه . وان نستمر اذا كنا نريد ان ننتهي . ثم التفت الى العربي وهو يشير الى الجيب ، ولكي يجنيه الوقوع في اي خطأ ، دفعه دفعة قوية الى داخله ، الى حد انه انغرس في جسده يتعلق به وهو يطوي نصف جسمه الاعلى داخله ، بينما بقيت ساقاه وذيل قمبازه وصندله تتدلى خارجه وهي تتخبط تخبطات مضحكة مجزنة على السواء . شدوه ، دحرجسوه ، تدحرج كيس داخل الجيب ، وحين اعتدل اكتشفنا ان تلك الحركات السريعة جعلته يصحو من ذهوله ، ويعثر في الاخير على لسانه ، وبابتسامة يائسة تلفت نحو غابي ، وقد ظنه رئيسنا ، وقال :

- « سأقول كل شيء ، يا سيدي ، سأقول كل شيء . . . » الا انه لسوء حظه ، كان قد ألم به تشنج هنا وانتابه غثيان فراح يتقيأ حوله ، ونحن نتقافز بعيدا عنه بقرف .

- « جيفة ! » صرخ غابي . « لا بد وان هذا الحقيير يضمم شيئا » .

- « انه الخوف ! » قال شموليك معللا ، « انه يلوث كل شيء » .

كان العربي الذي في الجيب ينحني صاغرا ، وهو لا يزال يحاول اخفاء الامة بابتسامة اعتذار شاحبة سخيفة ، ويمسح نفسه بطرف قمبازه ، يتفل ويسعل ويبتسم ويخفق في داخله شهقات محشرجة ومغصا وألما . وكان منزويا كله امتعاضا بقيئه وبخوفه وببسمته ، بالحيف الذي ربما أحرق به ، بهيئته هيئة المواطن الفاضل الذي تدحرج في مجرور قانورات - رمينا له كيسا من الخيش صادفنا ، فراح يبذل كل جهده وبحرص مفرط ، طاويا كل شيء داخله : يجفف وينظف ويمسح ، وهو يحاول طيلة الوقت ان يهدأ ، ان يسيطر على نفسه ، لولا ان يديه كانتا ترتجفان فتخونانه . وفي النهاية خيل اليه انه قد انتهى فالتفت الينا ، يمتدحنا ، على ما يبدو ، الا ان رجفة مفاجئة كانت قد ارجحته فتغير وجهه للحظة ، ثم سرعان ما عاد يبتسم لنا بسمته غبية متشابكة ، بسمته معتوه .

- « ربما كان مريضا » ، قال احدنا .

« اي مريض » ، قال غايي ، « انه سليم كثور ، محتال ، وهذا كل ما في الامر » .

« لا دم البتة لهؤلاء الاعراب في عروقهم » ، قال أرييه ساهما ، « ما كنت لاتسرك قرية كهذه بهذا الشكل ! فلو انني كنت في مكانه هنا - لكنتم تجدونني في انتظاركم والبندقية في يدي » والا ماذا حسبتم ! أقسم انني كنت سأفعل ذلك ! قرية كبيرة كهذه ، ولا يوجد فيها حتى ولا ثلاثة اشخاص يكونون ، هكذا ، رجالا . انهم ما ان يروا اليهود حتى يتغولوا في سراويلهم . جيب واحد - كم نحن هنا - مجرد جيب وبضعة رجال : نحمل قرية كاملة . انني لا أفهمهم ! » .

كنا قد ترجلنا في هذه الاثناء ، وفي الوقت الذي كان فيه أرييه لا يزال يعرض آراءه - افكاره ، وتقدمنا نتفقد الباحات المقفرة ، ننادي ونعلن عن كل ما يمكن ان يكون « لقطه » ، بينما كانت الارانب والدجاج تفر من امامنا ، نصب القليل بعض الاحيان من المازوت الذي كنا قد جهزناه في الصفايح ، ووضعناه في الجيب سلفا ، ونشعل تيانا او بواجة خشبية او سقف قش منخفض ، ثم ننتظر الى ان نرى كيف انها ستتحول الى نيران تفل وقاحتها مع احتراق المازوت ، نركل شيئا ما هنا واخر هناك ، عل ما هو ائمن مخابا تحته ، حريصين على ان لا ندخل البيوت خشية البراغيث ، ونجتاز غازين جزءا من حياة لبيوت وباحات وبشر ، سحقتهم لحظة واحدة في لوج جريهم ، ولم تذر منهم سوى ايمساء متحجرة ، ستأخذ منذ الان فصاعدا بالاهتراء والاندثار في غبار الزمن .

وفي احدى الباحات في اسفل القرية عثرنا على امرأتين سرعان ما طفقتا تكيان عند رؤيتنا ، وتعولان بشيء ما وكانهما تبغيان قول شيء كان لا يمكن فهمه ، لان شكوى احدهما كانت تتداخل بشكوى الاخرى ، ولان منظر دموعهما الكبيرة وبكائهما بكاء الاطفال ، كان يثير الاشمزاز اكثر مما كان يثير الاشفاق ، ولاننا كنا مع ذلك قد ارتبكنا امام بكاء النساء ، لولا ان خرج يهودا مشيرا الى الباب امامهما ، ويده الاخرى تستحثهما على الخروج كما لو كان يكشف سرب دجاج ، ولسانه يلهج بسرعة : « يا لله ، يا لله ، يا لله » . فخرجت الاثنتان وهما تجفقان دمعهما بطرفي مندليلهما الابيضين الكبيرين ، تنتحبان بصمت واذعان .

وفي الباحة التي تليها مباشرة ، وجدنا عجوزا كان يجلس على حجر بجانب البيت ، وكأنه ينتظر قدومنا ، فنهض يستقبلنا ، وانهاه علينا يثقل كاهلنا بكامل الحفاوة تأميلا وترحيبا ، بل وهم بتقبيل يد عامل اللاسلكي (الذي جعله جهازه الغريب اكثر الجميع احتراما) ، والذي سارع وسحب يده اليه غاضبا : « اغرب عن وجهي ، انت الاخر ! » . وسرعان ما راح ذلك الرجل ، ذو العمامة البيضاء والحزام الاصفر ، يحاضر امامنا وفقا للاصول ، كيف انه لا يوجد في القرية حتى ولا شاب واحد ، وكيف ان الجميع هنا هم عجائز ونساء واطفال فقط ، وكيف انه توسل الى اولئك الذين قروا في الصباح ان لا يفروا ، لان اليهود لا يؤذون احدا ، وانهم ليسوا كالانجليز « يلعن ابوهم » ، والخ والخ . التصق بكل من ظنه يصغي اليه او قد يصغي لحديثه ، الى ان دفعه احدنا في ذروة حديثه قائلا له باختصار ان يتصرف الى هناك ويصمت .

ولم نكد نصل الى مستديرة صغيرة في اسفل القرية ، حتى كان سبعة من ابناء القرية يسرون امامنا ، وبينهم اعرج كان يقفز على عكازه . كانوا يسرون من دون ان يلتفت احد منهم الى رفيقه ، لم يتقوهوا حتى ولا بكلمة واحدة ، ولم ينظر احد منهم الى الاخر . وهكذا ، ودونما قصد ، تحولنا الى مسيرة صامتة وكئيبة ، كما لو كانت مظاهرة صغيرة في

الشوارع المقفرة • فبدأ كل ذلك يفتت اعصابنا • وكان لا بد وان نتخلص منهم ، وان نتمدد في مكان ما ونفكر في اشياء اخرى ، ونستريح قليلا • الزقاق المتعرج ، اسوار الباحات المطينة بالطين المخلوط بالتبن ، والمتراصة بأعواد القصب المكسدة بأطوالهسا المتفاوتة ، والتي كانت تفوح ببقايا من شذى صيف (هه ، صيف يعيد) ، رائحة القرية الرطبة ، وضجيج صمت الخرائب ، بدت كلها غريبة وخائفة وثاقفة • والى ان تفجر غضبنا كنا قد وصلنا الى تلك المستديرة الصغيرة في اسفل القرية ، حيث كان هناك شابان من فصيل اخر يحرسان جمهورا صغيرا كانوا قد جمعوه اثناء عملية التمشيط •

— « كم قطعة لديكم ؟ » ، سأل احدهما متبجحا بكلمة « قطعة » ، وسعيدا بمظهره ، مظهر المغتصب الكبير اللفظ •

— « لدينا هؤلاء » ، قال يهودا من دون ان ينظر اليهم الا بمقدار ايماءة الرأس والاشارة بعلبة الكبريت في اتجاههم حين اشعال سيجارته •

— « انظروا ما اكثرهم ! » قال الشاب ، « فلو انهم قصدوا لاستطاعوا انهاءنا بالبصاق فقط • انظروا اليهم كيف يقفون ! » •

كان ذلك الجمهور الصغير الذي يقف بجانب الجدار ، بنسائه ورجاله كل على حدة ، هامدا كسل سمك اخرج من الماء لتوه ، ولا يزال يذكر بالبحر • حملقوا الينا بنوع من التجمد والياس ، ويلمحة بارقة مع ذلك من حب الاستطلاع الذي يطل من خلال الرعيب والذل والياس والدمار ، ومن خلال مباغثة الكارثة التي حلت لتوها • كانوا يتصورون ، على ما يبدو ، بان ثمة طلاس سوف تتضح لهم الان ، ويتوقعون حدثا خاصا لا بد وان يحدث •

ولكن مويشي قال للشابين ان يأخذا هذا الجمهور المنتظر وينقلاه الى مكان التجمع ، وان يخبرا القائمين على الحراسة هناك باننا سنتابع التفتيش قبل ان نأتي اليهم ، وارسل الجيب معهما ايضا • وسرعان ما نهض الشبان وهما يصرخان في المعتقلين بحدة ، ويلوحان بأيديهما ويندقيتها كراعيي بقر في مراعي فاسباس ، متأهبين لان يقمعا ويسحقا اي تمرد كان ، لو لم ينطلق المعتقلون كلهم ويسيروا عند سماع الصيحة الاولى مباذرة ، محتشدين ، متحاشرين باذعان ، ودونما اعتراض ، ولم تكن الضجة التي اثارها الشبان الا من أجل التفاخر بالبطولة وحسب • تقدم أحد الاثنيين وانتزع العصا من يد احدهم ، عصا كروية الرأس ، ثم اكتنف بندقيته ، وامسك بالعصا المغتصبة وراح يلوح بها ، وهو يدفع هذا تارة وذاك تارة اخرى ، ويهوي بها على كل باب يصادفه ، ويطرق كل بوابة ، متبخترا باتكاء وجيه عليها وهو مفعم بالحبور • ثم انطلق الجيب ، اما اولئك فقد انحروا بعدئذ في الزقاق المتعرج وغاوا فيه جميعهم •

اتجهنا سير في زقاق متعرج ، وما أن انتهينا من التسكع فيه حتى كنا قد خرجنا من القرية ، وانفتحت أمامنا مريجة مخضوضرة ، مسيجة بعدد من اشجار الاثل ، يليها سياج لقطعة ارض اخرى محروثة • ويبدو انه كان ثمة بيسدر في الخريف هنا ، فشب حبه الوفير المتساقط في ارضه نباتا غزيرا مستوي السطح وكأن قدما لم تطاه ، وزغب الندى الذي كان يتلألأ على نصاله المشعورة ، المغتسلت بالضوء الشمسي الشفاف ، كان يجعل من هذه المريجة المستديرة بركة بهية الخضرة وترفرغ انفاسا عذبة متناعسة ، فخلبنا بمشهدها حتى اننا لم ننتبه بادىء ذي بدء لمر كان يقف عند حدودها

يقضم العشب الوفير أمامه متأنياً ، ويكمل رفاه اللوحة .

– « آح ، ما اجمله مهرا ، انظروا ! » قال عندها شموليك ، وهو يشير الى ذلك المهر الضارب الى الصخرة ، الذي كان قد قذالتفت الينا رافعا رأسه مستغربا ، وهو يسلوح بذيله ويدق الارض برجله كما لو كان يذب عنه الذباب .

– « جميل ! » قال غابي ، « أي فائن ! »

– « بيدو وكائننا في عالم آخر تماما هنا ! » قال شموليك .

– « وليس مقيدا البتة » ، قال غابي « انه سيفر لو قربناه » .

– « لن يفر – انه يالف الناس قطعا » ، قال شموليك .

تقدم الاثنان منه خطوة اثر خطوة ، بينما ربضنا نحن كلنا في ظل السياج نرقبهما من دون أن نعقب . انحنى شموليك قاطفا ملء قبضتيه شعيرا كي يغري به ذلك المخلوق ، فان لم يكن بنوع الغذاء المتوافر حوله – فبحسن تقديمه يمثل ذلك الاهتمام المزخرف والمزين بالصغير والصمصمة ، اللذين كان يطلقهما شموليك ، دون ان ينتبه الى انه يدك اثناء ذلك اخضرار المريجة المستديرة بنعليه الثقيلين ، تاركا خلفه ثلما معكرا موحلا .

– « تعال ، تعال ! » تعطفه شموليك ابتهاالا .

تحفز المهر جذلا ، ودق الارض بقائمه الامامية استقبالا لصديق لهو آت وهو يتصافر بخفة ، فاتضح بانهم كانوا قد اوثقوا كاحليه الاماميين بالاغلال وقيده ثم تركوه هكذا .

كان يتموج بعصبية عند كل لمسة مداعبة ، لست ادري ، أمواج اقبال كانت هي ام ادبار . نخر بمنخريه الرطبيين ، الاسودين في داخلهما ومن خارجهما مقلدين باكليل ابيض ، ومرر شفثيه على العشب الذي كان في يدي شموليك الذي راح يربت على عنقه برقة . ويمسد شعر ناصيته .

– « جميل أنت ، جميل » ، غنى له شموليك متوددا .

اما غابي الذي كان قد تقدم منه يشق طريقه الموحد في العشب ، فقد ربت على عجز المهر قائلا : « هذا ، مثلا ، كنت آخذه معنا » . ثم تراجع قليلا وبتف نذرا من العشب حشاه في فمه هو سارحا ، وراح يلوكه راطنا : « كنت اجعل منه افضل جواد » .

– « فلتقل عنهم ما تقول » ، قال شموليك ، « اما الخيل فعندهم ، لا جدال في ذلك ! » .

قرر المهر ، الذي كان الثناء قد أسكره ، ان يتغندر بالرقص فوق المريجة امامنا ، الا انه ما ان تحنجل حتى تعثر بأغلاله وتكبلت رقصته ، فأثار ذلك غضبه فراح يقمص قمصات عجيبة ، يقمص ويرفع ذيله وكامل عنقه بحركات تروم الانفلات والتحرر مسن شيء ما ، وجور عينيه يتقلب في مقلتيه .

– « لا بد وان نك له تلك ! » قال شموليك الذي كان قد نكص متراجعا .

– « الافضل ان لا تمسه – والا رفسك » ، قال غابي الذي قال وفعل ، بابتعساده عنه مسافة آمنة .

- « اي وحشية ، اي تمرد ! » ، قال شموليك منفعلًا ، « تعال نك قيوده » .
- « بل الافضل ان تبتعد ! » قال غابي .

- « هيا كفى ، هيا كفى ! » ، قال شموليك للمهر مهددا ، وهو يصالحه بغير من لعشب عن بعد . الا انه لم يستجب الى هذه الهدية العيث ، وراح يتراقص تراقص قيود متمرد ، ويغضب متزايد ، بحركات مبتورة لقوة الحبال ، ومكبرحة الجراح بانشداد القيد ، وبلبلمات تذهب عبتا فتتورط بذاتها وتتعرش باندفاع الحركات التي لم يكن لها اي مدى .

- « انه سيكسر احدى قوائمه ! » ، صاح غابي .

- « لا بد وان نفتح له هذا » ، اجاب شموليك . « مستحيل هكذا » .

- « انه سيكسر احدى قوائمه ! » عاد وصاح غابي .

تجراً شموليك مقترباً منه واحدى يديه ممدودة بالهدية العشبية المصالحة ، بينما امتدت الاخرى للتربيت والتهديئة ، يقترب ويهدئه ، يقترب ويمصمص بلطف ، ويشيء من التجنب استعداداً للقفزة ارتداد ، توقف المهر . عنقه مشدود بعنف وكأنه يستعد للنطح ظهره مقنطر مثقوس ، ذيله متوتر ، مشدود ، قوائمه الاربع منحرفة حتى وكان حوافرها تكاد تكون متلاصقة ، كجندب يهيم بالقفز ، كقوس مشدود قبيل انطلاق السهم ، ماكنما هكذا برهة ، فولاذيا ، مرنا ، يزخر قوة متماسكة ، ويكاد يندفع برغبة جامحة ، بنشوة طليقة ، بنفس لا نهائي ، مسافات ومسافات ومسافات . استوى بعد ذلك دفعة واحدة ، مشربب العنق والرأس ذي الاذنين الصغيرتين المنتصبين ، مزورا ، كما لو كان يتعقب هبوب الريح ، مصغ كله . ثم سرعان ما استرخى . وبالتفاته حسن لعوب رنا السى شموليك ، ومد الى العشب شفثيه الطفوليتين .

اقترب شموليك منه مكللا بالنصر ، يمسد عنقه الحريري ، ويطنه المهتز ، وقوائمه الغزلانية المضاربة الى الحمرة ، يناجيه بكلمات حب عذبة رقيقة :

- « وسيم أنت ، لطيف أنت ، أجل ، أجل ، وسيم ، لطيف ! » . كذا همهم شموليك .
ثم سرعان ما ركع مستلا خنجره يقطع قيد رجليه ، دافعا برأسه ومعظم جسمه بين قوائم المهر الصافن .

- « الافضل ان لا تحشر رأسك هناك ! » قال غابي غاضبا ، وخطا خطوة واحدة الى الامام . فقفز المهر قفزة واسعة ، وذيله متطاوس ، وناصيته منتصبية ، ثم قفز قفزة اخرى الى الامام ، وبرأس يسبقه اندفع في عدو عاصف ، قفز من فوق السياج الواطيء (وبقيّة من حبل تتدلى فوق حافره) ، ثم لاح مرة اخرى عند نهاية الحقل المصروث واختفى .

نهض شموليك فاغر الفم ذاهل العينين واستدار نحونا والخنجر لا يزال في يده ، كله ذهول ودهشة ولا يستطيع التكلم : « مم ، أرايتم ! .. - اي مهر ! ... »

أما غابي فقد فغر فاه وانفجر ضاحكا ، كان يضحك ويسعل ، يضحك ويضرب ركبتيه ، يضحك ويستدير خلفه ، أينا ، وامامه ، الى شموليك ، وهو يحاول ان يقول شيئا ، الا انه كان يضيع في صخب الضحك الذي انتابنا جميعا ، الى ان تفجرت ضحكة ، شاملة ،

صاخبة ، ساخرة ، كانت قد انتشرت كل الاشياء التي لم نقلها طيلة النهار من اعماقنا ، واعتقتها بصوت مرتفع ، علني ، ودفعة واحدة ، وعندئذ قال ارييه - بتنهذ بسمة متأرجحة (اذ انه لم يتعد البسمة في حياته) للمسكين شموليك : « لقد خسرت خمسين ليرة على الاقل ! »

- « احش ليرائك الخمسين ٠٠٠ » ، رطن شموليك غاضبا وهو يتحسس خنجره ويغمده في جرابه ، ثم اشاح عنا ونظر بعيدا ، الى المجهول ، بينما كانت الحقول تتبخر صدى رائعا لواقع حوافر خيول من أجل الحرية .

ولكن سرعان ما اتضح لنا اننا كنا قد اضعنا وقتا طويلا . نهضنا على غير رغبة منا وانطلقنا عائدين الى ائقة القرية . فتشنا البيوت متكاسلين . نظرة خاطفة هنا واخرى هناك اسقاطا للواجب ، ونحن نعلل الخواء الذي كان قد حل بنا وكأنه ليس الا دقات الساعة لموعد الغداء . وكان شموليك ، الذي كان يسير خلفنا ببطء مقفر الروح ، اكثرنا خواء ، وعندما استعجلناه اجابنا مبتعدا عن الموضوع قائلا : «ماذا تعرفون انتم ! حصان كهذا لا نراه كل يوم ! » ثم عاد يتأمل حزنه . وفي هذه الاثناء كان قد توفر لدينا بعض العرب والعربييات الذين التقطناهم هنا وهناك ، فجمعناهم وسقناهم امامنا دون ان نغيرهم اي انتباه ، سواء كان ذلك بالنسبة الى شكلهم ، او توسلاتهم ، او الى بكاء يرتفع هنا ودموع تتساقط هناك ، حتى ولا الى ذلك الذي كان قد اعد لنفسه ، لسبب ما ، علما ابيض ، مما تيسر لديه ، وخرج الينا يلوح به ويتمتم خطابا ، كما لو كان رئيس بلدية يحمل مفاتيح الاستسلام في يده - لم يثر فينا غير السأم ، وغضب لا يفسر ، كان يزداد بنا حدة شيئا فشيئا ، الى ان تحول الى قسما مضطهدة على وجوهنا ، وكائننا نحن الذين خدعنا ، ونحن الذين اغتصبنا - ولسنا مستعدين للتنازل عن اي شيء ، او نسمح بأي شيء ، ومن دون ان ندري ما الذي لن نسمح به .

اذ من الذي كان في الواقع هناك ، غير بعض النساء واطفالهن على اذرعهن (اطفال عرب دامعون ، رائلون ، ملفعون بالاسمال والخرق) وبعضهن الاخر كان يسير متمتما . كما كان بعض الشيوخ يسير بمشية جنازية صامتا كما لو كان يسير الى يوم الدين . وآخرون من الكهول الذين كانوا يشعرون بانهم ليسوا شيوخوا بما فيه الكفاية كي يكونوا آمنين من شر ما سيحل بهم من غضب ، تعذيبهم رغبة في الشرح ، وغريزة في التمرد ، تتكشف هنا وهناك في نظرة او نظرتين . وكان ثمة اعمى بينهم يقوده ولد ، ربما كان حقيده ، يسير وعيناه تجولان بذهول وفضول ، لاهيا عن الكف المبسوطة فوق كتفه - والمصيبة النازلة فوق رأسيهما ، حتى انه كان لا يكاد ينتبه كلما تعثر بين حين واخر ، خشية ان يلهيه ذلك عنا . كان كل اولئك العمي ، والعرج ، والعجز والنساء والاطفال سوية ، كما لو كانوا يطلعون من مكان ما من التوراة ، حيث تقص علينا عن شيء كهذا ، لا انكر اين ، وبلاضافة الى هذا الاصحاح من التوراة الذي كان يثقل القلب ، وصانا الى مكان مفتوح ، حيث كانت ثمة جميزة وارفة الاغصان تنتصب في وسطه ، وتحتها ، كانوا يجلسون اكداسا ، لقد شاهدنا جمهور القرويين كله مكدسا وصامتا ، كتلة هائلة وملونة ، كل الذين كانوا قد جمعوا . جمهور واحد صامت ويراقد بعيونه كل ما يحدث ، وبين الفينة والاخرى كان ثمة من يتأوه منهم ويقول « اخ يا رب » .

كان اولئك الذين اجضرتناهم نحن قد وجدوا مكانا لهم وتجمعوا في الحبال تحث الشجرة ، الرجال وحدهم ، والنساء وحدهن ، واجلسوا اردافهم بتثاقل ، ولم يعد

بالامكان تمييزهم من بينهم جميعا . كان قد جمع الكثيرون هنا ، صيد اكثر مما كان متوقعا ، داكنو الثياب ، بيض العمائر (مناديل ملفوفة حول طرابيش صغيرة للرجال ، ومناديل بيض ومطرزة للنساء) . كان ثمة من جلسوا وتمائلوا بظهورهم كما لو كانوا في صلاة ، بينما دحرج آخرون سباحات العنبر العسلية بشكل عام ، او مجرد سباحات سوداء . وهناك من كتفوا ايديهم الكبيرة الخشنة ، أيدي فلاحين ، على صدورهم ، بينما راح آخرون يفركون اعواد القش والعشب بأيديهم لمجرد ان يفعلوا شيئا ما ، وعيونهم جميعا كانت تجولنا ، وتتعبق كل حركة لنا ، ولا يقولون شيئا سوى تلك التهيدة التي تطلق بين الحين والآخر « اخ يا رب » .

اما بين النساء فقد كانت تدور جلبة باكية رتيبة ، كما لو كانت غير صادقة ، وحين كان البكاء يعول احيانا ويختنق ، كان بعضهم يخرجن اثناءهن لرضعهن ، وبعضهن يقنعن معظم وجوههن تاركات فيها عيوننا خائفة ، وبعضهن كن يثرثن احيانا ويصرخن بالصبيبة الذين نفذ صبرهم فراحوا يقفزون ، ويقتربون منا ، ويتكئون بكف ارجلهم الحافية على ركب ارجلهم الاخرى ، ويلتهمونا باعينهم ، مستغربين كل ما نفعله ، كما لو كان عرضا مسرحيا . الا ان ثمة بكاء ما كان ينفجر بين حين وآخر ، فاتحا معه كل مغاليق القلوب والدموع ، فيعم عندها بكاء نسوي شامل ، الى ان يصرخ بهن احد الشيوخ يزجرهن ، فيكبتن بكاءهن شيئا فشيئا .

ولكن عندما انفجر احد البيوت الحجرية بصوت يصرم الاذان فجأة ، ويعمود من الغبار المتصاعد ، وشوهد سقفه من هنا وهو يرتفع قطعة مسطحة واحدة وسليمة ، كما هي ، ثم تصدعت وتحطمت في الفضاء فجأة ، فتناثرت وسقطت كتلا كتلا ، نتفا ، نتفا ، بغيار وبرد من حجارة ، قفزت امرأة كان البيت ، كما يبدو ، بيتها ، وانفجرت بصرخة متوحشة ، وانتصبت تهم بالجري في اتجاهه ، طفل على يديها واخر بائس كان قد بلغ السن التي يستطيع الوقوف فيها على رجليه ، يتعلق بذيل ثوبها ، وهي تصرخ وتشير بيديها ، وتتكلم وتشهق ، فانتصبت رفيقة لها تتبعها اخرى وشيخ ، ثم بدأ الآخرون بالنهوض بينما اندفعت هي تركض ، والطفل المتعلق بذيل ثوبها ينجر خلفها برهة ثم تهادى على الارض يثغو باكيا وعجزه الاسمر عار . انطلق احد شبابنا يعترضها صارخا بها يستوقفها . فراحت تتكلم شارعة بالصراخ اليائس بين الفينة والاخرى وهي تسدق صدرها بيدها الفارغة ، وقد أدركت دفعة واحدة ، كما يبدو ، بأن الامر ليس مجرد انتظار تحت اغصان الجميزة لسماع ما سيقوله اليهود والعودة بعد ذلك الى البيت ، وانما هي النهاية لبيتها ولعالمها ، وان كل شيء كان قد اظلم وتهدم ، لقد تعرفت فجأة الى شيء ما ، مبهم ، فظيع ، لا يصدق ، ينتصب امام عينيها دوتما حاجز ، ملموسا وقاسيا ، وجسدا لجسد ، ويستحيل رده . وكان ذلك الشاب قد تجهم كمن سئم الاستماع فعاد وصرخ بها يأمرها ان تعود الى مكانها ، الا ان المرأة كانت قد تخطت كل الانذارات، فنحته من دريها وراحت تجري الى مكان الانفجار ، غير انه وبحركة من يده كان قد أمسكها بمنديليها ، فانحسر شعرها وتشعث امعانا في اهانتها ، الامر الذي اثار امتعاض الجميع ، وغضبا جامحا في قلب المرأة . فاخطففت منديلها وعادت تغطي به رأسها وطفلها الذي كان على ذراعها بحركة محتجة ودفعة واحدة ، بينما راح طفلها يزعق بكل ضالته ، ثم اسرعت وامسكت بذيل ثوبها الثقيل وراحت تعود في اتجاه بيتها الذي كان قد هدم .

- « دعها » ، قال شخص ما ، « فانها ستعود » .

— « خواجا » ، كان أحد الشيوخ قد انتصب حينئذ ، وهو من وجهاء القرية على ما يبدو ، وخرج من بين شعبه في اتجاهنا ، وأحدى يديه معقودة على صدره ، بينما امتدت الأخرى أمامه تسترعي اتباهنا ، وبنوع من الطقوس الأدبية التي يجدر بالطرفين الاعتراف بها كقاعدة لاية مفاوضات ، وكما يليق بالوجهاء ، تقدم منا واختار واحدا من بيننا جميعا يتفاوض معه . الا ان ذلك الذي كان قد وقع اختياره عليه ، لم يمكنه من قول كلمة واحدة وراح يشير الى مكان ذلك الشيخ صارخا في وجهه : « انت تجلس هناك في مكانك الى ان يستدعوك » .

والشيخ الذي حاول ان يجيبه ، او ربما يثبت له شيئا ما ، تمالك نفسه وهز كتفيه عائدا الى مكانه ببطء ، مستعينا بعكازه وبيعض الايدي التي امتدت من بين الجالسين اليه ، ثم عاد وجلس في مكانه ببطء وهو يتنهد قائلا : « لا اله الا الله » . وثمة شيء ما توراتي عاد وتألق في الفضاء ، سرعان ما كان يعقبه شيء آخر يندر بالشؤم ، فيجل محله ويتعلق في الفراغ . وكل من كان قد نسي كيف سينتهي كل ذلك الذي يجري ، عاد وأيقن ما الذي ينتظره .

— « ما اسم هذا المكان بالمناسبة ؟ » قال شلومو حينئذ سائلا .

— « خربة خزعة » ، رد بعضهم .

— ٧ —

دعونا في هذه الاثناء للغداء ، ولم يكن موعد الغداء في محطه مرة كما كان هذه المرة . اذ اننا سنتخلص من كل تلك الاشياء التي تجري تحت من ناحية ، وسنساعد بذلك النزر القليل من الشمس الدافئة المتبقية لهذا اليوم من ناحية ثانية ونستطيع التفكير في اشياء أخرى ، كما اننا ، وبكل بساطة ، كنا جائعين تماما . وبينما كنا لا نزال في الطريق قال لنا شلومو :

— « ان ما يدور هنا في أسفل القرية سيء . لا بد وان تكون ثمة مشاكل » .

— « لا عليك ! » أجابه يهودا بثقة ديكية ،

« أهؤلاء يثيرون مشاكل ؟ اين ! » .

— « لا يروقتي كل ذلك » ، قال شلومو .

— « فليكن » ، قال يهودا ، « فذلك ليس بسيما » .

— « اني استطيع نسيان تينك العجوزتين ، اللتين كانتا تجلسان هناك ، شيء من .. عيب ! » .

لا احد سايره في الحديث ، فاستمر وحده : « لقد انتابني هناك ما انتابني في البداية ، عندما شاهدت القتلى والجرحى والدماء لأول مرة . هل تذكرون ؟ لقد كان ذلك رهيبا ، ظننت عندها انه سيلحقني دائما . وماذا اليوم ؟ فالقتلى والدماء اليوم بل وكل شيء أصبح لا شيء لى ! » .

— « نتعود » ، كلمة واحدة قالها يهودا له ، كانت هي الأخرى مليئة بالإيماء والعزاء الساخر .

وصلنا احد الحقول المجاورة لبيوت القرية ، والمحاذية لطريق ترابية كبيرة تربط هذه القرية بالطريق العمومي الكبير ، البعيد . فجأة ولسبب ما رأودتني فكرة بأن هذه الطريق المداسة بالآف الخطى منذ اجيال واجيال ، قد تثبت منذ الان اعشابا ، وانها ستشايك وتوحش لخلوها من المارة . وسرعان ما عاودتني تلك الانغام التي كانت تطن في ، وانبعثت في الاعماق مني موجة سخط ، وذلك الشخص القانط في اعماقي كان يتجسد لي كيف انه يصك الان اسنانه ويطبق قبضتيه .

حاولنا المحافظة على روحنا اللامبالية ، والتنفض من كل ما كان في الاسفل ، كبطة تخرج من الماء . وزعنا علب المحفوظات والبسكويت والكلمات المختلفة والدسمة ، بصخب ، ونحن نتمدد فوق سقيط تينة عادية متعفن ، نحاول ان نجد شيئا ما علنا نزيد به من ضحكنا ، الا ان ثمة شيئا ما اصم كان يتراكم في الفضاء بدلا من ذلك ، وان كان صفاؤه ، وبدون اية علاقة لما يدور هنا ، قد تكلس في هذه الاثناء ، وتكدر ، وشاشات بيض ، ضبابيات او ربما ارتعاشات ابخرة متراكمة ، كانت تتقاطر وتتعمد في زرقة صافية اكثر فاكثر ، وكان واضحا ان المطر سيعود ويهطل غدا او بعد غد .

حاول شموليك ، الذي كان لا يزال يندب شهره الذي فر ، ان يدير حديثا خاصا جدا ورفاقيا مع غابي ، فقال وهو يدير ظهره الينا صانعا له ولصاحبه غابي دائرة مغلقة ومنفردة ، وينهش من لحم العلبة :

« الا تعجبك ؟ »

« من ؟ » زفر غابي زرقة جافة .

« دفقلي - الا تجدها ، كيف اصفها ، هيا ، انها ، هكذا ، فلنقل انها لا تشبه - سائر - الفتيات ، ما رأيك ؟ »

« بل تشبه ونصف » ، قال غابي .

« لا . ليس هذا ما اعنيه » ، قال شموليك . « اتعتقد انها مغرورة ؟ »

« اطلاقا لا » ، قال غابي . « وربما كان صحيحا . ما الذي يهمني » .

« الا يهكم ؟ » ، استغرب شموليك ، « أما أنا فلي بالذات رغبة في ان اعرفها قليلا . »

« تجنّبها » ، تدخل ارييه ، « كي لا يحدث لك معها ما حدث مع ذلك الحصان ! » .

كنا جميعا نبتسم ، ونأكل ، نهديء جوعنا ، ونمرر الوقت ، وقد بدأنا نتدبر امرنا بسهولة . وان لم تخني اذني فان قارب « الى البيت » كان قد تردد ذكره مرة هنا واخرى هناك (وقلبك يطير بك فرحا الى امكانية رائعة كتلك للحل والخلاص :) . وحين كنا قد بدأنا نلتهم البرتقال ونتعطر بعصيره القاطر كان غابي يستجوب مويشي من خلال فمه المملوء - عما تبقى لنا هنا نفعله ، شارحا له ما هي الفوائد التي ستعود علينا جميعا ، اذا ما انتهينا الآن وعدنا ، أما ما تبقى من عمل فان الآخرين سيتولون امره ، ومع هذا اضاف مغمغا - فان المدفع الرشاش في حاجة للصيانة ايضا ، الا ان مويشي لم يستجب الى هذا الاغراء وقال لنا :

« قبل كل شيء علينا ان نفحص جميع العرب الذين جمعوا تحت بدقة ، لتعميـز الشباب المشتبه بهم من بينهم . وثانياً فان الشاحنات ستاتي لكي تشحنهم جميعا ونبقى القرية فارغة ، اما ثالثاً فعلياً ان ننتهي من الحرق والنسف . وبعد ذلك نذهب الى البيت » .

كانت امعائي قد تقلصت لسبب ما وعقت الاكل . شعرت كيف انني ارثي لنفسي وللتجارب التي تواجهني . لا ادري ما الذي احس به الآخرون . انتظرت غايي بفارغ الصبر عليه يستمر في تدمره كعادته ، كي اصل الى ما كنت اسعى اليه كعادتي ، وبالفعل ، فانه لم يقف مكتوف اليدين . وسرعان ما راح يتدمر مما كنا قد فعلناه اليوم وما الذي كان قد فعله الآخرون ، كم مشينا نحن ، وكم مشوا هم . كم سحبنا المدفع الرشاش وصناديق الذخيرة ، وكم جلسوا تحت الجميزة يضيعون الوقت عبثاً . كما وادعى بأنه يحق لنا ان نعود قبلهم ولو مرة واحدة ، وانهم يركبوننا دائماً ، واشياء اخرى كثيرة . وهذا ما طرح وفسر رغبتى المكبوتة والمتحفزة اكثر فاكثراً لان اقوم وانسحب من هنا بسرعة ، قبل ان تبدأ العملية وتتجسد بالفعل . فاذا كان لا بد من التلوث فليوث الآخرون ايديهم . اما انا فلا استطيع . وبكل وضوح . الا انه سرعان ما انطلق في داخلي صوت آخر ينشد : يا ايها النفس الجميلة ، يا ايها النفس الجميلة ، يا ايها النفس الجميلة ، باستفزاز متزايد وبترنيمة للنفس الوديعه التي تترك العمل الخسيس للآخرين ، لتلك التي تغمض عينيها بورع ، وتحنيهما جانبا كي تنقذ نفسها مما قد يغضبها . - كذا طاهر العينين عن رؤية السوء انت ، والى الظلم لا تستطيع ان تنظر . وكنت كارها لكل وجودي برمته .

الا ان مويشي لم يجد ما يعقب به على خطاب غايي كله باكثر مما قاله باختصار :

« هيا أنتهى ! » .

جمعنا ادواتنا وانصردنا الى الجميزة - المعتقل . ترددت محاسبا نفسي ، ثم تشجعت وقلت لمويشي :

« الا بد لنا من طردهم ؟ ما الذي يستطيع هؤلاء فعله بعد : لمن يسبون ؟ فالشباب على اية حال . . . ما الفائدة ؟ » .

« آه ! » قال لي مويشي متوددا ، « هذا ما هو مكتوب في امر القتال » .

« ولكن ذلك خطأ » ، ادعيت ، ولم اعرف ايا من بين كل الادعاءات والخطب المتخبطه في داخلي اطرحها امامه كاثبات قاطع ، ولذلك عدت وكررت : « انه لخطأ حقا ! » .

« ما الذي تريده اذن ؟ » قال مويشي وهز كتفه وتركني . كنت اختار ، لاسباب شتى ، وليست جميعها صلفا ان اصمت انا ايضا ، ولكنني ما دمت قد بدأت ، وما دام يهودا يسير الى جانبي ، فقد أنهلت عليه سائلا :

« اي حاجة لنا في طردهم ؟ » .

« قطعاً » ، قال يهودا ، « ما الذي تفعله بهم ؟ اتكرس لهم سرية من الحرس ؟ » .

« اي اذى يستطيع هؤلاء الآن الحاقه ؟ » .

« يستطيعون واي استطاعة • فعندما يبدأون بزرع الالغام في الطريق لك • وينهبون المستوطنات ، وفي كل فرصة تلوح لهم - فانك ستشعر عندها بهم جيدا » •

- « هؤلاء ؟ » •

- « لم لا ؟ اهم اصغر مما يجب ، ام انهم ابرياء اكثر مما يجب ؟ وعلاوة على ذلك ، فلا يد وان يكون بينهم صعلوكان او ثلاثة دائما ، وربما اكثر ، لا تعرف بوجودهم ايضا » •

- « انها مجرد تخمينات » ، قلت •

- « ماذا تقترح اذن ؟ » قال يهودا •

- « هذا ما لا اعرفه بعد ٠٠٠ » •

- « اذا كنت لا تعرف - فاصمت اذن » ، قال يهودا •

ويبدو ان هذه النصيحة كانت تجمل بي منذ البداية • ولكنني كنت مثقلا بما اقوله • وكنت قد نطقت ولم اعرف كيف اسكت • ولانه لم يكن ثمة من اشتكيه امري - شرعت بالتشكي لنفسى احدتها : « هي ذي الحرب ! احرب هي ام ليست حربا ؟ فان حربسا كانت ففي الحرب اذن كما هو في الحرب (صوت ثان : حرب ؟ ضد من ، اضد هؤلاء؟) - الصوت الاول (مواصلا كمن لم يسمع شيئا) : الابرياء الكاملون بالقطع ليسوا هنا (اذن اين هم ؟) • حتى وان كانت نيتنا سليمة ومستقيمة وصادقة - فلا يمكن لك ان تدخل الماء وتخرج دون ان تتبلل (عجب عجاب !) • ان تدرك وتوافق بانه يتحتم علينا ان نفعل - شيئا ، وان نقوم ونغلظ القلب ، ونرتكب من الافعال ما هب ودب - فهذا شيء آخر دائما ٠٠٠ ومن ثم ، من ذا الذي ينبغي عليه ان يجهد نفسه ويغلظ قلبه ؟ - فهو بالطبع غليظ ، لا ابالي - لا ابالي • وقفة قصيرة • وعلى الفور ، وبحق الاعتذار الذي يتحول الى هجوم مضاد : اذن فان تلك القرى التي اخذناها بعصف الحرب لم تكن شيئا آخر ؟ او اولئك الذين فروا وخوف خفي يلاحقهم ؟ او قرى اللصوص التي ما نهاية سدوم بكثيرة عليها - لم تكن كلها سوى شيء آخر تماما ! • ولكن ليس هذا ٠٠٠ ليس هذا ٠٠٠ فان ثمة شيئا لا يزال مبهما • نوع من الشعور السيء فقط • كما لو كانوا يفرضون عليك كابوسا مزعجا ، ولا يدعونك تستيقظ • انك مشوش بعدة اصوات • انك لا تعرف ماذا • قد يكون ذلك ان تنهض ، ان تنهض وتعرض ؟ او ربما كان ذلك ، العكس ، ان ترى ، وتوجد ، وتحس حتى اللزيف ، كي • كي ماذا ؟ يمر الوقت • الوقت يمر • يا ابن آدم (وقفة عاطفية) • انك لخلوق ضعيف • (وقفة اخرى) • فلتبر ولتتفجر • (ايتها النفس الجميلة • ايتها النفس الجميلة • ايتها النفس الجميلة !) •

كان الازدحام قد ازاد تحت الجميزة في تلك الاثناء • كان قد اصبح في الدائيرة عشرات كثيرة ، ربما مئة شخص • فاذا ما وقفت على الحياد ونظرت متغاضيا عن الظروف ، فبماكانك ان تخطيء بكل سهولة ، وتتذكر ايام السوق الريفية • او ايام المولد النبوي ، او ربما الاحتفال بنبي ما او شيخ ، حين كان الجميع يتجهرون بالازدحام نفسه ، تحت كل شجرة فارعة ، وفي كل ظل ، وينتظرون بحشد محتفل ثقيل الحركة ، كالعجين المتخثر ، لا يبالي بالذباب ولا بالروائح الكريهة ولا بالعرق المتصيب ولا بالازدحام والضجيج ، شريطة ان يحدث ذلك الشيء الاحتفالي الذي ينتظرونه - غير

ان هذا الصمت لم يكن ليترك اي مجال لمثل هذا الخطأ ، حتى وان كان يسمع ، في الوقت الحاضر على الاقل ، كما لو كان طنين خلية من النحل ، او ازيز مخلوقات خفية ، يعلو ويخفت في ظل الشجرة الكبيرة . شخص ، ذو شارب غليظ ، كان يجلس في طسرف الدائرة ويلف بيديه القرويتين السمرالوين وبهدوء ، لفافة ، جاعلا من حجره ورشة صغيرة لهذا الغرض ، كان يجمع أوراق التبغ ويفركها ثم يحشوها في اللفافة جيّدا ضاريا عليها من كلا طرفيها ، ثم ينهمك بالقداحة الصوانية يستقدحها الى ان اورت له في النهاية شرارة صغيرة ، او قدما بالنفخ عليها وهو يخفيها بين يديه ، ثم اشعل اللفافة وراح ينفث مستمتعا ، دخانا عفنا ، مظهرا به فضلات حرية تبقت ، واملا بالمستقبل ، شيء من « يكسون خيرا » ، والذي يوجد دائما من يذكيه بقوة ارادة هادفة ، سرعان ما يؤمن بها كما لو كانت البداية للخلاص ، بل وينقلها الى جيرانه بالايمنان الخالص - هذه الميزة الجميلة ، التي غدت الآن بائسة جدا وساذجة جدا ما دمت (كما لو كنت ، الاله الذي في السموات) ، تعرف ما لا يعرفه بعد .

والى جانبه ، كان ثمة رجل آخر ، يجلس ويخطط باصبعه على الرمل خطوطا متقاطعة ومتواربة ، ومتداورة ، ويمرر اصبعه في الطرق الرملية بشرود نفسي ما هو في الواقع سوى تركيز نفسي آخر . وليس من الصعب قراءة اقوال انسان مقهور ، فيما كان قد خطط .

لعل واحدا يقوم من بينهم ويقول : اننا لن نتحرك من هنا ، يا ايها القرويون اصمدوا وكنوا رجالا .

تجولت بعيني هنا وهناك . لم ارتح . من اين اطل في الرمي بانني متهم . وما الذي بدأ يضغط علي كي اعتذر ؟ كان الهدوء الذي يخيم على مشية رفاقي لا يزيديني الا محنة . احقا انهم لا يعرفون ؟ ام انهم يتظاهرون بانهم لا يعرفون ماذا ؟ ولو انني قلت لهم فانهم لن يصدقوني ، ناهيك عن انني لا اعرف حقا ما الذي اقله ، بل ليتني اعرف قول ما الذي بي فقط . قلق هو الذي بي . ثمة شيء ينقصني ، وسيلة ، تشبث بها . تشبثت باولئك الـ « ميعوثين في مهمات معادية ، الامجاد ، المذكورين في امر القتال . استعرضت امام ناظري كل تلك المصائب والمآسي التي جرّها العرب علينا . رددت اسماء الخليل وصفد وبئر طوبيا وخولدا . تشبثت بالضرورة ، وهي ضرورة مؤقتة ، سنتنفي مع الايام هي الاخرى ، عندما يستتب كل شيء . فعدت وتاملت ذلك الجمع الهامس هنا على قدمي ، همسة خافتة ، بريئة وحزينة - ولم ارتح . تمنيت لو ان شيئا مسّا يحدث فيممكنني ويقذفني بعيدا عن كل ذلك فلا ارى كيف سيكون .

وفي هذه اللحظة بالذات طلب الي مويشي ان اعطي الجيب مع عامل الالاسكي ، ومع شلومو ويهودا ، كي نخرج ونستطلع المنطقة . من السهل فهم كيف انني انطلقت وكيف اننا ابتعدنا عن مكاننا (والعيون كلها ترافق ما نفعله) بسرعة واندفاع على الرغم من الازقة والمنحنيات . خربة خزعة القدرة هذه . هذه الحرب . وكل الاشياء .

تسلقنا سفح تلة ، لم تر حتى في احلامها شيئا سيارا فوقها ، بمغامرة مدوخة ، بينما كان المنحدر يفلت من تحت العجلات ، التي كانت تعود وتتشبث بحصاه المنزلق في اللحظة نفسها التي كان فيها الجيب ينطلق ويندفع كطرف العين ، ويتقد بكامل قوته ، وبرغبسة تياهة الادراك بالعنقوان للصرع ، وصل الجيب الى قمة التل بسرعة ، حيث اخذنا هناك مكانا لنا نشرف منه على البراري في الجانب الآخر .

نظرة اولى واذا بالارض الرحيبة نتمطى امامك ، مبرزة كل خطوطها المتناسقة ، المتللة المعقرة بخصب ريان ، بذور اسطح ، وبريح خفيفة كانت قد هبت لينا في هذه الاثنساء هبوب حسن ومرتعة الى حد الاحساس بالتنوق واستثارة الشهوة . فاضفي على الكل حينئذ ابعاد جديدة ، افاق فتحت واخرى اغلقت ، وبدا وكان شيئا ما كان قد لقيه النسيان تقريبا ، مع انه في الظاهر صلب ويمكن الاتكاء عليه . حتى اللحظة التالية التي يتجسد فيها وجوده - واذا بمربعات الحقول ، المحروثة والمورقة ، والبساتين الظليلة ، والوشائع الشجرية التي تقطع السهل قوالب مسترخية وممتدة ، والتلال الملونة التي تخفي وتكشف افاقا لازوردية بعيدة ، قد خيم عليها كلها اسي اليتم ولغها الحداد . حقول لن تحصد بعد وكروم لن تروى وسبل تقفر . كما الضياع كانت كلها كما العبت . كتشابك العليق والاشواك فوق كل شيء ، وكصفرة اليباب ونهيق الخواء . واذا بتلك العيون المتهمة تحديق من قلب الحقول بك ، انه صمت النظرة المتهمة ، تماما كذلك التي للحيوانات المهانة ، تحديق بك وتصحبك ولا مقر .

ومن بعيد رأينا بعد ذلك ، فوق احدى التلال التي تشقها الطريق الترابية الكبيرة ، عدة شاحنات تتقدم منا ببطء ، تزحف كخنافس عمياء ، وتصارع حفر الطريق ولا صوت يسمع لها بعد . ويبدو ان ما كنت قد فكرت به ارتسم على وجهي دون ان ادري ، اذ ان عامل اللاسلكي التفت الي في نفس الوقت الذي كان يتصل فيه ، قائلا :

- « انك سيء المزاج اليوم ، ما الخير ؟ » .

- « لست سيء المزاج اليوم ، وليس من خبر » ، اجبته بنغمة لا تذكر في الواقع بنغمة ازواج خراف تجتر عند الغروب ، وان كنت لا تكترث منها هي تصرخ - هل تود الضرب ، تعال فاليك الضربات لك ! بالحماسة نفسها التي يهين شخص ما رفيقه بسبب كراهيته لوجهه الذي وشى بقلبه .

انحدرنا من فوق التل ، على شفا هاوية (كانت قد تملقت هواجسي) الى احد الكروم ، وبينما كنا نغوص في الاثلام الطينية الموحلة ، مندفعين الى الامام والى الخلف نشق طريقنا ، اصيب يهودا ، الذي نزل من الجيب يدفعه ، بكتلة طينية كثيفة ، فعاد الينا ملطخا كله وراشحا ومرشوشا ، وهو يشتم السائق والاعيبه التي لم تعد الاعيب ، غاضبا من ضحكنا وسخريتنا ومتوعدا بانه سوف يرينا ما الذي سيفعله بنا ، ولم يهدأ غضبه حتى عندما خرجنا وسرنا اخيرا في الطريق الترابية ، بل ولا عندما رحنا نعزيزه بأن كل شيء سرعان ما سيزول مجرد ان نجلس ولن يبقى اي اثر ، اذ ان الوحل لپس بوسخ وانما هو تراب رطب ليس الا .

تجولنا من بعد بالمسارب اللاهثة ، تسكعنا بين الوشائع المكتظة كقطيع مذعور ، قطعنا ممرات حقول شعرية - اسفنجية مفتوحة ، كانت الغلال تنبت على جوانبها كما في كسل عام ، تمشطها الريح امواج ظلال واطئة ، متدفقة سائرة باستمرار كعادتها . اما اننا فقد تخيلت ان ثمة كف ليد تخط عليها عنوة « لن تحصد » ، ومرت على الحقل كلسه وما جاوره بسرعة ، تتخطى البور والمحروث ، واخفتت في التلال واجمة . تقصينا كل مشروع زراعة في القرية وحقولها ، فادركنا اختيارهم لاماكن الكروم ، وفهمنا دوافعهم للحواكير ، وبساتين الخضار ، كما واتضح لنا المنطق في حقول الفلاحة والكراب ، البور منها والمحروث ، لقد كان كل شيء واضحا جدا (مع انه كان من الممكن التخطيط لما هو افضل في رأينا ، وقد شرعنا في ذلك دونما قصد منا ، كل يخطط لنفسه) - ولا ينقصها

سوى ان ياتوا ويواصلوا اعمالهم فقط ، قسائم كانت قد بورت واخرى زرعت بحساب ، وكل شيء كان متوقعا ومحسوبا بحذر ، لقد قرأوا السحب وراقبوا الريح ، وربما توقعوا القحط ، والسناج ، والبيرقان ، وحتى فئران الصيف ، بل تدارسوا الاسعار التي تعلقو والتي تنخفض ، واذا ما ضربت هذه الاسعار من هنا ، كيف تعدل من هناك ، فاذا ما خسرت الحبوب ، يربح البصل - اللهم ، بالطبع ، الا الحساب الوحيد الذي لم يكن بالحسبان ، والذي يسرح الآن بالذات ويمرح ، ويغشى المزارع الشاسعة كي يرثها .

ولان السبل كلها كانت موحلة ، ولاننا كنا قد جينا اطراف الحقول كلها (لم يظهر رجل واحد . سوى مرة فوق تلة مجاورة ، حين رأينا عدة اشخاص ، شردتهم طلاقة واحدة وكان الارض كانت قد انشقت وابتلعتهم) ، عدنا الى الطريق الترابية الكبيرة متأخرين جدا ، وحين خرجنا اليها كانت اربع شاحنات كبيرة تنتظر في رتل واحد، امام بركة ماء مستطيلة ، كانت قد أجهت العبث فغفت في منتصف الطريق تماما ، دون ان تترك اي ممر سواء الى هنا او هنا ، بينما وقف السائقون ومساعدوهم على ضفافها يتصايحون البيانات والتصريحات مع الجانب الاخر ، وبغض النظر عن العبارات المختلفة الاخرى قالوا ايضا بانهم يكتفون بما غاصوه حتى الان - ومن بعد نهاية العالم! وانه لن يضير - في رأيهم - اي اعرابي في العالم اذا ما اجهد رجله الناعمتين واتى اليهم بنفسه ، وليقل شكرا على ذلك ! وفي المقابل كان ملازمنا يقف في الناحية الثانية زاعقا بما يقوله من ناحيته ، الا انه كان لا يستطيع اقناعهم ويبدو انه كان هو الخاسر . قاعاؤه بان ارضية المياه الراكدة ليست موحلة ، لم يقنع احدا بعد ان كانوا قد كفروا بوجود اية ارضية تحت الماء . ولذلك فقد وقع الاختيار على سيارتنا الجيب لان تكون رائد - تجارب ، مقترحين علينا ان نقطع الماء بسرعة وكان شيئا لم يكن كي لا نفوس ، ورويدا رويدا كذلك وكان شيئا لم يكن كي لا نفوس . وبالطبع وفي وسط البركة بالضبط، ولسبب ما ، انطقات السيارة ، ولا فرق بعد ذلك ما اذا كانت قد عادت بعد لحظة وادبرت ثم قطعت البركة بسهولة وكان شيئا لم يكن (وهي تفج امواجا قذرة مزبدة) ، باشتناء خرطوم مياه عكره كان قد وجد طريقه الى ما كان لا يزال جافا من ثياب يهودا بالذات (والمسكين وصل به غضبه الى حد السكوت المنذر شرا ، والمخجل حتى الخزي) - والامر لم يحسم ، فقد رفض السائقون الاستماع ، واصلوا انهم سيستديرون بشاحناتهم ، بشتى الحيل ، وفي الحال ، استعدادا للعودة في الطريق الترابي ، اما عربنا فما علينا الا ان نحضرهم الى هنا عبر الثغرة التي في السياج من فوق ، ولم يكن الوقت الطويل جدا الذي اضعناه الا عبثا ، اذ هذا ما كانوا قد طالبوا به منذ البداية . وعندما صعد ملازمنا الاول الجيب عائدا الى القرية ، بينما كلفنا نحن بتوسيع الثغرة واعداد الطريق .

وبالطبع لم نحرك ساكنا ، اللهم عدا اثنين او ثلاثة الواح من الصبير كنا قد دسناها باعقب البنادق صدفة ، وجلسنا بدلا من ذلك نشاهد صراع السائقين مع سياراتهم الهوجاء في الطريق الضيق ، وندرس كل حركة لها بمعرفة مهنية ، وبادراك فني ودخان سجاثر . اما يهودا فقد أنتقل الى الجانب الاخر ، جانب الشمس ، ووقف هناك يحدق بالشمس بنظرات مخيبة للآمال يفكر في جيروتها مليا ، وبالتالي لم نشعر كيف تقدمت منا فجأة ، جماعات العرب الاولى ، وطلعت علينا برائحة ثيابها الخاصة . فانقطع ضحكنا حالا ، وتقنعنا بوجوه فضولية ووجوه القائمين بواجبهم ، ومع هذا ، يخيل الآن الي ، أننا كنا نشعر بأن ثمة شيئا اكبر بكثير مما كنا قد توقعناه ان يكون ، كان قد بدأ . لا ادري ما اذا كانوا قد قالوا لهم ، قبل ان يخرجوا ما الذي ينتظرهم ، والى اين يسوقونهم . ومهما

يكن ، فقد كان منظرهم ومشيتهم لا يشهدان الا على قطيع خائف مذعن هامس متأوه ، ولا يحسن السؤال . ومع ذلك ، فقد كان من بينهم من يتوقع كل شر ، بل وربما كان من بينهم من يساوره الشك في القلب ، والغثيان المعثور في الاعماق ، دون ان يتكلم - ان ما ذلك الا اقتياد الى الاعدام .

كانت المجموعة الاولى قد توقفت أمام الشجرة التي في السياج . من يدري ، فربما كانت قطعة الارض هذه لاحدهم . وان هذا المكان المجرد في اعيننا ، ما هو الا مكان محدد لديهم قريب من شيء ما وبعيد عن شيء ما ، وله من المعاني اكثر مما هو مجرد طريق ترابي كبير معين . علقوا بالشاحنات عيوننا بدأت تدرك ما الذي كان قد حل بهم ، فالتفتوا اليها ، يتلمسون أيا من بيننا جميعا يمكن التحدث اليه ، او ربما يتلمسون فيه الرجاء . وسرعان ما انبرى من بينهم أحد الرجال بقمبازه المقلّم وحزامه الجلدي اللامع الازيم ، وهو يرفع يسراه المعقوفة : اصابع رجل عامل تعطل عن العمل ، ويسعل قائلاً شيئاً ما . فصرخ بهم في الحال احدنا صوتاً ، لا اعرف في الواقع كيف كان ، الا انه سمع حساداً وصاحبنا اكثر مما كان ينبغي : « يا لله ، يا لله ! » والكتلة الأدمية المجهولة تلك سرعان ما تحركت وانحنت في الشجرة ، تعبر الواحد تلو الآخر ، يتابعون خطوهم في طابور واحد صاعدين ، في محاذاة سياج الصبار الواطيء ، ثم عادوا وخرجوا من الناحية الاخرى للبركة بالقرب من الشاحنة الاولى ، التي كان بابها الخلفي قد انزل .

كان السائق ومساعدته قد وقفا هناك يستحاثان الصاعدين ، فيمدان يدا لهذا ويذا لذلك يساعدهن بدفعة ، يقولان كلمة لفلان ، يعقبان على ذلك السمين ، وذاك القدر الكبير قطعاً ، او ذيك العجوز الثمانياني الآخر او التسعيني قطعاً . والغريب ان احدا منهم لم يحتج ولم يعترض . بل تسلقوا مستسلمين للقدر صاعدين وتراصوا في الشاحنة .

- « هوذا ! » كان السائق راضياً .

- « عدهم ، كم هم لديك هناك ؟ صاحوا اليه من الجانب الآخر للبركة .

- « كيف ذلك ، انهم لا يأخذون اي شيء معهم ؟ » سأل السائق .

- « اي شيء ؟ » سألوه .

- « اي متاع ، حرامات ، لست ادري ! » .

- « لا امتعة ، لا شيء ، فلتأخذهم من هنا وليذهبوا الى الجحيم » ، اجابوه من جانبينا . ومرة اخرى كان هنالك ما يبدو شيئاً وخاطئاً ، الا ان احدا لم يتدخل .

وهنا توجه اليها عربي من فوق الشاحنة فجاء ، ذلك المقلّم اللامع الازيم يخاطبنا :

- « يا خراجا ! (وصوته يشهد من خلال حديثه) - يا خراجات » ، مصححاً لمصيغة الجمع ، كي يخاطب الجميع ، ثم شرع في الحديث متكلماً دون انقطاع ، مؤكداً ، شارحاً ، وكأنه يقرأ من الكتب المقدسة ، وبشيء من حزم الواثق ببراءته ويستطيع اثبات ذلك ، الا اننا لم نفهم الكثير مما قاله . وكانت العينات والحاءات الحادة في مرافعته ، تنهال علينا غريبة كما لو كانت مضخمة واصواتاً قائمة بحد ذاتها . وكان سكوتنا قد شجعه فراح يرفع يسراه دعماً لدعواه . ويبدو ان هممة بالموافقة كانت تتردد داخل الشاحنة ، بينما راحت العيون تترصد وقع الصدق في كلامه علينا . الا ان المجموعة

الثانية كانت قد تقدمت واقتربت فلم نوليه انتباها بعد .

كان هؤلاء الذين اطلوا يتقدمون في طوابير ، وقد صدهم مشهد سابقهم داخل الشاحنة فتوقفوا عن السير . وكان في اخر الطابور ثمة نساء كذلك فانطلق من بينهن عندها صوت ينتحب . (اقشعر جلدي) . بدا وكأن شيئاً ما سيحدث هذه المرة . من بي شيخان ، كانا يغدان السير ويتمتمان ، ولا ادري اكل الى صاحبه ام كل الى نفسه ، محاولان التوقف امام الجيب وقد بدا لهما مجلس جاه يرفعان اليه شكواهما ، الا انهم كشوهما هناك بالايدي لكي يتابعا طريقهما ويعبران : « يا لله ، يا لله ، فتابعا طريقهما وعبرا . الا انهما بدلا من ان يعبرا الشجرة ، واصلا السير في بركة الماء مباحشرة يخوضان في الماء باقدامهما الحافية وهما يرفعان ذليبي ثوبيهما بأيديهما ، كما لو لم يكن العبور في بركة ماء بشيء خاص . فسار الآخرون في اثرهما يخوضون في الماء معتقدين ان هذي هي الطريق التي يتوجب عليهم سلوكها . وكان ثمة من انحنى من بينهم متنهدا ، ثم خلع نعليه من قدميه وراح يقطع الماء . لن اعرف لماذا بدا المشهد بالسبح الاذلال والاحتقار . كالحوانات ، فكرت ، كالحوانات . ولكن عندما مرت بنا النساء مالت علينا احداهن وتعلقت بكم قميص شلومو وبكت امامه مستعطفة . نفض شلومو يده يخلصها منها ، وراح يتلفت حوله يبحث عن مخرج ، او ربما ، مستسما معاملتها برفق . الا ان يهودا الذي كان يقف هناك ناسيا ثيابه الملطخة ، صرخ بها بقسوة : « يالله ، يالله ، انت ايضا ! » . اما هي فقد ارتعبت وذهبت ، وشلومو يعزي النفس ، ولا ادري اكان يشرح ، ام كان يعلل :

– « ما الذي كانت ستفعله هناك في القرية وحدها ؟ » .

داهمتنا بعد ذلك امرأة في حذنها رضية هزيلة ، تتأرجح كأداة لا نفع فيها ، طفلة غبراء اللون ، نحيلة ، عليلة ومتقزمة . وكانت امها ترفعها باسمالها وترقصها امامنا متوسلة ، بلهجة ليست هي بالساخرة ولا هي بالحاقدة ، كما ولا بالبكاء المجنون هي ، وانما هي ، قد تكون ، كلها معا : « اتريدونها ؟ خذوها ، خذوها لكم ! » . تجهمننا بامتعاض ، فرأت في ذلك ربما نجاحا فتابعت ترقص ذلك المخلوق التعيس ، المقمط بالاسمال الملطخة بالغاائط ، في احدي يديها ، وترتبت بالآخري على صدرها : « ها هي خذوها – اطعموها خبزاً ، خذوها لكم ! » الى ان حزم احدنا امره وصرخ بها : « يالله ، يالله » ، وهو يرفع يده – لا اعرف لماذا – فتراجعت بينهن ضاحكة وياكية تغوص فسي البركة وهي لا تزال ترقص طفلتها بين يديها ، تضحك حيناً وتبكي آخر .

– « انهم كالحوانات ! » قال لنا يهودا شارحا . فلم نعتب بشيء .

جمعوا النساء كلهن في شاحنة اخرى وهن يصرخن وينتجن ، فلم يحسد احد منا اولئك المكلفين بهن . وكان ثمة من يقف من الشباب بالقرب من الشاحنة صارخا بالمقابل بأنه لا ينبغي عليهن ان ينتجن ما داموا لا يفعلون بهن شيئاً ، بل يأخذونهن الى ازواجهن . وسواء كانت لغته العربية غير مفهومة ، او ان تفسيراته لم تقبل ، فان العويل والبكاء كانا قد ازدادا ، وانهلن عليه كلهن ، وقد فتح الباب لهن ، بسبع وسبعين شكوى واحتجاج وتهمة وتوسل ورجاء ، الى ان تراجع مرتبكا ، ولم ينقذه من ورطته هذه غير الصرخة التي اطلقها احدنا عليهن يسكتهن .

مر بنا بعد ذلك عدة رجال آخرين دون ان ينبسوا ببنت شفة ودون ان ينظروا الينا .

وكان منظرهم قد جعلنا نشعر بأننا ما نحن الا متسكعين وتافهين ومجرد صعاليك سفلة . ثم اعقبهم أعرج يمر بنا وهو يدمغ الرمل الرطب برأس رجله الخشبية وعكازيه ثقوباً . تضاحك الرجل ، لسبب ما ، لنا كما لو كان يعتذر ، وغاص يتقافز في البركة ، في نفس اللحظة التي قفزت فيها الفكرة لدينا بأنه كان ينبغي علينا في الواقع ان نقترح عليه العبور من حول البركة ، او على العموم ، ابقاءه هنا . قزم اخر مر ، وكان قد هم ، عندما وصلنا ، بالصراخ ، ولكنه راح يتنفس بصعوبة وهو يبتلع ريقه ، لكي لا يبصقه علينا ، او لكي يفسح ، ربما ، مجالاً لصرخته ، ولكنه اكتفى بهزة قوية من يديه تفسر - تنذر - تطالب - تطلب ، وتنهد عميقاً ، ثم عاد وتنهد ومر . تقدم من ثم اربعة عمي ، كل يسده على كتف سابقه ، وبالاخرى تلمسوا الطريق جاهدين بعضهم ، محاجرهم تشخص الى الاعلى نزراً ، واكثر مما ينبغي جانباً ، وكان اذانهم هي التي تقودهم . وبلاضافة الى اصغاء العمي الخاص ، وخوف الاصطدام في الخطوة المقبلة ، كان ثمة خوف كبير وعم يمسك عليهم دون ان يعرفوا الى اين يذهبون وما الذي هناك في المكان الذاهبين اليه ، وما الذي يفعله الآخرون . تلمسوا وتلمسوا (أعجب كيف اهتدى واحدهم الى الآخر في جماعة واحدة) ، حين وصلوا البركة تقدم منهم شخص ما وامسك بيد الاول ، الذي هز رأسه العثنوني مستجيباً له بجهد اصغائي متزايد ، وقال لهم : « اقمسو هون » . فتراجعوا الى الخلف حتى حاجز الطريق واقعدوا حيث وقفوا ، قادحين زناد افكارهم لادراك ما الذي يحدث . ومر عجز اخر محدودب حتى الانحاء فأجلسوه الى جانب العميان . عمنا جو من التسول ، والصيد والصرع ، ولم يكن ينقصنا سوى النجيب ورحمة تخلصنا من الموت .

- « اي قرف هنا ! » قال شلومو .

- « فليموتوا افضل لهم ! » قال يهودا .

- « ما اكثر ما لديهم من العمي والعرج في هذه القرية ! » ، قال شلومو .

- « لقد فر الآخرون ، وتركوهم لنا » ، قال يهودا . « ولكن الحبل لا يد لاحق بالدلو الان ، فيعودون الى مالكيهم » .

- « ما لنا ولكل هذه الورطة » ، اندفعت الكلمات من فمي بلهجة احتجاجية اكثر مما أملت .

- « صحيح » ، وافقني شلومو ، « عشر معارك افضل لي من هذه الورطة » .

- « ما بكما ؟ » دمدم يهودا ، وهو يكشط القطع الوحلية المتجمدة بأظفاره . « ما الذي فعله بهم ؟ انقلتهم ؟ كل ما في الامر اننا ننقلهم الى مناطقهم . فليجلسوا هناك اذن وينتظروا . وهذا جميل جداً من جانبنا . اذ لا يوجد مكان واحد في العالم حيث يعاملونهم فيه هكذا . ويغض النظر عن ذلك ، فان احدا لم يطلب اليهم بأن يبدأوا المشاكل » . تريث قليلاً ثم اضاف قائلاً بعد ان فكر ملياً : « ما الذي سيحل بهم وما الذي سيسببون ؟ كان عليهم ان يفكروا في ذلك قبل ان يبدأوا ! » .

- « بدأوا ماذا ؟ » قلت .

- « فلتكف أنت عن جعل نفسك صديقاً كبيراً » ، قال يهودا بغضب شديد . « لقد اشعنا النظام الان والهدوء هنا في هذه المنطقة » .

وكان منظرهم قد جعلنا نشعر بأننا ما نحن الا متسكعين وتافهين ومجرد صعاليك سفلة .
ثم اعقبهم أعرج يمر بنا وهو يدمغ الرمل الرطب برأس رجله الخشبية وعكازيه ثقوبيا .
تضاحك الرجل ، لسبب ما ، لنا كما لو كان يعتذر ، وغاص يتقافز في البركة ، في نفس
اللحظة التي قفزت فيها الفكرة لدينا بأنه كان ينبغي علينا في الواقع ان نقترح عليسه
العبور من حول البركة ، او على العموم ، ابقاءه هنا . قزم اخر مر ، وكان قد هم ، عندما
وصلنا ، بالصراخ ، ولكنه راح يتنفس بصعوبة وهو يبتلع ريقه ، لكي لا يبصقه علينا ، او
لكي يفسح ، ربما ، مجالاً لصرخته ، ولكنه اكتفى بهزة قوية من يديه تفسر - تنسدر -
تطالب - تطلب ، وتنهذ عميقا ، ثم عاد وتنهذ ومر . تقدم من ثم اربعة عمي ، كل يده
على كتف سابقه ، وبالاخرى تلمسوا الطريق جاھدين بعضيهم ، محارهم تشخص الى
الاعلى نذرا ، واكثر مما ينبغي جانبا ، وكان آذانهم هي التي تقودهم . وبالإضافة الى
اصغاء العمي الخاص ، وخوف الاصطدام في الخطوة المقبلة ، كان ثمة خوف كبير وعام
ينسكب عليهم دون ان يعرفوا الى اين يذهبون وما الذي هناك في المكان الداهيين اليه ،
وما الذي يفعله الآخرون . تلمسوا وتلمسوا (أعجب كيف اهتدى واحدهم الى الآخر في
جماعة واحدة) ، حين وصلوا البركة تقدم منهم شخص ما وامسك بيد الاول ، الذي هز
رأسه العثوني مستجيبا له بجهد اصغائي متزايد ، وقال لهم : « أقعدو هون » .
فتراجعوا الى الخلف حتى حاجز الطريق واقعدوا حيث وقفوا ، قادحين زناد افكارهم
لاذراك ما الذي يحدث . ومر عجوز اخر محدودب حتى الانحناء فأجلسوه الى جانب
العميان . عنما جو من التسول ، والصديد والصرع ، ولم يكن ينقصنا سوى النحيب
ورحمة تخلصنا من الموت .

- « اي قرف هنا ! » قال شلومو .

- « فليموتوا افضل لهم ! » قال يهودا .

- « ما اكثر ما لديهم من العمي والعرج في هذه القرية ! » ، قال شلومو .

- « لقد فر الآخرون ، وتركوهم لنا » ، قال يهودا . « ولكن الحبل لا بد لاحق بالدلو
الآن ، فيعودون الى مالكيهم » .

- « ما لنا ولكل هذه الورطة » ، اندفعت الكلمات من فمي بلهجة احتجاجية اكثر مما
أملت .

- « صحيح » ، وافقني شلومو ، « عشر معارك افضل لي من هذه الورطة » .

- « ما بكما ؟ » دمدم يهودا ، وهو يكشف القطع الوحلية المتجمدة بأظافره . « ما الذي
نفعله بهم ؟ انقتلهم ؟ كل ما في الامر اننا ننقلهم الى مناطقهم . فليجلسوا هناك اذن
وينتظروا . وهذا جميل جدا من جانبنا . اذ لا يوجد مكان واحد في العالم حيث يعاملونهم
فيه هكذا . وبعض النظر عن ذلك ، فان احدا لم يطلب اليهم بأن يبدأوا المشاكل » . تريث
قليلا ثم اضاف قائلاً بعد ان فكر مليا : « ما الذي سيحل بهم وما الذي سيسربون ؟ كان
عليهم ان يفكروا في ذلك قبل ان يبدأوا ! » .

- « بدأوا ماذا ؟ » قلت .

- « فلتكف أنت عن جعل نفسك صديقا كبيرا » ، قال يهودا بغضب شديد . « لقد
اشعنا النظام الآن والهدوء هنا في هذه المنطقة » .

أما شلومو فقد كان يواصل الخط الذي بدأ : « فعندما تذهب الى مكان ما تكون فيه أنت الآخر معرضا للموت - هذا شيء ، وعندما تذهب الى مكان يكون الآخرون فيه فقط معرضين للموت ، وما عليك إلا ان تشاهدكم اثناء ذلك - فهذا شيء آخر تماما ، هذا ما افكر به » .

- « أنت أيضا ! » صرخ يهودا ، « لا تفكر أكثر مما ينبغي . وما دمت الى هذا الحد كذلك ، فإنيك تستطيع الذهاب معهم سوية ، الى حيث يذهبون ، اذا كنت الى هذا الحد كذلك ! » .

- « لا تصرخ به » ، صرخ به شلومو ، « فإني لن اسألك الى اين اذهب » ، قال ذلك واستدار مبتعدا .

- « متأثرون ! » قال يهودا للعالم بأسره وليس لشخص محدد ما « ، كنت اود لو اني ارا - هم والعرب يحتلون قرية - هم ! »

- « ولهذا بالذات » ، شرعت قائلا .

- « ما الذي بالذات ! ان احدا لم يطلب اليهم ان يبدأوا هذه الحروب وهذي المشاكل . الانتقاء الكبار . لقد سفكنا الكثير من دمنا لاجلهم ! هؤلاء الرجل ! قليأكلوا ما طبخوا بأنفسهم ! » .

رأينا امرأة تمر حينئذ في جماعة من ثلاث - اربع نساء اخريات . كانت تمسك يد طفل يقارب السابعة . كان بها شيء خاص . كانت تبدو حازمة ، متمالكة ، صلبة بحزنها . كانت الدموع تنهمر على وجنتيها وكأنها ليست دموعها ، والطفل ينشج بما يشبه « ماذا فعلتم بنا » مزموم الشفتين . وبدا لوهلة انها الوحيدة التي تدرك ما الذي يحدث بالضبط هنا ، الى الحد الذي شعرت فيه بالخجل امامها ، ففضضت الطرف . كان ذلك وكأنه صرخة تستغيث من خلال خطوها ، اشبه ما تكون « والملعونون » اكره . رأينا كيف انها كانت اسمى من ان تعيرنا ولو ذرة من الانتباه . ادركنا انها ام - لبؤة ، رأينا كيف ان تجهم التمالك للنفس واردة التحمل يزيد من قسماات وجهها صلابة . فكيف بها الان ، وعالمها كان قد باد - لقد ابت الانكسار امامنا ، ومتعاليان بالامهما واحزانهما على وجودنا - الخسيس الأثم - مرا يواصلان طريقهما ، وفي خلد الطفل رأينا كذلك نللك الشيء الذي كان يدور ، والذي لا يمكن ان يكون حين يكبر الاحية سامة ، نللك هو الذي الان بكاء طفل قاصر .

تكشف لي كالبرق شيء فجأة . كل شيء دفعة واحدة كما لو كان يبدو مغايرا ، بل على اصح : المنفى ، ها هو ذا المنفى . هكذا هو المنفى . هكذا يبدو المنفى .

لم استطع البقاء في موطني . مكاني لم يعد يحملني . انطلقت ودرت الى الجانب الآخر . كان العمي يجلسون هناك . اسرعت اتجنبهم . عثرت الثغرة ، وخرجت الى القسيمة المسيجة بالصبار . كانت الاشياء تتكدر في داخلي .

لم اكن في المهجر مرة - حدثت نفسي - لم اعرف ولو مرة كيف يكون . . . ولكنهم حدثوني ، قصوا علي ، علموني ، ثم عادوا ولقنوني في كل زاوية ، في الكتاب ، قسي الصحيفة ، وفي كل مكان : المنفى . عزفوا على كل اوتاري . سخط شعبنا على العالم : المنفى ! لقد كان في ، كما يبدو ومع حليب امي . ما الذي فعلناه هنا اليوم ؟

لم يكن لي الى اين اتسكح ، ولم يكن لي الى اين ابتعد . فانهدرت واختلطت بهم كما لو كنت ابحت عن شيء اريده .

الكلمات تطن في اذني . لا اعرف من اين . مررت بينهم كلهم . بين المعولين بصوت مرتفع ، بين الكاظمين غيظهم بصمت ، الذائدين عن انفسهم وعن ممتلكاتهم ، بين المقارعين لصيرهم ، والمذعنين له بصمت ، بين المزدريين انفسهم وعارهم ، والمخططين الخط لانفسهم للتدبير كيفما اتفق ، بين الناديين حقولا ستقفر ، والصامتين تعباً وسغباً ورهبة . كنت ابحت عما اذا كان بين كل هؤلاء ارميا واحداً ايضاً ، غاضباً ومتقد ، يطرق في القلب غضباً ، وينادي الاله - العجوز اختناقاً ، من فوق قاطرات المنفى . . .

كانت بركة الماء في الطريق قد تظلمت ، والموجيات المتساوقة على وجهها سرعان ما انعكست على صفحة السماء تتثنى غزلاً . فوددت لو انني اعرف لهذه الارتعاشات التي كانت تسري في جسدي معنى ، ومن اين هذا الصدى لخطوات منفيين آخرين ، ينبعث خافتاً ، بعيداً ، وكأنه صدى خرافي ، ولكنه ثائر ، معذب ، يتدحرج كرعود بعيدة ، متوعدة وتنذر بالظلمة ، ومن بعدها ، صدى يفزع - لا استطيع اكثر . . .

- « لماذا تنظر الي هكذا ؟ » ، قال مويشي .

- « انها حرب قذرة » ، قلت مختنقا بعض الشيء .

- « دخيلك » ، قال مويشي ، « ما الذي تريده اذن ؟ » .

وانا كنت فعلاً اريد . وكان لدي ما اقوله . ولكنني لم احسن قول شيء يكون حكمة - عملية وليس مجرد انفعال عاطفي فقط . لا بد من زعزعة بشكل ما . لا بد من اطلاقه باختصار وفي الحال على خطورة ما يحدث .

وبدلاً من ذلك قال لي مويشي ، وهو يدفع قبعته الى ما وراء جبينه ، كمن اعياه الاضطراب ، وكحديث رجل الى صاحبه ، باحثاً عن السجائر والكبريت في جيوبه ، ومحاولاً اليباس فكرة كانت قد لعت لتوها في خاطره بالكلمات ، اجاب قائلاً :

- « فلتسمع ما الذي ساقوله لك ! » قال مويشي وعيناه تبحثان عن عيني ، « الخربة ، ما اسمها هذه ، سيأتي قادمون جدد ، هل تسمع ، وسيأخذون هذه الارض ، ويفلحونها ، وسيكون هنا رائعا ! » .

بالطبع ، والا ماذا ؟ فليكن ! كيف لم افكر في ذلك من قبل . خربتنا خزعة ، مسائل اسكان ومشاكل استيعاب ! بالهتاف نسكن ونستوعب ، بل وكيف : سنفتح استهلاكية ، وننشئ مركزاً ثقافياً ، وربما كنيسة ايضاً . وسيكون هنا احزاب ، يتجادلون على اشياء كثيرة . يحرثون حقولا ، يزرعون ، ويحصدون ، ويصنعون العجائب . فلتحييا خزعة العبرية ! من ذا الذي سيطرأ على ذهنه ذات يوم ، بانها كانت ذات مرة خزعة التي طردنا أهلها وورثناها . واننا جئنا ، اطلقنا النار ، حرقنا ، نسفنا ، ركلنا ، دفعنا ، وهجرنا ؟ .

ما الذي نفعله ، الى الجحيم ، في هذا المكان !

نظرت هنا وهناك ، الا ان نظراتي سقطت عن كل مكان . من الخلف كانت القرية قد بدأت تصمت وتلم بيوتها في أعلى التل ، مقيدة هنا وهناك بذرى الاشجار التي كانت

الشمس قد فصلت منها ظللا ساكنة خلفها ، غارقة في التأمل ، تعرف اكثر مما نعرف نحن ، وترقب صمت القرية ، ذلك الصمت الذي كان يتواصل اكثر فاكثر ، فخلق جوا خاصا به وحده ، واقع اطلال ، آلام حزن قراق لبيت خاو ، لشاطيء مقفر يضربه الموج تلو الموج والافق غراغ ، ونفس السكون الغريب لجثمان ميت . ولم لا ؟ - لا شيء : يوم واحد غير مريح فقط ، وجدورنا تضرب من بعده هنا لايام مديدة . كما الشجرة على غدير مساء . اجل . وفي المقابل ، المجرمون . . . - ولكنهم هؤلاء هم هناك في الشاحنات الان ولن يكونوا ، وفي الحال ، سوى صفحة قد انتهت وانطوت . بالتأكيد . أليست هي من حقنا ؟ أولم نحتلها ؟ .

شعرت انني على شفير هاوية . نجحت في السيطرة على نفسي . كانت اعماقي كليها تصرخ . مستوطنون مغتصبون ، صرخت من اعماقي . كذب ، صرخت . خربة خزعة ليست لنا ، لم يمنحنا الشبانداو اي حق قط . ها - ها ، صرخت اعماقي . ما الذي لم يروه لنا عن المهاجرين وعن نجاتهم وانقاذهم . . . مهاجرونا بالطبع . اما هؤلاء الذين نهجرهم نحن - فهذا موضوع اخر البتة . انتظر : الفا عام من المنفى . ماذا لا . يقتلون اليهود . اوروبا . نحن الاسياد الان .

أحقا ان جدران هذه القرية سوف لن تصرخ في أذان اولئك الذين سيسكنونها ؟ أحقا ان كل تلك المشاهد ، الصرخات التي صرخت والتي لم تصرخ ، البراءة المروعة لقطيع منسحق ، أذعان الضعفاء ، وبطولتهم ، البطولة الوحيدة للضعفاء ، الذين لا يعرفون ما سيفعلون ولا هم بالقادرين ان يفعلوا ، الضعفاء - المرسبون - أحقا انها لن تملأ الهواء هنا بفيض من الاشباح والاصوات والنظرات ؟

اردت ان افعل شيئا . عرفت انني لن اصرخ . لماذا ، الى الجحيم ، انا المتأثر الوحيد هنا . من اي طيون جبيلت ؟ لقد تورطت هذه المرة . كان ثمة شيء متمرد في ، يفجر كل شيء . من ذا الذي اخاطبه فيسمعني . انهم سيسخرون مني وحسب . كان في انهيار صاعق . كان لدي وعي واحد كمسماز مثبت ، بأنه لا يمكنني التسليم بشيء ، ما دامت تتلألا دموع طفل باك يسير مع امه المتمالكة لنفسها بغضب دموع صامتة ، ويخرج الى المنفى ، حاملا معه صيحة ظلم ، وصرخة لا يمكن ان لا يكون في العالم ثمة من يلتقطها في الوقت المناسب - فقلت اذ ذاك لمويشي : « ليس لنا ، يا مويشي ، اي حق في اخراجهم من هنا ! » ، ولم ارد لصوتي ان يرتعد .

واما مويشي فقد قال لي : « ثانية ، أتبدأ ثانية ! »

فعرفت ان لا فائدة فيما اقول .

وأسفت ، أسفا حتى الاختناق .

كانت الشاحنة الاولى ، لم اعرف متى ، قد تحركت وراحت تصعد الطريق الترابي الكبير . (لو انني استطيع الذهاب اليهم الواحد تلو الآخر وأسر اليهم : عودوا ، عودوا الليلة ، فذهن ذاهبون من هنا حالا ، وستظل القرية فارغة - عودوا . لا تتركوا القرية خالية !) . وحالا تحركت الشاحنة الثانية ، شاحنة النساء ، اللواتي كن يزركن الشاحنة بزرقة ثباهم وايضا المناديل ، ومنذبة واحدة تصاعدت هناك ، وأندكست بعويل الشاحنة الثقيلة التي كانت قد اصطكت وتشبثت بالطريق الموحل في الرمل الرطب . (اما العمي فلا بد وينسونهم هنا على قارعة الطريق) . لقد كان الوقت اصيلا . وعلى

سكينة السماء حل غضب الريح التي كدرت النهار ، وانذرت بمطر جديد ، غدا - او بعد غد . ومن القرية تعالى هنا برهة ، وبرهة هناك ، عمود من دخان ابيض لصلصال رطب يأبى الاشتعال ، ويأبى الانطفاء فيستمر في دخانه هكذا ، يشتعل لعدة ايام ولا يشتعل ، الى ان يتقوض جدار منه او سقف . ثممة بقرة خارت في مكان ما .

حين يصلون الى المكان الذي يطردون اليه ، سيكون الليل قد حل . غطاؤهم ثيابهم وبها ينامون . حسن . ما الذي يمكن فعله ؟ فالشاحنة الثالثة بدأت تققع . وهل تنبأ اتستغنين ولو مرة واحدة في مواقع نجوم سماء القرية وابراج البشر - اي منقلب ستقلب الامور هنا ؟ وأي لا أباليه فينا - وكأننا لم نكن قط سوى كاشفي مكتشفات - وسئمنا العمل . وليس هذا هو الاساس ايضا . والمخرج ؟

كان السهل مسترخيا . وثممة من بدأ يتحدث عن وجبة العشاء . وفي الطريق الترابي في البعيد ، وبالقرب مما كان يبدو كعاصفة - كانت ثممة شاحنة بعيدة تغور وتتلأشى وتسود وتتأرجح ، ككل الشاحنات الثقيلة المحملة بالنفواكه او المحاصيل او اي شيء . وجع الذل وغضب العجز ايضا سرعان ما يتحولان الى نوع من الخدش العرضي المستحيي المرتبك المتلاشي . لقد اصبح كل شيء شاسعا فجأة ، كبيرا ، كبيرا . ونحن كلنا اصبحنا صغارا ولا أهمية لنا . عما قليل وتحل في العالم تلك الساعة التي تجمل العودة فيها من العمل ، العودة متعبا ، تصادف شخصا ، او تسير وحيدا ، ثم تصمت وتسير . كان الصمت قد خيم من كل حذب وصوب ، وعما قليل يطبق على المدار الاخير . وبعد ان يطبق السكوت على كل شيء ، ولا يهتكن الصمت احد ، ويعج بما خلف السكوت خفية - يخرج الله عندهما ويهبط السهل كي يطرفه ويرى كيف تكون صرخته .

ترجمة
توفيق فياض

مدخل إلى النتاج الثقافي الانعزالي

حين يحاول منظروا الايديولوجية اللبنانية الخوض في اكثر التفاصيل دقة ، فانهم لا ينسون بأن السحر هو ما يعطي للبنان وحدته وتميزه . وهم يحاولون بكثير من السحرية ان يوحدوا بين القيم التي اصفوها على لبنان وبين التفاصيل التي تأخذ طابع التشريع للعلاقات الاجتماعية الراهنة بين اللبنانيين . هذه العلاقة الجوهرية بين تاريخ لبنان وحاضره ، بين قيم لبنان المطلقة وانسانيته ، قد تمت صياغتها في نظرية واحدة ، استطاعت ان توحد بين الفروق الشاسعة التي تمتد من المطلق حتى علاقات الطوائف اللبنانية . وحين يحاول ميشال شيحا ويوسف السودا ان يشرعا للبنان الحاضر ، فانهما يأتيان اليه من الماضي ، من نظرية الماضي ، التي تم احكامها بشاعرية مطلقة . هذا الماضي خال من اي صراع مهما كان نوعه ، انه ، في العصر الفينيقي ، بلغ كماله وتحدد به . وان كان المنظران قد زرعا في ايديولوجيتهما مجموعة من القيم الثابتة التي يتميز بها لبنان ، فان هذه القيم الثابتة انبثقت من ذاك العصر فحسب ، واكتسبت عندهما صفة سرمدية . من هذه القيم اتى المنظران الى علاقات الواقع والسياسة . ان يستمر الماضي في كل الأزمنة ، دون ملاحظة للخصوصية التي تميز كل عصر من العصور ، تبعاً للصراعات الاجتماعية الداخلية ، وتبعاً للعلاقات الخارجية التي تحيط بلبنان .

هذا الشعر الذي يصيغ الماضي حين يرى منظروه اليه ، يتحول الى سحر حين يحاول الامام بالحاضر والتشريع له ورسم سياسته . وقد يلاحظ من الكثير من الكتابات التي رأت الى الحاضر ، ان التفاصيل تغيب في حضورها أو تحضر في غيابها . ان الفقراء والاغنياء والعلاقة بالاستعمار والطوائف الشتى ، لا ينظر اليها من خلال الثقل الحاضر الذي تتواجد فيه ، بل من خلال نزوع طبيعي يميل به اللبناني الى التسوية وتقديس التجربة الفريدة . ليس للتفاصيل فاعلية في النظرية التي صيغت ، انها منتفأة ومحتواة في التصور الكبير الذي يعطي للبنان فرادته وقيمه الثابتة . وحين تتأزم العلاقات السياسية وتشد عن الصيرورة التاريخية للانسان اللبناني ، عند ذاك لا يشكل هذا الشواذ امتحانا للنظرية - التاريخ او تحديا لها ، بل ينتج هذا الشواذ عن تأثير من العناصر الخارجية التي تحاول دائما ان تنال من لبنان .

وما يعطي للانسان اللبناني ثباته : الجغرافيا الفريدة وموقع لبنان الجغرافي الذي هيأته العوامل الداخلية والخارجية « ليكون وطننا لا كالأوطان » . ان الجغرافيا والتاريخ — يمتزجان في الايديولوجية اللبنانية لدرجة ان الفصل بينهما يصبح مستحيلا . ومن امتزاجهما هذا تنبثق الروح اللبنانية المحددة باختلافها عن اي من النزعات الاخرى عند الشعوب .

« هذا الجبل الذي يشكل ملاذا للاقليات المضطهدة » على حد تعبير شيحا ، كان لا بد له ان يجدد ناسه باستمرار . والطوائف التي تأتي تلوذ به هربا من الخوف والاضطهاد ، هي بطبيعة الحال ، بحسب منطق شيحا ، اقلية طائفية هربت من جور الاكثريّة في بلدانها ، لهذا ، حين يقصد لبنان اللائذون به ، فانما يقصدون بقعة جغرافية من الارض ، ليس للطغيان الاكثري وجود فيها . ان لبنان ، عند شيحا ، يتشكل من مجموعة من الاقليات يحكمها الولاء الى الملائد . ومن هذه الاقليات تنبثق صيغة من العيش والتبادل الثقافي والحرية .

ولكن قد يسأل السائل ، كيف يستطيع لبنان ان يحتفظ بقيمه ومثله الخاصة المميزة له وهو لا يدين بالولاء لشعب ثابت على ارضه ؟ . قد يأتي الجواب على هذا السؤال من اطروحات شيحا التي تحاول التمييز بين لبنان والاطوان والامم الاخرى . ان للجغرافيا اللبنانية الفريدة روحا خاصة تحدد العادات والعلاقات والنوازع الانسانية الطبيعية وأشكال الوعي والقيم ، هذا على صعيد الجغرافيا . اما على صعيد الاجتماع البشري ، فتبدو تجربة الاقليات المضطهدة في العيش عاملا على انشاء صيغة ديمقراطية هو جوهر العلاقات الاجتماعية بين الطوائف . وليس ادل على هذا التلازم بين الجغرافيا وصيغة التعايش من كتابات يوسف السودا الذي يقول في كتابه « تاريخ لبنان الحضاري » : « لقد هيأتها الجيولوجية الفريدة لان يكون مركز التقاء الشعوب المظلومة المتعطشة الى الحرية بعيدا عن مرمى سهام البطش والاستبداد » .

تلك الصيغة ، التي تشكل الخيط الناظم للاطروحات الاجتماعية كلها عند المنظرين اللبنانيين ، تصبح ، حين النظر الى اسفل ، الى العلاقات الاجتماعية بين اللبنانيين ، حلما يتفتت . في قرارة الذين يعتقدون بها ، تبقى الصيغة السحرية تعبيراً عن حنين الى وطن هو كالأوطان . اذ ان الجوانب التشريعية من الايديولوجية اللبنانية ، انبثت على الخوف من مضاعفات العلاقة بين الطوائف . في السحر ، تبدو الطوائف صانعة للحرية ، وفي الواقع والتشريع يبدو الخوف من الانفجار ملازماً لصيرورة التعايش . هكذا استطاع الدستور اللبناني ان يبتكر تمثيلاً سياسياً ينبع من الرغبة في المحافظة على كيانات الطوائف والخوف من صراعها في ما بينها في أن معا . وهكذا يصبح لبنان الملائد لبنان النزاع حين التنظر الى اسفل .

هذا الواقع المرسوم بدءاً من الخوف يشكل حالة مأساوية عند الكثير ممن يعلنون الولاء للبنان الصيغة . خاصة عند اولئك المتمسكين بالحلم التاريخي الذي يعطي لبنان دوراً وشرعية وجود ، عند من يجدون ضرورة في انكفاء لبنان عن محيطه الجغرافي والبشري . ان الايديولوجيا التي صاغها شيحا والسودا بما يشبه الشعر ، تصبح الملائد النفسي الذي يتطلب الوصول اليه شكلا من الاعلاء والارتفاع عما يجري على الارض . ويلاحظ من الكتابات التي صدرت في فترة الحرب ، سواء تلك التي صدرت عن الاحزاب اليمينية او عن المؤرخين والمفكرين اليمينيين ، ان هناك ترددا كبيرا بين سحر الصيغة اللبنانية وبين الاقرار بعجزها في أن معا . وفي نداء الشيخ بيار الجميل الى اللبنانيين الذي اصدرته

الكسليك في كراس ضمن سلسلة منشوراتها ، محاولة لايقاف الصراع الدائر بين المسلمين والمسيحيين على قاعدة التذكير بأهمية ان يعود اللبنانيون الى المستوى الحلمي من العلاقات في ما بينهم ، اذ كما يستنتج من كراسه ، ان حزبه قد سقط في مآهات التحديات اليومية المسفة عبر الكثير من التصريحات والادبيات ، وكذلك فعل الطرف الاخر ، فيجب ايقاف حملة التدمير للصيغة .

كراس اخر من منشورات الكسليك « شرعة الجهاد » يحاول الاثبات على مدى صفحاته ان المسلمين في لبنان اتبعوا في الحرب اسلوبا هو ذاته الذي اوحى به الرسول في حروب الفتح . ويقول الكراس ، ان شرعية القتل والتهجير والسبي والاستباحة هي في صلب الحرب الاسلامية كما ارادها الرسول . وها يحارب المسلمون اليوم مزودين بوسائلها الرسول ، فلا خلاف بين ما شرع في بداية الدعوة الاسلامية وبين الحرب التي خاضها المسلمون في منتصف السبعينات من هذا القرن .

وقد خصص معهد الكسليك الكثير من كراساته لدرس مواقف المسلمين من الصيغة اللبنانية والحرب اللبنانية . وبالمقابل نجد في كراسات اخرى صادرة عن معهد الكسليك ايضا دراسات تقر بدور الموارنة في انشاء لبنان وصيغته والمحافظة عليه . هكذا يرى الفكر اليميني في لبنان ، في فترات الانفجار ، ان الطوائف في لبنان لا توحد بينها روح لبنانية اصيلة ، ان الطوائف تتصارع ، ليس فقط بسبب من ضرورات العيش ، بل بسبب من الولاءات . هذه الولاءات تكتسب قدرة على كسر الصيغة حين تكون « خارجية » . وكراسات الكسليك ومواقف الاحزاب اليمينية وادبياتها تعلن ان الولاء عند المسلمين في لبنان همسو للخارج العربي وللدین الاسلامي اكثر منه للبنان . جهذا يكون المسلمون ، برأي احزاب الموارنة ، غير قادرين على تقديس الصيغة . انهم خائثون لها بسبب « من المحيط العربي الذي يدعمهم » .

وهكذا يعلن اليمينيون ان اختلافهم عن الجناح الاخر ينبع من طبيعة متأصلة فيه . وبهذا يصبح المسلمون في لبنان ، بسبب من ظهيرهم الاسلامي والعربي ، ليسوا اقلية مضطهدة تلوذ بلبنان ، بحسب تعبير شيحا ، بل يصبحون اكثرية نتيجة لمحاولاتهم كسر الحدود العازلة بين لبنان واكثرية المنطقة الاسلامية العربية . وحين يعلنون ذلك ، يبدو اليمينيون يقرون بالانكسار الابدي للصيغة اللبنانية . اذ حين ينكسر هذا الجانب الاساسي من التركيبة المغلفة بالحلم ، تصبح الجوانب الاخرى ، الاقل اهمية والاكثر شاعرية ، غير قادرة على الوقوف والثبات .

ولا اسرع من ان تتغير لهجات المخاطبة والتوجه ، فحين يكون المسلمون اعداء لبنان ، بحسب تصريحات الزعماء اليمينيين ، وحيناً ، تأتي تجربة لبنان الفريدة والرائدة « فسي مقدمة الصيغ حضارة اصيلة ، وانسانية راقية ، ونموذجاً فريداً لتعايش مسيحيي العالم ومسلميه » بحسب تعبير الشيخ بيار الجميل .

هذا التواتر وهذا التردد بين تقديس الصيغة والشك بأركانها في الفكر السياسي اليميني يرتبط بحالات السلم والحرب . الحرب تعني موت الصيغة ، والسلم يعني شرعيتها وثباتها . وقد يلاحظ ان ازمة الحرب والسلم تتسارع ، كما في الحرب الاخيرة . عندها تموت الصيغة في يوم وتنبعث في اليوم الاخر . وحين تهدأ الجبهات بعد قتال ، تفتتح الاذاعة اللبنانية برامج الاحاديث السياسية والتاريخية عن التعايش .

الصيغة تتطلب السلم ، او تتطلب إيقاف الحرب • لان الحرب الاخيرة امعنت في الاطالة والانتشار لدرجة انها حددت المجتمع اللبناني على انه مجتمع يعيش ابناءؤه في حالة حرب دائمة ، وما فترات السلم الا استراحة لراحة السلاح واعادات النظر •

هكذا ، في حالات الصراع تضرر الصيغة وتصبح الحلم الهزيل ، ثم تعود لتتفتح فسي ازمة الهدنة • وهكذا يعيش المؤمنون بالحلم اللبناني المتميز الفريد في جدلية تتردد بين الايديولوجيا والواقع ، بين السلم والحرب •

وليس في هذه الحرب وحدها عانى « اللبنانيون » هذه المعضلة المأساة • في ١٨٦٠ ارتد الكثير من الادياء اللبنانيين الى ما وصفه أمين ناجي في دراسته حول « القومية العربية » المنشورة في العدد الثاني من ملف العمل الشهري ، الى ما اسماه « بالثورة العثمانية » • وكذلك في ١٩٥٨ كانت الصيغة اللبنانية ارتباكاً ما كان ليؤجله سنوات الا اتفاق ارباب الصيغة •

ويصل هذا التردد بين تقديس الصيغة والشك بآركانها حدا يقوض الحلم والتشريع والمؤسسات المدنية والتربوية التي فصلت على قياسها • عندها تتقدم الهوية الوطنية ويتجزأ لبنان ، في ممارسات اليمينيين ، الى مجموعة من الطوائف تتغلق على نفسها وتصبح لها شرائطها الخاصة المنبثقة من الدين • عند ذلك تتقدم فاعلية المؤسسات التمثيلية ، ويصبح المجلس النيابي مجلساً لتصريف الاعمال والقوانين التي تمت صياغتها قبل الحرب • هذا الاتجاه نحو الانكفاء الطائفي الذي يأتي بعد الولاء اللبنانيي يلاحظه في الكثير من السلوك السياسي والفردى • فمجريدة « العمل » مثلاً ، استثمرت اشهرها تحاول القاء الضوء على الادياء اللبنانيين كجبران خليل جبران ومارون عبود وحتى عمر فاخوري ، بمحاولة للتذكير بالقواسم المشتركة بين اللبنانيين • الا انها عادت ، نتيجة لظروف سياسية داخلية وخارجية الى التذكير على مدى حلقات عديدة ، ومن ضمن خطة مدروسة ، برجال الدين الموارنة الذين قدموا للطائفة الكثير • هذا الانكفاء يأتي بعد مرحلة اليأس من ترويض الفئات اللبنانية الاخرى ، ودفعها نحو القبول بالصيغة التي تعزل لبنان مما يتيح للحلم ان ينبعث من جديد وللسيطرة ان تتم •



كيف يحضر مفهوم الوطن في هذه العلاقة المأساوية والصراعية بين الحلم والواقع !

يحضر الوطن حقيقة كلية ، انه روح في التاريخ تستمر ولا تقف • انه حقيقة سابقة على كل تشكيل اجتماعي او بشري • ولا يدرك ، الا بواسطة الافكار التي ترتفع عن كل ما هو مادي • واذا تصارع ابناءؤه فانما يتصارعون لا على ماهيته لانه اكثر قدسية من الصيغة ، ولانه سابق على التاريخ ويبقى بعد زواله فهو غير قابل للتطوير او التعديل ، وكل تعديل به يشكل مساساً بجوهره • لان التعديل من صنع الانسان المفترض فيه ان يحاول الاقتراب من الوطن باعتباره حالة صوفية • الوطن يمنح الهوية النفسية ويضفي على الواقع البائس بعدا يوحى بالاتحاد مع القيم المطلقة • والخشية الاشد ان يحجب الواقع وقضاياها رؤيا الوطن • وقد اتهم « مفتعلو الشغب » في لبنان بانهم حاولوا ضرب الانتماء للوطن • ففي احد كراريس الكسليك اتهم للمطالبين بتحسين اوضاعهم المعيشية بانهم ضربوا الوطن • ويقول جورج مصروعة في الصفحة ٧٠ من « العمل الشهري » الثاني « لان الاحوال ،

والظروف ، والممارسات ، والتفسخ الاجتماعي ، والدولة ، والادارة العامة ، حجت عنهم حقيقة انتمائهم الى هذا الوطن » .

هذا الوعي للوطن يقبع في مستوى من مستويات الوعي المتعددة ، ويمكن القول انه يحتل في الذهن حيزا مستقلا يتعدى الوعي الى الاحساس النفسي والعضوي به . انه يشكل حالة غامضة غير قادرة على التبلور والصياغة . ولانه فوق التعاريف ، وفوق الذكريات ، وفوق المتناول الحسي يصبح مستقرا يفضي الى انطوائية عند الفرد ، ولكنها انطوائية تعتمل فيها قيم مطلقة مبهمة ولكنها تنضح بالكبرياء والشموخ والعلو فوق التاريخ .

هذه الحالة تفضي الى ما هو غير واضح ، وتخلق نوعا من الاحساس بالجوهريّة . « الشخصية اللبنانية لم تذب ولم تنحل ، بل كانت ، في لا وعيها ، تشعر بانها شيء ، غير أنها لم تكن تقدر ان تعرف ما هو » . هذا ما يقوله مناف منصور . وفي هذا القول يحاول ان يصيغ هذا الاحساس الغامض ، ويحاول ان يغير من طبيعة التعاريف التي اعطيت له ، فالشموخ والكبرياء والمجد ، كلمات بحاجة الى اعادة صياغة ، ويحاول مناف منصور ان يهتدي الى ذاك الاحساس بطرق اكثر ملموسية من الكلمات - القيم .

ولكن كل صياغة تصطدم بالعجز ، بسبب من طغيان الوهم النفسي الذي يحضر كتلة واحدة ، دون ان يمنح اصحابه القدرة على تفتيته الى اجزاء صغيرة حية . وقد كان اللجوء الى ابطال من التاريخ اللبناني القديم ، كقدموس مثلا المحاولة الاكثر خصبا وقدرة على تجسيد هذا الواقع النفسي ، ولكن قدموس ، كما تقدم لهم ، يمثل القيم : الكبرياء والشموخ ، المجد ، ولا يتقدم حالة شمولية تعبر عن الحلم الصوفي . لهذا عقب مناف منصور على المبدعين في الفن والادب لاستنكافهم عن « صياغة رموز ممثلة لجوهر الشخصية اللبنانية ، تعادل ما شخصه الغربيون في بروميثيوس ، وفاوست ، وسيزيف » .

هكذا يصبح المجال الوحيد لعقد الصلة مع الواقع ، كما اننا في الاستنباط الداخلي الذي يلجأ الى تطهير الواقع المعقد والمختلط والمغترب عن العلاقات الاجتماعية . تتطهر الذات عبر نسيان الواقع . علاقات الحياة لا تتم السيطرة عليها الا عبر اهمالها . وانها محاولة عليا ، على الصعيد الروحي ، ان يتم تجاوز المشكلات الاجتماعية والمصراعات ليس عبر الانخراط بالقوى الحاضرة ، بل عبر الغوص في الذات ، واستنكار القيم التي يوحىها ذلك الغامض الحقيقي .

« أين نجد الراحة والاستقرار ؟

في مكان واحد هو : اليقين . »

هذا ما يقوله جورج مصروعة معتبرا اليقين مكانا . وهو يحاول بذلك ان يعطي لليقين صفة التجسد والوجود الماديين . هنا يهبط السعي الصوفي ويحتل مكانا ، وهنا تستدعي القيم الكبرى كي تنزل الى الارض ، لان الحاجة الى ذلك ملحة ، ولان ما يجري في الارض يستدعي اليقين ليبلغه او يبعث فيه قناعات جديدة .

في الادب الذي واكب ظهور الايديولوجية اللبنانية مع ممثلها يوسف السودا وميشال شيحا استكمال تعبيري وفني للملامح العامة لتلك الايديولوجية . وفي ايديولوجية تهدف الى الشعور باعتباره اقنوما اساسيا من اقانيمها ، تصبح وظيفة الشعر اكثر قدرة على تمثيل الخط العريض لها ، ويصبح الشعر ، بالتالي قادرا على التعبير عن هذه الايديولوجية

وايصالها باعتبارها مناخا روحيا صافيا لا تعوقه ضرورات التكلم على التفصيلات التي تشرع للعلاقات الاجتماعية ، ولا نستطيع القول ان الشعر اللبناني في تلك الفترة واكب او اقتبس النظرية السياسية التاريخية ، اذ ان المسألة اكثر تعقيدا من ذلك ، ولكن ما يعنيننا هنا ، هو نجاح الشعر في ان يكون انبعاثا اكثر قدرة عن القيم المطلقة التي تكونت في الوعي اللبناني ، وانه لمن السهولة القول بان شاعرا كسعيد عقل مثلا مثالي او رمزي مثلا . ان لسعيد عقل تجربة فريدة في الشعر . لقد حمل الشاعر المفاصل الاساسية التي كانت تقولها النظرية اللبنانية ، وانشأ علاقات بين القيم الروحية وتكلم عن الجغرافيا والطبيعة اللبنانية بوصفها موضوعا للوصف والتأمل ، وليس للصراع او الاندماج . وهذا ما يميز المنطلق الاساسي للنظرية اللبنانية حين تنتقل الى الشعر . ففي النظرية الجغرافيا ، وفي الشعر الطبيعة التي تنتج القيم .

« الى فيثاغورس ، أحد علية العقول في جميع الازمنة ، يرقى القول : « سأخاطب الحكيم فأبعدوا الجهال » . اذن منذ عهد باعد في القدم ، شعر سراة الفكر بان العامة خطر على اصحاب التعاليم الرفيعة » .

هذا الكلام للشاعر سعيد عقل . قاله في محاضرة القاها في الجامعة الاميركية في بيروت في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٤ ، واستعيدت في الكتابات اللبنانية ببيروت في ١٨ آذار من العام نفسه .

ويقترح سعيد عقل في محاضراته مجتمعا خاصا للنخبة ، يبتعد بها عن ضجيج العامة وتفاهتها « ان لم تكن (للنخبة) انديتها المنتفخة بالرفعة ، اضطر افرادها الى انتجاع الراحة في ملاهي الطبقات الاخر حيث الاثر مزدوج الاساءة : يبدد جو النبل ويزعزع ثقة العلية بعليتها .

ويبدو الشاعر منسجما مع مثله الثقافية العليا في طلبه عزل (طبقة) المثقفين عن سائر الطبقات الاخرى . فالتباعدات تلك قد انجرقت مع متطلبات الحياة واستغرقتهما الشؤون الصغيرة ، ولم تعد تملك متسعا من الوقت والروح لاقامة الصلة مع القيم التي تكونت بمعزل عن مسارات الشعوب . الانتماء للنخبة ، برأيه ، انتماء لتاريخ خاص ، ازلي ، لا ينبثق عن التاريخ الاجتماعي ، بل يعلو فوقه ويستمر في الزمن دون تقاطع ، والفكر الذي تنتجه النخبة لا تهم هويته او مرقعه ، فالفكر ابداعي وكفى . والمبدعون يلتقون مهما باعد بينهم التاريخ ، يلتقون في ذاك الامتياز الكبير الذي يجعل منهم صانعي التاريخ دون ان يلحقهم دنس الاقتراب من تفاهة الواقع .

ما تقوله تلك المحاضرة ، لا يتعارض بشكل من الاشكال مع اي من تجليات سعيد عقل الفكرية ، سواء في شعره او في اكتشافاته الاخيرة حول اللغة وتنظيم المجتمعات ، فشعره لم يخرج مرة في موضوعاته عن القيم النبيلة المطلقة ، وهذه القيم تحضر في كل صنوف الشعر بدءا بالشعر الوطني مرورا بالغزل ووصولاً الى شعر المناسبات . لم يقل شيئا خارج جهاز القيم النبيلة السرمدية ، وفي عمله المسرحي - الشعري ، « قدموس » جعل الصراع والاساءة ينبعان من داخل القيم النبيلة .

هكذا ينطق سعيد عقل عن فكر كلي منسجم في عناصره ورؤيته للعالم . هذا الفكر الذي تكون عند صاحبه مرة والى الابد ، ولم تستطع اي من الاحداث الاجتماعية ان تغير في

طبيعته وتجعله يشكك بمنطقاته ، الا على مستوى الاندماج الشخصي كما لاحظنا في الحرب الاخيرة ، حيث « اضطر » الشاعري الى الانخراط بالعمل السياسي ، دون ان يجد وسيلة ، رغم المحاولات ، لتفتيت القيم الكبيرة الى اجزاء تصب في ضرورات الوظيفة السياسية .

هكذا كان سعيد عقل في الحرب « ملهما » و « موحيا » ولم يكن قائدا سياسيا . وحين كان يخاطب مقاتليه انما كان يحاول ان يبعث فيهم الروح الكامنة فيهم ويدعوهم الى السمو سواء في المحبة او الحق .

صحيح ان « المهتم » لم يتخل عن اي من آرائه حول الابداع والنخبة ابان فترة الحرب ، لكنه اقترب من العامة ، بحكم انخراطه السياسي ، اقتربا احدث بعض الخلل في نظريته حول « خطر العامة على اصحاب التعاليم الرفيعة » . ما يبرر هذا الخلل الجزئي : نبل المناسبة ، فالحرب هي لحظة ابداع ، او لحظة صراع بين قوى مطلقة العنفوان واخرى مطلقة الهوان ، « بين جبايرة واقزام » . لهذا رأى الشاعر ان القوى التي يؤيدها انما تحاول ، مرحليا ، ان تنصرف عن تفاهة العامة وتنخرط كيانيا بالمطلق .

الكلام ذاته الذي قاله سعيد عقل في العام ١٩٥٤ حول النخبة ، يعود شارل مالك ويؤكد في العام ١٩٧٧ « المثقف اذن ، يعيش في القمم مع اهل القمم ، ويمسك من مقاييسه المستقلة ، المستمدة من اهل القمم انفسهم ، القدرة على تعيين ما هي القمم ومن اهلها » .

هذا الكلام قاله شارل مالك في معرض تقديمه « لقصر الثقافة » ، المؤسسة الثقافية الاكثر « رفعة » بين المؤسسات التي ابتكرها سياسيو « الجبهة اللبنانية » .

واذا كان سعيد عقل يعبر في كلامه عن النخبة عن مفهوم للثقافة فانه ينطلق في كلامه من وهم ايديولوجي غير موعى تماما ، وغير آبه بشكل كلي الى وظيفة هذا الكلام ودوره على الصعيد السياسي . ان سعيد عقل منسجم في كلامه هذا مع تصوره للانسان الخارق ، المطلق القدرة ، الكلي القيم ، ومن الطبيعي ، انطلاقا من هذا التصور ، ان يكون للنخبة المختزنة بعقلها للمطلقات جميعا ، هذا الامتياز الذي يجعلها تشكل صنفا خاصا من البشر .

هذا الفهم لطبيعة المثقف ، الذي يعزل المثقفين « طبقة » متميزة اصلا عن سائر الطبقات الاجتماعية ، يفترض نوعا من النبوة او الرسولية ، المثقف اكثر التصاقا بما يلهم ، لانه استطاع ان يتمثل مجموعة القيم التي لا يمكن تمثيلها الا بالارتقاء فوق مستوى العلاقات البشرية اليومية . انه « يعيش في القمم » كما يقول شارل مالك ، وبالتالي ، فانه يعيش في القمم مع اهل القمم . وقد يكون هذا التصور للمثقف او المبدع قديما قدم الاتجاهات المثالية . ولكن المثاليين في الخارج استطاعوا ان ينفذوا الى اكثر الامور دقة وبقيت المثالية بالنسبة اليهم خلفية ثابتة لا تحضر في النصوص الا بما يقتضيه التحليل المتقسي لامالهم ونصوصهم . ولكن عند سعيد عقل وشارل مالك ومجموعة المثاليين اللبنانيين لم تتفرغ المثالية الى موضوعات تفصيلية ، بل بقيت المخاطبة عندهم ، او بقيت اعمالهم ، تستمد من المثال المطلق نفسه . اذ برأيهم ، ان المطلق لا يتوزع في العلاقات اليومية والاحداث ، بل يحضر فقط في عليائه ، واية محاولة لتفتيت هذه العلياء في موضوعات راهنة تكسر القدسية التي تتحلّى بها العلياء ويتمتع بها المثقف .

هذا الموقف من الثقافة يحضر في الاعمال الثقافية التي تنتج ، ويتسرب الى عناصر القصيدة عند سعيد عقل ، بدءا بالضمون النبيل وصولا الى الشكل الذي يماثله نبلا .

فالم لغة عند الشاعر ترتفع عن الاستهلاك ، وتتم تنميتها وتصفيتها وترفع الى الجزالة المطلقة . وفي الكتابة البحثية التاريخية يتجلى هذا الموقف بشكل مختلف، فشارل مالك يرى في العادات والتقاليد نوعا من الاصاله التي تعلن جوهرها ما عند اللبناني ، ان شكل العيش هو نوع من الشعر الذي يفضي الى العلياء .

من هذه المنطلقات تأسس « قصر الثقافة » . وانها لدلالة كبيرة ان يتأسس القصر ابان فترة الحرب ، مع ما تقود اليه تلك الفترة من اندحار للصيغة السامية . في الحرب يضطر المصاريون الى التخلي عن الحلم . . وهذا التخلي يتجلى ممارسة يومية ، قتلا وعنفا وتخلياً عن المثل . كان قصر الثقافة مؤسسة فريدة في تميزها عما يجري . كان قلعة محصنة بجدران سميقة تمنع انهيارات الخارج من التسلل الى حرم الفكر . انه يؤمن المستقر الروحي في زمن اضطرت فيه « اللبنانيون » الى التخلي عن الروح .

ولكن هل يستطيع قصر الثقافة ، من ضمن المنطلقات التي حددها بيانه التأسيسي ، ان يتحول الى تيار ثقافي يوجه المثقفين ؟ وهل يستطيع حتى ان يتبنى ما ينتج من ثقافات وفنون ابان فترة الحرب ؟ وهل يحضر في الثقافة الراهنة فيحدد لها المنطلقات ؟ هذه الاسئلة واسئلة اخرى كثيرة حول دوره تصطمم بالنتائج الفنية والثقافية التي لا تأخذ بعين الاعتبار المقدمات التي هيأت لتأسيس القصر . انه لا يتعاطى مع ثقافات الحرب ، بل ينكفيء الى ما قبلها . انه يستلهم الماضي الثابت وثقافته المطلقة ، وهو لذلك متحرف يعرض في ردهاته النصوص القديمة ، ويضيف اليها ، بين الحين والحين اثريات حديثة .

ان تسمية قصر الثقافة بهذا الاسم يحمل دلالة كبيرة ، وتنسجم التسمية مع ما قاله سعيد عقل في العام ١٩٥٤ حول « النخبة الثقافية » و « انديتها المتنفسة بالرفعة » . ولا شك ان هذه التسمية تستدعي الكثير من الصفات التي ترتبط بالوصية الثقافية ، قصر الثقافة ليس منتدى ثقافيا او اتحادا ثقافيا ، انه القصر الذي يحتضن النبيل والمترف ، والذي يؤمن الحصانة من وسخ الشارع وغوغائيته .

اذا ، تأسس قصر الثقافة ليكون رمزا ايديولوجيا ثابتا ، وليحافظ على النقاء المثالي الذي يميز لبنان .

هذه الحقيقة واضحة عند الذين عملوا على تأسيسه ، لانهم لاحظوا ان النتائج الثقافية التي انتجتها الحرب تنصب في اتجاه يتلاءم مع السلوك السياسي ، ويختلف بالتالي عن الاتجاهات الفكرية في مرحلة السلم .



في الحرب ، استمرت الثقافة الوطنية تسلك الدروب ذاتها التي كانت تسلكها في الفترات السابقة . فالتبيعة الانسانية للاعمال الادبية ، والطموح للتعبير عن احلام الناس ، والرغبة في النفاذ من العلاقات الخاصة الى العالم . كلها استمرت في الثقافة الوطنية في مرحلة الحرب . وقد تم التعاطي مع الحرب ، بوصفها حالة انقلاب في الزمن ، وباعتبارها حافزا على تغيير جهات الرؤيا . كانت الحرب بالنسبة للادباء الوطنيين مفاجئة . ومعظم الاعمال الادبية التي انتجت في الفترة الاولى ، كانت تحمل الشكوى من فقدان القدرة على التخلي عن الماضي .

الادب الوطني في لبنان ، رغم قدرته على تفتيت الاحلام الكبيرة ، ورغم الطابع المتحول في مضامينه واشكاله ، لم يستجيب للحرب ، وعانى من انعدام قدرته على الاستجابة ، وقد اعلن ذلك بنصوص كثيرة . كانت الحرب بالنسبة اليه ، زمنا انفجاريا ، انعطف عن الزمن السابق بما لا يكفي من المقدمات . وهكذا بقي الادب الوطني في تشكيله ومضامينه استمرارا للادب السابق ، رغم ان طموحه الرئيسي كان على الدوام ، يتمثل بالرغبة في تغيير المنطلقات ، مما يدفع الى الانسجام مع الجماهير وحركة التغيير السياسي الراهنة .

الادب الانعزالي والثقافة الانعزالية كانا على الخلف من ذلك . لقد استطاع هذا الادب ان يزيح عن كاهله ارثا كبيرا . هذا الارث هو السمة المثالية المطلقة للثقافة ومن ضمنها الاعمال الادبية . الثقافة الانعزالية استطاعت ان تنتقل فجأة ودفعة واحدة من طور الى طور . فالثقافة القديمة - ثقافة السلم - كانت تتشبه بالمنطلقات الجمالية والسحرية . وقد تم الانعطاف ، دفعة واحدة ، مع ثقافة هي ثقافة الشارع المحارب . لقد انحدر الشعراء والادباء والفنانون في المناطق الانعزالية الى الحرب ، باعتبارها حالة استعداد وعيش شاملتين ، وتخلوا ، بما يشبه المفاجأة عن المنطلقات التي حددت اعمالهم القديمة .

وقد يتساءل السائل عن هذه المفارقة : كيف لم يستطع الادب الوطني ، رغم انطلاقه من منطلقات انسانية مخولة ورغم المراحل المتحولة التي عاينها في تاريخه الاخير ، كيف لم يستطع ان يتحول مع الحرب . بينما استطاع الادب الاخر المنقل الكاهل بالارث القديم والمتنوع عن التحول ، ان يتحول دفعة واحدة الى التفاصيل الدقيقة للصراع .

ان الاجابة على هذه المفارقة تتبع من البنيان الثقافي والنفسي لكل من الادبيين . فالاديب الوطني كان منسجما مع الثقافة التي ينتجها ، وكانت الثقافة المنتجة تشمل طموحاته وقضاياها وتعبر عن انتمائه السياسي والنفسي ، لقد كانت تلك الثقافة تعبر عن الحلم المتحول في شخصيته ، فانسجم معها ، دون ان تتشكل كبعد اضافي من ابعاد وعيه ، بينما كان الاديب الاخر « ينهل » من معين قديم غير متحول ، وتعني الثقافة بالنسبة اليه محاولة للتوحد مع المجرى ، لهذا كانت تؤدي الى الانسلاخ عن الواقع الراهن . كانت بعدا اضافيا غامضا من ابعاد وعيه ، يتم الاندماج معه في الحالات الصوفية . بينما تركيبه الباقي ، « وعيه الحقيقي » يسعى في مسار آخر . كان الخاضع للايديولوجية الانعزالية مزدوجا بين ثقافته من جهة وعيشه من جهة اخرى . وكان العيش يخزن يوما بعد يوم احتجاجات وغرائز فجرتها الحرب دفعة واحدة . كانت الحرب بالنسبة اليه لحظة تنفجر فيها الغرائز ، كانت تعطي الجرأة على قول ما لم يكن شرعيا قوله . لهذا قال في ابائها ما لم يكن يعتقد مرة انه يشكل موضوعا للفن .

السؤال الثاني الذي ينبثق عن هذه المفارقة ، يأتي من التشابه الكبير بين النتاجات الثقافية التي انتجت تحت وطأة هذه العلاقة . لقد قال الشعراء والادباء والفنانون قولا واحدا في المناطق الخاضعة للسيطرة الانعزالية . يشعر القاريء او المشاهد انه يرى الى شيء واحد . فليس من فارق بين تلك النتاجات الثقافية حتى في التفاصيل . لقد انطلق المثقفون المنتجون هناك من نفس القناعات وتوصلوا الى نفس اليقين . ولا نستطيع ان نرجع هذا التشابه الى المعين الواحد الذي نهلوا منه قبل الحرب ، اذ رغم انه واحد ومتشابه ايضا ، فانه لا يفضي بالضرورة الى تغييرات متشابهة حين يتم تجاوزه ، التغيير او الانعطاف قد تاخذ مسارات متعددة ، او قد يبعثر الادباء كل في اتجاه . ولكن ما حدث،

لا ينطبق عليه هذا المنطق ، اذ توصل المثقفون الى نتيجة واحدة ، حتى يمكن التقسّاط الجزء الواحد الذي وحد اعمالهم صياغة وتشكيلا وابعادا .

قد يؤدي هذا القول الى القناعة بالوحدة الجوهرية التي تصنف الخاضعين للسيطرة الانعزالية ، كشعب يشكل امة صافية ، ليس بها ما يخلخل نظام الانتماء عندها . والواقع ان هناك الكثير من محاولات التعبئة التي سادت في الاوساط اليمينية تبدأ من مرحلة سابقة بكثير على الحرب . لقد استطاعت هذه التعبئة ، نظرا لانها تنطلق من ثوابت ايدولوجية تاريخية ، ان توحد ردود الفعل تجاه العدو والوطن والغريب . هذه التعبئة بلغت ذروتها في الحرب واقتترنت بصراع دموي يؤكد كل لحظة ان التعبئة ذهبت بعيدا في الاقناع لانها تكتسب مصداقيتها من الدم الذي يهدر والارض المهتدة بالزوال او الاحتلال .

التعبئة باتجاه التوحيد كانت تنمو باطراد مع استمرار الحرب . كانت القيادة الثقافية والايديولوجية تبحث عن « كتلة بشرية » تتمتع برد فعل واحد . ولم تكن تسمح بالطبع لاي من التمايزات والتباينات بين افراد الكتلة . وقد ادى هذا المسعى نحو التوحيد الى الاستغناء بالقسر عن الكثيرين من الذين يملكون قولا مختلفا ، او يقفون موقفا مختلفا . اذ المهم ، تنظيف الساحة ، وان اقتضى ذلك قلة العدد . كان المهم عند اولئك القادة توحيد الولاء على قاعدة الولاءات الجديدة التي تعتبر ان الكتلة البشرية دخلت في حالة الصراع الذي اما يسحق الكتلة او يحقق لها النصر .

محاولة التوحيد هذه تعتمد الى نزع الفوارق بين ابناء الكتلة الواحدة . ليس هناك من مصالح استثنائية لكل من شرائحها . الفرد يذوب في الجماعة ويتحد عضويا ومصيريا معهم . ولا يدري ابناء الطبقات الاجتماعية الدنيا انهم في هذا الصراع يتعرضون للموت لاجل حماية الصيغة التي يستفيد منها القليلون ، انهم يشعرون في قرارة النفس ، بان هذه الوحدة التي تجمعهم في السلوك والوعي والانتماء مع الاسباب الاجتماعيين ، تدعو الى الغبطة الداخلية العميقة ، وتدفع الى الوحدة الشعورية والنفسية معهم ، وتؤكد بالتالي على علاقة الانخراط الانساني بالارض - الام

تبعا لذلك يتكون بين ابناء الكتلة البشرية الواحدة وعي جماعي يجد له ثوابت ومطلقات ستمر على ذكرها في ما يلي من الصفحات . ولكن ما تهم الاشارة اليه في هذا المجال ، ان ليس من تمايز يذكر بين الادباء المنتجين . اذ ان التمايز ينبع عادة من الاختلاف في النظر والرؤيا ، واحتفاظ الاديب او الفنان بهامش ينفصل به عن العلاقات السائدة . في ما أنتج من ادب وفن نلاحظ ان هناك قولا واحدا يتفرع في أشكال التعبير المختلفة ، اذ حتى الجموح التخيلي غير مرغوب به في منطق الكتلة الواحدة . وحين يلقي الاديب او الفنان رؤيته الخاصة ويندمج بالايديولوجي التعبوي ، يتحول الى حرفي يصوغ الحقد المتداول والمشاعر العامة التي يبدو نقلها الى حيز التعبير الفني ضروريا بسبب من ضرورة الدعاية وتعميم الايديولوجيا .

كان الادباء والفنانون حرفيين لانهم انتجوا اعمالهم انطلاقا من نسق طاع . هذا النسق لا يمثل نمودج فني ، كما في التقليد الادبي للانساق السابقة الطاغية ، بل يمثل الكلام الذي ينتشر بين ابناء الكتلة الواحدة . هذا الكلام ينتقل بسهولة الى الاعمال الاديبيسة والفنية بسبب من تعبيره عن الغريزة وتلازمه معها . ويبدو طبيعيا الاستنتاج ان الغريزة لا تحتاج الى تجميل او صياغة جمالية ، لان اي مساس بها وتحويل في طبيعتها يؤدي الى التخفيف من حدة العنف « والبراءة » التي تحتويهما . ان التركيز على الغريزة مقصود

لذاته ، لانه لا مجال لتعبير آخر اكثر عقلانية • فالتعقل يؤدي الى خطر الانفصال عن الكتلة •

هذا النوع من الانتاج الادبي والفني ينبثق عن الشعور الغريزي عند الناس ويرتد اليه ، ونتيجة لذلك نستطيع القول ان هذا الادب قد أدى وظيفة سياسية كاملة • مما يسمح بالكلام انه ادب جماهيري من نوع معين ، وقد التزم الادباء والفنانون هذه السياسية الجماهيرية بدقة فائقة ، عبر تعبيرهم عن مستويين من التوجه : الاول ، يتسم بوصف العلاقة المستجدة بين الانسان والارض والموت والدم ، والثاني يتصل بالحدث السياسي اليومي ونقله الى القصيدة او اللوحة كما هو دون اضافة او تعديل • ونلاحظ من اللوحات التي رسمها بيار صادق في كتابه الذي أعده ابان فترة الحرب ، ان الحدث السياسي منقول من وجهة نظر الشارع المستنفر ، والرموز السياسية هي شخصيات الاعداء فحسب ، هذه الرموز ، الشخصيات تحضر في اللوحات سيرة سياسية لكل من الرموز • واستطاع الرسام صادق ان يعبر عن تاريخ المقاومة الفلسطينية في لبنان بثلاث من اللوحات ، تعبر برأيه عن مراحل « الاحتلال » المختلفة ، ولم يفت الرسام ان يمنع كل فنية عن لوحاته الكثيرة في الكتاب ، لانه يعبر بالفن الاكثر سهولة وقدرة على الوصول الى الناس •



يلاحظ من الكتابات التي صدرت ابان فترة الحرب ، أن هناك غلبة كبيرة للهجة المحكية على اللغة الفصحى ، فالشعراء الاكثر حضورا والاكثر صلة بالاحداث والاعلام كانوا شعراء اللهجة العامية • ولا ننسى القصائد اليومية التي كان يصدرها يونس الابن باسم ابو لبنان وتنتشر يوميا في الصفحة الاولى من جريدة العمل • وقد نشر يونس الابن ديوانا شعريا كاملا عن الحرب اللبنانية « حرب السنين » • والشاعر الآخر العامي موريس عواد كان شديد الصلة بحزب الكتائب في الحرب حتى أصبح يهدي قصائده لرموز هذا الحزب وقادته ، وقد كتب موريس عواد مجموعات خمس « رجال بوجه الريح ، شي مثل الكذب ، لوح الصببر ، تل الزعتر - تل الشهداء ، أماريس » • ونلاحظ الكثير من القصائد العامية التي نشرت في جريدة العمل وجرائد يمينية اخرى كثيرة • كما أن هناك نشرات دورية كانت تصدر باللغة العامية ، ومنها « لبنان » النشرة التي اصدرتها « جبهة حراس الارز » • ولست ادري اذا كان بإمكاننا ان نضيف الشعارات والاغنيات التي انتشرت على الجدران وبين المقاتلين ، اذ ان تراث الاغنية في لبنان والمكتوب باللغة العامية قد يبرر بشكل طبيعي بروز اغنية عامية في المناطق اليمينية • وقد دعى قصر الثقافة في اكثر من مناسبة لنقاشات حول العامية والفصحى اشترك سعيد عقل في واحدة منها • هذه « النهضة » للعامية نجدها ايضا في الدراسة المطولة التي كتبها امين ناجي في العدد الثاني من ملف العمل الشهري • وقد حاول خلال دراسته ان يثبت عدم انبثاق العامية اللبنانية عن اللغة العربية الفصحى • وقد رأى في دراسته ، باعتماد كبير على المقارنات اللغوية التفصيلية وجذور الافعال والكلمات ، أن المحكية اللبنانية ترجع في الاصل الى الآرامية والكنعانية ولا يجمعها جذر واحد مع العربية • كان امين ناجي اكثر وعيا من سائر الشعراء الاخرين بضرورة اعتماد اللبنانية واعتبارها تشكيلا لغويا خاصا ، منفصلا عن اللغة - الام (وبرأيه ان تعبير اللغة الام يرجع الى عهد مخاطبة الطفل لاهه بالكلام الاول ، ليستنتج من ذلك ان اللغة الام عند اللبنانيين هي اللبنانية) •

رأى امين ناجي ان اللغة العربية عامل موحد للعرب والمسلمين ، وقد قال اثناء حديثه

عن الوحدة الاسلامية « هذا الشعور المنفرد في لا وعي المسلمين العرب وفي وعيهم ، كان ولا يزال ذا تأثير بالغ عليهم ، حتى لخلق عندهم صوفية سياسية كاسحة • وقوة الدعوة القومية العربية اليوم مدينة بزخمها لهذه الصوفية المتدفقة • ويبدو ان الارتكاز على اللغة العربية ليس سوى تبرير ودعم في الوقت نفسه لهذه الصوفية » • ثم يعود في الدراسة نفسها ليبين علاقة اللغة العربية بالمسلم « للغة العربية وقع مقدس لدى المسلم ، وجرس أسر يرفعه الى علاءات روحية ويذكره بماضي عز وانتصارات » •

لقد حاول امين ناجي ان يثبت بالنظرية علاقة اللغة بالمجتمع ، واستطرد الى محاولة اثبات الانعزال اللبناني عن طريق اثبات ان إحدى ركائز العلاقة الاساسية بين العرب ، وهي اللغة ، لا تدفع باللبنانيين الى الانخراط « بالعروبة » لان « اللغة اللبنانية » ليست عربية بحال •

عند الشعراء العاميين كانت هذه القضية مفرغة من اطرافها النظري • كان يونس الابن وموريس عواد والكثيرون يشعرون ان اللغة العامية ليست حقل تجارب جمالية ، كما رأي ميشال طراد مثلا وكما رأي شاعرنا في فترات السلم أيضا ، بل ان هذه اللهجة - اللغة ، كما تبدو في قصائد الحرب ، هي التي تؤمن الاتحاد بالطبيعة الاصلية لكيان الجبل • وما اشياء الطبيعة كالشجر والسماء والهواء الا حالات تغريب اذا قيلت بالفصحى • أما حين يقول موريس عواد (سجر وسما وهو) ، فيحس بأنه ينقل هذه الاشياء الى الشعر كما تحضر تماما في الطبيعة •

لم يلجأ الشعراء العاميون الى العامية لانها اقرب الى التداول فقط ، بل لجأوا اليها انطلاقا من موقف اجتماعي نفسي ينسجم مع المضامين التي احتواها والتي سنمر عليها بعد قليل •

وإذا اردنا ان نطور هذا الموقف الاجتماعي النفسي ونمده على غير اللغة • لوجدنا ان اللبناني يرى في كاريكاتور بيار صادق لهجة عامية لبنانية • صحيح اننا انحرفنا عن مسار التحديث عن اللغة ، ولكن الدلالة التي تؤدي اليها العامية ، قد تحضر ذاتها عندما يرى الانعزالي الى لوحة لبيار صادق • لقد استطاع بيار صادق ان يؤكد على لبنانية أعماله بان تخلص عن الرموز - القضايا وجعل رموزه تمثل السياسيين اللبنانيين وخدمهم ، والعلاقات التي عقدها بيار صادق بين السياسيين اللبنانيين في لوحاته هي علاقات عامية ، مثبتة من الذهنية الانعزالية المتداولة • كانت الصلات بين الممثلين السياسيين عنده ، والعلاقات بينهم ، تتم وفق حقل من النكات هو السائد في المناطق الانعزالية ، اضافة الى الحوارات التي تأخذ عادة طابع الازجال • والحوار بين سياسي وآخر او بين مجموعة من السياسيين يتم تماما كما في حفلة الزجل • بالاضافة ايضا الى انتظامه في فترة الحرب بألية الوعي التي حددت للمعركة مواقف وللبنان دورا • لقد عمد الى تبسيط لوحاته ، ونزع عنها كل ما هو شائك ومركب ، واعتبر في أعماله ان النكتة ايضا تساهم في التعبئة •



يقول ليونيل ريشار في كتابه « النازية والادب » (الذي نقل فضلا منه الى العربية جوزف سماحة) « ان الحرب بالنسبة اليهم - الى النازيين - ليست اساس الدينامية

الحيوية فحسب بل هي أيضا مصدر القيم الانسانية . انها مدرسة للبطولة ، تطور الروح الرفاقية ، وتمنح الفرد حس المجموعة القومية . وتعتبر تجربة الحرب كتمهيد لحياة الراشد . فبالحرب ينكشف الانسان ، الجبان او الشجاع ، لنفسه - أما الامة فتشدد بقدر ما تخوض من المعارك : القبور فقط تحدث الوطن » .

في الشعر الانعزالي تبدو الشهادة موضوعا قائما بذاته . انها شعار تنضوي تحته القصائد . ولشدة استقلالية الشهادة ، تتحول الى قيمة بين مجموع القيم التي يندرج تحتها الادب الانعزالي . ليس الموت نتيجة لمقدمات واضحة ، بل يغني لنفسه ، لموضوعه الخاص .

وفي السياق الغريزي يتحول الدم الى ماء يعمد الارض . لان الارض اذا تركت دون هذه السقيا ، تتعطل العلاقة العضوية بين الانسان واشياء الطبيعة . يقول موريس عواد في كتابه « رجال بوجه الريح » .

« من زمان تعمدا بالمي ، اليوم تعمدا بالدم . صرنا ندق كتفنا بالموت وما نخاف » .
وفي مكان آخر من الكتاب يقول :

« يس اليوم صارت البطولي انو نموت ، انو نمشي صوب الموت وعم نضحك » .
وفي قصيدة اخرى له « تزكار من المعركي » يصف حوارا بين مقاتل ومقاتلة اصابتها رصاصة . القصيدة تتم على شكل حوار تعلن المقاتلة في متنه ان الاصابة جعلتها تغير علاقتها بالعالم . تقول :

« - صرت حب النوم بالماتريس واتغطي بنجوم لبنان » .
« - بعد هالجرح كل شي تغير . حتى حجار البيت صرت شوفن غير شكل » .
« - حسيت كأنه خلقت من جديد وعمري عشرين يوم » .

لقد اكتشفت المقاتلة علاقة جديدة مع الوطن بعد الاصابة . ونستنتج ان زمن الاصابة كان زمنا ضائعا . في زمن ما قبل الاصابة ، لم تكنه شكل العلاقة بوطنها ، لم تستطع ان تتوحد عضويا معه ، « صرت حب النوم بالماتريس واتغطا بنجوم لبنان » . الاصابة هنا ترتفع في جهاز القيم ، وبوصفها شبه موت ، او مقدمة للموت ، تخلق هذه الاصابة متعة لم تكتمل . ونستنتج من القصيدة ان اعادة اكتشاف العالم تمت لدى المقاتلة بما يشبهه التلمس الاولي لحقيقة الاندماج الكبرى بالموت . ولكن الاصابة تحقق بعض الغاية لانها اسالت الدم الذي وحده يحقق عمادة الانتماء للوطن .

ويمتدح الى حد بعيد ان نقارن بين الكلمات التي انتخبناها من موريس عواد والنص الذي كتبه ليونيل ريشار عن العلاقة بالارض كما تظهر في ادب النازيين .

الارض حاضنة القيم الخالدة ، والقيم مهددة دائما بالزوال او النسيان . ولا يخلص الارض وقيمها من الزوال الا الاثمان الباهظة . والفاشية تتطلب صراعا مريرا مع قوى غائبة كي يتحقق الاتحاد العضوي بين الانسان وارضه . لهذا تكون الحرب زمن تحول القوى الغائبة الى قوى فعلية تتحرك وتهدد . لهذا تتحول الحرب الى ان تكون الزمن الاكثر حيوية ولهذا « يجب ان تغنى الحرب كي تصبصح اسطورية ، والا سقطت في النسيان ، وفقدت الامة رجولتها » .

في قصة لجورج شامي نشرت في ملف العمل الشهري العدد السادس تحت عنوان عاربة

في البيت الخراب ، بذور شك تدفع المقاتل الى الطعن بمجموع القيم التي اكسبته اياها الحرب ، فيشكك بالعقيدة واليقين وينتابه شعور بالذنب لقتله الاطفال والنساء . وتحول حالة الشك عند بطل القصة الى ما يشبه التوزع بين عالمين ، اليقين الكامل ، والتمرد على اليقين . وتقول القصة ، ان التردد والشك هما نتاج لحالة الهدنة التي وضعت البطل في بيته ومنعته عن القتال . ولكن . . . في نهاية القصة ، ينحل التردد ويذوب الشك ويرجع البطل الى حالة الاستقرار النفسي الذي اربكته الهدنة . يرجع البطل الى استقراره بعد ان يتقدم الاعداء من خلف الجبال ، فيأتيهم بطل القصة ويعمل فيهم تفتيلا وتسيلا دماؤهم وتهبط جثثهم على الارض . عند ذلك يشعر البطل بأنه أسترد ما اضاعه . اذ ان اليقين الكامل لا يتحقق الى بفعل الموت الذي يحقق هداة النفس ويشبع ظمأ الارض .



ولئن انخرقت بعض الكتابات عن السياق العام الذي نلاحظه في الشعر والادب الانعزاليين . فهذا الانحراف يرجع الى عدم قدرة صاحبه على اللحاق بشكل التعبئة الجديد ومضمونه . يونس الابن ليس شاعرا مقاتلا ولو انه يعلن انتماءه من القصيدة الاولى في ديوانه « ابو لبنان وستين حرب » . صحيح ان يونس الابن حقق النقلة النوعية في التوجه الى الناس نحو اعتماد اشكال فنية أقرب مثلا وتداولها من شعره السابق على الحرب . لكنه لم يستطع الالتحاق بالشعر المقاتل . يونس الابن كان قبل الحرب يحاول في شعره ان يرفع لبنان الى مستوى الحقيقة الشعرية . ولا ننسى قصيدته التي غناها وديع الصافي « لبنان يا قطعة سما » . هذه القصيدة ترى للبنان بعيدا عن الصراعات الارضية والطموحات الارضية . دوره في العالم يتمثل بالشعر . اذ في حين ينشغل البشر بالاختراعات والاكتشافات ترى لبنان ثاقبا في الزمن :

« معرض الاهي ،

بالسما مسقوف

كيف ما التفتنا حولنا ،

منشوف

لوحات عا ها الارض مشلوحه ،

كل لوحة تغار من لوحة . . . »

لبنان ينسبه صراعاته وهمومه الارضية . وطبيعي ان يكون سكان اللوحات الجميلة عرقا من البشر يختلف عن الاعراق الاخرى . وحين يشتعل لبنان ويتقاتل ابناءؤه فانما بسبب الوافد الغريب ، المقيح الشكل السيء الطباع .

هذا الوافد الغريب السيء الطباع المغتصب الارض والاعراض اتي ليزرع الشقاق بين « الاخوة اللبنانيين » ، يونس الابن ، رغم انسجامه مع متطلبات ادب الحرب التي تقتضي تغييرا في شكل التعبير ومداه . الا انه لم يندرج نهائيا في مجموع المقولات التي كتبناها الجميع ، وهي مقومات لا تتجاوز منطق الشعار . قلنا ، يونس الابن يتسع في الادب الانعزالي حالة تقع في سياق تطور الثقافة الانعزالية التي مرت بمراحل عديدة . فننـذ

لبنان الجمال والنبيل الى لبنان الدم تقع تبدلات تطراً على الثقافة الانعزالية . وكل مرحلة من المراحل المتعاقبة على هذه الثقافة يتشكل مفهوم ثقافي للبنان يتحدد بعلاقاته السياسية وصراعاته وسلمه . يونس الابن في كلامه الى الاخوة بين اللبنانيين وعلى وحدة الهدف والمصير التي تجمعهم يستقر في مرحلة من مراحل تطور الوعي اللبناني للبنان ، رغم انه يعلن انتماءه لفئة منهم على الصعيد العملي .

يشكل مصطفى جحا حالة فريدة في الكتابات الانعزالية ، انه واقد الى المناطق الانعزالية طوعا . والاهمية التي منحه اياها جريدة العمل تتبع من هذا المنطلق . حاولت جريدة العمل التعريف به ، بانه « الهارب من جور الارهاب الفلسطيني » .

وكتابات مصطفى جحا تختلف نوعيا عن الكتابات الاخرى . انه يميل يوميا الى تقرير الواقع السياسي المتبدل ، وهو ، في كتاباته يكتفي بالرسائل يبعثها الى اهله واعدائه و « المحتلين ارضه » . ولم تستطع جريدة العمل ان تدرجه في سياق الادباء والفنانيين الذين حملوا قضيتها في الحرب . بقيت كتاباته دون تاريخ ، بقيت قولاً سياسياً ليس له ما يؤهله في التراث الانعزالي المستمر منذ الكتابات الاولى حول لبنان . لهذا اكتفى مصطفى جحا بكونه حالة خاصة تمتعت بحق اللجوء الادبي دون ان يعطيه اللجوء ملامح « الامة » التي انتمى اليها .

وقد يحتج الكثيرون عند قراءة هذه الصفحات على النماذج السيئة التي تم اختيارها . وقد يقال ، ان مصطفى جحا مثلاً لا يجوز تناوله بالنقد لانه لا يستحق حتى ذكر الاسم ، وكذلك الامر بالنسبة للكثير من النصيصة والادباء الذين تم التعرض لهم .

الاجابة على هذا الاحتجاج تكمن في الادب الانعزالي نفسه . اذ الانعزالية والفاشية لا تحاولان الفن ، بل تحاولان في الكتابات التي تصدر عنهما الدعاية والتعبئة ، يريدان ان يكون الادب ذا فائدة فحسب . وقد تم تناول الادب الانعزالي في هذه المقالة باعتباره تعبيراً عن هذه الحالة . انه رديء في معظمه ولا يستحق حتى القراءة . ولكنه ، رغم رداءته ، يقول الكثير ، ويصل الى الاسس التثقيفية التي عبا بها القادة العسكريون مسلحيهم المستنفرين ابداً .

لهذا تكون دراسة الكتابات تلك تتسم بالمنحى الاجتماعي ، لانها تقدم مفاتيح للفهم ، دون ان تطمح الى ان تشكل اضافة .



لقد رحل الادب الانعزالي بفترة قصيرة الى طروحات الادب الفاشي وموضوعاته . اذ ان الموضوعات التي تكلم عنها الشعراء الانعزاليون هي ذاتها التي تناولها الفاشيون . وكذلك طبيعة العلاقات الخاصة التي تحكم الفن تجدها متشابهة في الادبين . لقد استطاع الانعزاليون ان يصلوا الى ما قاله هتلر وموسوليني وزيغلر وغيرهم . ولدى متابعتها النصائح التي اسداها كل من هؤلاء الى الادباء ، نجد ان النصائح نفسها تم الاستفادة منها في ادب حرب السننتين . العلاقة بالارض والوطن والموت والدم والغريب المغتصب هي ذاتها في الادبين .

هذا يدفعنا الى الاستنتاج ان الانبثاق الاخير للايديولوجية اللبنانية كمن في تلاقها مع الفاشية . ويبدو ذلك طبيعياً ، لان في الانعزال الذي يقوم على سحر الطبيعة وخصوصية العرق والحلم الذي لا يتحقق الا عبر القيم الغامضة . في هذه العناصر تكمن فاشية مؤجلة ، لا تلبث ان تتحقق وتكتمل حين « يتهدد الوطن » وتتطلب الارض الدم .

ورشة القتلة

(١)

جسدي دافية

والإصابة مزقت الثوب

لكنها لم تزل معلقة بين جلدي وبين السماء

رثي لم تزل في مهبّ الهواء

وقليل من الدمع يجري

ولكنني كنت ألغيت هذا المصب إلى كربلاء

ليس للحزن ما يحفر الدمع

لكنه فرحي

إن سبعين ألفاً من النجم تهوي

لتلمس هذا الدم المستحيل

فاجرحوني

أنا ذبيحتكم في الزمان البخيل

(٢)

جسدي قارب

والطيور تحلق مزهوة كالشعاع

قلت للطائر المنتمي لجناحيه : يا سيدي

مَنْ يريح المَعذِبَ من طعنةٍ في الشراعِ ؟
 مَنْ يبادلني منزلي بقليلٍ من الريحِ
 ويأخذ أربعةً من صغاري إلى المقصلةِ
 إنَّ أصغرهم ينتمي للعصافير
 لكنه أجمل منها
 وأكبرهم جفَّ كالوردةِ المهملهِ .

(٣)

جسدي غاربُ
 والقرى تدحرج خلفي نواقيسها :
 قَصَبَ النهرِ
 ثرثرةَ الماءِ في صمتهِ
 حجراً لاجئاً في سلامِ الغبارِ
 (جعفرَ) النبويِّ المسيطرِ من طرفِ الله
 والقروياتُ شاختمةً نحوهُ
 وهو مثذنةُ
 أو دمٌ في الجدارِ .

(٤)

جسدي قاربُ
 والقرى تدحرجني في السيولِ
 قلت للريحِ فوق الطبولِ
 سلاماً

أنا غاربٌ فاتبعيني
 قلت للنعجة المطمئنة في خوفها
 سلاماً
 أنا غاربٌ فاتبعيني
 قلت للماء في صمته
 قلت للحجر اللاجئ تحت الغبار
 للمساء الذي يتشبَّث بي وهو يلفظ شمساً أخيره
 (لسعدى) التي متُّ عامين في حبِّها
 سلاماً كبيراً
 أنا غاربٌ فاتبعيني
 ولكنني حين جاوزت حدَّ الظهيره
 لم أجد غير ظلي .

(٥)

جسدي هاربٌ
 والقرى تدحرج خلفي جواسيسها :
 قصبَ النهرِ
 ثرثرة الماء في صمتهِ
 وشايتة بي
 (جعفر) الدموي
 والقرويات
 والنعجة - الذئب
 والريح
 والمثذنه :

كل هذي الكلاب المدربة المؤمنة
تقتفيني .

أقول وداعاً بلادي

وداعاً قيودي الصغيره

لم يعد للمغتني فم

ولا طعم للعاشقين

والذي يفصل الشمس عن طفلها

ورشة القاتلين

هنا كل موت بمقداره :

$\frac{1}{4}$ كوب من (الدال)

في

$\frac{1}{4}$ كوب من (الميم)

في

$\frac{1}{4}$ نصف السماء

هكذا

ينتهي

آخر

الأنبياء .

حمى ايتماتوف

قليل من متعلمينا من لم يقرأ ايتماتوف ، والنادر فيهم من لم تصبه تلك الحمى التي اشتهرت في كل القارات باسم « حمى ايتماتوف » . ابتدأت هذه الحمى المدوخة كضربة شمس ، عندما نشر قصته « جميلة » . وكما هزت قصة « الام فرتر » لغوته شباب اوربا الحكمة الغارقة في مدرستها الوقور لتدشن عهد انعتاق الفرد الرومانتيكي في مطلع اليورجوازية . دخلت قصة ايتماتوف التاريخ الادبي والاجتماعي كاغنية حب فريدة في هذا العصر الصناعي الذي تشيات فيه العواطف ، وخدمت حرارة العلاقات الانسانية .

عشنا نفتش في حياة هذا الكاتب القرغيزي عن شيء غير عادي ، بل يمكننا ان نقول انه عاش حياة لا تتميز عن ابناء جيله . فلقد ولد عام ١٩٢٨ وادرك الحرب وعمره اثنا عشر عاما . ذهب الرجال الى القتال ، واصبح الوطن يحتاج الى كل ساعد ، فترك جنكيسز ايتماتوف المدرسة وهو في الصف الخامس ، واخذ يعمل محاسبا في وحدة الحصادات ثم امينا للمجلس القروي . وعندما انتهت الحرب الرهيبة التي خطفت معها عشرين مليونا من زهرة شباب الاتحاد السوفيتي ، اتم ايتماتوف تعليمه في المعهد البيطري المتوسط ، ثم في المعهد الزراعي ، واخذ ينشر بعض الريبورتاجات والقصص القصيرة في الصحف لفتت اليه الانظار فاعتمده « البرافدا » كمنسوب خاص الى جانب عمله بضع سنوات في المزرعة التجريبية ، وهكذا اجاب ايتماتوف بتكليف من « البرافدا » قلوبا قرغيزيا وجبالها الرائعة، ملاحقا نبض الحياة فيها ، ناهلا من منابع الحكمة الشعبية وغناها الاسطوري ، مستمعا بذهول الى جمال اغاني الرعاة ، وعزف الزوجات على « الكومور » فوق رؤوس رجالهن المتعبة ، مقعم القلب بالاسى وهى يرى ما خلفته الحرب من نكبات قاتلة ، مضطرم الروح بالغضب وهو يلتمس الاثر المدمر الذي تخلفه الليبروقراطية والانتهازية التي طبعت بعض الادارات في زمن عبادة الفرد .

« آه ايها الناس ايها الناس ! ما الذي لا تستطيعونه ؟ » هكذا هتف ايتماتوف في

« وداعا يا غولساري » وفي مثل هذه الجملة يكمن مفتاح ادب الكاتب . لقد كانت تأسره قوة الصلابة الاخلاقية في روح الرواد اللينينيين الاوائل الذين قاموا بأكبر ثورة في التاريخ ، ودحروا الاعداء وحطموا الفاشية ، والذين ابوا ان يهزموا امام الكوارث الطبيعية او النذالة البشرية ، والذين كانوا يعتبرون الخوف احط الصفات الانسانية ، والموت اخا حنوناً في سبيل ما يعتقدون .

انها الام التي فقدت كل اولادها في الحرب في « ارض الام » تقف ثابتة فوق ارضها رافضة ان تتحطم بروحها ، مفكرة في المستقبل . انه ذلك الجندي نصف المتعلم في « المعلم الاول » الذي وقف ضد التقاليد ، وحمل اكااديمية المستقبل ، وانتزعها من زوجها الضاري الذي اشتراها ليعذيبها كل يوم ، وارسلها الى المعهد لتتعلم ، وابتى ان يتراجع رغم الجروح التي امت به ، والعذابات التي انزلها به الزوج القاسي ومعاونوه . انه « تاناياي » في « وداعا يا غولساري » ذلك الذي لم تأخذه بأخيه رغبة فنزع ملكيته مع اندلاع الثورة ، وحارب الهتلريين ست سنوات ثم عاد ليرعى الاحصنة الشياة في اعالي الجبال في حال جحيمية ملأى بالصراع الضاري مع الطبيعة ومع المترهلين وراء مكاتبهم الدافئة يصدرون الاوامر ويعنفون . انه الطفل في « السفينة البيضاء » الذي يترك في نفوسنا تأثيراً عاصفاً بنهايته المفاجعة كرمز لمحاولة قتل الطهارة والنبل .

بطل ايتاموف هو « انسان العمل » حسب تعبيره هو ، انه تجسيد الواقعية الاشتراكية التي اعادت بناء الحياة الاجتماعية « حين توجهت الى تصوير اولئك الناس الذين يعتبر عطاؤهم الابداعي ينبوع الحياة . ان عظمة الرجولة التي يظهرونها بكامل شكل حياتهم تتضمن الفلسفة الاعمق والانسانية حقا ، كما تتضمن شاعرية الاحساس التي لا يبلغها الانسان بواسطة التفكير المجرد الخيالي ، بل نتيجة النشاط الخلاق والعمل الدؤوب ، فانسان العمل - ذلك هو الشاعر بالمعنى الحقيقي للكلمة » (١) .



كان من الممكن لهذا الكاتب الناشيء ان يقنع بريورتاجاته وقصصه المرضي عنها ، ويهذه الرحلات التي لا تنتهي بين الجمهوريات ، ولكن قلبه المغمى شعرا وحبا وأسى ، وطموحه لان يعبر للناس عن كل تجربته الفنية ، دفعاه لان يترك المزرعة التجريبية لتربية المواشي ، بعد ان عرف كم هو عدد العروق النافرة في الحصان وهو ينطلق ، وسمع صوت الحليب وهو يغلي في الضروع المملنة ، وتلمس يديه نقات قلب الحملان المبللة وهي تستقبل العالم ، واستطاع ان يفكر ويرى ويشم كالحصان الاصيل والنعجة المسالمة ، وحمل معه اصوات الريح وهسيس الثلوج وجلال الجبال وصمت السهوب ، وغضب العواصف ، حمل معه هذه الزوادة الكونية وذهب الى موسكو ليتم دراسته في المعهد الادبي سنة ١٩٥٨ وهي نفس السنة التي ظهرت فيها قصته « جميلة » . . .

جميلة الفتاة الساحرة السمراء ذات العينين السراوين والجدايل المضفورة المتوثبة كمهر بري ، المرحة النشيطة والمشاكسة ، لم يكن قد مضى على زواجها من الراعي صادق سوى اربعة اشهر عندما ذهب زوجها الى الحرب . وصادق هذا جامد الشعور ومحافظ على التقاليد البالية ، فهو رغم اعجابه بزوجته فانه يعتبرها ، كما هي العقلية القرغيزية القديمة ، متاعاً من امتعة البيت اقل مرتبة من الحصان والنعجة ، وها هو صادق يرسل من الجبهة الرسالة تلو الرسالة يبدأها باجلال والديه والسؤال عن الاقرباء والحيوانات

والطقس وفي آخر سطر من الرسالة يقول باستحياء : « ابعث بتحية أيضا الى زوجتي جميلة ، لا ٠٠ مثل هذا الزوج لن يكون سيد قلبها الحر الابي ، لا ، ليست له هذه الاغاني التي تطلقها في السهب كالغيوم الحليبية ، وهكذا التقت بدانيار الجندي الجريح العائد من الجبهة ، الصامت ، الحالم ، الهزيل كعود من القصب ، ولكنه يملك ذلك القلب الذي يستطيع ان يحتضن العالم ، وتلك الصلاة الروحية التي جعلته يتحدى شرطه الانساني في حادث المحطة ، وهام دانيار بجميلة ، ولكنه أخفى بين ضلوعه حبه المستحيل . وذات يوم ، وهما عبثان من تسليم الحبوب ، فاض الحب في قلبه فأخذ هذا الصامت الابدي ، هذا الخجول المتوحد يغني . »

يقول راوي القصة « في هذه الاغنية تكاد لا توجد كلمات فهي تفتح النفس الانسانية بدون كلمات ، ولم اسمع مطلقا لا قبل هذه الاغنية ولا بعدها اغنية شبيهة بها : فهي ما كانت تشبه الاغنيات الكازاخية ولا القرغيزية ، انما بها شيء من هذه وتلك ، وموسيقى دانيار كانت تحمل في نفسها احسن الحان هذين الشعبين الاخرين وتفرغهما في اغنية واحدة فريدة ، فكانت تلك الاغنية اغنية الجبال والسهوب ، وهي ترتفع احيانا عالية مثل جبال القرغيز ، وحيانا تسير سهلة دون حاجز مثل سهب كازاخي ، كيف كان دانيار غنيا بالالحن الى هذه الدرجة ؟ ماذا حدث له ؟ ٠٠ وفجأة بدا لي كل شيء مفهوما ٠٠ لقد كان رجلا عاشقا ليس للانسان فحسب ، وانما للحياة والارض كلها . »

وفتح غناء دانيار امام جميلة كل العالم الارضي بجماله وقلقه ، وكانت عندما تصغي اليه تحس برغبة الي ان تلقي بنفسها الى الارض وتعانقها ، لقد شعرت بشيء جديد لا يقهر ، وهو ضرورة الاعراب عن نفسها ، واشراك الآخرين بفكرها وشعورها . وهكذا لقي هذا القلب الحر الابي نده الرائع ، وهكذا تركا كل شيء وانطلقا معا في ارض اللسه الواسعة يحدوهما هذا الحب المتألق وينير امامهما طريق المستقبل .

القصة لا تلخص ، فليست جميلة ودانيار وحدهما بطليها ، كل شخصية اخرى تتوهج بالحياة ، الطبيعة بجلالها تندغم بالصراع الانساني كبطل وليس كاطار مكاني او زمني . الاقاع يدور بشكل كوني ، اذا صح التعبير ، وهذه سمة شولوخوف ايضا ، ولكنها هنا مع شاعرية شرقية تأسر القلب ٠٠٠ يقول الكاتب الفرنسي اندريه فورمسير « من يقرأ ايتماتوف لن تبقى في ذاكرته عينا جميلة السوداوان وضفائرها اللزقة فقط ، ولا اغاني دانيار التي تعتصر القلب ، ولكنه سيتذكر طويلا كذلك ، الحقول والسهول الشاسعة ، والسبل الهادر ، والعربات المحملة بالحبوب وهي في طريقها الى البيدر او الى المحطات ، وسيتذكر كذلك عاصفة آب الليلية » . لا يمكن الا للواقعية ان تضم مثل هذا الشمسول الفريد ، هذه الشخصية التي تستيقظ من اعباء القرون الخاملة تحدوها الحماسة السى تحطيم كل الحواجز في طريقها ، تذكرنا ببعض سمات الدراما الاغريقية والشكسبيرية ، ودانيار يذكرنا ، وبالصحاح ، بملامح ابطال بايرون ، ولكن جميلة لم تكن ، مع ذلك أفضل روايات ايتماتوف ، لقد كان يعد نفسه لافاق اوسع عبر اروغ تعبير في روايته العظيمة « وداعا يا غولساري » .



قصته الثانية المهمة « شجيرتي في منديل احمر » اشرت تأثيرا كبيرا على الجيل الشاب ٠٠ ان بطل هذه القصة بائس بحد ذاته ٠٠ تجربته الميول الانانية واثبات الذات

لا بالثأيرة والصمود ، وإنما بالمغامرة . . . تجرّفه نحو السقوط . ولكنه بتصرفاته الشائفة يجرف معه في العربة الهاوية أكثر احبائه القريبين . ان احداث هذه القصة بسيطة جدا ولكنها بدمجها بين الرومانسية الرفيعة والعميقة ، وبين الحقيقة الخيالية . . . اكتسبت بعدا درامياً شاملاً ، ولا عجب ان اعدت للمسرح الدرامي ولا عجب أيضاً ان حولت السى باليه « أسيل » (وهو اسم البطلة) رغم تخوفات المؤلف وشكوكه « اشعر وكأن ابطالي قد اداروا لي ظهورهم وقرروا بدء حياة مستقلة جديدة فتركوا الطرق الجبلية الوعرة الى عالم آخر هش وجميل » ولكن مخاوفه لم تكن في محلها ، فابطال قصته الرومانسيون - السائقون وعمال الطرق المهرة - ظهوروا في مكانهم تماماً على خشبة الباليه ، والمعرض يجري بنجاح كبير على مسرح البولشوي الشهير في موسكو .



ظهرت قصته الثالثة « عين الجمل » لتصور الصدام العنيف بين فهمين مختلفين للعالم : الفهم الاشتراكي وفهم الملكية الصغيرة الخاصة . لقد كان الصراع بينهما مهادا غطى قضية حياتية ملحة في تلك السنوات التي حفلت بالانجازات والاحباطات .



القصة الرابعة « المعلم الاول » وهي نشيد ملحمي للعمل المتفاني ، والاخلاص الذي لا ينثني لقضية الثورة ، وفيها يذكر ايتمانوف - حسب قوله - الشباب الحالي بأبائهم الخالدين .

يعود الجندي ديوشين من الحرب الاهلية الى قريته « كوركوريو » بعد ان هجر ابوه القرية منذ زمن ، فلا يتذكره سوى المسنون ، عاد بمعطفه العسكري العتيق وجمع الاهلين وفاجأهم بأنه اصاب في الجيش بعض التعليم وانه مكلف بفتح مدرسة في قريته العزيزة .

ويفاجأ بموقف الفلاحين المعاند الذي يتحول الى عداء عندما يطلب منهم خشباً لاقامة جسر ، ولترميم اسطبل البك لتحويله الى مدرسة ، ولكنه لم ينثن عن عزمه بل بدأ وحده بالعمل بين سخرية اهل القرية ومشاكساتهم ، رغم قسوة الظروف وسوء التغذية ، وانعدام اي عرن :

- اهذا هو المعلم ديوشين يحمل حزمة .

- هو بنفسه !

- يا له من مسكين . الظاهر ان عمل المعلم ليس بالامر الهين ايضا .

- انه لا يقل عن خادمة البك ؟

وكان ديوشين يسمع ويعمل غير آبه ، حتى استطاع ان يهيء ما سمي بـ « مدرسة ديوشين » .

ودار ديوشين بمعطفه وورقته الموقعة بختم السلطة السوفيتية يجمع الاطفال ، ويصعوبة استطاع التغلب على العقليات القديمة وخاصة عند عمه التيناي سليمانوف بنت الرابعة

عشرة التي كانت تستخدم قريبتها كالخادم وتسومها سوء العذاب ، والتي كادت تحطم رأس ديوشين بالمعسول .

وهكذا بدأت تلك العلاقة الرائعة بين المعلم وتلامذته وخاصة التيناي الصبية المتفتحة على الحياة الجديدة ، والتي كانت تلتهم معارف ديوشين المتواضعة التهاما ، ونشأ حب صامت عميق بين الفتى المعلم وطالبته الصبية ، ولكنه كان يتمنى ان تذهب التيناي الى المدينة لتتعلم :

– أنت لامعة الذهن يا التيناي ، وقابلياتك جيدة .. آه لو استطيت ان ارسلك الى المدينة الكبيرة .. لاصبحت شخصية ما اروعها .

العمة العجوز وقد أحست بخطر العلاقة بين المعلم والصبية تستقدم احد الرعيان الاغنياء من الجبال لتبيع التيناي له كزوجة ثانية ، فتقبض مبلغا من المال وبعض النعاج .

ويعلم المعلم بالخبر فيمتنع التيناي من الذهاب الى البيت :

– ساكون مسؤولا عنك ، ستعيشين معنا ، لا تغيبي عني ابدا .

ويعد يومين اقتضت العمة المدرسة ومعها ثلاثة فرسان .. حاول المعلم ببسالة الدفاع عنها ، ولكنهم انهالوا عليه بالضرب حتى كسرت يده والقي في النهر بين الموت والحياة، واختطفت التيناي ، وفي نفس الليلة اغتصب .

– « يا عمتي يا سوداء الروح ، عليك اللعنة الى ابد الابدين .. شرقت بدموعي ودمي . وفي تلك الليلة ، بعد خمسة عشر عاما من ولادتي اصبحت امرأة .. وكنت اصغر من اولاد ذلك المغتصب » .

فكرة واحدة كانت تعيش في روحها .. الهرب .. الهرب . اخذت تحفر باظافرها الارض المتجلدة في الليل والراعي غارق في شخيره المخمور ولكن الصبح طلع واستفاقت القرية تستعد للرحيل نحو الجبال نحو الموت .. حينما تقدم من باب الخيمة رجال الميليشيا وعلى رأسهم ديوشين المضمدم المكسور الذراع .

كشفت الغطاء عن الوجه الاحمر اللحيم صارخا :

– انهض .

وامسك به من تلابيبه وهزه :

– « خنزير .. الان اذهب الى المكان اللائق بك .. اذهب .. تظن انك تدوسها كما تدوس العشب ، وتقتلها ؟ هراء ولي زمانك ، وجاء الان زمانها .. وفي هذا نهايتك » .

وسار رجلا الميليشيا بالمجرم ، وركبت التيناي حصان ديوشين وعند النهر قال لها :

– « ستذهبين للدراسة في المدينة يا التيناي ، لقد قبلوا .. انزلي من الفرس واغتسلي ساذهب بعيدا .. انسي كل ما وقع سيخفف الاستحمام عنك » .

ونزلت التيناي الى الماء ، أحست انها تتطهر :

– « أحمل ايها الماء معك ضر وندس هذه الايام . اجعلني نقية مثلك ايها الماء » .

وفي المحطة اخذ القطار يتحرك .

– وداعا يا التيناى وداعا يا نوري . تعلمي . تعلمي .

– وداعا يا معلم . وداعا يا معلمي العزيز .

واندفع القطار واندفع معه ديوشين يصيح صيحته الاخيرة :

– التيناى التينا . . . ي .

صاح وكأنه نسي ان يقول لها شيئا مهما جدا ، رغم انه كان يعرف ان الاوان قد فات .
وما زالت تلك الصرخة الصادرة من صميم القلب ، من اعماق الروح ، تدفع التيناى في
دراستها حتى اصبحت اكاديمية .

ولم يلتقيا بعد ابدا .

يدا ايتمانوف في المعلم الاول اكثر غوصا في اعماق النفس البشرية . واكتسبت لغته
غنى وتلونا ، واكثر استخدامه للمونولوج الداخلي الهامس وكأنه يسر للقارئ بسر
شخصي ، وطرح بعض الاستطرادات التي كان يلجأ اليها في قصصه الاولى محافظا على
الخط الدرامي ، متلعبا بالزمن في قوة واقتدار .



في روايته الخامسة « ارض الام » يصل تصوير فجيعه ام فقدت اولادها وزوجها فسي
الحرب الى شمولية غنائية تتجاوز الزمان والمكان ، ان تولغوناي الفلاحة القرغيزية العجوز
لم تتحطم ولم تنحن انها راحيل التي بكت اولادها وترفض ان تتعزى ، ولكنها راحيل
الصديقة التي وعدت الاسباب ، والتي تثور فيها قوة عجيبة ، قوة محاربة الشر ، تدافع
حُبها وحزنها عن حق نساء العالم كلهن بان يكن امهات سعيدات .

قمة المساة في هذه الرواية هو ذلك المشهد عندما تنتظر تولغوناي ابنتها المحبوبة
« ماسالبيك » القادم من سيبيريا في طريقه الى الجبهة في قطار عسكري ، فبعد ما يقارب
يوما كاملا من الانتظار على الرصيف تسمع الام صوت ابنتها من قطار مر امام المحطة وهو
يصرخ « ماما » .

ماسالبيك قريب جدا « نفشت الريح شعره ، واطراف معطفه تضرب كأجنحة الطير ،
وعلى وجهه وفي عيونه فرح وحرقة واسف ووداع » . لقد ذهب ابنتها الذي لن يعود اما
تولغوناي فقد ودعته بأن ضمت القضببان الحديدية الباردة .

وتتوجه تولغوناي الى الحقل الحبيب ، الى الارض المرصعة :

« – قولي لي ، ايتها الارض الحبيبة ، متى ، وفي اية ازمان قاست الام وتعذبست
هكذا ؟ »

– لست ادري يا تولغوناي – هذه هي الحرب التي لم يعرف العالم في عصرك مثيلا لها .

– اذن فلاكن انا آخر ام تنتظر ابنتها هكذا ، لا قدر الله ان يضم احد القضببان الحديدية

وان يضرب رأسه بالعوارض الخشبية » .

انها تحني رأسها امام امجاد ابنائها بكرامة ، ولكنه مجد مر .

« لا يستطيع اي مجد ان يعوضه لي حيا ، ليسألوا اي ام . » ليست هناك ام تحلم
بمثل هذا المجد . الامهات يلدن الاطفال من اجل الحياة ، من اجل السعادة الارضية .



ثم اصدر ايتماتوف مجموعته الشهيرة « قصص الجبال والسهول » هتف الجميع : ان
غوركي مالفا وماكار تشودرا ورادا بمتشرديه وغجربيه يستفيق مع ايتماتوف ويكتسب
بعدا جديدا . هؤلاء الابطال الذين وجدوا ذواتهم او اضاعوها ، يخوضون في صراع
البناء وصراع الخلفيات الفكرية والطبقية والاخلاقية المتباينة . لقد صور ايتماتوف
بضربات ريشة حادة المحاسن والمساوي ، النفوس الابية والوضيعة ، التفاني والانتهازية
الابداع والبيروقراطية وبعيدا عن الابيض والاسود ، وبعيدا عن « الفرح المزيف والميلودراما
التافهة اللذين سادا اكثر المؤلفات في عهد عبادة الشخصية ، شق ايتماتوف للواقعية طريقا
بكرا غنيا كان يحلم به غوركي : ايقاع الحاضر الملحمي مع آفاق المستقبل القلق ، الحكمة
لا السذاجة ، الرومانسية الشعرية العميقة المحبة للحياة والمقاتلة في سبيلها ، لا
الرومانسية الشعارية المسطحة بالعواطف المشاعة الفارغة . ونال ايتماتوف على مجموعته
هذه جائزة لينين عام ١٩٦٣ .



بعد ثلاث سنوات ظهرت رواية ايتماتوف العظيمة « وداعا يا غولساري » التي اثار
عاصفة عالمية من النقد ، واتفق الكثير بين مؤيد ومعارض انها خير ما كتب الجيل الثاني
في الادب السوفييتي .

وداعا يا غولساري نقد صارم عنيف للانتهازية البيروقراطية التي تتمتع بسلطة مؤثرة ،
والتي تعتصر العاملين المتفانين في سبيل المثل التي عاشوا لها ، لتنفيذ خطط مستحيلية
تعهدت بها امام الحزب والدولة ، وجعلت العاملين ، بالمداهنة والكلمات الحماسية
الفارغة ، يتعهدون بها بعد ان وعدتهم بالمعدات والالات والايثية والاعلاف . وهكذا تركتهم
امام جبروت الطبيعة ، وقسوة الصقيع دون ان تقي باية التزامات ، والنتيجة طبعا كارثة .
البيروقراطية تعتصر قائض العمل والعاملون الابطال يجوعون . ثم يتهمون لعدم تنفيذهم
الخطط بشرفهم وايمانهم بالقضية ، وقد تصل الاتهامات الى درجة الخيانة . ولكنهم لا
ينحنون . يقاومون بكل قوتهم كما قاوموا الاعداء الخارجيين ، وقد لا ينتصرون ، ولكنهم
مؤمنون بان القضية اكبر من كل هذا الجهاز الذي نما متسلقا كالبلابل على جذع الثورة
في ظل عبادة الشخصية .

تاناياي من ارائل الشيوعيين في القرية ، كان شجاعا وصارما كالسيف في وجه
الاعداء ، حتى انه نزع ملكية اخيه الصغيرة ، وعندما قامت الحرب ، مكث في الجيش ست
سنوات ، وحارب في جبهات متعددة ، وجرح مرارا ولكنه ظل حيا حتى النصر .

عاد الجندي الاول تاناياي الى قريته « حسنا لقد انتصرنا على الاعداء ، والان ينبغي ان
نعيش » . « ان الماضي كله كان قد قدم ضمانا لكي يمكن الان ، وبعد كل شيء ، بدء تلك

الحياة الحقيقية التي نشدوها طيلة هذا الوقت ، والتي من أجلها انتصروا واستشهدوا في الحرب ٠٠ ولكنه اتضح ان تاناياي كان مستعجلا ، مستعجلا جدا » ٠

استقبله صديقه القديم تشورو رئيس الكولخوز الشيوعي القديم والطيب والمريض بالقلب ٠٠ حسنا ٠٠ الآن انت تعمل بالحدادة ، تطرق الحديد كل يوم ٠٠ هذا عمل طيب ٠٠ ولكن الشيوخ الرعاة في الجبال يتجمعون من البرد ويقولون : حسنا لقد انتصرتنا ، وعاد الجنود فأين هم لرعي القطعان ٠٠ لا احد يا صديقي يريد الذهاب ، وانت طليعي ، فاقبل العمل في رعي الخيول ٠ وعند ذلك لن يتملص الشبان من الذهاب ٠

وذهب تاناياي الى الجبال ، لا مأوى للخيول ، سوى وحدة شبه محمية من العواصف ٠٠ لا علف كافيا ٠٠ وعاش في الخيمة المثقوبة التي ترقعها زوجته كل يوم مع ابنائه ، وهناك التقى بالمعادل الرمزي لحياته الجسور : وهو الحصان الرهوان « غولساري » ٠ ليس هناك بحدود قراءاتي ، وحتى عند شولوخوف ، وصف للحصان بمثل هذه الروعة ، التجربة الطويلة والحب العارم ساعدها هنا ، انه لكي يصف الكاتب حصانا بكل هذه الحميمية والدقة والغنى يجب ان يصاحبه كالبديوي او الفارس ، ولكنه يجب ان يكون حصانا حقا ورهوانا ايضا ، ليفكر كما فكر « غولساري » وليشعر كما شعر « انه لم يسمع قط عواء الذئب ، واستشعر كيف تجمد كل شيء في نفسه ، في لحظة ، وتختثر ، وتخشب من فرط رعبه كما لو ان شبحا ما انبطح في الظلمة على الثلج » ٠

« وهيمن الرعب على الحصان ٠ فشب مرة اخرى ، واخرى ٠ كانت انشمس تلوح مرة بعد اخرى في عينيه على نحو مضجر مزعج ، منشالة من دوائر حارة ٠٠ لم تعد تصهل وتقفز وتتواثب في الجبال ، بل جعلت الجبال ، والارض ، والناس تهوى منتكسة على ظهورها ، وما عثم ان اغلق العيدين برهة فراغ اسود مرعب ، ما لبث الحصان ان انهد يدقه بقائمتيه الاماميتين » ٠

ان مشاهد ترويض « غولساري » و « السباق » ولعبة « المان بايغا » وهي صراع بين الفرسان على اقتناص عنز مذبوحة ٠٠ من اروع مشاهد الادب ، بما فيها من نضارة وفتوة وتلوين وحس ، ولقد اطلق ايتماتوف اللغة من عقالها كما اطلق « غولساري » فأخذت تخط طريقها بين الريح والانبواء ، وصراخ الفرسان ، وغيوم الغبار ، ورجع الحواقر ، لتثبت اي غنى يمكن ان تفجره الواقعية عندما تدق ايقاعها الكوني ، وحين تتجاوز المعاش الى الممكن راسمة خطا ناريا محرقا في العصب والعرق ، متجاوزة مسافات الزمان والمكان ٠٠ هذا هو الادب الخالد ٠

« غولساري » الرمز المعادل لتاناياي الانسان الصلب الحر ، الشموس ٠ ففي نفس الوقت الذي تنفق فيه الخيول من العواصف والذئاب والجوع ، في الوقت الذي اخذ يدق فيه تاناياي طاولة تشورو ويصبح :

... لا تنظر الي بهذا الشكل ٠٠ لست بالفاشي امامك ، اين العنابر للقطعان ، اين العلف ، اين الشوفان ، اين الملح ؟ بالريح وحدها نعيش ، او هكذا اوصينا ان ندبر امورنا الاقتصادية ؟ الا ترى باية اسمال اسير انا ، انظر الى مساكننا تعال لتعرف كيف نعيش اننا حتى الخبز لا نشبع ، وحتى في الجبهة كان الحال افضل بمئة مرة مما نحن عليه الان ٠

ويرخي تشورو الطيب رأسه ، ويعصر قلبه الضعيف ، ويقرر ان يستقيل من رئاسته الكولخوز ليعمل رئيسا للمنظمة الحزبية ، انه مسنن في الآلة الكبيرة وليس يدري ما يعمل ٠

ويأتي الرئيس الجديد نظراته مائلة ٠٠ كلماته كلها سطوة ٠ الوعد والوعيد ٠ الشعارات المحفوظة والتهديد المبطن ٠٠ ولكن تاناياي اخذ يواصل الدق على الطاولة ٠ في هذا الوقت بالذات اخذ منه الرهوان « غولساري » الحصان الشهير الذي ربح السباق ، وقهر الفرسان في لعبة « المان بايغا » والذي خلق ليخصب الافراس حتى تلد مهورا حرة وقوية واصيلة ٠٠ اخذ ليصبح مركوبا نليلا للرئيس ٠

ويرفض تاناياي بشدة في بادئ الامر ويقول المبعوث مؤنبا :

« - ولكن كيف يا تاناياي ؟ انه الرئيس - انه امرنا ويتوجب علينا احترامه انه يسافر الى المركز المنطقي ، ويجيء الناس اليه ٠ ان الرئيس بارز دائما امام انظار الناس ، ان صح القول ٠

وتصرخ زوجته غايدار :

- اعقل اعقل ٠ اخفض يديك ٠ اغولساري حصانك الخاص ؟ ما هو ملكك الشخصي هنا ، كل ما عندنا هو للكولخوز ، والحصان كولخوزي ايضا ، اما الرئيس فهو سيد الكولخوز ، فكما يقول فكذلك سيكون » ٠

ويؤخذ غولساري ليوضع عليه سرج مخلي ومسندة للظهر ، ولكنه يحرم السسواس النوم (لاحظوا المضمون الرمزي) ويهرب الى القطيع مرتين ٠٠ الى الحرية الى الحب ، وفي المرة الثالثة هرب الى القطيع وانطرح امامه مدمى ونظر تاناياي اليه : لقد كان قفل حديدي همجي يضم كاحليه ، والدماء تنزف منه ٠ وحطم تاناياي القيد وصرخ بالسواس الذين اتوا لاعادته :

- خذوه ٠٠ اما هذا القيد الحديدي القفلي فاعطوه الى رئيسكم وقولوا له : ان تجربا مرة اخرى على تقييد الرهوان ، فاني ساحطمن رأسه بهذا القيد ٠

وذات يوم خصوا الحصان الرهوان « غولساري » ٠



وفي اللجنة المنطقية يطلب تشورو من صديقه ، بعد ان اقنعه بالتحول الى رعاية الغنم، لانها فرع متأخر ، ولانه افضل للرعاة - ان يتعهد بان يسلم الكولخوز مئة وعشرة حملان من كل مئة نعجة ٠٠ ويحتج ناتاياي :

« - كيف سأقول هذا ، ان لم اكن قد رأيت قطيع الغنم البتة ؟

ويقول المنطقي ٠

- امشكلة هذه ؟ تصور ماذا يقول ٠٠ قطيع الغنم ستتسلمه ٠ وقل ايضا انك ستختار للتدريب تحت رئاستك اثنين من الرعاة الكومسوموليين الشبان ، اشيم ويكتاي ٠

- كيف ٠٠ ان لم اكن قد تحدثت معها مطلقا ؟ ثم كيف سيتطران الى الامر ؟

- اطرح ما يخلصك انت ٠ الامر مقرر سلفا ٠

– حسنا ، قال تاناياي بسخرية مستاءة اذا كان مقررا فعلام اجراء الحديث معي ؟
ومضى *

امسك به تشورو – هل تذكرت كى شيء ؟

– حفظت .. حفظت .. ومضى منفعلًا متوترا *

بالطبع لم يعطوه سوى « بكتاي » الشرس ، واخذ بكتاي يرتحل كثيرا ثم ترك العمل في ريعانه ، وجاء الربيع وقرب موسم التوالد ، وكالعادة كانت الاغنام بلا مأوى ولا علف كاف ، وكانت الولادة مباركة ولكن الموت كان أكثر بركة ، وتشققت اطراف تاناياي وزوجته واولاده وتقرحت عيونهم وهم يحاولون انقاذ القطيع *

وذات يوم جاء « غولساري » يحمم وعلى متنه مفتش المنطقية وتشورو .. الله الله يا غولساري عرف صاحبه القديم *

– « احم – تفضلوا لقد وصلتكم اخيرا » بدأ يفكر بتشف .. هنا كان يمكنه ان يجسأر بالشكوى ، وان يفرج عن نفسه بالبكاء ، ولكن لا لن يئن .. دعهم يخلجوا « .. دعهم يتضرجوا استشعارا بالخزي .. رموه للموت ومع ذلك هم قادمون *

نظر المفتش الى الحملان النافقة دون ان يحيي تاناياي وانفجر :

– يا لها من شناعة .. في كل مكان مثل هذا الامر .. لماذا هكذا ايها الرفيق كيف انت راع شيوعي ، وحملانك تنفق ؟

– اما هي ، الحملان ، فعلى الارجح ، لا تعرف انني شيوعي *

قالها تاناياي ساخرا لاذعا ، وفجأة ، وعلى حين غرة ، كما لو ان نابضا انكسر فيه ، فجعلت روحه تقفز *

– هل تقبلت الالتزامات الاشتراكية ؟

– تقبلت *

– ما الذي قيسل هناك ؟

– لا اذكر *

– ولهذا تنفق عندك الحملان .. ونهض بالركاب متشجعا بامكانية تعليم هذا الراعسي الوقح ، وصب نغمته اولا على تشورو الذي لا يربي شيوعيه جيدا ثم التفت الى تاناياي *

– انك لمؤذ ، انك تقضي على ثروة الكولخوز ، انت عدو للشعب ، في السجن مكانك وليس في الحزب .. انك تسخر من المسابقة الاشتراكية وتستهنىء بها *

نظر تاناياي الى تشورو وصرخ :

– لماذا جئت ؟ اسالك انت بالذات .. لتقول لي ان الحملان نفقت ؟ هذا اعرفه .. لتقول لي انني كنت احمق كل حياتي عندما بذلت روحي للكولخوز ؟ اليك عني .. ودفعه بيده – لا يصقن على كل التزاماتي ، على كل حياتي .. ان مكاني السجن ، لماذا جئتني بهذا السيد

الجديد في المعطف الجلد ، الاجل ان يستهزئ بي .. عجل ايها الرغد والى بي في السجن .. »

وانخطف تاناياي الى المذارى وامسك بواحدة وهجم على المفتش الذي كاد يموت رعبا ، وتلقى الضربات عنه ، قبل ان يلوذ وتشورو بالفرار ، الرهوان الصديق « غولساري » .

وفي اليوم التالي حوكم تاناياي فلم يقر بذنبه ، ودافع عنه عضو الكومسومول فقط . (رمز المستقبل) ، اما تشورو الطيب فقد صمت . وهكذا .. لآدميته وسجله ، اكتفى بطرده من الحزب وسئل :

« ايها الرفيق باكاسوف ما الذي ستقوله عن اثمك ؟ »

« لا شيء .. اذا كنت وساطل مؤذيا ، عدوا للشعب .. فعلام اذن معرفة ما افكر به انما ؟ »

ومضى .

« الى اين .. صرخوا به ، سلم بطاقتك الحزبية . »

وران الصمت ، وبحث طويلا ، « كان يحملها في حزام عبر كتفه ، واخيرا اخرجها من هناك ، وادرك البطاقة الحزبية مدفأة من حرارة صدره وانفاسه ، ووضعها دافئة مشبعة برائحة بدنه ، ووضعها على الطاولة الباردة المصقولة جيدا ، وتقلص اثر ذلك حتى صار يشعر بالبرودة » .

وهكذا خصي « غولساري » مرة اخرى .

ولحقه تشورو .. يا صديقي الشيوعي .. ولكن تاناياي نهره :

« لست صديقا لك ، ناهيك من ان اكون شيوعيا ، اما انت فمنذ زمن بعيد لم تعد شيوعيا .. انك تتظاهر .. »

« هل انت جاد فيما تقول ؟ »

« بالطبع جاد ، فانا لم اتعلم بعد انتقاء الكلمات . اذهب : طريقك يمتد باستقامة وطريقي ينحرف جانبا » .

سار وترك تشورو شاحبا يقبض بيديه على قلبه . ركب تشورو حصانه بصعوبة وسار نحو المركز الحزبي ، وامر بجمع الناس . انه يريد ان يقص عليهم كيف ظلم تاناياي وامثاله . ولما اجتمع الناس لم يمهلهم المرض ، ونقل وهى يسأل عن صديقه . ومات موصيا بان يسلم تاناياي بالذات هويته الحزبية الى المركز كاوثق شيوعي بالنسبة له .

ان غولساري الرهوان « لم يبق فيه سوى التحرق الشديد للركض ، اما الاشياء الاخرى ، فقد ماتت كلها عنده منذ زمن طويل ، اما توها فيه لكي لا يعرف سوى السرج والطريق . وكان غولساري يحيا بهذا الركض ويعيش » . اما تاناياي فلم يستطيعوا اخضاعه ، ان ما يحرز من تقدم هو من صنع يديه ، لقد وضعوه على الهامش ، واشعروه بالغرابة ، ولكنه ظل يقاوم ، وعندما تغير جيل وعرض عليه من جديد استعادة عضويته كان قد شاخ وهم هو وغولساري معا . وهما يسيران في عمق السهوب الشتائي ..

« غولساري » يحتضر وتاناياي يناجيه ويتذكر . وكان المونولوج هو البناء الدرامي للرواية . واخيرا يدفن تاناياي حصانه الحبيب والدموع في عينيه قائلا : « وداعا يا غولساري » ، وكأنه يودع بذلك حياته ذاتها .

ومنحت هذه الرواية فورا جائزة الدولة ولقب ايتماتوف بأديب الشعب السوفييتي



اخيرا سنقف قليلا عند قصته الجديدة « السفينة البيضاء » التي اعترف الجميع انها تعبير واضح عن دياليكتيكية التصورات الشعبية حول الخير والجمال . وحول الاسس الاخلاقية للشخصية الانسانية .

دارت حولها مناقشات حية ، اعترض الكثيرون على نهايتها اليائسة التي يعبر عنها موت الطفل بطل القصة . وانتظر ايتماتوف ثم رد على ذلك بمقال شهير بعنوان « تدقيق لا بد منه » .

علق على الكلام المكرر بأن « الفن يجب ان يدعو الناس للفرح والتفاؤل » بقوله : « ولكن من الصحيح ايضا ان الفن يجب ان يوصل الانسان الى تأملات عميقة . وهزات شديدة . وان يؤثر لديه احساس عنيقة من الالم والاحتجاج ضد الشر . يجب ان يعطيه المحبة للحسرة والحزن والتعطش لتثبيت وحماية الافضل في الحياة الذي يداس وينتهك » . يدعم ايتماتوف فكرة عدم التطابق دائما بين « اليأس » في الفن و« اليأس » في الحياة بأمثلة واضحة من الادب الكلاسيكي :

« ما هو صوت جولبيت من وجهة نظر الحياة ؟ انه اليأس . انه انتحار النفس الضعيفة . وما هو صوت جولبيت في الفن ؟ يبدو لك انه الشئ نفسه . ولكن هذا « اليأس » يمتلك بفضل ريشة شكسبير قوة هائلة للفعل المعاكس – انه القوة . انه عدم الخضوع ، انه عدم المساومة ، وهو في نفس الوقت حب وكره ، تحد واخلاص . وهو في نهاية المطاف تأكيد للشخصية كان ثمنه الحياة » .

ويختتم ايتماتوف « اجل ، يقتل الطفل ، لكن التفوق الروحي والاخلاقي يظل الى جانبه . و « انتصار الشر » هنا خيالي وعابر ، فالنصر ليس للشريير اوزوكول . النهاية غير الشكلانية من « المنتصر » ومن « المهزوم » ، تحمل في القص اهمية حاسمة بالنسبة للفن . اما النصر الحقيقي فيمكن في النتيجة الفكرية الختامية « المهم ان يكون القارئ قادرا على القتال من اجل تلك الحقيقة التي لم يستطع الابطال الادبيون – لاسباب مختلفة – تاركها فعليا » .

صدرت لجنكين ايتماتوف روايات اخرى لم اقرأها بعد وهي « الكلب المبعق يركض نحو البحر » ، و « ماناس » وغيرها . ان طريقه الابداعي لا يزال في اوله ، وهو قادر على العطاء . ولا شك انه اغنى الواقعية الاشتراكية وعمقها وفتح لها طرقا وافاقا ابعد . انه ينظر الى الواقعية بمنظار شمولي « الواقعية الاشتراكية قبل كل شيء هو ادراك عميق لظواهر الواقع الطبيعي ولجوهر الصراعات والصدمات في الحياة المحددة ، وهي ايضا الاقتراب الاقصى من انسان محدد . وهذا الاقتراب مبني على اساس الفهم الانساني الحقيقي لشخصية الانسان وقيمه الذاتية ، ومهمته التاريخية الرفيعة .

وتتطلب الواقعية من الكاتب موقفا وطنيا فعالا ورؤية تقديمية تسمح له باستشفاف النزعة قبل ان تتحول الى ظاهرة ، وبالتعبير عن علاقته بها ، ان مغزى الفن ، كما يقول تولستوي هو توحيد بني البشر . هذه المعادلة ، اذ تغتني بمضمون اجتماعي معين ، تساهم اليوم بصورة كاملة في الجدل المبدئي الايديولوجي للقرن العشرين بين الواقعية من جهة ، والحداثة التي يعتبر الاغتراب جوهرها واصلها ، من جهة اخرى « (٢) .

ويساعد ايتماتوف على تصور حياة ابطاله الداخلية نزعته الى اقتناص اللحظات الطفولية في النفس البشرية « انا على يقين بان الانسان يجب ان يحفظ افضل ما فيه عن الطبيعة » . « لئن رغبتنا بالتحديق مليا في الطفولة فربما سنعاني شعورا مذهلا بالخلود » . « المحافظة على الطفل في الانسان ليست على الاطلاق خيالا او وهما لطيف مجرد ، بل شرطا ضروريا للحياة الكريمة القادمة ، فالطفولة ، برأبي مرادف دائم لشاعرية الروح الانسانية ، للابداع وحقيقة الالهام » . ويرتفع ايتماتوف بالطفولة الى معنى انساني شمولي ليكسبها قوة التجريد مع المحافظة على خصوصيتها ، كما فعل بالطفل في « السفينة البيضاء » انه رمز المستقبل الذي يحاول الاشرار والوصوليون عديمو الشرف ان يقتلوه . وكان موته تحذيرا رهيبا ودعوة للنضال ضد هؤلاء الطفيليين .

ان ايتماتوف ليس وصافا للحياة وانما هو شاعرها ، لا يهتم بالاحداث العادية اليومية ، وانما يحشر ابطاله في ظروف غير عادية لاثبات جدارتهم ، او انهيارهم ، ليتجاوزوا ذواتهم وينتصرون او العكس . يبحث في قواهم الداخلية لكي يعيشوا « الحياة الكاملة » وما هي هذه الحياة الكاملة ؟ « معناها ان تعاني تلك الاحاسيس غير العادية والانطباعات التي تشكل الجوهر المكون للحياة الحقّة » .

دوستويفسكي حاول ان يفعل ذلك ، ولكن اكثر ابطاله كانوا عن مثقفي س كان المدن ، فمن هم ابطال ايتماتوف ؟ « الكاندون » الكرامة التي يجسدها هؤلاء الخلاقون الارضيون الذين يحلمون بالعدالة الاجتماعية والمساعدة للجميع . ان جموح هذا الحلم الذي اصبح مغزى الحياة ، يجعل الانسان العادي مساويا (يقصد في غناه الروحي) لذلك الذي يكتشف النجوم . وايتماتوف يبحث دوما عن البطل النائم في الانسان . كما كان يفعل « اكسوبري » . ويكره العادية ويدينها . فالعادي هو الانسان المنغلق على نفسه في معارك القرن العشرين الهائلة ، الغارق في اهتماماته ومصالحه الخاصة التي تشكل في النهاية تعبيرا عن الانانية الاجتماعية « لهذا تراني أقدر في البطل اكثر من اي شيء اخر ، شعور العزة والاباء والطموح الى الحرية الداخلية ، ان تأكيد هذه المبادئ يمكن ان يتطلب من البطل اعظم تضحية » . ويقترب ايتماتوف بهذه الكلمات اقترابا كبيرا من آراء غوركي في الرومانسية الثورية ، ولكنه يعطيها بعدا جديدا . فابطاله سوفيينيتيون بنوا الثورة ، وهم اولاد الثورة بانجازاتها واحباطاتها ، ومن هنا جدة طرحه .

(١) في الحديث الذي اجراه كوركين مراسل « المجلة الادبية » . ملحق الثورة السورية الثقافي ، العدد ٤٧ تاريخ ١٩٧٦/٧/١ ، ترجمة نوفل نيوف .

(٢) المصدر نفسه ، والاستشهادات التي تليه .

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفل

الرقم	تاريخ العملية	موقعها	نوع العملية	السلح	خسائر العدو	خسائر الثورة	خسائر العدو المدنية	خسائر الثورة المدنية	الرقم	التاريخ
١	٧٨/١٢/١٧	رمات خان - موكف - باصات جود الامو .	تفجير	عبوات ناسفة - موقوتة	قتيل	غير محدد	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	٧٨/١٢/١٧	٧٨/١٢/١٧
٢	٧٨/١٢/١١	تل ابيب - احد المباني الحكومية الواقعة في شارع العمل .	تفجير	عبوات ناسفة - موقوتة	غير محدد	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	٧٨/١٢/١٧	٧٨/١٢/١٧	
٣	٧٨/١٢/١٧	صبايا القدس - الضيق اليهودي .	تفجير	عبوات ناسفة - موقوتة	غير محدد	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	٧٨/١٢/١٧	٧٨/١٢/١٧	
٤	٧٨/١٢/١٧	القدس - احد باصات شركة ايجد .	تفجير	عبوات ناسفة - موقوتة	غير محدد	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	٧٨/١٢/١٧	٧٨/١٢/١٧	
٥	٧٨/١٢/١٧	صبايا القدس - احد باصات شركة ايجد .	تفجير	عبوات ناسفة - موقوتة	غير محدد	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	٧٨/١٢/١٧	٧٨/١٢/١٧	
٦	٧٨/١٢/١١	مستوطنة غوش عيشيون .	تصف	مواد ناسفة	غير محدد	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	٧٨/١٢/١١	٧٨/١٢/١١	
٧	٧٨/١٢/٢٠	القدس - تصف لفراد مجرم	قتل	قتل ورجح سبية من افراد	غير محدد	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	القطر المساروق بين خبير - العجرات .	٧٨/١٢/٢٠	٧٨/١٢/٢٠	

لمبينة من ١٧/١٢/١٩٧٨ - ٣/٢/١٩٧٩

الرقم	التاريخ	الموقع	الطعام
٩ -	٧٨/١٢/٢١	مورينج ثقيلة	كربات شمونه - الرابح قصف المسكرة .
١٠ -	٧٨/١٢/٢١	مورينج ثقيلة	كربات شمونه - مورالغ قصف اللقمية .
١١ -	٧٨/١٢/٢٧	عيرات تامسة	الله - مورير ماركات تابع تقبير الوراث الصيغ .
١٢ -	٧٨/١٢/٢٨	سلاح فردي	المطيرة - سسيارة هجوم عسكرة .
١٣ -	٧٨/١٢/٢٨	عيرات تامسة	القدس - المورير ماركات تقبير الرابح في اللقمة الفرسية .
١٤ -	٧٨/١٢/٢١	عيرات تامسة	طل ابيب - مطفل احمد تقبير الحلات التجارية .
١٥ -	٧٨/١٢/٢١	قتال حارة	قبرة - احمد بامسات هجوم شركة الجيد .
١٦ -	٧٨/١٢/٢١	عيرات تامسة	بقر السبع - مطفل ميتشا تقبير كسرة .

٧٨/ ١/ ٥	٧٨/ ٣	- - -	امانة خيمر القهوجرات - بجراج خيمرة .	(١)	-	ميرات تاسفة حارية	تغيير الرقمية للبيوت .	٧٨٥	٧٨/ ١/ ٥	- ٢١٧
٧٨/ ١/ ٨	٧٨/ ٤	- - -	امانة اللين من جبرس الكفن . قديم جزء من الكنز والسجلات الورقية المانه .	(٢)	-	ميرات تاسفة حارية	تغيير موتورن - سيارة خاسطة مطارات .	٢٠٠	٧٨/ ١/ ٧	- ٨٨
٧٨/ ١/ ٨	٧٨/ ٥	- - -	الكتفت الجسوة وشم تغييرا بيضا .	-	-	ميرات تاسفة موتوية	تغيير محطة القطارات الركوية .	١٢٠٠	٧٨/ ١/ ٧	- ١٩
٧٨/ ١/ ٢٤	٧٨/ ٦	- - -	املاع اللوزان في اللين والحراق جزء من محتويات .	-	-	تابل حارية	تغيير الحاكم محرم الاشكوي .	١٨٢٠	٧٨/ ١/ ٢٢	- ٢٠
٧٨/ ١/ ١٥	٧٨/ ٧	- - -	امانة عدد من السواد المر بيمسج بالغة . احراق كامل محتويات المزدهسات والمسام المنج كذا .	غيرمحدد	-	ميرات تاسفة حارية	تغيير مستودعات مصنع الكيماويات .	٦٠٠	٧٨/ ١/ ١٥	- ٢١
٧٨/ ١/ ٢١	٧٨/ ٨	- - -	الكتفت الميروات وشم تغييرا .	-	-	ميرات تاسفة موتوية	تغيير القلم - قلم بيروسيما قلمه و الناصفة .	٨٢٥	٧٨/ ١/ ٢١	- ٢٢
٧٨/ ١/ ٢١	٧٨/ ٩	- - -	قل ورجح اربعين مسن ازراء المرور . تغيير اجزاء كثيرة من الحراوت وتحم زجاج ووزالسة البوت وتصدع جدران مطبخا . تحليل صبغة الكوبياء في السروق . امثال عدد من سيارات المر المسكوية والرقية التراجدة لمر حكان الانتجار .	-	-	ميرات تاسفة موتوية	تغيير سوق مخمس بيوتا .	١٠٤٥	٧٨/ ١/ ٢١	- ٢٣
٧٨/ ١/ ٢١	٧٨/ ١٠	- - -	كتيب المرر خسانك بطرية وإابية .	غيرمحدد	غيرمحدد	ميرات تاسفة موتوية	تغيير احد الصلح للخيارية في خسانك موتيل .	٢٠٠٠	٧٨/ ١/ ٢١	- ٢٤

مجموعة روج التين .

٧٩/ ١/١٩	٧٩/١٢	- - -	خسائر جسيمة بالأرداع - والسلطات .	غير معدة	موازيق ثقيلة	فصل	كليات شموية - المسكونية .	١٨٠٠٠	٧٩/ ١/١٩	٢٦
٧٩/ ١/٢٠	٧٩/١٣	- - -	تجميع المرصع جدران مائية - ويطوية كثيرة .	غير معدة	موازيق ثقيلة	فصل	تجاريا وكان جداري - الأهداف المسكونية .	١٨٠٠٠	٧٩/ ١/١٩	٢٧
٧٩/ ١/٢٨	٧٩/١٤	- - -	تجميع وأحراق عدد من العزل التجارية - اعطالي عدد من السيارات . تجميع زجاج سطل الأتربة الخارجية .	(٥٥)	جدران مائية موقرية	تجميع	السوق المركزي - تأثريا -	١٧٢٠٠	٧٩/ ١/٢٨	٢٨
٧٩/ ١/٢٨	٧٩/١٥	- - -	تجميع شقة خاويط - الخانات - جرح عدد غير معدة من الترابيين داخل الحقة - اصابعه مقتلن في نفس المكان .	غير معدة	جدران مائية موقرية	تجميع	رطبون لتسيب - شقة أحد شحاته مخازنات المرصع .	٢٠٠٠	٧٩/ ١/٢٨	٢٩
٧٩/ ٢/ ١	٧٩/١٦	- - -	تجميع أجزاء كثيرة مسنن الكعب والاعلاف جميع مقويات .	- - -	جدران مائية موقرية	تجميع	جبن - مكتب العمل .	٧٢٠٠	٧٩/ ١/٢١	٣٠
٧٩/ ٢/ ٤	٧٩/١٧	- - -	اصابع عدد من السواد - المرصع بجوارح مختلفة . تجميع السيارات تجميعا تأثريا . اصابع الزبسة الوارية كائن الاقحار .	غير معدة	جدران مائية موقرية	تجميع	موتسيلا - سيارة تجميع موقرية اصابع الزبسة .	٢٩٢٠٠	٧٩/ ٢/ ٤	٣١
٧٩/ ٢/ ٤	٧٩/١٨	- - -	جرح عدد غير معدة من الزاد المرصع - تجميع أحدى الطرقات تجميعا الاعلاف وأحراق مقويات عدد من الطلق .	غير معدة	جدران مائية موقرية	تجميع	رطاب جبن - أحد الأواني المسكونية الجنية .	١٨٠٠٠	٧٩/ ٢/ ٤	٣٢
٧٩/ ١/ ١٤	٧٩/١٤	- - -	اختيار رقائق ومقويات ٣ مركبة بيت اللاتيت وقرات جيف المرصع .	غير معدة	استلحاق جدران مقويات	التصام	مناولة دوتشيا .	١٨٠٠٠	٧٩/ ١/١٢	٣٣

اعترافات العدو

- ٧٨/١٧٢ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : القيت في القدس قبل نحو ساعة
ونصف الساعة قنبلة يدوية من سور المدينة
على شارع كتيبة المظليين بجوار بوابسة
الزهريّة . وكنتيجة للانفجار اصبحت
فتاتان اسرئيليتان وسائح من بريطانيا
بجراح طفيفة في اقدامهم .
- ١١ الساعة ٢٢ر٠٠ الاربعاء
١٩٧٨/١٢/٢٠ - ص ٤١٤
العدد ١٦٥٧ .
- ٧٨/١٧٤ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : قبل نحو ساعة حصل قصف من
الاراضي اللبنانية على كريات شـمونه
واصيب عدد من سكان البلدة وانخلسوا
المستشفى (٠٠٠) .
- ١١ الساعة ٨ر٠٠ الخميس
١٩٧٨/١٢/٢١ - ص ٤٢٢
العدد ١٦٥٧ .
- ٧٨/١٧٧ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : في العفولة اطلقت النار صباح
اليوم على احد جنود جيش الدفاع
الاسرائيلي واصيب بجروح (٠٠٠) وقصد
ادخل المستشفى واجريت له عملية
جراحية .
- ١١ الساعة ١٠ر٠٠ الخميس
١٩٧٨/١٢/٢٨ - ص ٥٢٢
العدد ١٦٦٢ .
- ٧٩/٤ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : في الساعة الثانية بعد منتصف
الليلة الماضية حدث انفجار تحت سيارة
خصوصية كانت تقف في موقف « بيت
ساره » في شارع هامعبيم في حولون لكن
- ٧٨/١٦٦ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : تم صباح اليوم اكتشاف عبوة
ناسفة في شارع « جيها » في رامات جان
وقد ابطل مفعولها خبير المتفجرات (٠٠٠)
- ١١ الساعة ٨ر٠٠ الاحد
١٩٧٨/١٢/١٧ - ص ٣٠٦
العدد ١٦٥٣ .
- ٧٨/١٦٧ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : وقع انفجار شديد في شقة سكنية
في شارع هعفوداه « العمل » في تل ابيب
مذه الليلة (٠٠٠) ولم تقع اصابات لكنها
احدثت اضرارا بالغة .
- ١١ الساعة ٨ر٠٠ الاحد
١٩٧٨/١٢/١٧ - ص ٣٠٦
العدد ١٦٥٣ .
- ٧٨/١٦٩ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : انفجار في ياص في القدس ، على
الخط رقم ١٢ في شارع هئيد كار . (٠٠٠)
تشير التقارير الى ١٠ جرحى ، ٤ منهم في
هداسا .
- مستشفى شعارية تسيدك والباقون في
١١ الساعة ١٩ر٠٠ الاحد
١٩٧٨/١٢/١٧ - ص ٢٢٠
العدد ١٦٥٤ .
- ٧٨/١٧٣ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : وقع انفجار قبل نحو ساعة بالقرب
من بوابة يافا بالقدس ، وقد جرح أربعة
اشخاص انخلوا الى المستشفى في القدس
الشرقية ، وقال مراسلنا ان الانفجار وقع
امام مدخل مطعم في شارع ديفيد بالقرب
من حانوت لببيع الخضار .
- ١١ الساعة ١٣ر٠٠ الاربعاء
١٩٧٨/١٢/٢٠ - ص ٤٠٠
العدد ١٦٥٦ .

رأى الساعة ١٢ر٠٠ الاحد
١٩٧٩/١/٢١ - ص ٤٣١
العدد ١٦٨١ .

٧٩/١٤ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : من جديد يحدث الانفجار وفي هذه
المرّة في ناتانيا وبالتحديد في ميدان
« تسيون » ، للمعلومات عن المصابين ليست
وافية حتى الان فالتقارير تتحدث عن ٢٣
جريحاً بينهم اربعة اصابتهم
بالغة (٠٠٠) .

رأى الساعة ١٢ر٠٠ الاحد
١٩٧٩/١/٢٨ - العدد
١٦٨٧ .

٧٩/٢٢ حول عملية معالوت « ترشيا »
صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة :
(٠٠٠) فقد نجحت خلية « المخربين » التي
دخلت معلوت امس في البقاء داخل
الاراضي الاسرائيلية يوماً ونصف اليوم ،
حيث اكتشفت بعد ذلك ، وقد دخل
« المخربون » الجدار الامني على الحدود
الشمالية التي عبادة نقاهة تتبع كريات
حوليم في معلوت وهناك اصطدموا
بشجاعة بخلية جيش الدفاع الاسرائيلي ،
فقتلوا بعد معركة قصيرة (٠٠٠) .

رأى الساعة ٧ر٠٠ الاحد
١٩٧٩/١/١٤ - ص ٢٥٩
العدد ١٦٧٥ .

محمد قدورة

احدا لم يصب بأذى في حين منيت السيارة
ببعض الاضرار .

رأى الساعة ٨ر٠٠ الاحد
١٩٧٩ / ١ / ٧ - ص ١١٠
العدد ١٦٦٩ .

٧٩/٩ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : في سوق محني يهودا بالقدس وقع
انفجار هذا اليوم واصيب ٢١ شخصاً
بجروح طفيفة ادخل ١٩ منهم الى مستشفى
شعاريه تسيك واثنان الى مستشفى
هداسا (٠٠٠) .

رأى الساعة ١٢ر٠٠ الخميس
١٩٧٩/١/١٨ - ص ٣٧٠
العدد ١٦٧٩ .

٧٩/١٠ صرحت اذاعة العدو بالعملية
قائلة : انفجرت الليلة في حيفا عبوة
ناسفة بالقرب من الكنيس الكبير في شارع
هرتسل . ويقول مراسلنا انه لم تقع
اصابات (٠٠٠) .

رأى الساعة ٢١ر٢٦ الخميس
١٩٧٩/١/١٨ - ص ٢٨٩
العدد ١٦٨٠ .

٧٩/١٢-١٢ صرحت اذاعة العدو
بالعمليتين قائلة : كرر « المخربون » قبل
حوالي الساعة قصفهم بمدافع الكاتيوشا
على مستوطنات الشمال وهو القصف
الثاني من نوعه صباح اليوم .

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

مدير التحرير
عبد العزيز السليمان

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الاول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل اعدادها الى ايدي نحو ١٠٠.٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :

- مجموعة من الابحاث تعالج الشؤون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشؤون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - بيبلوجرافيا
- ملخصات للابحاث باللغة الانجليزية
- ثم العدد : ٤٠٠ فلسا كويتيا أو ما يعادلها في الخارج .
- الاشتراكات : للانفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا امريكيا في الخارج « بالبريد الجوي » .
- للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٥٠ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الاداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت

ص.ب : ١٧٠٧٣ (الخالدية)

هاتف : ٨١٦٨٠٧-٨١٦٧٩٩-٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

المستقبل العربي

- وحدوية ● مستقبلية
- موضوعية ● جودة
- اهتمامتها من المحيط الى الخليج
- قراءتها من المحيط الى الخليج

المستقبل العربي

هدفتها

- * وعي الوحدة العربية
- * وحدة الوعي العربي

رئيس التحرير د. انيس صايغ
تصدر عن « مركز دراسات الوحدة العربية »
(ص.ب ٦٠٠١ - ١١٢ ، بيروت)

مجلة العلوم الاجتماعية

تصدر من جامعة الكويت

فصيلة أكاديمية علمية متخصصة بالشؤون النظرية والتطبيقية في مختلف علوم الاجتماع

وتشتمل على العربية والإنجليزية

رئيس التحرير الدكتور أسعد عبد الرحمن

الاشتراكات :

للافراد سنويا ، دينار في الكويت ، ديناران كويتيان أو ما يعادها في الوطن العربي (بالبريد الجوي) ، ثلاثة دنانير أو ما يعادها في سائر أنحاء العالم (بالبريد الجوي) ، وللطلبة أسعار خاصة منخفضة .
أما الأسعار للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية في الكويت وخارجها ففتوحة بحدها الأقصى ، ولا تقل عن عشرة دنانير في حدها الأدنى .

نومبره جميع المراسلات كذا لأبحاثه باسمه بتكرير التحرير على العناوين التالية :
مجلة العلوم الاجتماعية - كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية ص.ج. ٥٤٨٦ - جامعة الكويت
الكويتية - تلفونه : ٥١٠١٨٨ / ٢٧٣ / ٢٥٠